سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٣)

تفسير
القرآن الكريم

سورة الفرقان

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة الفرقان

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الفرقان. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٨١ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٣)
ردمك: ٤ ـ ٤٧ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الفرقان ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٩

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٩
ردمك: ٤ ـ ٤٧ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لِمُؤَسَّسَةِ ٱلشَّيْخ مُحَمَّد بن صَالِح العُثَيمِين الخَيْرِيَّةِ
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مُؤَسَّسَةِ ٱلشَّيْخ مُحَمَّد بن صَالِح العُثَيمِين الخَيْرِيَّةِ
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِقِ الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما اللهُ بواسِعِ رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْعِ بتِلْكَ الجُهُودِ المُبارَكةِ فِي هَذا المَيْدَانِ العَظِيمِ باشَرَ القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ صالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراثِ العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لِعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاءِ، ويُضَاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾.

الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ. وبَعد:

تَقَدَّمَ الكَلامُ على البَسْمَلَةِ، وما أكثرَ الكَلامَ عليها في المؤلَّفات؛ لِأَنَّها تكون في كل مؤلَّف. والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ تقديره (اقْرَأْ)، ويُقَدَّر عندَ كلِّ فِعلٍ بما يُناسِبُه، فعندَ القراءةِ تقولُ: بِاسمِ اللهِ أَقرَأُ، وعندَ الأكلِ تقولُ: باسمِ اللهِ آكُل، وعندَ الشُّرْبِ تقولُ: باسمِ اللهِ أَشرَبُ، وعندَ الذَّبحِ تقولُ: باسمِ اللهِ أَذبَحُ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ الله»(١).

وقدَّروه فِعلًا، لا مصدرًا، يعني قالوا: (باسمِ الله أَقْرَأُ) ولم يقولوا: (باسمِ اللهِ قِراءتي) فيقدَّر فعلًا؛ لسَبَبين:

أوَّلًا: التَّسْمِيَة على فِعْلٍ، والفعـل يَقتضِي التجدُّد والحُدُوث، وهَـذِهِ فـائدة مَعنويَّة.

ثانيًا: لأنَّ الأَصْلَ في العَمَلِ هو الفعلُ، فَهُوَ الَّذِي يَقْوَى على أنْ يعملَ محذوفًا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠٠)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠).

وحينَئذٍ هو الَّذِي يَحسُن أن يُقدَّر دونَ الِاسم؛ لِأَنَّ عَمَلَ الاسمِ فرعٌ، ليسَ أصلًا، فاسم الفاعِلِ مثلًا يَعْمَلُ عَمَلَ فِعله لِأَنَّهُ مُشَبَّهٌ به.

وقدَّروه مؤخَّرًا، يعني قالوا: يَنبغي أن تقولَ: «باسمِ اللهِ أَقرَأُ»، لا «أقرَأُ باسمِ الله»، والسَبَبُ:

أولًا: التبرُّك بالبداءةِ بـ(باسمِ الله).

ثانيًا: إفادةُ الحَصْرِ؛ لِأَنَّ تقديمَ المعمولِ يَدُلُّ على الحَصْرِ.

وقدَّروه خاصًّا أيضًا، يعني لا تقول مثلًا عندما تُريد أن تتوضأ: (باسمِ اللهِ أَبْتَدِئُ)، وعندما تُريد أنْ تقرأَ (باسمِ اللهِ أَبْتَدِئُ)؛ لِأَنَّهُ أدلُّ على المقصود.

إذَن الجارُّ والمجرورُ متعلِّق بمحذوفٍ، يَكُون هَذَا المحذوف فِعلًا متأخِّرًا خاصًّا، والبَسْمَلَةُ كثيرًا ما تقع؛ فعندما تُريد أن تتوضأَ تقول: (بِاسمِ الله) التقدير (بِاسمِ اللهِ أَتَوَضَّأُ)، وهذا أحسنُ من أن تقدِّر (وُضُوئي بِاسْمِ الله) مثلًا، وأحسن من أن تقدِّر (بِاسْمِ اللهِ أَبْتَدِئُ) فتقدِّر الفعل الخاصَّ المتأخِّر.

أمَّا (الله) فَهُوَ عَلَمٌ على الذَّات المقدَّسة، ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَختَصُّ به، وأصله (الإِلَه)، لكِن لكثرة الاستعمالِ حَذَفوا الهمزةَ، مثلما حذفوا الهمزة في (النَّاس)، وأصلها (الأُناس)، إذَن (إِلَه) فِعَالٌ بمعنى مفعولٍ، أي مَأْلُوه، ومعنى مألوه أي معبود، فهَذِهِ اللَّفظة إذَن مُشْتَقَّة وأصلها الإله، والأُلُوهِيَّة هي العِبادَة.

وقوله: (الرَّحْمَنِ) من الأَسْماء المُخْتَصَّة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو صفة مُشَبَّهة، وإنما قدَّرناه صفةً مشبهةً لِأَنَّهُ على وزنها، مثل (فَعْلَان) على وزن (غَضْبَان)، ثُمَّ إن الصِّفة المشبَّهة تفيد الثُّبُوت والاستمرار، بخلاف اسْم الفاعل، وإنما جاءت (الرَّحمن)

بهَذِهِ الصيغة لِسَعَةِ رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبهذا فسَّره بعض العلماء بقوله: الرَّحمن ذو الرَّحمة العامَّة، والرَّحيم فَعِيل مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَة أيضًا، لَكِنَّه يُفيدُ الفعلَ، أي: إيصال الرَّحمة إلى المرحومِ، والأوَّل الرَّحمن يُفيدُ الوَصْفَ. ولهذا قالَ تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ حينما أراد الصِّفَة المطلَقة، وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حينما أراد إيصال الرَّحمةِ إلى المرحومِ.

فالحاصِلُ: أنَّ الرَّحمنَ والرَّحيمَ إذا اجتمعا يُفَسَّرُ الرَّحمنُ بأنَّه دالٌّ على الصِّفة أكثر من دَلالتِه على الفعلِ، والرَّحيم دالٌّ على الفعلِ أكْثَر من دلالته على الصِّفةِ، وإنْ كانَ كلٌّ مِنْهُما يدُلُّ على صفةِ الرَّحمةِ، هَذَا إذا اجْتَمَعَا، أمَّا إذا افْتَرَقَا فمعناهما وَاحِدٌ.

• • ۞ • •

الآية (١)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال المُفَسِّر [1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَبَارَكَ﴾ تعالَى]، ففسَّر المُفَسِّر التَّبارُكَ بالتعالي. ولا شكَّ أَنَّ هَذَا التفسير فيه نوعٌ من القُصُور؛ لِأَنَّ ﴿تَبَارَكَ﴾ تدل على التعالي بل وعلى كثرة الخير وسَعَتِه ودوامه، فمعناه أَنَّهُ كثُرتْ خيراتُه وعظُمتْ واستمرَّتْ للعِبادِ.

قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هَذَا من جُملة البَرَكَة الَّتِي هي من صفةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ نَزَّل الفُرقان على عبدِهِ محمَّدٍ ﷺ. وقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ فَعَّل تُفِيدُ النُّزُول شيئًا فشيئًا، وهكذا القُرْآن الكريم كان يَنزِلُ على النَّبيِّ ﷺ شيئًا فشيئًا، والكُتُب السابقة كانت تَنزل جُملةً وَاحِدةً؛ لقولِهِ تَعَالَى في هَذِهِ السُّورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

وقوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يفيد أَنَّ هَذَا القُرْآن كَلامُ الله.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ليس في هَذَا دليلٌ على أَنَّهُ كَلام الله؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، والماء الَّذِي هو المطرُ ليس صفةً من صفات الله، فلا يَلْزَمُ إذا قال الله: إِنَّهُ نَزَّل القُرْآن أَنْ يَكُونَ القُرْآن صفةً من صفاتِهِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يُضِيفُ التنزيلَ والإنزالَ إلى ما ليسَ من صِفَتِه؟

فالجواب عن ذلك أَنْ يُقالَ: إذا أضاف الله تَعَالَى إنزالَ شَيْءٍ إليه فإِنْ كانَ هَذَا الشَّيْءُ عَيْنًا قائمًا بذاته فليس من صفات الله، أو كان صفةً في عينٍ قائمةٍ بذاتها فليس من صفات الله، وإن كان صفةً لا يُمْكِنُ أن تقوم بعَينِها، يعني ليس عينًا قائمًا بذاتِه ولا صفةً في عين قائمةٍ بذاتها؛ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ صفةً من صفات الله، فالقُرْآنُ كَلام هل يمكن أن يَكُون الكَلام عينًا قائمةً بذاتها؟ لا يُمكِنُ، وهنا لم يُضَفْ إلى أحدٍ من النَّاس حتى نقول: إِنَّهُ صِفَة في عينٍ قائمةٍ بذاتِها، فيَلْزَم أَنْ يَكُونَ مخلوقًا كالعينِ القائمةِ به. وعلى هَذَا يَتَعَيَّن أَنْ يَكُونَ كَلامًا لله وصفةً من صفاتِهِ.

وكذلك في قَوْلِهِ: ﴿نَزَّلَ﴾ دليلٌ على صفةِ العلوِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو القُرْآنُ، وُصِفَ بذلك لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ بين الخير والشرِّ، وبينَ الحقِّ والباطِلِ، وبينَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِلِ، وأهل الخير وأهل الشرِّ، فَهُوَ فُرقان في كل شَيْءٍ، وكما أَنَّهُ فُرقان بذاتِهِ يُفرِّق فإِنَّ مَن كان من أهلِهِ ولَازَمَه وعَمِلَ به أُوتِيَ هَذِهِ الصِّفَةَ، وصار له تفريقٌ بين الحقِّ والباطل؛ لِقَوْلِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩].

قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ إذا كان القُرْآن فُرقانًا بين الحقِّ والباطلِ، وبين الخيرِ والشرِّ؛ لَزِمَ من ذلك أَنْ يَكُون بَيِّنًا واضحًا، ليسَ فيه إجمالٌ وليس فيه إشكالٌ، كيف يَلْزَمُ ذلكَ؟ لِأَنَّهُ لو كان فيه إجمالٌ أو اشتباه لم يَكُنْ فُرقانًا؛ لِأَنَّ ما ليسَ بِمُشْتَبِهٍ

كيفَ يَكُونُ فُرقانًا، فالفُرْقان يَحتاج أن يَكُونَ واضحًا موضِّحًا بيِّنًا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الله يقول: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ وهذا يَقتضي أن يَكُون فيه اشتباهٌ؟

قُلْنَا: المرادُ بالمتشابِهِ هنا الموافِق بعضُه بعضًا، والمُشْبِه بعضُه لبعضٍ في الكمال والحُسْن، فهذا من المُتَشَابِه؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، أي متوافقًا ومتشاكِلًا، هكذا القُرْآن متشابهًا، بمعنى أَنَّ بعضَه يُشْبِهُ بعضًا في الحُكْمِ ويُوافِقه ولا يُخالِفهُ، وَأَمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، فقـد بَيَّن الله أَنَّ هَـذِهِ المُحْكَمات إليها المَرْجِـع: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وإذا كنَّ أُمَّ الكِتَـاب لَزِمَ أن يُرَدَّ المتـشابِه إلى المُحْكَم، وإذا رُدَّ المُتَـشَابِهُ إلى المحكَم صار الجميع محكَمًا، وهَـذِهِ القاعـدة الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ هي الَّتِـي عليها الراسِخونَ في العِلم، وهي الَّتِي يَستريحُ بها الإنْسَانُ منْ الِاحْتِمالات؛ لِأَنَّهُ يأتينا دائمًا في القُرْآن وفي السنَّة نصوصٌ فيها احْتِمالاتٌ تَحتمِل كذا وتَحتمل كذا، وعندنا نصوصٌ أُخْرَى واضحة صريحة ليس فيها إشكالٌ، فالواجبُ علينا أنْ نَحْمِلَ هَذَا المُشْتَبِهَ على المُحْكَم، أيْ على ما يُوافِقُه ولا يُخالِفُه؛ ليَكُونَ الجميعُ مُحْكَمًا.

مثال رَدِّ المتشابِهِ إلى المحكَم:

أولًا: مثال في الخبر: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، قد يَشْتَبِهُ على الإِنْسَان أَنَّ الله تَعَالَى معنا بذاته، ولَكِن عندنا نصوصٌ محكَمَةٌ تدل على عُلُوِّ الله، وأن المَعِيَّة الذَّاتية الَّتِي يَكُون الله تَعَالَى معنا في كل مكان هَذِهِ مستحيلة، ولهذا الَّذِين في قلوبهم زَيْغٌ اتبعوا هَذَا المتشابِهَ وتركوا المحكَم، وقالوا: إن الله مَعَنا بذاتِهِ في كل مكانٍ.

ثانيًا: مثال في الحُكْم:

قال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»[(١)]، ودخل رجل يوم الجمعة وهو يخطب فجلس فقال: «أَصَلَّيْتَ؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ»[(٢)] هَذَا مُحْكَمٌ واضِحٌ بَيِّن على طلب صلاة الركعتين لكل من دخلَ المسجدَ وألَّا يجلسَ حتى يصليَ ركعتينِ، وفيه حَديث الثَّلاثَةِ الَّذِينَ جَاؤُوا والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أصحابِهِ، فأَحَدُهم جلسَ وأحدُهم دخلَ الحَلْقَة، والثالث انصرفَ[(٣)]، وليس في الحديث ما يَدُلُّ على أنَّ أحدًا منهم صَلَّى ركعتينِ، فهذا مُشْتَبِهٌ؛ لِأَنَّهُ قد يَدُلُّ على أَنَّ تحيةَ المسجدِ ليستْ مطلوبةً، لَكِننا لا يمكن أنْ نَدعَ الحديثَ المحكَمَ مِنْ أجْلِ هَذَا الاحْتِمَالِ، لاحْتِمَالِ أن هَؤُلَاءِ الرِّجالَ الثَّلاثَةَ صَلَّوْا والرَّسول ﷺ يَرَاهُم ولم يُنْكِرْ عليهم، ولاحْتِمَال أن يَكُونوا على غير وضوءٍ، ولاحْتِمَالاتٍ أُخرى، فلهذا لا نَدَعُ المحكَم مِنْ أجْل هَذَا المتشابِهِ، والأمثلةُ على هَذَا كثيرةٌ.

وقوله تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ وهَذِهِ العُبُودية أَخَصُّ العُبُودِيَّاتِ الَّتِي يُوصَف بها النَّاس؛ لِأَنَّ العبودية تَنقسِم إِلى ثلاثةِ أقسامٍ: عامَّة، وخاصَّة، وأخص:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، رقم (٤٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد، رقم (٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، رقم (٩٣١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم (٦٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم (٢١٧٦).

▪ العامَّة: هي الَّتِي تَشمَل جميع الخَلْق، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كل الخَلْق عِبَاد الله، ومنها أيضًا قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر:٤٢]، استثنى مَنِ اتَّبَعَه من عِبادِهِ.

▪ الخاصَّة: مثل قوله تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

▪ الأخَصّ: وهي عُبُـودِيَّة الرِّسَالة؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، وقوله في مُحَمَّد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، هَـٰذِهِ أخص مِنَ الأُولى؛ لِأَنَّهَا عُبُـودِيَّة خاصَّة بتكليـفٍ خاصٍّ، وهو الرِّسَالة.

ووصفُ الإنْسَان بالعبوديَّةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإضافتُه إلى اللهِ هل هَذَا تشريف أو إهانة؟

تشريف، ولا شـكَّ أنَّ له الفخرَ كلَّ الفخرِ بأنْ يَكُونَ عبـدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. حتى إن الإنْسَان ليحب أن يُنْسَب إلى عبودية غيره من بني الإنْسَان إذا كان يُحِبُّه، وفي هَذَا يقول الشاعر في مَعْشُوقَتِه(١):

لَا تَـدْعُني إِلَّا بِيَـا عَبْـدَهَا   فَإِنَّـــهُ أَشْرَفُ أَسْـــمَائِي

يعني: لا تقول: يا مُحَمَّدُ، يا بكرُ، يا خالدُ، يا عليُّ، لا، هناك اسْم أشرف عنده وهو أن تقول: يا عبدَ فُلانةَ؛ لِأَنَّهُ يَفْخَرُ أن يَكُونَ عبدًا لها.

---

(١) البيت من السريع، وأورده صاحب لطائف الإشارات (١/ ٤٩).

فالعُبُودية لله عَزَّوَجَلَّ لا شكَّ أنها مَفْخَرَةٌ للعابدِ إذا أُضيفتْ إلى الله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ القُرْآن لِأَنَّهُ فَرَّق بينَ الحقِّ والباطلِ]، وكذلك بين الخيرِ والشرِّ، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ مُحَمَّد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الإنس والجِنّ دونَ المَلائِكةِ].

قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ الضمير يعود على مُحَمَّدٍ ﷺ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٦]، فالنَّذير مُحَمَّد ﷺ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ الضمير في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ أي الفُرقان نذيرًا للعالمينَ؛ لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، فجعل الإنذارَ بالقُرْآنِ، ولَكِنْ هَذَا ليسَ براجِحٍ، بل الراجح الأوَّل.

أولًا: لِأَنَّ الضميرَ يعود إلى أقربِ مذكورٍ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكُونَ﴾ الَّذِي قبله مباشرةً: ﴿عَبْدِهِۦ﴾.

ثانيًا: أن الله وَصَفَ النَّبي ﷺ بذلك في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ العَالَمَ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإنس والجن دون الملائكة]، أَمَّا الإنسُ فظاهِرٌ، وَأَمَّا الجِنُّ فكذلك أيضًا دلَّتِ النصوص عَلَى أَنَّ النَّبي ﷺ مُرْسَلٌ إليهم.

والدليل على هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]. وكذلك النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال لهم: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ

اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لحمًا»[1]، فقيَّدَهُمْ بأحكامِ الشَّريعة.

أما الملائكة فالدليل على أَنَّهُ ليسَ رسولًا إليهم قولُ الله تَعالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، فأفادتِ الآية أن الملائكةَ يُرْسَلُ إليهم ملائكة، والنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس بِمَلَك، ويَقْتَضِي ذلك أَلَّا يكُون رسولًا إلى الملائكة، لكِن على الملائكة أن يُصَدِّقُوا به، وهم بلا شكٍّ مُصدِّقون بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولَكِنَّه ليس مَبعوثًا إليهم، ولا مكلَّفًا بتبليغِهم، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إذَنْ يَكُون قوله تَعالَى: ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ من باب العامِّ الَّذِي أُريدَ به الخاص؛ لِأَنَّ الملائكةَ مِنَ العالَمِين، كما في قولِهِ تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]، فكلُّ مَن سِوَى الله عالَم.

وقولُه: ﴿نَذِيرًا﴾ النَّذير هو المُخبِر بما يُخَوِّفُ، والبَشير المُخْبِرُ بما يَسُرُّ وعلى هَذَا يَكُون الرَّسول ﷺ مُخبِرًا بما يخوِّف، وهذا لا يُنافي أيضًا أن يكُون بَشيرًا، وقد ذكَرَ الله الحالين في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:١-٣]، فإذَنْ الِاقتصار على البِشارة أو الإنذار في مكانٍ لا يَقتضي نفيَ الثَّاني؛ لِأَنَّ الرَّسول ﷺ موصوفٌ بهذا وهذا.

لكِن إذا وَرَدَتِ البِشارةُ مُقَيَّدةً بأمرٍ مخُوفٍ مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]، فبعضهم يقول: إن هَذَا على سبيل التهكُّم بهم؛ لأَنَّهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

يُبَشَّرُونَ بالعذاب، وهو لا يبشَّر به عادةً، وبعضهم يقول: إذا قُيّد بشَيْءٍ تُقيِّد به لكِن عند الإطلاق هو في الخيرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: استدلَّ أهل السُّنَّة والجماعَة بمثل هَذِهِ الآية عَلَى أَنَّ القُرْآن كَلام الله، يُستفاد من قولِه: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أنَّ الله في السماء، ووجهُ الدلالة أو وجه الْفَائِدَة أن النزول يَكُون من عُلُوٍّ، وإذا كان الله نزَّل الفُرقان فإن هَذَا يدل على عُلُوِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَة الثالثة: أنَّ القُرْآنَ كلَّه واضحٌ صريحٌ، ليس فيه إشكالٌ؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يَكُون فرقانًا إلا على هَذَا الوجهِ؛ لقولِهِ: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. وقد أجبنا عمَّا أوردناه من قوله تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، وبيَّنَّا أن المراد بالتشابُهِ ليس اشتباه المعنى، بل هو الموافَقة والمشاكَلَة في الكمال والحُسْن.

الْفَائِدَة الرابعة: إثبات الحِكمة في أفعال الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ﴾ لِأَنَّ (اللام) في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتعليل، فإذا كانت للتعليل دلَّ هَذَا على أنها تُفِيدُ الحِكمة؛ إذ العِلَّة هي الباعثة على الشَيْء، أو هي غاية الشَيْء؛ لِأَنَّ العِلَّة إما غائِيَّةٌ أو باعِثة، وكل منها يدل على الحِكْمَة.

الْفَائِدَة الخامسة: عموم رسالة النَّبيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾. وَأَمَّا مَن قال: إِنَّهُ رسولٌ إلى العرب فقطْ فَإِنَّهُ كافرٌ به، فالَّذِينَ قالوا: إِنَّهُ رسول إلى العرب قالوا: إن الله تَعَالَى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، هَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ رسولُ للعربِ فقطْ، وَأَمَّا بنو إسرائيل فلا يُكَلَّفون باتباع الرَّسول ﷺ.

فما هو الجوابُ عن هَذِهِ الشُّبْهَةِ؟

الجواب: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ لو كان المراد منه تخصيصهم لقالَ: هو الَّذِي بَعَـثَ لِلأُمِّيِّين؛ كما في قولـه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:٧٩]، لَكِنْ قوله: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ معناه أن الرَّسول ﷺ مبعوث فيهم، بُعث فيهم، لا لهم، بُعث فيهم لهم ولغيرهم، وعندما أقول مثلًا: بُعث فلان في هَذَا البلد، أو مثلًا: خَلَقَ الله في هَذَا البلد رجلًا كريمًا أو رجلًا عالِمًا، أو ما أشبهَ ذلك، فإن هَذَا لا يعني أَنَّهُ لهَذِهِ البلد فقـطْ، بل المراد: مكانه في البلد، لكِن ما يحصُل منـه عامٌّ، فالتخصيص بالمكان أو التخصيص بالزمان لا يدل على تخصيص الدعوةِ.

الفائدتان السادسة والسابعة: فضل الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث كُلِّفَ الرِّسَالة إلى جميع الخَلقِ؛ لِأَنَّ هَذَا دليل على فَضْلِهِ وأنه أهل لهَذِهِ المهمَّة العظيمة، فلو أرسلت إنْسَانًا لِيُصْلِحَ بين شخصينِ فهذا دليل على فَضْلِه، لكِن لو أرسلتَ إنْسَانًا لِيُصْلِحَ بين طائفتينِ أو أُمَّتين فهَذِهِ زيادةُ فضلٍ، ولذلك لا يُرسَل لهَذِهِ المهمة الأخيرة إلا مَن هو جَديرٌ بها، فكون الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُرسل لجميع الخَلْق دليل على فضله حيث حُمِّلَ الرِّسَالةَ إلى جميع الخَلق.

ثم إن فيه دليلًا على مِنَّة الله عليه أيضًا؛ لِأَنَّ كلَّ مَنِ انتفع برسالته نالَه -أي النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- من أَجْرِهِ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[1] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ. ولهذا لو تُعَلِّم إنْسَانًا فيَعْمَل بعِلمه ويُعلِّم آخر ويعلم آخر ويعلم آخر فَإِنَّهُ يأتيك مِنَ الأجر والفضل بقَدْرِ مَنِ انتفعَ به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، رقم (١٨٩٣).

الآيـة (٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من شأنِهِ أنْ يُخْلَق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ سوَّاه تَسويةً].

قوله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هَذِهِ صفة لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنزال الفرقانِ، وهو تشريعٌ وتنظيمٌ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أَنَّهُ يَجِب العمل بما جاء في هَذَا الفُرقان؛ لِأَنَّهُ جاء من مالك السَّمواتِ والأرضِ، والمالك له حق التصرُّف في مَمْلُوكِهِ، بأن يُشَرِّعَ له ما شاءَ وينظِّم له ما شاء، وهَذِهِ هي الْفَائِدَة من قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعد قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فأتى بالتشريع أولًا، أو بدستورِ التشريعِ كما يقولون، ثُمَّ أَتَى بعد ذلك بعموم المُلْك؛ لِأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسماوات والأرض لَزِمَ أنْ يَكُونَ ما شَرَعَهُ حَتْمًا على المملوكينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا المُلك مُلك أَعيانٍ فقطْ أو ملك أعيانٍ وتَصَرُّف؟

فالجواب: مُلك أعيانٍ وتصرف؛ لِأَنَّ المَلِكَ قد يَكُونُ مَلِكًا للعَيْنِ دون التصرُّف فيها، وقد يَكُون مَلِكًا للتصرف دون العَين، يعني: قد يملك الإنْسَان

التصرُّفَ في العين دون ذاتها، أو يملك عين الشَّيْء دون التصرُّف فيه، فالمالك للشَّيْء الَّذِي لم يَتَعَلَّقْ به حقُّ أحدٍ هَذَا مالِكٌ للعين والتصرف فيها، والموقوف عليه مالك للعين، لكِن لا يملك التصرف المطلَق فيها؛ لا يبيع ولا يَهَب ولا تورَث عنه، فالمستأجر مالك للمنفعة، أي التصرف في المنفعة فقط، دون العين، أَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن له ملك السَّموات والأرض أعيانهما والتصرف فيهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لم يذكر ملك من فيهما؟

قُلْنَا: السَّموات والأرض يَدْخُلُ فيهما كُلُّ من فيهما؛ لِأَنَّ مَنْ في السَّموات والأرض هم مِنَ السَّمواتِ والأرضِ، فأصلُهم مِنَ السَّموات والأرض، فالإنْسَان خُلِقَ من طين، والحيوانات الأخرى فيما يبدو -والله أعلم- أنها خُلقت مِنَ الأرض، لَكِنَّنا لا نَعْلَم عنها شيئًا؛ لأنَّ المهمَّ أن نَعرِفَ أصلنا، أَمَّا هَذِهِ فخَلَقَها الله لنا، قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

قوله: ﴿وَلَدًا﴾ بمعنى: مَوْلُودًا، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أعمُّ من قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، لَكِنْ مع ذلك نفى الله عن نفسه اتِّخاذ الولد والولادة، فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ لم يَلِدْ ولم يَتَّخِذْ ولدًا من عباده، وفي هَذَا إبطال لقول النَّصارى الَّذِينَ قالوا: إنَّ المسيح ابنُ الله، ولقول اليهودِ الَّذِينَ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، وللمشركين الَّذِينَ قالوا: الملائكة بنات الله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما وَلَدَ شيئًا، ولم يَتَّخِذْ أحدًا من خلقه ولدًا.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الله تَعَالَى إذا نَفَى عن نفسِهِ صفةً فليس المراد بذلك نفي الصِّفة فقط، بل نفي الصِّفة وإثبات كمال ضِدِّها، والضدُّ هنا كمال قُدْرَته وغِناه، وأنه غير محتاجٍ إلى الولدِ؛ لكمالِ غِنَاهُ عن غيرِهِ، فلا يحتاج للولد ولا اتِّخاذ الولد إِلَّا مَن كان محتاجًا له، أَمَّا من كان غنيًّا عنه قادرًا على ما يريد فهذا لا يَتَّخِذُ ولدًا.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس له شَريكٌ في المُلْك، فما شَارَكَه أحدٌ؛ لا أحدٌ مِنَ الملائكة ولا أحد مِنَ الأنبياء، ولا أحد مِمَّن دونهم، المُلْكُ لله وحدَهُ، لا شَريكَ له فيه، وفي هَذَا إبطالٌ للذين أشركوا بالله في الربوبيَّة، مثل الَّذِينَ يقولون: إن بعض الأولياء يَتَصَرَّفُونَ بالكون، هَؤُلَاءِ لا شكَّ أنَّهم خاطئون، وأنَّهم كاذِبون أيضًا، فهم خاطئون في عقيدتهم، كاذبون فيما أَخبَروا به، فالله عَزَّوَجَلَّ ليس له شريكٌ في المُلْكِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَسْنَا نملِك بيوتَنا وثِيَابَنا ومواشيَنا، فهل هَذَا يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ لله شريكٌ؟

فالجواب: لا؛ لِأَنَّ مِلْكَنَا هَذِهِ الأشياءِ ليس مِلكًا مُطْلَقًا، صحيح أنا مالك لبيتي، ومالك لثوبي، ومالك لسيارتي، ومالك لماشيتي، لكِن مِلكي هَذِهِ الأشياءِ ليس مِلكًا مطلقًا، بدليل أنني مقيَّد بالشرعِ في التصرُّف في هَذِهِ الأشياءِ، فأنا لا أملِك مثلًا أنْ أقومَ عليها فأُحْرِقها، وحرام عليَّ ذلك، كذلك لا أملِك مثلًا أن أَشُقَّ على الحيوانِ في الحمل والركوب وغير ذلك، إذَن فكوني مالكًا لا يَقتضِي أن أكونَ شريكًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ملكه؛ لِأَنَّ مِلكي هَذَا مقيَّد بحسَب إذنِ الشارع لي، فلا أتصرف فيه إلَّا بما أَذِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يقول المُفَسِّر: [مِن شأنِهِ أنْ يُخْلَقَ]، و﴿كُلَّ﴾ للعموم.

لكِن المُفَسِّر قيَّدها بقوله: [من شأنه أن يُخلَق]؛ لكي لا يدخل القُرْآنُ أو نفسُه.

فَلَوْ قَالَ الإِنْسَانُ: هل خَلَقَ الله نفسَه.

قُلْنَا: مستحيلٌ أن يَخْلُقَ نفسَه، لَكِنَّهُ مع ذلك نقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَن شأنُه أن يُخْلَقَ، أَمَّا ما ليس من شأنِهِ أنْ يُخْلَقَ كذات الله وصفات الله فهذا ليس داخلًا مِنَ الأَصْلِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى خالِقٌ، والخالقُ غير المخلوق، وصفات الخالق ليستْ مخلوقةً؛ لِأَنَّ الصِّفة تابعة للذَّات. ولهذا كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حينما يقول: [من شأنه أن يُخْلَق]، يُنبِّهك لِتَرُدَّ بهَذِهِ الكلمة على من قالوا: إنَّ القُرْآن مخلوق، فتقول: القُرْآن ليس من شأنه أن يُخلَق؛ لأَنَّه من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصفات الله تَعَالَى غير مَخلوقةٍ.

ولَكِنْ يَنبغي أن لا نقيِّد الآية بهذا، نقول: هو خلق كل شَيْءٍ، والخالق لا يمكن أن يَكُونَ هو المخلوقَ، فإذا كان لا يمكن دَلَّ ذلك عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى غيرُ مخلوقٍ، وعَلَى أَنَّ صفاتِه أيضًا غير مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفة تابعة للموصوف، وحينئذٍ لا نَحتاج أن نقولَ: من شأنِه أن يُخْلَقَ؛ لأننا إذا قُلْنا: من شأنه أن يخلق قيَّدنا الآيَةَ الكريمةَ، ويمكن أن يَحتجَّ علينا الَّذِي يقول بخلق القُرْآنِ فيقول: مَن قَالَ لك: إنَّ الآية مقيَّدة بهذا، فنحن نقول: خلق كلَّ شَيْءٍ على سبيل الإطلاق، وعلى سبيل العموم، وهذا لا يَقتضي أن يَكُون القُرْآن مخلوقًا؛ لِأَنَّ الخالق غير المخلوق، والقُرْآن من صفات الله، وصفات الخالق قطعًا غير مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفاتِ تابعةٌ للذاتِ.

إذَنْ فلو احتجَّ علينا المُعْتَزِلة والجَهْمِيَّة الَّذِينَ يقولون: إن القُرْآن مخلوقٌ فبماذا نُجيبهم؟

نجيبهم بأحد وجهين:

الوجه الأول: ما أشار إليه المُفَسِّر؛ وهو أن يقال: إن هَذَا من باب العامِّ المراد به الخاصُّ، يعني: كلّ شَيْء من شأنه أن يخلق، هَذَا وجهٌ، وبهذا أجاب كثير مِنَ

السلف، وقالوا: إذا قَالَ قائل: إنَّ القُرْآن مخلوق واستدلَّ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فقل له: إن الله قَالَ عن رِيح عادٍ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ومع ذلك هي ما دمرتِ السَّماء ولا الأرضَ ولا المساكِنَ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

والبعـض الآخر مِنَ العلماءِ يقـول: الآية على عُمومها، والقُرْآن غير داخـلٍ إطلاقًا حتَّى نحتاج إلى إخراجه؛ لأنَّه إذا كان خالِقًا فالخالق غير المخلوق، والقُرْآن كَلام الله، وكَلام الله من صِفـاتِه، وصفات الخالِقِ غير مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفة تابعة للموصوفِ.

قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الفاء تَدُلُّ على الترتيـب، و(قدَّره) بمعنى سَـوَّاه؛ لِأَنَّ الخَلْق قد يوجد لكِن بدون تسويةٍ، فالله تَعَالَى خَلَقَ كل شَيْء ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: سوَّاه، والدليل على أنَّ التقدير هنا بمعنى التسويَة قولُه تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]، وعلى هَذَا فالترتيب في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ﴾ حسَب الواقع، فالترتيب واقعي؛ لِأَنَّ التسوية تكون بعد الخَلْق، فأنت عندما تُوجِدُ بناءً فإنك أولًا تُوجِدُ الهيكل، ثُمَّ تُدخِل التعديلات والتسويَة، هكذا الله عَزَّوَجَلَّ خلق كلَّ شَيْءٍ فقدَّره؛ أي: سوَّاه تسويةً مناسبةً لِمَا خُلِقَ له.

وقال بعضُهم إن معنى (قَدَّرَهُ) أي: قضاه، فتدلّ الآية على القضاء والخَلْق. وعلى هَذَا القول الَّذِي يجعل التقديرَ بمعنى القضاءِ يَكُون في الآية ترتيبٌ غير واقعيٍّ، والسَّبب أنَّ التقدير بمعنى القضاء سابِقٌ للخلق؛ لِأَنَّ الله يَقضي أولًا ثُمَّ يخلُق ثانيًا، ولَكِن الأَصْل أن يَكُون الترتيب واقعيًّا وأن الخَلْق قبل التقدير. ويدُلُّ على ذلك أيضًا الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]، فالقُرْآن يفسِّر بعضُه بعضًا.

فعلى ذلك نجعل التقـدير هنا بمعنى التسوية. وكونه يأتي ترتيبه على خلاف الواقع هَذَا وإن جاء في اللغة العربية لَكِنَّهُ خلاف المعهود، وإلَّا فقد قيلَ:

إِنَّ مَـنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أَبُـوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَـدُّهُ[١]

فالسيادة للجَدِّ هي الأُولى، وهي في الترتيب هنا هي الأخيرة. فالأقرب والأَولى ما مشَى عليه المُفَسِّر مِن أنَّ التقدير هنا بمعنى التسويةِ؛ لِأَنَّ كَلام الله تَعَالَى يفسِّر بعضه بعضًا.

• • ۞ • •

(١) انظر ضياء السالك (٣/ ١٧٢-١٧٣)، والأشموني (٢/ ٤١٨).

الآيــة (٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

• • ◦ • •

مناسبة هَذِهِ الآية لِمَا قبلَها أنَّ الله لَمَّا أَثنَى على نفسِه بها أثنى به؛ ناسبَ أن يَذْكُرَ تلك الأصنام الَّتِي اتُّخِذَتْ من دونه -يعني من دون الله آلهة- لِيَتبيَّنَ حالُها؛ لأنَّ الأشياء تَتبيَّن بما يكُون لها من صفاتٍ.

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي الكفَّار ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي الله]، أَمَّا الضمير الأول في قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ فلم يُذكَر له مَرْجِعٌ لَفظِيٌّ، لكِن مَرْجِعُه معلوم بحسَب الحالِ؛ لِأَنَّ قولـه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ أي: الكفار المتَّخِـذون، فَهُوَ لا مَرْجِعَ له لفـظًا، لكِن مرجعه معلوم بحالِ الواقعِ. وَأَمَّا قوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾ فمرجعه ظاهر مما سبق؛ لأنَّ الله تَحدَّثَ عن نفسه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾.

وقوله: ﴿آلِهَةً﴾ جَمْع إله، وهَذِهِ الآلهة إِنَّما كانت آلهةً باتخاذِهم، أَمَّا في الحقيقة فليـستْ آلهةً؛ لِأَنَّهَا ليست مُسْتَحِـقَّةً للعبادة؛ لِقَوْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:١٩-٢٣]، وقال يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]، فهي آلِهة باسْمهم واعتقادهم، أَمَّا في الواقع فليستْ آلهةً، بمعنى أنها لا تَستحِقُّ أن تكون آلهةً، فعلى هَذَا مثلًا إذا قَالَ قائل: كيف أثبتَ اللهُ هنا أنَّها آلهةٌ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ مع أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كلَّهم يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

كيف نَجمَع بين هَذَا النفيِ وبينَ هَذَا الإثباتِ؟

نَجْمَعُ بين هَذَا النفيِ وبين هَذَا الإثبات بأنَّ النفيَ باعتبارِ الحقيقةِ والواقع، فَإِنَّهُ لا إلهَ إلا الله، ولا شكَّ في ذلك، وأمَّا الإثبات فَهُوَ بحسَب عمل هؤلاء، حيثُ جعلوا هَذِهِ آلهةً، أي مَعْبُودَةً، وهي لا شكَّ أنها تُعبَد، لَكِنَّها ليست مُستحِقَّة للعبادةِ، فبحسَب الاستحقاق يَكُون النفي، وبحسَب الواقع يَكُون الإثباتُ، بحسَب الاستحقاق يَكُون النفي يعني لا أحدَ يَستحِقّ ولا أحد يَكُون حقيقةً إلهًا سِوَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا باعتبار الاعتقاد، وباعتبار العمل؛ فإنَّ مِنَ النَّاس مَنِ اعتقد وعمِل فجعل مع الله إلهًا آخرَ، وحقيقة هَذِهِ الآلهة أنها ليست بشَيْءٍ، صحيحٌ أنها تُعبَد وتُدْعَى ويُركَع لها ويُسجَد ويُنذَر لها، لَكِنَّها في الواقع ليستْ مستحِقَّةً لهذا الأمرِ، فليستْ آلهةً.

ثُمَّ بيَّنَ الله هَذِهِ الآلهة المُتَّخَذة، فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾، وعدم خلقهم دليلٌ على عجزهم، وعجزُهم دليل على أنَّهم لَيْسُوا آلهةً؛ لِأَنَّ الإلهَ لا بدَّ أن يَكُونَ

قادرًا؛ لِأَنَّ القُدرةَ من كمالِه، وهذا العجزُ الَّذِي اتصفتْ به هَذِهِ الآلهة يَمنَعُ أن تكون آلهةً.

ثُمَّ قال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي هَذِهِ الآلهة إذَن هي حادِثة بعدَ أنْ لم تكنْ، والربُّ يَجِب أن يَكُونَ أوَّليًّا، ليس قبلَه شَيْء؛ لِأَنَّ الربَّ المستحِق للعبادة لا بدَّ أن يَكُون خالقًا، وإذا كان مخلوقًا فهُوَ حادث، وإذا كان حادثًا فمَن قبلَه ليس من خلقه. وعلى هَذَا يَكُونُ في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ بيانٌ لعدمِ صلاحِيَتِهِم أن يَكُونوا آلهةً من حيثُ انتفاءُ القُدْرَةِ ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. فلا يَصْلُحون أن يَكُونوا آلهةً من وجهينِ:

الوجه الأول: الحُدُوث؛ لأَنَّهُمْ مُحْدَثون، والإله لا يُمْكِن أن يَكُونَ مُحْدَثًا.

الوجه الثَّاني: أن مَنْ قبلهم ومَن سبَقهم ليس من خَلْقِهم، على فرض أَنَّهُمْ يخلُقون، وهذا دليل على عدم صلاحيتهم للأُلوهيةِ.

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي دَفْعَه]، ونحن نقول: دفعه وجَلْبه أيضًا، والمانِع أَنَّهُمْ لو أرادوا أن يَضُروا أنفسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدفعوا عنها ضررًا ما دفعوا عنها، فإبقاء الآية على العموم أولى ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ لا جَلبًا للضَّرِّ ولا دفعًا له، حتى الضرر الَّذِي يمكن أن يَكُونَ سهلًا لو أرادوه لأنفسهم ما استطاعوا، يعني لو أرادت هَذِهِ الأصنام أن تُتْلِفَ نفسها لا تستطيع، ولو أرادتْ أن تُمرِضَ نفسها إذا كانت مما يَلْحقُه المرض هل تملِك ذلك أو لا؟ لا تملِك، ولو أراد أحد أن يَعْتَدِيَ عليها لا تملِك دَفْعَه، ولا تستطيع، ولهذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]، وهذا يدل على أهميته، فأَمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا بأن نَستمعَ لهذا المثَلِ يدل على أهميَّتِه، المَثَل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، الذباب الَّذِي هو من أهون الحيوانات وأضعفها لو أَنَّهُمْ اجتمعوا عَلَى أَنَّ يَخْلُقوه ما استطاعوا، أمرٌ آخرُ: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ على ضَعفِه ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ لا يستطيعون أن يَسْتَنْقِذُوه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، فهَؤُلَاءِ لا يملكون لأنفسهم ضَرًّا؛ لا دَفْعه ولا جَلْبه.

قوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [أي جَرَّهُ]، يعني لا يملِكون أن يَجُرُّوا لأنفسهم نفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفعوه عن أنفسهم، مثل الأُولى، يعني يَنْبَغِي أن نجعلها على سبيل العموم، وإن كان مُقتضَى الحال أن أيَّ وَاحِدٍ يريد دفع الضررِ ويريد جَلْب النفع، ولَكِنَّ إبقاءَ الآية على العمومِ أَولى، يعني: لا يستطيعون شيئًا لأنفسهم، وإذا كانوا لا يستطيعون ذلك لأنفسهم فمن باب أَوْلَى لا يَستطيعوه لِعَابِدِيهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ﴾ أي إماتةً لأحدٍ وإحياءً لأحدٍ ﴿وَلَا نُشُورٗا﴾ أي بعثًا للأمواتِ].

قوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ﴾ يعني: لا يملكون أن يُمَوِّتُوا أحدًا، وبهذا نعرِفُ أن الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيم عَزَّوَجَلَّ في ربه وقال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ أَنَّهُ كاذب، فهم لا يملكون أن يجلِبوا موتًا لأحدٍ ولا أن يجلبوا حياةً لأحدٍ مهما جَمَعُوا لذلكَ.

فَإِذَا قَالَ إِنْسَانٌ: أليسَ يُمكِن أنْ يَقْتُلُوا أحدًا؟

فالجواب: إن هَذَا سَبَب المَوْت، وليس هو المَوْتَ، يعني: يُمكِن أنَّ الإنْسَان يفعَل سَبَب المَوْت، لكِن لا يمكِن أن يُوقِعَ المَوْتَ، وبينَ الأمرينِ فرقٌ، ولهذا أحيانًا يوجد سَبَب المَوْت ولا يموت الإنْسَان، وأحيانًا يموت الإنْسَان بدون سَبَبٍ، يعني

بدون سَبَبٍ معلومٍ، فإذَن هَؤُلَاءِ لا يملِكون موتًا لأحد ولا حياةً، فلا يملكون أنْ يُحْيُوا أحدًا مِنَ الأمواتِ؛ لِأَنَّ ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا إحياء عيسى للأموات فليس من هَذَا البابِ، ليس مِنَ الأمر الَّذِي نَفاه الله؛ لِأَنَّ الَّذِي يُحْيي الأموات حقيقةً هو اللهُ، ولهذا قيَّد الله إحياءَه للموتَى بقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠]، فعيسى لا يَسْتَقِلّ بهذا، وإنَّما يَكُون قوله سَبَبًا للحياة الَّتِي يخلُقها الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ النُّشُور هو بَعْث المَوْتى وتفريقهم، فمعنى نَشْرِهم أَنَّهُمْ يُفَرَّقون ويخرجون مِنَ الأجداثِ ويَنتشِرون في الأرض ويَتَفَرَّقون فيها، فهم لا يملِكون شيئًا من هَذَا كلِّه، فإذا تَبَيَّنَ عَجْزُهم الذَّاتيّ والعَرَضي تبَيَّنَ أَنَّهُمْ لا يصلُحون أنْ يَكُونوا آلهةً، ففيهم عَجْزٌ ذاتيٌّ وعَرَضِيٌّ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الحياة والنشور؟

قُلْنَا: الفرق بينَهما أنَّ النُّشُورَ عامٌّ، ولهذا قُلْنا: إِنَّهُ مِنَ النشر بمعنى التفريق والانتشار، وأمَّا الحياة فهي خاصَّة، فالحياة لوَاحِد معيَّن، مثل أن يقال لهم: أَحْيُوا هَذَا الميِّت، ولهذا قُلْنا: إِنَّهُ مِنَ النشر بمعنى التفريق والانتشارِ، فَهُوَ أعمُّ.

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ عطفه على قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، أو التفصيل بعد الإجمال، فنجد الآية الكريمة تَتَرَقَّى مِنَ الأَدنى إلى الأعلى (ضَرًّا ولا نفعًا)، (موتًا وحياةً ونشورًا) لِأَنَّ الحياة أشدّ مِنَ المَوْت؛ فوجود سَبَب الحياة أو القُدرة على الحياة أعظمُ مِنَ المَوْت، كذلك أَيْضًا النفع والضرر؛ النفع أعظم لِأَنَّ الإنْسَان يريد مِنَ الضرر دَفْعَ الشَّيْء، ودفع الشَّيْء أسهلُ من جَلْبِه؛ لِأَنَّ الجلب

إيجابيٌّ، والدفع سلبيٌّ، وغالبًا يَكُون السلبيُّ أهونَ مِنَ الإيجابيِّ، فانتقل الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عَجْز هَذِهِ الآلهةِ وأنها لا تصلُح مِنَ الأدنى إلى الأعلى، هَذَا بالنسبة للتفصيلِ، أمَّا بالنسبة للإجمالِ فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنْسَان أن يسوق للخصم ما يقر به لزوما حتى تقوم الحجة عليه، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جعلوها آلهةً لا يمكن أن يَدَّعوا أنها تخلق، ولا يمكن أن يدَّعوا أنها غير مخلوقة؛ لأَنَّهُمْ يعرِفون أنها موجودة وليستْ من قبل.

فهل يمكن أن يدَّعوا بأنها تنفع أو تضُر؟

نقول: يُمْكِنُ أنْ يَدَّعوا ذلك، وفعلًا يَدَّعون ذلك، يقولون: إن الأولياء يَنفعون، وإنهم يضرون، وإن مَن لم يذبحْ لهذا الوليِّ أو ينذِر له فَإِنَّهُ يضرُّه. وهَذِهِ دَعْوى، فإذا ادَّعوا هَذَا يُطَالَبُون بالدليلِ، والدليل أنْ يقالَ لهم مثلًا: ادعوا هَذَا الوليَّ بأمرٍ معيَّن وانظروا هل يجلِب لكم ذلك أو لا يجلِبه؟ وذلك مِثلما أَنَّهُمْ يُطَالِبُونَ الرسُل بأشياءَ معيَّنةٍ، يقولون مثلًا لَمَّا قالتْ لهم الرُّسُل: إن الله يحيي المَوْتى: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، مع أن الرُّسُل ما قالت لهم: إن البعث في الدُّنْيا حتى يقولوا: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾، إِنَّمَا قالت لهم: إن البَعْث بعد المَوْت، وهذا غير ما طالَبَ به هَؤُلَاءِ الخُصماء للرسل، فقولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ هو في الحقيقة مكابَرة وطَلَب دليلٍ لشَيْءٍ لم يَقُلْه الرسُلُ عليهم الصلاة والسلام، إذ لم يقولوا: إنهم يُبعثون الآنَ.

فعلى كلِّ حالٍ هَذِهِ الدَّعْوَى -وهي أَنَّهُمْ يملكون نفعًا أو ضَرًّا- دعوى تحتاج إلى بيِّنة، أَمَّا دعوى المَوْت والإحياء فهي أيضًا أوضحُ في البُطلان، بل ربما تُدَّعَى؛

لِأَنَّ الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيم في ربِّه قَالَ له: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فربما تُدَّعَى، وفي مناظرة إِبْراهِيم ﷺ -يمكن أنْ نَنْتَفِعَ بها هنا- دليلٌ على أَنَّهُ إذا ادَّعى المبطِل دعوى فإننا نَنْقُلُه إلى ما هو أوضحُ؛ لِأَنَّ المقصود ليس المجادَلة، إِنَّما المقصود إقامة الحجَّة على بُطلان هَذَا الأمر، وهو إذا بطل ولو من دليلٍ وَاحِدٍ كفَى، ولا حاجة أن نُبْطِله مِنَ الدليل الَّذِي يُعيِّنه الخصم، قد نبطِله من دليل آخَرَ، فإِبْراهِيم ﷺ لو أراد أن يحاجَّ هَذَا الرجُلَ ويجادل هَذَا الرجل لقال له: لستَ تُحْيي وتميت، وإِنَّما تفعل سَبَب الإحياء والإماتة، لَكِنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذهب إلى دليل أوضحَ وأبينَ، ولا تُمكِن المحاجَّة فيه؛ قطعًا للنزاع والمجادَلة؛ فالإنْسَان الَّذِي يجادِل قَابِلْهُ بدليلٍ لا يمكنه دَفْعُه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وهذا إلزامٌ لا يتمكَّن معه أن يَدَّعِيَ شيئًا، ولهذا قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

المهم الآن قوله: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ هو مُسَلَّم، ولا يمكِن دَعْوَى نفيِه حتى عند العابدين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، فحتى عند العابدين لا يمكن أن يَدَّعُوا هَذِهِ الصِّفة المنفِيَّة.

قوله: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لا يمكن أيضًا أن يَدَّعوا أنها ليست مخلوقة وأَنَّهُمْ صَنَعُوها بأيديهم، يقول إِبْراهِيم لهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

قوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾.

قُلْنَا: إِنَّهُ يمكن أن يُدَّعَى خلافُ هَذَا النفيِ، وجوابنا عنه من أمرين: إما إبطال هَذِهِ الدعوَى بعينها ونقول: هَذَا أمرٌ لا يمكِن، وإذا شئتم فادْعُوا، وإمَّا أنْ يقالَ:

نتقِل عن هَذَا النفي، ولا ننتقل عن هَذَا النفي لعدم إيمان به، بل يَجِب علينا أن نؤمن بأَنَّهُمْ لا يملكون ذلك، لكِن عند المخاصَمة ننتقل إلى أمر أعظم وأَبْيَنَ وأوضحَ، مثلًا لو نزلتْ أمطارٌ كثيرةٌ مُغْرِقَة، أو حصلتْ زلازلُ يُمْكِن أن نقولَ لهمُ: ادْعُوا هَذِهِ الأصنامَ وانظروا هل تمسك السَّماء وهل تتوقف الأرض عن الزلازل، وما أشبهَ ذلك، لَكِنْ مهما كان لو ادَّعَوْا ما يدعون فإننا ننتقل عند المجادَلة إلى أمرٍ أوضحَ لا يَتَمَكَّنُونَ من نفيِهِ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٤)

• ● ❊ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان:٤].

• ● ❊ ● •

لَمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يعود إلى التَّوحِيدِ انتقلَ إلى ما يعود إلى الرِّسَالة؛ وذلك لِأَنَّ الشهادة: أشهد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أن مُحَمَّدًا رسول الله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ ﴾ أي ما القُرْآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كَذِب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وهم من أهل الكِتَاب]، هَذَا الأَصْل الثَّاني مِنَ الأُصُول: التَّوحِيد وإثبات الرِّسالة، وإثبات الرِّسَالة لا شكَّ أَنَّهُ أَحَدُ شَطْرَيِ التَّوحِيدِ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، ولا يُمكِن أن يُعْبَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلَّا بما جاءت به الرسُل؛ لِأَنَّ العِبَادَة طَرِيق للمرءِ إلى ربه، وهل يمكن أن نَتَوَصَّل إلى اللهِ بطَرِيقٍ لم يَجْعَلْه طَرِيقًا؟

فالجواب: لا، وهذا الطَّرِيق الَّذِي جَعَلَه الله طَرِيقًا إليه جاء بواسطة الرُّسُل، إذَن فالعِبَادَة لا بدَّ لها من رسالةٍ، ولا يمكِن أن يُعبَد الله بمجرَّد العقل؛ لِأَنَّ العِبَادَة طَرِيق يوصِّل إلى اللهِ، وهذا الطَّرِيق لا يمكن إلا بوضعٍ مِنَ اللهِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَه بواسطةِ الرسُلِ.

والمكذِّبون للرسُل أيضًا قَدَحُوا بالرُّسُل وبما جاءوا به ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ

﴿هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ هنا صرَّح بالاسْم الظاهر، قَالَ أوَّلًا: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ لِيَعُمَّ جميع المشركينَ مِنَ العرب وغيرهم، وهنا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني منَ العربِ الذينَ رَدُّوا رسالةَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أيْ: ما القُرآن]، المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ دَقيقٌ في التفسيرِ، فسَّر لنا ﴿إِنْ﴾ وفسَّر لنا اسْمَ الإشارةِ. ﴿إِنْ﴾ بمعنى (ما) فهي نافيةٌ، (هذا) يقولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [القُرْآن]، فالمشارُ إليه إذَنِ القُرْآنُ. فقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هَذَا القُرْآن ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ انْظُر -والعياذُ باللهِ- أَتَوْا بالحصرِ، يعني لا يمكن أن يَكُونَ إلَّا إِفْكًا، لا يمكِن أنْ يَكُونَ فيه صِدْقٌ، فأَتَوْا بالحَصْرِ عن طَرِيقِ النفيِ والإثباتِ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾، ولا يُمْكِن أنْ يَكُونَ صِدْقًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ كَذِبٌ]. ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ يعني اخْتَلَقَه، أي النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن أهلِ الكِتَابِ]، ومنه أيضًا الرجلُ الَّذِي قالوا: إِنَّهُ يُعلِّمُه: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، يقولون: إن هَذَا ليسَ مِنَ اللهِ، بل هو من محَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ افتراهُ معَ مُساعدةِ غَيْرِه، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبْطِلًا لِكَلامِهِم: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كُفْرًا وكَذِبًا]، المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَ الظُّلْمَ بالكفرِ؛ لأنَّ الكفرَ ظُلْمٌ ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ثُمَّ هو ظُلْمٌ بالنسبةِ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَنَّهُ اعتداءٌ عليه، ووَصْفٌ له بالكَذِبِ، ولو أنَّ إنْسانًا وصفَ أحدًا مِنَ النَّاسِ بالكَذِبِ لَقُلْنَا: إنَّه ظالمٌ له ومُعْتَدٍ عليه.

قوله: ﴿وَزُورًا﴾ الزُّور في الأَصْل كل ما انحرفَ عن الصراط المستقيم، كل انحراف فهُوَ زُور ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ [الكهف:١٧]، تميل،

فكل مَيل فَهُوَ زُور، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ»(١)، الزور المراد به كلّ قول منحرِف، فالزُّور إذَن الكذِب، فهُمْ مِن أكذبِ النَّاسِ، بل أكذب النَّاسِ فيما قالوا، فقولُهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ليسَ فيه شَيْء مِنَ الصدق، بل هو كذِب وظُلم وعُدوان على الرَّسول ﷺ.

ثم نقـول لهم: إذا كان مُحَمَّد ﷺ هو الَّذِي افتراهُ، وأعانَه عليه قوم آخرونَ، فأْتُوا بسورةٍ من مِثْلِه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]. ثُمَّ إن مُحَمَّـدًا ﷺ عاش فيهم قبل الوحيِ أربعينَ سنةً وما قَالَ يومًا مِنَ الأيَّام: إِنَّهُ يُوحَى إليه، والَّذِي يريد أن يكذِبَ فَإِنَّهُ يكذب في عُنفوان شَبابه لِيَكْسِبَ الأتباعَ من أول الأمرِ، فلمَّا لم يكنْ هَذَا إلَّا بعد مُضِيِّ أربعين سنةً دلَّ ذلك عَلَى أَنَّ دعواهم يُكَذِّبها الواقع.

أيضًا فإن هَذَا الوحي جاء والرَّسول ﷺ في سنِّ الأربعينَ، ولا يمكِن أن يَكُون الكذِب يَتَجَـدَّدُ له في هَذَا السنّ، ثُمَّ إننا نقـول: ممَّا يبيِّن أَنَّهُ زور أن هَؤُلَاءِ الَّذِيـنَ يقولون: إِنَّهُ افتراه هم بأنفسـهم يشهدون للرسول ﷺ بالصدق، وكانوا يُسَـمُّونه الأمين، ولا يشكُّون في صِدقه، ولا يشكون في عدالته ﷺ فأين كانوا من قبلُ؟!

•●۞●•

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

الآية (٥)

• ● ∞ ● •

۞ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥].

• ● ∞ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ أيضًا هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾: أكاذيبهم، جمع أُسْطُورة بالضمِّ ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ انتسخها من ذلك القوم بغيره ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ﴾ تُقرَأ عليه لِيَحْفَظَهَا ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ غُدوةً وعَشِيًّا].

قوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أساطير جمع أُسطورةٍ، وهي الأحاديث الرائِجَة الَّتِي لا أصلَ لها، وعند العامَّة يُسمُّونها (السَّباحين)، قالوا: إن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أتى بأساطير الأوَّلين، يعني أقاصيصهم وأحاديثهم الَّتِي لا أصلَ لها. وهذا القول الَّذِي قالوه هل هو عن عقيدة كاذبة أو قالوه بحسَب الواقع، يعني هل ادعوا ذلك دعوى أو هَذَا الَّذِي يعتقدونه وهذا الَّذِي تبيَّنَ لهم؟

يُمْكِن هَذَا ويمكن هذا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول في سورة المُطَفِّفِينَ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:٧-١٤]، هَذَا يدل عَلَى أَنَّ قولهم: أساطير الأولين ليس دعوى، بل اعتقاد، وأن هَذَا هو الَّذِي يعتقدونه، فإن كانت

دعوى وهم يعتقدون أنها وحي وصدق فهَذِهِ دعوى باطلة مثل غيرها مِنَ الدعاوى، وإن كان هَذَا ما يعتقدونه، وهو ما ظهر لهم مِنَ القُرْآن، فليس بغريبٍ أيضًا؛ لِأَنَّ الإِنْسَان -والعياذ بالله- إذا حُجِبَ قلبُه رأى الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا، فيمكن أن هَؤُلَاءِ لِظُلْمِهِم وكفرهم وعُدوانهم لم يَتبيَّنْ لهم حقيقة القُرْآن، وظنُّوها أساطير، وهذا الأخير في الحقيقة معنًى جيِّدٌ، أَنَّهُمْ يقولونه لا مجرد دعوى لتكذيب الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولَكِن بحسَب الواقع فيما يعتقدون؛ وذلك لأنَّهم ليس عندهم اتجاه سليم صحيح لقول الحقِّ، فأروا الحقَّ باطلًا، فالآن لو قرأنا القُرْآن على إنْسَانٍ مُعْرِضٍ هل يتذوق حلاوتَه، وهل يُحِسُّ بأنه كَلام الله، هل يحس بأنه أصدق الأخبار وأنه أعدل الأحكام؟ لا، أبدًا، تجده مُعْرِضًا عنه، وليس بشَيْءٍ عنده حقيقةً باعتبار الواقع؛ لِأَنَّهُ -والعياذ بالله- كما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فقولهم: أساطير الأولين قد يَكُون ذلك عن عقيدةٍ، وأن هَذَا بحسب الواقع؛ لِأَنَّ حالهم تَقْتَضِي ذلك، وكُلَّما أعرضَ الإِنْسَان عن القُرْآن يَكُون أشدَّ خفاءً عليه وأبعد عن معرفته، وكُلَّما أقبلَ عليه ازداد به يقينًا ومعرفةً.

ولهذا أنا أدعوكم ونفسي إلى أن يتأمَّل الإِنْسَان دائمًا في القُرْآن ويتدبَّر؛ لئلَّا يَكُونَ أُمِّيًّا، فالله عَزَّوَجَلَّ سمَّى الَّذِي لا يَعرِف المعنى، وإن كان يعرف اللفظ، سمَّاه الله أميًّا؛ كما قَالَ الله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، فمعنى (أماني) قراءة، فسمى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يعلمون الكِتَاب إلا قراءةً سماهم أُمِّيِّينَ؛ لِأَنَّ مَن يقرأ ولا يَفهم فَهُوَ كمَن لا يقرأ، لا فرقَ بينَهما، إلَّا أن هَذَا عنده فَهمٌ للفظ، وذاك ليس عنده فهم، وماذا يستفيد المرء مِنَ اللفظ وهو لا يعرف معناه؟!

فاللَّفْظُ بمنزِلة الثوبِ للجِسْمِ، فإذا كان عند الإنْسَان ثِيَابٌ فهي ليستْ رِجالًا، فلو أنَّ وَاحِدًا عنـده عشرونَ ثوبًا وقال: واللهِ أنا سأغزو هَؤُلَاءِ الجماعَة وأريـد أن أشُنَّ الحرب عليهم، فقيل: ماذا عندَكَ؟ قال: عندي عشرونَ ثوبًا. فهل تَنْفَعُه هَذِهِ الثياب؟

فالجواب: عشرون ثوبًا لا تكون عشرين رجلًا، فالمهمُّ أنَّنا نقولُ: إنَّ الواقعَ أن الرجلَ إذا لم يُقْبِل على القُرْآنِ وهو يتأمَّلُهُ ويحرِصُ على معرفةِ معناه فإنَّهُ لا يَستفيد منَ القُرْآنِ شيئًا، وكما هو معروفٌ مِن حالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يتجاوزون عشر آياتٍ حتى يَتَعَلَّمُوها وما فيها منَ العِلمِ والعملِ، فتعلَّمُوا القُرْآنَ والعلمَ والعملَ جميعًا(١).

والَّذِي يَضُرُّنا نحن أننا نحرِص على تلاوة القُرْآن لفظًا، وهذا طيِّب، لكِن لا بدَّ أن نَعمَل أيضًا، ومِنَ الممكِن أن يقرأ الإنْسَان ما تَيَسَّرَ لفظًا، ثُمَّ إذا كان قد مَنَّ الله عليه بحفظِه يتأمَّله، فيتأمله وهو يمشي، وهو على فراشِه، وبتأمُّل القُرْآن يَفْتَح الله على الإنْسَان معانيَ ما كان يَعرِفها ولا تَخطُر له على البالِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، وجَرِّبْ تَجِدْ؛ لِأَنَّ القُرْآن تِبيانٌ لكل شَيْءٍ، وهذا كَلام الله عنـه. والَّذِي يَحُول بيننا وبينَ هَذَا التِّبـيانِ لكلِّ شَيْءٍ هو عدمُ إقبالنـا على هَذَا القُرْآنِ، والتأمُّل فيه، والتفكُّر فيه، وإلَّا لو أنَّنا تأمَّلنـاه لَوَجَدْنَاهُ تِبْيَانًا لكلِّ شَيْءٍ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعني استنسخها من غيرِه، وأيضًا الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هم يعرِفون أنَّهُ كانَ أُمِّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠).

لَكِنَّه أَمَرَ غيرَه أن يكتبَها له، ولهذا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [انْتَسَخَهَا مِن ذلك القوم بغيرِه]، انتسخها بغيره لأَنَّهُمْ ما قالوا: كتبها، قالوا: اكتتبها، يعني أمرَ غيرَه أن يكتبها له؛ لأَنَّهُمْ يعرِفون الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ كان أُمِّيًّا، لا يَقرأُ ولا يكتُبُ، ولا شكَّ أنَّ كُبَراءَهُم يعرِفون الحقَّ، لَكِنَّ عوامَّهم قد لا يعرِفون، قد يَخْفَى عليهم هَذَا الأمر ويقولون: أساطير الأوَّلين.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ تُمْلَى عليه يعني تُقْرَأ عليه، ليس تملى عليه لِيَكْتُبَهَا؛ لِأَنَّهُ لا يكتب ولَكِن تُقْرَأُ عليه ﴿بُكْرَةً﴾ في أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ في آخِر النهارِ، ثُمَّ يأتي بها للناس ويقول: هَذَا كَلام الله، وهذا وحيٌ يُوحَى إليَّ، وهو في ذلك على زَعْمِهِم ليسَ بصادِقٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هل يُؤْخَذ منه أن لهذينِ الوقتينِ ميزةً في حفظ القُرْآن وغيره؟

الجواب: يؤخَذ من هَذَا العموم: عموم كل وقتٍ، دائمًا إذا أُريد العموم يُذْكَرُ البُكرة والعَشِيّ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، معَ أنَّ رِزْقَهم لا يَنقطِع في الجنَّة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، لكِن يُذكَر هذانِ الوقتانِ للدوام، أَمَّا بالنسبة للواقع والتجربة فإننا جرَّبنا أن الحفظ في أول النهار أسرع، والحفظ في آخِر النهار -حسَب ما جَرَّبْتُ أنا- ليس بسريعٍ، لَكِنك إذا قمتَ مِنَ النومِ وجدتَ أنك حافِظُه، فكل وَاحِدٍ منهما له مَزِيَّة بالنسبة للحِفظ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن يكتب القُرْآن الكريم حسَب القواعد الإملائية الَّتِي في عصرنا؟

القول الأول: يقولون: لا يجوز مخالَفة الرسم العُثمانيّ، ويَجِب على الإنْسَان

إذا كتب القُرْآن لنفسِه أو لغـيره تعليمًا أو تلاوةً أو أيَّ حال مِنَ الأحوال؛ يَجِـب أن يَكُون على الرسم العثمانيّ؛ بناءً عَلَى أَنَّ هَذَا من باب التوقيف، فكما أنَّنا لا نغيِّر اللفظ فكذلك لا نُغَيِّر الكِتابة.

القول الثَّاني: يجوز أن يُكتَـبَ القُرْآنُ بحسَبِ القواعدِ الَّتِي يُكتَـب بها في أيِّ عصرٍ كان، ولا يَجِب التقيُّد بالرسْم العُثمانيّ. قالوا: لِأَنَّ الكِتَابة لها قواعد تَختلِفُ باختـلاف العصورِ والأُمم، والقُرْآن لم يَنْـزِلْ مكتوبًا، وإنَّما نزل مَقروءًا باللفـظ، لا بالكِتَابة، فالكِتَابةُ ليستْ تَوْقِيفِيَّة، ولأنه لو كانت قواعد الرَّسْم حينَ نُزُولِ القُرْآنِ على غير هَذَا الوجهِ لَكُتب بها، يعني لو فُرِض أنَّ الرسمَ حينَ نُزولِ القُرْآنِ أو حينَ جَمْعه في عصرِ عُثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على غير هَذِهِ القواعد لكُتِبَ بها، ولم يُكْتَبْ بشَيْءٍ آخَرَ، فدَلَّ ذلك عَلَى أَنَّ الكِتَابةَ تابعةٌ للعصر الَّذِي تُكتَب فيه.

القول الثالث: التفصيل؛ إن كُتِبَ لعـالم فبالرسم العثمانيّ، وإن كتب لجاهلٍ فبالرسم العَصري الَّذِي هو فيه. قالوا: لِأَنَّهُ إذا كانَ جاهِلًا ثُمَّ كُتـب له على الرَّسم العُثمانيّ أخطأَ في اللفظِ، مثلًا الصلاة إذا أردنا أن نَكْتُبَهَا على الرسمِ العثمانيّ ففيها واو، فيقـرؤها الجاهل: الصلوات مثـلًا أو الصلوة، وكذلك الزكاة، وكذلك الرِّبا وما أشبهها، فهَؤُلَاءِ يُفَصِّلون بين أن يكتب لعالم وأن يُكتب لجاهل.

والصحيحُ القولُ الثَّاني؛ أَنَّهُ يجوز أن يُكتَب القُرْآن بحسَب القواعد العصرية الَّتِي كُتب بها؛ لِأَنَّ كتابته ليس بتوقيفيَّة؛ لِأَنَّهُ لم ينزِلْ مكتوبًا فنقولَ: يَجِب التوقُّف على ما نزل عليه، وإنما هو كُتب في عصرٍ كانت قواعد الرسم على هَذَا الوجه، فبقِيَ على هَذَا الوجه.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا قد يؤدي إلى التحريف؟

فالجواب: القُرْآن يُتلَى، فالتِّلاوة تضبِط عن التحريف.

بناءً على هَذَا الخلافِ فهل كتابةُ القُرْآن بطَريقةِ برايل تجوز أو لا؟

لا تجوز من باب أَولى؛ لِأَنَّ هَذِهِ النُّقط أبعدُ ما تكون عن الحروف، وعلى هَذَا فلا يجوز إطلاقًا أن يُكتَب، وعملُ النَّاس الآنَ على خلاف ذلك، فالآن يوجد مصاحف كاملة مكتوبة بهَذِهِ الطَّريقة لفظًا لا ترجمةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما المانِع أن يُكتَب القُرْآن بطَريقة برايل بالرسم العثماني؟

فالجواب: الآن مثلًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:١١٦]، ﴿قَالَ﴾ لا تكتب إلا حسب قواعد برايل، حسب رسمه بالنقاط. **فَلَوْ قِيلَ**: كتابة برايل أَكْثَرها اختصارات، فمثلًا كلمة (كيف) يرمزون لها رمزًا؟

نقول: حتى لو فرض أنها تبقى على ما هي عليه وإذا كانت كتابة برايل أَكْثَرها اختصارات بحيث يرمزون الكلمات رمزًا، فيُسقِطون بعض الحروف كتابةً، فهَذِهِ تكون أبعدَ عن الجواز، وحتى لو قُلْنا بالجواز فينظر في هذا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كتابة المصحف على الرسم العُثمانيّ قد تشكل بالنسبة للقراءات؛ لِأَنَّهَا تَحتمِل أَكْثَرَ من وجهٍ، فلو كتبت على الكِتَابة المعروفة لاحتملت وجهًا وَاحِدًا؟

نقول: القراءات على الرسم العثماني صحيح تأتي على وجوهٍ، لكِن قبل أن يوجد التشكيل والإعراب، فالإعجام الآن يَمنع، فقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مثلًا بعد أن أُعجمتْ ونُقطتْ لا يمكن أنك تقرؤها: (فتثبتوا)، وكلمة ﴿مَٰلِكِ﴾ لو أردنا أن نَقْرَأها على الرسم العُثمانيّ بدون تشكيل فورًا نَقْرَؤها (مَلِكِ)، ولا يمكن أن نقرأها (مالك)، وبالتشكيل نقرؤها (مالك)؛ لِأَنَّهُ يرمز للألف بالشرطة، فإذَن على كلِّ حالٍ

سَيَتَبَيَّن هَذَا وهذا، فبعد التشكيل -في الحقيقة- لا تتبين القراءة، يعني لا تكون الكلمة الوَاحِدة جامعة للقراءات.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس القُرْآن نزل ملفوظًا به، فالمقصود تَعَلُّم اللفظ، فما المانع على هَذَا أن تكونَ الكِتَابةُ على هَذِهِ الطَّرِيقةِ جائزةً؟

نحن نقول بناء على الخلاف، أَمَّا إذا قُلْنا بالجواز فطَريقة برايل جائزة، لكِنِ الَّذِي يوجِب علينا الإِشْكال قول مَن قال: إن فيها اختـصارًا. المهم أننا إذا قُلْنا بالجواز سواء تفصيلًا أو إطلاقًا فطَريقة برايل هَذِهِ جائزة للحاجة، فعلى القول بجواز كتابة القُرْآن بغير الرسم العثماني الأمر فيها واسع، وما زال النَّاس الآن بالنسبة لتعليم الصبيان يكتبونه بالرسم العصري، وأنا ليس عندي إشكال في جواز الرسم العصري حتى وإن لم يحتج الإِنْسَان إليه، كما أشرنا إليه، وذكرنا ثلاثة أوجه للجواز:

الوجه الأول: أن القُرْآن نزل مَلفوظًا به لا مَكتوبًا، وحِينَئذٍ يمنع التوقيف.

الوجه الثَّاني: أَنَّهُ إِنَّما كُتب على هَذَا الوجه لِأَنَّ القاعدة الرسميَّة في ذلك الوقت كانت على هَذَا الوصفِ، لا لأنَّ الرَّسول مثلًا قال: اكْتُبُوه على هَذِهِ الصِّفةِ، أو أن جِبريل نَزَلَ به على هَذِهِ الصِّفةِ، إلى آخِرِه.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: في حديثٍ ذَكَره الزُّرقاني ذَكَرَ فيه كيفيَّة أمرِ النَّبيِّ ﷺ لهم بكتابةِ القُرْآنِ على هَذِهِ الصِّفةِ، كأنْ يقولَ لَهُم: مُدُّوا الألفَ أَوْ حرِّكوا اللامَ، ذكر فيه قواعد الرسم الخمسة: الحذف والوصل... إلخ؟

فالجواب: إذا قال: مُدُّوا الألف فهذا عليهم؛ لِأَنَّ (مَلِكْ يَوم الدِينِ) إذا مُدَّتِ الألفُ ثَبَتَتِ الألفُ، معَ أني لا أَعتقِد أن هَذَا يَصِحُّ عن الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبدًا،

يعني أن يقول: اكْتُبُوا الصلاة بالواوِ، واكتبوا الزكاةَ بالواوِ، واكْتُبُوا الربا بالواو، فالَّذِي يُغيِّر اللفظَ هو أن يأمر به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لفظًا أي أمرًا خاصًّا، فهَذَا معلومٌ، أَمَّا الأحرف السبعة فباللفظ لا بالكِتَابةِ.

الوجه الثالث: أَنَّنا نَجْزِمُ أَنَّهُ لو كانتِ القواعد الرسميَّة في ذلك الوقت على غير هَذَا الشكل؛ لَكُتِبَ بها بلا شكٍّ، فلا يُمْكِنُ أن يُكتَب بغير القواعد الرسميَّة في ذلك الوقت، لَكِنَّهُ في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبُوه حسَب القواعد الرسميَّة -فيما يبدو لي- في المدينة في ذلك الوقت.

فعلى هَذَا نقول: هَذَا القول هو الراجِح؛ أَنَّهُ يجوز أن يُكتَب القُرْآن بحسَب القواعد العصريَّة، والَّذِي نراه أيضًا: أَنَّهُ لا يجوز أن يُكتَب بالرسم العُثماني للجاهِلِ، فالإنْسَان الجاهل لا يجوز أن نكتُبَ له بالرسمِ العثمانيّ، والسَّبب أَنَّهُ لو قَرأَهُ على حسَب الرسم العُثماني وهو لم يُعلَّم إيَّاه في التلاوة سوف يُحرِّفُ القُرْآنَ.

الآية (٦)

• • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦].

• • • •

ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الغيبَ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ للمؤمنينَ ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم].

قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ﴾ أي القُرْآن، أمر للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن يقول لهم في رد قولهم: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ ونحن ذكرنا فيما سبق أن القُرْآن كله قد أُمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغِه، ولَكِن إذا جاء حُكْم مِنَ الأحكام أو خبر مِنَ الأخبار وأُمِرَ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقولَه فهذا يدل على الاهتمام به والعناية به، كأنه وصيَّة خاصَّة بهذا الأمر، وفي هَذَا المقام الَّذِي معنا فيه أيضًا زيادة على ذلك أَنَّهُ دَعْمٌ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ إذا كان الله هو الَّذِي يُلَقِّنُه الحُجَّة كان ذلك أبلغَ في دعمِه وتقويتِه، يعني كأن الله يُلَقِّنه الحجَّة لِيُحَاجَّ عنه، لكِن على لسانِه.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قد يَبدو للإنْسَان لأوَّل وَهلة أن هَذَا الجواب غيرُ مقنِعٍ، كيف ذلك؟ لِأَنَّ الرَّسولَ ما زال يقول: إن الَّذِي أنزلَهُ الله، فكيف يَكُون هَذَا الجواب مفحِمًا لهم ومبطِلًا لقولِهم؟

الوجه الأول: أن في القُرْآن أسرارًا وإخبارًا بالغيب لا يمكن أن يأتيَ بها بَشَرٌ. ولهذا قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، ففي أخبار هَذَا القُرْآن ما هو مِنَ الأسرار الَّتِي لا يطَّلِع عليها مُحَمَّد ﷺ ولا غيره، ولهذا عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قوله: قُلْ أنزله الله إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، يعني وَرَدَ في القُرْآن مِنَ الأخبار ما لم يكن معلومًا حينها، فيُخبِر بالخبر فيقع، فالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يمكنه أن يعلم ذلك، وإنما الَّذِي يعلمه الله، وهو الَّذِي أنزله، فنأخذ من قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ البُرهانَ القاطِعَ عَلَى أَنَّ هَذَا القُرْآن ليس من كَلام الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وليس أساطيرَ الأوَّلين؛ لِأَنَّ فيه إخبارًا عن أمورٍ مستقبَلةٍ تقع كما أخبر، ولا أظنّ أنَّ بشرًا يتمكَّن من ذلك، هَذَا وجهٌ بَيِّن جدًّا.

وجهٌ آخرُ يمكِن أن يؤخَذ، وهو أَنَّهُ إذا كان هَذَا القُرْآن من عند مُحَمَّد ﷺ وينسُبه إلى اللهِ، ويجاهد به وعليه أيضًا، فإن الله لا يمكِن أن يُقِرَّه على هَذَا الأمر؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يعلَم السرَّ، وهذا الَّذِي فعله مُحَمَّد ﷺ على فرضِ أَنَّهُ ليس بصحيحٍ هل هو سرٌّ أو جهرٌ؟ هو جهرٌ، فإذا كان الله يعلم السرَّ فَإِنَّهُ يعلم الجهرَ من باب أَولى، وإذا كان يعلم الجهرَ، ومُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: إن هَذَا كَلام الله؛ فإن الله تَعَالَى لا يمكن أن يُهْمِلَه، ولكان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعاجله بالعقوبة؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ بعض الأقاويل ليس كلها ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٥-٤٦]، وهذا هو السِّرُّ في العُدُول عن قوله: (قُلْ: أنزله الله) إلى قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَصَرَّفَ في إطلاق هَذِهِ الآية، فالآية ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهو يقول هنا: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ للمؤمنين

﴿رَحِيمًا﴾ بهم]، وهذا التصرف مِنَ المُفَسِّر في الحقيقة تخصيص لا وجه له، فالله تَعَالَى موصوف بهذا الوصف ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ لكل مَن يَستحِقّ المغفِرة من مؤمنٍ معه أصل الإيمان لَكِنَّهُ يعمل المعاصي.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٧، ٨)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧-٨].

• ● ● •

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾.

قُلْنَا: إن (ما) استفهاميَّة، و(لهذا) جار ومجرور خبر المبتدأ، و﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ الجملة ما محلها مِنَ الإعراب؟ نأتي بآيةٍ تُشْبِهُها حتى يَتَّضِحَ لنا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر:٤٩]، كيف نعرب ﴿مُعْرِضِينَ﴾؟ حال. إذن قوله: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ الجملة حاليَّة، يعني ما باله آكِلًا للطعام، كأَنَّهُمْ يقولون: لو كان رسولًا لم يأكل الطعام. هَذِهِ وَاحِدةٌ.

ثانيًا: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ يمشي في الأسواق مع النَّاس لا يَترَفَّع ولا يَختبئ في بيته، ولا يمشي ومعه جنوده يمينًا وشِمالًا وأمامًا وخلفًا.

ثالثًا: لماذا يمشي في الأسواق؟ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، يعني كأَنَّهُمْ يقولون: ولماذا لم يكن معه مَلَك؛ لِأَنَّ ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنى (هلَّا)، وهي للتحضيضِ.

وقوله: ﴿مَلَكٌ﴾ أحد الملائكة، وهو مشتقٌّ مِنَ الأَلُوكَة، وهي لغة الرِّسَالة، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

قوله: ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ﴾ مع الرَّسول ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾ يعني منذرًا؛ لِيُعْلَم بذلك أَنَّهُ صادق.

الوجه الرابع: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ السَّماء ينفقه، ولا يحتاج إلى المشيِ في الأسواق لطلبِ المعاشِ].

قوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يعني يُنزل كَنْزٌ مِنَ السماءِ، وإنما قُلْنا: مِنَ السَّماء لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يدل على الانتهاء والغاية، وإلا مِنَ الجائز أن يَكُونَ معنى قوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يعني يجد كَنزًا في الأرض، ولَكِنَّ (إلى) تفيد الانتهاء والغاية، فيَكُون معنى هذا: يُلْقى إليه مِنَ السماء، أي يُنْزَلُ إليه مِنَ السَّماء كَنز ليَكُونَ ذا مالٍ كثيرٍ؛ فلا يَحتاج إلى المشيِ في الأسواق، ولا يُصيبه الفقر كما هي حال النَّبي ﷺ الآن يأكل الطعـام ويمشي في الأسواق، قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي من ثمارها فيَكتفي بها، وفي قراءةٍ: «نأكل» بالنون، أيْ نحنُ، فيَكُون له مَزِيَّة عَلَيْنَا بها]، قوله [وفي قراءة]، أي سَبْعِيَّة؛ لِأَنَّ قاعدة الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّـهُ إذا قال: «وفي قراءة» فهي سبعيَّة، وإذا قال: (وقُرِئ) فهي شاذَّة. إذَن فيـها قراءتان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ و«نأكُل مِنها»(١). فهَذِهِ خمسةُ أشياءَ اعْتَرَضُوا بها.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص٢٦٤).

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي الكافرون للمؤمنين ﴿إِن﴾ ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مخدوعًا مغلوبًا على عقله].

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أولًا في هَذَا إظهار في مَقام الإضمارِ؛ لأنه قَالَ قبلُ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، وهنا ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ له فوائدُ:

الْفَائِدَة الأُولى: أَنَّهُ يُسجِّل على هَؤُلَاءِ وصفهم بهذا الظاهر، إن كان كفرًا فَهُوَ كفر، أو كان ظلمًا فَهُوَ ظلم، أو فسقًا فَهُوَ فِسق، أو إيمانًا فَهُوَ إيمان، إلى آخرِه.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن هَذَا الحكم أو هَذَا القول أو هَذَا الفعل ظلمٌ من أيِّ إِنْسَانٍ وقع؛ لِأَنَّهُ للتعليل، فهذا القول يُعتبر مِنَ الظلم، فيَكُون الأمر شاملًا، يعني أن كلَّ مَن قالَ فَهُوَ ظالمٌ.

الْفَائِدَة الثالثةُ: التنبيه: تنبيه المخاطَب؛ لِأَنَّ اختلاف الكَلام أو اختلاف النسق في الكَلام يُوجِب الانتباه، فالكَلام إذا كان على نَسَق وَاحِدٍ فإن الإِنْسَان يَنسجم، وربما يسرح، فإذا جاءه شَيْءٌ على خلافِ النمطِ الأولِ حَصَلَ بذلك الانتباه، وهَذِهِ الْفَائِدَة لفظيَّة، والفائدتانِ الأُوليانِ معنويَّتان.

قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ يقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ ما]، (ما) هَذِهِ تفسير لـ﴿إِن﴾، يعني أن ﴿إِن﴾ نافية، وإذا كانت نافيةً فالمسألة فيها حَصرٌ، يعني ما تتبعون إلا رجلًا، وهذا أبلغُ من قولهم: إنكم تتبعون رجلًا مسحورًا، يعني كأَنَّهُمْ قالوا: إن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس له حال مِنَ الأحوال إلا أَنَّهُ مسحورٌ، أي: مخدوع مغلوب على عقله ومختل العقل بالسحر. ومِنَ العجائب أَنَّهُمْ أحيانًا يقولون: إِنَّهُ ساحرٌ، وأحيانًا يقولون: إِنَّهُ مسحورٌ، وبينهما فرقٌ، لكِن مع هَذَا المبطِلُ كلُّ ما يمكِنه

مِنَ الدعاوي الباطلة يأتي بها، ولو تناقضتْ.

فننظر الآنَ إلى هَذِهِ الأشياءِ الستِّ الَّتِي قَدَحُوا في النَّبيِّ ﷺ بها:

أوَّلًا: قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ نجيبهم بأنه بشر، فَهُوَ محتاج إلى الطعام، وهذا ليسَ بقادحٍ ما دامت القرائنُ أو البيِّنات شهِدتْ بصدقِه، فإن كونه يأكل الطعام لا يَمنعُ من صدقِه؛ لِأَنَّهُ بَشَرٌ.

ثانيًا: قولهم: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ نَرُدّ عليهم بأن هَذَا مما يؤيِّد كونه رسولًا، لا مما يناقِض كونه رسولًا؛ لِأَنَّ هَذَا يَدُلُّ على تواضُعِهِ وعلى محَبَّته لأنْ يَكُونَ بين أُمَّته يفيدهم ويَسْتَفِيدون منه، إذَن فهَذِهِ كونها دليلًا على الرِّسَالةِ أوضحُ من كَوْنِهَا مانعًا منَ الرِّسَالةِ.

ثالثًا: قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ كأنَّهم يقولون: ولماذا لم يُنْزَلْ عليه مَلَكٌ؟ فيُقال: أولًا: إنَّهُ أُنْزِلَ إليه مَلَك لَكِنَّه ليس كما طَلَبُوا يَمْشِي معَه ويُنذِر، فإنَّ جِبريلَ قد أُنزل إلى النَّبيِّ ﷺ ومعه الوحيُ، وهذا هو ما يقوله النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأمَّا كونه معه مصاحِبًا له فهذا لا يَقدَح في الرِّسَالةِ إذا لم يَكُنْ مصاحبًا؛ لِأَنَّهُ لو كانَ مصاحِبًا وجاء على غير صفةِ الملائكةِ عاد الأمرُ كما كان، وصارت الحُجَّة الَّتِي يَحتجُّون بها أو الشُّبهة الَّتِي يحتجون بها موجودةً، ولو جُعِلَ في صورة الملَك لكان يُقضَى عليهم إذا لم يُؤمِنوا؛ لِأَنَّ الآياتِ المعيَّنة إذا طُلِبَت ولم يُؤمِن مَن طَلَبها فَإِنَّهُ يُهْلَكُ، وأمَّا آية انشقاق القمرِ فليستْ معيَّنة، ولهذا قيَّدناها بالآياتِ المعيَّنة إذا طُلِبَتْ، أمَّا إذا قالوا: أَرِنا آيةً ولم يُعيِّنوها فهذا قد لا يَهْلِكون به.

رابعًا: قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يقولون: لماذا لم يكنْ هَذَا غنيًّا، فكونه قليلَ ذاتِ اليدِ يدُلُّ على أَنَّهُ غير رسولٍ، يقولون: أنت رسول فلماذا لم يَنزِلْ عليك

كَنز تَستغني به عن طلب الرزق؟ بماذا نُجيبهم؟ دَفع قولهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ خُيِّر بينَ أن تُسيَّر معه الجبال ذَهَبًا أو خُيِّر بين أن يَكُونَ مِلكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فاختار هذا.

لَكِنْ هَذِهِ ليستْ مقنِعةً لهم، فنقول: الرِّسَالة لا تَتَوَقَّف على المال، وليس المال دليلًا للرسالة؛ لِأَنَّ هناك أُناسًا كثيرينَ أغنياء ولَيْسُوا برسلٍ. ثُمَّ نقول: إن عدم المال معه قد يَكُون أكْثَر لتأييد كونه رسولًا؛ لِأَنَّهُ لو نزل إليه مال وكان عندَه كَنزٌ واتبعه النَّاس مِنْ أجْلِهِ لصارت المسألة أَنَّهُمْ ما اتَّبعوه مِنْ أجْل رسالته، ولقيل: اتبعه النَّاس مِنْ أجْل كَنزه وغِناه. إذَن نقول: كونه لم يُنزَل عليه كَنز ليس مانعًا مِنَ الرِّسَالة؛ لِأَنَّ ثبوت الرِّسَالة لا يتوقف على الكنز، بل تَثْبُتُ بدونه، فهذا إبطال لقولِهم.

خامسًا: قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ نقول فيها مثل ما قُلنا في مسألة الكَنْز؛ أن هَذَا ليس بلازمٍ للرسالةِ، وأنه لو كان له جَنَّة يأكل منها أو (نأكل) على القراءة الثَّانية، وهي أَولى، لقيل: إنهم اتَّبعوه لأجل الأكل من هَذِهِ الجنَّة.

سادسًا: قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ بماذا نَرُدُّ عليهم؟ نرد عليهم بأن المسحور لا يُمكِن أن يأتيَ بمثل هَذَا الكَلام الَّذِي يعجِز عنه العقلاء، فيقال: فهل يمكن لإنْسَان مسحور مخبول العقل بالسِّحر أن يأتي بكَلام يعجِز عنه العقلاء ويُتَحَدَّى العقلاء أن يأتوا بمثله ولا يستطيعون؟ لا يمكن، هَذَا واضح جدًّا، ولهذا قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، فالمسحورُ لا يُمْكِنِ أنْ يأتيَ بمثلِ هَذَا الكَلام، فنحنُ لا نقولُ: إِنَّهُ يأتي بكَلامٍ يُمْكِن نَقْضُه أو لا يُمكِن، بل لا يُمْكِن إلَّا أن يأتيَ بكَلامٍ غيرِ متوازنٍ، فكيف بكَلامٍ مُعْجِزٍ؟!

الآية (٩)

• ● ∽ ● •

۞ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٩].

• ● ∽ ● •

الاستفهام في قولِهِ: ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ﴾ للتعجُّب والإنكارِ.

وقوله: ﴿الْأَمْثَالَ﴾ يعني الأشباهَ أوِ الأوصاف، فالمَثَل يأتي بمعنى الشَّبَه ويأتي بمعنى الصِّفة، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد:١٥]، معنى ﴿مَّثَلُ﴾ صفة الجنة، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة:١٧]، شَبَهُهُمْ كشَبَهِ، فالأمثال إما بمعنى الأشباه أو بمعنى الأوصاف. يعني كيف جعلوا هَذِهِ الأوصاف الَّتِي يقدَحون برسالتِك بها، انظُر إليها متعجِّبًا، والتعجُّب يَقتضي في الغالب الإنكارَ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ بالمسحورِ والمحتاج إلى ما يُنفِقُه، وإلى مَلَكٍ يقوم معه بالأمْر ﴿فَضَلُّوا﴾ بذلكَ عن الهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا إليه].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ﴾ الخطاب للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكونه يخاطِب الرَّسول ﷺ بهذا الإنكارِ عليهم لا يَخْفَى ما فيه من التأييدِ والتقويَةِ للرسول ﷺ، وعناية الله تَعالَى به ﷺ، وهذا أمرٌ معلومٌ.

وقوله: ﴿فَضَلُّواْ﴾ الفاء هَذِهِ عاطِفةٌ، لَكِنَّها تفيد السَّببيَّة، أي فبسَبَب ما ضَرَبُوه لكَ منَ الأمثال ضَلُّوا. وفي هَذَا دليلٌ على أنَّ الإنْسَان إذا أوردَ الشُّبُهاتِ على نفسه أو على مَن أتى بالحقِّ فإِنَّهُ يَكُون سَبَبًا لضلالِهِ إذا لم يَقْبَلِ الإنْسَانُ الحَقَّ ويَدَع ما يَرِدُ على خاطرِه من الشُّبُهات حول ذلك الحق، فَإِنَّهُ يَكُون سَبَبًا لضلالِه، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّواْ﴾ الفاء عاطفة وتفيد السَّببية.

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مِفتاح دار السَّعادة) أنَّهُ تكلم مع شيخِه ابن تيميَّة في مسائل فجعل يُورِد عليه بالنقض، فقال له: «لا تَجْعَلْ قَلْبَكَ للإيرادات والشُّبُهاتِ مثلَ السفنجة فيَتَشَرَّبها فلا ينضح إلَّا بِهَا، ولَكِن اجْعَلْهُ كالزُّجاجة المُصْمَتَة، تَمُرُّ الشُّبُهَات بظاهرها ولا تَسْتَقِرّ فيها، فيراها بصفائه ويَدْفَعها بصَلابتِه»[1] وهذا صحيحٌ؛ لِأَنَّ الإنْسَان إذا فتح على نفسِه بابَ الشُّبُهات والتساؤلات فإِنَّهُ يَضِلّ، وانظُرْ إلى إرشاد النَّبي ﷺ الرجل حينما يتساءل النَّاس: مَن خَلَقَ كذا؟ من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقولوا: من خلق الله؟ فأمر النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الإنْسَان إذا وصل إلى هَذَا الحدِّ أنْ يَستعيذَ بالله ولْيَنْتَهِ، وأَرشدَه إلى أن يقرأ «اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»[2] وفي حديثٍ آخرَ: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ»[3] فهَذِهِ الأشياء الَّتِي تَرِدُ على القلب إذا استرسَلَ الإنْسَان معها فسوف تكونُ سَبَبًا لضلالِهِ كما تفيده هَذِهِ الآية وآيات أخرى كثيرة، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية (١/ ١٤٠) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٠).

﴿فِي طُغْيَنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالإنْسَان يَجِب عليه أن يَكُون قابلًا للحقِّ متشوِّفًا له، ولا يُورِدُ على نفسِه شُبُهاتٍ؛ لِأَنَّ الشبهات ما لَهَا حدٌّ، والشيطان يحبُّ من ابن آدم أن يَرِدَ على قلبه هَذِهِ الشبهات لِيَضِلَّ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه]، المسحور واضح، وقوله: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ كلها مندرِجة في قوله: [والمحتاج إلى ما ينفقه وإلى مَلَكٍ يقوم معه].

الخلاصة: أن هَؤُلَاءِ الكفار جعلوا مع الله آلهةً، وهذا قَدْحٌ في التَّوحِيدِ، ثُمَّ زَعَمُوا أنَّ القُرْآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، وهذا قَدْحٌ في القُرْآنِ مباشرةً، ويَتَضَمَّن القَدْحَ في الله أيضًا، والقدح في الرَّسول ﷺ، ثُمَّ بعد ذلك ذكر الله قَدْحَهم في الرَّسول ﷺ؛ القدح المباشر بِهَذِهِ الأوجه الستةِ، وتَبَيَّنَ -ولله الحمد- أن هَذِهِ الأوجه الَّتِي أوردوها قدحًا في النَّبي ﷺ كلها ليستْ بقدحٍ، بل منها ما يؤيِّد أَنَّهُ رسولٌ.

وقدِ استدلَّ بعضُ العلماءِ بِهَذِهِ الآية عَلَى أَنَّ النَّبي ﷺ لم يُسْحَرْ، وكذَّبوا بذلك الأحاديثَ المشهورةَ -بل المتواترة- أن النَّبيَّ ﷺ سُحر، وأن الله أنزل عليه المعوِّذتينِ لنقضِ هَذَا السحرِ، وهذا أمر لا شكَّ فيه؛ لِأَنَّ الأحاديث في ذلك متواترة، لكِن هم يقولون: هَذِهِ الأحاديث كلها كذِب ليستْ صحيحةً؛ لِأَنَّ القول بأنه مسحور هو قول الكفَّار، فهل لاستدلالهم بِهَذِهِ الآية وجهٌ أو لا؟

الردُّ عليهم بأنْ نقولَ: إنَّ هَؤُلَاءِ الظالمينَ الَّذِينَ قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أرادوا بذلك أن السحرَ وَصْفٌ لازِمٌ له، وأن كل هَذَا الكَلام الَّذِي يقوله كَلامٌ مسحور مخبول، أَمَّا السحر الَّذِي طرأ على النَّبي ﷺ فَهُوَ سحر طارئٌ، ثُمَّ مع ذلك ما أَثَّر في الرِّسَالة أبدًا، عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقول: الَّذِي حصل أَنَّهُ كان يخيَّل إليه

أَنَّهُ فعل الشَيْء ولم يفعلْه، هَذَا الَّذِي حصل، وهي مدة وجيزة أيضًا، ولم يؤثر هَذَا في الرِّسَالة، فما قَالَ شيئًا في الرِّسَالة مما يمكِن أن تتغير به الرِّسَالة في هَذِهِ المدَّة.

فالحاصِلُ: أنَّ الاستدلالَ بهَذِهِ الآيةِ على إبطال أحاديثَ صحيحةٍ متواترةٍ لا شكَّ أَنَّهُ جُرأةٌ عظيمة، فلو كانت الأحاديث ضعيفةً أو كانت الأحاديث مثلًا من الأحاديث الَّتِي في أَدنَى مراتب الصحة لَكِنَّا نقول: إن هَذَا له وجهٌ، وَأَمَّا أحاديث صحيحة مشهورة متواتِرة ونُبطِلها بمثل هَذَا الأمر فلا يمكن، ولذلك الصواب، بل اليقين المتيقَّن المتعيَّن أن ذلك وقع للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولَكِنَّ الله تَعَالَى أنزل عليه سورتينِ ثُمَّ هُدِيَ إلى محَلّ السِّحر، وسِحره كان في بِئْرِ أَرِيسٍ، وكان في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ وجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ[1] يعني كافورًا، كافور الفَحل يَكُون كبيرًا ويَسَع، هَذَا السحر وُضِعَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مُشط: الَّذِي يكَد به الرأسُ، والمُشاطة: الشَّعر الَّذِي يتناثر مع الكد، وجُعل هَذَا الكافورُ في البئر الَّذِي كان الرَّسول ﷺ يأتي إليه، وذهب النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأمر بأن يُخرَج هَذَا السحر فأُخرِجَ السحرُ فنُقِضَ، فعافاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: ﴿سَبِيلًا﴾ بمعنى طَرِيقًا، وهو طَرِيق إلى الهدى، والعياذ بالله، وفي هَذَا تحذير -كما أشرنا إليه أولًا- من أن يتابع الإنْسَان الشُّبه الَّتِي تَرِد عليه، وأنه يجِب على الإنْسَان أن يَبْتَعِدَ عن هَذَا كلِّه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب السحر، رقم (٥٧٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب السحر، رقم (٢١٨٩).

الآية (١٠)

* قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَبَارَكَ﴾ تكاثَر خَيْر ﴿الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ﴾]، الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في أول السورة فسَّر تبارك بـ(تَعَالَى)، وهنا فسَّرها بـ(تكاثر خَيْرُه)، فهل معنى ذلك أن هَذِهِ الكلِمة خاضعة للسياق، وأنها تفسَّر في سياقٍ بمعنى (تَعَالَى) وفي سياق بمعنى (تكاثر خيرُه)؟ ظاهر صَنيع الْمُفَسِّر أنها كذلك وأن هَذِهِ الكلمة (تبارك) إن جاءت في سياق فُسِّرَت بمقتضاهُ وإنْ جاءت في سياق آخَر فسرت بمقتضاه، ولَكِنَّنا أشرنا فيما سبق إلى أنها وإنْ دلَّتْ على التعالي فهي دالَّة أيضًا على كَثْرةِ الخير؛ لِأَنَّهَا مِنَ البَرَكة، والبركة هي كثرة الخير مع دوامِهِ، مأخوذةٌ من البِرْكة الَّتِي هي مَجْمَعُ الماءِ، ففيها ماء ثابتٌ وكثيرٌ.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تَعالَى معَ كثرةِ الخيراتِ ﴿الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ إلى آخره، جُملة صلة الموصول هنا شرطيَّة، أي الجملة الَّتِي وُصل بها الموصول شرطية؛ وهي ﴿إِن شَاءَ جَعَلَ﴾، فنستفيد من ذلك أن صلة الموصول تأتي شرطيةً، وإذا أتتْ شرطيةً فلا بدَّ من وجود فعل الشرطِ وجواب الشرط، ثُمَّ نقول: الجملة من فعل الشرط وجوابه صلة الموصول لا محلَّ لها من الإعرابِ.

قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ والمراد به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّذِي قالوه من الكَنز والبُستان]، ما هو الخير؟ أبدل منه قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي في الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ شاءَ أن يُعْطِيَهُ إيَّاها في الآخرة ﴿وَيَجْعَل﴾ بالجزم ﴿لَّكَ قُصُورًا﴾ أيضًا، وفي قراءة بالرفع استئنافًا[1]].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي في الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ شاء أن يعطيَه إياها في الآخِرة]، ليس له داعٍ؛ لِأَنَّ السياق يُغني عن هَذَا القيد؛ إذ إن هَؤُلَاءِ يَقترِحون أنْ تكونَ هَذِهِ الأمور السابقة لهم في الدُّنْيا، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا﴾، فالقيد الَّذِي ذكره المُفَسِّر كأنه يقول جوابًا عن الإيراد الَّذِي يرِد علينا؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد شاء أن يعطيَ رسوله جنة الآخرة، فقيَّد الآية بالدُّنْيا.

نقول: لا حاجة لهذا القيد؛ لأَنَّهُمْ هم لا يريدون أن الله يجعل له كنزًا وجنةً في الآخرة، يريدون أن تكون له في الدُّنْيا، فيقول الله: لو شاء أن يجعل لك ذلك لجعل لك خيرًا منه؛ وهي هَذِهِ البساتين، وهم يقولون: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ والَّتِي يجعل الله بدلًا عنها لو شاء جناتٍ ليست جنَّةً وَاحِدةً.

قوله: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ الجَنَّة ربما يُؤكَل منها، وهي ليس فيها أنهارٌ، يعني يمكن أن يشربَ النخيلُ والأشجار بعروقِه، لكِن قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أبلغ وأَتَمُّ؛ لأنَّ لِجريانِ الماءِ في أنهارِهِ شَهوة بَصَرِيَّة يَتَلَذَّذُ بها الإنْسَان عند رؤيته إيَّاها زيادةً على كثرة الماء على البُستان الَّذِي يَكُون سَبَبًا لكثرة نَمائِهِ وقوَّتِه.

وقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ فيها قراءتان (يَجْعَلْ) بالسكون و«يجعلُ» بالرفع،

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٤).

فعلى قراءةِ السكونِ تكون معطوفةً على جوابِ الشرطِ ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ﴾ ﴿وَيَجْعَل﴾، وعلى قراءة الرفع يقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استئـنافًا]، ولَكِنَّه ليس متعيـنًا على قراءة الرفع، يعني كأَنَّه يقول: وهو يجعل لك قُصورًا، وليس كذلك، يعني لا يُفهَم منه هَذَا الأمرُ، فَهُوَ استئناف من حيـثُ الإعرابُ، لا من حيثُ المعنى؛ لَكِنَّه من حيثُ الإعراب يجوزُ فيه الجَزْم اتِّباعا للفظِ، ويجوز الرفعُ استئـنافًا، ويَكُون عَطْفَ جملةٍ على جملةٍ، يقول ابن مالكٍ في أَلْفِيَّتِه[1]:

وَبَعْدَ مَاضٍ رَفْعُكَ الجَزَا حَسَـن ....

يعني إذا كان فعل الشرط ماضيًا فرفع الجزاء إذا كان مضارعًا حسنٌ.

.... وَرَفْعُـهُ بَعْـدَ مُضَـارِعٍ وَهَـنْ

يعني: ضَعْفٌ، فَهُوَ جائزٌ لَكِنَّه ضعيفٌ.

فائدة: عِناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّسولِ ﷺ في الدفاعِ عنه، وعنايةُ الله بالرَّسولِ في الدفاعِ عنه ليستْ عنايةً به وحدَهُ، بل حتى بالأُمة؛ لِأَنَّ ذلك يُزِيلُ الشُّبَهَ الَّتِي يَحْتَجُّ بها المبطِلون، وإزالةُ الشُّبَه عن الأُمَّة هَذَا من رَحمة اللهِ تَعَالَى بهم.

• ● ۞ ● •

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٥٨)، ط. دار التعاون.

الآيــة (١١)

• ● ✿ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان:١١].

• ● ✿ ● •

لَمَّا ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ ما جَنَى به هَؤُلَاءِ عليه وعلى وحيه وعلى رسولِه والجواب عنْ ذلك؛ ذَكَرَ أمرًا آخرَ، وهو تكذيبهم بالساعةِ، وأتى بـ(بل) الدالَّة على الانتقالِ، وهذا الانتقال ليس إبطالًا لِمَا سبقَ، بل إضافة شَيْء آخَرَ إليه، وهو قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾، والمرادُ بالساعةِ يومُ القيامةِ، وكلمةُ الساعةِ تُطْلَق في اللُّغة على كل أمرٍ هامٍّ، كأنه لا يوجَد إلا هَذِهِ الساعة الَّتِي يُشار إليها بهذا الزمنِ، وإلا فهي في الأَصْل لكلِّ مُدَّةٍ من الزمان؛ قليلة كانت أم كثيرة، لَكِنها تُطلَق كثيرًا على ما يَحْدُثُ فيه أمر هامٌّ، وذلك كما في هَذِهِ الآية.

والتكذيبُ بالساعةِ يَشمَلُ التكذيبَ بوقوعِها رأسًا، بأن يقولَ: لا بعثَ، أو التكذيب بما يَقَع فيها من الأمور؛ كالحساب والكُتُب والصِّراط والحوض والشفاعة وما أشبهَ ذلك؛ لِأَنَّ الإيمان باليوم الآخِرِ يَتَضَمَّن الإيمان بوقوعِه وبما يقع فيه، فإذا كَذَّبَ به الإنْسَان رأسًا فقد كذَّب به، وإذا صدَّق به ولَكِن كذَّب بما يقع فيه فَهُوَ أيضًا مكذِّب له.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ نارًا مُسعرةً، أي مُشْتَدَّة]،

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ بمعنى هَيَّئْنا ﴿لِمَن كَذَّبَ﴾ بالساعةِ منهم ومن غيرهم، ولهذا أتى بـ(مَنْ) الدالَّة على العمومِ، ولم يَقُلْ: وأَعْتَدْنَا لهم، وهذا إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ، وقد سبقَ أنَّ من فوائدِ الإظهارِ في مَوْضِعِ الإضمارِ العمومُ والتصريحُ بالعِلَّة؛ عِلة الحُكم، فقوله: ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ كأن هَذَا تعليلٌ للحُكْمِ الَّذِي هو قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾؛ لأَنَّهُمْ كذَّبوا بالساعة.

وقوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ﴾ يستفاد منه أن النار مَخلوقةٌ الآن، وهو كذلك، وقد دلَّت على ذلك نصوصُ الكِتَابِ والسنَّة؛ قَالَ الله تَعَالَى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، وهذا نصٌّ صريحٌ في أنها مخلوقةٌ. وفي الأحاديث الصحيحة ما يَدُلُّ على ذلك؛ مثل: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ؛ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ»(١).

وقوله: ﴿سَعِيرًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نارًا مُسَعَرَّة]، فجعل فَعيلا بمعنى مفعول، أي مسعَّرة، ويَحتمِل أنْ تكونَ بمعنى فاعلٍ؛ أي حارقة تُحْرِق مَن دخل فيها، والمعنى لا يَتنافَى؛ لِأَنَّهَا إذا كانت مُسَعَّرة يعني مشتَدَّة الحرارة، أو كانت هي بنفسها تَسْعَرُ بالنَّاس وتأكلهم، فهذا وهذا متلازمانِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة، ويناله الحر في طريقه، رقم (٦١٧).

الآيــة (١٢)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ غَلَيانًا كالغضبانِ إذا غَلَى صَدرُه منَ الغَضَب ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتًا شديدًا أو سماعَ التغيُّظ رُؤْيته وعِلمه].

قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، الفاعل هي السَّعير، وفيه دليلٌ على أنها تَرى، وهَذِهِ الرؤيةُ يجِب أن نَحْمِلَها على المعنى الحقيقيِّ، ولا يمكِن أن نقولَ: إن هَذَا من باب الاستعارة، وإنه معنًى مجازيٌّ؛ لِأَنَّهُ من الجائز أن يخلُق الله تَعَالَى فيها إدراكَ الرؤيَة، وإن كانتْ هي ليستْ من ذواتِ الرؤيةِ في العادةِ، ولَكِن الله عَزَّوَجَلَّ على كـلِّ شَيْءٍ قدير، كما أن الأرضَ تَسمَـع وتحدِّث: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، والمؤذِّن لا يسمع صوته شَجَرٌ ولا مَدَرٌ إلا شَهِدَ له يومَ القيامةِ(١)، فنحن نقولُ: ليسَ في هَذِهِ الآية استعارة، بل هي على المعنى الحقيقيِّ، وأن النار ترَى؛ لِأَنَّ الله أخـبرَ أنها ترى ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ [الفرقان:١٢]، وما المانِع مِن أن الله يخلُـق بها هَذِهِ الحاسَّة، بدليل قوله أيضًا: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [الفرقان:١٢]، التغيُّظ من المعروف أَنَّهُ لا يَكُون إلا من ذواتِ الشُّعور، ولَكِنْ مع هَذَا يجِبُ أن نقولَ: إِنَّهُ في هَذِهِ الآية على ظاهره، وإنها تَتغيَّظ ويُسمَع لِتغيُّظِها صوتٌ مثل تغيُّظ الإنْسَان الغضبانِ، إذا امتلأ

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٢٠٣، رقم ٣٨٩).

صدرُه غَضَبًا فإنك تَسمَع له صوتًا من الغَضَبِ، وهذا دليل على شِدَّة حَنَقها -والعِياذُ بالله- على أهلها، وأنها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة تبارك: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك:٨]، فما ظنُّك بشَيْءٍ يُلقَى الإنْسَانُ في جوفِه وهو ممتلِئٌ عليه غيظًا وحَنَقًا، ماذا يَصنع به؟ هَذَا دليل على شِدَّة عَذابها والعياذُ باللهِ، وأنها لا تَرْحَمُهم ولا تألو فيهم أيّ شَيْء إلَّا ولا ذِمَّةً.

قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ [غَلَيانًا كالغضبان إذا غلَى صدره غليانًا من الغضبِ]، ﴿وَزَفِيرٗا﴾، وهو من مكان بعيدٍ، مِمَّا يدلُّ على أنَّ هَذَا التغيُّظ والزفير شديد، ما دام يُسمَع من محَلٍّ بعيدٍ فَإِنَّهُ شديد.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [أو سماع التغيُّظ: رُؤْيَتُه وعِلْمُه]، هَذَا ليس بصحيحٍ، وإن كانَ محتمَلًا، لكِن المعنى الأوَّل أن تُحمَل الرؤية على الحقيقةِ، هَذَا هو الواجب، وقد مرَّ من قواعد التفسير، بل من قواعد كل كَلام، أَنَّهُ يَجِب أن يُحمَل على ظاهِرِهِ وعلى حقيقتِه ما لم يوجدْ دليل يَصرِف عن الحقيقةِ أو الظاهِرِ، وليس أَيَّ دليلٍ، بل لا بدَّ أنْ يوجدَ دليلٌ صحيحٌ، وَأَمَّا ما يظنُّه الإنْسَان دليلًا وليس بدليلٍ فهذا غير مقبول.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضهم يقول إن المراد بقوله: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ أي: إذا رآهم زَبَانِيَتُها؟

هذا من التحريفِ في الواقعِ؛ لأَنَّنا قُلْنا: جائِزٌ أَنَّ الله تَعَالَى يخلُق فيها حاسَّة الرؤية.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وردت أحاديثُ ضعيفةٌ في أن النار لها عينانِ، وهَذِهِ الأحاديث تؤيدنا؟

فالجواب: هَذِهِ الأحاديث الضعيفة نحن لا نحتاج إلى تأييدها ما دام عندنا اللفظ صريح ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، فالَّذي خَلَقَ العينَ في الإنْسَانِ لا يَمتنِع عليه أن يَخْلُقَها في النار، لكِن بعض النَّاس إذا لم يُدْرِكْ عقلُه الشَّيْءَ ذَهَبَ يحرِّفه إلى ما يدركه، ثُمَّ إِنَّهُ يَجب أيضًا أن نعرِف أن أحوال الآخِرة لا يُمكِنُ أن تُقاس بأحوال الدُّنْيا، نحن نعلم أن النَّاس يُحشَرون منهم من يَسعَى نورُه بين يديه، ومنهم من هو في ظُلْمَةٍ، وهم في مكانٍ وَاحِدٍ مستوٍ يُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذُهُمُ البصرُ، ونعلم أن من النَّاسِ من يَعْرَق فيصل العرقُ إلى كَعْبَيْه وركبتيه وحِقْوَيْه، ومنهم من يُلْجِمُه إلجامًا، ومع ذلك فهم في مكانٍ وَاحِدٍ، ولا يمكن أنْ تُقاسَ أحوالُ الآخِرةِ بأحوالِ الدُّنْيا أبدًا.

• ● ۞ ● •

الآيتان (١٣، ١٤)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٣-١٤].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ بالتشديد والتخفيف]، يعني قراءتينِ سَبْعِيَّتَيْنِ[1]، ثم قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن يضيَّق عليهم و﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَكَانًا﴾؛ لِأَنَّهُ في الأَصْل صفة له ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾]، إلى آخره.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ﴾ في هَذا دليل على أَنَّهُمْ -والعِياذُ بالله- لا يُعامَلون معاملةَ رحمةٍ، بل يُلقَوْنَ إلقاءً ويُطرَحون طرحًا. وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ ظرفٌ عاملُه قوله: ﴿أُلْقُواْ﴾، وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ في الأَصْل صفة، ولَكِن القاعدة عند أهل النحو أن الجارَّ والمجرور إذا تقدمَ على مَوْصُوفِهِ صار حالًا منه؛ لِأَنَّ الصِّفةَ لا تَتَقَدَّمُ على الموصوفِ، تقول مثلًا: (جاء رجل على بعيرٍ راكبًا)، فتعرب (راكبًا) حالًا، لكِن لو قدمتها على رجل (جاء راكب) لوجبَ أن تكون صفة بالمعنى، كذلك الجارّ والمجرور إذا قلت (جاء رجل على بعير) (على بعير) صفة لِرَجل، فإذا قدمتَ (على بعير): (جاء على بعير رجل) وجب أن تكون الصِّفة هَذِهِ حالا؛ لِأَنَّ الصِّفة لا تَتَقَدَّمُ على الموصوفِ، ولهذا قال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَكَانًا﴾ لِأَنَّهُ في الأَصْل صفة له].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٥).

وفي قوله: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ أيضًا دليل عَلَى أَنَّ هَذَا المكان الَّذِي يُلقَوْن منه لا يَكُون واسعًا، بل يُضَيَّقُ عليهم، وهذا قبل دخولها، فكيف إذا دخلوها، ويَحتمِل أنَّ نفس الأمكِنة الَّتِي هم فيها في نفس النار تكون ضيِّقةً إذا أُلقوا مكانًا منها ضيقًا، فتكون (مِنْ) هَذِهِ قريبةً من معنى (فيها)، فالمكان نفسه في النار يَكُون ضيِّقًا، يعني تضيَّق عليهم؛ لِأَنَّ كل وَاحِد منهم -والعياذ بالله- يَكُون في تابوتٍ كما جاء في الحديثِ؛ في تابوتٍ مغلَق عليه[1].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يُشكِل على هَذَا أنَّ بعضَ أجسادهم تُفَخَّم في النار؟

نقول: هو نفسه يُفخَّم، ولَكِن لا يَمنَع أن يُفخَّمَ وهو في مكانٍ ضيِّقٍ، ويمكن أن يَكُونَ تفخيمُه هَذَا من أسباب التضييق.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مصفَّدين قد قُرِنَتْ أي جُمِعَتْ أيديهم إلى أعناقِهم في الأغلالِ، والتشديدُ للتكثيرِ]، التشديد في قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ لِأَنَّ (مُقَرَّن) مأخوذٌ من (قَرَنَ) أو من (قُرِّنَ)، قُرِّن فَهُوَ مقرَّن، وأصلها من (قَرَنَ) بالتخفيف: قَرَنْتُ هَذَا الرجل أَقْرِنَهُ فَهُوَ مقرون، لَكِنها أتتْ بالتشديد للتكثيرِ، أو للمبالَغة في هَذَا القَرْن، وأَنَّهُمْ يُقَرَّنون بشدة، فهم إذا ﴿أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هلاكًا فيقالُ لهم ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾]، هَذَا في الحقيقة تصويرٌ بَيِّن لحالِ النارِ وأهلِها يوم القيامةِ، أَنَّهُمْ قبل أن يدخُلوها يَسمعون لها تغيُّظًا وزَفيرًا، وهذا بلا شكٍّ يَخلَع قلوبهم ويُرعِبهم، ثم إذا أُلقوا فيها لا يُلقَون على سبيل الكرامةِ، بل يُلقَون إلقاءً، ثم إنهم لا يلقون هكذا مطلَقين، ولكن مقرَّنين، يعني مجموعة أَيديهم إلى أعناقِهم،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢١٠، رقم ٣٥٤١٤).

ثم إذا أُلقُوا على هَذَا الوصف يُدْعَوْنَ بالثُّبور والعياذ بالله ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ يعني: يقولون واهَلاَكَنا واثُبُورَنا، وما أشبهَ ذَلِكَ، فيقال لهم: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدۡعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، هَذَا على سبيل التوبيخِ؛ لِأَنَّ العادةَ أن الرجلَ إذا دَعَا بالثبورِ في الدُّنْيا رُحِم، ولكنَّهم هناك لا يُرحَمون، يقال لهم: إِنَّ دَعْوَاكُم بالثبورِ لا تفيدكم شيئًا ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فالعذاب سَيَسْتَمِرّ، وكل هَذَا يُوجِب لأهلِ النارِ -نسأل الله السلامة منها- أَنَّهُمْ يُعذَّبون عذابًا قلبيًّا وعذابًا جسميًّا، والعذاب القلبيّ قد يَكُون في بعض الأحيان أشدَّ من العذاب الجسميِّ، والعياذ بالله، فهم لا يُكرَّمون لا بالفعلِ ولا بالاستقبالِ ولا بالقولِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما ذُكِرَ عن هَـؤُلَاءِ الكفارِ فيما سبقَ من الآياتِ يَدُلّ على أَنَّهُمْ لا يؤمنون بالبَعث، فلماذا نصَّ على تكذيبهم بالبَعث؟

صحيحٌ أن ما ذكر عنهم مما سَبَقَ يدل على أَنَّهُمْ لا يؤمنون بالبعثِ؛ لِأَنَّ مَن آمَنَ بالبَعث لَزِمَ أنْ يَعْمَلَ له، ولكن هَذَا في الحقيقة من جملةِ ما قالوه؛ أَنَّهُمْ كذبوا بالبعث، فَهُوَ إضافة إلى ما سبقَ، لكِن يَنبغي أن نقولَ: لماذا ذُكِرَ بـ(بل) دون (الواو)، مع أن المعائب أو المساوئ الَّتِي سبقت كلها ذُكرت بالواو، وهَذِهِ ذكرت بـ(بل)؟ قد يوحي هَذَا بأن من أسباب أقوالهم السابقة أَنَّهُمْ كذبوا بالساعةِ، يعني أَنَّهُمْ ليس عندهم إيمان بالساعة، ولو آمنوا بها ما قَالُوا ما سبق.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كل كفَّار العرب يُنكِرون الساعة؟

الجوابُ: الظاهرُ لَيْسُوا كلهم ينكرون هذا، فبعضهم يُقِرّ بهذا، لَكِنَّهُ يُشرِك بالله، ولكن يذكر الله عَزَّوَجَلَّ الأفعالَ منسوبةً إلى الأُمَّة جميعًا، حتى إِنَّهُ أحيانًا يخاطِب آخِرَ الأُمة بما فعل أوَّلُها؛ لِأَنَّهَا تَرضَى به وتُقِرّه، انظر مثلًا يخاطب الله بني إسرائيل

في عهـدِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما فَعَـلَ أوَّلُهم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:٧٢]، وقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]، معَ أن هَذَا الخطاب لا يتأتَّى لهؤلاء؛ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا هم الَّذِينَ فعلـوا، لكِن الأُمَّة الوَاحِـدة يَكُون فِعل بعضِها فِعلًا للجميعِ؛ لِأَنَّهَا تَرضَى به.

• ● ۞ ● •

الآيتان (١٥، ١٦)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان:١٥-١٦].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من الوعيد وصفة النار ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ ها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علمه تَعَالَى ﴿جَزَآءً﴾ ثوابًا ﴿وَمَصِيرًا﴾ مَرْجِعًا].

الخِطَاب في ﴿قُلْ﴾ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكذلك لغيرِه، ولهذا يمكِن أن نقول: إنَّ الخِطابَ لكل من يَتَأَتَّى خِطابه، يعني الرَّسول ﷺ وغيره، ولكن الأقرب أَنَّهُ للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك الخطاب للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولأُمته ما لم يَدُلَّ الدليلُ على تخصيصِه، فنحن كل وَاحِد يمكن أن يقولَ مثل هذا، فيقول للمكذِّبين الَّذينَ وُعِدوا بالنار: أذلك المذكورُ من الوعيد الَّذِي لا بدَّ أنْ يقعَ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ فالجوابُ: بل جنة الخلد بلا شك.

وهنا إشكال، وهو أَنَّهُ قال: ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾، معَ أنَّ ذلك لا خيرَ فيه إطلاقًا، فكيف يُمكِن أن يُقارَنَ بما فيه الخيرُ المطلَقُ؟

الجواب: أنَّ هَذَا من باب التنزُّلِ مع الخَصْم، ولا بأسَ أن تأتيَ مثل هَذِهِ المقارنة،

وقد قارن الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بينَ شيئينِ بينهما من التباينِ أعظم من التباين في وَعيد أهل النار ووعد أهل الجنة؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ومعلوم أن الله خيرٌ وأنه لا يمكِن لأيِّ عاقلٍ أن يقارِن بين هَذَا وهذا، لكِن لَمَّا كان المخاطَبون يُساوون غير الله بالله صارَ من بابِ التنزُّل معهم أن نخاطِبَهم بهذا ونقول: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ أضافها إلى الخُلد من باب إضافةِ الموصوفِ إلى صِفتِه، يعني الجنة الَّتِي هي مكان الخُلد، والخلد معناه المُكث، وقد صَرَّح الله تَعَالَى كثيرًا بالتأبيدِ في خلودِ أهلِ الجنَّةِ، وأمَّا أهل النار فالتأبيدُ وَرَدَ في ثلاثِ آياتٍ من القُرْآنِ؛ في سورة النساءِ وفي سورة الأحزابِ وفي سورة الجنِّ؛ ففي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورة الأحزاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورة الجِنّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وفي هَذَا ردٌّ واضِحٌ على من قالَ: إن عذابَ النار غير مؤبَّد، وممن مال إلى هَذَا القول -وهو من أغرب ما يَكُونُ- ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث كان يميل إلى أن عذاب النار لا يؤبَّد، وأنه لا بد أنْ يَنتهيَ، ولكن لا يقول: إنَّهُ يَنتهي ثم يَنتقل أهل النار إلى الجنة، لا، لكِن ينتهي بمعنى أنها تَفنَى ومَن فيها، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكره في شفاء العَليل، وجَزَمَ به في أولِ الكَلامِ، ثم ساق الآثارَ في هذا[1].

---

(١) (ص٢٥٥ وما بعدها)، ط. دار المعرفة.

والصواب الَّذِي لا شكَّ فيه ما عليه جمهورُ أهلِ السنَّة، وحُكي إجماعًا أن النارَ مؤبَّدة هي وأهلها، وهذا لا ينافي رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى قد أَعذرَ إلى هؤلاءِ وأقامَ عليهم الحُجَّة، فهم الَّذِينَ جَنَوْا على أنفسِهم.

وأما الاستثناء في هُود فقد استثنى من قولِه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧]، فَإِنَّهُ لو قيدت بدوامِ السَّمواتِ والأرضِ لكانَ لها أَمَدٌ، فلَمَّا قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهذا ما خرج عن دوام السَّموات والأرض، فهذا معنى الاستثناء.

وأما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨]، نقولُ: هَذَا الاستثناء: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ دلت النصوصُ على أَنَّهُ لا يشاء أن لا يُخلَّدوا، فكأن هَـذَا الاستثناءَ يُشِيرُ إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو شـاء لَمنَعَ العذابَ عنـهم، وأنه ليس أمرًا محتَّمًا عليه، بل هو في مشيئته، فالاستثناء إذَنْ مُفَـسَّرٌ بالآيات الصريحةِ الواضحةِ أَنَّهُ تَعَالَى لا يشاء أنْ يرفعَ العذابَ عنهم؛ لِأَنَّهُ أخبرَ، ولا يخلِف الله الخبرَ بأن عذابهم مؤبَّد.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما مناسبة قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧]؟

الجواب: كأنه يُشْعِر أن أحدًا لو قال: كيف يفعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا مع أَنَّهُ عذاب دائم، ورحمته وسعتْ كل شَيْء؟ فقال: إِنَّهُ فعَّال لما يريد، مثلما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وفي الحقيقة هَذِهِ الاحْتِمالات، وإنْ كانتْ قد يَكُونُ لها وجهٌ، لكِن ما دام عنـدنا نصوصٌ صريحةٌ محكَمَة، فالواجـب على المؤمنِ أنْ يَحمِلَ المتـشابهَ على المحكَمِ، ما دام أن المسائلَ في الآياتِ الثـلاثِ هَذِهِ احْتِمال فإن عندنا

شيئًا لا يَحتمِل وهو التصريح بالتأبيدِ، وكما هو معروف أن هَذَا خبرٌ، والخبرُ لا يَدْخُلُه النَّسْخُ ولا التعيينُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: العربُ تَتَمَدَّحُ بإخلافِ الوعيدِ دونَ إخلافِ الوعدِ؟

الجواب: الله جَلَّوَعَلَا يُتَمَدَّح بأنه لا يُخلِف، وأن خبره صِدْق، والوعيد الَّذِي يتمدح الله به هو ما يدخل تحت المشيئةِ، ما سوى الشرك، مثلًا يوجد وَعيد على المعاصي الَّتِي دون الشرك، فإذا عفَا الله عنها فهذا طيِّب ويُمدَح عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقولون في قول عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو لَبِثَ أهلُ النارِ كقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ لكانَ لهم على ذلك يومَ يخرجون فيه»[1]؟

الجواب: لكِن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغير عمر، يخاطَب بقولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

لَوْ قِيلَ: كَلام عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ليس صريحًا.

نقول: حتى لو كانَ كَلامه صريحًا وقال: سيخرجون، نقول: لا يخرجونَ، ما دام توجد آياتٌ صريحةٌ، وأيضًا قوله تَعَالَى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٣]، هَذِهِ لا تدل على التقييد؛ لِأَنَّ أحقابًا يعني طويلة لا مُنْتَهى لها، هَذَا هو المعنى، والإنْسَان إذا تَصوَّرَ أَنَّهُ يَبْقَى في النار ليس أحقابًا بل ثانية من الزمن، وهو عاقلٌ، فسوف يَتَجَنَّبُ عَمَلَ أهل النارِ، فكيف بمن يَلْبَثُون فيها أحقابًا؟! فهي لا تدل على التَّقييد، ومَن زَعَمَ أنها تدُلّ على التقييدِ وقال: إن الأحقابَ هَذِهِ مقيَّدة بما بعدَها، يعني أحقـابًا لا يذوقون فيـها بردًا ولا شرابًا وأحقابًا أخرى يذوقـون،

---

(١) الدر المنثور (٤/ ٤٧٨) وعزاه لابن المنذر.

فهذا ليس بصحيحٍ، بل إن المعنى المبالَغة في ذلك، وأَنَّهُمْ لَابِثون فيها دُهُورًا عظيمةً طويلةً لا مُنْتَهى لها.

قوله: [﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ ها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾]، أتى المُفَسِّر بـ(ها) وهي مفعولٌ ثانٍ لـ﴿وُعِدَ﴾ لأن (وَعَدَ) مما ينصب مفعولينِ ليسَ أصلهما المبتدأ والخبر، فالمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، والمفعولُ الثَّاني نائبُ الفاعل ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقد سَبَقَ كثيرًا أن المتَّقِيَ هو مَنِ اتَّخذَ وِقايةً من عذابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيهِ، وأن هَذَا أجمع ما قيل في التقوَى وأنسَب ما يَكُون لِلَفْظِها؛ لِأَنَّهَا من (اتقى) من الوقاية.

وقوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الَّذي وَعَدَهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ، وحذف الفاعل هنا للعلمِ به؛ كقولِه تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، والخالِق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في عِلمه]، تقييدُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكَينونة في عِلمه لِأَنَّ (كان) فعلٌ ماضٍ، والجنة ستكون مصيرًا، فلهذا قيَّد الكَينونةَ الَّتِي عُبِّر عنها بالفعلِ الماضي، قيَّدها في علمِ اللهِ، يعني لا بِحَسَبِ الواقعِ؛ لِأَنَّ الواقعَ لم تَكُنْ، وإنَّما سَتَكُون، ولكن هَذَا بناءً عَلَى أَنَّ (كان) يُراد بها الزمنُ، مع أَنَّ (كان) إذا تأمَّل الإنْسَان مَوَاضِعَها في القُرْآنِ وفي السنَّة وَجدَها أنها أحيانًا تَدُلُّ على مجرَّدِ الحَدَثِ، لا على الزمنِ؛ لِأَنَّ الفعلَ كما هو معروفٌ يَدُلّ على زمنٍ ومعنًى، فـ(كان) دائمًا تأتي للدَّلالة على مجرَّد المعنى فقط، يعني الَّتِي وُعد المتقون وهي لهم جزاء ومصيرٌ، وعلى هَذَا فلا حاجةَ إلى التقديرِ الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا هو الأوضحُ، ولا حاجةَ إلى أن نقدِّر أنها كانت في عِلم اللهِ، بل هي كانت، أي: هي جزاء، فنُجَرِّد (كان) من الدَّلالةِ على الزمنِ، وإذا جَرَّدناها كما تَرِد كثيرًا في اللغةِ العربيَّة سلِمنا من هَذَا التقديرِ

الَّذِي جاء به المُفَسِّر. ومثلـها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]، مجردة عن الزمنِ؛ لِأَنَّ الله ما زالَ ولا يزال غفورًا رحيمًا، عندما نأتي بـ(كان) ونقول: المراد بها الزمَنُ والحَدَث تكون معـفرة الله ورحمته فيما سبق، أمَّا الآنَ فليسَ غفورًا رَحيمًا! لكِن هَذِهِ يُرادُ بها مجرَّدُ الحَدَثِ، يعني أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بالمَغْفِرَةِ والرَّحمةِ، ومثلها هَذِهِ الآية. و(كان) دائمًا تَدُلُّ على مجرَّد الحَدَث، لا على الزَّمَن.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يؤتَى بها لكي تتناسب مع رُؤوس الآيِ؟

فالجواب: ليس بلازمٍ، أحيانًا تأتي متناسبةً وأحيانًا تأتي غيرَ متناسبةٍ. المهم أنَّ (كان) تأتي دائمًا في اللغة العربيةِ لا يُرادُ بها الزمَنُ، وإنما يُرادُ بها مطلَق الحَدَث، يعني أن هَذَا الأمرَ هو الواقع، فهنا قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ من المعلومِ أنَّ المتقينَ الآنَ ما دَخَلُوا الجنةَ ولا صاروا إليها، ولكنَّهم سَيَصِيرُونَ لذلك، فاحتـاج المُفَسِّر أن يُقَدِّر (في عِلمه) إذ كانت في علمِ اللهِ، ولكنَّنا نقول: لا حاجة لهذا التقديرِ؛ لِأَنَّ (كان) مسلوبة الدلالة على الزمنِ.

وقولـه: ﴿جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثوابًا]، والَّذِي جعـلَ هَذَا الثوابَ لهم هو الله عَزَّوَجَلَّ. ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَصِيرًا﴾ مَرْجِعًا]، متى تكون مصيرًا؟ تكون مصيرًا مِن حين يموتون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل:٣٢]، وليسَ المراد أنهم يدخلون الجنَّة الَّتِي في السماء فور موتهم، ولهذا يُفتَح له بابٌ إلى الجنَّةِ ويُفرَش له فِراش من الجنَّة، ويُلبس بلِباسٍ من الجنة، فالمتقونَ من حينِ يموتونَ يدخلون الجنةَ، كما أنَّ أهلَ الجَحِيم من حين يموتون يذوقون عذابَ الجحيمِ.

وأنا قد سمِعت البارحةَ وَاحِدًا يَقْرَأُ في كُتُبِ المواعظ، وفي كتب المواعظ يأتون بالمَوْتِ والدُّود مثل أكله الدود والصَّديد وهَذِهِ الأشياء، في الحقيقة إِنَّما تكون على الجسم فقط، والنَّاس إذا شعروا بهذا الشَّيْء لا يفرحون بالمَوْت، بل ينفرون منه كثيرًا، فالَّذِي يَنْبَغِي أن يُوعَظ الإنْسَان بما يَكُون على رُوحه، فيقال مثلًا: إِنَّهُ إذا مات وهو ليس من أهل التقوى يَكُون له من العذاب كذا وكذا إلى آخِره، وإذا كان من أهل التقوى يَكُون في نعيمٍ، ومن أهل الجنَّةِ، لأجلِ أنَّ المؤمنَ يَفرَح، أمَّا أننا نَذهَب ونُوَجِّه النَّاسَ إلى التخويفِ مِنَ الأَمْرِ الحِسِّي الماديّ فقطْ فهذا في الحقيقةِ مما يُسِيءُ إلى النَّاسِ، فعندما يسمع الإنْسَان هَذَا الشَّيْءَ هل يَكُون مطمئنًّا للموت؟ لا، أبدًا، يَنْفِرُ منه، لكنْ عندما يَسمَع أَنَّهُ إذا كان مؤمنًا دخلَ الجنَّةَ من حين ما يموت، تجده لا أقول: يفرح بالمَوْت، لَكِنَّهُ يَستبشِر بهذا الوعدِ الَّذِي يَكُونُ له، فهذا هو الَّذِي يَنبغي أن يُنَشَّأُ النَّاسُ عليه، ما يَنبغي أَنَّهُمْ يُذْكَرُ لهم من الأمور المادية فقطْ، ولذلك لو تأملتَ القُرْآنَ كلَّه لَوَجَدْتَ أنَّ هَذِهِ الأمور المادِّيَّة ليس لها ذِكْرٌ في القُرْآنِ، إنَّما يُذْكَر في القُرْآنِ ما يَكُون على الرُّوحِ مِنَ النَّعيمِ أو العذاب، حتى يَسْتَبْشِرَ الإنْسَانُ ويَفْرَح ويعمل لهذا النعيم ويخاف ويَرْهَب ويَهْرَب مِن هَذَا الجَحيم.

هَذِهِ المسألة أَحْبَبْنَا أنْ نُنبِّه عليها لِأَنَّهَا توجد كثيرًا في كتب الوَعظ، فمثلما يوجد في كتب الوعظ أشياء كثيرة تُرَغِّب فيما نهى عنه الشرع، فإنها ترغِّب في الأمور الَّتِي نهى عنها الشرعُ، مثلما يذكرون عن بعض العُبَّادِ الَّذِينَ يُعذَرون بجهلهم أَنَّهُمْ كانوا يقومون الليل كله في جميع أعمارهم، وقالوا: إن فلانًا بقِي أربعين سنةً يصلي الفجر بوضوء العشاء، قصدهم بهذا الترغيب، هَذَا ضد ما أمر به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيَكُون هَذَا من المحادَّة لله ورسوله، فهم يأتون بأمورٍ منكَرة لا يعرفونها، وأنا أبيِّن ذلك لِأَنَّ طلَّاب العلمِ يَسمعون مثل ما أسمع، فإذا حصل أنَّ قارئًا مثلًا من الأئمَّة

يقرأ في مثل هَذِهِ الكتب فَإِنَّهُ يَجِب علينا أن نتكلم معه، ليس أمام النَّاس، لا؛ لِأَنَّ العوامَّ كما هو معروف يَكُونون مع إمامهم، فيمكن أن تقوم بحقٍّ وهم يقومون عليك، لكِن من الممكن إذا انتهى تقول: يا أخي، فتأتي به بطمأنينة وتقول: أنت إمام يُقتدَى بك والعوامّ يقولون: (ما قيل في المِحْراب فَهُوَ صواب)، فيَجِبُ أن تعرفَ أن هَذَا خِلافُ الشرع. وتُبَيِّن له ما استطعتَ مِنَ البيان حتى يَكُون الأئمَّة الَّذِينَ يُقتدَى بهم الآن على صوابٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل حديثُ ضَغطةِ القبرِ صحيحٌ؟

الجواب: ضَغطة القبرِ لا أَعْرِف في صِحَّتها دليلًا، وَرَدَ في قِصَّة سَعْدِ بنِ مُعاذ[1]، ولكن لا يَحْضُرني الآن هل هو صحيح أم لا؟ هو قَطعًا ليس في الصحيحينِ، لكِن لا أدري هل يصل إلى درجة الصحة أم لا، لكِن مهما كان ضغطة القبر ليست بشَيْءٍ بالنسبة لما يقولون وما يصفونَ من حال الميتِ، وهم يركِّزون على مسألةِ الجسمِ، حتى إن النَّاسَ مهما كانت أعمالُهم الصالحةُ يَقعُون في القُنوط.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل فَناء الجسم أو بقاؤه دليل على الصلاح؟

فالظاهر: أن بقاءَه يدل على الصلاح؛ لِأَنَّهُ ما يَبْقَى إلا كَرامة؛ لِأَنَّ الأَصْل أن الأجسام تأكلها الأرض إلا الأنبياء؛ فإنهم لا تأكلهم الأرض[2]، وفناؤه لا يدل عَلَى أَنَّ الإنْسَان ليس من أهلِ الخيرِ، لكِن بقاء الجسم قد يَقَعُ كرامةً لبعضِ أهلِ الخيرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء؟

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، رقم (٢٠٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

قُلْنَا: الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء فقط، وهو من باب الكرامة، وكذلك قصة عمر لما حفروا القبور، لكِن في شهداء أُحد مَن وُجد أن الأرض قد أكلتْ بعضَ جِسْمِه، ليس كل جِسْمه.

وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ هَذِهِ الآية تدل عَلَى أَنَّ كل ما يشاءون فَهُوَ لهم، وفي سورة (ق) أن الله قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، يعني عند الله مَزيد على ما يشاؤه الإنْسَانُ؛ لِأَنَّ الإنْسَان مهما بلغَ فإن تصوُّره وإرادته قاصرة، فقد يشاء أشياءَ ويَخفَى عليه من النعيم أشياء فيكملها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، ولهذا قال: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ حال لازمة]، الحال اللازمة (خالدين)، ما معنى حال لازمة؟ هل هناك حال لازمة وحال عارضة؟

فالجواب: نعمْ، إذا كانت الحال ليستْ لازمةً لصاحبها فهي حال عارضةٌ، تقول: أقبل الرجلُ راكبًا، هَذِهِ حالٌ عارضةٌ؛ لِأَنَّهُ قد يُقبِل غيرَ راكبٍ، ماشيًا.

الآيات (١٧- ٢٤)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ
أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن
مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ
فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا
كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا
عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:١٧-٢٤].

الآية (٢٥)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥].

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن يذكرَ هَذَا اليومَ العظيمَ، وهو يوم تَشَقُّقِ السماءِ بالغَمام لِنُزُول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ من كل سماء ﴿تَنزِيلًا﴾ هو يوم القيامة، ونصبه بـ(اذْكُر) مقدَّر، وفي قراءة بتشديد شينِ تَشَّقَّقُ بإدغام التاء الثَّانية في الأَصْل فيها، وفي أخرى: (نُنْزِلُ) بنونين، الثَّانية ساكنة وضم اللام ونصب (الملائكة)].

القراءات:

في ﴿تَشَقَّقُ﴾ قراءتان: أولًا: القراءة المشهورة ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾، القراءة الثَّانية: «تَشَّقَّقُ»، وأصلها تَتَشَقَّق، فأُدغمت التاء في الشين فصارت تَشَّقَّقُ، وأيهما أبلغ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ أم «تَشَّقَّقُ»؟ «تَشَّقَّقُ» أبلغُ[1].

وأما ﴿وَنُزِّلَ﴾ ففيها قراءتانِ سَبعيَّتان: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ على أنها فعل ماضٍ، و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ نائب فاعل، والثَّانية «نُنْزِلُ المَلائِكَةَ» على أنها فعل مضارع والملائكة مفعول به، والفاعل هو الله[2].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٥).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

ومن بلاغة القُرْآن أن القراءات يُستفاد منها إما التفسير وإما زيادة المعنى، فقراءة «تَشَّقَقُ» فيها زيادة المعنى، وعلى قراءة: «نُنْزِلُ المَلائِكَةَ» فيها تفسير؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبني للمجهول، فالفاعل غير معلوم، وَأَمَّا قوله: «نُنْزِلُ المَلائِكَةَ» فمبنيَّة للفاعل، فالفاعل فيها معلوم، وعلى هَذَا إذا سُئلت: مَنِ الَّذِي ينزل الملائكة؟ تقول: هو الله، والدليل أمر مفهوم بالأذهانِ، ودليل آخر من لفظ الآية؛ القراءة الثَّانية: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كل سماء أكْثَر ملائكة من السَّماء الَّتِي تحتها، كذلك أيضًا هَؤُلَاءِ الملائكة الَّذِينَ يُحيطون بالعالم، كل دائرة أكْثَر عددًا من الدائرة الَّتِي قبلَها، وإنما يُنَزَّلُونَ بَيانًا لعظمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإحاطة بالخَلْق، وحينئذٍ يَصدُق قول الله تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرَّحمن:٣٣]؛ لأَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ معَ إحاطةِ الملائكة بهم أن يهربوا من أهوالِ هَذَا اليومِ.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر نُزِّل، وهو كما أسلفنا يدل على أَنَّهُمْ ينزلون شيئًا فشيئًا، لا ينزلون جملةً، فتنزل ملائكة السَّماء الدُّنْيا أولًا، ثم الثَّانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وأشرنا إلى الآية الَّتِي في سورة الرَّحمن دفعًا لقولِ بعضِ النَّاسِ الَّذِينَ يفسِّرونها بهَذِهِ الأقمار الصناعيَّة أو المراكب الفضائيَّة الَّتِي صعِد النَّاس بها إلى الفضاء، ويزعمون أن قولَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بعِلمٍ، وأن هَذَا العلم أَوصَلَهم إلى النفوذِ، وهذا لا شكَّ تحريفٌ للقرآنِ، ولا حاجةَ إلى أن نَتكَلَّف فنقول: كل ما يحدث فإن في القُرْآن له شاهد، لا حاجة إلى هَذَا التكلُّف؛ لِأَنَّ هَذِهِ الحوادث شواهدها حصولها، متى حَصَلَت فإننا نؤمنُ بها، سواء دلَّ عليها القُرْآنُ

أو سكت عنها القُرْآن، إلَّا إذا دل القُرْآن على نفيها؛ فَإِنَّهُ لا يجوز لنا أن نُصَدِّقها، وكل ما يحدث من هَذِهِ الاختراعات وهَذِهِ الصناعات فَإِنَّهُ داخلٌ في قوله تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد أن قال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، هَذِهِ الآية يدخل فيها كل ما حَدَثَ وكل ما يحدُث من مثل هَذِهِ الأمور، وَأَمَّا أن نحرِّف القُرْآن إلى ما يوافق هَذَا الواقع فهذا حرامٌ علينا، ولا يجوزُ، وأمَّا قوله: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ فليس المراد به العلم، المراد به السُّلطة الَّتِي تتمكَّنون بها من النفوذ؛ لِأَنَّ السلطان في كل موضع بحسَبه، وأصله السلطة الَّتِي يتمكَّن بها الإنْسَان من الوصول إلى ما يريد، فمثلًا إذا كانت في دعوى مدَّعٍ نقول: لا سلطان لك بهذا، يعني لا حُجَّة لك، كما قال الله تَعَالَى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، يعني ما عندكم من حُجة؛ لِأَنَّ الحُجَّة السلطة يتمكن بها المدَّعي من إثباتِ دَعْواهُ، ثم إن الآية ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهَؤُلَاءِ لم ينفُذوا من أقطار السَّموات، حتى لو قُلْنا: إنهم نَفَذُوا من أقطار الأرض وخرجوا عن محيط الأرضِ، فإنهم لا يستطيعونَ أن ينفُذوا من أقطارِ السَّموات، ثم إن الآيةَ ظاهرةٌ في التحدِّي ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، والتحدي بما يُمكِن غير صحيحٍ؛ لِأَنَّهُ يُبْطِل التحديَ، ثم إن قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرَّحمن:٣٥]، يكذِّبه الواقع، يعني يكذب دَعْوَى هَؤُلَاءِ الواقع؛ لأَنَّهُمْ صعِدوا إلى الفضاءِ ووَصَلُوا إلى ما وصلوا إليه ولم يرسَل عليهم شُوَاظٌ من نار ولا نُحاس.

فالمهمُّ أنا قصدي بذلك أن بعض النَّاس من أهل العلم بالطبيعة يحاولون أن يُوجِدوا لكل حادثٍ دليلًا خاصًّا من القُرْآن، وهذا لا يجوز؛ لِأَنَّهُ يَصرِف القُرْآنَ

عمَّا أراد الله به، ويَقتضي أنْ يَتلاعَب النَّاس بالقُرْآن، ثم إنهم قد يَستدِلُّون بالآيات الكريمة على ما رأوْا من النظرياتِ، وتأتي بعد ذلك نظريات أخرى تُبطِلها، فيَكُون القُرْآن حينئذٍ باطلًا حسَب ما استدلَّ به الأوَّلون، ونحن -ولله الحمد- في غِنًى عن هَذَا الأمر، فهَذِهِ الأمور والحوادث الَّتِي تحدث من صنائع الإنْسَان أمرٌ لا حاجة إلى إقامةِ الدليلِ عليه من القُرْآنِ؛ لِأَنَّ واقعها يُثْبِتُها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هم يريدون إثباتَ إعجازِ القُرْآنِ؟

فالجواب: إعجاز القُرْآنِ يَكفي أن نقولَ فيه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، وَأَمَّا الحقائق إذا دل عليها القُرْآن فلا بأسَ، لكنْ كوننا نُحرِّف القُرْآن مِنْ أجْل أن نُخضِعَه للدلالة على هَذَا الأمر فلا، فمثلًا لو استدلَّ أحد على تطوُّر الجنين وخِلقته بالآية الكريمة وبالحديث الصحيح فهذا لا بأسَ، فالشَيْء الَّذِي يدلُّ عليه القُرْآنُ لا بأس به، لكِن شَيْء يحرَّف القُرْآنُ مِنْ أجْلِه فلا.

المهمُّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخلُق الشَيْء ولا نعلمه في وقتنا نحنُ، وهذا يَجري على كل هَذِهِ الحوادث، فقبل أن تقعَ لا يعلمها الإنْسَانُ، وبعد وُقُوعها يعلمها؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وهذا شَيْء معلوم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، يعني أشياء لا تعلمونها، وفعلًا خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أشياء ما كانوا يعلمونها في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسيخلق أشياءَ لا نعلمها نحن في وقتنا، ويخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى آخِر الدَّهر شيئًا لا يعلمه مَن سبق، لكِن يعلمه مَن أَدْرَكَهُ؛ لِأَنَّ كونه يخلق معناه يُوجِد، والموجود لا بد أن يُعلم؛ فالله يتحدث عن أمرٍ سيَكُونُ لنا ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فإذا كان يتحدث عن أمرٍ سيَكُون لنا فمعنى ذلك سنعْلَمُه إذا خَلَقَه الله جَلَّ وَعَلَا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: استدلَّ بعضهم بأن الأعصاب الخاصَّة بالإحساس موجودة في القشرة الرقيقة الَّتِي على العظم، يقول تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، هل يقالُ: هَذَا من بيان إعجازِ القُرْآنِ؟

هَذَا أيضًا غير صحيحٍ؛ لِأَنَّ أحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنْيا، والإنْسَان مثلًا لو احترقَ الآنَ جلدُه وانكشطَ وأحرقنا اللحمَ يتعذب الإنْسَان بلا شكَّ، ولا يقال: نجربه، بل يتعذب الإنْسَان به يقينًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا دخلت إبرة في جسم الإنْسَان فَإِنَّهُ عند دخولها يُحِسّ، ثم بعد ذلك لا يُحِسّ؟

نقول: صحيح، هَذَا معقول، وكل الداخليّ في الغالب ليس فيه إشكال، ولهذا لا يحس الإنْسَان بنزول الطعام في بطنِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، فهَذِهِ الأحداث لا بد أن تكون في القُرْآن؟

فالجواب: لا إشكال، لكِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ ما المراد بالكِتَابِ؟ المقصود اللوح المحفوظ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، لكِن قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، أوضح إن أرادوا أن يستدلوا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ لكننا نعلم أن التبيان إما مجمَل وإما مفصَّل، والقضية المشهورة عن الشيخ مُحَمَّد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الرجل النصراني حينما سأله عن كيفية صنع الطعام الَّذِي قُدم لهم في المطعم، قال النصراني:

القُرْآن تبيان لكل شَيْء، أين يوجد في القُرْآن كيف يُصنع هَذَا الطعام؟ فقال: هَذَا موجود في القُرْآن. فدعا الطباخ وقال: كيف تصنع هَذَا الطعام؟ قال: أصنعه بكذا وكذا، فقال: هكذا الطَّريق في القُرْآن، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وكل قوم ذِكْرُهم خاصٌّ بهم، فأنا سألتُ هَذَا الرجلَ لأني لا أعلم، فالقُرْآنُ قد يَدُلُّنا على الشَّيْءِ مباشرةً أو بالوسيلةِ والطَّريقةِ، فكل شَيْءٍ لا تَعلمه فالطَّريق إلى الوصول إليه أن تسأَلَ أهلَ ذِكْره، فالمرادُ أهلُ العلمِ، لكِن هل المراد أهل العلم الشرعيّ أو كل علم بِحَسَبه؟ لنفرِضْ أننا خصصناه بالعلم الشرعيِّ أفلا يُقاس غيرُه عليه؟ فهي إما أن تدل على العمومِ وتكون شاملةً لمثل هَذِهِ القضية بدلالة التضمُّن، وإما بدلالة الشمول المعنويّ، لا اللفظيِّ، وهو القياس، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل:٤٣-٤٤]، فهذا يدل عَلَى أَنَّ المرادَ العلمُ الشرعيُّ، والآية الثَّانية: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، وهو عامٌّ، لم يَقُلْ: بالبيِّنات والزُّبُر. ومثلما قلت: إن كانتْ شاملةً لكلِّ شَيْءٍ وأن أهل كل ذِكر بِحَسَبه فهي شاملةٌ، وإلا فهي شاملةٌ شمـولًا معنويًا، وهو القياس، فنقول: إذا كان الله أحالَنـا على أهل الذكر الشرعيّ لمعرفة الحُكْم الشرعيِّ، فكذلك نحن نتحوَّل إلى أهلِ العلمِ غيرِ الشرعيِّ لمعرفةِ هَذَا العلمِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، هَذِهِ الآية ذُكرت على العمومِ، وأوَّلها يبيِّن أن المراد العلمُ الشرعيُّ؟

لكِن مثلما ذكرنا الآن أن العموم قدْ يَكُون شمولًا لفظيًّا وقد يَكُون شمولًا معنويًّا، فهم لا يَستوون، لكِن الَّذِي يُثنى عليه أهل العلم الشرعيّ، والشمول اللفظيُّ

معناه أن هَذَا اللفظَ يدُلّ على هَذَا بخصوصِه، يعني من جملة الأفراد الدالَّة، والعموم المعنـويّ معناه أن هَذَا اللفظ لا يدخل فيه ما ذكر، لَكِنَّهُ يقاس على ما ذكر فيـه، فيَكُون هَذَا عمومًا معنويًّا؛ لِأَنَّ العِلَّةَ في الجميعِ وَاحِدَةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: إثبات نُزولِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ هَذَا التشقُّق إِنَّما يَكُون لِنُزُولِه، والغرض من ذِكره التحذيرُ منه، والاستعدادُ له؛ لِأَنَّهُ كلَّما ذُكر الشَّيْءُ حَذِرَهُ الإِنْسَان واستعدَّ له.

الْفَائِدَة الثَّانية: استدلَّ شيخ الإسلامِ ابن تيميَّة وغيره من أهل العلم بِهَذِهِ الآيةِ على نزولِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للقضاءِ بينَ عِبادِهِ. ووجه الدلالةِ من الآيةِ في الحقيقةِ ليس في لفظِ الآيةِ ما يدل عليه، لكِن الآية مفسَّرة بالحديث أنها تَشَقَّق بالغَمام لنزولِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهي لا يَتِمُّ الاستدلال بها بمجرَّد لفظها، إلا بالإضافة إلى ما صحَّ عن النَّبي ﷺ في ذلك في تفسيرِ الآيةِ؛ أنها تَشَقَّق بالغمامِ لنُزول اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ للفصلِ بين عبادِهِ[1].

الْفَائِدَة الثالثة: أن الملائكة في السماءِ؛ لقولِه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

الْفَائِدَة الرابعة: عَظَمَة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وكثرة مخلوقاتِه؛ لِأَنَّ الملائكةَ تنزِل وتُحيط بالخَلْقِ؛ مما يَدُلّ على كثرتهم.

الْفَائِدَة الخامسة والسادسة: الاستعداد لهذا اليوم الَّذِي لا يجد الإِنْسَان فيه مفرًّا؛ فمثلا -ولله المثل الأعلى- لو أحاطتْ بك جنود الملك من كلِّ جانبٍ وبأعدادٍ

---

(١) أخرجه مجاهد في تفسيره (ص٤٩٨).

كثيرةٍ وبصفوفٍ متعدِّدة، هل يمكِن أنْ تَفِرَّ من قَبْضَتِه؟

فافرِض مثلًا -ولله المثل الأعلى- أن النَّاس حشروا في مكان وجاءت الجنود -الشُّرَط- وأحاطت بهم صفوفا صفا من وراء صف، هل يمكن للناس أن يفروا من هذا؟

لا يمكن، فيوم القيامة كذلك لا يمكن أن يفر النَّاس من هَذَا اليوم وأهواله وأحكامه وفيه التحذير من هَذَا اليوم.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٦)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٦].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ لا يَشْرَكُه فيه أَحَدٌ].

قوله: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ الحق صفة للمُلْك، يعني الملك الثابت المؤكَّد المحقَّق في ذلك اليوم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ والملك للرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليوم وفي غيره، لكِن ملكيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليومِ أظهرُ وأبينُ؛ لِأَنَّ الدُّنْيا فيها مُلُوكٌ، وفيها مَن يَمْلِكُ التصرُّفَ، وفيها مَن يقال له: مَلِك، لكِن في الآخِرة لا يوجد مَلِك، النَّاس على حدٍّ سواء، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فالملك في ذلك اليومِ لا يَكُونُ لأحدٍ سِوَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقلْ: (لله) إشارة إلى كثرة رحمةِ اللهِ في ذلكَ اليوم، كما جاء في الحديثِ الصحيحِ: «إِنَّ للهِ مئة رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، فيظهر من رحمة الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مئة جزء، رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذلك اليوم ما لا يَظْهَر في غيرِه؛ ولهذا عبَّر بقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقد سبق أنَّ الرَّحمنَ صِفة متضمِّنة للرحمةِ، ولكنَّها تدلُّ على عظمة هَذِهِ الرَّحمةِ، وعلى سَعَتِها؛ لِأَنَّ كلمةَ فَعْلَان تدلُّ على الوصفِ المالِئِ الَّذي يَمْلَأُ موصوفَه، كما يقال: غَضبانُ؛ لِأَنَّهُ ممتلِئ غَضَبًا، ومِن ثَمَّ فسَّر بعضُ العلماءِ الرَّحمنَ بأنه ذو الرَّحمةِ الواسعة، والرَّحيم بأنه ذو الرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين، ولكن الصواب أن الرَّحمنَ باعتبارِ وصفِه، فلهذا جاءت فَعْلَان صفة مشبَّهة، والرَّحيم باعتبار فِعله، يعني إيصال الرَّحمة إلى مَن شاء.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكَانَ﴾ اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ بخلاف المؤمنين]، هنا قيَّد الله عَزَّوَجَلَّ العُسْر على الكافرينَ، فقال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ يعني دون المؤمنينَ، وفي آية أخرى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر:٩]، ولم يقيِّدْه، يقال: إن اليومَ نفسه عسيرٌ جِدًّا بالنظر إلى ذاتِ اليومِ، لكنْ هَذَا العُسر لا يتناول المؤمن، بدليل قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، فمفهومه أَنَّهُ على المؤمنينَ يَسيرٌ، فبالنظرِ إلى ذاتِ اليومِ وأهوالِه نَصِفُهُ بالعُسر في حدِّ ذاته على الكافرين، ثم إن هَذَا العُسر لا يَسري إلى المؤمنينَ، بل ييسِّره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليهم، بدليل قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، وبدليل قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

فالحاصِل: أَنَّهُ بالنظرِ إلى ذاتِ اليومِ فاليومُ عَسيرٌ وشديدٌ، ويجعل الوِلدانَ شِيبًا، وبالنظرِ إلى مَن يتأثَّر به أو بعُسره يَكُون هَذَا للكافرين فقطْ؛ لقولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، أمَّا على المؤمنِ فَإِنَّهُ يَسيرٌ.

وفي هَذَا دليل، أي: في كونِه عَسيرًا، ولكن عُسره يَكُون على الكافرينَ فقطْ، ففيه دليل على اختلافِ النَّاسِ في ذلك الموقفِ، وأن يُسْرَ ذلك اليومِ وعُسْره بحسَب

حالِ الإنْسَانِ، فكلَّما كان الإنْسَانُ أشدَّ إيمانًا وأشدَّ تقوى لله عَزَّوَجَلَّ كان ذلك اليومُ أيسرَ له، ولهذا ثَبَتَ في الحديث الصحيحِ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»(١)، وأن «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ»(٢) في يوم القيامة.

وعلى هَذَا نقول: كُلَّما كان الإنْسَانُ أَقوَى إيمانًا باللهِ، وأشدَّ تقوى لله، كان يُسْرُ ذلك اليومِ عليه بحسَبه، وكلَّما كان الإنْسَانُ أَعتَى وأكفرَ يَكُون أشدَّ وأَعظمَ. وقد أخبر النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ رأى في النار عَمْرو بنَ لُحَيٍّ يَجُر قُصْبَه وأمعاءَه(٣) مما يدلُّ على أَنَّهُ كلَّما زاد عُتُوُّ الإنْسَان وكُفْره زاد عُسْر ذلك اليومِ عليه.

ثم إن هناك أيضًا قاعِدَة في الأُصُولِ أَنَّهُ إذا عُلق الحُكم على وصفٍ كان أثر ذلك الحُكم بحسَب ذلك الوصفِ، يعني أن تأثير الوصفِ في الحكمِ بحسَب الوصفِ، فإذا كان العُسر معلَّقًا بالكفرِ فكُلَّما كان الكفرُ أشدَّ كان العُسْر أشدَّ، وإذا عُلق اليُسر بالإيمانِ صارَ كلَّما كان الإيمان أقوى كان اليُسرُ أقوى.

فالحاصلُ: أن كلَّ حُكْمٍ عُلِّق على وصفٍ فَإِنَّهُ يَختلف أثرُ ذلك الحُكْم بحسَب ذلك الوصفِ، يعني أن تأثير الوصفِ في الحُكم بحسَب الوصفِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: في حديثِ الشفاعةِ الأنبياءُ كلُّ وَاحِدٍ منهم يقولُ: نفسي نفسي(٤)،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة:١٠٣]، رقم (٤٦٢٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٥٦).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

فهذا دليلٌ على أنَّ في هَذَا اليومِ عندهم شِدَّة وخوف؟

والجواب: لا شكَّ أن في هَذَا اليـومِ يوجَد شِدَّة وخـوف: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧]، لكِن هَذِهِ الشدة والخوف يتحملهما الإنْسَانُ بحسَب ما معه من الإيمانِ، يعني أَنَّهُ لا يَكُون شديدًا عليه بحسَب ما معه من الإيمان، فهم يخافون لكنَّه ليس شديدًا عليهم، يعني أَنَّهُمْ يتوقَّعون أَنَّهُمْ يقعون في شَيْءٍ ولَكِنَّهُم لا يقعون.

الحاصِل: أن وَصْفَ اللهِ تَعَالَى يومَ القيامة بأنه عَسيرٌ وصفٌ مقيَّد بالكافرين، وفي آية أخرى وصفه وصفًا مطلقًا بأنه عَسيرٌ، وذكرنا فيما سَبَقَ أَنَّهُ وإنْ كانَ عَسيرًا لَكِنَّهُ بالنسبة للمؤمنين يَكُون يسيرًا، فالوصف المطلَق لذلك اليوم أَنَّهُ عسير، ولكن الَّذِي يتأثَّر به ويَكُون عَسيرًا عليه هم الكافرون، أَمَّا المؤمنون فلا.

وتأمَّلْ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾، قد يقـول قائل: أين الرَّحمة مـع عُسْرِه على الكافرينَ، فيقـالُ: إن عذاب الكافرين وشدته عليهم هو رحمة بالمؤمنينَ؛ لِأَنَّ المؤمن يرى عدوَّه الَّذِي كان يسخَر منه في الدُّنْيا وعَدْلُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَمضِي فيه، فلا شكَّ أن ذلك سرورٌ له ورحمةٌ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥]، فهم على أرائكهم ينظرون إلى هَؤُلَاءِ يعذَّبون، فيُسَرُّون بهم ويضحكون بهم، مثلما أن أعداءهم في الدُّنْيا كانوا يضحكون منهم ويسخرون بهم.

ثم إننا نقول أيضًا: تنفيذ العدل يُعتبَر رحمةً، أمَّا في الدُّنْيا فظاهرٌ، فإننا إذا أقمنا الحدَّ على السارقِ أو أقمناه على الزاني، أو ما أشبهَ ذلك، فَهُوَ رحمةٌ بالنَّاس عمومًا، وبه خصوصًا، حتى بهذا الَّذِي جُلِدَ أو قُطِعَتْ يده هو رحمة به، كيف ذلك؟ لأننا نَمْنَعُه من ممارسة العمل مرَّةً ثانيةً، كلَّما تذكر هَذَا الألمَ، ولأن الحدَّ يَكُون كفَّارة له،

فلا يعذَّب عليه في الآخِرة؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى لا يَجمَع له بين عقوبتينِ.

فائدتان:

الْفَائِدَة الأولى: تخويف وتحذير من تسلُّط الملوك؛ فإنهم يَجِبُ أنْ يَذْكُرُوا هَذَا اليومَ الَّذِي تَزولُ فيه مِلْكِيَّتُهم، ولا يَبْقَى إلا مُلْكُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَة الثَّانية: تَبشير للناس عمومًا في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، حيث يشيرُ إلى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُظهِر من رحمته في ذلك اليوم ومن مُلكه ما لا يَظْهَر في غيره.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٧)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧].

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ يعني واذكُر ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، ﴿يَعَضُّ﴾ من أيِّ بابٍ من أبوابِ الصرفِ؟ عندنا في الصرف الأبواب ستة، فهنا ﴿يَعَضُّ﴾ هل من باب (نَصَرَ، يَنْصُرُ)، أو (سَمِعَ، يَسْمَعُ) أو (فتَحَ، يفْتَحُ)، فَهُوَ من باب (فتَحَ)، وعند العامَّة يجعلونه من باب (نَصَرَ) يقولون: يَعُضُّ (فلانٌ يَعُضُّ فلانًا)، والصواب: (فلانٌ يَعَضُّ فلانًا)، فهي من باب فتَحَ، يعني يُفتح فيها المضارِع، كما أن الماضيَ كذلك مفتوح لكِن الماضي مشدَّد.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [المشرِك]، والآية قد نقول: إنها أعمُّ من المشرِكِ؛ لِأَنَّ الظُّلم يَشمَل الشِّركَ فما دونَه، ولكن ننظر السياق الآن: هل يعيِّن أن يَكُونَ الظُّلمُ بمعنى الشركِ أو لا؟ ثم إن المُفَسِّر خَصَّصها تخصيصًا آخرَ فقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عُقْبَة بن أبي مُعَيْط؛ كانَ نَطَقَ بالشهادتينِ ثم رَجَعَ إرضاءً لِأُبَيِّ بنِ خلَفٍ]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عقبة] هَذَا تخصيصٌ لعمومٍ، فإنْ كان المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن يجعلَه مثالًا مما تنطبِق عليه الآية فالأمر سهلٌ، وإنْ كان يريد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن

يجعلَ الآيةَ من باب العامِّ الَّذِي أُريد به الخاصُّ، فهذا غير مسلَّم؛ لِأَنَّهُ لا دليل على ذلك؛ فلا دليل عَلَى أَنَّ المراد به الخاصّ، بل الآيةُ عامَّة، لكِن تشمل عُقبةَ وغيرَه، فالصواب أنها عامَّة لكلِّ ظالمٍ؛ وذلك لأنَّ الأَصْل بقاء العموم على ما هو عليه حتى يقومَ دليلٌ عَلَى أَنَّ المراد به الخاصُّ، وهنا قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ﴾ عامٌّ لِعُقْبَة وغيره.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ نَدمًا وتَحَسُّرًا في يوم القيامةِ، ﴿يَـقُولُ يَـٰلَيْتَنِى﴾] إلى آخره، ﴿يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ العَضُّ على اليد يدلّ على الندمِ والتحسُّر، ولهذا بعض النَّاس إذا فاته الأمرُ تراه يَعَضّ يده ثم يُصَفِّق بيدِه، يعني أَنَّهُ فاته، فَهُوَ دليلٌ على التحسُّر والندَم، وما أعظمَ الحسرةَ والندمَ حينَ يرى المؤمنين في حال والظالمين في حال، وهذا أعظمُ ما يَكُون.

ففي هَذِهِ الآية أمَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن تذكر حال المجرمين يومئذٍ من الندم والتحسُّر العظيم والعَضّ على الأيدي.

وقوله: ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ زَعَمَ علماءُ البيانِ أنَّ في الآيةِ مجازًا؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ لا يَعَضّ على يده كلِّها، ولو أراد أن يَعَضَّ على يدِه كلِّها ما استطاعَ، يقولون: المراد باليدينِ الأصابع؛ لِأَنَّهُ لا يمكِن أنْ يَعَضَّ على اليد كلِّها، ولكننا نقول: في الحقيقة لا مجاز في الآية؛ لِأَنَّهُ إذا دلَّ السياقُ على معنىً فَهُوَ المرادُ، كلٌّ يعرِف أن المرادَ: يَعَضّ الظالم على يديه يعني على أصابعِه، فهي لم تدلَّ على اليدِ كلِّها من الأَصْل بحسَب السياقِ حتى نقول: إنها نُزِّلت عن معناها إلى المعنى الثَّاني، وهذا الَّذِي قرَّرناه هو الَّذِي أوجبَ لشيخِ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينكِر وجودَ المجازِ في اللغةِ العربيَّة؛ لِأَنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرى وجود المجاز في اللغة العربية إطلاقًا؛ لا في القُرْآنِ

ولا في غيرِه؛ لِأَنَّهُ يقول: إن دلالة اللفظ على المعنى ليستْ ذاتيَّة، يعني ليس اللفظ نفسه يدل بذاته على المعنى، وإنما يدل بالسياق، وأبرز مثال يبيِّن لك ذلك الألفاظ المشتركة الَّتِي تصلح لمعنيينِ فأكْثَر، يعيِّن المعنى السياقُ، وهكذا غيرها أيضًا، فبناءً على ذلك يقول: لا يوجد مجازٌ في اللغةِ العربيةِ؛ لا في القُرْآن ولا في غيره، ولكن أكْثَر النَّاس يَرَوْنَ أَنَّهُ يوجد المجاز في القُرْآن وفي غيره من كَلام العرب، وبعضُ العلماءِ يرى أَنَّهُ لا مجازَ في القُرْآن، وفي اللغة العربية يوجد المجازُ.

والَّذِي أوجبَ لهؤلاءِ التوسُّطَ أَنَّهُمْ قالوا: إن ميزان المجاز الَّذِي لا أحدَ يمانِع فيه صِحَّة نفيه، أي صحة نفيِ المجازِ، وليس في القُرْآن ما يَصِحّ نفيُه، يعني عندما تقول: رأيت أسدًا يقرأ، المراد بالأسدِ الرجلُ الشجاعُ، كأنما قلتَ: رأيت شجاعًا يقرأ، لكنْ عبَّرتَ بالأسد لِأَنَّ الشجاعة فيه أظهرُ، هم يَقُولُونَ: إنك إذا قلتَ: رأيتُ أسدًا يقرأ فَإِنَّهُ يجوز للمخاطَب أن يقولَ: هَذَا ليس بأسدٍ، فينفيه، وهذا صحيحٌ، ليس بأسدٍ، فهم يَقُولُونَ: إذا كان المجاز علامته الكبرى أَنَّهُ يَصِحُّ نفيُه فليسَ في القُرْآنِ ما يَصِحُّ نفيُه، أمَّا غيرُه من كَلامِ العربِ فيُمْكِنُك أنْ تَنْفِيَه، ولا تُبالي.

وأمَّا الحديثُ النبويُّ فالظاهرُ أَنَّهُ لا يقالُ فيه هذا؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا فقط في القُرْآنِ؛ لِأَنَّ الحديث النبويَّ تجوز روايتُه بالمعنى، فيجوز أن الراويَ غَيَّر الكَلِمَة، ونفى هَذِهِ الكلمة، لا أصل المعنى.

ولكن إذا رَجَعنا إلى ما قالَه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أن الألفاظ ليست دلالتها على المعنى ذاتيَّة حتى نقول: إنها إذا دلتْ على معنًى آخرَ في مكانٍ آخرَ فهي مجازيَّة، بل دلالتها على الألفاظ بحسَب السياقِ، فعلى هَذَا نقول في الآية الَّتِي معنا: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ لا مجاز فيها؛ لِأَنَّهُ لا يمكِن أن يفهمَ أحدٌ أن المرادَ بذلك

في الأَصْل أن يَعَضَّ على اليد كلّها، كلٌّ يعرف أن المراد بقولنا: يعض على يديه أي: ما يعض عليه عادةً، وهي الأصابع.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾؛ ﴿يَدَيْهِ﴾ يعني على بعض يديه واستفدنا البعضية من كلمة ﴿عَلَىٰ﴾، ولم يقل: يعض يديه؟

فننظر: هل (عض) تتعدى بـ(على) أو بنفسها، ومثلها «وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ»[1]، عضَّ تتعدى بنفسها وبـ(على)، قال ﷺ: «يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الفَحْلُ؟!»[2] في الرجل الَّذِي عَضَّ يدَ إِنْسَانٍ فانتزعها فسقطتْ أسنانُه. ويوجد احْتِمالٌ أن نقولَ: إنها لا تدلُّ على الكلِّيَّة، حتى لفظ اليد لا يُرادُ بها الكلُّ هنا، حتى ولو كانت تدل على الجزئيَّة فلا يراد بها الكلُّ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل العض على اليدين أو على يد وَاحِدة؟

فالجواب: الظاهر كُلَّما قوِيَ الندم عضَّ على اليدين كلتيهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]، ما معنى: لا نقيم لهم وزنًا؟

فالجواب: لا نقيم لهم وزنًا يعني لا يُعتبَر لهم وزنٌ، لكِن لا توزن سيئاتهم مثلما توزن سيئات المؤمنين؛ لِأَنَّ سيئات المؤمنينَ توزَن لأجلِ الموازنة بينها وبين الحسناتِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم (١٨٤٧). واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب إذا عض رجلا فوقعت ثناياه، رقم (٦٨٩٢)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب الصائل على نفس الإنسان أو عضوه، إذا دفعه المصول عليه، فأتلف نفسه أو عضوه، لا ضمان عليه، رقم (١٦٧٣)، واللفظ للبخاري.

فما رَجَعَ اعتُبر، وَأَمَّا أولئك فلإقامةِ الحجَّة عليهم فقط، والله جَلَّوَعَلَا لو ناقشك في حسابِه هلَكتَ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لو ناقشك على نعمةٍ وَاحِدةٍ من نِعَمِه لكانتْ جميعُ أعمالِكَ الصالحة لا تُقابِلها.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ مُحَمَّد ﴿سَبِيلٗا﴾ طَرِيقًا إلى الهدى]، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الجملة حالٌ من ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يعني أَنَّهُ يَعَض، وهذا دليل على الندم بالفعل.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ من علامات الاسْمِ النداء، فـ(يا) لا تدخل إلَّا على اسْمٍ، وإذا دخلتْ على حرفٍ كما في هَذِهِ الآية أو على فعلٍ فإنها تفيد التنبيهَ فقطْ، هَذَا أحد القولينِ في إعرابها.

القول الثَّاني: أنها للنداء، وأن المنادى محذوف، والتقدير في مثل هَذِهِ الآية: يقول: يا رب ليتني أو يا قوم ليتني، ولكن نقول: إن الأَصْل عدم التقدير، وإذا كان الأَصْل عدم التقدير فالأَولى أن لا نقدِّر شيئًا هنا وأن نجعل (يا) لمجرَّد التنبيه، وإنما كانت لمجرد التنبيه لِأَنَّ أصل النداء للتنبيه، عندما تقول: يا فلان تنبِّهه لِيَنْتَبِهَ لك ويُقبِل إليك بوجهه، فهي للتنبيه، ولا حاجة إلى أن نقدِّر المنادى.

وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾: (ليتَ) للتمنِّي، والتمني هو: طلب ما لا يمكِن حصوله أو ما يَعْسُر حصولُه، فالشَّيْء الَّذِي يَتَعَذَّر أو يَتَعَسَّر حصوله يُسمَّى طلبه تمنيًا.

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ[(١)]

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص٤٦).

هذا متعذِّر.

ويقول الفقير: ليت لي مالًا فأتصدقَ به. هَذَا عَسيرٌ وليس متعذِّرًا.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ من أيِّ القسمين؟ هَذَا من المستحيل؛ لِأَنَّ الأمرَ فات.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ أي سلكتُ سبيلًا، وهو الطَّريق الموصِل إلى اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ مُحَمَّد]، بناء عَلَى أَنَّ الآيةَ يُقْصَدُ بها عُقبة بن أبي مُعَيْط، فعلى هَذَا تكون (أل) للعهد الذِّهنيِّ، وإذا قُلْنا بالعموم -وهو الأرجحُ- فإن المرادَ بالرَّسول هنا من أُرسِلَ إلى قومِه، فتكون (أل) للجِنسِ، للعموم؛ لِأَنَّ المرادَ بها جِنْس الرَّسول الشامل لُمحَمَّد ﷺ وغيره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: أَنَّهُ يَجِب على المرءِ أنْ يختارَ لنفسِه الأصحابَ: أهل العلم والدِّين، ويؤخذ من قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: بيان حال الظالِمِ يوم القيامةِ، وأنه يندَم ندمًا عظيمًا، ويظهر ندمُه بالقول وبالفعل. والدلالة على أَنَّهُ بالقول في قوله تَعَالَى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، وبالفعل في قوله تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾.

الْفَائِدَة الثالثة: التحذير من الظُّلْم الَّذِي يَصُدُّ به الإنْسَانُ عن دِينِ اللهِ، أو التحذير من الظُّلْم الَّذِي يُوجِب أو يُوقِع الإنْسَان في مخالفةِ الرسُلِ؛ لِقَوْلِه عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾؛ لِأَنَّ الغرضَ من ذلكَ التحذيرُ، ليس مُجَرَّد القصة، بل الغرض أن يحذر الإنْسَان من هَذَا الأمرِ الَّذِي يَكُون مآلُ صاحبِه إلى هَذَا الحالِ.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٨)

• ● ○ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان:٢٨].

• ● ○ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ ألفه عِوَضٌ عن ياء الإضافةِ، أي: ويلتي، ومعناه: هَلَكَتي ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾ أي أُبيًّا ﴿خَلِيلٗا﴾]، إلى آخِرِه.

قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ (يا) حرف نداء، و﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ منادى، وأصله: ويلتي فقُلِبَتِ الياءُ ألفًا فصارتْ: يا ويلتى، وهذا جائزٌ لغةً، يعني يجوز لغةً أن تقولَ: يا ويلتي ويجوز أن تقول: يا ويلتى. والويلُ: الهلاك، وكأنه يقول: يا هلاكي احْضُرْ، يا هلاكي احضُر، ليتني لم أتَّخِذْ، إلى آخره. في التمني الأول لم يَقُلْ: يا ويلتى، لكِن في التمني الثَّاني قال: يا ويلتى؛ لِأَنَّهُ زاد تحسُّره، في الأول يُعَبِّر لأول مرَّةٍ عن تحسُّره، والثَّاني للمرة الثَّانية، فيَكُون ذلك أبلغَ في التحسُّر، فلهذا قال: يا ويلتى.

وقوله: ﴿لَمۡ أَتَّخِذۡ﴾ لم أُصيِّر ﴿فُلَانًا﴾ هَذِهِ اسْم جنس يُكْنَى به عن الوَاحِد من بني آدمَ، وفلانة يكنى بها عن الوَاحِدةِ من بني آدم، ولم يذكر هنا فلانًا باسْمه؛ لِأَنَّهُ كما أشرنا إليه للعمومِ، ففي عُقْبَة بن أَبِي مُعَيْط يَكُون المراد بفلانٍ: أُبَيّ بن خَلَف، وفي غيره يَكُون المراد به مَن أضلَّه عن ذِكر الله.

قوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ الخَلِيل هو الحبيب الَّذِي بلغتْ محبَّتُه الغايَةَ؛ لِأَنَّ الخِلَّة أعلى أنواعِ المحبَّة، وسُمِّيَتْ بذلك لِأَنَّ المحبَّة تَخَلَّلَتْ مسالِكَ البَدَنِ؛

كما قال الشاعر[١]:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي   وَبِـذَا سُـمِّيَ الخَلِيـلُ خَلِـيلَا

وعلى هَذَا فالخُلة أعلى من المحبَّة، وبه نعرِف خطأ من قال: مُحَمَّد حبيب الله، وإِبْراهِيم خليل الله، وموسى كَليم الله؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ نَزَّلُوا مرتبة النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيث وصفوه بأنه حبيب الله وإِبْراهِيم خليل الله؛ فإن الخُلة أعلى، والنَّبي ﷺ خليل الله كما أن إِبْراهِيم خليل الله، قال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[٢]. وأمَّا كونُ موسَى كَليمَ اللهِ فنقولُ أيضًا: مُحَمَّدٌ كَليم الله، وإذا كان موسى كليم الله في الأرض فإن مُحَمَّدًا ﷺ كَليم الله في السَّماءِ.

•••

(١) ديوان بشار بن برد (٢/ ٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢).

الآية (٢٩)

• • • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٩].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي القُرْآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾].

قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى﴾ اللام مُوطِّئَة للقَسَم، و(قد) للتحقيقِ، فالجملة إذَن مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّدات: القسم و(اللام) و(قد)، وهو يؤكد في هَذَا اليوم أن ذلك الخليل أضلَّه تأكيدًا يُراد به لومُ نفسه، ولكن ذلك لا ينفعه الآن، لو كان هَذَا التأكيد في الدُّنْيا لَنَفَعَه، أمَّا الآن فلا ينفعه، ولكنَّه يزيد في تحسُّره.

قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي القُرْآن]، وهو بناءً منه عَلَى أَنَّ المرادَ بالظالِمِ كما سَبَقَ هو عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، فيَكُون المراد بالذكر القُرْآن، وإذا قُلْنا بالعموم -وهو الراجح- يَكُون المراد بالذكر الكِتَاب المنزَّل على ذلك الرَّسولِ، ففي عهد موسى التوراة، وفي عهد عِيسى الإنجيل، وكذلك في العُهُود الأُخْرى الكُتُب المنزَّلة على الرُّسُل.

قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ هَذَا الظرف له فائدته العظيمة، يعني بعد أن حصل لي الذكر وعَلِمته وفهِمته؛ حَصَلَ الإضلالُ، وهذا أبلغ ممَّا لو أضلَّه عن أمرٍ متوقَّع

غير واقع، هَذَا أمر واقع أقرَّ بأن الذِّكر جاءه وقامتْ عليه الحجَّة وأضلَّه هَذَا الخليل بعد إذ جاءه.

قَالَ الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأنْ رَدَّني عنِ الإيمان به، قال الله تَعالَى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ﴾ الكافِر ﴿خَذُولًا﴾ بأنْ يَتْرُكه ويَتَبَرَّأ منه عند البلاءِ].

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ كأنَّ الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى عَلَى أنَّ هَذِهِ الجملة ليستْ من قول الظالِم، وأن قول الظالِم انتهى عند قولِه تَعالَى: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾، وعلى هَذَا فيَنْبَغِي الوقفُ على قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ فتقف ثم تستأنِف وتقول: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾.

وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ يُرادُ به الجِنْسُ؛ لِأَنَّ الشياطِينَ كثيرونَ، قال الله تَعالَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]، فالمراد به هنا الجِنس، وهم أنواع.

والظاهرُ -والله أعلم- أنَّ لكلِّ نوعٍ من المعاصي شيطانًا؛ كشيطان الشركِ، وشيطانِ الجحودِ، وشيطان البخلِ، وغيرِ ذلك، فلكلِّ نوعٍ شيطانٌ هَذَا ما يَظْهَر، والله أعلَمُ.

وقوله: ﴿لِلْإِنسَـٰنِ﴾ المراد به على كَلام الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكافِرُ، وهو عُقْبَةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، أو عامٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا الكَلام من كَلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس من كَلام الظالِم، فيَحتمِل أنْ يَكُونَ عامًّا للكافِرِ والمؤمنِ؛ فإن الشيطان أيضًا يُغوِي المؤمنَ، ثم بعد ذلك يَتخَلَّى عنه، فالظاهرُ أنَّ المرادَ بالإنْسَانِ هنا الجنس، يعني المؤمن أو الكافر، وإنَّما قُلْنا: إن ذلك هو الظاهِر لِأَنَّهُ كما يُغوِي الكافرينَ بالكفرِ كذلك يُغْوِي المؤمنينَ بالفِسْقِ.

وقوله: ﴿خَذُولًا﴾ هَذِهِ إمَّا أن تكون صفةً مشبَّهةً، وإما أن تكون صيغةَ مبالغةٍ، وعلى الأمرينِ يَكُون وصفُ الشيطانِ بالنسبةِ للإنْسَانِ الخِذلان، أو يَكُون خذلان الشيطان للإنْسَانِ دائمًا؛ لِأَنَّ المبالَغةَ تَقتضي الكثرةَ، والخِذلان معناه إذلال الإنْسَانِ في مَوْطِنٍ يَحتاج معَه إلى النصرِ، فهذا الخذلان أنك تتخلَّى عن إنْسَانٍ في موطِنٍ يحتاج فيه إلى النصرِ، والشيطانُ عندما نتأمَّل ما ذكر اللهُ عنه في القُرْآنِ نجِد أَنَّهُ يخـذُل الإنْسَانَ في مواطن النصرِ، فزَيَّنَ لِقُرَيْشٍ أنْ يَخرجوا لقتـالِ النَّبيِّ ﷺ فخرجوا ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨]، زيَّن للإنْسَان الكفر، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، هَذَا في الدُّنيا، وفي الآخرة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمُغيثِكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، هَذَا أيضًا خِذلان عظيمٌ، فالشيطان في مواطِنِ النصرِ يخذُل الإنْسَانَ ويتبرَّأ منه.

وهذا الوصف ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ نقول: هل كان في عِلم الله، أو كان فيما مَضَى وانتهى؟ تقدَّم قريبًا نظيرها (كان) مجرَّدة عن الزمن، يعني أن (كان) تارَةً يُراد بها الدلالة على الزمنِ، وتارةً يُراد بها مجرَّد الحَدَث، يعني مجردة عن الزمنِ، فتقول مثلًا: (كان زيدٌ قائمًا) يعني فيما مضَى، ثم جلس، وأيضًا مثل قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، وقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ليس المعنى (كان) فيما مضَى، بل المعنى أنَّ هَذَا وصفٌ لله مستمِرٌّ

وهو صفة المغفرة والرَّحمة والقُدرة، وكذلك هنا ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ ليس المعنى أن الشيطان كان خذولًا للإنْسَانِ فيما مضَى وأصبحَ غيرَ خَذولٍ، بل المعنى أن هَذَا وصف ملازِمٌ للشيطانِ بالنسبة للإنْسَانِ، فالشيطان وَصْفُه الخِذلان لبني آدمَ دائمًا، ليس معناه فيما مضَى فقطْ، وإنما أخبرنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنَّ الشيطانَ خَذُولٌ للإنْسَانِ لأجلِ أنْ نتَّخِذَه عدوًّا، وألَّا نَغْتَرَّ به، فَإِنَّهُ سوف يخذُلنا في موطنٍ نحتاجُ فيه إلى نَصرِه فنَحْذَر منه.

فإذا قال إنْسَان: ما علامة كونِ هَذَا الفعلِ من أوامرِ الشيطانِ، وما الَّذِي يدرينا أن الشيطان أَمَرَنا بهذا، وأن هَذَا من عملِ الشيطانِ؟

الضابط قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، فإذا رأينا أن النفسَ تُريد منَّا أنْ نقعَ في هَذَا العملِ إذا كان مخالفًا للشرعِ؛ علِمنا أنَّ هَذَا من أمر الشيطانِ، فوجبَ علينا الحَذَر منه؛ لأننا نَعْلَم أن هَذَا الشيطان سَيَخْذُلنا في موطنٍ نحتاجُ فيه إلى النصرِ، هَذِهِ هي العلامة الفارِقة بينَ ما يَكُون من أمر الشيطانِ وما يَكُون من أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأيضًا النفسُ الأمَّارة بالسُّوء تَأْتَمِر بأمرِ الشيطانِ؛ لأنك لا تُحِسّ بأن الشيطانَ نزل بك وجاء بك، لكِن نفسك تأمرك بهذا، فهي تأتمِر بأمرِ الشيطانِ، فيجعلها كالوسيط بينَه وبين قلبِ المرءِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: التحذير من قُرَنَاء السّوء؛ لقولِه: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن الكافرَ، بل عموم الظالمينَ، في يوم القيامة يُؤمِنون بالحقِّ؛

لِقَوْلِهِ: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾، فأقرَّ بأن الذكر قد جاءه، وأقرَّ بأن ما جاءه ذِكر يتذكَّر به المرءُ.

الْفَائِدَة الثالثة: أن الشيطان يأمر الإنْسَان ثم يَخْذُله أحوجَ ما يَكُون إليه؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾. ومن الأمثلة لِخذلان الشيطان لأصحابِه في الدُّنْيا من القُرْآنِ ما تقدَّم في قوله تعالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]، ومن أمثلة خِذلانه لهم في الآخرة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، وأمَّا قوله تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، فربما يَكُون في الدُّنْيا والآخرة، فالآية ليست بصريحةٍ أنها في الآخرة.

الْفَائِدَة الرابعة: أن الغرَضَ من إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الشيطانِ بأنه خَذُول لبني آدمَ أو للإنْسَانِ التحذيرُ، والعلامة عَلَى أَنَّ هَذَا من أوامرِ الشيطانِ قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩]، ومثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ هَذَا مثال للتفريط في الأوامر، ومتى يَعِدُ الفقر؟

يعـد الفقر عندما يريد الإنْسَانُ أن يَبْذُلَ المالَ يقـول: لا تبذل المال؛ لأنك سَتَفْتَقِر، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي المنكر.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٠)

• ● ◆ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

• ● ◆ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمَّدٌ ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قُريشًا ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾]، هنا المُفَسِّر أيضًا خَصَّها بالنَّبي ﷺ، وهنا قد نوافق المُفَسِّر على أنها خاصَّة بالنَّبي ﷺ؛ بدليل قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]؛ لِأَنَّ المراد بهَذِهِ الجملة التسلية، وهذا هو الَّذِي يؤيِّد ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أمَّا مسألة القُرْآن فإن القُرْآنَ يُطلَق على المصدر فيشمل كل ما يُقرأ من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، لكِن الَّذِي يجعله خاصًّا بهذا الَّذِي نزل على مُحَمَّد ﷺ ما بعدَه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يقول الله تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ والوحي ما زال ينزل؟

الجواب: لِأَنَّ الرَّسول يقوله والقُرْآن بين يديه، فمثلًا موسى إذا قال والتوراة بين يديه صحَّ أن يُشير إليها.

قوله: [﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشًا]، وأضافهم إلى نفسِه لِأَنَّهُ أبلغُ في توبيخهم؛ لِأَنَّ الأمر الواقع يَقتضي أن قومَه أسبقُ النَّاس إلى تصديقِه، وإلى قَبُول ما جاء به، ولكن الأمر كان بالعكسِ، وهذا نظير قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ

وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١-٢]، حيث أضافهم إليه، كأنه يقول: يَنْبَغِي أن تكونوا أنتم أوَّلَ من يصدِّق؛ لِأَنَّهُ صاحبُكم، كذلك قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]، فالمهمُّ أن الإضافة هنا الغرضُ منها زيادة التوبيخ، يعني بدل أن يقول: إن قريشًا قال: إن قومي؛ للمبالغة في توبيخِهم، حيثُ إنَّ مُقْتَضَى كونِهم قومَه أن يصدِّقوا به ويَقبَلوا ما جاء به.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ متروكًا]، مأخوذ من الهَجْر، والهجر تَرْكُ الشَّيْء رغبةً عنه، فهم اتَّخذوه مهجورًا، يعني جعلوه شيئًا مهجورًا، يعني لا يلتفتون إليه، وهذا أبلغ من قولِه: إن قومي هَجَروا القُرْآنَ، ووجهُ ذلك أن (هجروا) فعل، والجملة الفعلية لا تدلُّ على الثُّبُوتِ والاستمرار، ولكن قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ جملة اسْميَّة؛ لِأَنَّ (الهاء) و(مهجورًا) أصلهما المبتدأ والخبر، فكأَنَّهُمْ جعلوا هَذَا القُرْآن الَّذِي تجب العناية به والإقبال إليه جعلوه أمرًا مهجورًا مرغوبًا عنه، كأنه ليس مستحقًّا للإقبال عليه إطلاقًا، فصيَّروه من الأمور المهجورة المتروكة الَّتِي ليس من شأنها أن يُقْبَلَ إليها، وهو أبلغ من كونهم هجروه؛ لأَنَّهُمْ قد يهجرونه وهو مستحِقّ لأن يُقبَلَ، أمَّا إذا اتَّخذوه مهجورًا فإن اتِّخاذهم إيَّاه مهجورًا يَكُون معناه أَنَّهُمْ هَجَروه مع استحقاق أنْ يُهجَر.

وهَجْرُ القُرْآنِ ينقسِم إلى قسمينِ: هَجر لَفْظِيّ، وذلك بترك تلاوتِه رغبةً عنه، وهذا ما حذَّر منه النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: «بِئْسَمَا لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ سُورَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، أَوْ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ»[1]؛ لِأَنَّ نَسِيت تدل

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن، وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، رقم (٥٠٣٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها، رقم (٧٩٠).

على الرغبة والهَجر، ونُسِّيت تدلُّ على أَنَّهُ ليس باختيارِه، لكنَّه قد قُدِّر عليه هَذَا الهَجْر.

الهجر الثَّاني: هجر العمل به، يعني أن الإنْسَان يتلوه ولم يقصِّر في تلاوتِه، لكنَّه لا يعمل به.

ويمكن أن يتولَّد قسم ثالث: القسم الثالث: هَجْرٌ لفظيٌّ وعمليٌّ، يعني أَنَّهُ لا يَقْرَؤه ولا يعمل به.

فإذَنِ الأقسامُ ثلاثةٌ: هجر لفظيّ، وهو هجر تلاوتِه، وهجرٌ عمليّ، وهو هجر العمل به، وهجر لفظيّ عمليّ، وأيُّهم أشدُّ؟ اللفظيّ العمليّ، يليه الهجر العمليّ، والثالث اللفظيّ، وكل منها محرَّم، حتى الهجر اللفظيّ، فإذا ترك الإنْسَان تلاوتَه رغبةً عنه وزُهدًا به فَإِنَّهُ لا يجوز، نعم لو ترك تلاوتَه تشاغلًا بأمورٍ لا بد منها فهذا لا بأسَ به، فالهجر اللفظيّ موجودٌ في المؤمنينَ، ولكن لا يوجد الهجر المطلَق بالنسبة للمؤمنِ، يعني لا يمكن للإنْسَانِ أن يتركَ تلاوتَه تركًا مطلَقًا؛ لِأَنَّ عنده الصلاة، وقد فُرض عليه أن يقرأ فيها سورة الفاتحة، فالهجر المطلَق لا يمكِن للمؤمنِ أبدًا؛ لِأَنَّ أهمَّ شَيْءٍ قِراءة الفاتحةِ في الصلاةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْم هَجْر المصحَفِ، وذلك بأن يَكُونَ عنده عِدَّة نُسخ من القُرْآنِ في البيتِ، ويقرأ في وَاحِدةٍ فقطْ؟

ليس بحرامٍ، ولا يوجد مانعٌ، لكنَّه مع الحاجة لا يجوز للإنْسَانِ أنْ يَحتكِرَها والنَّاس محتاجون إليها، أمَّا الآن فلا توجد حاجة، والتحذير الَّذِي كان يوجد في كَلام بعضِ أهلِ العلمِ لَمَّا كانت المصاحف قليلةً، حيث يَكُون الإنْسَان ليس عنده إلا نسخة ويحجزها لنفسِه ولا يَنتفِع بها ولا ينتفع بها غيرُه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل عدم تدبُّر القُرْآن يَكُون هجرًا له؟

هجر التدبُّر قد يَكُون هجرًا؛ لِأَنَّ التلاوةَ بدون تدبُّر لا شكَّ أنها تلاوة ناقصة؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى أمَر بتدبُّره، وأخبر أَنَّهُ ما أُنزلَ إلا للتدبُّر والتذكُّر ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، والتدبُّر معناه أن الإِنْسَانَ يتأمَّل معناه ويفكِّر فيه، ويَسعَى في الوصول إليه، وإذا كان قاصرًا عن فَهم المعنى يسأل، وإذا كان يمكِن أن يُراجِعَ هو بنفسِه كُتُبَ التفاسيرِ فلْيُرَاجِعْ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل استماع القُرْآن يُغني عن القراءةِ؟

فالجواب: ما أظنُّ أن الاستماع يُغنِي عن القراءة، لكِن على كلِّ حالٍ الاستماع فيه خيرٌ، ولكن القراءة أفضل، وبالنسبة للاستماعِ إذا كان مشغولًا فلا يَنبغي أنْ يستخدمه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: ما وصلتْ إليه حال قريشٍ مِنَ العِناد والمكابَرة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، فهم اتخذوه مهجورًا. وكونهم اتخذوه مهجورًا أبلغ من كونهم هَجَروه.

الْفَائِدَة الثَّانية: عِظَم هَذَا القُرْآن؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لِأَنَّ الإشارة تفيد التعظيم، يعني هَذَا القُرْآن العظيم الَّذِي لا يَنبغي أنْ يُهْجَر هَؤُلَاءِ اتخذوه مهجورًا، فقولُه: اتخذوه مهجورًا أبلغُ من: هَجَروه، كيف ذلك؟ اتخذوه مهجورًا يعني جعلوه من الأمورِ الَّتِي تَستحِقّ أن تُهجَر، فاتخذوه أمرًا مهجورًا يعني مرغوبًا عنه ومتروكًا هو في حدِّ ذاته، على زعمهم، هَذَا وجهٌ، والوجه الثَّاني: يعني هم

صيَّروه مهجورًا، والهاء المفعول أول محل المبتدأ، ومهجورًا محل الخبر.

الْفَائِدَة الثالثة: بشاعة هَذَا العمل من قريش، وجه ذلك الإضافة في قوله: ﴿قَوْمِي﴾؛ فإن هَذَا يدلّ على بشاعة هَذَا العمل منهم؛ لِأَنَّ المفروض أن قومَه يَكُونون أولى النَّاس بالعنايةِ به وقَبُول ما جاء به، ولكن الأمر مع الأسف صار بالعكسِ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٣١)

• ● ●

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١].

• ● ●

لَمَّا قال الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وهذا من الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شِكاية لقومِه؛ لِأَنَّهُ تضايَقَ بهم، فأنزل الله عليه تسليةً له وجوابًا لِشِكايتِه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الكاف) اسْم بمعنى (مثل)، وهي تأتي في القُرْآنِ كثيرًا، فكُلَّما جاءت فإننا نُعرِبها هَذَا الإعراب، على أنها اسْم بمعنى مثل، وَأَمَّا إعرابها فهي مفعول مطلَق، وعاملها الفعل الَّذِي بعدَها، أي: ومِثْل ذلك الَّذِي جعلناه جعلناه لكل نبي، فهَؤُلَاءِ المشركون الَّذِينَ جعلوا القُرْآن مهجورًا ونَبَذُوه وراءَ ظُهُورهم ودَعَوْا إلى هجره وسخِروا به لَيْسُوا بِدَعًا من غيرهم، فقد سبقَ لكلِّ نبيٍّ كذلك.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جَعَلْنا لكَ عدوًّا من مُشْركِي قومِك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قبلَك ﴿عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين، فاصبِرْ كما صَبَرُوا]، وفي هَذَا من تسليةِ النَّبي ﷺ ما هو ظاهرٌ؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ يَتَسَلَّى إذا كان غيرُه قد أُصِيبَ بمثلِ مُصِيبَتِه، تقول الخَنْساءُ وهي تَرْثِي أخاها صَخْرًا[1]:

---

(١) نهاية الأرب للنويري (٥/ ١٧٩)، والبيتان في الديوان.

وَلَـوْلَا كَثْرَةُ الْبَـاكِينَ حَـوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِـي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِـي وَلَكِـنْ أُسَـلِّي النَّفْسَ عَـنْهُ بِالتَّـأَسِّي

فإذا عَلِمَ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن هَذَا دَأْبُ قومِ الأنبياءِ من قِبَلِه فَإِنَّهُ يَتَسَلَّى ويُهَوَّنُ عليه الأمرُ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ناصرا لك على أعدائك].

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ (الباء) يَقُولُونَ: إنها زائدة إعرابًا فقطْ، ولها معنى، و(ربك) فاعل (كفى)، يعني: وكفى رَبُّكَ، و(هاديا) تمييز محوَّل عن الفاعلِ، يعني كفت هدايته ونصره، والتمييز قد يحول عن الفاعل، وقد يحول عن المفعول، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ محوَّل عن المفعولِ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ: وَفَجَّرْنَا عيونَ الأرضِ، هنا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ الأَصْل: وكفتْ هدايةُ ربِّك ونصرُه.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: ناصرًا لك على أعدائِك. ووجه المناسبةِ بين قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أقول: المشركون الَّذِينَ يُنابِذون الرُّسُلَ يقصدون بذلك أمرينِ؛ إضلالَ النَّاسِ للحيلولةِ دونَ وصولِ الهِدايَةِ إليهم، والعُدوان على الرُّسُلِ حتى بالحرب والقتال، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هَذِهِ المحاولة ليستْ بشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَفَى به هاديًا، فلا يستطيع هَؤُلَاءِ الأعداءُ أن يُضِلُّوا أحدًا، وكفى به نصيرًا، فلا يستطيع هَؤُلَاءِ الأعداءُ أن يَقضُوا على دعوةِ الرسُلِ.

• • ❀ • •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى والثَّانية: عناية الله تَعَالَى بالرَّسول ﷺ، ووجهُ ذلك أن كونَ اللهِ يَعتني بالرَّسولِ ويُسَلِّيه بما وَقَعَ لغيرِه، هَذَا دليلٌ على العنايةِ به، وكون الرَّسول ﷺ يحتاج إلى أن الله يسلِّيه بِمَنْ سَبَقَه يدلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَرٌ يَنتابُه ما ينتابُ البشرَ مِنَ الحزن والأسى، فيحتاج إلى التسليةِ، وأن مَن دون الرَّسول من باب أَولى، فعندما يأتي إلينا مثلًا أحد دُعاة الخير ويشكو إلينا ما أصابه من النَّاس نقول له: انظر مثلًا إلى فلان وانظر إلى فلان وانظر إلى فلان، ولا يقال: إن هَذَا قُصُور في حقّه، هَذَا لا بدَّ منه، فالطبيعة البشريَّة تَقتضي أن الأمر يهوَّن على النفس إذا أصاب الغيرَ مثلُ ما أصابَه.

ومناسبة قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لِذِكر أن الله جعلَ لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يعني: هَؤُلَاءِ المجرمون يحاولون القضاء على الرِّسَالة أو النبوَّة بوَاحِد من أمرينِ؛ إما بإضلال النَّاس وصدِّهم عمَّا جاءت به الرُّسُل، وإمَّا بقتالهم وإهلاكهم، فيَعتدون على النَّاس بالقتالِ، فقال الله تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ في مقابلة محاولة الإضلال، ﴿وَنَصِيرًا﴾ في مقابلة محاولة القضاء على الأنبياء وأُممهم.

وهَذِهِ العداوة الَّتِي تكون للأنبياء تكون لورثتهم؛ لأَنَّهُمْ يدعون لِمَا يدعو له النَّبي، ونحن نعلمُ أن هَذِهِ العداوة ليستْ شخصيةً، وإنما هي معنويَّة بسَبَب النبوَّة، ودليلنا عَلَى أَنَّ العداوة ليستْ شخصيَّة، يعني أن عداوة الأمم المكذبين للرسل ليست لأشخاص الرُّسُل، بل لِمَا جاءوا به من الحقِّ؛ دليلنا أن قريشًا ليستْ تعادي الرَّسول ﷺ قبلَ أن يُبعَث، بل هي ترى أَنَّهُ من أشدّ الرِّجال أمانةً وصدقًا.

الْفَائِدَة الثالثة: أَنَّهُمْ لا يستطيعون أن يُضِلّوا النَّاس إذا أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ هدايتَهم،

ولا أن يقضوا عليك إذا أراد الله نَصْرَك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، هَذِهِ العداوة حسَب ما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما عرض من القُرْآنِ، هل تكون لأتباعِ الرُّسُلِ أو لا؟

الجواب: تكون لأتباعِ الرُّسُلِ؛ لأَنَّهُمْ عادَوُا الرُّسُلَ لدعائهم للحق، يعني ما عادَوا الرُّسُل لأشخاصهم، ولهذا كان الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل البعثة عند قُريشٍ ليس عدوًّا، بل هم يسمُّونه الأمينَ، فما دامتِ العداوةُ مِنْ أجْلِ الدعوةِ إلى الدينِ فسوفَ تكونُ لكلِّ مَن دعا إلى الدينِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يدعو مثلًا إلى شريعةِ النَّبي ﷺ هو يدعو إلى ما دعا إليه النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا بدَّ أن يَكُونَ له أعداءٌ كما كان للأنبياء أعداء، وعليه فالواجبُ على مَن دعا إلى الهدى وأُوذي أنْ يَصبِر، وأن يَتَأَسَّى بما جَرَى للرسلِ من قبله، والرُّسُلُ أعظمُ منزِلةً عند الله منه، ومع ذلك مَكَّنَ أعداءهم مما فعلوه.

فَلَوْ قِيلَ فِي الجَوَاب: إنهم عادوا الرُّسُلَ، وهم أفضلُ الخَلق، كيف لا يعادون من سواهم؟

فالجواب: قد يقال: إنهم عادوا الرُّسُل واشتدت عداوتهم لهم لِأَنَّ تأثيرهم أشد، فَعَادَوهم أشد.

الْفَائِدَة الرابعة: أن الحقَّ يَتبيَّن بضدِّه؛ لِأَنَّ الله جعل عدوًّا من المجرمينَ يُنابِذ الدعوةَ، فمِنَ الحِكْمَةِ في ذلك أن تتبيَّن الدعوة؛ لِأَنَّهُ إذا لم يكنْ لها معارِضٌ ما تبَيَّنَتْ، لكِن إذا كان لها معارِض، وكلَّما أُتي بشُبهةٍ رُدَّ عليها، صار ذلك أَبْيَنَ وأوضحَ.

الْفَائِدَة الخامسة: ابتلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمؤمنِ؛ فَإِنَّهُ إذا كان الإيمانُ قويًّا فَإِنَّهُ يصمد أمام هَذِهِ الشُّبُهات، وأمام هَذِهِ العداوة، وإذا كان ضعيفًا فَإِنَّهُ يتأثَّر، فهذا من

حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الله يقيِّض للإنْسَانِ ما يكُون سَببًا للحيلولةِ بينه وبين دعوتِه ليَبْلُوه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ يعني اطمئنَّ بحالِه الَّتِي هو عليها، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١]، وإن أصابته فتنة وأمر يشغله انقلبَ على وجهِه.

الآية (٣٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ هَذِهِ السورة فيها طابع التحدث عن القُرْآنِ والردّ على المكذِّبين له، فأوّل ما ابتدأتْ هَذِهِ السورة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، فهذا الفرقان الَّذِي تمدَّح الله نفسه بإنزاله إلى رسوله لا بدَّ أن يُعْنَى به ويُجاب عن المعارِضين له بالأساليب المختلفة الَّتِي مرتْ علينا.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كالتوراة والإنجيل والزَّبور]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هَذَا من جملة الشُّبَه الَّتِي أَوْرَدَهَا المكذِّبون للرسول ﷺ، قالوا: الكتب السابقة تنزِل على الأنبياء جملةً وَاحِدةً، مثل التوراة والإنجيل والزَّبور، لا مفرَّقةً، فقال هؤلاء: لو كان مُحَمَّد ﷺ صادقًا وأنه نبي من الأنبياء لكان شأنه شأنَ الأنبياءِ السابقينَ؛ ينزل عليه القُرْآن جملةً وَاحِدةً، وأَتَوْا بـ(لولا) الدالة على التحضيض، يعني أَنَّهُ كان يَنْبَغِي أو يَجِب أن ينزل عليه القُرْآن جملةً وَاحِدةً على زعمهم كما نزل على الأنبياءِ السابقينَ، وهنا قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا شك أَنَّهُمْ من قريشٍ؛ لِأَنَّهُ يتحدث عن أمرٍ وقعٍ، ولا يمكن أن تكونَ عامَّةً لجميعِ الكفارِ، يعني لا يمكن أن تكون عامَّة لكفار الأمم السابقينَ،

لكِن ربما يَكُون هَذَا القول موروثًا عن قريشٍ، ويقوله من يقوله بعدهم تمويهًا وتضليلًا للناس.

قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، كلمة ﴿نُزِّلَ﴾ وكلمة ﴿جُمْلَةً﴾ قد يُفهَم منهما التعارضُ؛ لِأَنَّ المعروف أَنَّهُ إذا كانت بالتشديد (نُزِّلَ) فهي لِمَا ينزل شيئًا فشيئًا، وإذا كانت (أُنْزِلَ) فهي لما نزل جملةً وَاحِدةً، وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾ وكان مُقتَضى ما أَشرنا إليه أن يقولوا: لولا أُنزل عليه القُرْآنُ؛ فقيل: إن (أُنْزِل) و(نُزِّل) يتناوبانِ؛ فالمضعَّف يَكُون بمعنى المهموز، ونظيره من الأفعال (أَخْبرَ) و(خَبَّرَ)، فتقول: خَبَّرَني وأَخْبَرَني، ومعناهما وَاحِد، وإن كون (نُزِّل) لِما ينزل شيئًا فشيئًا و(أُنْزِل) لِمَا ينزل جملةً وَاحِدةً هَذَا ليس من مدلولِ اللفظِ بذاتِه، ولَكِنَّهُ مما يُعيِّنه السياقُ والقرائن والحالُ، وعلى هَذَا فلا فرقَ بينهما، ويَكُون المراد بـ(نُزِّلَ) هنا (أُنزل)، ولكن نابتْ عنها.

ويَحتمِل أن يَكُون قوله: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أَنَّهُمْ قالوه على حكاية ما ينزل، ثم اقترحوا أن يَكُون جملةً، بمعنى أَنَّهُ نُزِّل حسب الواقع؛ فالواقع أن القُرْآن ينزل على الرَّسول ﷺ متفرِّقًا، فكأَنَّهُمْ قالوا: هلَّا كان تنزيله الَّذِي ينزل الآن شيئًا فشيئًا جملةً وَاحِدةً، فيَكُون التنزيل هنا باقيًا على القاعِدَة، وهو أَنَّهُ ينزل شيئًا فشيئًا، كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا التنزيل الَّذِي كان صفةً للوحي الَّذِي ينزل على مُحَمَّد ﷺ لولا كان هَذَا التنزيل جملةً وَاحِدةً.

فأمامنا الآن جوابان:

الجواب الأول: أن (نُزِّل) و(أُنزِل) يتناوبان، ويُعَيِّن المعنى السياقُ والقرائنُ.

ثانيًا: أنهما لا يتناوبان، ولكل وَاحِدة منهما معنًى، لَكِنَّهُم قالوا: نُزِّل باعتبار

واقع الأمر؛ فإن الوحي كان يَنزِل على النَّبي ﷺ شيئًا فشيئًا، فكأَنَّهُمْ قالوا: لولا كان هَذَا التنزيل جملة وَاحِدةً.

هَذِهِ الشُّبهة قد تكون شبهة في باديءِ الأمرِ، يعني لماذا لم يكن الوحي النازل عليه كالوحي النازلِ على مَن قبله؟ هَذَا قد يَكُون شبهة في بادئ الأمر، ولَكِنَّهُ في الواقع ليس بشبهةٍ، بل هو حُجَّة، ولهذا أجاب الله عنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزَّلناه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي متفرِّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نقوِّي قلبك ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي أتينا به شيئًا بعد شَيْء بتمهُّل وتُؤَدَةٍ لتيسير فَهمه وحِفظه].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يَنْبَغِي أن تقفَ عند التلاوة على قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ لِأَنَّهُ إلى هنا انتهى كَلام الكفارِ، ثم تبتدئ فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الأخير من كَلام الله جَلَّ وَعَلَا، فيَجِب الفصل بينه وبين كَلام الكفار؛ لِأَنَّهُ جواب عن الشبهة.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفعول لفعلٍ محذوفٍ، مَفْعُول مطلق، يعني أنزلناه مثل ذلك التنزيل، و(اللام) في قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ للتعليل، وهي متعلقة بالفعل المحذوف، يعني أنزلناه لأجل التثبيتِ، والتثبيتُ معناه التقويةُ والإقرارُ، يعني ليست مجرد تقوية؛ لأنك تقول: ثَبَّتُّ الشَّيْء بمعنى أقررته لا يَتَزَعْزَع ولا يتحرَّك، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤]، فالتثبيت بمعنى التقوية والإقرار؛ لِأَنَّهُ يقرره ويجعله مستقرًّا، فَقَلْبُ الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا التنزيل يَتَقَوَّى ويثبت ويستقرّ ولا يتزعزع.

وقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كيفية التثبيت هنا من وجهين:

أولًا: أَنَّهُ إذا نزل عليه فترة بعد فترة استقرَّ فؤادُه، وعرف استمرار رسالته، وانظرْ إلى حال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند فترة الوحي ماذا كان يصنع؟ كان يخرج إلى الجبالِ حتى يوشك أنْ يَتَرَدَّى من الجبالِ؛ لِأَنَّهُ فقد ما كان أحسَّ به أوَّلًا، فهذا تثبيتٌ يثبِّت قلب الرَّسول؛ لِأَنَّهُ رسول ولأن رسالته لم تنقطِع، هَذَا وجهٌ.

وجهٌ آخرُ: أَنَّهُ يُثَبِّتُ قلبَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كلَّما أُورِدَ عليه شُبهة، فينزل القُرْآنُ مُجيبًا عنها، وهذا بلا شكٍّ تَثبيتٌ، إذَن يَكُونُ التثبيتُ هنا من ناحيتينِ؛ تثبيته على أَنَّهُ رسولٌ، وتثبيتٌ آخرُ لدفعِ الشُّبُهات الَّتِي تُورَدُ عليه، وهذا الأمرُ الأولُ ضَرَبْنـا له مثلًا بفترةِ الوحيِ، والأمر الثَّاني نَضْرِب له مثلًا بهَذِهِ الآيةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، جاء الجواب: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وأيضًا قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء:٩٠-٩١]، إلى آخره، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١]، فهذا وغيره كثير يَكُون من جملة تثبيت قلبِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ إذا كان الإنْسَان يُمَدُّ بما يدافع به خصمه، فإن ذلك من أقوى ما يَكُون من التثبيتِ.

وهنا بَيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحِكمة بأنه تثبيت فؤاد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وفي آيةٍ أُخرى قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، فبَيَّن حِكمة أخرى وهي أن يقرأه النَّبي ﷺ على النَّاس على مُكث؛ ليَكُون أسهلَ لحفظه وأَوعى لفهمِه، فما هي الحِكْمَة في أن الله عَزَّ وَجَلَّ اختارَ في هَذَا الموضعِ أن يقول: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وهناك قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾؟

الحِكْمَة في هَذَا ظاهرة؛ لِأَنَّهُ هنا جواب لشبهة أوردت عليه، فناسب أن يُبَيِّن الحِكْمَة فيما يختص بالنَّبي ﷺ؛ لِأَنَّهُ كما هو معروف أن البشرَ بشر، يمكن أن يتأثَّر بما يورَد عليه من الشبهات؛ كما قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ [الإسراء:٧٤].

وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أتينا به شيئًا بعد شَيْءٍ]، وعلى هَذَا يَكُون الترتيل بمعنى التنزيل، وعندي أن الترتيل أخصُّ، يعني أن المعنى جعلناه مرتَّلًا، يعني بعضه يعقب بعضًا، وكل آية منه منفصِلة عن الأخرى، فكأن هَذِهِ الآيات مراحل للمسافر، والمسافر إذا كان له مراحل في سفرِه يهوَّن عليه السفرُ، وتَنْقُضُ هَذِهِ المراحل تعبَ سفرِه، لكِن إذا كان دائمًا في مَسيرٍ وَاحِدٍ يَشُقُّ عليه، وكون النفس ترتاح للقرآن بسَبَب هَذِهِ الآيات والترتيل أمرٌ معلومٌ، وتجزئة القُرْآن أيضًا لهذا السَّبب؛ أي لأجل أن يقطع الإنْسَان القُرْآن مرحلةً مرحلةً، فيهون عليه ويقوى في قراءته، وكذلك أيضًا جَعْلُهُ سوَرًا، كل سورة مستقلَّة عن الأخرى، هَذَا أيضًا من أسباب تنشيط القارئ واستمراره في قراءته، إذَن ترتيل القُرْآن بالآيات والسور هَذَا مما يفيد القارئ ويُكْسِبه نشاطًا وقوةً على القُرْآنِ حفظًا وفهمًا.

وكذلك أيضًا من فوائد الترتيل أيضًا أن العمل يأتي للناس شيئًا فشيئًا، ما ظنك لو أنَّ القُرْآن الكريم نزل جملةً وَاحِدةً على النَّاس بجميع أحكامه، هل يستوعب النَّاس هَذِهِ الأحكام ويقومون بها أو لا؟ لا يمكن، هَذَا صعب جدًّا، وليس من طَريق التربية أو التنشئة، ولكن بحكمة الله عَزَّوَجَلَّ كما هو شأن الله جَلَّوَعَلَا في كل شَيْء من الأمور القدرية والأمور الشرعية أَنَّهُ يُنَشِّئُها تَنْشِئَةً، حتى الأمور الكونية تُنَشَّأ تَنْشِئَةً، فالجنين في بطن أمه يبقى مدة، في بني آدم تسعة شهور، وفي غيره من الدواب بحسبها، المهم لا بد من تنشئة، الليل والنهار لا يأتي دفعة وَاحِدة،

بل شيئًا فشيئًا، وهكذا الشرائع أيضًا تأتي إلى النَّاس شيئًا فشيئًا، لاسيما هَذِهِ الأُمـة، وإن كانت الأمم السابقة شرائعهم نزلتْ جملةً وَاحِدةً، وهذا من الآصار والأغلال الَّتِي كانت عليهم أن شَرْعَهم ينزل جملةً وَاحِدةً، ويلزمون به دفعةً وَاحِدةً، لكِن هَذِهِ الأُمـة من رحمة الله بها أَنَّهُ رتَّل القُرْآن ترتيلًا، حتى يُنَشِّئَهم على الإسلام وعلى شريعة الله تنشئةً شيئًا فشيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما العيب في كون القُرْآن لم يَنْزِلْ جملةً وَاحِدةً؟

العيب أَنَّهُ ليس برسولٍ لِأَنَّهُ لو كان رسولًا لكان مثل غيره ينزل عليه القُرْآنُ جملةً مثلما نزل على من سبقه جملةً. وهي شُبهة في الحقيقة وليست بحجَّة، هي شبهة يريدون التمويهَ بها، وإلا فليس هَذَا -أنه يأتي بالوحي شيئًا فشيئًا- إطلاقًا بشَيْءٍ يَمنع من صدق رسولِ الله ﷺ، لكِن هم يَقُولُونَ هَذَا بالإضافة إلى ما سبق في سورة النحل حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، إذا أضفتَ هَذَا إلى ما سبق كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هو يُلقَّن القُرْآن تلقينًا، وإلا لنَزَل عليه جملةً وَاحِدةً كغيره من الأنبياء.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يَكُون قول المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ اعترافًا منهم بأن القُرْآن منزل من عند الله؟

الجواب: لا، هم لم يعترِفوا، يعني على حسَب دعواه، حيث إنهم يَقُولُونَ: إذا كان نازلًا من عند الله، إذَن لماذا لم ينزل عليك من الله جملةً وَاحِدةً إنْ كنتَ صادقًا، فهذا ليس إقرارًا منهم بالإنزالِ، لكِن يَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي يقول: إِنَّهُ نَزَلَ عليه القُرْآن من الله لماذا لم ينزل عليه جملة وَاحِدة؟ وأيضًا لا يوجد تناقض بين هَذِهِ الآية وبين قولهم: إن هَذَا كَلام ساحر يسحر النَّاس.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: حِرص الكفار على إبطالِ ما جاء به الرَّسول ﷺ وإيراد الشُّبه عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فإنَّ هَذِهِ ليستْ حجَّة وإنما هي شُبهة.

الْفَائِدَة الثَّانية: عناية الله برسوله ﷺ بردِّه على هؤلاء.

الْفَائِدَة الثالثة والرابعة: إثبات الحِكْمَة في أفعال الله؛ لقولِه: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾؛ لِأَنَّ اللام للتعليل، والتعليل معناه الحِكْمَة، ففيه ردٌّ على طائفةٍ من طوائف البِدع، والأَصْل أن هَذَا القول عند المجبرة، يرون أن أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير معلَّلة، وأنه عَزَّوَجَلَّ يخلق الخلائق أو الخَلْق، ويشرع الشرائع لمجرد المشيئة، لا لحكمة، ويَستدلّون بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ولكن أنَّى لهم ذلك من هَذِهِ الآية. إذَن هَذِهِ الآيات تفيد بيان الحِكْمَة من إنزالِ القُرْآن مفرَّقًا وأن أفعال الله تَعَالَى معلَّلة مقرونة بالحِكْمَة، لكِن هَذِهِ الحِكْمَة الَّتِي تكون لأفعال الله عَزَّوَجَلَّ سواء كانت شرعية أو غير شرعية منها ما هو معلوم ومنها ما هو مجهول لنا، ولَكِنَّهَا معلومة عند الله.

الْفَائِدَة الخامسة: أن من الحِكْمَة في إنزال القُرْآن تثبيت قلبِ الرَّسولِ ﷺ، سواء كان ذلك تثبيتًا في تقرير الرِّسَالةِ أو تثبيتًا في ردِّ الشُّبه الَّتِي تُعرض عليه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٣)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ في إبطالِ أمرِكَ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدافع له ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ بيانًا]، هَذَا من تثبيت قلب الرَّسول ﷺ، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ المراد بالمثل هنا الصِّفة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، والمَثَل كما هو معروف يُطلَق على الشبه ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، ويُطلَق على الصِّفة، أو الوصف العظيم العجيب ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد:١٥]، ويُطلَق على المثل المعروف بين الأدباء وهو القول السائر الَّذِي يراد به تشبيه الحال الواقع بما سبق، أو ما أشبه ذلك، فالمراد بالمثل هنا الصِّفة، يعني لا يأتونك بصفةٍ من القولِ يريدون بها إبطال دعوتك إلا جئناك بالحق.

إِذَن فهم يأتون بباطلٍ لِأَنَّهُ قابل قولهم بالحقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا عَلَى أَنَّ كلَّ شُبهةٍ يَحتجّ بها المكذِّبون للرسول ﷺ، فهي باطلٌ، ولكن هَذَا الباطل باطل في ذاته، قد يظهر لبعضِ النَّاسِ بطلانُه، وقد يَخفَى على بعض النَّاس بطلانه، وهذا من الفِتَن، أي فتنة الشبهة، يعني ليس كل ما كان باطلًا معلومًا لكل أحدٍ، ولهذا أنت أحيانًا

وأنت شخص وَاحِد يَنجلي لك الأمرُ واضحًا في بعض الحالاتِ، ويَلتبِس عليك في بعضِ الحالاتِ، حَسَب ما يَكُونُ قلبُك صافيًا مطمئنًا، أو غير ذلك، ومن ثَمَّ نُهي عن القضاء في حالِ الغضبِ، وعن الإفتاء في حال الغضبِ، وفي حالِ الحَرِّ المزعِج، والبرد المؤلِم، وَمَا أَشْبَهَ ذلك؛ لِأَنَّ الإنْسَان تَحُولُ هَذِهِ الأمور بينَه وبين العلمِ بالحقِّ، أو إرادة الحق؛ لِأَنَّهُ عند الغضبِ يَشْتَبِه عليكَ الحقُّ، أو ربما لا تُرِيد الحقَّ بل تُرِيد أن تنفذ غضبك فيمن غضِبت عليه مثلًا.

فالحاصل الآن نقول: كل شُبهة يُورِدُها الكفَّار في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفيما بعده فهي باطلٌ، وما جاء أحدٌ بباطلٍ في عهدِ الرَّسولِ ﷺ إلَّا جاء الله بالحقِّ.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ بيانًا].

وهنا (أحسن) هل هي على بابها أو من باب مقابلة الخصم؟ على بابها؛ لأَنَّهُمْ عندهم بيانٌ وإيضاحٌ للأمورِ، وإيراد للشُّبه، وهم في غايةِ ما يَكُون من الفصاحةِ، ولهذا ما تحدَّى الله أحدًا في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمثلِ ما تحدَّاهم بالقُرْآن، إذَن فـ(أحسن) هنا على بابِها، يعني أَنَّهُمْ يأتون بكَلامٍ حسنٍ جدًّا وبَيِّن وواضِح، ولكننا نأتيك بما هو أحسن وأبين وأوضح، وفي هَذَا من مدافعة الله تَعَالَى عن رسوله ﷺ ما فيه.

قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَلامهم ما دام باطلًا هل فيه بيانٌ؟

فالجواب: نعم؛ لأَنَّهُمْ يأتون بكَلامٍ جيدٍ في فصاحتِه، وقد قال رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إن من البيان لسحرا»[1]، لكِن بيانهم هَذَا وفصاحتهم وسحرهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا، رقم (٥٧٦٧).

اللفظي يأتي الله تَعَالَى بما هو أحسنُ منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: أن كلَّ ذي باطلٍ نجد جواب باطلِه من القُرْآنِ، أو نقول ما هو أعمّ: نجد بيان باطله من الوحيِ المنزَّل على مُحَمَّد ﷺ، نأخذه من قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، فما من شُبهة إلى يومنا هَذَا تَرِد إلا وفي كتاب الله وسنَّة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يَدْحَضُها، ولكن كما هو معروف ليس كلُّ أحدٍ يُدرِك ذلك، فالسيف في يدِ إنْسَانٍ لا يغني شيئًا ولا ينفعه، كالعصا أو أقلّ، وفي يد إنْسَانٍ هو سيفٌ بتّار يضرب به ويقتل به، هكذا أيضًا الوحيُ المنزل على الرَّسولِ ﷺ ليس كلّ أحدٍ يعلمه، ولا كلّ أحدٍ يستطيع إقامة الحجَّة منه، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، ولهذا سئل عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل عندكم شَيْءٌ من الوحيِ إلَّا ما في كتابِ اللهِ؟ قال: «لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ما أَعْلَمُه إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيه اللهُ رَجُلًا في القُرْآنِ، وما في هَذِه الصَّحِيفَةِ». قيل: وما في الصَّحِيفَةِ؟ قال: «الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»(١).

فالحاصلُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤتي فضلَه من يشاء بالنسبة لفهم القُرْآنِ، وكم من آيةٍ تمرّ بشخصٍ يَستنبِط منها عدة مسائل، وآخر لا يستطيع أن يأتيَ منها بمسألةٍ. ويُذكَر أن الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ استضافَ الإمامَ الشافعيَّ ذات ليلةٍ، فقدَّم إليه العشاءَ، فأكل العشاء كلَّه، ثم نامَ واضطجعَ على فراشه، ولم يَقُمْ لصلاة الليلِ، ثم قام إلى الفجرِ ولم يطلبْ وَضُوءًا، فقالت إحدى بنات الإمام أحمد لأبيها: هَذَا الشافعي الَّذِي كنت تقولُ عنه كيت وكيت، ما رأيناه عمِل ولا رأيناه أيضًا اقتصرَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

على ثُلُث لطعامِه. فقال: آتيكم بالخبرِ. فسأل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أولًا: لماذا أكل كل الطعام؟ فأجاب قال: إني لا أرى أحدًا في هَذَا البلد أحلَّ طعامًا من الإمام أحمدَ، فأحببتُ أن يمتلئَ بطني من هَذَا الطعامِ الحلالِ، هَذِهِ وَاحِدةٌ، إذَن له غرضٌ، والشبع أحيانًا جائزٌ -فأبو هريرة شَرِبَ اللبنَ وقال له النَّبي ﷺ: «اشْرَبْ». فقال: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا[1]، ولكن نحن نحدِّث أنفسَنا بالحديث عند كل أكلةٍ، كل أكلة نقول مثل ما قال أبو هريرة! وهذا عارض، والعوارض كثيرة- وسأله: لماذا لم يَقُمِ الليلَ؟ فقال: إني كنتُ أتدبَّر قول النَّبي ﷺ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»[2]، وإني استنبطتُ من الحديثِ ألفَ فائدةٍ. وَأَمَّا كوني أصلي الفجر بدونِ وضوءٍ فأنا لم أنمْ، أتدبَّر هَذَا الحديثَ. لكِن ما أظنُّه أخذها من لفظِ الحديثِ فقط، فالله أعلم أَنَّهُ كُلَّمَا رأى فائدةً جرَّ حديثًا آخرَ يدلّ عليها، ثم استنبط منه.

فالحاصِلُ: أن النَّاس يختلفون في فَهْم الكِتَابِ والسنَّة، واستنباط الأحكام من الكِتَاب والسنَّة، ولهذا تجد بعض النَّاس يأتي لك بالآيةِ ويسوقُ فوائدَها ويمكن أن يُحصِّل خمس أو عشْر فوائد حسَب ما في الآيةِ، وآخرُ يأتي بدلًا من الخمس بخمسين، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا، رقم (٦٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، رقم (٦٢٠٣)، ومسلم: كتاب الأدب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته ... رقم (٢١٥٠).

الآيــة (٣٤)

• • ● ● • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٤].

• • ● ● • •

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ يقول المفسِّر: [هم ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ﴾]، فجعل (الذين) خبر مبتدأ محذوف، والتقديرُ: هم ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، يعني هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبوك وعارَضوا ما جئتَ به هم الَّذِينَ يُحشَرون على وجوههم، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يُساقُون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾]، ولو قال المُفسِّر: يُحشَرون بمعنى يُجمَعون؛ لِأَنَّ الحشر بمعنى الجمعِ، يعني يُبعَثون -والعياذُ بالله- يومَ القيامةِ على وُجُوهِهم، لكنْ كأنَّه لَمَّا عُدِّيَ بقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صار مُضمَّنًا لمعنى السَّوق؛ لمعنى يُساقُون، ولكنَّه لا مانعَ أن نقولَ: يُحشَرون ويساقون؛ لِأَنَّ الفعل إذا ضُمِّن معنى فعل آخرَ ليس معناه أَنَّهُ يَسْلُب دلالتَه الَّتِي يدلُّ عليها لفظُه، بل يُضاف إليه معنًى آخرُ، فمثلًا ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦].

قُلْنَا: إن يشرب مضمَّـن معنى يَرْوَى، وليـس معنى ذلك أَنَّهُ سلـب معنى الشرب؛ لِأَنَّهُ لا رِيَّ إِلَّا بعدَ الشُّرب، وهذا واضحٌ، كذلك أيضًا لا سَوْقَ إلى جهنَّم إلا بعد الحشر الَّذِي هو الجَمْعُ.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾ على رأيِ المُفَسِّر تكون: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف،

ويَكُون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حالًا؛ جملةً حاليَّةً، أو أنها مبتدأ وخبر مستأنف، ويَحتمل أن تكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ خبر المبتدأ، فتكون من باب المبتدأِ المخبَر عنه بجُملةٍ.

وقوله: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يمشون على وجوههم؟ نقول: كما قال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»[1]، ليس ببعيدٍ، وإذا كان المتكبِّرون يُحشَرون يوم القيامة أمثالَ الذَّرِّ يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِم[2] فاللهُ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ، فإنْسَانٌ بَشَرٌ قد يَكُون من أكبرِ النَّاسِ جُثَّةً في الدُّنْيا، وهو متكبِّر، إذا كان يوم القيامة يُحشَر أمثالَ الذَّرِّ، والله تَعَالَى على كلِّ شَيْء قدير، وهذا مثالٌ مِمَّا سبق الإشارةُ إليه بأن أحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنيا.

إذا قيل: ما وَجْهُ العقوبة بحَشْرهم على وُجوههم؟

فالجواب: إهانةً لهم؛ لِأَنَّ الوجه أشرفُ الأعضاءِ، فإذا جُعل هو مَحَلّ الوَطْء فهذا إهانةٌ، لكِنْ ما هي الحِكمة من ذلك؟ لا شكَّ أَنَّهُ فيه إهانة وعذاب؛ لأَنَّهُمْ قَلَبُوا الحقائقَ فَقُلبوا، وأيضًا لَمَّا كانوا ينطِقون بِأَلْسِنَتِهِمْ، وهي في وُجُوههم، صار العذابُ عليها، كلُّ هَذِهِ وُجُوه محتمَلة، وعندي زيادة احْتِمال أن الإنْسَان يُقبِل على الشَّيْءِ بوجهه ويُعرِض عنه بوجهه، فلمَّا كان الوجه محلَّ الإعراضِ والإقبالِ، وهم قد أَعرضوا، صار العذابُ عليها.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٩٢).

كل هَـذِهِ المعاني مناسِبة، والله أعلـمُ بما أرادَ، وقد تكون كل هَذِهِ المعـاني مقصودةً، ولا يقال: إن الوجـهَ أشدُّ مواطنَ الجسدِ إحساسًا، نقول: ليس على كلِّ حالٍ؛ لِأَنَّهُ توجد مواطنُ أشدُّ إحساسًا من الوجهِ. على كلِّ حال هَذِهِ المعاني الَّتِي ذكرتُ يمكِن أن تكونَ كلُّها من أسباب أَنَّهُمْ يحشَرون على وجوههم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ هو جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا من غيرهم، وهو كُفْرهم].

قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ يعني منزِلَةً، وهي جهنَّم، فهي شرٌّ مكانًا من كلِّ أحد؛ لِأَنَّهُ لم يذكر المفضَّل عليه، وعدم ذِكر المفضَّل عليه يفيد العموم، يعني ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ من جميع الأمكنة ومن كل أحد.

قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ يعني طَريقًا عن الصواب، فهم أضلُّ طَريقًا من كل أحدٍ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُحشَرون على وُجُوهِهم إلى جَهنَّم -والعياذُ بالله- هم شرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةً، وهم أضلُّ النَّاسِ طَرِيقًا.

وقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ جَهَنَّم هَذِهِ اسْم من أَسْماء النار، وأصلها من الجُهْمَة، والنون فيها زائدة، وعلى هَذَا فوزنها فَعَنَّل؛ لِأَنَّ النون زائدة، وسُميت بهذا الاسْم لِأَنَّهَا سوداء اللون، بعيدة القَعْر، وهَذِهِ هي الجُهمة والظُّلمة، نعوذ بِاللهِ منها.

ويستفاد من الآية إثباتُ البَعْث؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

• • ۞ • •

الآيـة (٣٥)

• ● ∞ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٥].

• ● ∞ ● •

هَذِهِ الجملة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ فيها مؤكِّدات عددها ثلاثة: (اللام)، و(قد)، والقَسَم؛ لِأَنَّ اللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم، والتقدير: واللهِ لقد، والتأكيد في القُرْآنِ سَبَبُه أحدُ أمرينِ: إمَّا أن يَكُون في مقابلةِ إنكارِ المنكِر، وإما أن يَكُون لأهميـةِ الموضوعِ، وإما للأمرينِ جميعًا، فيَكُون أمرًا مُهِمًّا، ويَكُون هنـاك مُنْكِرٌ له، فيـؤكِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك الأمرَ، فهنا إيتاء موسى الكِتابَ هَذَا أمرٌ واقِعٌ ولا يُنْكَر، لكنْ لأهميَّة الموضوعِ أكَّده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيَعْرِضَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صُوَرًا من تكذيبِ السابقينَ حتى يَكُون ذلك أبلغَ في تسليتِه، ففيما سَبَقَ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١]، وهذا قولٌ مجمَل، ثم شَرَعَ هنا في تفصيلِ ذلك وبيانِ ما وَقَعَ على سبيل التَّعْيين.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ]، وآتَيْناهُ بمعنى أَعطيناه إيَّاها، أنزلها الله تَعَالَى عليه مكتوبةً بألواحٍ، فهي ألواحٌ مكتوبٌ فيها التوراة، جـاءَ بها مُوسَى منَ الله، وليس المراد أنها تنـزل من السماء، أنزلهـا الله على موسى فجاء بها إلى قومِه، وقِصَّتُها في الأعرافِ مبسوطةٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ مُعِينًا]، ﴿أَخَاهُ﴾ من أبيه وأمِّه، وأمَّا قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه:٩٤]، فهذا من باب التلطُّف والتعطُّف؛ لِأَنَّ الأمَّ أشدُّ حنانًا من الأبِ، وإلَّا فَهُوَ أخوه من أبيه وأُمِّه، ومسألة القرابة وأنه شقيقه ثابتةٌ.

قوله: ﴿هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُعِينًا].

وقوله: ﴿وَزِيرًا﴾ من الأَزْرِ؛ وهو العَوْن، يعني أَنَّهُ كان وزيرًا، أي مُعِينًا له، وذلك بِطَلَبٍ من موسى؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَـٰرُونَ أَخِى ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٣١]، ويقال: إِنَّهُ لا يُوجَد أحد من الإخوة أشدّ مِنَّةً وفضلًا من موسى على هارون؛ لِأَنَّهُ طلب أن يَكُونَ رسولًا، والرِّسَالة أعلى المقامات الَّتِي يتوصَّل إليها البَشَر.

• ● ۞ ● •

الآية (٣٦)

•●○●•

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان:٣٦].

•●○●•

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي القِبْط فِرْعَون وقَوْمه، فذَهَبَا إليهم بالرِّسَالةِ فكَذَّبُوهما ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكًا].

قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ في كلمة ﴿كَذَّبُوا۟﴾ إشكالٌ؛ وهو أَنَّهُ يَقْتَضِي أن التكذيبَ سابقٌ للرسالةِ، ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فكيف يَكُونون مكذِّبين مع أَنَّهُمْ لم يأتِ إليهم رسولٌ؟

والجواب: أن الفعلَ الماضيَ هنا بمعنى المستقبَل، بمعنى: الَّذِينَ يكذبون بآياتنا؛ لِأَنَّ الآياتِ لم تَصِلْ إليهم بعدُ، فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي يكذبون بها في المستقبَل.

أو يقال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بحسَب عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: قَدَّرنا أَنَّهُمْ يكذِّبون.

ويَحتمِل وجهًا ثالثًا، لَكِنَّهُ احْتِمال لا يوجد ما يؤيِّده، أَنَّهُمْ قد أُرْسِل إليهم رسولٌ فكَذَّبُوه، وهذا يؤيِّده قول المؤمن من آلِ فِرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ

مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ [غافر:٣٤].

فَإِذَا قِيلَ: إن يُوسُفَ سابقٌ جِدًّا على موسى، ولا ندري هل أدركه فرعون أم لم يُدْرِكْه؟

فيقال: لعلَّ آثار رِسالته قد بَقِيَتْ، ولهذا خاطَبَهُم المؤمن: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾، ولم ينكروا، ما قالوا: ما جاءنا، ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يعني إلى الآن.

فصار عندنا الوجوه ثلاثةً؛ إما أن الماضيَ هنا بمعنى المضارعِ، واستعمالُه بمعنى المضارع كثيرٌ في اللغة العربيةِ، ولا يَحْضُرني الآن أمثلة، وربما يأتي، وإمَّا أن يَكُونَ كَذَّبُوا في علمِ اللهِ أي حَسَب علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقديره، وإما أن يَكُون بِحَسَب الرِّسَالةِ السابقةِ الَّتِي هي رسالة يُوسُف.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المراد بالآياتِ هنا الكونيَّة أو الشرعيَّة؟ الظاهر أنها تَشْمَل الآيات الكونية والشرعية؛ لِأَنَّ آيات الله عَزَّوَجَلَّ كما هو معروفٌ آياتٌ شرعيَّة وآيات كونيَّة، فما تَعَلَّقَ بالخَلْق والتقدير فَهُوَ آيات كونيَّة؛ لِأَنَّ في انتظامِه ودِقَّته وصُنعه ما يدلّ على حِكمة صانعِه وقُدرته، وما يتعلَّق بالوحي فَهُوَ آيات شرعيَّة؛ لِأَنَّ إصلاح هَذَا الوحي لِمَن نزل إليه على حَسَب ما شُرِعَ هَذَا من الآيات العظيمة الدالَّة على أَنَّهُ من عند الله، قال تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ اذهبا إليهم فدمَّرناهم؛ من المعروف أن في الآية تقديرًا، والتقدير: فذَهَبَا إليهما فكذَّبوهما فدمَّرناهم تدميرًا، وإنما يَتَعَيَّن هَذَا التقدير لِأَنَّهُ لا يمكِن التدمير بمجرَّد ذَهاب

الرَّسولِ إليهم، لا بدَّ من تكذيبٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى لن يُهْلِكَ أحدًا إلا بذنبٍ.

وقوله: ﴿تَدْمِيرًا﴾ مصدر يُراد به التعظيم، يعني تدميرًا عظيمًا، ولا شك أنَّ التدميرَ الَّذِي وقع لفرعونَ وقومِه من أعظم التدميرِ؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٧]، هَذَا النَّعيم العظيمُ الَّذِي كان فيه قومُ فِرعونَ إذا جاء الهلاك من بعده يَكُون وَقْع الهلاك فيهم شديدًا؛ لِأَنَّ الهَلَاكَ إذا وقع للبائسِ فَهُوَ أهونُ مِمَّا إذا وقع للناعِم، هو أَهْوَن بكثيرٍ، ولهذا وَصَفَ الله هَذَا التدمير بقوله: ﴿تَدْمِيرًا﴾؛ يعني عظيمًا بالغًا، وهذا التدميرُ لا يُنافي ما أَشَرْنا إليه من أنَّ الله تَعَالَى أنجى فرعونَ بِبَدَنِه، يعني لا بِرُوحِه، فإن رُوحَه هلكتْ مع مَن هلكَ، لَكِنَّهُ أنجاهُ ببدنِه ليَكُونَ آيةً لبني إسرائيلَ وعلامةً على أَنَّهُ هلك؛ لِأَنَّ الرجلَ قد أَرْعَبَهُم وأَرْهَبَهُم، فلا يَطْمَئِنُّون تَمامَ الطُّمأنينة حتى يشاهدوا جُثَّتَه ميِّتة، وبذلك يَكُون آية وعلامة على أَنَّهُ ما بَقِيَ له بقيَّة.

هل في هَذَا تعيين لِمَا يَتَسَلَّى به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجواب: نعم فيه؛ لِأَنَّ فرعونَ من أعظم النَّاس عُتُوًّا وتكبُّرًا، ومعَ ذلك أهلكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إهلاكًا بالغًا هو وقومه، فهكذا أيضًا تكون العاقبةُ للرسول ﷺ مثلَما كانت العاقبةُ لموسى وقومِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قوم الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعرِفون حكاية فرعونَ؟

فنقول: نعم يَعرِفونها؛ إمَّا من قَبل نزول القُرْآنِ أو من بعدِه؛ لأَنَّهُمْ يعرفون في أنفسِهم أن القُرْآنَ حقٌّ.

الآيــة (٣٧)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:٣٧].

بدأ بذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، معَ أَنَّهُ متأخِّر بالنسبةِ إلى قومِ نوحٍ، فما هي الحِكمة من ذلك؟ فالجواب: لِأَنَّ فرعونَ أقربُ عَهْدًا، وأشدُّ عُتُوًّا من قوم نوحٍ.

قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ الناصب لها موجودٌ، ليس مقدَّرًا، وهو قوله: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، فَهُوَ من باب الاشتغالِ، ولكن لماذا نَصَبَ مع أن الراجحَ في ظاهر القول الرفعُ؟ نقول: لِأَنَّهُ عُطِف على جملةٍ فعليَّة، وإذا كان معطوفًا على جملة فعلية فتقديرُ الفعلِ أَولى من المبتدأ؛ لأجل أن تتناسب الجملتانِ، يُعْطَف فعل على فعلٍ، يعني: فدمَّرناهم تدميرًا، وأغرقنا قوم نوح لَمَّا كذَّبوا الرُّسُل، فدمَّرنا وأغرقنا قوم نوح.

وعلى رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فإن ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بتقدير: اذْكُرْ قوم نوحٍ لَمَّا كذَّبوا الرُّسُلَ أغرقناهم، ولكننا نقول: لا نحتاج إلى تقدير، والمسألةُ من بابِ الاشتغالِ، والاشتغالُ معروف، والاشتغال مثل النِّكاح، فالنكاح تَجري فيه الأحكامُ الخمسةُ، والاشتغال أيضًا تَجري فيه الأحكامُ الخمسةُ، أحيانًا يَجِب الرفع، وأحيانًا يَجِب النصب، وأحيانًا يَتَرَجَّح النصب، وأحيانًا يَتَرَجَّح الرفع، وأحيانًا يَتساوَى الأمرانِ، فتجري فيه الأحكام الخمسة، أحكام النحو، لا أحكام التكليف في الشرع،

وفي مثل هَذَا التركيب يَتَرَجَّح النصبُ؛ لِأَنَّهُ معطوف على جملةٍ فعليَّة، وإذا عطف على جملة فعلية فالأرجح النصبُ؛ لأجل أن نقدِّر فعلًا يكُون مناسبًا لِمَا عُطِفَ عليه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ بتكذيبهم نوحًا لِطُول لُبْثِه فيهم، فكأنَّه رُسُل، أو لِأَنَّ تَكْذِيبَه تكذيبٌ لِباقي الرسُلِ؛ لاشتراكِهِم في المجيءِ بالتَّوحِيدِ]، المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حلَّ الآية الكريمة على وجه جوابٍ لإشكال في قوله: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، فمعلـوم أن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أول الرُّسُـل ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وكذلك أيضًا في حديث الشفاعة: «وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ»[1]، فإذا كان أول الرُّسُل فكيف الجواب عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ معَ أَنَّهُ ما سَبقَه رسول ولا جاء معه رسول؟

أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بواحِد من أمرينِ: إما أَنَّهُ لِطُول مُكْثِه في قومِه صار كأنه رُسُل كثيرون؛ لِأَنَّهُ لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، وهَذِهِ مدَّة تَستوعب رسلًا كثيرينَ، فكأنه لِطُول المُكْث صارَ متعدِّدًا، هَذَا وَاحِد.

الجواب الثَّاني: أو لِأَنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لباقي الرُّسُلِ؛ لاشتراكِهِم في المجيءِ بالتَّوحِيدِ، فيكُون هَذَا من بابِ الجنس؛ لِأَنَّ مَن كَذَّب رسولًا فكأَنَّما كذَّب جميعَ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُ كما أَسلَفنا أعداء الرسُل لا يُعادونهم لِشَخْصِهِم، وإنما يُعادونهم لِمَا يَدْعُونَ إليه، وما جاءوا به، وهذا جِنسٌ، فيكُون تكذيبهم لرسولٍ تكذيبًا لجميع الرُّسُل، وهذا أقرب، ولذلك مَن كذَّب رسولًا وَاحِدًا فَهُوَ مكذِّب لجميعِ الرسُلِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة:٣١]، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وبهذا نعرِف أن اليهودَ الآن مكذِّبون لِموسى، وأن النصارى الَّذِينَ يزعُمون أَنَّهُمْ متبِّعون لعيسى مكذِّبون لعيسى؛ لأَنَّهُمْ مكذِّبون للرسول ﷺ، فهم مكذِّبون حتى لأنبيائِهم.

وبهذا نعرِف أيضًا أن ما اشتهر بين النَّاسِ الآنَ من تسمية النصارى بالمسيحِّين أَنَّهُ خطأ، وأنه لا يَنبغي أنْ نُسمِّيَهم بالمسيحيين؛ لِأَنَّ المسيحَ منهم بريءٌ، ولا يجوز أن يُنسَبوا إليه، ولا إلى دينِه، وإنها يقالُ لهم ما قال الله فيهم؛ وهو النصارى، وما زال المسلمونَ في كُتُبهم يُسَمُّونهم بهذا الاسْم بالنصارى إلى أن استعمروا البلاد الإسلاميَّة وأدخلوا على المسلمينَ هَذَا التعديلَ تلطيفًا وتمويهًا؛ لِتَصْطَبِغَ مِلَّتُهم بالوصف الشرعيّ وهو المسيحيَّة، ونحن نقول: نُشهِد الله عَلَى أَنَّ المسيح ﷺ منهم بريءٌ، وأَنَّهُمْ كافرون به كما هم كافرون بمحمَّدٍ ﷺ، بل إنَّهم في الحقيقة كافرونَ به، لا من حيثُ العمومُ والجنسُ، بل من حيثُ التعيينُ؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يقول عن عيسى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦]، يخاطب بني إسرائيل فيبشِّرهم بهذا الرَّسول، وهل يمكن أن يُبَشَّرَ أحدٌ بما لا يتَّصل به؟ لا يمكن، فإذا كان يبشِّرهم برسول يأتي إلى العرب ويحاربهم ويقاتلهم هل هَذِهِ بشارة؟ أبدًا، البشارة برسول يأتي إليهم لِيُنْقِذَهم من الضلالِ، ومُحَمَّد ﷺ لَمَّا جاء إلى هَذِهِ الأُمَّة صار يحارب النصارَى، وأوجبَ اللهُ عليه محاربَتَهم ومحاربة اليهود، ومحاربة جميع الكفارِ، هل يمكن أن يَكُونَ عيسى مبشِّرًا للنصارى برسول يأتي من بعده اسْمه أحمد ليقاتِلَهم؟!

لا يمكن، وبهذا نعرِف أَنَّهُمْ كَذَّبُوا عيسى على التعيينِ، لا على جنسِ الرِّسَالةِ، كما أسلفنا أولًا.

وَإِذَا قِيلَ: إنهم لا يعلمون بِهَذِهِ البشارةِ.

نقول: هَذِهِ البشارة موجودةٌ في أصلِ الكِتَابِ، ولا أظنها تحرّفتْ، لا بدَّ أن تكون باقيةً؛ لِأَنَّهُ مُبَشِّرٌ لهم، ولا يبشَّر إلا من تصل إليه البشارة، فالظاهر أَنَّهُ ما جَرَى عليها التحريف وأنها باقية، فقد يحرِّفون المعنى أو بعض الأمور كتموها، أو ما أشبه ذلك، ولهذا اليهود لما أرادوا ألا يطبّقوا الحدَّ في التوراة لم يُزيلوها من التوراة، هي باقية، لكِن يحاولون أن يكتموها عن النَّاس كما هو معروف[1]، وأنا عندي أن ذلك لا بد أن يَكُون هَذَا موجودًا لم يَجْرِ عليه تحريفٌ؛ لِأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ [الصف:٦]، ولأنه إِنَّمَا يُبَشَّرُ بالرَّسول مَن كان في وقت الرَّسول، وهذا معناه أَنَّهُ سيبقَى، وَأَمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠]، فإن هَذَا مما يؤيِّد ما قُلْنا، لكِن نفس البشارة تدلّ عليه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يؤيِّد، وليس نصًّا في الموضوع، فقد يَكُون المراد أوائلهم قبل التحريف، لكِن الظاهر أن المراد الأوائل والأواخِر، كذلك وفد نَجْرَان لَمَّا أَتَوُا النَّبي ﷺ.

والخلاصة في الكَلام على قوله: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ أَنَّهُ جمع، مع أَنَّهُمْ ما كذَّبوا إلا نوحًا، والجواب عن ذلك من أحد وجهين كما تقدم: إما أَنَّهُ لطول مُكْثِه كأنه رُسُل، وإما أَنَّهُمْ لَمَّا كذبوا هَذَا الرَّسول مِنْ أجلِ الرِّسَالة صاروا مكذِّبينَ لِجميع الرسُلِ.

والَّذِي حصل ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ فَهُوَ جواب ﴿لَّمَّا﴾، قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ وقصَّتهم معروفة، حتَّى إِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أغرقَ من قومِ نوحٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم، إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام، رقم (٦٨٤١)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزِّنى، رقم (١٦٩٩).

ابنَه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، فقال الله له: إِنَّهُ ليس مِن أهلِك؛ لِأَنَّهُ كافر وأنتَ مؤمِنٌ.

وَقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بعدَهم ﴿ءَايَةً﴾ عِبرةً ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخِرة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرينَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾].

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بعدهم ﴿ءَايَةً﴾ عِبرة]، كيف كانوا عبرةً؛ لِأَنَّ الآية لا بدَّ أن تكون معلومةً، فكيف كان ذلك؟ عن طَريق الخبرِ، سواء كان عن طَريق الوحيِ أو عن طَريقِ النقلِ بين النَّاسِ، وأيضًا الفُلْك أوَّل مَن صَنَعها نوح، فبَقِيَتْ آيةً إلى يومِنا هذا، ولكنَّها تطوَّرت بحسَب الزمن، كما في قوله تَعالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٣-١٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخِرة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾]، قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ هَذَا إظهارٌ في موضِع الإضمارِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى السياق أن يقول: وأَعْتَدْنَا لهم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، ولكن الإظهارُ هنا له فائدةٌ، بل فوائدُ، نَعُدُّها:

الأُولى: إرادة الشمول والعموم؛ لِيَشْمَلهم هم وغيرهم، حتى الظالمون من قريشٍ يدخلون في هذا؛ لِأَنَّهُ إذا قال: (وأَعتدنا لهم عذابًا أليمًا) صار العذابُ الأليمُ لهم فقطْ، لكن لَمَّا قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ صار لهم ولغيرِهم.

والثَّانية: تسجيل هَذَا الوَصْف عليهم، وهو الظُّلم؛ لِأَنَّهُ وصفهم بأَنَّهُمْ ظالمون.

والثالثة: إظهار الحِكمة من هَذِهِ العقوبة وهي أَنَّهُمْ كانوا ظالمين، يعني أعدَّ لهم عذابًا أليمًا؛ لأَنَّهُمْ ظالمون.

والرابعة: التنبيه: تنبيه المخاطَب؛ لِأَنَّ تَغَيُّر السياق يُوجِب انتباهَ المخاطَب، مثل الالتفاتِ، قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ [المائدة:١٢]، ولم يَقُل: وبعَثَ. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٢-٥]، لم يقلْ: نعبد، بل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لكِن المراد بالمخاطَب هنا الَّذِي يَكُون في قلبه حياة، أَمَّا الَّذِي يقرأ القُرْآن بدون تدبُّر فَإِنَّهُ لا يَنْتَبِهُ للإظهار في موضِع الإضمار، والالْتِفات، والتنبيه، فكله عنده وَاحِدٌ، لكِن الكَلام للذي يقرَأ بتدبُّر؛ فَإِنَّهُ لا بد أن يَنْتَبِهَ كيف تغيَّر السياقُ، وكيف عُدل عن الضمير إلى الظاهرِ.

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فَعِيل بمعنى مُفْعِل، يعني مُؤْلِمًا، وعذاب جهنم -والعياذ بالله- أو عذاب الآخرة يَشمَل الألمَ البَدَنِيَّ والألم القلبيَّ، فالألم البدني يحصُل بنوع العذاب، والألم القلبيُّ يحصُل بما يقارن عذابهم من التوبيخ؛ لأَنَّهُمْ يوبَّخون ويُقرعون ويُقرَّرون بإتيان الرُّسُلِ، وهذا من أشدِّ ما يَكُون من العذاب القلبيّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٨)

• • ◌ • •

۞ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨].

• • ◌ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿عَادًا﴾ قومَ هُـودٍ ﴿وَثَمُودَاْ﴾ قومَ صالحٍ، ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ اسْم بِئْرٍ، ونبيُّهم قيل: شُعَيْب، وقيل: غيرُه، كانوا قعودًا حولَها فانهـارتْ بهم وبمنـازلهم، ﴿وَقُرُونًۢا﴾ أقوامًا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، أي بين عـاد وأصحاب الرَّسِّ].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها على تقدير (اذْكُر)؛ لِأَنَّهُ لم يذكر فعلًا بحيثُ يُحالُ العملُ عليه، وعادٌ قومُ هودٍ، وكانوا في الأحقافِ في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا ذوي قوَّة وشِدَّة، حتى إنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، انْظُر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ لها فائدة؛ لأَنَّهُمْ مخلوقون ضعفاء ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وبماذا أُهلِكُوا؟ أهلكوا بألطفِ الأشياءِ، وهي الريحُ؛ رِيحٌ دمَّرَتْهُم، قال تعَالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

قوله: ﴿وَثَمُودَاْ﴾ فيها قراءتانِ: (وَثَمُودًا) ﴿وَثَمُودَاْ﴾ بدون تنوينٍ، فعلى قراءة التنـوينِ يكُون غير ملاحَظ فيها اسْم القبيـلة، يعني ليس فيها تأنيث، وعلى قراءة

عدم التنوين ﴿ثَمُودَ﴾ منعت من الصرف للعلميَّة والتأنيثِ، فأَسْماء القبائل كلها يُحْذَى بها هَذَا الحَذو، يعني يجوز أن تمنعها من الصرف باعتبارِ اسْم القبيلة، ويجوز أَلَّا تَمْنَعَها إذا لم يكنْ فيها مسوِّغ غير التأنيث المعنويّ؛ لِأَنَّهَا ليستْ فيها سَبَبٌ.

وثمود هم قوم صالحٍ، كذَّبوا صالحًا وعَقَرُوا الناقةَ الَّتِي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آية، وأخيرًا أُهلِكوا بصيحةٍ ورَجفةٍ، صِيحَ بهم مع الرَّجْفَة، فماتوا والعياذُ باللهِ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، وفي آية أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل نبيّ الله صالح عربيّ؟

فالجواب: الظاهرُ أَنَّهُ عربيّ، وهُود أيضًا، لكنهما ليسا من العرب المستَعْرِبَة الَّذِينَ هم بنو إسماعيل من العربِ العاربةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لكِن ذكر ابنُ كثيرٍ[1] حديثًا عن أبي ذرٍّ قال: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ فذكر فيه: «**وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ**»[2]؟

فالجواب: الأَسْماء تدل على أنها عربيَّة، لكِن لا أدري عن هَذَا الحديث، لكنِ المعروف أَنَّهُ لا يوجَد إلا هَؤُلَاءِ الأربعة، حتى شُعَيب لا أدري عنه إلا مِن هَذَا

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٠)، ط. دار طيبة.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١-الإحسان). وقال ابن كثير عقبه في التفسير: «قد روى هَذَا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حِبَّان البُسْتي في كتابه الأنواع والتقاسيم، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج ابن الجوزي، فذكر هَذَا الحديث في كتابه الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل مِنْ أَجْل هَذَا الحديث، فالله أعلم».

الحديثِ، أمَّا هود فمعروف عند المؤرِّخين أَنَّهُمْ عَرَب عاربةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل أحدٌ تَعَرَّض لتعريبِ أَسْماءِ الأنبياءِ، أي معرفة معناها؟

فالجواب: من المعروف أنَّ الأعلامَ قد تكونُ أَسْماء جامدةً، ليس لها اشتقاقٌ، لكنْ فيما يبدو لي -والله أعلم- أن أَسْماء الأنبياء في الغالبِ لها معانٍ، لكِن لا أعرِفُ عنها شيئًا.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ الرَّسُّ اسم للبئر؛ إمَّا للبئر مطلقًا، أو لبئر غير مَطْوِيَّة، ولم يبيِّنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنْ أصحابُ الرسِّ، ولذلك اختلفَ المفسِّرون فيهم اختلافا كثيرًا، فقيل: إنهم -كما يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قومُ شُعَيْب، ولكنَّ هَذَا ليسَ بصحيحٍ، وقيل: إنهم من قومِ ثَمود، ولَيْسُوا قومَ ثمود، وعلى هَذَا فيَكُونُ عَطْفُهم على ثمودَ من بابِ عَطْف البعضِ على الكلِّ، ولَيْسُوا هم ثمود أصحاب البئر، يعني بئر الناقة؛ لِأَنَّهُ معروفٌ أَنَّهُمْ ثمود مستقِلُّون، وهلاكهم معروف، وجوابهم لرسولهم معروف، فالأَصْل في العطف التغايُر.

وقيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ -ورجَّحه ابنُ جَرِير[1]- هم أصحابُ الأُخدود الَّذِينَ ذَكَرَ الله تَعَالَى في سورة البُرُوج، ولكن الأَولى التوقُّف في تَعْيِينهم؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُعَيِّنْهُم، ولكننا نَعْلَم أن هَؤُلَاءِ القوم كانوا معلومينَ للعربِ حين نُزُولِ القُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى لم يَكُنْ لِيَضْرِبَ لهم المَثَلَ بقومٍ لا يَعرِفون ما جَرَى عليهم، الآن نحنُ نَتَكَلَّم عن تعيينهم بأشخاصهم، أو بقبائلهم، نقول: الأَولى التوقُّف.

لكنْ لماذا سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ؟

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٩/ ٢٧٠)، ط. الرِّسَالة.

قيل: إنهم رَسُّـوا نبيَّهم، يعني دفنوه في هَذِهِ الرسِّ، يعـني في البئر، فسُمُّوا بأصحاب الرسِّ من باب إضافة الشَّيْءِ إلى العملِ الشَّنيع المنكَر.

وقيل: إنهم كانوا حولَ هَذِهِ البئرِ، وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَسَفَ بهم وببئرهم، فانهارت البئرُ بمَن حولها، فذهبوا عن آخِرِهِم. وكيفيَّة العقوبة الَّتِي جرتْ عليهم أو كيفية العمل الَّذِي عمِلوه فأُهلِكوا به على الأوَّل تكونُ الإضافة إشارة إلى الفعلة القبيحة الَّتِي فعلوها، فكانت سَبَبًا في إهلاكهم، وعلى الثَّاني تكون إشارة إلى نوع العقوبة الَّتِي عُوقِبوا بها، فتكون من باب الإضافة إلى العقوبةِ.

نقرأ كَلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ اسْم بئرٍ، ونبيُّهم قيل: شُعيب، وقيل: غيرُه، كانوا قعودًا حولَها فانهارتْ بهم وبمنازلهم]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتصرَ على ذكر كيفيَّة إهلاكهم، فهم أُضيفوا إلى البئرِ؛ لِأَنَّ إهلاكَهم كان بما حولها، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُرُونَۢا﴾ أقوامًا ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ أي بينَ عادٍ وأصحابِ الرَّسِّ]، هَذَا ما ذهب إليه المُفَسِّر، ويَحتمِل أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى ما سبقَ من قومِ نوحٍ، يعني من قوم نوح إلى أصحاب الرسِّ قرون كثيرة أَهلَكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُرُونَۢا﴾ أقوامًا] كأنه يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المرادَ بالقرنِ الجِيل، والقوم والأُمَّة الَّتِي كانت في عصرٍ وَاحِدٍ، وهذا أحد الأقوالِ في القرن؛ أن المراد به الأُمة والطائفة الَّذِينَ كانوا في عصر وَاحِدٍ، وعلى طَرِيقٍ وَاحِدةٍ، واستدلوا بقول النَّبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

ويُطلَق القرنُ على الزمنِ، واختلفوا في مِقدارِه؛ فمنهم مَن قال: إنَّهُ مئة، وهذا هو المشهور، ومنهم من قال: مئة وعشرونَ، ومنهم من قال: ثمانونَ سنةً، وهَذِهِ الأقوال الَّتِي تُقَدِّرُ بالزمنِ هي مقارِبةٌ للأقوالِ الَّتِي تقدِّر بالأُمَّة؛ لِأَنَّ الغالبَ أن مثل هَذَا الزمن يَفنى به الأوَّلون ويأتي بعدَهم قومٌ آخرونَ، ولهذا قال النَّبي ﷺ في آخِرِ حياتِه: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مئة سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ»[١]، فهذا مما يُشِيرُ إلى أن القرنَ مئة سنةٍ، ولكنَّ السياقَ هنا يدل عَلَى أَنَّ المرادَ بالقرون الأُمم؛ لِأَنَّ الإهلاكَ للقرونِ يَكُون لأهل الأزمان، فالآيةُ هنا سياقها يدلّ عَلَى أَنَّ المراد بالقرونِ الكثيرةِ الأممُ، وما أَكْثَرَ القرونَ الَّتِي أَهْلَكَهَا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين نوحٍ وأصحابِ الرَّسِّ، وقد جاء في الحديث الَّذِي رواه أبو ذَرٍّ وهو حَسَنٌ، وصحَّحه الحاكِم[٢] أن عدد الرُّسُلِ ثلاثُ مئة وبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وأمَّا الأنبياء فكثيرون؛ مئة وأربعة وعشرون ألفًا، هَذَا عددٌ كبيرٌ، فإذا كان غالب الرُّسُل مُكَذَّبًا، فمعنى ذلك أن القرونَ الَّتِي أُهْلِكت كانتْ كثيرةً، والنَّبي ﷺ رأى رؤيا: رأى الأنبياء، فرأى النَّبيَّ ومعَه الرَّهْطَ، والنَّبيَّ ومعه الرجلُ والرجلانِ، والنَّبي وليس معَه أحدٌ[٣]، ممَّا يدلّ عَلَى أَنَّ غالبَ الأنبياءِ كُذِّبَ فيما سَبَقَ ولم يَتْبَعْه إِلَّا القليل، وهذا نوحٌ كما هو معروف لبِث في قومِه ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، قال الله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، هَذِهِ المدَّة العظيمة وهو يكابدهم ويناظرهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب ذكر العشاء والعتمة، ومن رآه واسعا، رقم (٥٦٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب قوله ﷺ: «لا تَأْتِي مئة سَنَةٍ، وَعَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ مَنفُوسَةٌ الْيَوْمَ»، رقم (٢٥٣٧).

(٢) مستدرك الحاكم (٢/ ٦٥٢، رقم ٤١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من لم يرق، رقم (٥٧٥٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠).

ويجادلهم ويقولون: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢]، أي: لن نُطِيلَ، الَّذِي عندك ائتِ به -والعياذ بالله- ونحن الآنَ إذا كابَدْنَا وَاحِدًا في الدعوةِ إلى اللهِ لِمُدَّة دقيقةٍ وَاحِدةٍ تَطَاوَلْنَاها، نقول: لماذا لم يَسْتَجِبْ من أوَّل مرَّة دعوناه فيها؟! والرُّسُلُ -عليهم الصلاة والسلام- الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللهُ بالنصرِ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، يكابِدون أقوامَهم ثم لا يؤمن إلا القليلُ منهم.

فالحاصِل أننا نقول: هَؤُلَاءِ القرون العظيمةُ الكثيرةُ كلُّها أهلكها الله عَزَّوَجَلَّ بتكذيبِها لِرُسُلهم، أفلا يَكُون قادرًا على أن يُهلِك المكذِّبين للرسول؟ بلى، هو قادرٌ عليه، وهذا هو الَّذِي حَصَلَ، لكِن الله تَعَالَى جعل إهلاكَ أعداءِ الرَّسولِ ﷺ على يد الرَّسولِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤]. فهَذِهِ المصالح العظيمة لو أُهلكت قريشٌ بعذابٍ من عند الله لم تَحصُل، ولهذا إذا هلك عدوُّك على يدِك كان أشفَى لك وأشدَّ سرورًا وفرحًا أن الله يُهلِكه على يدك، أمَّا إذا هَلَكَ بعذابٍ من الله فهذا لا شكَّ أن الله كَفَاكَ شَرَّهُ ولكنْ كونه على يدِك أبلغ وأشدّ فَرَحًا وسرورًا.

• • ۞ • •

الآيـة (٣٩)

• • ◦ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٩].

• • ◦ • •

تقدَّم أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا جعل لكل نبيٍّ عدوًّا مِنَ المجرمينَ؛ تسليةً للنبي ﷺ وإنذارًا لقومِه، وأنه بَيَّنَ أقوامًا على التعيينِ ليَكُونَ ذلك أبلغَ؛ لِأَنَّ التعيينَ كضربِ المثلِ، ومِمَّن عَيَّنَ وأوَّلُ مَن بدأ اللهُ بهم قومُ موسَى، ثم بعد ذلك نوح، وبعد ذلكَ عادٌ وثمود، كل هَذَا ذَكَرْنَاهُ وذَكَرنا أن الله عَزَّوَجَلَّ أهلكَ فِرعونَ المكذِّبَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالغَرَقِ في البحرِ الأحمرِ، وأنَّ الحِكمةَ من إغراقِه بالماءِ أَنَّهُ افتخرَ بالماء، حيثُ قال لقومِه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١]، فافتخرَ بالماء فأهلكه الله تَعَالَى بما افتخرَ به. وقومُ نوحٍ أُهلِكوا بالغرقِ العامِّ الَّذِي هو من آياتِ اللهِ، حيثُ فجَّر الله الأرض عيونًا وفتح أبواب السماءِ بماءٍ مُنْهَمِرٍ.

وأمَّا عاد فأُهلكوا بالريحِ، والحِكمة من ذلك هو أَنَّهُمْ كانوا يَفتخِرون بالقوَّة، يَقُولُونَ: مَن أشدُّ مِنَّا قوَّةً، فأهلكهم الله تَعَالَى بالأشياءِ اللطيفةِ الَّتِي ليستْ بشَيْءٍ لِيَتبيَّنَ للناسِ أن الإنْسَانَ مَهْمَا كان من القوَّةِ فَإِنَّهُ ضعيفٌ أمامَ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وثمود أُهلِكوا بالرَّجفة مع الصيحةِ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ رجف بهم وصاح بهم جِبريلُ حتى تَقَطَّعَتْ قلوبُهم في أجوافِهم، وكانوا كهَشِيمِ المُحْتَظِرِ، ثم الصيحة أيضًا

ليستْ كصفَّارات الإنذار تتكرر، ولعلَّ أحدًا يدخلُ في الملاجئ، بل هي صيحةٌ وَاحِدةٌ فقطْ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، يعني مثل هَشيم الحِظَار، وهَشيم الحظار معروفٌ، يَكُون متفتتًا باليًا، والحِكْمَة من ذِكر هَؤُلَاءِ الرسُلِ وما جَرَى لِقَوْمِهم أمرانِ: التسليَةُ للرسول ﷺ، والإنذار لهَؤُلَاءِ المكذِّبين له أن يُصيبَهم ما أصاب مَن قبلهم، ولهذا قال شُعَيْب لقومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

قوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ لماذا نُصبت ﴿وَكُلًّا﴾، والاسْم إذا ابتُدِئَ به يَكُون مبتدأً؟ هَذَا يسمونه باب الاشتغالِ، وفي باب الاشتغال يَكُونُ الفعل منصوبًا بالعامل بعدَه، أو بعاملٍ مقدَّر مناسِب، وهنا لا يصلُح بالعامل بعده؛ لِأَنَّ العامل بعده متعدٍّ بحرف الجرِّ، فالضمير (له) يعود على ﴿وَكُلًّا﴾ فالعامل اشتغل بضمير، لكِن بواسطة حرف الجرِّ، إذَن لا بد أن نقدِّر فعلًا مناسبًا، والتقدير: وأنذرنا كلًّا ضربنا له الأمثال، فَهُوَ مَفْعُول لفعلٍ محذوفٍ، وهو من باب الاشتغالِ، وإنما تَرَجَّحَ النصبُ هنا لِأَنَّهُ معطوفٌ على جملةٍ فعليةٍ، وباب الاشتغال من مرجِّحات النصبِ فيه أن يعطف على جملةٍ فعليَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ في إقامة الحجَّة]، ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ يعني بَيَّنَّا له الأمثالَ، يعني الوقائع الَّتِي أوقعها الله تَعَالَى بمن قبلَهم، كل أُمَّة تُنْذَرُ بمَن قبلها، ويُضرب لها المَثَل، يقال: هَذَا مَثَلُ المكذِّبين حَصَل عليهم كَيْت وكيت، فكل أُمَّة أَنْذَرَها الله تمامَ الإنذارِ، بحيثُ لا يَبقَى لها حُجَّة: أُمَّة مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيرها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ في إقامة الحجَّة عليهم، فلم نهلكْهم إلا بعد الإنذارِ]، وهذا من عَدْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ الله قادِر على أن يُهلِكَ عبادَه بمجرَّد مَعْصِيَتِهم؛ إذ إِنَّهُ قد أخذَ عليهم العهدَ والميثاقَ الفِطريَّ أو الحسيّ، على الخلاف في ذلك، بأنه ربُّهم وأَنَّهُمْ عابدون له، ولكن مع ذلك ما يُهْلِكُ أحدًا إلا بعدَ إرسالِ الرسُل ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، فلم يَكِلِ اللهُ العبادَ إلى فِطَرِهم، ولا إلى العهدِ الَّذِي أخذه عليهم، وإنما بعث إليهم رُسُلًا مبشِّرين ومنذرين، بعد هَذَا البعث هل يبقَى لأحدٍ حُجَّة؟ لا يبقى، حتى المحتجُّون بالقَدَر لا يستطيعون أن يحتجُّوا به مع إقامة الحجَّة عليهم بالرُّسُلِ، ولهذا لو كان القَدَر حُجَّةً لم تنتفِ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ إذ القدرُ قائمٌ مع وجودِ الرُّسُلِ، فلو كان القَدَر حُجَّةً للعاصينَ ما كان إرسالُ الرُّسُلِ حجَّةً على الخَلْقِ؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يا ربَّنا القدر موجود حتى مع إرسالِ الرُّسُلِ، فَهُوَ لنا حُجَّة. ولكنَّ النَّاسَ قد أُنذروا وأُتوا بالآيات «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1]، فكلُّ رسولٍ أيضًا ما أَتَى فقطْ ليقولَ للناسِ: أنا رسولٌ، افْعَلْ كذا، حتى لو جاء الإِنْسَانُ وقال: أنا رسول، افْعَلْ كذا، ولم يأتِ بآياتٍ فللناس الحُجَّة في أن يردوا قولَه، يَقُولُونَ: هاتِ بيِّنَةً أنك رسول، وإلَّا لا نقبلَ، لكِن مع ذلك ما من رسولٍ إلَّا أتى بآيةٍ يؤمِنُ على مثلِها البَشَر، ثم مع ذلك أُنْذِروا؛ فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما أشرنا سابقًا قال لقومِه: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ﴾ [هود:٨٩]، وهود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لقومِه:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٢).

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩]، وصالح قال لقومِه: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤]، وكلُّ رسولٍ يضرب المثل لقومِه بمَن سَبقَهم، إذَن فالحجَّة قائمةٌ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكًا بتكذيبهم أنبياءَهم]، ﴿وَكُلًّا﴾ مَفْعُول مقدَّم لـ(تبَّرنا)، وليس من بابِ الاشتغالِ؛ لأنَّ باب الاشتغال يَكُون فيه العامل مشتغِلًا بضمير ما سَبقَه، هَذَا باب الاشتغال، يعني إذا قلت: (زيدا ضربتُ) لا يَكُون من باب الاشتغال؛ لِأَنَّ العامل ما اشتغل بضميرِه، يَكُون هَذَا من باب المَفْعُول المقدَّم، لكِن إذا قلت: (زيد ضربته) صار الآن من باب الاشتغال، إن شئتَ فارفعْه على أَنَّهُ مبتدأ، والجملة بعده خبر، وإن شئتَ فانصِبْه، لكِن كما تقدَّم أن الاشتغال تَجري فيه الأحكام الخمس؛ تارةً يَجِب النصب، وتارة يَجِب الرفع، وتارة يَترجَّح الرفع، وتارة يترجَّح النصب، وتارة يَتساوَى الأمرانِ، والأَصْل فيه الرفع، لكِن إذا كان الفعل لم يَشْتَغِلْ بالضميرِ صار السابق مَفْعُولًا، لا يَكُون من باب الاشتغالِ، فهنا ﴿وَكُلًّا﴾ لو قال الله عَزَّوَجَلَّ: وكلًّا تبَّرناه تتبيرًا لصارتْ من باب الاشتغالِ؛ لِأَنَّ العامل اشتغَلَ بضميرِه، لكِن قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فيَكُون من باب تَقَدُّمِ المَفْعُولِ، لا من بابِ الاشتغالِ.

قوله: [﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكًا]، الإتيان بالمصدر هنا للتوكيدِ؛ كقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿تَكْلِيمًا﴾ فَضْلَة في هَذَا السياقِ، لو قال: وكلَّم الله فهِمنا الموضوع، لكِن ﴿تَكْلِيمًا﴾ من باب التوكيدِ، وَأَمَّا التنكير فَهُوَ للتعظيم، يعني تتبيرًا لا بقاء معه، أي هلاكًا كاملًا لا بقاء معه، وهو كذلكَ.

الآيــة (٤٠)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٠].

• ● ● •

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ هَذِهِ الجملة مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّدات؛ بـ(اللام) و(قد) والقَسَم المقدَّر، والمقصود بالتوكيدِ تقريرُ الأمرِ الواقعِ، فليس الخبر كالمعايَنة، فهم الآن يعاينون ما حلَّ بهَذِهِ القريةِ من عذابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأَنَّهُمْ يمرون عليها، قال تَعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ أي مَرَّ كفَّار مكَّة ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ مصدر ساء، أي: بالحجارة، وهي عُظمَى قُرى قوم لُوطٍ، فأهلكَ اللهُ أهلَها لِفِعْلِهِمُ الفاحشةَ]، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مر كفار مكة] (مر) تفسير لـ(أتى)، (كفار مكة) تفسير (للضمير: للواو) يعني أن كفار مكة مرُّوا على القرية الَّتِي أُمطرت مَطَرَ السَّوء، وهي قرية قوم لوطٍ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي عُظمَى قُرَى قوم لوط] عُظمَى قرى يُستفاد منه أن القرى أكْثَر من وَاحِدةٍ.

وقد قيل: إنها سَبْعُ قُرى، ولكن ظاهر القُرْآن أنها قريةٌ وَاحِدةٌ؛ كما قال الله تَعالَى في الرُّسُل: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت:٣١-٣٢]، إلى آخِره، فكون القُرْآن يأتي باسْم

قريـةٍ وَاحِدة لا يَنْبَغِي لنا أن نقـول: إنها أكْثَر من وَاحِدة إلا بدليـلٍ ثابتٍ عن الرَّسـول ﷺ وما جاء عن بني إسرائيـل في ذلك، أي في أنها سبـع قرى، هَذَا مرفوض؛ لِأَنَّ دلالة كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تدلّ عَلَى أَنَّ ظاهرها أنها قرية وَاحِدة، فعلينا أن نَتَمَسَّكَ بهذا الظاهرِ ما لم يوجدْ دليل ينفي هَذَا الظاهرَ، إنْ وُجِدَ دليل فنعم، أَمَّا مجرَّد أخبار بني إسرائيلَ فليستْ مقبولةً في هَذَا الموضعِ. أقول: إن المُفَسِّر وكثيرًا من المفسِّرين يَقُولُونَ: إن قرى قوم لوط ليست قريةً وَاحِدةً، بل قرى متعددة، فنحن نقول: لا، هي قريـة وَاحِدة ما لم يوجدْ دليلٌ على تَعَدُّدِها؛ لِأَنَّ ظـاهر القُرْآن أنها قرية وَاحِدة، فإذا قال قائل: إنها سبع قرى نقول له: هاتِ الدليلَ، ولو فُرِضَ أن المسألةَ فيها دليلٌ صريحٌ صحيحٌ فَإِنَّهُ يمكِن أن يقالَ كما قال المُفَسِّر، يعني يُذْهَبُ إلى ما ذَهَبَ إليه المُفَسِّر، فيقال: المراد بالقرية هنا عُظمى القرى، ولكن نحن نقول: لا حاجةَ أن نقولَ: عظمى القرى، بل نقول: هي قرية وَاحِدة، ولا مانعَ مِن أن الله يُرسِل رسـولًا إلى قريةٍ وَاحِدةٍ، بل كان فيما سبـقَ يوجد رسولانِ في أُمَّة وَاحِدة، فموسى وهارون كانا في أمَّة وَاحِدةٍ، وداود وسليمان، وزكريًّا ويحيى، وهكذا كثيرٌ.

هَذِهِ القرية موجودة الآن، يَقُولُونَ: إن البحر الميِّت هو مكان قُرَى قوم لُوط، وصار بحيرةً مالحةً، وهذا مشهور.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ القرية اسْم للبلد، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، بل لو كان أُمًّا للقرى فهُوَ قريةٌ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، نحن نغضب إذا قيل: عنيزة مثلًا قرية، وبريدة قرية، والرياض قرية، لكِن هَذَا الغضب في الحقيقة بناء على اللغة العُرفيَّة في أن القرية اسْم للبلد الصغير، والمدينة اسْم للبلد الكبير، ولذلك بعضهم يحترِز يقول: بلدية مدينة عنيزة،

بلدية مدينة بريدة، بلدية مدينة الرس، ولا حاجة أن تأتي بإضافات زائدة: بلدية الرس، بلدية عنيزة، بلدية بريدة، بلدية الرياض، لكِن كل هَذَا خوف من أن يَكُون عيبًا عليهم أن تُسمَّى قرية، ولكن نحن نقول: أُمّ القرى سماها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قرية، وكفى بذلك أُسوةً، وإنما سُمِّيَ البلد قرية لِأَنَّهُ من القَرْي، يعني الجمع؛ إذ إِنَّهُ يَجمَع أُناسًا، فالنَّاس يَجتمِعون فيه، فلذلك سُمِّيَ قريةً.

قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ المَطَر نوعانِ؛ مطر سَوْء، يعني: عذابٍ، يَسُوءُ المُمْطَرينَ، ومطر رحمة يَسُرُّهم، فالغَيْثُ الَّذِي يَنزِل من السَّماء بالماء هَذَا مطر رحمةٍ، وإذا كان يَضُرُّ صارَ مطرَ سَوْءٍ، وقرية قومِ لوطٍ أُمطِرت بمطر سَوء، والمطر الَّذِي أُمطِرت به حِجَارة من سِجِّيل -والعياذ بالله- مُسَوَّمة عند الله مُعْلَمَة للمسرفين الَّذِينَ جاوزوا حدَّهم، وهذا المطر -والعياذ بالله- جعل عالِيَهَا سافِلَها، فكيف هَذَا المطر جعل عاليَها سافِلَها؟

لَوْ قِيلَ: إنها قُلِبَتْ.

نقول: ليس في القُرْآنِ آية وَاحِدة تدلُّ على أنها قُلِبَتْ.

وَإِنْ قِيلَ: ورد حديث أن جِبريلَ رَفَعَها إلى السماءِ ثم قَلَبَها[1].

نقول: هَذَا أنَّى له الصحَّة، لو صحَّ لكان الأمرُ واضحًا، لكِن جَعْلُ عاليها سافلَها لأنَّ الحجارةَ هَذِهِ لَمَّا ضَرَبَتْها صارتِ المباني تتهدَّم، فصار أعلاها أسفلَها، فهَذِهِ الحجارة -والعياذ بالله- الَّتِي دمَّرتها بهذا التدمير يقول الله فيها: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (١٥/ ٤٤٠، رقم ١٨٤٥٨) عن مجاهد قال: «أخذ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم».

ﵟٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖﵞ [هود:٨٣]، يعني من الَّذِينَ يَفعلون هَذَا الفعلَ ليستْ ببعيدٍ منهم.

ولهذا ذهب بعضُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن فاعل الفاحشة هَذِهِ يُفعَل به هكذا، يُلقَى من شاهقٍ ويُرمَى بالحجارة بناءً على أنها رُفِعت ثم قُلبت ثم أُتبعت بالحجارة، وقال بعض العلماء: بل إنهم يُرجَمون رجمًا بالحجارةِ بدون أنْ يُلْقَوْا من الشاهقِ، بناء على أَنَّهُ لم يَثْبُتْ أنها رُفِعَتْ وقُلِبَتْ.

وعلى كلِّ حالٍ فهَذِهِ الفاحشة المنكَرة الَّتِي عبَّر الله عنها بالفاحشة، قال تَعَالَى في الزنا: ﵟوَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗﵞ [الإسراء:٣٢]، انظُرْ: كان فاحشةً من الفواحشِ، وَأَمَّا هَذَا فقال لهم نبيهم: ﵟأَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَﵞ [الأعراف:٨٠]، فدخول (أل) عليها يدل على أنها قد بلغتْ في الفُحْش غايتَه، وهو كذلك، وهذا لِأَنَّ الفِطَر تنفُر منه ﵟأَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمﵞ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]، انظُرْ التقريع والتوبيخ -والعياذ بالله- تترك ما خلق لك إلى ما لم يُخْلَقْ لك، فتأتي -والعياذ بالله- الذكر، وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: وقد أجمعَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى أَنَّ فاعل هَذِهِ الفاحشةِ يُقتل فاعلًا كان أو مَفْعُولًا إذا كان قد بلغَ. والحقيقةُ الإجماعُ ليسَ إجماعًا قطعيًّا، بل إجماعٌ سكوتيٌّ، والإجماع السكوتيّ ليس إجماعًا قطعيًّا، لَكِنَّهُم اختلفوا في قتلِه؛ فمنهم من قال: يُحرَّق، ومنهم من قال: يُرجَم بالحجارة. ومنهم مَن قال: يُلقَى من أعلى شاهقٍ؛ وذلك لقول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ»[(٢)].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمِل عملَ قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطيّ، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمِل عملَ قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

ولا يُشترَط الإحصان، فلا يشترط أن يَكُونَ محصَنًا، في الزِّنا لا يُرجَم ولا يُعدَم إلَّا المحصَن، أمَّا هَذَا فَإِنَّـهُ لا يُشترَط فيه الإحصانُ، متى كان بالغًـا عاقلًا وجبَ إعدامُه؛ وذلك لِأَنَّ هَذَا الفعلَ المنكَر لا يمكن التحرُّز منه في الحقيقةِ، فالزنا يمكن التحرُّز منه ويمكن مراقبة مَن حاول الزنا، فإنك لو رأيتَ رجلًا مع امرأةٍ تقولُ: من هَذِهِ المرأة؟ لكِن لو رأيتَ رجلًا مع ولدٍ ليسَ بمستغرَبٍ، ولذلك مِنْ أَجْلِ أَنَّ فسادَه خفيٌّ لا يمكن التحرُّز منه؛ صار لا يمكِن إصلاح الخَلْق إلَّا بإعدامِه، وهو مصلحة له ومصلحة لغيرِه، أمَّا كونُه مصلحةً له فإن الحدَّ كفَّارة، ولأنه إذا بقِيَ في الدُّنيا متماديًا في هَذِهِ الفاحشةِ صار يزدادُ إثمًا، فنحن في الحقيقةِ قد قطعنا الطَّريقَ على الشيطانِ بالنسبةِ لهذا الرجلِ، ثم هو أيضًا إصلاح لغيرِه.

وهذا القول الَّذِي ذكره شيخُ الإسلامِ وأجمعتْ عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو القول المتعيّن، لاسيَّما إذا كثُر هَذَا الأمرُ؛ لِأَنَّهُ كلَّما كثُرتِ الفاحشةُ وجبَ أن تُقابَلَ بعقوبةٍ أشدَّ، إلَّا ما حدَّده الشرعُ فيَجِب الوقوفُ عليه، وتجد أن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ من شُربِ الخمرِ ماذا صنعَ؟ زاد الضعف إلى ثمانينَ[1]، ولما كثُر الطلاقُ الثلاثُ في عهدِه عاقبَ المطلِّقين بتنفيذِ قولِهم، أمضاهُ عليهم[2].

فعلى هَذَا نقول: إِنَّهُ إذا كثُرتْ هَذِهِ الفاحشةُ وجبَ على وُلاةِ الأمورِ أَنْ يَكُونوا أشدَّاءَ على فاعليها، وأن يقتلوهم إعدامًا بدون أيّ توقُّف؛ لِأَنَّ ذلك هو الَّذِي يُصلِح الخَلْقَ، وإلَّا فانتـشارها مثلما قُلْنا: إِنَّهُ لا يمكن التحرُّز منه، وانتشارها عظيم، كل وَاحِد مثلًا -والعياذُ باللهِ- مبتلًى بهذا الأمر، يُمسِك أيّ صبيّ ويعاشره ثم يفعل به

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

الفاحشةَ، ليس مثل النساء، هَذَا هو القول الصحيح المتعيّن.

يوجد قول آخر وهو أن حكم اللُّواط حُكْم الزنا، وهذا هو المشهور من مذهب الإمامِ أحمدَ، وهو ضعيفٌ، فعلى هَذَا إن كان الفاعل محصَنًا، والمَفْعُول به محصَنًا، وجبَ الرجمُ، وإلَّا فالجلدُ والتغريبُ.

وذهب بعض العلماء إلى أَنَّهُ يُعَزَّر تعزيرًا بدون حدٍّ؛ لِأَنَّهُ لم يَثْبُتْ عنده حديثُ: «فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[1]، وليس فيه حدٌّ ثابت، فيُرجَع فيه إلى التعزيرِ، والتعزيرُ إذا قُلْنا بأن وليّ الأمر له أن يعزِّر بالقتل فما دونه صارَ قتلُ اللائط والملُوط به عائدًا إلى اجتهاد الإمام.

وذهب بعض العلماء إلى أَنَّهُ ليس فيه حدٌّ ولا تعزيرٌ، لكنَّه حرام، حُجَّته يقول: إِنَّهُ يُكتفَى بالنفور الفِطريّ عن العقوبة الرادعةِ، يعني أن هَذَا النفور منه أمر فطريّ، فلا يحتاج إلى عقوبةٍ رادعةٍ، ولهذا جعل الشرعُ في شُرب الخمرِ عقوبةً؛ لِأَنَّ النفوسَ تميل إليها، ولم يجعل في شربِ البولِ عقوبةً؛ لِأَنَّ النفوسَ تنفِر منه بالطبيعةِ، فهذا مثله.

فيقال: هَذَا رجل سليم الفطرة ولا يعرف الواقع، فإذا كانت فِطرته سليمةً تنفِر من هَذَا الأمر، فإن هناك فِطَرًا مقلوبة تهْوَى هَذَا الأمرَ وتميل إليه، فماذا نَصنَع بهَذِهِ الفِطَر؟ ثم إن قوله: إن شُرْبَ البولِ لا تعزيرَ فيه لِأَنَّ النفوسَ تنفِر منه؛ غير مُسَلَّم، فلو أن رجلًا ابتُلِيَ بشربِ البولِ هل نتركه يشرب بولَ النَّاسِ أو نعزِّره؟ نعزِّره ونمنعه من ذلك، وإن كانت الفطرة تأبَى هَذَا الأمرَ.

---

(١) سبق تخريجه.

فالحاصل: أن هَذِهِ الأقوالَ الأربعةَ أصحُّها القولُ الأوَّل، لكِن مَن أُكرِه على فعل الفاحشةِ فلا شَيْءَ عليه في هذا، ولا في غيرِه؛ لأن من شروط إقامةِ الحدِّ أن يَكُونَ غير مكرَه، حتى المرأة لو أُكرِهت على الزنا لا يُقام الحدُّ عليها، وهذا هو الَّذِي أوجبَ لبعضِ أهلِ العلمِ أن المرأةَ إذا حَمَلَتْ لا تُحَدّ، قال: لِأَنَّهُ يَحتمِل أن تكون مكرَهةً، وهذا الاحْتِمَال يَدْرَأُ الحدَّ، ولكن الصحيح أن المرأةَ إذا حملتْ وليس لها زوجٌ ولا سيِّد يقام عليها الحدُّ؛ لخطبة أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقوله: «إِذَا قَامَتِ البَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ»[1] أمام النَّاس، ولا أحد أنكر عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهي يقام عليها الحد، يعني تؤخذ ويقال: هيا أقيموا الحدَّ عليها، لكنْ إن ادَّعت شُبهةً ممكِنة ارتفع عنها الحدُّ؛ لِأَنَّ الأمرَ محتمِل، وكثير من النساءِ يغلب على نفسه ويُفعل به الفاحشةُ.

واعْلَمْ أنَّ الزنا كما قَسَّمه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكذلك اللواط أنواع: زِنا الفَرْج، ولواط الفَرْج، وفيه أيضًا زِنا العين ولواط العين، وفيه أَيْضًا زِنا الأُذن ولواط الأذن، وزنا اليد ولواط اليد، وزنا الرِّجْل ولواط الرجل، يعني لا تظنَّ أنَّ اللواطَ خاصٌّ بفعل الفرج، بل حتى العين لو أن أحدًا تلذَّذ بالنظر إلى أمردَ قُلْنا: هَذَا الرجل تلوط به، لكِن تلوط به فعلا أو نظرًا؟ نظرًا، ولذلك يَجِب الحذرُ من هَذَا الأمرِ، حتى إن النَّوَوِيَّ[2] وجَماعَةً من أهل العلمِ قالوا: إِنَّهُ لا يجوز النظرُ مُطلَقًا إلى الأمردِ الحَسَنِ إلحاقًا له بالمرأةِ، ولكن الصواب أَنَّهُ يجوز إلَّا مع التلذُّذ بذلك، فهذا حرامٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم (٦٨٢٩)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجب الثيب في الزنى، رقم (١٦٩١).

(٢) المنهاج (٤/ ٣١).

قوله: [قوم لوط] عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَوْ قَالَ قَائِلٌ: (قوم لوط) ألا يوجد إشكال في أن النسبةَ صارتْ إلى المضافِ إليه وهو نبيُّهم؟ فيقال والله أعلم: إن السَّببَ في ذلك أن هَذِهِ الفاحشة اختصَّتْ بها هَذِهِ الأمَّة، ولهذا قال لهم نبيهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠]، ما أحد سَبقَهم، يعني أول مَن سنَّ هَذِهِ الفاحشة والعياذُ باللهِ هم قومُ لوطٍ، وعلى هَذَا فعليهم وِزْرُها ووِزر مَن عمِل بها إلى يوم القيامةِ، نسأل الله السلامةَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لا يَنبغي أن ننسُب اللُّواط لاسْم النَّبيِّ ﷺ ونقول ما ورد في الحديثِ: «عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»(١).

نقول: هَذَا طيِّب في الحقيقةِ، لكنْ أنا أرى العلماء الكبار يَقُولُونَ هذا، مثل ابن القيِّمِ وشيخ الإسلام، رَحِمَهما اللهُ ومَن قَبْلَهُما ومَن بعدَهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَن أوَّل مَن أنشأ اللغة العربية إذا قُلْنَا: إن لغة آدم ليستْ عربيَّةً؟

فنقول: أوَّل ما نشأتْ مِنَ العربِ العاربةِ حينما جاءوا إلى مكَّة -القحطانيون- واتصلوا بإسماعيلَ، ونشأ بينهم، فصار عربيًّا، ولهذا بنو إسماعيل هم العربُ المستعرِبة، وطبعا اللغة العربية مثلُ غيرها يحصُل عليها تطوُّرات وتحسيناتٌ، فبعد الفتوحِ دخلَ عليها تغييرات، كذلك فيما سبقَ دخل عليها تطوُّرات وتحسيناتٌ، حتى وصلتْ إلى الكمالِ في عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ

(١) سبق تخريجه.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]، ذكر بعض المفسِّرين أن الحيوانات تنطِق؟

نقول: إلى الآنَ هي تنطِق، ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ في سَفَرِهم إلى الشامِ فيَعتبِرون، والاستفهامُ للتقريرِ].

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ هَذِهِ تأتي في القُرْآن كثيرًا: (أفلم) (أولم) يعني يأتي حرف الاستفهام الهمزة وبعده حرف عطف، فاختلف النحْويُّون في ذلك؛ فمنهم من يقول: إن حرف الاستفهام داخلٌ على جملةٍ مقدَّرة مفهومة من السياق تقدَّر حسَب ما يليها.

ومنهم مَن قالَ: إنَّ حرفَ الاستفهامِ داخلٌ على الجملةِ المذكورةِ، لكِن محَلّه بعدَ حرفِ العَطْفِ، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، يَقُولُونَ: أصله (فألم يَكُونوا يرونها)، فقدمت أداة الاستفهام؛ لِأَنَّ لها الصَّدَارَة.

فالآنَ أمامنا رأيانِ فيما إذا وجد حرفُ استفهامٍ بعدَه حرفُ عطفٍ، هل يَكُون داخلًا على الجملةِ المذكورةِ مقدَّمًا على حرف العطفِ، أو يَكُون داخِلًا على جملةٍ مقدَّرة تُستفاد من السياقِ، كيف نقدر: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ على رأي الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ داخل على جملة مقدَّرة مفهومة من السياق؟ يَكُون التقدير: أَعَمُوا فلم يَكُونوا يرونها؛ لِأَنَّ انتفاء الرؤية معناه العمَى، وعلى الرأي الثَّاني لا نحتاج إلى تقدير؛ نقول: التقدير (فألم يَكُونوا يرونها)، والأول رأيُ سِيبَوَيْهِ، والثَّاني رأي الكِسَائِيّ، والثَّاني أهونُ وأسلمُ؛ لِأَنَّهُ في الحقيقة في بعضِ الأحيانِ تأتيك أمثلةٌ لا تستطيع أن تقدِّر هَذَا المحذوفَ ولا كيف تقدِّره، ثم إن الأَصْل عدم التقدير والحذف،

ونحن إذا ذهبنا إلى الرأي الثَّاني لم نرتكِبْ إلا شيئًا وَاحِدًا فقطْ وهو تقديمُ الهمزةِ عن مكانها، وهذا شَيْءٌ بسيط، فالَّذِي يَنبغي سُلُوكُه أن نقول: إن همزة الاستفهام هنا داخلةٌ على الجملةِ الموجودةِ بدونِ تقديرٍ، لكنَّها مقدَّرة بعد حرفِ العطفِ، إلا أنها قُدِّمت لأجلِ الصدارةِ، وهنا ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ إذا دخلت همزة الاستفهام على (لم) فالمراد به التقرير، ومعنى التقرير حَمْل المخاطَب على الإقرارِ، مثلًا قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، نقول: الهمزة للاستفهام، المراد به التقرير، المهم أن هَذِهِ ليست للاستفهام والاستخبار، فالله جَلَّ وَعَلَا لا يَسألُ ولكنَّه يُقَرِّر أَنَّهُ شرح له صدره، ومعنى التقرير حَمْلُ المخاطَبِ على الإقرارِ، وكأنَّ ذلك متقرِّر ولا يمكِن إنكارُه؛ لِأَنَّهُ معلوم، فيَجِب عليكَ أنْ تُقِرَّ به.

في الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ نقول: الاستفهام للتقريرِ، يعني أَنَّهُمْ قد رَأَوْهَا، وإذا كان بمعنى التقريرِ فَإِنَّهُ يقدَّر بفعلٍ ماضٍ مَقْرُونٍ بـ(قد)، يعني مثلًا قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح:١]، معناها قد شَرَحنا لكَ، لكنْ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ أبلغُ، فقوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ معناه أَنَّهُمْ قد رَأَوْها، وهم يُقِرّون بذلك، ولا يمكن إنكارُه، لكِن الإتيان بالاستفهام أبلغُ لِأَنَّهُ يحمل المخاطَبَ على أن يقرَّ، وهذا أبلغُ من أن أُصدِّره بأمرٍ على سبيلِ التحقيقِ بـ(قد).

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف الرؤيا: [﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في سَفَرِهم إلى الشامِ فيعتبرون]، وهذا صحيح أن الإنْسَان إذا عاينَ آثارَ العذابِ يَكُون أشدَّ في يقينِه وتصديقِه؛ لِأَنَّهُ (ليس الخبر كالمُعاينة)، وإِبْراهِيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يشكُّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادرٌ على إحياءِ المَوْتَى، ومعَ ذلكَ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [البقرة:٢٦٠]، وقال النَّبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ

مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[1]، وجئتُ بهذا الحديثِ لأجلِ أن نَفْهَمَ معناه حقيقةً، ما معنى «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»؟ لو أخذنا بظاهرِه لقُلْنا: إن إِبْراهِيم قد شك ونحن أَولى بالشك منه، ولكن ليس المراد ذلك، المراد كما أننا نحن نَتيَقَّن أنَّ اللهَ يُحيي المَوْتى وقادر عليه، فإِبْراهِيم أَوْلَى باليقينِ، ولو كان ثمة شَكٌّ لكنَّا أَولَى به.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون نُشُورًا]، ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ، وكأنه إضراب عن توبيخٍ إلى أشدَّ منه ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾.

قُلْنَا: الاستفهام للتقريرِ، والإنْسَان الَّذِي يَرَى الشَّيْءَ ثم لا يَعتبِر به مستحِقٌّ للتوبيخِ، انتقل إلى ما هو أعظم إلى حالٍ أشدَّ يستحقون التوبيخ عليها، فالإضراب هنا للانتقالِ من سيئٍ إلى أسوأ، ومن خفيفٍ إلى أغلظَ منه، معناه أن هَؤُلَاءِ لَيْسُوا تاركينَ للاعتبارِ بما شاهدوا، بل إنهم أبلغ من ذلك، لا يرجون نُشُورًا، وفسَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الرجاءَ بالخوفِ؛ لِأَنَّ الرجاءَ يأتي بمعنى الخوف، مثل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نوحٍ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، ولكن إتيان الرجاء في موضِع الخوفِ لا يَكُونُ إلا حيثُ تَعَذَّرَ أن يُفسَّر بمعناه الحقيقيّ، وهنا لا يَتعذَّر؛ لِأَنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٠]، يعني لا يؤمِّلونه ولا يُقِرُّون به؛ لِأَنَّ مَن لا يؤمِّل شيئًا لا يقرّ به، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَلَه على معنى الخوفِ؛ لِأَنَّ حالَهم تَقتضِي ذلك، تقتضي أَنَّهُمْ لا يخافون؛ إذ لو خافوا لأقَرُّوا وآمنوا، ولكن يقال أيضًا: الرجاء، لو كانوا يرجون هَذَا النشور ويؤمِّلونه لعمِلوا له؛ لِأَنَّهُ قيل لهم: إن صدقتم الرُّسُل فلكم كذا، وإن كذَّبتم الرُّسُل فعليكم كذا، فهم موعَدون ومتوعَّدون، فلا يَتعَيَّن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

أن نَحمِل الرجاءَ على الخوفِ، بل لا يَنبغِي ما دام أن معنى الرجاء الحقيقيّ له محَل، فَإِنَّهُ يَجِب أن يُحمَل على معناه الأَصْليّ، فنقول: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي لا يؤمِّلون النشور الَّذِي فيه ما وعدَتْهم به الرُّسُل من كرامةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإدخال الجنة، وهذا أشـدُّ من عدم اعتبارهم بما رأوْا من إهلاك المكذِّبين، حيـثُ ينكرون البعثَ الَّذِي دلَّ عليه العقل، فالعقلُ يدلُّ عَلَى أَنَّ للناسِ بعثًا، ولهذا يقرِّر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا المعنى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، يعني لا يأمر ولا ينهى ولا يجازَى، هَذَا سَفَهٌ، لو كانت هَذِهِ الخَليقة الَّتِي خَلقَها اللهُ وأرسلَ إليها الرُّسُلَ وأباحَ دماءَ بعضِها لبعضٍ وأموالَهم ونساءَهم لأجلِ الدين الَّذِي بُعِثَ به الرُّسُلُ، وهذا القتال العظيم بينهم والعداوة والبغضاء، لو كانت لا لشَيْءٍ إلَّا أن الإنْسَان يحيا ويموت، ماذا يَكُون هَذَا الفعل؟ يَكُون سَفَهًا يُنزَّه الله عنه، ولهذا قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، ما أنزل الله هَذَا القُرْآنَ إلا لمعادٍ يَكُون النَّاس يوم القيامة يرجعون إليه، ثم يُجازَون بأعمالِهم، فالعقلُ دلَّ على أَنَّهُ لا بدَّ من بعـثٍ، ولا بـدَّ من جزاءٍ، ومعَ ذلك هَـؤُلَاءِ ينكرونه ولا يَرْجُون نُشورًا بحُجَجٍ واهيةٍ باطلةٍ، مثل قولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، فهَذِهِ ليـست بحُجَّة، هِي شُبهةٌ فِي الواقع، هي شُبهة باطلةٌ، فهذا الإنكارُ مبنيٌّ على استبعادِ عقلِه، لذلك أبطله الله تَعَالَى كما يظهر من القصةِ من نحوِ عشَرة أوجهٍ؛ أولها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، هَذَا يكفي العاقلَ، أليست هَذِهِ العظامُ كانت ماءً مَهينًا، بل قبل ذلك لم تكنْ شيئًا مذكورًا، ثم خلقها الله إلى عظامٍ، فالَّذِي أحياها أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على إعادتها، وهو عقلًا أهونُ منْ الابتداءِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

على كلِّ حالٍ لسنا بصددِ إثباتِ هَذَا الشَّيْءِ، لكِن نقولُ: إن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يَرجُون نُشورًا معَ قيامِ الأدلَّة على وجودِه، لا شكَّ في سَفَهِهم وأَنَّهُمْ لَيْسُوا على صوابٍ.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٤١، ٤٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤١-٤٢].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ انتقل إلى حالاتٍ أخرى يقابل بها هَؤُلَاءِ المشركون رسول الله ﷺ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ مهزوءًا به].

قوله: ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ يصيِّرونك ويجعلونك مهزوءًا به، وتجد أن الآية فيها حَصْرٌ طَرِيقُه النفيُ والإثباتُ، يعني لا يجعلون لكَ أيّ حالٍ من الأحوالِ إلا الهُزْء، وهُزُؤًا مصدر، لكِن المُفَسِّر يقول: [مهزوءًا به] يعني أَنَّهُ بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ، والمصدرُ بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ كثيرٌ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ووجه الاستدلال بهذه الآية أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (حَمْل) مصدر بمعنى محمولٍ، فَهُوَ مصدر بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، يعني مردودًا. هنا هُزُؤًا أو هُزُوًا مصدر،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

لَكِنَّهُ بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ على رأيِ المُفَسِّر، ويمكن أن يقال: إِنَّهُ مصدر على بابِه، ويَكُون من باب المبالغةِ، كأَنَّهُمْ ما جَعَلُوا الرَّسولَ محَلًّا للهُزو، يعني مهزوءًا به، بل جعلوه نفسه هو نفس الهزو، وهذا من باب المبالغةِ، كما تقول: فلان عدلٌ، وفلان رِضًا، يعني من باب المبالغةِ، كأنه هو العدل، لا أَنَّهُ محَلّ العدل، وكأنه الرضا، لا محلّ الرضا، وكذلك فلان ثِقَةٌ، فثقة مصدر بمعنى موثوقٍ به، لكنَّه من باب المبالغةِ، المعنى أن هَؤُلَاءِ لا يرونَ الرَّسول ﷺ إلا محلَّ استهزاءٍ، والعياذُ باللهِ، كأنه لُعبة عندهم.

يَقُولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في دعواه مُحْتَقِرِينَ له عن الرِّسَالةِ]، والعياذ باللهِ، ﴿أَهَٰذَا﴾ تفيد التحقيرَ، فمحلُّ الاستفهامِ للتحقيرِ، وهو متضمِّن للنفيِ، يعني لا يمكن أنْ يُبعثَ مثل هَذَا الرَّسول، وهذا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. ولا شكَّ أن هَذَا من جملةِ الشُّبَه الَّتِي يحتجُّون بها، وهي لا تَنطَلِي على أحدٍ؛ لأننا نعلمُ أن مُحَمَّدًا ﷺ أعظمُ الخَلقِ، وأحقُّهم بالرِّسَالةِ؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فللرسالة محلٌّ، فهذا النَّبي ﷺ نؤمن بأنه أعظمُ الخَلق وأحقُّهم بالرِّسَالة، ولهذا جعلها الله فيه، جعل الله فيه أعظمَ الرسالاتِ، فَهُوَ أعظم من كلِّ ما يختلِقونه، لكِن من المعلوم أن المكابِرَ والمكذِّب يأتي بكل شُبهةٍ، سواء كانت حقيقةً أم غير حقيقةٍ.

وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ (هذا) اسْم إشارة للقريبِ احتقارًا أيضًا؛ لِأَنَّ اسْم الإشارة يأتي للقريبِ أحيانًا للاحتقار، وأحيانًا للتعظيم والمودَّة، وكذلك اسْم الإشارة للبعيد يأتي لما هو قريب من باب التعظيمِ، مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ

لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، ذلك الكِتَاب يعني القُرْآن، لَكِنَّهُ أتى بـ(ذلك) اسْم الإشارة للبعيدِ تنبيهًا لعلوِّ مَرتبتِه، فهم أَتَوْا بهذا للتحقيرِ، يعني: أهذا القريب الَّذِي لدينا ونتصوَّره ونشاهده أهذا يُبعَث رسولًا، هكذا يَقُولُونَ، وأَرْدَفُوا ذلك بقولِهِم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِن﴾ مخفَّـفة من الثقيلة، واسْمها محـذوف، أي إِنَّـهُ ﴿كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يصرِفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾]، بئس الصبرُ هذا.

قوله: ﴿إِن كَادَ﴾ بمعنى قَرُب، و﴿إِن﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها مخفَّفة من الثقيلة؛ لِأَنَّ ﴿إِن﴾ كما هو معروف لها معانٍ كثيرة، والَّذِي يعيِّنها السياقُ، تأتي نافيةً، وتأتي شرطيَّة، وتأتي زائدةً، ولا تأتي ناصبةً، الَّتِي تأتي ناصبة (أن)، لكنها هنا مخفَّفة من الثقيلة؛ لِأَنَّ أصلها (إنَّ) فخُففتْ، وإذا خُففت من الثقيلة لزِم أن يَكُون اسْمها محذوفًا، ولا نقـول: مستتِر؛ لِأَنَّ الاستتارَ يَكُون بالفعلِ، أو بما هو بمعنـاهُ، لكِن نقولُ: محذوف، والتقدير: إِنَّهُ كاد لَيُضِلّنا، و(كاد) بمعنى قرُب، والصواب أن كاد تأتي بمعنى قرب، سواء كانت منفيَّة أو مثبَتة، وَأَمَّا قول بعض النحْويين: إن نفيَها إثبات، وإثباتها نفيٌ، فليس بصحيحٍ، كما حقَّقه ابن هشام في المُغْنِي[1]، بل هي دائمًا بمعنى القُرب، يعني: لقد قرب أن يُضِلَّنا عن آلهتنا، لكِن منع من هَذَا مانعٌ، وهو الصبرُ عليها، فهم في الحقيقة يُقرّون أن رسالة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خطيرة بالنسبة إليهم، لَكِنَّهُم يَتَمَـدَّحون بأَنَّهُمْ ذوو صبرٍ بالغٍ عظيـمٍ ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ -يعني على عِبادتها- لكان الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُضِلُّنا، والصواب

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٨٦٨ وما بعدها)، ط. دار الفكر.

أَنَّهُمْ لو تركوها لكان الرَّسول قد هداهم الله به، لَيْتَهُمْ لم يَصبِروا هَذَا الصبرَ؛ فإن هَذَا الصبرَ صَبْرٌ على معصيةِ اللهِ، لا عن معصيةِ اللهِ، وهو مذمومٌ، لا شكَّ أَنَّهُ مذمومٌ، فأقول: هَذِهِ الجملة تدلّ على أَنَّهُمْ مُقِرّون بخطرِ رسالةِ النَّبي ﷺ عليهم، ولكنَّهم يَتَمَدَّحون بالصبر عليها، وأنه مع قوّة تأثير الرِّسالة هم صبروا على آلهتهم، فلم يُضِلَّهم النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهم مقرّون بخطر الرِّسالة، ولإقرارهم بخطر الرِّسالة بَذَلوا مُهَجَهم ورِقابهم لقتالِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّهُمْ لو كانوا يعرِفون أنها ليستْ مؤثِّرةً ما احتاجوا إلى أَنَّهُمْ يخرجون لقتال الرَّسولِ، ولقالوا: الأمر هيِّن، هَذَا مثل المجنون الَّذِي لا يؤثّر ولا يتبعه أحدٌ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي معبوداتنا، والآلهة تطلَق على المعبودِ، لكِن تطلق إطلاقًا مجازيًّا على المعبود بغير حقٍّ، وإطلاقًا حقيقيًّا على المعبود بحقٍّ، ولهذا الرُّسُل -صَلَّى الله عليهم وسلم- يَقُولُونَ لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، ما معنى ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؟ أي من معبود حقيقة غير الله، أَمَّا معبوداتكم الَّتِي تعبدونها فهَذِهِ معبودات لكنها ليستْ حقًّا، وقولنا: لكِن تطلق إطلاقا مجازيًّا هَذَا التعبير خطأ، ما دام أَنَّا قُلْنا: إِنَّهُ لا مجاز في القُرْآن، لكِن تنزُّلًا على حَسَب كَلامهم هم يدَّعون أنها آلهة، ولكنها حقًّا ليست آلهةً، فالتعبير الصحيح أن نقولَ: إن آلهتهم سَمَّوْها آلهةً باعتقادِهِم، وإلَّا فليستْ آلهةً.

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعني حَبَسْنا أنفسَنا عليها، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَصَرَفَنا عنها]، استفدنا من قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لصرفنا] أن ﴿لَوْلَآ﴾ شرطية، وأن جوابها محذوف، و﴿أَن صَبَرْنَا﴾ محَلّها من الإعراب مبتدأ محذوف الخبر وجوبًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لصرفنا عنها]، الأصحُّ أن نقول: لأَضَلَّنا عنها؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾، والتقدير: لولا صبر موجود على هَذِهِ الآلهة لأَضَلَّنا عنها، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ حَتْمٌ.........

(لولا) هَذِهِ شرطيَّة، وتأتي غير شرطيـة للتحضيضِ، ومرَّتْ قريبًا في هَـذِهِ السـورة، وكون (لولا) وهي لفظ وَاحِدٌ يأتي أحيـانًا بمعنى التحضيضِ، وأحيانًا بمعـنى الشرطِ، وكذلك (إن) وغيرها من الحروفِ؛ فهذا مما يؤيِّـد ما ذهبَ إليه شيخ الإسلام ابن تيميَّة أَنَّهُ لا مجازَ في اللغةِ، وأن الَّذِي يُعَيِّن المعنى ويجعله حقيقةً أو غير حقيقةِ السياقُ، فالكلمة في سِيَاقها، أو الجملة في سياقها حقيقة، لا تحتمل غير ما يُرادُ، وإنْ كانتْ قد تطلَق إطلاقًا آخرَ في معانٍ أُخرى، فـ(لولا) وجودها بجانـب الفعل جعلـها للتحضيضِ، ووجـودها بجانب الجملةِ الاسْميَّة جعلـها للشرطيَّة، فليست المعـاني في الكلمات صفات ذاتيَّة، وإنما هي صفات إضافيَّـة، ومعنى إضافية أي بحسَب ما تُضاف إليه، يعني حسب السياقِ، وبذلك نتخلَّص من الإِشْكالِ الَّذِي يَرِد علينا كثيرًا في بعض كلماتٍ في القُرْآنِ، حيث ننفي المجازَ ثم تأتينا كلمات أو جُمَل تُشكِل علينا، فإذا قُلْنا بهذا القول وقُلْنا: إن المعاني للألفاظ ليستْ من الصِّفات الذَّاتيَّة، وإنما هي من الصِّفات الإضافيَّة الَّتِي يعيِّنها السياق؛ نتخلص بهذا، ونقول مثلًا: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤]، الجَناح إذا أُضِيف إلى الطائرِ صارَ له معنًى، وإذا أضيف إلى الذلِّ صار له معنًى، وكذلك قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧]، معنـاه: مائل للانقضاض، فالإرادة إذا أُضيـفت

(١) ألفية ابن مالك (ص١٨)، ط. دار التعاون.

للإنْسَانِ صار لها معنًى، وإذا أُضيقت للحيوانِ صار لها معنًى، وإذا أُضيفت للجماد صار لها معنًى، بحسَب الإضافاتِ، وحينَئذٍ نتخلَّص، لا نقول: الإرادة الأَصْل أن تكون حقيقة لذوي الشعور، فإذا أُضيفت إلى غيرهم صارت مجازًا.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ عِيانًا في الآخِرة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أَخْطَأ طَرِيقًا، أهم أم المؤمنونَ]، لو قال: أَمِ الرَّسول لكان أَولى؛ لِأَنَّ الكَلام بالرَّسول ﷺ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عِيَانا في الآخِرة]، وهذا ليس بلازمٍ أن يقيّد بالآخرةِ، نقول: إنهم يَرَوْنَ العذابَ في الآخرة وعند المَوْتِ، فعند المَوْتِ يشاهدون، وإذا قالوا: إنهم تابوا عند المَوْت فالتوبة لا تنفعُهم: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٢]، هم أم الرَّسول ﷺ، وجملة ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فيها من التهديد ما هو ظاهرٌ، يعني سوف يعلمون في تلك الحالِ هل هم الأضلُّ أم الرَّسول ﷺ، والواقع أَنَّهُمْ سيعلمون أَنَّهُمْ هم الأضلُّ إذا رأَوُا العذاب.

• • ۞ • •

الآية (٤٣)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

بعد أنْ بَيَّن أمثلةً لكفَّارِ قريشٍ من الأممِ الَّذِينَ أهلكهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بسبب تكذيبهم للرسل، وبَيَّنَ أن من هَذِهِ الأُمَم من كانوا أتوْا عليها، وهي قرية قوم لوطٍ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوء؛ انتقل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك إلى ما هو أقبحُ وأشدُّ في التوبيخِ، وهو كونهم لا يَرجُون نشورًا، يعني لا يرجون بَعثًا، لا يؤمِّلونه ولا يخافونه، ثم انتقل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد هَذَا إلى حالِ هَؤُلَاءِ مع الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي كان يَجِب علينا أن نُجِلَّه ونُعظِّمه ونوقِّره، وذكر أن هَؤُلَاءِ المكذِّبين اتَّخذوه هُزُوًا، وقوله: (اتَّخَذُوهُ هُزُوًا) أشدُّ وأبلغُ من قوله: هزِئوا به، يعني جعلوه كأنه صورة يُهْزَأُ بها، لكِن لو قال استهزءُوا به صار فعلًا، والفعل المطلَق يدلّ على المرَّة الوَاحِدة، بخلاف الأوَّل الَّذِي جعلوه كالصورة الَّتِي يُهْزَأُ بها.

ثم بَيَّن أنَّهُ مع اتخاذهم إياه هُزُوًا أَنَّهُمْ يَسخَرون به في القول، يَقُولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١]، احتقارًا له، ثم يَفتخِرون مع احتقارِهم له بأَنَّهُمْ صبروا على آلهتهم، وأن دعوة النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان لها تأثير قوي، ولو لا أَنَّهُمْ صبروا على آلهتهم لكانوا متأثِّرين بها: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ

أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢]، ثم توعَّدهم الله عَزَّوَجَلَّ بأَنَّهُمْ حين يرون العذابَ سيعلمون من هو أضلُّ، هم أم النَّبي ﷺ؟

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استفهامًا مشربًا بالتعجُّب فيمن اتَّخذ إلهه هواه، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الخطاب للرسولِ ﷺ؛ لِأَنَّ السياق يدل عليه، ولا أظنّه هنا يصحّ أن نجعلَه لكلّ مَن يتأتّى خطابه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إِنَّما يناسب الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢].

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى أَخْبِرني]، كيف تكون بمعنى أخبِرني، هل الرؤية هي الخبر؟ لا، لكِن أُريد لازِمُها، يعني هل رأيتَ فأخبرني، يعني هَذَا ليس هو المعنى الحقيقيّ له، لَكِنَّهُ معنًى لازِم للرؤية الَّتِي بمعنى العِلم، فإن المستفهِم لا يريد من المخاطَب إذا قال: (أرأيت) لا يريد أن يَستفهِم عن كونه رأى، إِنَّما يريد أن يستفهِمَ عن لازمِ هَذِهِ الرؤية، وهو الإخبار، ولهذا يَقُولُونَ: إنها بمعنى أخبِرني، من بابِ إطلاق الملزومِ من لازمِه.

أمَّا بالنسبة لإعرابها، فهذا التركيب ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يأتي كثيرًا في القُرْآن، ويَكُون ناصبًا لمَفْعُولينِ؛ الأول منها اسم، والثَّاني منها جملة استفهاميَّة أو قَسميَّة، ولْيُنْتَبَهْ لإعرابها؛ لِأَنَّهَا مشكِلة، المَفْعُول الأول قُلْنا: إِنَّهُ يَكُون اسمًا؛ إمّا مذكورًا وإما محذوفًا، هَذَا وَاحِد، المَفْعُول الثَّاني جملةٌ إمّا استفهاميَّة أو قَسميَّة. (التاء) في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ فاعل، وتكون مفردةً دائمًا، أو مجموعةً، مثل قوله تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ [الأنعام:٤٦]، أو مثناةً، مثل قولنا: أرأيتُما إن كان كذا وكذا، وقد يَلْحَقُها ضميرٌ، أي تلحقها الكاف لمجرَّد الدلالة على المخاطَب، ولا محلَّ له من الإعراب، يَكُون حرف خطابٍ لا محل

له من الإعراب، وتبقى (التاء) مفردةً، ولنضرب لهذا أمثلة: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

فقوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ هَذَا المَفْعُول الأول، والمَفْعُول الثَّاني الجملة القسمية: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والكاف في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ حرف خطابٍ لا محلَّ لها من الإعرابِ، إذَن المَفْعُول الأول موجود، والمَفْعُول الثَّاني جملة قسمية موجودة.

ومن الأمثلة قوله تَعالَى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام:٤٦]، المَفْعُول الأول محذوف؛ لِأَنَّ المَفْعُولَ الأوَّل لا يمكِن أن يَكُونَ جملةً، فَهُوَ إذَن محذوفٌ، تقديرُه: أرأيتُم حالَكم، يعني أَخْبِروني عن حالِكم إن أخذَ اللهُ سمعَكم وأبصارَكم إلى آخره، وجملة ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ هي المَفْعُول الثَّاني.

وأيضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧]: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الكاف للخطابِ، والتاء للمفرد، والمخاطَب جماعَة، والدلالة على أَنَّهُ جماعَة الكاف والميم، ومَفْعُولها الأول محذوف، ومَفْعُولها الثَّاني ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ومن الأمثلة -أيضًا- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف:٦٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٠]، والآيات كثيرة، لكِن أحيانًا -كما تقدَّم- يُذكَر المَفْعُول الثَّاني، وكثيرًا يحذف المَفْعُول الثَّاني لدلالة السياق عليه؛ فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لا يمكن أن يَكُون الجواب ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾،

لكِن المعنى: هل تغنيكم شيئًا، هل تنفعكم، هل تستحقّ أن تُعبَد؟ وما أشبهَ ذلكَ، وللبحث بقيَّة تأتي إن شاء اللهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: على رأيِ النُّحَاةِ بأنَّ الَّتِي تَنـصِب المَفْعُولينِ هي الرؤيةُ القلبيَّةُ، فهنا تصبح القضية ليست مجرد رؤية للإخبار، كأنها اعتقاد؟

نقول: نعم يقولُ: أَعَلِمْتَ هَذَا فأخبِرني به.

إذَن القُرْآن -سبحان الله العظيم- ليسَ مثل بقيَّة الكَلام، تجد فيه استفهاماتٍ، أمرًا، تحدياتٍ في السياق، وهذا من إعجازِه في الحقيقةِ؛ لِأَنَّ كل هَـذِهِ الاختلافات في الكَلام تُوجِب إثارةَ الإنْسَانِ وإقبالَه، ولكن -كما أسْلَفنا- لِمَن يَقْرَؤُه عن قلبٍ، أمَّا مَن يَقرؤه عن بَصَرٍ فقطْ بدونِ بَصيرةٍ فهذا لا يَستفيدُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: في قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩]، لماذا كُررت (من قبل) مرتين؟

الجواب: قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ التكرار هَذَا يَكُون لفائدةٍ وغرضٍ، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ فيها خلاف هل هي الأُولى أو ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ غير الأولى، وعلى هَذَا فيَكُون معنى قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل أن يُنزَّل عليهم، أي من قبل هَذَا التنزيل، فيَكُون من باب التكرار توكيدًا، وإن كان معنى قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يعني من قبل هَذَا الأمر الَّذِي حدث لهم، ليس من قبل أن يُنزَّل، بل من قبل حالهم، فلا يَكُون فيها تكرار.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الإنْسَانُ المؤمِنُ يُمكِن أنْ يَضِلَّ عند المَوْتِ؟

الجواب: لا يَضِلّ ويَفقِد الإيمان عند المَوْت إلا إنْسَان سَرِيرَتُه باطلةٌ، أَمَّا الإنْسَان

الَّذِي عَمَلُه صالحٌ ومبنيّ على عقيدةٍ صحيحةٍ، فلا يمكن، لَكِنَّهُ على خَطَرٍ؛ لِأَنَّهُ يَخشَى أن يَكُونَ عَمَلُه مبنيًّا على سَريرةٍ باطلةٍ، نحن نقول: لا يمكن أن يضلَّ؛ لِأَنَّ الله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، إِنَّمَا يَكُون الإضلال عند المَوْتِ، بناءً عَلَى أَنَّ الإنْسَان في عِبادته غير مستقيم، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ»(١).

فلا بدَّ أن تكون السَّريرة باطلةً؛ لأننا نعلمُ أن الإنْسَانَ لو بَنَى عملَه على عقيدةٍ سليمةٍ، سواء بإخلاصٍ، أو بغير إخلاصٍ، فلا يمكِن أن يَخْذُلَ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنَ أبدًا، المؤمنَ حقيقةً، وهذا هو ما كنَّا ندعو إليه دائمًا؛ أن نحرِص على عملِ القلبِ، أمَّا الأعمال الظاهرة -عَمَل الجوارِح- فهي بمنزلةِ السُّور للبُستان تَحميه وتُحيطه، وَأَمَّا العملُ الأساسيُّ فَهُوَ عملُ القلبِ، فلا بدَّ أنْ نَحْرِصَ دائمًا على أن يَكُونَ الإنْسَانُ مطهِّرًا لقلبه، ومُصْلِحا لقلبِه، هَذَا أهمُّ شَيْءٍ، والأعمال الظاهرة هي في الحقيقةِ رسوم مصلحة، ومُنْمِية، مثل السَّقي للبستانِ، والرَّسول ﷺ شبَّه أعظمَ العباداتِ الظاهرةِ، وهي الصلاةُ، بالنهرِ الَّذِي يطهِّر الإنْسَان من أوساخِه(٢)، فهَذِهِ صقالات للقلب، ومادة يَنتفع بها القلب، إِنَّمَا الأَصْل هو القلبُ، ولهذا يَجِب علينا دائمًا أن ننظرَ إلى قلوبنا، أحيانًا يَكُون في القلب سَريرة الحسد مثلًا، وسَريرة الحسد

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشَيْء عُذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، رقم (٥٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم (٦٦٧).

هَذِهِ ليستْ بهيِّنة؛ لِأَنَّهَا مَوْرُوثَة عن اليهودِ، فهل تَرْضَى أنْ تكونَ شَبيهًا باليهودِ؟ لا أحد يَرضَى، ومع ذلك تجدها في قلوب كثيرٍ من المؤمنينَ، والرياء في العِبَادَة أو في المظهَر موجودٌ أيضًا.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي مَهْوِيَّه]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر هَوى بمعنى مَهْوِيّ يعنى فسر المصدر بمعنى اسْم المَفْعُولِ، يعني اتخذ إلهه هَذَا الحجر مثلًا، أو هَذِهِ الشجرة، يعني جعل الإلهَ الشجرةَ، والشجرة أو الحجر هي المَهْوِيّ، ولهذا فسَّر الهوى بـ(المهويّ)؛ لِأَنَّهُ يريد أن يجعلَ الإلهَ هنا هو المعبودَ، ولكن الصواب أن الآيَةَ على ظاهِرِهَا، وأن الإله هو الهوى، ومعنى ذلك أَنَّهُ جعل المتبوع الهوى، وكون الإنْسَان يَتْبَع غيرَه، سواء هوى نفسه أو كونه يتبع غيره، هَذَا من اتِّخاذِه إلهًا، ولهذا قال الله تَعالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقال عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟». قال: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[(١)].

فإذَن نقولُ: الآية على ظاهِرِها، يعني أنَّ الإلهَ هو الهَوَى نفسه، والهوى يَقُودُهُ إلى عِبَادةِ الشجَرِ والحَجَر، ويقوده إلى استحلالِ الزِّنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غير ذلك، فعليه الأَوْلَى جَعْل الآيةِ على ظَاهِرِهَا، وألَّا تُصْرَفَ إلى المعبـودِ، خِلافًا للمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قدَّم المَفْعُولَ الثَّانيَ لِأَنَّهُ أهمُّ]، أين المَفْعُول الثَّاني؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥)، واللفظ للطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢، رقم ٢١٨).

أصلُه (من اتّخذ هواه إلهًا) فالْمُتَّخَذُ إلهًا هو هوى، لا الإله متّخذًا هوى، الإلهُ ما اتّخذ هوًى، ولكن الهوى متَّخذ إلهًا، فلِهَذَا قالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قدَّم المَفْعُول الثَّانيَ لِأَنَّهُ أهمّ] يعني لِأَنَّهُ هو محلّ التعجُّب، فمحلّ التعجّب أن يَكُون هَذَا الشَيْءُ إلهًا، لا محلّ التعجُّب مجرَّد الهوى، فمجرد الهوى ليس محلَّ تعجُّب، إِنَّمَا مَحَطُّ التعجُّب أن يُتَّخذ إلهًا، فعلى هَذَا نقولُ: المَفْعُول الأول (إلهًا) والثَّاني (هواه).

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجملة (مَنِ اتَّخذ) مَفْعُولٌ أَوَّل لـ(رأيت)]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جملة ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾] ننظرُ هل كَلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيحٌ أو غيرُ صحيحٍ؟ يعني قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ هو على كلِّ حالٍ مفردٌ، إلَّا على طَريقةِ ابنِ جِنِّي، لكنْ هل يُعَبَّر عن الموصول وصلته بالجملةِ؟ إذا قلت مثلًا: (قدِم الَّذِي سافر)، هل تقول: (الَّذِي سافر) جملة؟ لا؛ لِأَنَّ الاسْمَ الموصولَ مُفْرَدٌ، لكِن صِلَته جملةٌ، ويَدُلُّ على ذلك أَنَّ الاسْمَ الموصول يَقَعُ فاعلًا، والفاعل لا يَكُونُ جملةً، تقول: (جاء الَّذِي سافر) (الذي) فاعل، ولا يمكن أن يَكُون جملةً، وعلى هَذَا فيَكُون قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجملة مَنِ اتَّخذ] فيه تسامُحٌ، والصواب أن يقال: و(مَنْ) في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ مَفْعُول أَوَّل لـ(رأيت).

والثَّاني: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الاستفهام هنا للنفيِ، يعني: فلنْ تكونَ عليه وَكِيلًا، قال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ حافظًا تَحْفَظُه مِنِ اتِّباعِ هَوَاهُ؟ لا]، يعني لستَ وكيلًا عليه، وإذا لم تكنْ وكيلًا عليه فلستَ مسئولًا عنه، وإذا كان هَذَا الكَلام للنبي ﷺ فمَن دُونَهُ أَولَى، فنحنُ لَسْنَا وُكَلاءَ على مَن عَصَوُا اللهَ، ولا على مَن فَسَقُوا عن أَمْرِه، إِنَّمَا علينا البلاغ والدعوة، وعلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحِساب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، وبهذا نعرِف أَنَّهُ لا يَنبغي للإِنْسَانِ

أن يَحْزَنَ على ضلالِ مَن ضلَّ إذا كان قد قامَ بما أوجبَ اللهُ عليه من البلاغِ والدعوةِ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، يعني مهلكًا نفسَك ألا يَكُونوا مؤمنينَ، وآيات كثيرة بهذا المعنى، وأن الإنْسَانَ لا يَحزَن؛ لِأَنَّ ضلال مَن ضَلَّ بفعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفِعله تَعَالَى لِحِكْمَةٍ، ولهذا قال أهل العلمِ: إننا ننظُر إلى أهلِ المعاصي نظرينِ؛ نظرًا شرعيًّا، ونظرًا كونيًّا، فالنظر الشرعيُّ نحاول إلزامَهم بما أوجبَ الله ونعاقبهم على ذلك، ونُعَزِّرهم بما يليق بهم، ونُقيم الحدود عليهم، ولا نرحمهم في ذلك؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، هَذَا النظر الشرعيُّ، نظر قـوَّة وحَزْم، أمَّا النظر الثَّاني فَهُوَ النظر القَدَرِيّ الكونِيّ، فإنَّنا نَرِقّ لهم ونرحمهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلاهم بهذا الأمرِ، ومِنَ النَّاس مَن يتحمَّل هَذَا وهذا، ومِنَ النَّاس من لا يتحمَّل إلَّا وَاحِدًا منهما، وأيُّهما أكمل؟ الَّذِي يتحمَّل هَذَا وهذا أكمل، لكِن من النَّاس مَن لا يتحمَّل الأمر القدريَّ، وتجده يغضَب ويصير عنده غَيرة، ينفعِل فيها انفعالًا بالغًا، ويندفِع اندفاعًا كثيرًا، ومن النَّاس من ينظر إلى الأمر القدريّ فيقول: هَذَا بقـضاءِ اللهِ وقَدَره، ولا يَكُون عنده غَيرة أبـدًا إطلاقًا، وهذا أيضًا خطأ، فالواجب على المرءِ أنْ يَنْـظُرَ إلى الأمورِ مِنَ النافذتينِ: نافذة القَدَر ونافذة الشَّرْع؛ لِيَكُونَ مُستقيمًا، وهذا هو العدلُ.

إذَن مَن ضَلَّ منَ النَّاس فلَسـنا وُكَلاءَ عليه، ولكنْ له علينا الدعوة إلى اللهِ، ومحاولة إصلاحِه بما نستطيعُ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا] إشارة إلى أن الاستفهامَ هنا بمعنى النفيِ، يعني فلنْ تكونَ عليه وكيلًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يُشكِل على هَذَا أنَّ الإنْسَان يجد في نفسِه حزنًا على القريبِ؟

نقول: هَذَا الحزن على القريبِ من باب الرقَّة والرَّحمة، ومع هَذَا يَجِب أن يَكُونَ عنده حَزْم في الدعوة إلى اللهِ، وتبليغ شَرْعِه، وإقامة ما يَجِب إقامتُه منَ الحدودِ على هَـذَا المخالِفِ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاسِ يَرِقُّ لِقَرِيبِهِ وصاحِبِـهِ وأخيه، وما أشبهَ ذلكَ، ولا يقوم بالواجبِ بالنسبةِ لتأديبِهِ ومحاولةِ إصلاحِهِ، وهذا خطأٌ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٤)

• ● ✿ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

• ● ✿ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تَفَهُّم ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما تقولُ لهم، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخطأُ طَرِيقًا مِنها؛ لِأَنَّهَا تنقادُ لِمَن يَتَعَهَّدُها، وهم لا يطيعون مولاهم المنعِمَ عليهم].

قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ الخطاب إما للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإما لكل مَن يتأتَّى خِطابُه مِمَّن يصِحُّ خطابُه، وقوله: ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام، لكِن هل هي متَّصِلة أو منقطِعة؟ هي منقطعة؛ لِأَنَّهَا بمعنى (بل)، والمتصلة هي الَّتِي تكون بين أمرينِ متعادلينِ، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦]، هَذِهِ متَّصلة، فالَّتِي تأتي بين شيئينِ متعادلينِ يُسمُّونها متـصلةً؛ لِأَنَّهَا تصل الأوَّل بالثَّـاني، وإذا لم تكنْ كذلكَ فهيَ منقطِـعة، فقوله هنا: ﴿أَمْ﴾ ليس فيها معادِل، فتكون إذَن منقطِعةً بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام.

وقوله: ﴿تَحْسَبُ﴾ بمعنى تَظُنّ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ يعني أَنَّهُمْ لا يسمعـون ولا يعقلون، وما المرادُ بالسمعِ؟ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: [سماع تفهُّم] وإنما قيَّده بسماع التفهُّم لأَنَّهُمْ يسمعون سَمْعَ إدراكٍ، لكنَّه لا ينفعهم؛ لأنَّهم

لا يتفهَّمون، ولو أن المُفَسِّر أبقَى الآيَةَ على إطلاقها بدون تقييدٍ لكانَ أَولى، ويَكُون نَفَى السمع لانتفاءِ فائدتِه؛ لِأَنَّ ما لا يُستفاد منه كالمعدومِ، فهم لا يَسمعون وإنْ كانوا يدرِكون ما يقالُ إدراكًا حِسِّيًا، لكنَّهم لعدمِ انتفاعِهِم بهذا السماعِ صاروا كالذينَ لا يَسمعونَ.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما تقول لهم] وفي هَذَا نَظَرٌ ظاهرٌ، بل المراد: يعقلون كل ما ينفعهم، يعني أَنَّهُمْ ليس عندهم عقلٌ لِمَا تقول ولا لغيرِه، فالعقلُ هنا ليس العقلَ الَّذِي هو الذكاء، وهو إدراك الأمورِ، فإنهم يعقِلون بهذا المعنى، لكِن المراد العقل الَّذِي يمنع صاحبَه ويعقِله مِنَ التصرُّف بما لا يليق، هَذَا العقل الحقيقيّ، وليس العقل أنْ يُدرِكَ الإنْسَانُ المعقول، فإنَّ العقلَ الَّذِي معناه أنْ يُدْرِكَ المعقولَ هو مَناط التكليفِ، وليس مَناط المدحِ أو الذمِّ. فالآنَ صار العقلُ عقلينِ:

أحدهما: مناط التكليف، الَّذِي به يدرِك الإنْسَان ويتميَّز عن الحيوانِ.

والثَّاني: العقل الَّذِي هو مَناط المدح، وهو الَّذِي يَمنَع صاحبَه ممَّا لا يَليق، والمنفيُّ عن الكفَّار هو الثَّاني، الَّذِي هو العقل بمعنى ما يَمنع صاحبَه عمَّا لا يليق، أمَّا الأوَّل الَّذِي هو إدراك المعقولات فهذا ثابتٌ لهم، ولذلك كُلِّفوا وخُوطِبوا بالشرعِ، ولولا ذَلِكَ لَمَا كُلِّفوا ولَمَا وَجَبَ عليهم التزامُ الشرعِ.

هل العقل الَّذِي نفاه الله عن الكفَّار يَقتضي نفيَ الذكاء عنهم؟

لا، هم أذكياء يَفهَمون الَّذِي يَنفَعهم، ويفهمون الَّذِي يضرُّهم، لكنَّهم ما عقَلوا، يعني ما مَنَعَهم هَذَا العقل عمَّا لا يليقُ، فلذلك صحَّ أنْ نقولَ: إنهم لا يعقِلون، فأبو جهل مثلًا عاقل أو غير عاقل؟ نقولُ: بالنسبة إلى العقل الَّذِي هو مناط تكليف

فَهُوَ عاقل بلا شكٍّ، ومن أَذكى النَّاس، وبالنسبة للعقل الَّذِي هو مَحَطّ المدح الَّذِي يَمتنِع الإنْسَان به عمَّا لا يليق فليس عاقلًا، ولذلك بقِي على كفرِه، مع وضوح الأدلَّة والبيِّنات على صِدق ما جاء به الرَّسول ﷺ. وهنا المراد بالعقل الَّذِي نفاه الله العقلُ الَّذِي يَمنَع صاحبه عمَّا لا يليق.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ هَذَا حَصْرٌ، يعني ما هم إلا كالأَنعامِ، أي مثل الأَنْعام، والأَنْعام هي البهائمُ، ومن المعلومِ أنك لو قلتَ لأيِّ إنْسَانٍ: أنت بهيمةٌ يَغضَب بلا شكٍّ، فالله يقول: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾، أيضًا لم يقل: إن هم إلا أَنْعام، قال: ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾، والتشبيه يَقتضي أن المشبَّه أقلُّ من المشبَّه به، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾ هَذَا انتقال للصريح ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني: أخطأ طَريقًا مِنَ الأَنْعامِ؛ لِأَنَّ الأَنْعام تَهتدي لِما ينفعُها، وهَؤُلَاءِ لم يَهْتَدُوا لِمَا ينفعُهم، فالأَنْعام إذا دعاها الراعي إلى المرعَى تأتي، وإذا دعاها إلى المَحْلَب أتتْ، وإذا دعاها إلى المأوَى أتتْ، كذلك أيضًا تنفِر ممَّا يضرُّها، لكِن هَؤُلَاءِ بالعكسِ؛ تدعوهم الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى ما ينفعُهم وتحذِّرهم مما يضرُّهم، ومعَ ذلك لا يَهتدون سبيلًا، ولا يَنقادون، فصاروا إذَنْ أَضَلَّ سبيلًا مِنَ الأَنْعامِ، ولهذا بَيَّنَ الله تَعَالَى في آياتٍ متعدِّدة أنَّ الكفَّارَ شرُّ البَرِيَّة؛ شَرّ ما بَرأ الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:٥٥]، يعني شَرًّا منَ الكلابِ والخنازير، وقلْ ما يُمكِن أن تقولَ مِنَ الخِسَّة في مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي خلقها، فهم شرٌّ من ذلك، ومع هَذَا نجد من المسلمين الآنَ مَن يُكْرِمهم، بل مَن يقدِّمهم على المؤمنين، وهَذِهِ مِحنة عظيمة، فبهذا السَّبب استطالَ أعداء الله على المسلمينَ، رأَوْا أنفسَهم عند كثيرٍ من المسلمينَ مَحَلّ التبجيل

والتعظيم، ففخروا بأنفسِهم، بل أنكى من ذلك وأدهى أَنَّهُمْ صاروا محلَّ التقليدِ عنـد بعضِ النَّاسِ، يعني يقلدونهم، ومعروف أن الإنْسَانَ إذا قُلِّدَ فسـوف يفخَر ويرى نفسه إمامًا، وهذا في الحقيقة من سُوء التصرُّف، ومن ضعف الشخصيَّة، وإلَّا فالواجب أن نُنَزِّلُ هَؤُلَاءِ الكفَّارَ مَنْزِلَتَهُمُ الَّتِي أنزلَهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وألَّا نجعلَ منهم قدوةً، وأَنَّهُمْ إذا فتحوا لنا أبوابًا مِنْ الِاختراعات والصناعات وغيرِها، نعم نستـفيد من عِلمهم، لكِن لا عَلَى أَنَّنا نُظهِرهم بمظهرِ البارزِ المتـقدِّمِ المعظَّم، إنَّما نقول: هَؤُلَاءِ مثلما تَهتدي الشاةُ إلى العَلَفِ الجيِّد وتأكله هم اهتدَوْا إلى هَذِهِ الصنائعِ وعَلَّمَهم الله مهنة لهم ولغيرهم، لكِن كوننا نُقَدِّمُهُمْ وَنَجْعَلُهُم مَحَلَّ إعجابٍ وإكرامٍ هَذَا خطأ. وبَيَّنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: [لأنها تنقاد لِمَن يَتَعَـهَّدها، وهم لا يطيعون مولاهم المنعِمَ عليهم].

وقد تقـدَّم قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، فإذا قال هـؤُلَاءِ الكِتَابيُّون: نحن نَدِين دِينَ الحقِّ لأننا نتَّبع رسولًا، والله عَزَّوَجَلَّ قيَّد ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فهم يَقُولُونَ: نحن نؤمن بالله واليومِ الآخِرِ ونحرِّم ما حرَّم الله ورسوله، وندين دين الحقِّ لأننا على دين رُسُلٍ؟

نقول: الحمد لله، سياق هَذِهِ الآيات بيَّن ما هو دين الحق؟

ففي آخر الآيات ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ

قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٠-٣٣]. فنقول: دين الحقّ ما جاء به الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذَن اليهوديّ الكِتَابيّ إذا بقِيَ على دينه، وإن كان دينُه حقًّا حينما كان هو الثابت، لكنَّه الآن ليسَ بدين حقٍّ؛ لِأَنَّ دين الحقِّ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، فيكُون في آخِرِ الآياتِ ما يدل على أن هَؤُلَاءِ وإنْ زَعَموا أَنَّهُمْ على شريعةٍ وعلى دينٍ، فإن دينَهم ليس دينَ حقٍّ بعد أنْ جاء دينُ الرَّسولِ ﷺ، قال تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣].

وهذا نظير ما يحتجّ به هَؤُلَاءِ في قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة:٦]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم يقُولُونَ: نحن ما كَفَرنا، بل نحن مؤمنونَ، فيَجعلونَ (من) للتبعيضِ، لا لبيـانِ الجِنس، ونحن نقول: إن (من) لبيـانِ الجِنس، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أيِّ طائفةٍ؟ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، هَذَا بيان للاسْمِ الموصول (الذين) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

فالحاصِلُ: أَنَّهُ توجَد آياتٌ في القُرْآن كما أَسْلَفْنَا مشتَبِهات يتبعها الَّذِينَ في قُلُوبهم زَيْغ، ولكنَّ المؤمنين يَرُدُّونها إلى المحكَمِ، فتكون كلها محكَمةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، ألا يَكُون دليـلًا صريحًا على كُفْـرِهِم، لكِن إذا قالوا: نحن لا نقـولُ: عُزيرٌ ابنُ الله،

نقول: نَرُدُّ عليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٨]، نقول: هم سيَقُولُونَ: نحن أَقَمْنَا التوراةَ والإنجيلَ، وأمَّا قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ سيَقُـولُونَ: وما أنزل إلينا من ربِّنـا من غير التوراة والإنجيل؛ لِأَنَّ الرُّسُل جاءوا بأمرٍ غيرِ التوراةِ والإنجيل، وأمَّا قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾ سيَقُولُونَ: ﴿كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾ ونحن لَيْسُوا من هَذَا الكثيرِ، فالآية ليستْ صريحةً، لكنْ توجد آيات صريحة -الحمد لله- واضحة جدًّا، وهذا في الحقيقة ما يهوِّن على بعض النَّاس مسألة اليهود والنصارى.

وأنا قرأتُ مقالًا تقول: لماذا تصنعون هَذِهِ الضجَّة العظيمة لتوريد المربِّيَات، ما السَّبب؟! تقول: دين تُقِرّ به -هكذا تخاطب المسلم- كيف تنكِر على مَن قام به وكيف تنكر على المرأةِ النصرانيَّة الَّتِي تجيء عندك بيتك تقيم شعائر دينها؟! هَذَا ليس بمنكَرٍ؛ لأننا نحن عندهم هناك في بلادهم نقيم ديننا، حتى إنهم -هكذا تقول- يقدِّمون لنا وجبة الإفطار في الصوم، فهم يساعدوننا على ديننا، ونحن الآن ننكر دينَهم ونقـول: لماذا نأتي بمربيات ونَفتـعِل هَذِهِ الضجة. مع أَنَّهُ لم تحدُثْ ضجَّة مع الأسف، يا لَيْتها حدثَت ضجَّةٌ ضدها.

وفي الحقيـقة مما يهوِّن عليهم مسألة النصارى واليهود أَنَّهُ يوجـد في بعض الآيات أشيـاء متشابِهة، يتبعها مثل هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أزاغَ اللهُ قلوبَهـم، والعياذُ باللهِ، وإلَّا لو عَقِلوا لَفَهِمُوا خَطَرَ النصارى في هَذِهِ البلاد بالذَّات؛ لِأَنَّ هَذِهِ البلاد بالذَّات مغزوَّة من أعداء المسلمينَ، حيث إِنَّهُ لم يبقَ فيما نعلَمُ أحدًا من بلادِ الإسلامِ يطبِّق من الإسلام ما تطبِّقه هَذِهِ البلاد، فهي مغزوَّة من ناحيتينِ؛ من ناحية التزامِها بالإسلام

التـزامًا فائقًا على غيرِها، هَذِهِ وَاحِـدة، ومن ناحية أخرى أنها هي مَهْبَط الوحيِ ومَنْبَع الرِّسَالةِ، وإذا قُضي على الرِّسَالة في مَهدِها ومَنْبَعِها فالأطراف من باب أَوْلَى، على أن الأطراف قد أُكِلت الآن، فما بقي إلَّا هَذَا الصُّلْب، فركَّزوا جُهُودَهم على هَذِهِ البلادِ، ولكن مع الأسفِ أن كثيرًا منَّا لا يَعُونَ خطرَ هَذَا الأمر، وهم في غفلةٍ، وما همّهم إلا الدُّنْيا، ولذلك يريدون أن يحصُلوا عليها بأيِّ وسيلةٍ. والواجبُ علينا الحَذَر من هَؤُلَاءِ الأعداء، وأن نعلمَ أَنَّهُ مهما حصلَ منهم مِن نُصح كما يقولونَ، وإخلاصٍ في العملِ، فما ذلك إلا شبكة يَصطادون بها مَن لا يفهمون.

على أَنَّهُمْ في الحقيقة مهما بَلَغوا من النـصحِ، إن صح ذلك، فإنَّ الله يقـول: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ويقول: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ولاحـظْ أن الآيةَ تقـول: ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ و﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾، لا مسلم ومسلمة؛ لِأَنَّ من المسلمين مَن لا خيرَ فيه، لكِن الكَلام على المؤمنِ، ولهذا يَنبغي للإنْسَانِ أنْ يحرِص في مربِّيات أولادِه وفي خَدَمِه أن يَكُونوا مؤمنينَ، وأن يَحذَر من هَؤُلَاءِ الأعداءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَحْرُم استخدام الكافر؟

نقول: أمَّا في الأَصْلِ فيجوز استخدام الكافرِ، لكِن بالنظر إلى مفاسدِه، وأن هَذِهِ البلاد خالِيَة منهم، فإننا نَميل إلى أن منعَهم أَولى؛ لِأَنَّهُ من المعروفِ أن الثوبَ الوَسِخ لا يَهُمُّ أنْ يَتوَسَّخ، لكِن الثوب النظيف أيُّ وَسَخٍ يُدَنِّسه، فبلادنا لَمَّا كانت خاليةً منهم فهي أطهرُ، كما هو معروف في حديثِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استيقظَ ليلةً فَزِعًا مُحْمَرًّا وجُهه يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». قالتْ:

أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1] ومَنْ هم الخَبَث؟ الكفَّار؛ قال تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨].

فالكفَّار همُ الخَبَثُ، وإنْ كان مِنَ الخبيثِ ما قد يُرادُ به ما هو أعمُّ من ذلكَ، لكِن فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يَأجوجَ يدلّ على ما أَشَرْنا إليه، وهو كثرةُ غير المسلمينَ في المسلمينَ، وقد يراد بالخَبَث كلُّ المعاصي، فالمعاصي كلُّها خَبَثٌ، والطاعات طُهْرٌ، لكِن لعلَّ الحديثَ يَشمَل هَذَا وهذا، ويؤيِّد الأوَّلَ فَتْحُ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كلُّ الآياتِ يمكِن أن تقبل الإِشْكالَ، حتى هَذِهِ الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة:٦٩].

نقول: الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الَّذِينَ يكذبون بالرَّسول لَيْسُوا بمؤمنينَ؛ لِأَنَّهُ كلَّما جاء نبيٌّ وكذَّبوه صاروا كافرينَ بالجميعِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: في قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ نجد أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوع بين منصوباتٍ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:١٦٢]، هَذِهِ عكس الآية السابقة؛ فهذا منصوب بين مرفوعات، وذاك مرفوع بين منصوبات، فما إعراب هاتين الكلمتينِ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، رقم (٧٠٥٩)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم (٢٨٨٠).

نقول: الإعراب: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ هَذِهِ على تقـدير: وأخصّ أو أمدَح المقيمينَ للصلاة.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما الحِكْمَةُ في قَطْعِ العطف إلى هَذَا التقدير؟

نقول: العِنَاية بالصلاةِ، هَذِهِ فائدةٌ مَعنويَّة، وتُوجَدُ أيضًا فائدة لفظيَّة، وهي التَّنْبيه؛ لأنَّ تغيُّرَ الأسلوبِ يُوجِب الانتباهَ، لو قَرَأْنَا الآيةَ كلَّها على نَسَقٍ وَاحِدٍ مَشَيْنا، لكِن حِينَما تَقِف يَكُونُ في هَذَا التنبيهُ.

وأمَّا إعرابُ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ هنا لماذا رُفعت؟ نقول: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ يجوز أنَّ النصارَى مرفوعة أيضًا، ويمكِن أن تكونَ منصوبةً، فهي مُحْتَمِلة، لكِن لا يَتعيَّن أن تكونَ منصوبةً، فتكون (الواو) هنا للاستئنافِ، (والصابئون والنصارَى كذلكَ) هَذَا التقدير، وتكون هَذِهِ الجُملة مستأنَفةً بين الكَلِمَتينِ، أو نقول: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هو الخبر، وحُذف الخبرُ مِنَ الجُملةِ الأُولى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين هَذِهِ الآية وقوله في سورة الحج: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الحج:١٧]؟

الجواب: في هَذِهِ الآية قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، واليهود مؤمنون بالله واليوم الآخِر، في سورة الحج ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج:١٧]، فلم يذكرْ أن جزاءهم الجنَّة مثلًا، ذكر أن الله يفصِل بينهم، والفصل شامِل للمؤمنينَ والمشركينَ والمجوسِ وغيرِهم، ففرق بين الآيتينِ.

الآيتان (٤٥، ٤٦)

• • ● • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦].

• • ● • •

لَمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِينَ كذَّبوا الرُّسُلَ السابقينَ، وما أحلَّ الله بهم من العذاب والعقوبة، أراد عَزَّوَجَلَّ أن يبيِّن شيئًا من آياتِه يدل على قُدرتِه ووَحدانيَّته، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تنظر ﴿إِلَىٰ﴾ فِعل ربِّك ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾]، إلى آخِرِه.

أولًا: كلمة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الاستفهامُ للتَّقرير؛ كقولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات:١٦]، وما أشبهَ ذلك مِنَ الأمثـلةِ، ويقدِّر بعض العلماء مثـل هَذَا التركيب بقولِه: قد فعلْنـا ذلك، قد رأيت ذلك، فمثلاً ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يعني أنـك رأيت ذلك، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تنظر] فسَّر الرُّؤية بالرؤية البصرية، مع أَنَّهُ يَحتمل أن تكون رؤيةً بصريةً ورؤيةَ بَصيرةٍ، يعني رؤية عِلمية، أي تعلم هَذَا الأمر الَّذِي سيُذكَر.

والخطاب في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هل هو للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو لكل ما مِن شأنِه أن يخاطَب؟

الجواب: أَنَّهُ لكل مَنْ مِنْ شأنِه أن يخاطَب؛ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره؛ لِأَنَّهُ كما أسلَفنا في القاعِدَة التفسيريَّة أَنَّهُ كلَّما كانتِ الآية أدلَّ على العموم كان القولُ به

أَولى، وأنه لا يَنبغي أن تُجعَل خطابات القُرْآن للخصوصِ إلا بدليلٍ يَمنع العمومَ، يعني ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيُّها الإنْسَان ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّر مضافًا فقال: [﴿إِلَىٰ﴾ فعل ﴿رَبِّكَ﴾] لِأَنَّهُ ليس المراد أن ينظر الإنْسَان إلى الله عَزَّوَجَلَّ بذاته، إِنَّما المراد أن ينظُر إليه من هَذِهِ الحيثيَّة، فيَكُون مصبّ النظر هو الفِعل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ من وقتِ الإسفارِ إلى وقتِ طلوعِ الشمسِ]، هَذَا تفسيرٌ للظلِّ، وليس تفسيرًا للمدِّ، فالظلُّ من وقتِ الإسفارِ إلى وقتِ طلوعِ الشمسِ، وسُمِّيَ ظِلًّا لِأَنَّهُ ذو نورٍ، ولَكِنَّهُ بدون شعاع شمس، فكان ظلًّا، وهذا هو الَّذِي فسَّره به ابن عبَّاس وغيره، وعليه جمهور المفسِّرين؛ أن الظلَّ ما بين طلوع الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ؛ لِأَنَّهُ كما قُلْنا: نور بدون شعاعٍ، ومدُّه يعني تطويله؛ لِأَنَّ الفرق بين هَذَا وهذا معروف، ولكن أيّ شَيْء يَكُون فيه من آيات الله؟ قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ يعني غير ممدودٍ، بحيث تطلُع الشمس مباغتةً بدون مدٍّ، والواقِع بخلافِ ذلكَ، بل هو ممتدٌّ، وكونه لا يزول بطلوع الشمس هَذَا غير ممكِن، ولذلك يقول في تفسير الجَمَل في تفسير قول المُفَسِّر: [مقيمًا لا يزول بطلوع الشمس]: (بألا تطلع الشمس)، ليس المعنى تطلع ولا يزول؛ وذلك لِأَنَّ زواله بطلوع الشمس، فإذا طلعت فلا بدَّ أن يزول، المعنى أن النفيَ مسلَّط على قوله: [بطلوع الشمس]، فمعنى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي أن الشمس لا تطلُع، ويبقى باستمرار، يعني يبقى الأمرُ لا ليلٌ ولا نهارٌ، إسفارٌ بدون شمس.

فكَلام صاحب الجلالين يَصِحّ بأنْ نجعلَ النفيَ مسلَّطًا على قولِه بطلوعِ الشمس، يعني فلا تطلع الشمس. على كلِّ حالٍ المعنى مفهوم الآن؛ لو شاء لجعله ساكنًا فلا تطلع الشمس، أو إنْ صحَّ أن يقال: لو شاء لجعله ساكنًا فتطلع الشمس

غيرَ مضيئةٍ، وهذا خلاف المعهودِ أن تطلُعَ غير مضيئة، ولكن الله قادِر على أنْ يُخرِجَها غيرَ مضيئةٍ، كما يُعلم ذلك في الكسوفِ.

فالحاصلُ: أن السكونَ الآن يفسَّر بحسَب ما يفسَّر به الظلُّ. هَذَا أحد الأقوال في تفسير الظل.

والقول الثَّاني في الظل: أن المراد به الليلُ كلُّه، وأنَّ المراد بمدِّه تطويله، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ بمعنى بعد أن كان طويلًا كان ينقُص شيئًا فشيئًا، فيكُون في هَذَا إشارة إلى تغيُّر الفصول؛ لِأَنَّ الفصول تتغيَّر بتغيُّر الليلِ والنهارِ.

والقول الثالث: أنَّ المرادَ بالظلِّ ظلُّ كلِّ شاخصٍ إذا طلعتِ الشمسُ، فإنَّ الله تَعَالَى يَمُدُّه ثم يَقْبِضُهُ شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ فتكون الشمس مُسْتَقِرَّةً ثابتةً في مكان لا تَرتفِع ولا تَنخفِض.

فالآنَ صار المرادُ بالظلِّ على الخلاف ثلاثة آراءٍ؛ إمَّا أَنَّهُ ما بين طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [من وقت الإسفار] لأجل أن يتحقق الظل. أو أَنَّهُ الليل كله، ويكُون مَدُّهُ تطويلَه ثم يَنقُص، ففي هَذَا من قُدرة الله تَعَالَى: تغيُّر الفصول بسَبَب طول الليل وقِصره. أو أن المراد به ظِلّ كلِّ شاخصٍ، فَإِنَّهُ أوَّل ما تطلُع الشمس يكُون الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَض شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، والسكون هنا يَختلِف معناه بحسَب اختلاف معنى الظلِّ، فإذا قُلْنا: المراد بالظلِّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، كان المراد بالسكون أن الشمس تخرج دَفعةً وَاحِدةً بدون أن يَكُون ظِلُّها شيئًا فشيئًا، وإذا قُلْنا: إن المراد به الليل كان المراد بسكونِه أن يبقَى الليل دائمًا، لا يزيد ولا ينقُص، وإذا قُلْنا: إن المراد بالظلِّ ظِلُّ الشاخصِ، صار المراد بسكونِه أن الشمسَ لا تتحرَّك،

وتبقى في مكانٍ وَاحِدٍ، ويَكُون الظلُّ ساكنًا، لا يزيد ولا يَنقُص، ففي كون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قادرًا على هَذَا وهذا دليلٌ على كمال قُدرتِه ووحدانِيَّتِه في التفرُّد؛ لِأَنَّهُ لو كان معه إلهٌ آخرُ لم يكنْ له المشيئة المطلَقة في هَذَا وفي هذا.

ثمَّ فيه أيضًا من نعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على العبادِ في اختلاف هَذَا الظلِّ ما هو معلوم؛ لأننا لو قُدِّر أن الشمسَ تخرج هكذا بَغتةً بعد ظلام دامسٍ فقد يؤثر النور الساطع في المواشي في إبصارها، وفي بني آدم، وفي الأشجار والنبات، بخلاف ما إذا كان الشَيْء يأتيها تدريجيًّا، وكذلك أيضًا لو كان الليل والنهار دائمًا لا يزيد أحدهما ولا ينقُص، لم يكنْ في ذلك اختلاف في الفصول، ولم يكن في ذلك اختلافٌ في الأشجارِ؛ لِأَنَّ كثيرًا من الأشجار تختلِف ثِمارُها وإيناعها بحسَب اختلاف الفصولِ.

كذلك أيضًا إذا قُلْنا بأنَّ الظلَّ ظلُّ كلِّ شاخصٍ؛ فإنَّ كونَ الشمسِ تَدُورُ وتختلف الأفياءُ والأَظِلّة بحسَب سَيْرِها هو أيضًا من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومن تمام قُدرته.

فالحاصل: أن هَذَا الأمر الَّذِي قرَّر الله تَعَالَى بأننا ننظر إليه في كل وقت دالٌّ على أمرينِ: تمام القُدرة، وتمام الرَّحمة؛ لِأَنَّهُ متضمِّن لهما.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما الَّذِي تختارون من هَذِهِ الأقوال؟

نقول: ما دام أن هَذِهِ المعانيَ لا تَتنافَى، فالواجب أن تُحمَل الآية على الجميعِ، وهَذِهِ قاعِدَة قرَّرناها سابقًا، وهي قد قُرِّرت أيضًا من قبلنا، قررها شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ بأنه إذا كانت الآية تَحتمِل المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجبُ أن تُحمَل على كل هَذِهِ المعاني؛ لِأَنَّ كَلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يحيط به شَيْءٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الظلِّ والفيءِ؟

هَذِهِ الْفَائِدَة قد سبقتْ، والفرق بينهما: أن الفيءَ ما نَسَخ الشمسَ، والظل ما نسختْه الشمسُ، مثل قولنا: الظل ما قبلَ الزوال، والفيء ما بعد الزوال؛ لِأَنَّ الظلَّ الَّذِي قبلَ الزوالِ الَّذِي يُزيلـه ويَنسَخه الشمسُ، والفيء الَّذِي بعـد الزوال ينسخ الشمسَ؛ لِأَنَّهُ يمتدّ، وكلَّما امتدَّ إلى شَيْءٍ أزال ضوءَ الشمسِ عنه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي على الظلِّ ﴿دَلِيلًا﴾]، قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ الجملة الفعليَّة هَذِهِ هل هي معطوفة على قوله: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أو على قوله ﴿مَدَّ﴾: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾؟

فالجواب: معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ لِأَنَّ قوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ لو جُعِل معطوفًا على ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ لكانت الشمس ليستْ دليلًا عليه، والأمر بخلاف ذلك، فالمعنى يفسُد، فهي إذَن معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، يعني: وكيف جعلنـا الشمس عليه دليلًا، ولكنَّ فيه الْتفاتًا من الغَيـبة إلى التكلُّم؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾، ولم يقـل (ثم جعل). وقوله: ﴿ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يعني على الظلِّ، وكيف كانت دليلًا على الظلّ؟ يقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلولا الشمس ما عُرف الظلُّ]، المراد بالظلِّ هنا الَّذِي يأتي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس ظلّ الأنوار حيث يضع الإنْسَان له كشَّـافًا، ويَكُون له ظِلال؛ لِأَنَّ هَذَا الظلّ الَّذِي يَكُون من مصباحي أنا ومصباحك أنت هَذَا ظِلٌّ نسبيّ، حتى ظِلّ الشاخِصِ إذا جعَلْناه هو الأنوار؛ لِأَنَّهُ ليس المقصود معرفة الظل الَّذِي يَكُون بمجرَّد تسلط ضوء على جسمٍ، المراد الظلُّ العامُّ الَّذِي يعمُّ كلَّ النَّاس، وهذا لا يمكِن إلا بِجعلِ الشمسِ وحدَها هي الدليلَ عليه، لكِن قد يقول قائل: القمرُ أيضًا دليل عليه؟ فنقول: إن نور القمر

مستفادٌ من نورِ الشمسِ، وليس مستقلًّا بالإضاءة، فالَّذِي يدل على الظلِّ أصلًا هي الشمس.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جَعْلُ الشَّمْس دليلًا عَلَى الظلِّ فِيهِ دليلٌ ليسَ عَلَى مجرَّدِ وجودِ الظلِّ، بل دليل عَلَى ما فِيهِ من المصالحِ، وَهِيَ أَيْضًا مدلولٌ عَلَيْهَا به، فالشَّمْس الآنَ يُستدَلُّ بها عَلَى ما فِي الظِّلّ مِنَ المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلّ عَلَى ما فِيهَا من المصالحِ أَيْضًا؛ لأنَّ غُيُوبَ الشَّمْسِ عنِ الْأَرْض قد يؤثِّر، وبقاءَها دائمًا عَلَى وجهِ الْأَرْضِ قد يؤثِّر، مثل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢]، فكونُ هَذَا دليلًا عَلَى هَذَا، وهذا دليلًا عَلَى هَذَا؛ هو أَيْضًا من رحمةِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ لَولَا الشَّمْس ما عَرَفْنَا فائدةَ الظِّلِّ، ولولا الظِّلّ ما عرفنا فائدة الشَّمْس، فكلٌّ منهما فِي الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي الظِّلّ الممدود إِلينا ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ خفيًّا بطُلُوعِ الشَّمْسِ].

قوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ هل المرادُ باليَسِير هنا صفة للفعل، يعني أَنَّ قَبْضَنَا إِيَّاه يَسيرٌ علينا؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤]، أو أن المراد بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾ يَعْنِي أن القبضَ كَانَ شَيْئًا فشيئًا؟

الأخير أظهرُ، وهو المتبادَرُ؛ أن اللهَ تَعَالَى قَبَضَ هَذَا الظِّلّ قبضًا يسيرًا، شَيْئًا فشيئًا، وهو مُنْطَبِقٌ عَلَى كلِّ التفسيراتِ السابقةِ.

إِذَا قُلْنَا: الظِّلّ ما بَيْنَ طلوعِ الفجرِ أو ما بَيْنَ وقتِ الإسفارِ إِلَى وقتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّهُ يُقْبَضُ هَذَا الظِّلُّ شَيْئًا فشيئًا، لا يزال النورُ يَسْطَعُ تدريجيًّا حَتَّى تطلع الشَّمْس. هَذِهِ وَاحِدةٌ.

إِذَا قُلْنَا: المراد به الليلُ؛ فَهُوَ أَيْضًا يُقْبَضُ شَيْئًا فشيئًا، يَعْنِي لا يَكُون الليل فِي هَذَا اليومِ اثني عشرة ساعةً، ويَكُون تسع ساعاتٍ فِي اليومِ الَّذِي يَلِيهِ، وإِنَّما يُقْبَضُ شَيْئًا فشيئًا.

كَذَلِكَ إِذَا قُلْنَا: إن المرادَ بِالظِّلِّ ظِلُّ الشاخِصِ، فَهُوَ نفسُ الشَّيْءِ، إِنَّما يَتَنَاقَص شَيْئًا فشيئًا، وليسَ فِي الآيةِ إشكالٌ سِوَى قولِهِ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ﴿إِلَيْنَا﴾ هَذِهِ الغايةُ فِيهَا إشكالٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ من المُمْكِنِ أَنْ يُقْتصر عَلَى قولِه: ثم قبضناه قبضًا يسيرًا، فما الحِكْمَةُ من هَذِهِ الغايةِ فِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؟

بعضهم يَرَى أَنَّ الضميرَ فِي قوله: ﴿قَبَضْنَـٰهُ﴾ أي الشَّمْس، باعتبارها دليلًا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي: قبضنا هَذَا الدليلَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

وعلى كلِّ حالٍ يوجد احْتِمالٌ أَنَّ المرادَ مِن جَعْلِ الغايةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إشارة إِلَى أَنَّهُ هو المتصرِّف به، وأنه لا أحدَ يَستطيعُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بخلافِ ذلكَ.

ويوجد احْتِمالٌ أَنَّهُ يُجْعَل المراد بقولِه: ﴿قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا﴾ يَعْنِي الدليل، أي الشَّمْس، ويَكُون المراد بالقبضِ إليه ما أشارَ إليه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قولِه فِي حديث أبي ذَرٍّ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

ويوجد احْتِمالٌ ثالثٌ ذَهَبَ إليه الزَّمَخْشَرِيُّ[١]، وَقَالَ: إنَّ المرادَ بالقَبْضِ هنا ما ذَكَرَهُ اللهُ بقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير:١-٢]، وإنَّ المرادَ به قَبْضُ هَذِهِ النيِّرات؛ الشَّمْس وغيرها يوم القيامة، وجَعَلَ اليسيرَ لَيْسَ صفةً للقبضِ، يَعْنِي أَنَّهُ يَكُون شَيْئًا فشيئًا، بل هو صفة للفِعل؛ لِفِعل الله، يَعْنِي أَنَّهُ يسير عليه كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤]، لكِن الأخير بعيدٌ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا يَمْتَنّ بذلك عَلَى أمرٍ يُدرِكُ النَّاسُ فائدتَهُ فِي الدُّنْيا، وتمام قُدْرة الله تَعَالَى فِيهِ، فيكُون عَلَى هَذَا إمَّا أنْ يقالَ: إن الغايةَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إشارة إِلَى أن ذلك من تَصَرُّفِه وحدَه، وأن الأمرَ إليه وحدَه، لا إِلَى غيرِهِ، فيكُون دليلًا عَلَى عَظَمَة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو أنَّ المرادَ بالقَبْضِ إليه أنَّ الشَّمْسَ تُقْبَضُ إِلَى اللهِ، بمعنى أنها تَذْهَب وتسجُد تحتَ العرشِ؛ كما جاء به الحديثُ عن النَّبيِّ ﷺ[٢].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تَقريرُ الْإِنْسَانِ بالنِّعَم الَّتِي يُشاهِدُها؛ لِقَوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: إثباتُ رُبُوبِيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، والربُّ هو الخالِق المتصرِّفُ.

الْفَائِدَة الثالثة: بَيـان كمالِ قُدْرة الله ورحمته بِمَدّ الظِّلِّ، وجعل الشَّمْس دليلًا عليه، وقبضه قبضًا يَسيرًا، بِهَذِهِ الأمور الثَّلاثَة.

الْفَائِدَة الرابعة: إثبات الاستدلالِ بالشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ.

---

(١) الكشاف (٣/ ٢٨٣)، ط. دار الكتاب العربي.

(٢) سبق تخريجه.

الْفَائِدَة الخامسة: الاستدلال بالشَيْءِ عَلَى ضِدِّهِ، وبِضِدِّهِ يُعْرَفُ الضِّدُّ، ويقولُ بعضهم[1]:

وَبِضِــدِّهَا تَتَبَــيَّنُ الْأَشْــيَاءُ

وذلك في قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾. وقولنا: الاستدلال بالشَيْءِ عَلَى ضِدِّهِ مُرادنا النِّعَم، ففيه معرفة قَدْر النعم بمعرفة ضِدِّها، وأن الْإِنْسَان يستدلّ عَلَى مقدار هَذِهِ النعمة بِضِدِّها.

الْفَائِدَة السادسة: إثباتُ مَشيئة الله؛ لقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

الْفَائِدَة السابعةُ: أَنَّهُ يَنبغِي للإنْسَانِ أَلَّا يَجعلَ النِّعم أمورًا عاديَّةً لا بدَّ منها، بل يُقَدِّرها بِضِدِّها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، فإذا قَالَ الْإِنْسَان مثلًا: طلوع الشَّمْس عَلَى هَذِهِ الْأَرْض وغروبها عنها أمرٌ مُعتادٌ، نقول: نعم، هو أمرٌ معتادٌ، مِن أجلِ كونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الْإِنْسَان بأنه نِعمة، لكِن قَدِّر هَذَا الشَّيْء بضده ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، إنَّ خروجَ النَّفَسِ من جسم الْإِنْسَـان أمرٌ معتادٌ، ولهـذا لا يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِقَدْرِ هَذِهِ النعمةِ، لكِن قَدِّر أن الله لو شاء الله لَحَبَسَهُ، وحينئذٍ يَتبيَّن قَدْرُ النعمةِ. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ يَنْبَغِي أن يُجعَل هَذَا قاعِدَة لنا فِي كلِّ النِّعَم المعتادة الَّتِي نحنُ عِشنا عَلَيْهَا واعتدناها؛ فإننا لا نشكُّ بكونها نعمًا، لكِن علينا أن نقدِّر ضِدَّها حَتَّى نعرِفَ بذلك قدرَ نعمةِ الله عَزَّوَجَلَّ بهَذِهِ النعمِ المعتادَةِ.

الْفَائِدَتان الثامنة والتاسعة: إثبـات رحمة الله بوجود هَـذِهِ النِّعم، لكنْ تنبـيه الْإِنْسَان عَلَى الشكرِ إِنَّمَا يَكُونُ بذِكر ضدِّ هَذِهِ النعمِ.

---

(١) ديوان المتنبي، وصدر البيت: (نَذُمُّهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ)، في ديوانه (ص١٢٧).

الْفَائِدَة العاشرة: فائدة الالتِفَات، وَهِيَ تغيير الأسلوبِ لِتَنْبِيهِ المخاطَبِ؛ لقولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

• ● ● •

الآية (٤٧)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ساترًا كاللِّباسِ ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدانِ بِقَطْعِ الأعمالِ، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ منشورًا فِيهِ لِابتغاءِ الرزقِ وغيرِهِ]، هَذَا أَيْضًا مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بها إِلَّا الله.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ (اللام) للتعليلِ، أي: مِنْ أَجْلِكم، جعل مِنْ أَجْلِكم الليلَ لِباسًا، ومعنى لِباسًا ساترًا كاللِّباس، وذلك لظلامِهِ، ولهذا الْإِنْسَان ربَّما يخرُج فِي الليلِ بثيابٍ لا يستطيعُ أنْ يخرجَ بها فِي النهارِ، فربما يخرج بثياب ليأتيَ بحوائجَ فِي الليلِ لا يستطيعُ أن يخرجَ بها فِي النهارِ؛ لِأَنَّ الليلَ يَستُر، فَهُوَ لِباسٌ، وهل هو لِباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لِأَنَّهُ يكسو الْأَرْضَ ويكسو الْإِنْسَانَ فِي الواقعِ، فَهُوَ كاسٍ للأرضِ وكاسٍ أَيْضًا للإِنْسَانِ.

وقوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ السَّبْتُ بمعنى القَطْع، والْمُفَسِّر فسَّره بالراحةِ، وهو من باب تفسيرِ الشَّيْءِ بلازمِهِ، وإِلَّا فَهُوَ قطعٌ لِتَـعَبِ البدنِ، ولذلك يُكسِب البدن راحة، ففيه هَذِهِ الْفَائِدَةُ العظيمةُ؛ أَنَّهُ يَقطَع التعبَ السابقَ، وليس كما قَالَ الْمُفَسِّر: [بقطع الأعمالِ]، وقصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذا نامَ لا يعمَل، هَذَا وجهٌ كونه سُباتًا،

ولكننا نقول: لَيْسَ كَذَلِكَ، لَيْسَ قطعًا للأعمالِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يَقطَع أعمالَه وهو يَقْظَان، أي مع وجودِ الصحوِ واليقظةِ، ولكنَّه يقطع التعبَ كما هو مشاهَد، فالْإِنْسَان يَكُون مُتْعَبًا ثم ينام، فإذا نام انتقضَ تعبُه، فَهُوَ فِي الحقيقةِ قطعٌ للتعبِ الماضي وتجديدٌ للنشاط المستقبَلِ.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ يَعْنِي محلًّا للنشورِ، ولهذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منشورًا فيه] يَعْنِي أنَّ النهارَ محَلُّ النشورِ وابتغاء الرزقِ، وغيره من الأعمالِ، وهذا من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يرد عَلَى هَذَا ما نحن فِيهِ اليومَ منْ كونِ الليلِ لَيْسَ لِباسًا؛ لِأَنَّ هَذَا أمرٌ طارئٌ بسَبَبِ الأنوارِ المُحْدَثة الَّتِي صَنعَها الْإِنْسَانُ، هَذِهِ الأنوارُ لو فاتتْ لعادَ الظَّلَامُ عَلَى الْأَرْضِ، ثم إنَّ هَذَا النور والإضاءة الَّذِي يمنع كون الليل لباسًا لَيْسَ بعامٍّ فِي الواقعِ، بل هو أمرٌ نِسبيّ، ثمَّ هو أَيْضًا ضعيفٌ لا يَشمَل الظِّلّ، فالظِّلّ الَّذِي يحدث ضَوْء هَذِهِ الشَّمْعَة مَثَلًا يَكُونُ أسودَ لِباسًا.

وكَذَلِكَ أَيْضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ لا يرد عليه بعض الحالات الطارئة؛ كالحَرَّاس مَثَلًا، فالحراس ينامونَ بالنهارِ وبالليلِ، فهم يَعْمَلُون، لكِن هَذِهِ الأمور نادرةٌ، والنـادرُ لا يقطَع القواعد، فالقواعد لا يمكن أن تَنـخرِم بالأمور النادرة، إنَّما الكَلام عَلَى العامِّ.

هَذَا أَيْضًا مِن نِعمَة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهل أحد يستطيعُ لو لم يجعلِ اللهُ الليلَ أنْ يأتِيَ بالليلِ؟ لا أحد يستطيع، يَعْنِي لو اجتمعَ الخَلْق كلُّهم من أوَّلهم إِلَى آخِرِهم بجميعِ صنائِعِهم ما استطاعوا أنْ يأتوا بنصفِ ليلٍ ولا بساعةٍ من ليلٍ، كَذَلِك أَيْضًا النومُ، هل يستطيع أحدٌ أنْ يُنوِّمَ أحدًا؟ أبدًا لا يستطيع، وحبوب النوم هَذِهِ لا ترد علينا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُعطِي حُبوب النَّوم، ويقول: أنا استطيع أن أُنوِّم الْإِنْسَان

بإعطائِهِ جرعاتِ النوم، نقولُ: هَذَا مِثل الَّذِي قَالَ لِإِبْراهِيمَ: ﴿أَنَا أُحْيِ - وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فإن هَذَا الَّذِي يُعطِي جُرعات النوم لَيْسَ هو الَّذِي ينوِّم، وإنما يفعل السَّبب الَّذِي يَكُون به النومُ، أرأيتَ لو أن الله تَعَالَى جعلَ هَذَا الجسمَ غيرَ قابلٍ للنـومِ، هل تستطيع هَذِهِ الجرعات أن تنومه؟ لا، إِذَن فالنـوم لا يستطيع أحد أبدًا أَنْ يأتِيَ به إِلَى بدنِ الْإِنْسَانِ، وحتى لو أتَى به مثلًا فقد يأتي به ولا يَكُون قاطعًا للتَّعَبِ، ولهذا امتنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عَلَى العبادِ، وهو أمرٌ لا يستطيع أحدٌ فِعْلَه. كَذَلِك جَعَلَ النهارَ نشورًا، مَن يَستطيعُ أَنْ يَخْلَعَ هَذَا اللِّباس؛ لباس الليل، حَتَّى يَكُون الإسفار وينتشر النَّاس فِي مَصالِحِهِم؟

الجواب: لا أحدَ يستـطيعُ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِبَـادِهِ بِهَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ؛ بالنومِ والليلِ والنهارِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الليـلَ لِباسًا، وجعلَ النـهارَ نُشُورًا، وجعلَ النومَ سُباتًا، مَحَلّ النوم هل هو فِي الليلِ أَوْ فِي النهارِ؟

الأَصْلُ أَنَّهُ فِي الليلِ، لكنْ قد يَكُونُ فِي النهارِ أيضًا، فقد يَتْعَب الْإِنْسَانُ فِي النهارِ وينام ثم يَستريح؛ كوقت القائلةِ مثلًا، ولذلك لا يقول قائلٌ: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ نعمتينِ فِي الليلِ ونعمةً وَاحِدةً فِي النهارِ، بل نقولُ: إن الله ذَكَرَ فِي الليلِ نعمةً، وهو كونه: ﴿لِبَاسًا﴾، وَفِي النهارِ نعمةً، وهو كونه: ﴿نُشُورًا﴾، وجعل فِي النومِ مطلقًا نعمة، وهو أَنَّهُ سُباتٌ، يَعْنِي قاطعًا للتعَبِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل النوم بكل أنواعِه قاطعٌ للتعَبِ؟

نقول: نعم النومُ الطبيعيُّ الَّذِي من خِلقةِ الْإِنْسَان، فأمَّا النومُ الَّذِي يحدُث بسَبَب المرضِ -لأنَّ الْإِنْسَانَ قدْ يمرضُ فيكثر معه النومُ- فالظاهرُ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ

فِي الآيَةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض النَّاس لا يَرتاح إذا نامَ بعد الفجرِ؟

الجواب: الظاهر أَنَّهُ أمرٌ نِسبيٌّ، وبعض النَّاس يرتاح له كثيرًا، وأنا إذا لم أَنَمْ قبل أنْ آتيَ ما استطعتُ أنْ أعملَ، ولكنت أنام دائمًا، مثلَما جَرَّبناه فيما سبقَ، والنوم يتعب أَكْثَر ما يتعب إذا كَانَ الْإِنْسَان مُمْتَلِئَ البَطْنِ، فإذا نامَ ممتلئَ البطنِ فيمكِن أنْ يَتْعَبَ، لكِن الكَلام عَلَى العمومِ من حيثُ هو.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل النوم فِي بعض الأوقاتِ مكروهٌ؟

شرعًا لا أدري إِلَّا أنْ نقولَ: يُكرَه النوم قبلَ صلاةِ العشاءِ؛ لسَبَبٍ شرعيٍّ، لا سَبَب جِسميّ، وأمَّا نوم العصرِ فهم يَقُولُونَ قول الشاعرِ[1]:

أَلَا إِنَّ نَوْمَاتِ الضُّحَى تُورِثُ الْفَتَى ... خَبَالًا وَنَوْمَاتُ الْعُصَيْرِ جُنُونُ

وهذا لَيْسَ بصحيحٍ، كثيرٌ مِنَ النَّاسِ ينامون بعد العصرِ باستمرارٍ، ولم يصابوا بجنونٍ، ولا قِيلَ: إنهم مجانين، وإذا أشغلَ عن ذِكْرٍ يمكن أن يَقضيَه الْإِنْسَان؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ أحيانًا لا يستطيع أن ينامَ فِي نصف النهارِ، وأيضًا لا يستطيع أنْ يبقى إِلَى الليلِ، فلا بدَّ أنْ ينامَ بعدَ العصرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: حديث: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ»[2] هل هو صحيحٌ؟

ما أَظُنُّه حَديثًا، والظاهرُ أَنَّهُ حديث عامَّةٍ، والعوامُّ أَيْضًا يقولونَ: (أَقِلْ فإنَّ الشياطينَ لا تَقِل) فيحذفون الياء.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٥/ ٢٩١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي (١/ ٢٦١، رقم ١٥١).

الآيــة (٤٨)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨].

• ● ● •

هَذِهِ الآيةُ فِيهَا عِدَّة قراءاتٍ: أولًا (الرياح) فِيهَا قراءتانِ سَبْعِيَّتانِ، والدليل أن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قَالَ: وَفِي قراءة، فهي سَبْعِيَّة، وإذا قَالَ: وقُرِئَ فهي شاذَّة، ففيها قراءتانِ: (الرياح) و(الريح)(١)، وبهذا نَعْرِف أن ما اشتهر من قولهم: إن الريح لا تكونُ إلَّا فِي العذابِ، والرياح تكون فِي الرَّحمةِ، لَيْسَ عَلَى إطلاقِهِ، وأنه قد يُؤتى بالرِّيحِ مُفْرَدًا فِي ريحِ الرَّحمةِ، لَكِنَّهُ له قَرينة، فهنا لما قال: ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ عَرَفْنَا أنها ريح رحمةٍ، وكَذَلِك قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ﴾ ماذا بعدَها ﴿طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، هَذِهِ ريح رَحْمة، لكنها وُصِفَتْ، فأمَّا عند الإطلاقِ فالغالبُ أن الريحَ للعذابِ.

وقوله: ﴿بُشۡرَۢا﴾ فِيهِ عدة قراءات: أوَّلًا (نُشُرا) بضم النون والشين، ومعنى نُشُرًا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُتفرِّقة]، يَعْنِي أنها تكون أحيانًا جنوبًا، وأحيانًا شمالًا، وأحيانًا غربًا، وأحيانًا شرقًا، وبهذا التفرُّقِ يَتولَّد السَّحاب ثم المطر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قراءةٍ بسكونِ الشينِ تخفيفًا: نُشْرًا]، وقوله (تخفيفًا)

(١) الحجة في القراءات السبع (ص٢٦٥).

يَعْنِي أنها لا يتغير بها المعنى، وإنها تُسَكَّنُ للتخفيفِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي أُخْرَى بِسُكُونِها وفتحِ النونِ مَصْدرًا]، (نَشْرًا) حينئذٍ يَتَغَيَّر المعنى. (نُشُرا) و(نُشْرا) معناهما وَاحِدٌ لا يختلف؛ لِأَنَّ التسكينَ للتخفيفِ، لكِن (نَشْرا) يَعْنِي يَنْشُرها نَشْرًا، هَذِهِ مختلِفةٌ، تكون مصدرًا.

ثم قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي أُخرى: بسكونها وضمِّ الموحَّدة بدل النونِ]، سكون الشين وضمّ الموحدة بدل النون، وَهِيَ (بُشْرًا)، والموحَّدة هي (الباء)، وهَذِهِ هي القراءة المشهورة، ومعنى (بُشْرًا) عَلَى هَذَا أي مبشِّرات، يَعْنِي هي تبشِّر وليستْ مصدرًا وأن الله يبشِّر بها، وإنما هي نفسها بُشْرًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومفرد الأُولى نَشُور؛ كرسول]، الأُولى «نُشُرًا» كرَسُول ورُسُل، ورسول ورُسْل، هَذَا مُفرد الأولى ما لم تكنْ مصدرًا، وَهِيَ «نَشْرًا»، فإن كَانَ مصدرًا فهي مفرد وليست جمعًا، والأخيرة «بُشْرًا» يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والأخيرة مفردها بَشير]، صارت القراءات فِي هَذِهِ الكلمة أربعًا: «نُشُرًا» و«نُشْرا» و«نَشْرا» و«بُشْرا»[1] وهذا من إعجاز القُرْآن.

وفائدةُ اختلافِ القراءاتِ أنْ يُؤخَذَ من كلِّ قراءةٍ معنًى، وعلى هَذَا فتكونُ الرياحُ الآنَ جامعةً بَيْنَ كونِها بِشارةً وكونِها منشورةً متفرِّقة بَيْنَ يَدَيِ المَطَرِ.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بالرَّحمةِ هنا المطرُ، أو آثارُه، وهَذِهِ رحمةٌ مخلوقةٌ؛ لِأَنَّ الرَّحمةَ المضافةَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنقسِم إِلَى قسمينِ؛ رحمة هي صِفَتُه، فهي غيرُ مخلوقةٍ، ورحمةٌ هي من آثارِ الصِّفةِ، فهي مخلوقةٌ، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للجنَّة:

---

(١) المصدر السابق (ص:٢٦٦).

«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(١) هَذِهِ مخلوقة، وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، هَذِهِ الصِّفة الَّتِي ليست مخلوقة.

فإذَن الرَّحمةُ المضافةُ إِلَى اللهِ تَنقسِم إِلَى قِسمينِ؛ مخلوقة، وسُمِّيَتْ رحمةً لِأَنَّها من آثارِ الرَّحمةِ، وغير مخلوقةٍ، وَهِيَ صِفَتُه، والَّتِي معنا فِي قوله: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ هل هي المخلوقة أو غير المخلوقة؟ يَحتمِل أنَّ قولَه: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ معناه إذا أرادَ أنْ يَرْحَمَ، فتكون من غير المخلوقِ، ويَحْتَمِلُ ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ بَيْنَ يَدَيِ المَطَرِ نفسِه، فتكون الرَّحمة هنا مخلوقةً؛ لأنَّ إطلاقَها عَلَى المَطَرِ يقتَضِي ذلكَ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَها عَلَى أنها الرَّحمة المخلوقةُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [قُدَّامَ المَطَرِ].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ من المعروفِ أنَّ الَّذِي يَكُونُ به المطرُ بإذنِ اللهِ هي الرِّياحُ الجَنُوبِيَّة، ولذلك يَقُولُونَ لنا: إنَّ الأوَّلينَ مِن آبائنا وأَجدادِنا إذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الجنوبيَّة أَوْضَعُوا السواني وقالوا: الآن يأتي المطرُ، ولا حاجةَ لِأَنْ نَسْقِيَ الزرعَ، وكأنه شَيْءٌ مُعتادٌ عندَهم.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي مِنَ السحابِ؛ لِأَنَّ كلَّ ما عَلاكَ فَهُوَ سماءٌ، ولا شكَّ أن المطرَ إِنَّما يَنزِلُ مِنَ السحابِ، فيَكُون المراد بالسماءِ هنا العُلُوّ.

وقوله: ﴿مَاءً طَهُورًا﴾ يَعْنِي به المطر، و(الطَّهور) بفتح الطاء هو ما يُتطَهَّرُ به، أو ما تَحْصُلُ به الطهارةُ، وأمَّا (الطُهور) بِضَمِّها فَهُوَ التطهُّر.

هنا يقولُ: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، وقبلَها: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾، ففيه من علمِ البَديع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ [ق:٣٠]، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

ما يُسَمَّى بالالتفاتِ، وفائدتُه -كما مرَّ كثيرًا- تنبيهُ المخاطَبِ؛ لأنَّ تَغَيُّرَ الأسلوبِ يُوجِب التنبُّهَ، وفيه أَيْضًا العنايةُ بما حَصَلَ الالتفات إليه؛ لِأَنَّهُ احتاجَ إِلَى أنْ يُنَبِّهَ بهذا الالتفاتِ إليه، ولَا شَكَّ أنَّ إنزالَ المطرِ هو المقصودُ من إرسالِ الرِّياح ولذلك جاء الالتفاتُ إليه بصورةِ المتكلِّم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كلمة (نا) للوَاحِد أو للجَماعَة؟ تصلح للوَاحِدِ المعظّم نفسه، وَهِيَ هُنَا كَذلكَ.

• • ❁ • •

الآية (٤٩)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٩].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالتخفيفِ، يَسْتَوِي فِيهِ المذكَّر والمؤنَّث، ذَكَّرَهُ باعتبارِ المكانِ، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي الماء ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ إبِلًا وبَقَرًا وغنَمًا، ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ جمع إنْسَانٍ، وأصلُه أَنَاسِين، فأُبْدِلَتِ النونُ ياءً وأُدغِمَتْ فِيهَا الياءُ، أو جمع إِنْسِيٍّ].

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فوائد هَذَا المطر فائدتينِ: أَوَّلًا: إحياء البَلْدَةِ الميْتَة؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، ولم يقل: ميتة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [بالتخفيف، يَستوي فِيهِ المذكَّرُ والمؤنَّثُ باعتبار المكانِ] كذا عندي، لكِن الصواب أن يقال: (أو ذَكَّرَه باعتبارِ المكان)؛ لِأَنَّهُ إذا استوى فِيهِ المذكَّر والمؤنَّث لا يَحتاج إلى أن نُعَلِّلَ أَنَّهُ ذُكر باعتبارِ المكانِ.

فنقول: الصواب أن يقالَ: «أو ذكَّره باعتبار المكان»، فكلمة (ميتًا) إذا كَانَ يستوي فِيها المذكَّر والمؤنَّث صار قولك ميتًا أو ميتةً عَلَى حدٍّ سواء، وَأَمَّا إذا قُلْنَا: إِنَّهُ للمذكَّر فحينئذٍ نحتاجُ إِلَى الجوابِ عن كونِه وُصِف بِهِ مؤنَّث (بلدة) فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [إِنَّهُ ذكَّره باعتبار المكان].

قوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ (الباء) هنا للسَبَبِيَّة، والمحيي هو اللهُ، ولكنَّ المطرَ سَبَبٌ.

وقوله: ﴿مَّيْتًا﴾ وَصْفُ البلدةِ هنا بالمَيْت هل المراد نفسُ الْأَرْضِ تكونُ ميتةً أو ما عليها؟

الجواب: ما عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْفَائِدَةَ مِنَ الْأَرْضِ هي ما عَلَيْهَا والَّذِي ترعاه الإبل والبقرُ والغنمُ هو ما عَلَى الْأَرْض، فإنها لا تأكل الترابَ والحَصَى، فإحياؤها باعتبارِ ما فِيهَا أَنَّهُ يَحْيَا وينمو ويكبر، فنفس الْأَرْض لا يدخلها الحياة والمَوْت، نفس الْأَرْض يَعْنِي الأحجار والطِّين لا يدخلها الحياة والمَوْت، إِنَّمَا تدخل الحياة والمَوْت ما فِيهَا، ولهذا قَالَ فِي آية أخرى: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]، والاهتزاز والرُّبُوُّ إِنَّمَا يَكُون فيما عَلَيْهَا، أَمَّا هِيَ فلا تَهْتَزُّ.

قوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ أنزلَهُ لِيُحْيِيَ بِهِ البلدةَ، فيَقْتضِي هَذَا التعليلُ أَنَّهُ ما منْ قطرةٍ تَنزِلُ مِنَ السماءِ إِلَّا ويَحْصُلُ بِهَا حياة الْأَرْض، وإِلَّا لَفَسَدَتِ العِلَّة، ولكن يقالُ: هَذَا سَبَبٌ، والأَسْباب قد تَتَخَلَّف لوجودِ الموانِعِ، وقد لا تؤثر لوجودِ الموانِعِ، فذنوب بني آدمَ من موانعِ إحياءِ الْأَرْضِ لو نزلَ المطرُ، ويَكُون هَذَا أشدَّ وأَنكَى وأَبلَغَ فِي التذكُّرِ؛ إذا نزل المطرُ ولم تُنْبِتِ الْأَرْضُ، ولهذا جاء فِي الحديث: «لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»(١). وهذا هو الصحيحُ، أحيانًا تأتي أمطارٌ كثيرةٌ ولا تجد حياةً فِي الْأَرْض، وأحيانًا تأتي أمطار قليلة وتَحْيَا بِهَا الْأَرْض حياةً طيِّبَةً، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أن هَذَا المطرَ سَبَبٌ لحياةِ الْأَرْضِ، ولكن الأَسْباب قد تَتَخَلَّف مُسَبَّبَاتُها لوجودِ الموانِعِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

قوله: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ هَذِهِ فائدةٌ أُخْرَى لِلْمَطَرِ؛ أَنَّهُ يُسقَى بِهِ الأَنْعامُ والنَّاسُ، لكِن كيف ذلكَ؟ هل هو بالغُدرانِ الَّتِي تَبْقَى عَلَى وجهِ الْأَرْضِ، أو أن هَذَا الماءَ يُخْزَنُ فِي الْأَرْض، أو بهما؟ بهما جميعًا؛ لأنَّ سَقْيَ المطرِ يكُونُ عَلَى هذينِ الوجهينِ؛ إما غدران تكون فِي قِيعانٍ لا تشرب فيَنْتَفِع النَّاس بِهَا، وإمَّا أنَّ الْأَرْضَ تشربه ويُخْزَن فِيهَا؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]، بل الَّذِي يَخْزُنُهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ﴾ هنا قَالَ: ﴿أَنْعَٰمًا﴾، وما قَالَ: أَنْعامًا كثيرةً، والأناسِيُّ قال: ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ وَفِي هَذَا التعبيرِ إشكالانِ:

الإِشْكال الأَوَّلُ: لِماذا وصفَ الأناسيَّ بالكثيرِ ولم يَصِفِ الأَنْعامَ بالكثيرِ؟

الإِشْكال الثَّاني: أننا نعلمُ أن اللهَ تَعَالَى يَسقِي بهذا الماءِ كلَّ الأَنَاسِيِّ، فكلُّ النَّاسِ يشربونَ منه، فلماذا قَالَ: ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾، يَعْنِي كأنه يُفهم أنَّ مِنَ الأناسيِّ من لا يُسقَى بماءِ المطرِ، فما هو الجواب عن الإِشْكال الأول: وصف الأناسيّ بالكثرةِ دونَ وَصف الأَنْعامِ؟

إِذَا قُلْنَا: إن ﴿كَثِيرًا﴾ صفة للأناسيّ والأَنْعام زالَ الإِشْكالُ، وقد يقال -واللهُ أَعْلَمُ-: إن بعض الأَنْعامِ لا يحتاجُ إِلَى الماء حَسَب ما نَسمَع، وبعضها لا يحتاج إِلَّا قليلًا جدًّا، فهناك أشياءُ كثيرةٌ يَعُدُّونها علينا يقولون: لا تَحتاج إِلَى ماءٍ، أو إذا شَرِبَتْ لا تشربُ إِلَّا قليلًا جِدًّا، تقريبًا مرة فِي السنة، فإذا صحَّ هَذَا فَهُوَ من الحِكْمَةِ، قد يَكُون هَذَا من الحِكْمَةِ بعدمِ وصفها بالكثرةِ.

لكِن يَبْقَى عندنا الإِشْكالُ الثَّاني فِي قوله: ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ مع أن جميع الأناسيّ يشربون؟ ممكن أن نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ يبيِّن أن الأناسيَّ كثيرون، ولا يلزم

من هَذَا أن بعضهم لا يذكر وأن تكون هَذِهِ الكثرة كثرة شاملة، مثلما تقول: الجُنْد كثيرون، أو عند الأمير جُنْدٌ كثيرٌ، كلمة (جُند كثير) تَشْمَل جميع الجنود وتصفهم بالكثرةِ، و(أناسيّ) أَيْضًا تَشمَل جَمِيع النَّاسِ وَتَصِفُهم بِالْكَثرةِ.

إذَنِ الإِشْكالُ الَّذِي يَتبادَرُ فِي الأَوَّل نتخلص منه بأن نجعلَ (كثيرًا) صفة للأمرينِ؛ أَنْعامًا كثيرًا وأناسيّ كثيرًا، وليس كقول الله تَعالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١]؛ فإن ﴿كَثِيرًا﴾ لا تَصِحُّ أنْ تكونَ صفةً للأمرينِ لِأَنَّهَا مقدَّمة عَلَى النساء، أَمَّا هَـذِهِ فيمكن أن يقال بأنها وصف للمعطوف والمعطوف عليـه، وأمَّا ﴿كَثِيرًا﴾ فَإِنَّهُ لبيان الواقع وليس لإخراج البعض، ونَظيرُهُ فِي التمثيل -كما تَقَدَّمَ- أن تقولَ مثلًا: عندَ الأميرِ جُنْدٌ كثيرٌ، أو خرج إِلَى العدوِّ جيشٌ كثيرٌ، فَهُوَ وصفٌ له بالكثرةِ، يَعْنِي أناسي لَيْسُوا بالقليلينَ، فهَذَا هو المعنى: أَنْعامًا ليستْ قليلةً وأناسيّ لَيْسُوا قليلين، بل كثيرون، ويَكُون هَذَا بيانًا لِشُمُول انتفاعِ الخَلْقِ ناطقهم وبَهِيمهم بهذا الماء؛ أَنْعاما كثيرًا وأناسيّ كثيرًا.

الآن تَوَصَّلْنا إِلَى أنَّ الكثيرَ صِفَة للأَنْعامِ، والأناسيّ بالنسبةِ لكثرةِ الأَنْعامِ هل نقـول: كثرة الجِنْس والأنـواع، أو كثرة الأفراد، أو الجميع؟ نقول: الجميـع، وبالنسبة للأناسيّ كثرة الأفراد؛ لِأَنَّ الأناسيَّ جِنسٌ وَاحِدٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا ذكر الأَنْعامَ قبلَ الأناسيّ؟

الجواب: الظاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- للكثرةِ؛ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ أنواعًا وأفرادًا، والكَلام عَلَى إفادتها مِنَ المطرِ، فتقديمها لِأَنَّهَا أَكْثَرُ.

وقد يقالُ: إن إحيـاءَ الْأَرْضِ لمصلحةِ الْإِنْسَـانِ، وسقي الأَنْعـامِ لمصلحـةِ الْإِنْسَـانِ، وسقي الْإِنْسَانِ هَذِهِ لمصلحـة نفسِه، فقدّم ما يَكُون انتـفاعًا غير مباشرٍ

للإِنْسَانِ، ثم أَخَّر الانتفاعَ المباشِرَ من باب الأبعدِ فِي المصالح، فالأبعد لِأَنَّ الأَنْعام من مصلحة الْإِنْسَانِ، والْأَرْض إحياؤها من مصلحة الْإِنْسَان، وإحياء الأَنْعام أشدّ مباشرةً والتصاقًا بالْإِنْسَانِ من إحياء الأَرْضِ؛ لأنه كم من أراضٍ تُحْيَى بالمطرِ لا ينالها الْإِنْسَان ولا يَنتفِع بها، بخلافِ الأَنْعامِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لقولِهِ: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيةُ: إرسالُ المُبَشِّرات والمقدِّمات بَيْنَ يَدَيِ الأشياءِ؛ لقوَّة الرجاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثالثة: قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ فِي إرسالِ الرياحِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الرياحَ لوِ اجتمع الخَلْقُ كلُّهم بالتأكيدِ عَلَى أن يأتوا بوَاحِدةٍ منها ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا، مع أن هَذِهِ الرياح فِي بعض الأحيانِ تَقتلِع الأشجارَ وتدمِّر المنازلَ، هَذِهِ القوة العظيمة لو أتيتَ بمُوَلِّداتِ الدُّنيا كلها لِتَخْلُقَ مثلَ هَذَا الهواء ما حَصَلَ هذا.

الْفَائِدَةُ الرابعة: حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكونِ المطرِ يَنزل مِنَ السَّماءِ، لو كَانَ هَذَا المطرُ الَّذِي تَحيا بِهِ الْأَرْض يأتي جريًا عَلَى سطح الْأَرْض ما كَانَ فِيهِ هَذَا النفع؛ لِأَنَّهُ لا يصل إِلَى قِمَم الجبال إِلَّا بعدَ أنْ يُغْرِق ما تحتها، لكنَّه إذا نزل من فوق أتى عَلَى قِمَمِ الجبالِ وأَتى عَلَى ما هو أسفلُ منها، وهذا من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ بذلك.

الْفَائِدَةُ الخامسة: أن الأَصْل فِي الماءِ الطهارةُ؛ لِقولِه: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ ونحن نعرف الآنَ حَسَبَ ما تَلَوْنَا أنَّ الماء الموجود فِي الْأَرْض كلّه منَ السَّماء ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢]، فإذا كَانَ من السَّماء فإن الأَصْل فيما نبع من

الْأَرْض أو فيما نزل من السَّماء أنْ يَكُونَ طَهُورًا.

الْفَائِدَةُ السادسةُ والسابعةُ: إثبات الحِكمة فِي أفعالِ اللهِ؛ لِقولِه: ﴿لِّنُحۡـِۧىَ بِهِۦ﴾ وهَذِهِ اللام هي لام التعليل، وهذا دليل من مئاتِ الأدلَّة عَلَى إثباتِ الحِكمةِ، فيَكُون فِيهِ ردّ عَلَى طائفةٍ من طوائفِ المبتدِعَةِ، وهم الجَهْمِيَّة؛ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أن فعل الله لمجرَّد المشيئةِ، لَيْسَ لعِلَّة؛ فَإِنَّهُ لا يرجِّح شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ لِحكمةٍ، إِنَّما لمجرَّدِ المشيئةِ، ولا يفعَل شَيْئًا إِلَّا لمجرد المشيئة. ولَا شَكَّ أنَّ هَذَا القَوْلَ مردودٌ بالأدلَّة النقليَّة والعقليَّة؛ لِأَنَّ مَن يفعل لحكمةٍ أكملُ ممَّن يفعل لغيرِ حكمةٍ، وَهُم يَرَوْنَ نفيَ الحِكْمَةِ، يَقُولُونَ: لأنَّ الحِكْمَةَ غَرَضٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّه عن الأبعاضِ والأعراضِ والأغراضِ، انظُرْ إِلَى حُسْن هَذَا التعبيرِ، فالَّذِي يَسمَع هَذَا التعبيرَ يقول: هَذَا مثل تعبير القُرْآن: منزَّه عن الأبعاض والأغراض والأعراض، يريدون بالأبعاضِ اليدَ والوجهَ والعينَ، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، ويريدون بالأعراضِ الصِّفاتِ الفعليَّةَ: الأفعال الاختيارية؛ كالنزول والاستواء، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، ويريدون بالأغراض الحِكْمَة؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لو فعل لحكمةٍ لكان ناقصًا بدونها. وهذا من قلبِ الحقائقِ، فإذا فعل لحكمةٍ فَهُوَ دليل عَلَى كمالِه، وأنه لا يفعلُ شَيْئًا سَفَهًا لمجرَّد المشيئةِ.

الْفَائِدَةُ الثامنة: جوَاز ذِكْرِ بعضِ الفوائدِ؛ لأنَّ الاقتـصارَ عَلَى البعضِ لا يُعَدُّ نَقْصًا؛ فهنا ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فوائدِ المطرِ فائدتينِ فقطْ؛ إحياء الْأَرْضِ، وسَقْيَ الأَنْعام والأناسيّ، معَ أنَّ للمطرِ فوائدَ أُخرَى؛ كالتطهُّر بِهِ مثلًا، فالتطهر بِهِ لَيْسَ سقيًا وليس إحياءً للأرضِ، وغير ذلك أَيْضًا من الفوائدِ، لكنَّه لَمَّا كَانَ أشدّ ما يَكُون ضرورةً للمطر هو إحياء الْأَرْض بالنباتِ؛ ليأكلَ النَّاسُ والأَنْعامُ، وكَذَلِك السقيُ؛ فالطعام والشراب ضرورة مِن ضروريَّات الحياةِ بالنسبةِ للأَنْعامِ وبالنسبةِ للناسِ،

فاقتصرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى ذكر هاتينِ الفائدتينِ فقطْ؛ لأنهما هما الفائدتانِ الضروريَّتانِ الحاصلتانِ بنزولِ المطرِ: إحياء الْأَرْض للنباتِ، والأكلُ والسقيُ للشُّرب.

• ● ● •

الآيــة (٥٠)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي الماءَ ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أصله (يَتَذَكَّروا) وأُدْغِمَتِ التاءُ فِي الذالِ. وَفِي قراءة «لِيذْكُرُوا» بسكونِ الذالِ وضمِّ الكافِ[1]، أي: نعمةَ اللهِ بِهِ، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا للنعمةِ حيث قالوا: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا].

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ التصريف هنا معناه: صَرَفْتُ الشَّيْءَ يَعْنِي غيرته وصرفته عن وَجْهِهِ، يَعْنِي أنَّ الله تَعَالَى غَيَّرَ هَذَا المطرَ بالنسبةِ للناسِ ووَزَّعَه بينهم ما بَيْنَ مُقِلٍّ ومستكثِرٍ، فمنهم مَن يكثر المطر عنده، ومنهم من يَقِلُّ، هَذَا بالنسبةِ للبَيْنِيَّة، كَذَلِك أَيْضًا صَرَّفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بينهم بالنسبةِ لكلِّ أحدٍ، أحيانًا يَكُونُ المطرُ كثيرًا فِي عامٍ وقليلًا فِي عامٍ.

وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ المُفَسِّر جعل التذكُّرَ هنا تذكُّر النِّعمةِ فقطْ، ولكن الأصحّ أَنَّهُ أعمّ، ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي نعمة الله فيها إذا نزل عليهم، و﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يتَّعِظُوا ويذكروا ما هم عليـه من المعاصي والآثام فيها إذا لم ينزِلْ، وكَذَلِك أَيْضًا «لِيذْكُروا» بذلك

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢١٨).

قدرة الله، حيث صُرِّف فِي محل دون محلٍّ، فالمهم أن تصريف هَذَا المطر فِي محل دون محل أو فِي سنة دون سنة هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ سَبَب لتذكُّر الْإِنْسَان، إمَّا تذكّر النعمة إذا كَانَ ناسيًا، وإما تذكّر النقمةِ ومعاصيه إذا كَانَ ممتنعًا، وإمَّا تذكر القُدرةِ حينما يَعرِف أَنَّهُ فِي مكانٍ يَكُونُ غزيرًا وَفِي مكان يَكُون قليلًا.

وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يَعْنِي امتنعَ أَكْثَرُ النَّاسِ عنِ التذكُّرِ ولم يَزِدْهُمْ إِلَّا كُفرًا.

وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أي أَكْثَرُ النَّـاسِ أبى، والأقلّ شَكَرَ وتَـذكَّر واتَّعَظَ، ولكن أَكْثَر النَّـاس أبى إِلَّا أنْ يَكْفُرَ، والكُفْرُ ذَكَر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ منه مثـالًا وَاحِدًا، وهو قولُه: [مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا]، ويُستدَلّ لِمَا مَثَّلَ بِهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي حديث زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ حينَ صلَّى بهم عَلَى إثرِ سماءٍ كانتْ مِنَ اللَّيْلِ فِي الحُدَيْبِيَةِ فقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[1]، فَهَذَا كُفْرٌ، وكيف يَكُونُ كُفرًا؟ لِأَنَّهُ أضافَ المطرَ إِلَى أمرٍ لَيْسَ بسَبَبٍ، وجعل هَذَا من فضلِ هَذَا النَّوْءِ، وليس من فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو حرامٌ وكُفْرٌ كما جاء بِهِ الحديثُ.

أمَّا لو قَالَ الْإِنْسَان: (مُطِرنا فِي نَوْء كذا)؛ فيجوز لِأَنَّهَا للظرفية، وَأَمَّا (بنوء) فلا يجوز؛ لِأَنَّهَا للسَبَبيَّة، لكِن عند العامَّة -عامتنا هنا فِي نَجْدٍ- يجعلون (الباء)

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٤٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

بمعنى (في)، يَقُولُونَ: مُطِرْنا بالشبط، مُطِرْنا بالمربعانية، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، فهذا لَيْسَ بِكُفْرٍ، نقول: إن (الباء) تأتي للظرفيَّة كثيرًا، وهم يريدون بِهَا الظرفيَّة، فلا بأسَ به، حَسَب النيَّة.

ومِنَ الكُفْرِ بِهَذَا المطرِ مِمَّا لم يَذْكُرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يُجْعَلَ ذلك سَببًا للأَشَر والبَطَر، مثلما يَحْصُل من بعضِ النَّاسِ إذا نزلتِ الأمطارُ وكَثُرَتِ الأبيارُ؛ صارتْ سَبَبًا لِأَشَرِهِ وبَطَرِه وفُسُوقه، فهَذَا من أسبابِه، ومِن أسبابِ الكفرِ أَيْضًا أَنَّهُ إذا امتنعَ المطرُ صار امتناعُه سَبَبًا لِقُنُوطِ الْإِنْسَانِ من رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والقُنُوط من رحمةِ اللهِ من كبائرِ الذنوبِ، وَلَيْسَ بالأمرِ الهيِّن، فلا يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَقْنُطَ من رحمةِ اللهِ، ولا أنْ يأمَن مَكْرَ اللهِ، لا هَذَا ولا هذا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن النَّاس يَنقسِمون إِلَى قسمينِ: كافر ومؤمِن، وهو كَذَلِك، لكِن لَيْسَ فِي هَذِهِ النعمةِ فقطْ، بل بجميعِ النِّعَم، فمِن النَّاسِ مَن يُؤمِن بِهَا، ومن النَّاس مَن يَكْفُر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبهَذِهِ النِّعَم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كَمَالُ القُدرة؛ لِقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةُ: ثُبُوتُ الحِكمة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ فـ(اللام) للتعليلِ.

الْفَائِدَةُ الثالثةُ: بُلُوغ الغايةِ فِي الكُفْرِ من بعضِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ الله تَعالَى يُرِيهم آيَةً لِيَتَذَكَّروا بِهَا، فلا يزدادون إِلَّا كُفُورا، فهذا -والعياذُ باللهِ- فِي غايةِ ما يَكُونُ مِنَ الكفرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إذا لم تَحْصُلْ له الآياتُ فقد يُعْذَرُ بِكُفْرِهِ، لكِن إذا حَصَلَتِ الآياتُ ولم يَنْتَفِعْ صارَ أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الرابعةُ: استعمال المؤكِّدات فيما يَنبغي تأكيدُه، نأخذه من القَسَم في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لِأَنَّ مثل هَذَا التعبيرِ كما مرَّ كثيرًا يُعتبَر مؤكَّدًا بثلاثةِ مؤكِّدات؛ بـ(اللام) و(قد) والقسم، واللهُ أَعْلَمُ.

الْفَائِدَةُ الخامسة: إبطالُ مَذهَب الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فجعل هَذَا باختيارِهِم، أَبَوْا إِلَّا أنْ يَكْفُروا بذلك، وهذا الكفر عامٌّ، يَشمَل كلَّ ما يُتَصَوَّر من أنواعِ الكفرِ، حَتَّى الكفر الأصغرُ، وذلك سَبَب فِي الأَشَر والبَطَر؛ حيثُ يَمْرَحُ النَّاسُ مثلًا ويَفْسُقُون ولا يُؤَدُّون ما أوجبَ اللهُ عليهم من صلاةِ الجَماعَةِ وغيرِ ذلكَ، فهذا مِن هَذَا النوعِ.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٥١، ٥٢)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥١-٥٢].

الآية (٥٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ إنِ احْتَمَلَتِ الآيةُ أن يَكُونَ هناكَ شَيْءٌ فاصلٌ لا نَعرِفه نحن؛ لأنَّ الفصلَ هنا بَيْنَ الْمِلْحِ والحُلْو بذاتِها، يَعْنِي لَيْسَ أمرًا يَحْجُزُ هَذَا عن هَذَا، إِنَّما الفاصل فِي نفسِ الحلاوةِ ونفس المرّ، فليسَ بينَهما شَيْءٌ، إِنَّما طبيعةُ هَذَا وطبيعةُ هَذَا تَقتِضي أنْ يَنْفَصِل بعضُها عن بعضٍ، فإذا كَانَ القُرْآنُ استنبطَ هَذَا فهذا لَا شَكَّ أَنَّهُ من أعظمِ الآياتِ أنْ يَكُونَ مثلًا نهر يَمشِي مسافةً طويلةً فِي وسطِ الماءِ المالحِ ولا يَختلِط به.

أنا أقول: إنَّ السَبَبَ كثرةُ هَذَا وكثرةُ هَذَا، أو مُلُوحة هَذَا وحلاوة هَذَا، لَكِن كَلِمَة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ تدل عَلَى أن الفاصلَ في الحَقِيقَة هي أن حقيقة هَذَا لا تَتلاءَم معَ حَقِيقَةِ هَذَا، ويَكُون البَرْزَخُ شيئًا ثالثًا بينَهما، فالبَيْنِيَّة تَقْتَضِي طَرَفَيْنِ وشيئًا بينَهُما.

على كلِّ حالٍ نقولُ: إذا كَانَ القُرْآنُ يَحتمِل هَذَا المعنَى -واللهُ أَعْلَمُ- لكِن ليسَ لنَا أنْ نَتعَدَّى اللفظَ، فِي الحقيقةِ كلمةُ البَيْنِيَّة تَقتضِي أنها ثلاثةُ أطرافٍ؛ اثنان ووسط بينَهما، فإذا كَانَ القُرْآنُ يَحتمِل أنْ نجعل بينهما بمعنى: فِي حَقِيقَتَيْهما وتَكْوِينِهما؛ لأننا فَهِمنا أن سَبَبَ عَدَمِ البَغْيِ لَيْسَ شَيْئًا فاصلًا بينهما، إِنَّما حقيقة تكوين هَذَا وهذا،

فقِطعة الثلجِ لا تَستطيعُ أنْ تقولَ: بينها وبَيْنَ الماءِ بَرْزَخٌ، وحقيقةً لَيْسَ بينَهما شَيْءٌ.

فَلَوْ قِيلَ: هَذَا من آياتِ اللهِ؟

نقول: نحنُ لا نقولُ: هَذَا لَيْسَ من آياتِ اللهِ، لكِن الكَلام عَلَى دَلالةِ القُرْآنِ عَلَى هَذَا، فهل لنا أنْ نَتَجاوَزَ البَيْنِيَّةَ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرَّحمن:٢٠]، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، هل لنا أن نتجاوز هَذَا ونقول: إن البينيَّة هنا كِنايةٌ عن أن حقيقة هَذَا لا تندمِج بهذا؟

من العلماء مَن قَالَ: دخول الأنهارِ فِي البحارِ، لكِن يُشْكِل عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾، ولهذا ضَعَّفنا هَذَا القَوْلَ، وقُلْنا: هَذَا لا يمكِن. وَفِي الحقيقةِ الَّذِي ينظُر إِلَى كلِمة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ هي مانع، أَمَّا كَوْنُهما لا يَختلِطانِ فهذا واضِحٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿بَرْزَخٌ﴾ بَرْزَخ هل هو حاجِزٌ حِسِّيٌّ أو مجرَّد قولِه: حاجز يَعْنِي مانعًا، فالمانِعُ قد يَكُونُ مِنَ الشَّيْءِ نفسِه، وقد يَكُون من غيرِه؟

فأنت إذا قُلْتَ: بينَك وبينَ صاحِبِكَ حَجَرٌ، أي مكان، فالبحرُ أَيْضًا ماءٌ، فكيف يَكُون بينهما حيز، وَأَمَّا قولُك: بينَه وبينَ فلانٍ مِنَ العِلْمِ، فصحيحٌ؛ لأنَّ العلمَ أصلًا معنًى، لكِن الماء والماء جِسم يَشغَلَانِ حَيِّزًا.

على كلِّ حالٍ، أنا لا أستطيعُ أنْ أَجْزِمَ الآنَ، نحنُ نُفَسِّرُ كَلامَ اللهِ، فإذا كَانَ القُرْآنُ يَحتمِل هَذَا المعنى الَّذِي تَقَدَّمَ فهذا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِن إعجازِ القُرْآنِ؛ إذا كَانَ كَلِمَة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ تَمْنَع هَذَا الاحْتِمالَ، ونقول: إن البَرْزَخِيَّة هنا فِي الحقيقةِ تَقتضِي شيئًا ثالثًا غيرَ البحرينِ، نحن نقولُ: الحمدُ لله هَذَا الَّذِي اطَّلَعْنا عليه بالعلمِ يَكُونُ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإنْ كَانَ القُرْآنُ لا يَدُلُّ عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُمْكِن أنْ نقولَ: إنَّ البرزخَ جُزْءٌ ضَئيلٌ مِن هَذَا وهذا انْدَمجَا فكانَ كالحاجِزِ؟

نقول: إذا ثبتَ هَذَا فيُمكِن أنْ نقولَ: النسبة مثلًا الَّتِي بينهما لا تكون حُلوًا خالصًا ولا مِلحًا خالصًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كلمة بَرْزَخ تُقاسُ بالنسبةِ لِلْبَرْزَخِ المعروفِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ؟

نقول: يُمْكِنُ، واللهُ أعلمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أحيانًا عَلَى ضَوْءِ مُكْتَشَف عِلْمِيّ لا بأسَ من إعطاءِ مَعْنًى معيَّن؛ لِأَنَّهُ أحيانًا فِي غِيَابِ هَذَا الواقِعِ العلميِّ قد يُشْكِل معنى آيةٍ، وأَذْكُرُ أنا تفسيرَ آيةٍ فِي سورةِ النـورِ: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠]، فأكْثَر المفسِّرينَ قالوا: بما أنَّه لا يُوجَدُ مَوْجَانِ فوقَ بَعْضِهما، فالفوقُ هنا يُحْمَلُ عَلَى معنى ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، وهذا تأويلٌ لا تَحْتَمِلُه كثيرًا اللغةُ العربيَّةُ.

وقد قرأتُ بحثًا مِن مُدَّةٍ حوالي خمس سَنَوَاتٍ لِعَالِمٍ فِي أَمْرِيكا، أَصْلُه مِصْرِيٌّ وأخذ جِنْسِيَّة أمريكيَّة، مشهور فِي أبحاثِ الفضاءِ، نـزل فِي غوَّاصَةٍ مِنْ أَجْلِ اكتشافِ أعماقِ المحيطاتِ، فَقَالَ: إن الرأيَ الغالبَ كَانَ عندَ العلماءِ قبلَ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ أنَّ باطنَ المحيطاتِ والبحارِ ساكنٌ تمامًا، قَالَ: وإذا بِنَا نُفَاجَأ أنَّ فِي قاعِ المحيـطاتِ أمواجًا، والأمواج الَّتِي عَلَى السَّطْحِ لا تُـذْكَرُ أمامَ تِلك الأمواج مِـن شِدَّتِها وعَظَمَتِها، فالآن كلمة ﴿فَوْقِهِۦ﴾ لم يَعُدْ هناك مُبَرِّر لتأويلِها، وإنما (فوق) أي هناك موجٌ فِي الأسفلِ يَعْلوه مَوْج فِي الأعلَى، فوجود الظاهرةِ الكونيَّة العلميَّة يُساعِد عَلَى تَوْجيهِ المعنى فِي اتجاهٍ معيَّن بدونِ تَعَسُّفٍ فِي المعنى، فحَتَّى الأمواج الظاهريَّة الَّتِي عَلَى سطحِ البحرِ يَكُونُ الموجُ قليلَ الارتفاعِ ثم يأتِي موجٌ أكبرُ منه.

عَلَى كلِّ حالٍ الآيةُ تَحتمِل ثلاثةَ معانٍ:

- المعنَى الَّذِي ذَكَرَهُ كثيرٌ من المفسِّرين.

- والمعنى الَّذِي ذَكَرْناه.

- والمعنى الثالثُ: أَيْضًا رجلٌ عِراقيٌّ فِي كتابٍ اسْمُه: (حقائق جُغْرَافِيَّة)، ذكر هَذَا المعنَى الَّذِي أشرنا إليه. والمعنى الثالث إذا كانت الآيةُ تَحْتَمِله، وَهِيَ هَذِهِ الأنهارُ الَّتِي تـكون فِي وسـطِ المحيطاتِ، وسَمِعنا النقـاش الآن فِي كلمةِ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ وما تَحْتَـمِلُه، وإذا كانت هناك طَبَقَة عند اختـلاطِهما تكون بَيْنَ الحُلْو وبينَ المَالِح أمكنَ أنْ يقالَ: هَذَا بَرْزَخٌ، عَلَى ثِقَلٍ؛ لِأَنَّ ظاهِرَه أنَّ البَرْزَخَ هو المانِعُ، فيُمْكِن أنْ يقالَ: هو مانِعٌ منْ أنْ يَختَلِطَا لأجلِ المقاربةِ.

على كلِّ حالٍ هَذِهِ البَيْنِيَّة في كَلِمَةِ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ تَقْتَضِي أن هناك شيئًا ثالثًا، لا من هَذَا ولا من هذا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: البحَّارة يجدون عُيُونًا فِي البحرِ حُلوةً، ما صِحَّة هذا؟

نقول: سمِعنا هذا، أن العينَ تَخْرُجُ من قاعِ البحرِ، لَكِنْ تَختلِط بعد ذلك، وهم يأخذون من نفس العين، لكِن هَذَا الَّذِي ذَكَرُوه أنَّ أنهارًا فِي وَسَطِ الماءِ هَذَا غريبٌ.

الآن -الحمدُ لله- صارَ فِي الآية ثلاثةُ معانٍ، ويبقى المعنى الثالثُ مُحْتَمَلًا من جهةِ البينيَّة، وإذا صحَّ نقول: إِنَّهُ عند مُلَاقَاتِهِمَا لا بدَّ أنْ يَكُونَ بينَهما برزخٌ، لَيْسَ حُلْوًا ولا مالحًا، واللهُ أَعْلَمُ.

والحقيقة أن كونه لا يَختَلِطُ عندَ المَصَبِّ هَذَا لَيْسَ بواضِحٍ، أنا لَيْسَ عندي شكٌّ فِي المعنَى الَّذِي أشرتُ إليه سابقًا أن هَذَا من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهذا الحاجز طبيعيٌّ،

ولو قربا من بعضهما فلا يفسد المعنى، هَذَا لَيْسَ عندي فِيهِ شكٌّ، لكِن الَّذِي عندنا فِيهِ شكٌّ قد يوجد احْتِمال أن هَذَا الفاصلَ الَّذِي ذَكَرْناه يَصِحُّ أنْ نَجْعَلَه بَرْزَخا؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقة لَيْسَ منَ المالحِ وليسَ من العَذْبِ.

على كلِّ حالٍ الآيَةُ فِيهَا احْتِمالٌ، ويمكن أنْ نقولَ أَيْضًا: إن الفاصلَ هَذَا الَّذِي يَكُونُ لَيْسَ بِحُلْوٍ ولا مُرٍّ، إنه: حِجْرًا مَحْجُورًا، واللهُ أَعْلَمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿بَرْزَخًا﴾ ثم قال: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أليسَ معناهما وَاحِدًا؟

فالجوابُ: لَا، الْفَائِدَة التقويَة، حَتَّى قوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فِيهِ فائدة، والمعنى أَنَّهُ مُحْكَمٌ حَجَرُه.

الآيــة (٥٤)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤].

من كمالِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ خَلَقَ من الماءِ بَشَرًا وقسمه إِلَى قسمينِ، هما: النَّسَب، والصِّهر أي الزوجية، وقُلْنا: إن هَذِهِ أسباب الصِّلَة بَيْنَ النَّاسِ؛ إمَّا صلة بالوِلادة؛ النَّسَب، أو بالنِّكاح وهو المصاهَرَة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قادرًا عَلَى ما يشاءُ]، نحن نناقش المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تفسيرِ قَدِير بقادِر، وَفِي تقييد المطلَقِ بما يشاءُ:

أوَّلًا: أمَّا تفسيرُ قَدِيرِ بقادِرٍ فهذا يُعْتَبَرُ نقصًا فِي التفسيرِ؛ وذلك لأنَّ ﴿قَدِيرًا﴾ إمَّا أنْ تكونَ صفةً مُشَبَّهَةً، وإمَّا أنْ تكونَ صيغةَ مبالَغَةٍ، أمَّا قادِر فهي اسْمُ فاعلٍ مجَرَّد، لا تدلّ عَلَى ما تدل عليه الصِّفةُ المشبَّهة، ولا عَلَى ما تدلُّ عليه صيغة المبالغةِ، فهذا نوعٌ مِنَ القُصُور فِي تفسيرِ القُرْآنِ.

ثانيًا: إنَّ القُرْآن مطلَقٌ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، وهنا قيَّده بقوله: [على ما يشاء] وكلمة (على ما يشاء) نحن نعرِف أن من النَّاسِ من يَكُون هَذَا القيد عنده دالًّا عَلَى بدعةٍ ارتكبها؛ لِأَنَّ القَدَرِيَّة يَقُولُونَ: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَقدِر إِلَّا عَلَى ما يشاء، وإنَّه لا يشاء أفعالَ العبادِ، وعلى هَذَا فلا يَكُونُ قادرًا عليها، ولَا شَكَّ أنَّ هَذَا قولٌ تُبْطِلُه

النصوصُ والعقلُ، فالله هو الَّذِي يَهْدِي ويُضِلّ، وما معنى الهِدايَة والإضلال إِلَّا أَنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يفعل ما يشاءُ حَتَّى فيما يَتَعَلَّق بأفعالِ العبدِ، لهذا نرى أن تقييدَ القُدْرَةِ بالمشيئةِ لا يَنبغِي ولا يَلِيقُ للوجوهِ الآتيةِ:

أولًا: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أطلقَ هَذَا الوصفَ لنفسِهِ بدونِ قَيْدٍ، ولا يَنْبَغِي لنا أنْ نُقَيِّدَ ما أَطْلَقَهُ اللهُ؛ لأنَّ صِفَاتِ اللهِ تَوْقِيفِيَّة يُتوقف فِيهَا عَلَى ما وَرَدَ.

ثانيًا: أَنَّهُ خِلاف طَرِيقةِ الرَّسولِ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ وأصحابِهِ، بل طَريقة الرُّسُلِ كلِّهِـم؛ لأَنَّهُمْ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨]، لا يَقُولُونَ: إنَّكَ عَلَى ما تَشاءُ قَدِير، بل يَقُولُونَ: إنك عَلَى كلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

ثالثًا: أَنَّهُ يُوهِم أن القُدرةَ تَتَعَلَّقُ بما يشاءُ فقطْ، وعلى هَذَا فيَكُونُ ما لا يشاؤه لَيْسَ بمقدورٍ عليه، وهذا معنًى باطلٌ، فَهُوَ قادرٌ عَلَى ما يشاءُ وعلى ما لا يشاءُ، لَكِنَّ ما شاء كَانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، فَهُوَ قادرٌ عَلَى الأمرينِ جميعًا، لَيْسَ عَلَى ما يشاءُ فقطْ.

مِنْ أجلِ هَذِهِ الوجوهِ الثَّلاثَةِ نَرَى أنَّ التعبيرَ بِهَا لا يَنْبَغِي، وأنه مِمَّا يُرْشَدُ إليه العبـدُ ويقالُ لهُ: لا تَقُلْ هكذا، لا تقيِّـد ما أَطْلَقَهُ اللهُ لنفسِهِ، عَلَى أساسِ أنَّ الَّذِي يَقُولُه لا يريدُ هَذَا المعنى، نقولُ: يُرْشَدُ ويقالُ: هَذَا لا يَنبغِي.

وَإِذَا قِيلَ: ما الجمعُ، أو ما هو الجوابُ عن قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، فهنا قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، ونحن نَمنَع تعليقَ القُدْرَةِ بالمشيئةِ؟

فالجواب: أنَّ تقيـيدَ المشيئةِ بالجمعِ؛ لِأَنَّ الجمعَ فعـلٌ، وهذا الفعـل يُنْكِرُه الكفَّار المكذِّبونَ بالبعثِ، فيقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: إنَّ المانعَ مِن ذلكَ لَيْسَ العَجْز،

ولَكِنَّه عَدَمُ المشيئةِ، فإذا شاء أنْ يَجْمَعَهُم جَمَعَهم، خِلافًا لِمَن يُنكِرون ذلكَ، لِمَن يَقُولُونَ: إِنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْمَعَهُمْ، فيَكُون التقييد هنا بالفعلِ، أي أن تقييدَ المشيئةِ عائدٌ عَلَى الفعلِ، لا عَلَى القُدرة، فَهُوَ قادر عَلَى جَمْعِهم كلَّ وقتٍ، لَكِنَّه لَمَّا كَانَ عَزَّوَجَلَّ لا يريد أنْ يَجْمَعَهُمْ إِلَّا فِي وقتٍ معيَّن ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ مؤقَّت ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، كل الدُّنْيا أَجَل مَعْدُود، ناهيك عن قِصَرِها مهما طالتْ.

فنقول: إن هَذَا عائدٌ عَلَى الجمعِ، وهو فِعْل، فكأنَّ اللهَ يقولُ: إِنَّهُ إذا أرادَ هَذَا الفعلَ فَهُوَ قادرٌ عليه، فعلى هَذَا لا يرد ما ذُكِرَ فِي سابقا ولا ما جاءَ فِي الآيةِ الكَريمةِ مِنْ تَقييدٍ بالمشيئةِ؛ لأنَّ هَذَا التقييدَ عائدٌ عَلَى الفِعلِ، وَلَمْ يُرد بِهِ الصِّفةُ المطلقةُ: صفةُ القُدرة، وهو ظاهر جِدًّا بالنسبة للحديثِ؛ لِأَنَّهُ قال: «عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1].

إِذَن نَرْجِع إِلَى كَلامِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فنقول: كَلام المُفَسِّر فِيهِ نظرٌ من وجهينِ: الوجهُ الأَوَّلُ: تفسير القديرِ بالقادرِ، والثَّاني: تَقْيِيد ذَلِكَ بالمشيئةِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

الآية (٥٥)

• ● ● •

❁ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان:٥٥].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي الكفَّار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ بعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ بِتَرْكِها، وهو الأصنامُ]، والمراد بالجُملة هنا التوبيخُ واللَّوْمُ وإقامة الحُجَّة عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعبُدون من دونِ الله مَنْ هَذَا وَصْفُه؛ ما لا يَنْفَعُهُمْ إذا عَبَدُوه، ولا يَضُرُّهم إذا عَصَوْه، وقد قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي سورة الأَحْقَافِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، يَعْنِي لو ظَلَّ يدعو هَذَا الصنمَ إِلَى يوم القيامةِ ما استجابَ له، هل أحدٌ أضلّ من هذا؟ لا يوجد أحدٌ أضلّ من هَذَا أبدًا، إنْسَان يحاوِل أن يَنْفَعَهُ الصنمُ أو يَضُرّه، ويبقى يدعوه إِلَى يومِ القيامةِ وما استجاب له، فهَذَا من أبلغ ما يَكُونُ فِي الضلالِ.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ فِيهَا إظهارٌ فِي مَقامِ الإضمارِ، قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ السياق يَقتضي أن يقول: وكانوا عَلَى ربِّهم، لكِن قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ إشارة إِلَى أن هَذِهِ العِبَادَة أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى الكفرِ، وأيضًا لفائدةِ التعميمِ، يَعْنِي أَنَّ كل كافرٍ، حَتَّى ولو كَانَ بغيرِ العِبَادَةِ، يَعْنِي بغيرِ الشركِ، حَتَّى الْإِنْسَان الدَّهْرِيّ الَّذِي لا يعبدُ شيئًا أبدًا، فَهُوَ ظَهيرٌ عَلَى ربِّه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا للشيطانِ بطاعتِه]، أي بطاعةِ الشيطانِ، فالكافرُ عَلَى ربِّه ظَهير: مُعِين عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا لله، ومُعِينٌ عليه لا له يَعْنِي حربًا عَلَى اللهِ، فالكافرُ كلَّما وجدَ عدوًّا لله أعانَهُ عَلَى ربِّه، وهذا كما أَنَّهُ مِثْلما قَالَ الْمُفَسِّر: إِنَّهُ يُعين الشيطانَ عَلَى معصيةِ اللهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعصي اللهَ مُعين للشيطانِ فِي تَمَرُّدِهِ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو أَيْضًا يَشْمَل مَنِ اتَّصفَ بِهَذَا الوصفِ من غيرِ الكفَّارِ، فكلُّ مَن أعان عَلَى باطلٍ فَإِنَّهُ مُعينٌ عَلَى اللهِ، كلُّ إِنْسَانٍ يُعين أحدًا فِي باطلٍ فَإِنَّهُ ظَهير عَلَى ربِّه؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى هو الحقُّ، وهو يريد الحقَّ، فإذا أعنتَ صاحبَ باطلٍ عَلَى صاحبِ الحقِّ فإنك مُعينٌ عَلَى اللهِ؛ لِأَنَّ معنى الظَّهير: المُعِين، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، يَعْنِي مُعِينًا، فالكافرُ دائمًا يُعينُ عَلَى اللهِ، وكلُّ مَن أعانَ فِي باطلٍ عَلَى حقٍّ فَإِنَّهُ مُعِينٌ عَلَى اللهِ، يَعْنِي معينًا للباطلِ عَلَى الحقِّ؛ لأنَّ اللهَ هو الحقُّ، وهو يحبُّ الحقَّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كل عاصٍ حالَ مَعْصِيَتِهِ فَهُوَ مُعِينٌ عَلَى اللهِ بِمَعْصِيَتِه، فلماذا خصَّه فِي الآيةِ بالكافرِ؟

صحيحٌ، لَكِنَّه قَالَ هنا: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ لِأَنَّهُ يتحدث عمَّن يعبدون معَ اللهِ.

مناسبةُ الجملةِ هَذِهِ للتي قبلها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يَعْنِي كأنه جعَلَ هَذَا الصنمَ نِدًّا لله يَعْبُدُه كما يعبد الله، ومعلومٌ أنَّ الصنمَ ضِدّ ما جاءتْ بِهِ الرُّسُلُ، فيَكُون نُصْرَة هَذَا الصنمِ عونًا عَلَى اللهِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٦)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان:٥٦].

• ● ● •

لَمَّا عاب عَلَى هَؤُلَاءِ ما يَتعلَّق بتحقيقِ التَّوحِيدِ، وَهُو عبادةُ غيرِ اللهِ، انتقلَ بعد ذلكَ إِلَى تحقيقِ الرِّسَالةِ؛ لِأَنَّ الإسلامَ شهادةُ أنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأن مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، فتحقيقُ العِبَادَةِ أتى بلومِهم عَلَى عبادةِ غيرِ اللهِ، ثم جاء تحقيقُ الرِّسَالةِ؛ قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنَّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ مخوِّفًا مِنَ النارِ].

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا﴾ (إلَّا) للاستثناءِ لِأَعَمّ الأحوالِ، يَعْنِي ما حالُك فِي الرِّسَالة إِلَّا هذينِ الأمرينِ، وهما البِشارة والإنذار، والبشارة للمؤمنينَ بالجنةِ، والدليل عَلَى هَذَا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي سورة الكَهْفِ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الكهف:٢-٥]، وقد سبقَ أنَّ النذيرَ بمعنى المخبِرِ بما يُخوِّف، إذَنْ وصفُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنسبةِ لِمَا يتعلق بالرِّسَالةِ هذانِ الأمرانِ فقطْ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أليسَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معلِّمًا يُعلِّمُ النَّاسَ الأحكامَ، كيف يَكُون هَذَا الاستثناء من أعمِّ الأحوالِ؛ لأننا قُلْنَا: إن هَذَا مُسْتَثْنَى من أعمِّ الأحوالِ،

يَعْنِي ما حالـه إِلَّا هَذَا، هل نقـولُ: إنَّ هَذَا التعليمَ من وسـائلِ الإنذارِ والبِشارةِ، أو نقولُ: إنَّ هَذَا الحَصْرَ إضافيٌّ؟

نقول: كَلامُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا يُخْبِر النَّاس ويُعَلِّمُهم بدونِ أنْ يَحُثَّهُمْ، أو يُرَغِّبُهم أو يُخَوِّفهم كما هو معروفٌ، وأحيانًا يخوِّف ويُنْذِر عَلَى سبيلِ العمومِ، وأحيانًا يخوِّف ويُنْذِر عَلَى المخالفةِ فِي هَذَا الأمرِ المعيَّن، فنقولُ فِي الجوابِ عَن هَذَا: إِنَّ تعليمَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو من وسائلِ أو من طُرُقِ ما يَحْصُلُ بِهِ المُبَشَّرُ بِهِ، أو ما يَحْصُلُ بِهِ المُنْذَرُ بِهِ، فعندما يأمرنا بشَيْءٍ معنى ذلك أننا إذا فَعَلْنَاه وَصَلْنَا إِلَى ما بَشَّرَ بِهِ، وعندما يَنهانا عن شَيْءٍ فمعناهُ أَنَّنا إذا وَقَعْنَا فِيهِ وَقَعْنَا فيما أنذر بِهِ ﷺ. وهذا أحسـنُ مِن أنْ يُقـالَ: إنَّ الحصرَ إضافيٌّ؛ لأَنَّكَ إذا قلـتَ: إن الحصرَ إضافيٌّ أخرجـتَ الكَلامَ عن حقيقتِه، وإذا قلتَ: إنَّ هَذَا مِنَ اللَّوَازِمِ بَقِيَ عَلَى حقيـقتِه، ولَكِن يَكُون دالًّا عَلَى هَذَا الشَيْءِ بالمَلْزُومِ.

• • ۞ • •

الآية (٥٧)

• ● ⁂ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٥٧].

• ● ⁂ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أيْ عَلَى تَبليغِ ما أُرْسِلْتُ بِهِ من أجـرٍ ﴿إِلَّا﴾، لكِنْ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا بإنفـاقِ مالِـه فِي مَرضاتِهِ تَعَالَى، فلا أَمْنَعُه من ذلكَ].

قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ معروفٌ أنَّ (ما) نافية، وأن (مِنْ) فِي قوله: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ زائدة إعرابًا، لا معنًى، ولهذا يعبِّر عنها بعضُ العلماءِ بقولِه: صلة؛ تَحَرُّزًا من أنْ يقول: إنها زائدةٌ، وَفِي الحقيقةِ إذا فُهِمَ المعنَى زالَ الإِشْكالُ، ما دُمنا نقول: إنها زائـدةٌ إعرابًا فلا حرجَ علينا فِي ذلكَ، أمَّا معنًى فليستْ بزائدةٍ، فائدتها التنصيصُ عَلَى العمومِ؛ لِأَنَّ (أجر) نَكِرة فِي سياقِ النفيِ، وهذا مِن صِيَغِ العمومِ، لكِن عندما تَدْخُل عَلَيْهَا (مِن) تكون أدلَّ وأنصَّ عَلَى العمومِ، فلو قال: (ما أَسْئَلُكم عليه أجرًا) فإنَّ هذا صحيحٌ أَنَّهُ لا يوجدُ أجرٌ أبدًا، لكِن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ كأنك تُشعِر أَنَّهُ لا يوجد أجرٌ لا قليلٌ ولا كثيرٌ، ففائدتها إذَنِ التنصيصُ عَلَى العمومِ.

وقوله: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ إذا قُلْنا: إن (مِنْ) زائدة إعرابًا فكيف نُعرِب (أجرٍ)؟ نقولُ: (من) حرف جرٍّ زائدٌ إعرابًا، و(أجر) مَفْعُولٌ ثانٍ لـ(أسأل)، منصوب بفتحةٍ مقدَّرة

عَلَى آخِرِهِ، مَنَعَ من ظُهورِها اشتغالُ المَحَلّ بحركةِ حرفِ الجرِّ الزائدِ، هَذَا إعرابها عندَهم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضهم يقولُ: منصوبٌ محَلًّا مجرورٌ لفظًا؟

هَذَا فِي الحقيقة فِيهِ احْتِمَالٌ، يَعْنِي أن محلَّها منصوب، لكِن هَذَا إِنَّمَا يَكُون فِي المَبْنِيَّات، فيوجد احْتِمَال أن تقولَ: (أجر) مَفْعُول بِهِ منصوب وحُرِّك بالكسرِ لِمناسبةِ حرفِ الجرِّ، والمسألة كلُّها اعتباريَّة، المهم أن نعرفَ أن الفعلَ الآنَ مسلَّط عَلَى (أجر) مباشرةً، لَيْسَ بواسطةِ حرفِ جرٍّ؛ لأنَّ هَذَا الحرف من حيثُ الإعرابُ زائدٌ، لكِن من حيثُ المعنَى له فائدةٌ كبيرةٌ، والله الموفِّقُ.

الآية (٥٨)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: وجوبُ التوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبيَّنَّا أن مَرْتَبَتَهُ من الدينِ نصف الدين؛ لِأَنَّ الله يأمُر بالعِبَادَةِ والتوكُّل.

الْفَائِدَة الثَّانية: كمال الله عَزَّوَجَلَّ وانتفاءُ النقصِ عنه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ لأنَّ التسبيحَ تَنْزِيهٌ، والحمدَ إثباتُ كمالٍ.

الْفَائِدَة الثالثةُ: إثباتُ العِلمِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

الآيـة (٥٩)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وعندي مكتوبٌ فِي نسختي قبل قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [هو]، ومكتوبةٌ داخل القوس ومشكولة أَيْضًا، وهذا لَيْسَ بصحيح، فـ(هو) ليستْ منَ القُرْآنِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾]، قدَّر المُفَسِّر هَذَا المبتدأ لِيَجْعَلَ الجملةَ مستأنَفةً منفصِلة عمَّا قبلَها من حيثُ الإعرابُ، مع أَنَّهُ يجوزُ فِيهَا وجهٌ آخرُ؛ أنْ تكونَ صفةً لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، يَعْنِي: وتوكَّلْ عَلَى الحيِّ الَّذِي لا يموتُ الَّذِي خلقَ السَّمواتِ والْأَرْض، فيكُون فِي قوله: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ بيانٌ لصفتِه الذَّاتيَّة، وَفِي قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بيانٌ لصفتِه الفعليَّة، وبهذا يَتَحقَّق أنْ يَكُونَ عَزَّوَجَلَّ أهلًا للاعتمادِ والتوكُّل؛ لِأَنَّ مَن هَذَا وَصْفُه وهذا فِعْلُه جَديرٌ بأنْ يُخَصَّ بالتوكُّلِ، أمَّا عَلَى ما ذهبَ إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَهُوَ يجعَل الجملةَ مستأنَفةً، وَهِيَ أَيْضًا وإنْ كانتْ مستأنفةً من حيثُ الإعرابُ؛ فإنها مِن حيثُ المعنى متَّصِلَة بها قبلها، تدلُّ عَلَى كمالِ قُدرتِه، وأنه جَديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّل، تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أَوجَـدَهَا، وإنما يُسَمَّى الإيجادُ خَلقًا إذا كَانَ

مسبوقًا بتقديرٍ؛ لِأَنَّ أصلَ الخَلْقِ التقديرُ، لَكِنَّه يُطلَق عليه وعلى الفعلِ، فإذا أُطلق الخَلْقُ عَلَى الفعلِ صارَ معناهُ أَنَّهُ فِعْلٌ بتقدير، فيكُون الإحكامُ سابقًا، ثم الفعلُ عَلَى مِنهاج ذلك الإحكامِ، فَخلَقها مُحكَمَةً، ومَن تَدبَّرها وتأمَّلَها وجدَ فِيهَا غايةَ الإحكامِ.

قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وممَّا نراه مما بينهما الشَّمْس والْقَمَر والنجوم، وغير ذلك؛ لأنَّ القَوْلَ بأن هَذِهِ فِي نفس السَّموات لَيْسَ عليه دليلٌ من الكِتَابِ ولا من السُّنةِ، وإنما ظاهر القُرْآنِ يَدُلّ عَلَى أنها فِي فَلَكٍ بَيْنَ السَّماءِ والْأَرْضِ، والواقعُ يَشْهَدُ لذلك أَيْضًا، فإنهم وَصَلُوا إِلَى الْقَمَرِ، ولو كَانَ فِي نفسِ السَّماءِ ما وصلوا إليه؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:٣٢]، فإذا كانت السَّماءُ محفوظةً حَتَّى عن أشرفِ الرُّسُلِ وأشرفِ الملائكةِ إِلَّا باستئذانٍ، فمَن دونَهم من باب أَوْلَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح:١٥-١٦]، ما معنى قولِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾؟

الجواب: يَعْنِي فِي جِهَتِهِنّ، يَعْنِي ليستْ مظروفاتٍ له، والمظروف الجهة، كما سيأتينا إنْ شاء اللهُ فِي قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان:٦١]، نفس الشَّيْء.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من أيامِ الدُّنيا، أي فِي قَدْرِها؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ ثَمَّ شمس، ولوْ شاءَ لَخلَقهُنَّ فِي لَمحَةٍ، والعدول عنه لتعليمِ خَلقِه التثبُّت]، العدول: عَدَلَ يَعدِل عَدْلًا وعُدُولًا، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في ستةِ أيامٍ من أيام الدُّنْيا] هَذَا هو القَوْل المشهـورُ، وهو الراجِـحُ، وَأَمَّا مَن قَالَ: فِي ستَّـة أيامٍ من أيامِ الآخِرةِ، وإن اليومَ كألفِ سنةٍ، أو من قَالَ: إن المرادَ بالأيامِ مطلَق الزمنِ، أي فِي لحظاتٍ، فكَذَلِك أَيْضًا قول مرجوحٌ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ إِنَّما يخاطِب النَّاسَ بما يَعرِفونَ،

فالصحيحُ أن المرادَ سِتَّة أيامٍ من أيامِ الدُّنْيا كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أوَّلها يومُ الأَحَد، وآخِرها يوم الجُمُعة، فَإِنَّهُ بِهِ تم خَلْق السَّموات والْأَرْض وخُلِق آدمُ فِي آخِرِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنصِّ القُرْآنِ بأنَّ اليومَ عندَه كألفِ سنةٍ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، ألا يُرَجِّح هَذَا قولَ مَن قَالَ: إنها من أيامِ الآخِرَةِ؟

الخَلْق نفسُه من صفاتِ اللهِ، لكِن الأَيَّام الَّتِي أضافَ اللهُ الخَلْقَ إليها وجعلَه فِي هَذِهِ الأيامِ معلومة لنا، وَأَمَّا قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ قال: ﴿يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ لا نَدري عنه يومًا وَاحِدًا أو أَيَّامًا، حَتَّى ﴿يَوْمًا﴾ قد يقول قائل: إِنَّهُ يومٌ معيَّن عند الله كألفِ سنةٍ، لو قال: (وإن اليوم عند ربك) وأتى بـ(أل) الجِنسِيَّة فيُمْكِن أنْ يُقالَ، فالأقربُ هو هَذَا واللهُ أَعْلَمُ، حَتَّى المسألة ليستْ هي بالأمرِ اليقينِ، لكِن الَّذِي يَتَرَجَّح حَسَبَ مُقْتَضَى اللفظِ العربيّ، وأننا خُوطِبنا باللفظِ العربيّ، وأن الأَصْلَ حَمْلُ اللفظِ عَلَى ما دلتْ عليه اللغةُ إِلَّا بدليلٍ، فهَذَا الأَصْلُ، والواجبُ أنَّ القُرْآنَ تكونُ دِلالتُه بِمُقْتَضَى اللغةِ العربيَّةِ ما لم يوجدْ دليلٌ يَصْرِفُه.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي فِي قَدْرِها؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ ثَمَّ شَمْس] وتقدير الأيام بالشَّمْسِ، والشَّمْسُ غيرُ موجودةٍ حين الخَلْقِ؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ إِنَّما خُلِقَتْ بعدَ ذلك؛ لقولِه تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢]، بعدما خَلَقَها أوحَى فِيهَا أمرَها، وهذا يَشْمَل كلَّ ما يَتَعَلَّق بالسَّماءِ، فعلى هَذَا يَكُونُ المرادُ بقولِه: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي فِي قَدْرِ هَذِهِ الأَيَّام الستَّة.

ثم أَوْرَدَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوابًا عن سؤالٍ يَفْرِضُه الذِّهنُ، وهو أنْ يقولَ قائلٌ: لماذا لم يَخْلُقْهُنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بكلمةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ

كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، يَكُون عَلَى مرادِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ بأنه فَعَلَ ذلك لتعليم خَلْقِه التثبُّتَ، هَذَا ما جَرَى عليه أهلُ العلمِ؛ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا خَلَقَها فِي ستَّةِ أيامٍ لِيُبَيِّنَ للعبادِ أنَّ المقصودَ الإحكامُ، لا الإسراعُ، فيَتَثَبَّت النَّاس فيما يَفعلُون، حَتَّى فيما قَدِروا عليه، فَإِنَّهُ يَنبغي أَنْ يُلاحِظوا فِيهِ الإحكامَ دونَ الإسراعِ فِي تنفيذِه.

ورأيتُ كَلامًا لبعضِهم حَسَنًا؛ قَالَ: إن خلق السَّمواتِ والْأَرْضِ له أسبابٌ، وهو عبارة عن تكوينٍ، والتكوينُ هَذَا يَحتاجُ إِلَى مدَّةٍ، مثلَما يَنْشَأ الجَنين فِي بطنِ أُمِّه شيئًا فشيئًا فِي مدَّةٍ، كَذَلِك هَذَا الخَلْقُ له أسبابٌ كَوَّنَتْه، هَذِهِ الأَسْبابُ كانتْ فِي هَذِهِ المدَّة: فِي سِتَّة أيام، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِهَذَا القَوْلِ يرجِّحون القَوْلَ بأن المرادَ بالأيامِ أيامُ الآخِرة الطويلةِ، حَتَّى تكون التطورات الَّتِي أَدَّتْ إِلَى الكمالِ مناسبةً، وعندي أن هَذَا لَيْسَ بلازمٍ؛ لِأَنَّ اللهَ قادِرٌ عَلَى أَنْ يَجعَلَ هَـذِهِ الأَسْبابَ الَّتِي مِن شأنِها أَنْ تَمْتَدَّ لِعِظَمِ المخلوقِ أَنْ يَكُونَ ذلكَ بِهَذِهِ السرعةِ، واللهُ أَعْلَمُ.

وإنما التعليلَ الأخيرَ يَكُونُ معناه سَبَب تأخُّرِها، وأنها لم تَنْتَهِ إِلَّا فِي سِتَّةٍ؛ لِأَنَّها تَحتاجُ إِلَى تَطَوُّرات، هَذِهِ التطوراتُ شيئًا فشيئًا حَتَّى تَنتهِيَ إِلَى الكمالِ، كما هو معروفٌ فيما نُشاهِد مِمَّا يَخلُقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من غيرِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، نجد أن هَذِهِ المخلوقات لا تأتي دَفْعَةً، وإنما لها أسباب وأحوال تَتَطَوَّر إليها، حَتَّى تَصِلَ إِلَى درجةِ الكمالِ.

قولـه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ هَذِهِ هـل هي للترتيـبِ الذِّكري أو المعنويّ؟ المعنويّ؛ لِأَنَّ هَذَا هو الأَصْلُ أنها للترتيبِ المعنويّ، لا للترتيب الذكريِّ، والفرقُ بينهما أَنَّهُ فِي الترتيبِ الذكريِّ لا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ ما بعدَها متأخِّرًا عمَّا قبلها،

بل قد يَكُون قبله ولَكِنَّه ذُكِرَ بعده، هَذَا يُسمِّيه العلماء الترتيب الذكريّ، ولَكِنَّهم لا يَلْجَئُون إليه إِلَّا عندَ الضرورةِ، إذا لم يُمْكِنِ الترتيبُ المعنويُّ قالوا: هو ترتيبٌ ذِكْرِيٌّ، وأنشدوا عليه البيتَ المشهورَ الَّذِي لا أعلمُ قائِلَه، وهو[1]:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ بَعْدَ ذَلِكَ جَدُّهُ

قالوا: إنَّ هَذَا من بابِ الترتيبِ الذكريِّ؛ لِأَنَّ سِيادةَ الجدِّ متقدِّمةٌ عَلَى سيادةِ الأبِ، وسيادةَ الأبِ متقدِّمَةٌ عَلَى سيادةِ الِابْنِ، هَذَا هو المعروفُ والمعهودُ، وإن كَانَ قد يَكُونُ الأمرُ بالعكسِ؛ قد يَسُودُ الحفيدُ وبسيادتِهِ يسودُ أبوه ثم يسود جدُّه، لكِن المعروف بالعكسِ.

عَلَى كلِّ حالٍ هَذَا الترتيبُ فِي الآيةِ ترتيبٌ معنويٌّ؛ لِأَنَّهُ الأَصْل، ولا يُلْجأُ إِلَى الأوَّلِ إِلَّا عند الضرورةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ يَعْنِي عَلَا عَلَى العرشِ، وهذا العلوُّ عُلُوٌّ خاصٌّ، لَيْسَ كالعلوِّ عَلَى سائرِ المخلوقاتِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ عَلَى جميعِ المخلوقاتِ علوًّا مُطلَقًا، لكِن هَذَا العلوّ عَلَى العرشِ علوٌّ خاصٌّ، وأنه من الصِّفاتِ الفعليَّة، وأن أهلَ السنَّة والجماعَة يؤمنون بذلكَ عَلَى الوجهِ الَّذِي يَليق باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يُكَيِّفُونَ ولا يُحاوِلونَ أنْ يُكَيِّفوا أَيْضًا؛ لأنَّ ذلكَ أمرٌ مُستحيلٌ، وهو يدلُّ عَلَى كمالِ العالي؛ لِأَنَّ هَذِهِ المادة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ تدلّ عَلَى الكمالِ مِن حيثُ هي، تقول: استوَى الثَّمرُ بمعنى كَمُلَ نُضْجُه، وتقولُ: استوى الرجلُ بمعنى كَمُلَ عقلًا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، هنا إذا تَعدَّتْ بـ(على) صارتْ دالَّةً عَلَى العلوِّ، لكِن متضمِّنة للكمالِ، فعلى هَذَا يَكُونُ (استوى) بمعنى عَلَا علوًّا خاصًّا عَلَى وجهِ الكمالِ.

(١) من شواهد مغني اللبيب (ص١٥٩). وانظر الجنى الداني (ص٤٢٦).

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هو فِي اللُّغَةِ سَرِيرُ المَلِك]، هَذَا العرش، يَعْنِي لَيْسَ كلّ كرسيٍّ يُسَمَّى عَرْشًا، كرسيُّ المُعَلِّم لا نُسمِّيه عرشًا، لكِن الكُرْسِيّ الخاصّ بالمَلِك يُسَمَّى عرشًا، هَذَا هو الأَصْل فِي اللُّغة، قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن مَلِكَةِ سَبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، فِي قِصَّة يُوسُفَ، لكِن المراد بالعرش هنا ما هو أعظمُ من ذلكَ، هو عبارة عن هَذَا المخلوقِ العظيم الَّذِي وَسِعَ السَّمواتِ والْأَرْضَ والكُرْسيّ؛ لِأَنَّهُ جاء فِي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»، (حلْقة) يَعْنِي حَلْقة المِغْفَر، أو الدِّرع، وَهِيَ بالنسبةِ للفلاةِ لا شَيْء، «وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»[1]. إذَن ما يَعْلَم قَدْرَه إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

وَهُنَا مِنَ التَّعَمُّق والتَّنَطُّعِ أنْ نَبْحَثَ ونسأَل عن ماهيَّة هَذَا العرشِ، يَعْنِي من أيِّ شَيْءٍ هو؛ من ذهبٍ، من فضةٍ، من زَبَرْجَد، من كذا، وهَذَا وردتْ فِيهِ آثارٌ لَكِنَّها ليستْ بصحيحةٍ، وليست واردةً عن معصومٍ، ولا يَنبغِي أَيْضًا الخوضُ فِي ذلك؛ لأَنَّه ما لنا وله من أين مادته، المهمُّ أنْ نَعرِفَ عِظَمَ هَذَا العرشِ وأنه هو الَّذِي اسْتَوَى عليه الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بَدَل من ضمير (استوى)، أي استواء يَلِيق به]، قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يَعْنِي لا تَقُل: إن الرَّحمن فاعل (استوى)؛ لِأَنَّهُ سبقها ما يدل عَلَى رجوعِه إليه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فكَلام المُفَسِّر يقول: إِنَّهُ لا يُعْرَبُ عَلَى أَنَّهُ

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٥).

فاعل (استوى)؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ ما يَرجِع إليه الضميرُ فِي (استوى)، ولَكِن لا مانعَ من أنْ نَجْعَلَهُ فاعلًا عَلَى أن يَكُونَ إظهارًا فِي مَقامِ الإضمارِ، وإلَّا صحيحٌ أنَّ ظاهرَ السياقِ يَقتضي أن يَكُونَ (خلق السَّموات ثم استوى)، يَعْنِي (هو)؛ لِأَنَّ الفاعلَ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ، ويَكُون (الرَّحمن) بدلًا؛ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هَذَا وجهٌ، لَكِننا نقولُ: إِنَّهُ لَيْسَ بِمُتَعَيِّن؛ لجوازِ أنْ يَكُونَ (الرَّحمن) -كما تَقَدَّمَ- فاعلًا، عَلَى أَنَّهُ إظهار فِي مَقامِ الإضمارِ.

وذكروا فِيهِ أَيْضًا وَجْهًا ثالثًا، وهو أنْ يَكُونَ مبتدأً، وخبره ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، وأن يَكُونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوف تقديرُه: هو الرَّحمن، ولَكِن ما ذَهَبْنَا إليه أَوْلَى، ويَكُون فائدة الإضمار هنا بيان أن هَذَا الاستواءَ والعلوَّ الخاصَّ لَيْسَ كعُلُوِّ المُتَجبِّرِينَ المتكبِّرينَ، بل هو علوّ رَحْمَن واسع الرَّحمة؛ لأنَّ عادةَ البشرِ أو الملوكِ إذا اسْتَوُوا عَلَى عُرُوشِهم أنْ يَكُونَ لديهم فِي الغالبِ مِنَ الجَبَرُوت والعَظَمة ما يَتخيَّلُونه إذا استووا عَلَى عروشهم، ولَكِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع عُلُوِّهِ العظيمِ عَلَى عرشِه العظيمِ هو رحمنٌ واسِعُ الرَّحمةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

وقول المُفَسِّر: [أي استواء يَليق به] السؤال الأَوَّل عَلَى هَذِهِ الجملة: هل هَذِهِ الجملةُ تدلُّ عَلَى أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يحرف؟

أنا راجعتُ عِدَّة مواضع يقول: [استواء يليق به]، وفِي رأيي أنها فِي الحقيقةِ لا تُثبِت ولا تَنفي؛ لِأَنَّهُ ما ذَكَرَ إِلَّا صفةَ الاستواءِ فقطْ، يَعْنِي لم يَتعَرَّضْ إِلَّا لِأَنَّ صفة الاستواء تَلِيقُ بِهِ، لكِن معنى الاستواء ما تَكَلَّمَ عنه، لكِن فِي الحقيقةِ أَنَا أَرَى أن هَذَا يُومِئُ إِلَى مَذْهَبِ أهلِ السنَّة والجماعَةِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ يَرى أن ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولَى ما قَالَ: [استواء يليق بِهِ]؛ إذ لا يُمْكِن أنْ يَكُونَ المعنى استولَى

استيلاءً يَلِيق بِهِ، وإنما يَكُون مثل هَذَا التعبيرِ فيما إذا جُعل الاستواءُ صفةً، ليستْ صِفَة ملك، بل صِفَة فعل، فيقول: [استواء يليق بِهِ]، لكِن مع هَذَا لَيْسَ هَذَا التفسيرُ بكاملٍ، وكان عليه أن يقولَ: عَلَا عَلَى وجهٍ يَليق به.

وَلَوْ قِيلَ: إن المُفَسِّر يجمع بَيْنَ الرأيينِ؟

نقول: لا، لو أرادَ استوى بمعنى استولَى لصرَّحَ بِهِ، مثلما قَالَ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فسَّرَهَا بقولِه: جاءَ أمرُ رَبِّكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُؤَوِّلُ آياتِ العُلُوِّ، فكيف نُوَجِّه قولَه: [استواء يليق به]؟

على كلِّ حالٍ كَلامه هنا لا يدلُّ لا عَلَى إثباتٍ ولا عَلَى نفيٍ، لكِن فيما أَعتقِدُ أَنَّهُ يدل عَلَى التفسيرِ، بمعنى العلوِّ؛ لِأَنَّ الاستيلاءَ لا يُقال: إِنَّهُ استيلاء يَلِيق بِهِ، لا يُتَصَوَّر هَذَا، لو أراد استولَى لقالَ: استوى بمعنى استولَى، مثل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فقد فسَّره بقولِه: جاء أمرُ ربِّك، لكِن معَ ذلك ما فسَّرها كما يَنْبَغِي، وكان الَّذِي يَنبغي أن يقولَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلَا عليه علوًّا يَلِيق بِهِ، وأنا تَتَبَّعْتُ الَّتِي قبلها فِي مواضعَ وجدتُه يقول هَذَا، فأقول: إني استغربتُ هَذَا، معَ أَنَّــهُ هو لا يُقِرُّ بالعلوِّ الذَّاتِيِّ، وهذا من الغرائبِ، يَعْنِي تعتــبر طَريقة متناقضةً بالنسبةِ للمؤلِّف.

عَلَى كلِّ حال قوله: [استواء يليق به] معناه صحيحٌ، لكِن يحتاج إِلَى تكميلٍ، وهو أن يصرِّح ويوضِّح معنى الاستواء، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا عليه عَلَى وجهٍ يَليق به.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أليسَ اللهُ عاليًا عَلَى جميعِ المخلوقاتِ؟

فالجواب: بلى، لكِن هَذَا العلوّ علوٌّ خاصٌّ بالنسبة للعرشِ، وقد مرَّ فِي العقيدةِ، ولا حاجةَ إِلَى التكرارِ أن أهل التعطيلِ حَرَّفوا معنى الاستواءِ إِلَى معنى الاستيلاءِ، وبيَّنَّا هناك أن هَذَا التحريفَ باطلٌ من عدة أوجهٍ لُغَوِيَّة وشرعيَّة وعَقليَّة، وأنه يَلْزَم عَلَى هَذَا التفسيرِ لوازمُ باطلةٌ، لا تليق باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي المتَّصف بالرَّحمةِ، وَهِيَ إذا أُفردتْ عن الرَّحيم دلتْ عَلَى الصِّفةِ والفعلِ، والرَّحيم أَيْضًا إذا أُفردَتْ عنها دلَّ عَلَى الصِّفةِ والفعلِ، وإذا اقترنتا فُسِّر الرَّحمنُ بما يَتَعلَّق بالصِّفةِ، والرَّحيم بما يَتعلَّق بالفعلِ، فعلى هَذَا هنا انْفَرَدَت ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فتَشْمَل الصِّفةَ والفعلَ؛ لِأَنَّ (فَعِيل) تدلُّ عَلَى إيقاعِ الفعلِ، سميع بمعنى سمع الصوت، رحيم بمعنى رحم الخَلْق، والرَّحمن يُشْبِهُها كلمة غَضْبَان، يَعْنِي مُمتَلِئًا غَضبًا، كَذَلِكَ الرَّحمن يَعْنِي واسِع الرَّحمةِ، ولهذا فَسَّرَهُ بَعْضُ السلفِ بقولِه: الرَّحمن ذو الرَّحمةِ العامَّةِ، والرَّحيم بالمؤمنينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف الجمعُ بَيْنَ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيةِ الكُرسيّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وبين قولِه تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؟

الجواب: لا يوجدُ خلافٌ بينهما، فالكرسيُّ شاملٌ للسماواتِ والْأَرْضِ، يَعْنِي لِعِظَمِه وكِبَرِه يَكُون واسعًا لهما جميعًا، أي لكل السَّموات والْأَرْضِ، والعرش فوقَه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسْـَٔلْ﴾ أيُّها الْإِنْسَان ﴿بِهِۦ﴾ بالرَّحمنِ ﴿خَبِيرًا﴾ يُخْبِرُك بصفاتِه]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلَ الخطابَ فِي قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ﴾ لَيْسَ للرسولِ ﷺ بل لجميعِ مَن يَصِحُّ خِطابُه؛ لِأَنَّ الأَصْلَ أنَّ الخطابَ الَّذِي يُفْرَدُ فِي القُرْآنِ لجميعِ النَّاسِ، إِلَّا إذا دلّ الدليلُ عَلَى أَنَّهُ خاص بالرَّسولِ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ للجميعِ، فَهُوَ يخاطب الكلَّ ما لَمْ يدلَّ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ خاصٌّ بالرَّسولِ، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]،

هَذَا معروفٌ أَنَّهُ خاصٌّ بالرَّسولِ ﷺ، ومثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، صرَّح أَنَّهُ ينادي الرَّسولَ وحدَه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

﴿فَسْـَٔلْ﴾ أيُّها الإِنْسَان ﴿بِهِۦ﴾ بالرَّحمنِ ﴿خَبِيرًا﴾ يَعْنِي بذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِه وأحكامِه.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ قد يقول قائلٌ: إن المتبادَر أنْ يقولَ: اسأَلْ عنه خبيرًا؛ لِأَنَّ السؤالَ بمعنى الاستفهامِ يُعَدَّى بـ(عن)، فهل تقول: سألتُ بفلان أو عن فلان؟ تقول: سألتُ عن فلانٍ، فكيف نُجِيبُ عن التعديَةِ بـ(الباء)، مع أن المتبادر أن يتعدى بـ(عن)؟

الوجه الأول: أنْ تكونَ (الباء) بمعنى (عن)، وهذا واضحٌ: فاسأل عنه خبيرًا.

الوجه الثَّاني: أن تكونَ (الباء) مُتَعَلِّقَةً بمحذوف تقديره: معتنيًا أو مهتمًّا بِهِ، حال من الضمير المستترِ فِي قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾. وعندي أَيْضًا أَنَّهُ يوجد احْتِمَال أنَّ المعنى: فاسأَلْ تجب بِهِ خبيرًا، يَعْنِي كأَنَّه ضمَّن السؤالَ ما يَدُلُّ عَلَى الجوابِ، مثل ما قِيلَ فِي: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١]، سأل سائلٌ وأُجيبَ بعذابٍ واقعٍ، ويَكُون عُدِل عن (عن) بـ(الباء)؛ لِأَنَّ (عن) إِنَّمَا تدل عَلَى مجرَّد السؤال، و(الباء) تَدُلُّ عَلَى الإجابةِ أَيْضًا. وعلى كلِّ حالٍ فالمعنى أن الرَّحمنَ الَّذِي خلقَ السَّمواتِ والأَرْضَ واستوى عَلَى العرشِ اسْأَلْ عنه خبيرًا يُخْبِرُكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَصِحُّ أن يَكُون (به) متعلِّقًا بـ(خبيرًا)؟

نقول: صحيحٌ، إذا قُلْنَا: متعلقة بـ(خبيرًا) فواضح ولا نحتاج إِلَى أيِّ تقديراتٍ، يَعْنِي فاسأَلْ خبيرًا بِهِ يُخْبِركَ عنه، ويَكُون هَذَا وجهًا رابعًا، وهذا الوجهُ فِي الحقيقةِ عندي الآنَ أَنَّهُ أحسنُ الأوجهِ، وليس فِيهِ تكلُّفٌ، ويَكُون تقديمُه عليه لِمُرَاعَاةِ الفواصلِ، والأَصْلُ: فاسأل خَبيرًا به.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِنُ أنْ نَحْمِل معنى قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ عَلَى التعظيمِ؟

يُمْكِن أنْ تتضمن هَذَا بمعنى ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، يَعْنِي: اسأَلْ مَن هو مِن أعلمِ النَّاسِ خِبرةً بما يُخْبِرُكَ بِهِ معناهُ، إِنَّمَا أخبرناك بذلكَ ونحنُ أعلمُ مَن يُخبِرك بِهِ، فكأنه من بابِ التعظيمِ والمبالغةِ، قَالَ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ولَيْسَ المرادُ حقيقةَ السؤالِ، إِنَّمَا المراد التعظيم، يَعْنِي: ما أعظمَ مَن أَخبرَكَ خِبرةً. وهَذَا وجهٌ جيِّدٌ، ولا تُمانِعُهُ الآيةُ.

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَنِ المرادُ بِهَذَا الخَبيرِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أنْ نَسْأَلَهُ؟

الخبيرُ هو اللهُ، فكأنه عَزَّوَجَلَّ يقولُ: فاسأَلْ بِهِ خبيرًا، يَعْنِي خُذِ الخِبْرَةَ والعلمَ منِّي؛ لأنِّي خبيرٌ بنفسي، هَذَا المعنى، ومنه قولُ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «عَلَى الخَبِيرِ سَقطْتَ»[1] تعني نفسَها حينَما سُئِلَتْ عن مسألةٍ.

فالمعنَى: اسأَلْ عنِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خَبيرًا بِهِ وهو نفسُه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، رقم (٣٤٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى والثَّانيةُ: إثباتُ خلقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، وأنها كانتْ معدومةً، فيَكُون فِي هَذَا ردٌّ لقولِ الفلاسفةِ القائلينَ بِقِدَمِ الأفلاكِ؛ لِأَنَّ ما كَانَ مخلوقًا فَإِنَّهُ لَيْسَ بقديمٍ، والمراد بقولنا: لَيْسَ بقديمٍ بالمعنى المصْطَلَح عليه عندَ الفلاسفةِ؛ أن القديمَ هو الأزليّ، لا أن المراد القِدَم اللُّغَوي؛ لأنَّ القديمَ فِي اللغةِ هو الشَّيْءُ المتقدِّم، وإن كَانَ حادثًا، كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، لكِن فِي اصطلاح الفلاسفةِ إذا قالوا: قديمٌ، فمَعْنَاهُ أزليٌّ، لَيْسَ بحادثٍ. نقولُ: هَذِهِ الآية تَرُدُّ عليهم؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

الْفَائِدَة الثالثة: أن الَّذِي يَنبغي أن يلاحظَه الفاعلُ هو الإتقانُ والتثبُّت فِي الأمورِ؛ حَتَّى يخرجَ الشَّيْءُ المَفْعُولُ عَلَى الكمالِ، وهذا ما أشارَ إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

الْفَائِدَة الرابعةُ: حِكمة اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِتَسْيِيرِ الأمورِ حَسَبَ أسبابها، عَلَى الوجهِ الَّذِي أَشَرْنا إليه؛ لِأَنَّ خلقها امتدَّ إِلَى ستةِ أيامٍ؛ لِأَنَّهَا تَتطَوَّر وتَتعَلَّق بأسبابٍ معيَّنةٍ تكمُن فِي هَذِهِ المدَّةِ.

الْفَائِدَة الخامسة: كمالُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ هَذِهِ السَّمواتَ والْأَرْضَ وما بينَهما أمورٌ عظيمةٌ، لا يستطيعُ الخَلْقُ أن يَخْلُقُوها أبدًا، لا فِي ستَّة أيامٍ ولا فِي ستِّينَ قرنًا، الَّذِينَ صَنَعُوا الأقمارَ الصناعيَّةَ أوَّل ما أَخْرَجوها نعلم ماذا حصل من الضَّجَّة العظيمة، والتعظيم العظيم لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَنَعُوها، معَ أنها ليستْ بشَيْءٍ بالنسبةِ لأقربِ نَجْمٍ فِي السَّماءِ، لا بذاتِه ولا بالحجمِ، ولا بالكيفيَّة، ولا بالقوَّة، ولا بالانتظامِ، فإنها تزول فِي آخِر الأمر ويَختلف نِظامها وتَتْلَف.

الحاصلُ: أن فِي خلقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، ولو فِي الأيَّام الستَّة، فِيهِ دليلٌ عَلَى

كمالِ قُدْرة اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعَظَمَتِه؛ لِأَنَّ عِظَم المخلوقِ يَدُلّ عَلَى عِظَمِ الخالِقِ، كما أَنَّ عِظَم الفعلِ فِي غيرِ الخالقِ يدلّ عَلَى عَظَمَةِ الفاعلِ ومَهارتِهِ وقُدْرَته، ولهذا النَّاس إذا رَأَوْا بناءً مُحْكَمًا يُثْنُونَ عَلَى البانِي أوَّلًا، ثم عَلَى البِناء.

ويُذْكَر فِي (الحَيْدَة) الَّذي يُنْسَبُ إِلَى عبد العزيز الكناني، إنْ صَحَّ عنه، أن أحدَ الَّذِينَ ناظروه عند الخليفةِ انتقدَ خِلْقَتَه، فَقَالَ له: عبد العزيز الكناني: أنت ما انْتَقَدْتَنِي، إِنَّمَا انتقدتَ الخالِقَ. ثم ضربَ مثلًا بأنه لو كَانَ الجِدار الَّذِي عند الخليفةِ مُشَوَّهًا ومائلًا، ثم عِيبَ الجِدار، فالعَيْب يَقَع حقيقةً عَلَى الباني الَّذِي بناه، فخِلْقَة الْإِنْسَانِ ليستْ مِنِ اختيارِه، فلا يُذَمُّ عَلَيْهَا[1].

ولذلك ما وَرَدَ من الأحاديثِ الَّتِي تُعَلِّق الذمَّ عَلَى الخِلقة فإنما ذلك لَيْسَ للخلقةِ نفسِها، ولَكِنه دليلٌ عَلَى ما تُحْمَل عليه هَذِهِ الخِلْقَة من الصِّفاتِ الَّتِي يُذَمُّ عَلَيْهَا العبدُ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ فِي بعضِ الأحاديثِ ذَمٌّ، ثمَّ يُفَسِّره العلماءُ بِصِفاتٍ خلقيَّةٍ، هَذَا الذمُّ المعلَّق عَلَى صفةٍ نقولُ: إذا صحَّ أَنَّ الحديثَ يُفَسَّر بهَذِهِ الصِّفاتِ الخَلْقيَّة فليس ذلك لأجلِ هَذِهِ الصِّفات الخَلْقية، ولَكِنْ لِمَا تَتَضَمَّنَهُ غالبًا من صفاتٍ فعلية أو خُلقية للإنْسَان؛ إذِ الْإِنْسَانُ لا يُذَمُّ عَلَى ما خَلَقَ اللهُ فِيهِ، وإنما يُذَمُّ عَلَى ما كَانَ باختيارِهِ.

الْفَائِدَة السادسةُ والسابعةُ: استواء اللهِ عَلَى عَرْشِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وأنَّ الاستواءَ مِن الصِّفاتِ الفعليَّةِ، لَيْسَ مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّة؛ لِأَنَّهُ مرتَّب بعد خلقِ السَّمواتِ، يَعْنِي حادثًا، وهل الاستواء قبلَ خلقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم ابن ميمون الكناني المكي (ص٣١).

ثابتٌ أو لَيْسَ بثابتٍ؟ نقول: الاستواءُ عَلَى العَرْشِ قبل الخَلْق لا نَتكلَّم فيه، اللهُ أعلمُ به، لَكِن الاستواء عَلَى العرشِ حِينَ الخَلْق لَيْسَ بموجودٍ؛ لِأَنَّ ذلكَ ينافي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾، أمَّا قبل الخَلْقِ فالواجبُ السكوتُ عنه؛ لِأَنَّ ذلك لَيْسَ بِوُسْعِنا، واللهُ تَعَالَى لم يُخْبِرْ عن نفسِهِ بِهِ.

الْفَائِدَة الثامنة: ثُبُوت صفةِ الرَّحمةِ للهِ؛ لقولِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، وإضافة الاستواء إِلَى الرَّحمنِ فِي قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ ففيه إشارةٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى مع عُلُوِّهِ عَلَى جميعِ مخلوقاتِه فإنَّ رحمَتَه شاملةٌ لجميعِ الخَلْقِ، وليس كعُلُوِّ غيرِهِ مِمَّن إذا علا تَجبَّر وتَكَبَّر وأخذ بالعُنْف والغِلظة.

الْفَائِدَة التاسعة: عِظَم صفاتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَتان العاشرةُ والحاديةَ عشْرةَ: أَنَّهُ لا تُطْلَبُ معرفةُ اللهِ إِلَّا مِنَ اللهِ: مِنَ الخَبيرِ بِهِ، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقولِهِ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، وأن هَذِهِ الآية تَشْهَد لِمَا عليه أهلُ السنَّة والجماعَة من أن أَسْماءَ اللهِ وصفاتِه تَوْقِيفِيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُثْبِتَ منها إِلَّا ما أَثْبَتَهُ الله ورسوله، يَعْنِي أن وصفَ اللهِ تَعَالَى لا يَكُون إِلَّا بِحَسَبِ ما عَلِمْناهُ منه، فلا يُمْكِن أنْ نَصِفَ اللهَ تَعَالَى بِمَا لم يَصِفْ بِهِ نفسَه، ولهذا قَالَ العلماءُ: إن أَسْماءَ اللهِ وصفاتِهِ توقيفيَّة، هَذَا هو القَوْلُ الصحيحُ الراجِحُ، وإِنَّه لَيْسَ لنا أنْ نَصِفَ الله تَعَالَى بما لم يَصِفْ بِهِ نفسَه؛ لِأَنَّ ذلك ينافي كمالَ الأدَبِ معَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، وكما أَنَّهُ لَيْسَ لنا أنْ نُحْدِثَ فِي شَرْعِه شَيْئًا فليسَ لنا أن نَصِفَهُ بشَيْءٍ لم يَصِفْ بِهِ نفسَه، ولله المَثلُ الأعلَى.

فَلَوْ قِيلَ لإِنْسَانٍ: تَحدَّثْ عن رجلٍ، وهذا الرجلُ غائبٌ عنه، هل يملِكُ أنْ يَتحدَّث عن شَيْءٍ من صفاتِهِ إِلَّا ما يَعْلَم من الصِّفات البشرية، بأن يقول: هو إنْسَان

مخلوق يحيا ويموت، إِلَى آخِره، لكِن يتحدث عن صفةٍ ليست من الصِّفات العامَّة للصفاتِ البشريَّة فلا يجوز له، فكيف باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ التَّوْرَاةُ والإنجيلُ يُقَرِّرَانِ ويُثْبِتَانِ المَعادَ كما يُثْبِتُهُ القُرْآنُ؟

الجواب: القُرْآنُ تكلَّم عنِ المعادِ وتقريرِهِ وإثباتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تكلمتْ بِهِ التوراةُ والإنجيلُ، وشيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الحَمَوِيَّة كَلامُه يدلُّ عَلَى أن القُرْآنَ تَكَلَّم عَنِ المَعَادِ وتقريره وإثباته أكْثَر مما تكلمتْ بِهِ التوراةُ والإنجيلُ، وإِلَّا فهو معلومٌ ومصرَّح بِهِ فِي كل الكتبِ، لكِن تقريرها لَيْسَ كتقريرِ القُرْآنِ، ولا يمكن أن يَستقيمَ عملُ النَّاسِ إِلَّا بالإيمانِ بالمعادِ، ولذلك الَّذِينَ يُنْكِرون المعادَ الآنَ ما دام أَنَّهُمْ يقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤]، لن يعملوا، فالمراد تقريره عَلَى أوجهٍ شتَّى؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قرَّر المعادَ فِي القُرْآن لَيْسَ بطَرِيقٍ وَاحِدٍ، بل بعِدَّة طُرُقٍ، ونحن أشرنا مرةً إِلَى أن آخِرَ سورةِ يس فِيهَا عَشَرَةُ أَوْجُهٍ كلّها تقرِّر المَعاد، لكِن بعضها أصرحُ من بعضٍ.

• • ❁ • •

الآية (٦٠)

• ● ∽ ● •

۞ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠].

• ● ∽ ● •

بعدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَظَمَته ورُبُوبِيَّته فِي خَلْقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ واستواءَه عَلَى عَرْشِه قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ لِكُفَّارِ مكَّة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾]، هَذَا السجـودُ يَحتمِل أنْ يُرادَ بِهِ السجـودُ الخاصُّ الَّذِي هو خُـرُور الْإِنْسَانِ عَلَى أعضائِه السبعةِ، ويَحتمِل أنَّ الْمُراد بِهِ السجودُ العامُّ الَّذِي هو الخُضُوع المطلَق؛ لِأَنَّ السجودَ يُطلَق بالمعنيينِ؛ السجود العامّ الَّذِي هو الخُضُوع والذُّلّ مُطْلَقًا، أو السجود الخاصّ عَلَى هَذِهِ الأعضاءِ المعروفةِ، إذا قِيلَ لهم ذلك: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فأَنْكَرُوا المسجودَ له، ثم اسْتَكْبَرُوا عن السجودِ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، وهذا الاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، والأوّل ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استفهام إنكارٍ، يَعْنِي أَنَّهم يُنْكِرُون الرَّحمنَ، والمراد بإنكارِهِمُ الرَّحمنَ إنكارُ هَذَا الاسْمِ، لا إنكار اللهِ، يَعْـنِي أنكروا الاسْمَ دونَ الذَّاتِ، فهم يؤمنون باللهِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولَكِنَّهم أَنْكَرُوا الرَّحمنَ، أنكروا هَذَا الاسْمَ لله عَزَّوَجَلَّ وقالوا: لا نَعْرِفُ الرَّحمنَ إِلَّا رحمن اليمامَةِ، لا نَعْرِفُ أَنَّ هناك أحدًا اسْمُه الرَّحمنُ إِلَّا هَذَا الموصوف برحمنِ اليمامةِ، فأنكروا هَذَا الوصفَ العظيمَ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الَّذِي هو مِن أعظمِ أوصافِه وأعظم أسمائِه، وَهِيَ الرَّحمة الَّتِي وَسِعَتْ جميعَ المخلوقاتِ،

وهذا الإنكارُ لا وجهَ له؛ لِأَنَّهُ ما دامَ قد أثبتَ بطَريقِ الرِّسَالةِ فلا وجهَ له لِكَوْنِهِم لا يَعْرِفُونـه؛ لأنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لا يُؤْمِن إِلَّا بما يَعْرِف هو تابعٌ لهواهُ، وليـسَ مؤمنًا بالرُّسُلِ، ومنه ما يَفْعَلُه بعضُ العامَّةِ الآنَ إذا أُحْيِيَتْ سُنَّة مِن السننِ الَّتِي أُميتت، قالوا: ما هذا؟! هَذَا دينٌ جديدٌ، لا نَقبَـله ولا نريدهُ، نقولُ لِهَؤُلَاءِ: إنهم يُشْبِـهون هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ من بعضِ الوجوهِ، حيث أنكروا ما لا يَعرِفونه وقالوا: لن نَقْبَلَ، أين المَشَايخ مِن هَذَا الدينِ، وأين فلان وأين فلان؟! وهذا لَيْسَ بحُجَّة؛ لِأَنَّ الحَقَّ يَجب أنْ يُقبَل وأن يَكُونَ هَوَى الْإِنْسَانِ تابعًا للحقِّ، لا أن الحقَّ تابعٌ لِهَواه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

والواجـبُ عَلَى المؤمنِ إذا رأَى ما لا يَعـرِفه أو سمِـع ما لا يَعرِفه التَّثَبُّتُ، صحيحٌ أن الْإِنْسَانَ يَستنكِر ما لا يعرِف، ولَكِن الواجب عليه نحوَ ذلك أنْ لا يُنكِر، والواجـب عليه التثبُّت، وأنْ يَعرِفَ مصـدرَ هَذَا الشَّيْءِ، أمَّا أن يقولَ: أتيتـم بدينٍ جديدٍ ولا نَقْبَله، فليسَ كَذَلِك، بل إن الَّذِي يحيي سُنَّة هو الَّذِي أتى بالدينِ القديمِ، وما خالَفَ السنَّة فهُوَ الدينُ الجديدُ المُحْدَث، أَمَّا السنة فهي الدينُ القديمُ الَّذِي عليه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه.

والحاصِلُ: أنك لا تكاد تجد معصيةً مِنَ المعاصي إِلَّا وَفِيها مُشابَهة من جنسها من الكُفْرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل نأخُذُ من الآيةِ فضيلةَ السجودِ من بَيْنِ العباداتِ؟

هَذَا إِذَا قُلْنَا: إن السجودَ خاصٌّ، لكِن الآية محتمِلة أن المرادَ بالسجودِ ما هو أعمُّ؛ أي الخُضُوع المطلَق، لا الخضوع بالسجود المعروف، وما دام وجد احْتِمال لا يَتِمّ الاستدلالُ.

قوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هَذَا أَيْضًا إنكارٌ واستكبارٌ، يَعْنِي كيف نسجدُ لِمَا تَأْمُرنا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالفوقانيَّة والتحتانيَّة، والآمِر مُحَمَّد ﷺ].

قولـه: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ (ما) هَذِهِ هل هي بمعنى (مَنْ) أو (ما) مصدريَّة، يَعْنِي هل المعنى: لِمَن تأمُرنا بالسجودِ له، فتكون موصولةً، بمعنى (مَن)، أو أنها مصدريَّة؛ أي لِأَمْرِك؟ كلاهما ممكِن، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [ولا نَعْرِفه]، يشير إِلَى أن (ما) اسْـم موصول، يَعْنِي للذي تأمرنـا أن نسجدَ له، ونحن لا نعـرِفه، فعلى مُقْتَضَى تفسيرِه تكون (ما) بمعنَى (مَن)، وحينئذٍ التعبيرُ بـ(ما) بَدَل (مَن) فِي غير الجمادِ أو فِي غير مَن لا يَعقِل -كما يَقُولُونَ- خِلافُ الأَصْلِ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ أنْ يُعبَّر عن ذي العلـمِ بـ(مَنْ)، لا بـ(ما)، ولا يُعبَّر بـ(ما) إِلَّا لملاحظـة شَيْء، مثل قولـه تَعَالَى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، لم يَقُلْ: (مَنْ طابَ)، فما هو هَذَا الشَيْء؟ نقول: فِي قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هو لا يريد امرأةً بعينِها حَتَّى يعبر عنها بـ(مَنْ)، إِنَّمَا يريد الجنسَ الَّذِي يُتَزَوَّج لِطِيبِه، فيَكُون فِي ذلك مراعيًا للصفةِ، لا للموصوفِ، ولهذا أتى بـ(ما) ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾، كَذَلِك أَيْضًا قوله: ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ إذا جعَلْنا (ما) بمعنى (مَنْ) نقول: عَدَلُوا عن الموصوفِ إِلَى الإشارةِ إِلَى الصِّفةِ؛ لأَنَّهُمْ يُنكِرون هَذَا الوصفَ الَّذِي هو الرَّحمنُ، فكأَنَّهُمْ قالوا: أنسجُدُ لأمرٍ مجهولٍ غير معلوم، وهو ما تأمرنا بالسجودِ له، أمَّا عَلَى أن تكون (ما) مصدريَّة فالأمرُ واضحٌ جدًّا، يَعْنِي كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَسْجُدُ لِأَمْرِكَ وأنتَ لستَ بشَيْءٍ عندنا؛ لأَنَّهُمْ قالوا: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢]، فيَكُون هنا جَمَعُوا بَيْنَ الإنكارِ والاستكبارِ، الإنكار لصفةٍ من صفاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسْمٍ من أسمائِه، ثم الإنكار لِمَا أُمِرُوا بالسجودِ له،

ثم الاستكبار عن أمرِ النَّبيِّ ﷺ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فِيهَا قراءة؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالفوقانيَّة والتحتانيَّة]، قراءتان سَبعِيَّتانِ(١)، أمَّا عَلَى قراءةِ التحتانيَّة: «لِمَا يَأْمُرنا» فلا إشكالَ فِيهَا؛ لِأَنَّ التقديرَ: أنسجد لِمَا يَأْمرنا القائِل، لكِن عَلَى قراءة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هنا خَصَّص، ويقصدون بقولهم: ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فما الحِكْمَة فِي أَنَّهُ عبَّر فِي الأوَّل بالعموم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أَبْهَمَ القائلَ لعمومِه، وهنا قَالَ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟ يَعْنِي كأنَّ كلَّ أحدٍ يَأْمُرُهم بالسجودِ، يَعْنِي مهما قِيلَ لهم يَقُولُونَ للقائلِ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، فيَكُون فِي الأوَّل حكَى ما يُقال، وهنا حكاها عَلَى سبيلِ المخاطبةِ، هم يَقُولُونَ لكلِّ إنْسَانٍ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

فعلى هَذَا التقدير الَّذِي قُلْنَا لا يَكُونُ المرادُ بقولِهم ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ الرَّسول، بل ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أيُّها القائل، فيَكُون هنا عُدُولٌ عن الغَيْبَة إِلَى الخِطاب، يَعْنِي إذا قِيلَ لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قَالُوا لِمَن قَالَ لهم: اسْجُدُوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

وعلى رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ نقولُ: الآمِرُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيَكُون فِيهِ عُدُولٌ عن العمومِ إِلَى الخصوصِ، إذا كَانَ المعنى: أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنا يا مُحَمَّدُ يَكُون عدولًا عن العمومِ إِلَى الخصوصِ، فإذا أَنْكَروا ذلكَ مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنكارُهُم إيَّاه من غيرِه من باب أَوْلَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ عامٌّ فِي كفَّار مكَّة وغيرهم من الكفارِ الَّذِينَ سيأتون وهَذِهِ صِفتُهم؟

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

فالجواب: نحنُ لَا نَعْلَم القضيَّة إِلَّا فِي كفَّارِ مَكَّة؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ سَبَب نزول الآيةِ.

فَلَوْ قِيلَ: هَذَا هو موقِف الكفارِ.

نقول: هَؤُلَاءِ الكفـارُ أنكروا أمرينِ؛ أَنْكَرُوا السجـودَ، قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ولو جاء الأمر من غيرِكَ لَكِنَّا نَنْظُر. والثَّاني: إنكار الرَّحمنِ ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فهل كل كافرٍ ينكر الرَّحمنَ، لا نَدْرِي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَزَادَهُمْ﴾ هَذَا القَوْلُ لهم ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمانِ]، والعياذ بالله، يَعْنِي ما زادهم إقبالًا ولا امتثالًا، بل زادهم نفورًا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ واجبَ الداعِيَةِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللهِ، سواء امتثلَ المدعوُّ أَمْ نَفَرَ، وقد كَانَ بعضُ النَّاسِ يسألُ يقولُ: إذا كَانَ هَذَا المدعوُّ إذا دَعَوْتُه يزدادُ نفورًا وكراهِيَةً للشرعِ، ولِمَا يُؤْمَرُ بِهِ، هل يجـوزُ أَنْ أَدْعُوَهُ أو يَحْرُم أَنْ أدعـوَهُ؛ لأني أكونُ سَبَبًا لنفورِهِ واستكبـارِهِ، ونفورُهُ واستكبـارُهُ أعظمُ من مَعْصِيَتِهِ المجرَّدة، يقول: أنا إذا دعـوتُ أخي أو عمِّي أو أبي ازدادَ نفورًا واستكبـارًا، فأكون سَبَبًا لاستكبـارِهِ ونفورِهِ وكراهِيَتِهِ للحقِّ، وذلك أعظمُ من مجردِ المعصيةِ أو تَرْك الواجبِ، فهل أَتْرُكُهُ أو أدعوه؟ وحينَئذٍ أَرَى نفسِي فِي حَرَجٍ أَنِّي تَسَبَّبْتُ له فوقعَ فِي هَذَا الأمرِ العظيم؟

نقول: فِي الآيةِ الَّتِي مَعَنَا يقول اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، هل الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا رأى هَؤُلَاءِ يَزْدَادُونَ نفورًا تركَ الدعوةَ؟

الَّذِي نرى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تدعـوَ عَلَى العمومِ، وليس عليكَ هُداهـم، ولَكِن الله يَهْدِي مَن يشاء؛ لأَنَّكَ إذا سَكَتَّ عنه استمْرَأَ المعصيَةَ ولم يَرَهَا معصيةً، ولم يَسْتَقِمْ، ثم هو أَيْضًا ربما يَستكبِر، ولَكِنَّه بعدَ ذلكَ يَرجِع ويحاسِب نفسَه، والكلمة الَّتِي تقالُ للهِ لا بدَّ أن تؤثِّر تأثيرًا بالغًا، وما نحن ببعيدٍ عن تكرارِ قضيَّة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

حينما تكلمَ للناسِ جميعًا وللسَّحَرَةِ بالأخصِّ، فقَالَ لهـم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، فهَـذَا كَلامٌ قاسٍ وتَوَعُّـد ووعيد، ومع ذلك قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:٦٢]، و(الفاء) تَدُلُّ عَلَى التفريعِ والتعقيبِ، يَعْنِي صارت هَذِهِ الكلمة بمنزلةِ ما يُسَمُّونَهُ بالقنبلةِ الَّتِي فرَّقَتْهُمْ، فأنتَ لا تَظُنُّ أنَّ كَلِمَتَكَ الَّتِي تَقُولُها لله تَضِيع سُدًى، لا بدَّ لها من تأثيرٍ، وهذا التأثيرُ وإنْ كَانَ قد لا يَكُونُ فِي الوقتِ الحاضِرِ، ولَكِنَّه لا بدَّ أن يؤثِّر.

والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا قَوْمَه وأُوذِيَ إِلَى حَدِّ أَنَّهُم يَضَعُونَ السَّلَا عليه وهو ساجدٌ[1]، وإلى حدِّ أَنَّهُمْ يُلْقُونَ العَذِرَاتِ والأقذارَ عندَ عَتَبَتِه.

وأنتَ إذا كنتَ مؤمنًـا بقولِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، ما يَضُرُّكَ هذا، فالعاقبـةُ للمتَّقين، وأنا قلتُ قبـلَ ذلك: إن المرادَ بنجاح الدعوةِ نجاحُ الجنسِ، لا الشخصِ، قد لا تَنْجَح أنتَ بشخصِكَ وتموت وأنت ما نِلْتَ المقصودَ، لكِن الكَلام عَنِ الدَّعوة أنها نجحتْ وأثرت، وهذا لا بدَّ أنْ يَكُونَ، ونحنُ قُلْنَا هَذَا مِن قبل، ثم اقْرأْ قولَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣]، ماذا بعدها؟ لم يقل فاشكر نعمة ربك عَلَى هَذَا الإنزال قال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ [الإنسان:٢٤]، معنى ذلك أن الَّذِي يَتَحَمَّل هَذَا القُرْآن، سواء نزل عليه أو حَفِظه، لا بدَّ أنْ ينالَهُ ما يناله، سواء بالنسبةِ لنفسِهِ الَّتِي تأمُرُه بالسُّوء وبمخالفة هَذَا الوحيِ، أو بالنسبة لغيرِه، أَمَّا هَذِهِ الأشياء فهي جُبْنٌ فِي الحقيقةِ ومن الشيطانِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم (٢٩٣٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

ونحن نقول هَذَا ونقرِّره، وإنْ كنَّا مقصِّرين، لكِن لا بدَّ من بيانِ الحقِّ، والتقصير عَلَى أنفسِنا فِي الحقيقةِ، لَكِنَّنا نرى أن الداعيةَ إِلَى اللهِ، بل والعالِمِ الَّذِي أعطاهُ اللهُ علمًا، لا بدَّ أنْ يَنْشُرَهُ وأن يدعوَ إليه، وإلا صار حجَّةً عليه، وربما لا يكرهونه إِلَّا فِي الظاهِرِ؛ لِأَنَّ فِي أنفسهم مِنَ الحَسَدِ أو ما فِي أنفسهم من كراهةِ مخالفةِ هواهُمْ ما يؤدِّي إِلَى أَنَّهم يعادونه ظاهرًا وإنْ كانتْ قلوبهم تحبّه، فربما يَكُون هَذَا أيضًا.

عَلَى كل حالٍ فالمسألة أَنَّهُ إنْ أصابكَ ما أصابكَ مِنَ الأذى مع الاستقامةِ، فإن هَذَا لِرِفْعَةِ درجاتِكَ، وإنْ أصابَكَ ما أصابكَ من الأذى معَ عدمِ الاستقامةِ، يَعْنِي إما خطأً فِي سبيل الدعوةِ فما استعملتَ ما أرشد الله إليه مِنَ الحِكْمَةِ والموعظةِ الحسنةِ والمجادلةِ بالَّتِي هي أحسنُ، فإن هَذَا الأذى يَكُون تكفيرًا لسيئاتِكَ الَّتِي وقعتْ منكَ، فأنتَ عَلَى كل حالٍ لا بدَّ أن تُنالَ بأذًى، لَكِنه إما رفعة للدرجاتِ أو تكفير للسيئاتِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض النَّاس يَقُولُونَ: كيف نَدْعُو النَّاسَ ونحن عاجزونَ عن إصلاحِ أنفسِنا؟

فنقول: إذا لم تَدْعُ النَّاسَ فأنتَ أفسدتَ نفسَكَ باختيارِكَ؛ لِأَنَّ من إصلاح نفسِكَ الدعوةُ إِلَى اللهِ، فإذا لم تدعُ إِلَى اللهِ أفسدتَ نفسَكَ باختيارك، فاتقِ اللهَ ما استطعتَ، أَمَّا أنْ تَتْرُكَ واجبًا لأنك تترك واجبًا آخرَ فهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ. ولَا شَكَّ أَنَّهُ من سُوءِ الأدبِ، ومن عدمِ الحِكْمَةِ أن الْإِنْسَانَ يدعو إِلَى أمرٍ وهو متلبِّس بضدِّ ما يأمر به:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[1]

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٢٣٨).

لكِن لَيْسَ معنى ذلك أنك تتركُ الواجبَ، فحاوِلْ أنْ تُصْلِحَ أمرَكَ، وأن تُصْلح أمرَ غيرِكَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ مِن عادةِ الكفارِ إنكارُ ما لا يَعرِفون، سواء كَانَ عمليًّا أو اعتقاديًّا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن تعطيلَ الجَهْمِيَّة وشُبههم أعظمُ مِن تعطيلِ هَؤُلَاءِ، فإذا كَانَ هَؤُلَاءِ كفرهم بإنكارِ الرَّحمنِ فكيف بمَن يُنْكِر جميعَ الأَسْماءِ من الجَهْمِيَّة ونحوهم! ومعروفٌ أن المُعْتَزِلَةَ لا ينكرون الأَسْماءَ، لكِن ينكرها غُلَاةُ الجهميَّة، ومعلوم أن الَّذِي ينكر الأَسْماءَ أعظمُ مِنَ الَّذِي ينكر اسْمًا وَاحِدًا، والكفار يُقِرّون باللهِ ويقرون بالرَّحيمِ، لم ينكروا إِلَّا الرَّحمنَ، قالوا: ما نعرِف إِلَّا رحمنَ اليمامَةِ.

الْفَائِدَة الثالثة: أن الشرعَ لا يُقاس بالهوى والعقل، وإنما الشرعُ متبوعٌ وليس بتابعٍ.

الْفَائِدَة الرابعة: أنَّ نفورَ المدعوّ من الدعوةِ لا يَستوجِب التوقُّف، ولا يَمنع الدعوةَ، وهَذِهِ الْفَائِدَة مهمَّة جِدًّا؛ لِأَنَّهَا مجال نقاش أو تساؤل من بعض الإخوان.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، يقولُ بعض المفسِّرين: يَعْنِي تذكِّر الشخصَ إذا كانتِ الذكرَى نافعةً، فإذا رأيته لم يَنْتَفِعْ فاتْرُكْهُ لوقتٍ آخرَ ترى فِيهِ انتفاعَه، فهل تترك الدعوةَ عامَّةً فِي الوقتِ الحاضرِ أم ماذا؟

الجوابُ: هَذَا عَلَى كل حالٍ تَبع الحِكْمَة؛ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [النحل:١٢٥]، قد يَكُون لَيْسَ من الحِكْمَةِ أنك تدعوه فِي وقتٍ قد يَكُونُ فيه ضَجِرًا

أو مالًا أو مُتْعَبًا، فلا يَكُون مناسبًا للدعوة، فاتْرُكه وائْتِهِ فِي وقتٍ آخرَ، أَمَّا قوله تَعَالَى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ فالعلماءُ مختلِفون هل (إنْ) شرطيَّة أو أنها لبيانِ حالِهِم، يَعْنِي إن كانت الذكرى سَتَنْفَعُهم فذَكِّرْهُم، يَعْنِي هَؤُلَاءِ لَيْسَ فيهم خيرٌ، ولا تنفعهم الذكرى، مثلما تقول: عَلِّمه إذا كَانَ العلمُ يَنْفَعه، ولَكِن عَلَى كل حالٍ الأَصْل أن الشرطَ مقصودٌ، وأيضًا قوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١) من هَذَا النوع، فهَذَا منَ الحِكْمَةِ، وليس المعنى: لا تحدِّثوهم بما لا يعرفون؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»، فالمعنى: اسْلُكُوا سبيلَ الحِكمةِ.

الْفَائِدَة الخامسة: أن عَلَى الداعي أَلَّا يَرْبِطَ دَعْوَتَه بنتائجها، بمعنى أَنَّهُ لا يقولُ: إنْ وَجَدْتُ نتيجةً وإلَّا وقفتُ.

الْفَائِدَة السادسةُ: أن عدمَ استجابةِ المَدْعُوِّينَ للداعي لا يدلُّ عَلَى فسادِ قَصْدِهِ أو عَمَلِهِ، ولا يدل أَيْضًا عَلَى تقصيرِهِ، يَعْنِي إذا دعا الْإِنْسَانُ ولَكِنَّه لم ينجحْ، فلا يجوزُ لنا أنْ نَتَّهِمَهُ ونقول: هَذَا لو كانتْ نيَّتُه صالحةً لانتفعَ النَّاسُ بِهِ. إذَن هَذِهِ فائدة عظيمةٌ؛ لِأَنَّهُ ربما يَكُونُ من بعض النَّاس اعتراضٌ عَلَى الداعي، يقول: هَذَا الداعي نيَّته باطلةٌ، لو أن نِيَّته صحيحةٌ ما نفرَ النَّاسُ منه. فهَذِهِ فائدةٌ طيِّبةٌ.

الْفَائِدَة السابعة: تسليةُ الدُّعاة إذا قُدِّرَ أَنَّهُمْ لم يَنْجَحُوا مثلًا، فيقال: هَذَا النَّبي عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا هَؤُلَاءِ القومَ، وزادهم نفورًا، لَكِنْ كانتِ العاقبةُ له، فأنتَ اصْبِرْ وستكون العاقبة للمتَّقين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

الْفَائِدَة الثامنة: إثبات صفةِ الرَّحمةِ وإثباتُ اسْمِ الرَّحمنِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أنكروه.

الْفَائِدَة التاسعة: أن المعاصيَ يجرُّ بعضها بعضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

الْفَائِدَة العاشرة: أن السجودَ من أسبابِ الرَّحمةِ، ولهذا قال: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، سواء السجود العامّ أو السجود الخاصّ، فَإِنَّهُ من أسباب الرَّحمةِ، ولهذا لم يقل: اسجدوا لله، بل قال: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يَعْنِي لتصلوا إِلَى رحمةِ هَذَا المسجودِ له.

الْفَائِدَة الحاديةَ عشْرةَ: وجوب امتثالِ أوامرِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مأخوذ من ذمِّ المشركين بعدم استجابتهم لأمر الرَّسول ﷺ بالسجود لله.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةَ عشْرةَ: بُلُوغ المشركينَ الغايةَ فِي الاستكبارِ، ولهذا ما قالوا: لا نريدُ السجودَ، بل قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ يَعْنِي: عَلَى فَرْضِ أَنَّنا يُمْكِنُ أَنْ نَسْجُدَ فلا يُمْكِن أن نسجدَ لِأَمْرِكَ.

الْفَائِدَتان الثالثةَ عَشْرَةَ والرابعةَ عشْرةَ: أَنَّهُ لا يجوزُ للإِنْسَانِ أَنْ يَقِيسَ الحقَّ بقائِلِهِ، وإنما يُعْرَف الحقُّ بالحقِّ، لا بالقائلِ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاسِ إذا قُلْنَا مثلًا: هَذَا قاله فلانٌ، قَالَ: مَن فلان بالنسبةِ لفلانٍ؟ فيريدون أنْ يعرفوا الحقَّ بالرِّجالِ، والواجبُ -كما قَالَ النَّوَوِيُّ وغيرُه- أنْ يُعْرَفَ الرِّجالُ بالحقِّ.

فكأنَّهم يَقُولُونَ: لو فُرِضَ أَنَّنا سَجَدْنا، ما سَجَدْنا لأمرِكَ، فيَكُون فِي هَذَا أَيْضًا دليلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أنْ يَنقادَ للحقِّ مهما كَانَ قائلُه، حَتَّى لو كَانَ من أَرْذَلِ النَّاس فِي نظرِه، فالواجبُ عليه أنْ يَنقادَ للحقِّ لِأَنَّهُ حقٌّ، لا لأنَّ قائلَهُ ذاكَ الرجُل.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَمَّا قرأ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سُورةَ النَّجْم هل صَحيح أنَّ

الكفَّارَ سَجَدُوا(١) لسجود النَّبي ﷺ؟

نقول: صحيح، لَكِنْ هل ذلك مِنْ أَجْلِ ما ذُكِر أو لِقُوَّة ما أَخَذَهُمْ، يَعْنِي لَمَّا كَانَ فِيها التهديدُ فِي الأوَّل ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم:٣٣-٣٤]، وقبلها أَيْضًا ذمّ الأصنامِ إِلَى آخِره، ثم جاءت أوصاف الله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم:٤٨]، ثمَّ جاءَ التهديدُ بِذِكْرِ الأمثالِ فِي الأُمَم السابقينَ، فكأَنَّ هَذَا أخذَ بألبابهم حَتَّى نَسُوا ما هُمْ عَلَيْهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف كَانَ كُفَّار مكَّة يَطَّلِعُون عَلَى القُرْآنِ؟

فمعروفٌ أَنَّ الرَّسولَ كَانَ يَقْرَأُ وأبو بكرٍ كَانَ يقرأ، وكان الصغارُ والنساءُ مِنَ الكفَّار يأتُون إِلَى أبي بكرٍ يَستمِعون لقراءَتَهُ، ويَسْتَمِعُون أَيْضًا لقراءةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم يطَّلِعُون لأنَّ الرَّسولَ ﷺ يُبَلِّغُها والصحابة يبلِّغونها.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: أبواب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء، رقم (١٠٧١).

الآيــة (٦١)

• • • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

• • • •

قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تَبَارَكَ ﴾ تَعَاظَمَ]، وتَقدَّم أَنَّهُ لا يَنبغي الاقتصارُ فِيهَا عَلَى تَعَاظَمَ؛ فإنَّها تدُلّ عَلَى كثرةِ الخيراتِ وسَعَتِها؛ لِأَنَّ هَذِهِ البُرُوجَ الَّتِي سَتَأْتِي فِيهَا مِنَ الخيرِ للناسِ والمصلحةِ والمنفعةِ ما يُناسِبُ هَذَا الوصفَ.

وكلمة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ مبالَغةٌ مِنَ البَرَكَةِ لزيادةِ (التاء)، وَهِيَ تقالُ لله عَزَّوَجَلَّ، والعامَّة عندنا يقولونها لغيرِ اللهِ، يَقُولُونَ: تباركتَ علينا، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ، فبعضُ النَّاسِ يَقُولُونَ: إن هَذَا الوصف خاصٌّ باللهِ، ولا يجوزُ أنْ تقولَ للإنْسَانِ: تباركتَ، ولَكِن الَّذِي نَرَى أَنَّهُ لا بأسَ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يريدون بـ(تباركت) أن الله وضعَ فيك بركةً، لا أنها بركة ذاتيَّة، فلا بأس بِهَا، والعِبرة بالمعاني، واللفظ إذا لم يكنْ فِيهِ محذورٌ شرعيٌّ فلا بأسَ به.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ هل قوله: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صيَّر أو بمعـنى وَضَعَ؟ بمعنى وضعَ، وعلى هَذَا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُـولٍ وَاحِدٍ، وهو قوله: ﴿بُرُوجًا ﴾.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بُرُوجًا﴾ جمع بُرْج، والبرج فِي الأَصْلِ البناءُ العالي المرتفِع، وهَذِهِ البروجُ الشاملةُ للنجومِ لِعُلُوِّها هي فِي الحقيقةِ مثل الأبنيَةِ الشامخَةِ العاليةِ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [اثْنَي عَشَرَ]، هَذِهِ بَدَلٌ من ﴿بُرُوجًا﴾، يقول: [اثني عشر: الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرَطَان، والأَسَد، والسُّنْبُلة، والمِيزَان، والعَقْرَب، والقَوْس، والجَدْي، والدَّلْو، والحُوت]، اثنا عشر برجًا، بدأ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحمل لِأَنَّهُ وقتُ اعتدالِ الزمانِ الربيعيّ؛ لِأَنَّهُ إذا حلَّتِ الشَّمْسُ أوَّل يومٍ من بُرج الحَمَل تَساوَى الليلُ والنهارُ ربيعًا عند ابتداءِ برج الحمل، يَعْنِي يَكُون الليل اثنتَي عشْرَةَ ساعةً، ويَكُون النهار اثنتَي عشْرَةَ ساعةً.

هناك ثلاثةُ بُروج -الحَمَل والثَّور والجوزاء- إذا تَمَّت الجوزاءُ وبدأَ السرطانُ انتهى الليلُ فِي القِصَرِ، والنهار فِي الطُّول، يَعْنِي أن الشَّمْس تَنتهي إِلَى البُروج الشماليَّة بعد هَذِهِ الثَّلاثَة: الحمل والثور والجوزاء، ثم بعد ذلكَ تَنصرِف الشَّمْس إِلَى الجنوبِ: السَّرَطَان والأسد والسُّنبلة، هَذِهِ الثَّلاثَة إذا مضت تَساوَى الليل والنهارُ خريفًا بعد انتهاءِ طُولِ النهارِ. والميزان والعقرب والقوس هَذِهِ الثَّلاثَة إذا انْتَهَتْ يَنْتَهِي طُولُ الليلِ وقِصَر النهار، ثم تعود الشَّمْسُ فِي الجَدْي والدَّلْو والحُوت، إذا انتهى الحوت تَساوَى الليلُ والنهارُ ربيعًا.

وقد اختلف النَّاسُ هل يُبْدَأ بالحَمَل لِأَنَّهُ أحسنُ أيامِ السنةِ، حيث إن فِيهِ الاعتدالَ الربيعيَّ، أو يُبْدَأ بالمِيزان؛ لِأَنَّهُ هو وقتُ اعتدالِ الزمانِ الخريفيِّ المعروف والمشهور. والأكْثَرُ الَّذِي مَشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ يَبْتَدِئ بما فِيهِ الاعتدالُ الربيعيُّ، لكِن بعض النَّاس يَبتدِئ بالطرفِ الثَّاني ويزعُم أن هَذِهِ هي طَريقةُ العربِ، واللهُ أَعْلَمُ، لكِن الَّذِي أَرَى أَنَّ التقاويمَ أَكْثَرُها يبدأ بِهَذَا، ويَقُولُونَ: إن العرب يَبْتَدِئون

منْ الِاعتدالِ الخريفيّ، وإن العَجَمَ يبتدئون من الاعتدالِ الربيعيّ، وكون العجم يبتدئون من الاعتدال الربيعي هَذَا واضحٌ، والعجم -إيران وتوابعها- تؤرِّخ ابتداء السنة بالحمل؛ لِأَنَّ السنينَ عندهم شمسية ويَبْدَأونها ببُرج الحَمَل.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي مَنازل الكواكبِ السبعةِ السَّيَّارة؛ المِرِّيخ، وله الحَمَل والعقرب. والزُّهْرَة، ولها الثَّور والميزان. وعُطَارِد، وله الجَوزاء والسُّنْبُلة. والْقَمَر، وله السَّرَطان، والشَّمْس، ولها الأَسَد. والمُشْتَرِي، وله القَوْس والحُوت. وزُحَل، وله الجَدْي والدَّلْو].

على كلِّ حالٍ هَذَا التقسيمُ الأخيرُ لا أعرِف وجهَه، ولا أدري عنه، لكِن هَذِهِ البُرُوج الشَّمْس تَقْطَعُها فِي السنَةِ كما سمِعنا قريبًا، والْقَمَر يَقْطَعُها فِي الشهرِ، كل شهر يَقطع الْقَمَر هَذِهِ البروجَ، وله منازل: ثمانٍ وعشرونَ منزِلةً، تَشتَمِل عَلَى هَذِهِ البروجِ الاثْني عَشَرَ، أمَّا الشَّمْس فإنها تَقْطَعُها فِي السنة. وهَذِهِ البُرُوج يدلّ عَلَى عَظَمَتِها أن اللهَ قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ المراد بِهِ العُلُوّ، وليس المراد بِهِ السَّقْف المحفوظ، بل هو العُلُو؛ لأنَّ هَذِهِ البروج دُونَها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أَيْضًا ﴿سِرَاجًا﴾ هو الشَّمْس ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، وَفِي قراءة: سُرُجًا[1] بالجمعِ، أي نيِّرات، وخصَّ الْقَمَرَ منها بالذِّكر لنوعِ فضيلةٍ]، عَلَى هَذِهِ القراءة خص الْقَمَر منها بالذِّكر لنوع فضيلة، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: عُطِفَ القمر عَلَى سُرُج وهو منها لنوعِ فضيلةٍ، ولَكِن عَلَى قراءةِ الإفرادِ المرادُ بالسراجِ الشَّمْسُ، وسُمِّيَتْ سِراجًا والْقَمَر مُنيرًا؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ نورها ذاتيّ وحارّ،

(١) كتاب الحجة في القراءات السبع (ص٢٦٦).

والْقَمَر نوره مكتسَب مِنَ الشَّمْس، فليسَ بنفسِه سِراجًا، وإنما هو مُنيرٌ أو نورٌ، لَكِنَّ نورَه مكتسَب.

وعلى قراءةٍ (سُرُج) يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يعني نيِّرات] ومنها الْقَمَر نيِّر، لكِن خصَّه لنوع فضيلةٍ، لكِن أقول: إن كَلامَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فِيهِ نَظَرٌ، فعطفُ الْقَمَرِ المنير عَلَى السُّرُج من بابِ عَطْفِ المُتَغَايِرَيْنِ، لا من بابِ عطفِ الخاصّ عَلَى العامّ، فالْقَمَرُ لَيْسَ من السُرُج، ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦]، فالشَّمْسُ بلَا شَكٍّ سراجٌ، ولَكِن الْقَمَر نُور، فعليه لا يَكُونُ منها، ولا يحتاج إِلَى الجوابِ الَّذِي ذكر المُفَسِّر: خصَّ الْقَمَر لنوع فضيلةٍ، بل نقول: إن هَذَا لَيْسَ من بابِ التخصيصِ، ولَكِن من بابِ عطفِ المتغايِرَيْنِ، لكِن قراءة الجمع (وَجَعَلَ فِيهَا سُرُجًا) تدلّ عَلَى أنَّ غير الشَّمْسِ من الكواكبِ فِيهِ حرارة وفيه إضاءة أَيْضًا، لَكِنها لا تصل إِلَى الْأَرْض لِلْبُعد، ولَكِن هَذِهِ الآية تدلّ عَلَى أنَّ فِيهَا الحرارة والإضاءة. وإنما ذكر السُّرُج والْقَمَر المنير مع البروج لِأَنَّ البروج منازِل، وهَذِهِ الأشياء نازلةٌ، فذكر المنازل والنازِل جميعًا، وكلاهما مما يدلّ عَلَى آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العظيمة الَّتِي لا يُمْكِن أنْ يُقابِلَها أيُّ أحدٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٢)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يَخْلُفُ كلٌّ مِنهما الآخَرَ ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بالتشديد والتخفيفِ[1] كما تقدَّم]، (يَذْكر) أو (يَذَّكَّر) [ما فاته فِي أَحَدِهما من خيرٍ فيفعله فِي الآخر ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي شكرًا لنعمة ربِّهِ عليه فيهما].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ الضمير فِي قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ يعـود عَلَى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يَعْنِي: ومن آياتِـه ونِعَمِه أَنَّهُ جعلَ الليـلَ والنهارَ خِلْفَة، يَعْنِي يَخْلُف بعضُهما الآخرَ، هَذِهِ الخِلفة فِيهَا فائدةٌ عظيمةٌ جِدًّا، بل فائدتانِ عظيمتانِ:

أَوَّلًا: التذكُّر والاتِّعاظ.

ثانيًا: شُكْر النعمةِ.

ففي التـذكُّرِ يقول المُفَسِّر: [ما فاته فِي أحدهما من خير فيفعله فِي الآخر]، وهذا نوع من التـذكُّر فِي الواقعِ، لكِن من التذكر أنْ تَتَـذَكَّر بذلك قُدْرَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

---

(١) السبعة في القراءات (ص٢٧٢).

حيث أتى بالليلِ بدل النهارِ، وبالنهار بدل الليلِ، ولوِ اجتمعَ الخَلْق عَلَى أنْ يغيِّروا هَذَا النظامَ فيأتوا بالليلِ بدلَ النهارِ أو بالعكسِ ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا.

ثانيًا: مِمَّا تتذكره فِي هَذَا الليل والنهار تَذَكُّر المَوْتِ والحياة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وَفِي الحقيقةِ أن الْإِنْسَان إذا قامَ مِنَ الليلِ يشعر كأنه خُلِق من جديدٍ، يَعْنِي لو يتصور الْإِنْسَان أن الوقتَ كله نهار أو كله ليلٌ ما حَصَلَ هَذَا النشاط الَّذِي يَتَجَدَّد له كلَّ يومٍ، ويشعر بأنه دخلَ فِي حياةٍ جديدةٍ، ولهذا سمّاه الله تَعَالَى بَعْثًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]، حيثُ تتذكر البَعْث بعدَ المَوْت.

كَذَلِك أَيْضًا مما يتذكَّر ويتَّعظ بِهِ أَنَّهُ يتذكر مُطلَق البَعْث وأن الله قادِر، يتذكر أَنَّهُ لا بدَّ من يَقظَةٍ بعد الرَّقْدة، وذلك فِي يوم القيامةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]، فلا بدَّ مِن هَذَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ سُنَّة الله، لكِن يوم القيامةِ يوم وَاحِدٌ، لا ليلَ فِيهِ، بل هو دائمًا عَلَى ما هو عليه.

كَذَلِك أَيْضًا ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ التذكُّر العمليّ أن الْإِنْسَانَ إذا نَسِيَ عبادةً فِي ليلٍ قَضاها فِي النهارِ، أو فِي نهارٍ قَضاها فِي الليلِ، أو إذا لم يَتُبْ فِي النهار تابَ فِي الليل «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»(١) والنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ إذا غَلَبَهُ نومٌ أو وَجَعٌ فما يُصَلِّيه فِي الليلِ قَضَاهُ فِي النهارِ(٢) فهذا أَيْضًا من التذكُّر العَمَلِيّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم (٧٤٦).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الوِتْرُ يُصَلَّى عَلَى صِفتِه إذا كَانَ قضاءً؟

الصحيحُ أَنَّهُ لا يَقضيه عَلَى صفتِه، وأنه يشفعه؛ لِأَنَّ هَذَا حديثٌ ثابتٌ فِي مسلم، وهل يُسَمَّى وِترًا؟ نقولُ: يُسمَّى قضاءً، لكِن أصل الوتر «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا»(١)، فصلاة الليلِ انتهتِ الآنَ، فلا فائدةَ من الوترِ، لكِن ما كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَعَبَّد بِهِ لربِّه يجبُ أَلَّا يَفُوتَه، وهذا ما تَركَه عمدًا، بلْ تَركَه نسيانًا، وترك قَضَاءَه، وهو أهونُ من فعله، ولَكِن مع هَذَا نقولُ: لا يَنبغِي لِلإِنْسَانِ إذا كَانَ عادته أَنَّهُ يوتر بثلاث يصلي أربعًا، ولْيَتَذَكَّرِ الْإِنْسَانُ عندَما تقولُ لَهُ نفسُه: لا تَفْعَلْ هَذِهِ الطاعةَ أَنَّهُ سيحتاجُ إليها حاجةً عظيمةً.

وأمَّا قوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فـ(أَوْ) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنَى أنْ يَجْعَلَ هَذَا قَسِيمًا للأوَّلِ، فتكون مانعة اجتماع أو هي مانعة خلوّ؟

الجواب: مانعة خلوّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أَنَّهُ إذا وُجِدَ الأوَّلُ امتنعَ الثَّاني، لكِن مانعة الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجدَ هَذَا أو هَذَا، أو هما ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فهل يمكن أنْ يجتمعِا؟ نعم إذَنْ هي مانعةُ خلوٍّ.

قوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يَعْنِي أنَّ مَن أرادَ أنْ يَشْكُرَ نعمةَ ربِّه عليه فِي هَذَا النهارِ والليلِ فَإِنَّهُ له المجالُ، ولَا شَكَّ أن مَن تَذَكَّرَ نعمةَ اللهِ فِي هَذَا الليلِ والنهارِ لا بدَّ أنْ يَشْكُرَ اللهَ، ففي الليلِ سكونٌ وهدوءٌ، وكلُّ راقِدٌ، وكلُّ ساكنٌ، فيَطِيبُ النومُ، ويَلَذُّ، وتَحْصُل الراحةُ الكاملةُ، هَذِهِ نعمةٌ عظيمةٌ، وَفِي النهارِ الأمرُ بالعكسِ، فَفِي الْإِنْسَانِ نشاطٌ وقوّةٌ ورَغْبَةٌ فِي الكَسْبِ والعملِ، فيَزداد بذلك شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الوتر، باب ليجعل آخر صلاته وترا، رقم (٩٩٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، والوتر ركعة من آخر الليل، رقم (٧٥١).

عَلَى هَذِهِ النعمةِ، وليس هَذَا المجالُ أو هَذَا المكانُ بمحيطٍ لِمَا يَتَصَوَّرُه الْإِنْسَان من نعـمةِ اللهِ تَعَالَى عليه بِهَذَا الليلِ والنهارِ، فالْإِنْسَـان أحيانًا يُفتح عليه عند التأمُّل والتفكُّر ما يَتَبَيَّن بِهِ نعمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْثَر مما نقول ومِمَّا نستطيع أن نقـولَ، ولو أنَّ الْإِنْسَانَ سَهِرَ ليلةً مِنَ الليالي لَتبيَّنَ له نعمةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى النَّاسِ بِهَذَا الليلِ وهذا النهارِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٨-٨٩]، السؤال بـ(مَنْ) الجواب: لله؟

هَذِهِ فِيهَا قراءتانِ؛ هَذِهِ القراءة الَّتِي ذُكرت فِي السؤالِ، وَهِيَ الَّتِي فِي المصحف، وقراءة ثانيةٌ سَبْعِيَّة: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، أَمَّا الأُولى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٨٤]، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٥]، يَعْنِي الأولى ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لِأَنَّ السؤال ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾، الثَّانية ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، فِيهَا قراءتان: الجواب ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وقراءة ثانية سبعيَّة ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، والثالثة أَيْضًا ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الجواب: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أو ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾(١)، أَمَّا ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فلا إشكال فِيهَا، لكِن عَلَى قراءة ﴿لِلَّهِ﴾ يكُون المعنى: سيقُولُونَ: ذلك لله، أي الربوبيَّة العظيمة الَّتِي هي رُبُوبية السَّمواتِ والْأَرْضِ لله، أمَّا عَلَى قراءة ﴿ٱللَّهُ﴾ فالمعنى: سيقُولُونَ: هو اللهُ.

---

(١) المبسوط في القراءات العشر (ص٣١٣).

الآيــة (٦٣)

• • ☙ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٣].

• • ☙ • •

مرَّ فيما سبقَ أنَّ الله تَعَالَى أَثْنَى عَلَى نفسِه بمخلوقاتِهِ العظيمةِ؛ الْبُرُوج الَّتِي جعلها فِي السَّماء لِمَا تَتَضَمَّنَه مِنَ الدلالةِ عَلَى قُدْرتِهِ وعلى رَحْمَتِه بعبادِهِ، وكَذَلِك الْقَمَرُ والشَّمْسُ، ففيهما من مصالحِ العبادِ الدينيَّة والدنيويَّة ما هو معلومٌ، فالْقَمَر جَعَلَهُ الله تَعَالَى مِيقاتًا للحجِّ وللصومِ ولآجالِ النَّاسِ فِي بَيْعِهِم وشِرَائِهِم ودُيُونِهم، وغيرِ ذلكَ، والشَّمْسُ فِيهَا منافعُ أَيْضًا كثيرةٌ؛ مِن إنضاجِ الثمارِ وتعاقُبِ الليلِ والنهارِ والفصولِ وغيرِها، ثمَّ بَيَّن أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً، يَخْلُفُ أحدُهما الآخَرَ، ولَكِنَّ هَذِهِ الآيَةَ لا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّر أو أرادَ شُكُورا، ﴿يَذَّكَّرَ﴾ يَعْنِي ما فيهما من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإشارة إِلَى ما هو أعظمُ من البعثِ والنشورِ يوم القيامةِ، فإنَّ الليلَ والنوم فِيهِ بمنزلة المَوْتِ والنهارِ، والاستيقاظُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ البَعْثِ، وَأَمَّا الشُّكُور، فَإِنَّهُ لَمَّا تَضَمَّن هَذَا التخالُف بَيْنَ الليلِ والنهارِ مِن مصالحِ العبادِ ما تَضَمَّنَهُ صارَ مُسْتَوْجبًا عَلَى العبدِ أنْ يشكرَ نعمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليه بذلكَ.

ثم بَيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدَ أنْ ذكرَ ما سبقَ عن المشركينَ المجادِلينَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والمكذِّبين له الَّذِينَ لم يَنْتَفِعُوا بآياتِ اللهِ، ولم يُؤْمِنُوا بِهِ، ولا برسولِهِ؛

ذَكَرَ أو خَتَمَ هَذِهِ السورةَ بذِكْرِ مَن كانوا عَلَى خلافِ هَؤُلَاءِ، وهكذا القُرْآنُ جَعَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثانيَ تُثَنَّى فِيهِ المعاني المتقابِلَة والمتماثِلَة أَيْضًا، ولهذا دائمًا تجدُ أَنَّ اللهَ إذا ذكرَ النارَ يذكُر الجنَّة، وإذا ذكرَ الجنَّةَ ذكرَ النارَ، وإذا ذكرَ صفاتِ أهلِ النارِ ذكرَ صفاتِ أهلِ الجنَّة، وهكذا؛ لِأَنَّهُ مثانٍ، وهذا من الحِكْمَةِ؛ لأنَّ الْإِنْسَانَ إذا رَأَى النارَ وصِفات أهلِهَا قد يُؤَدِّي ذلكَ إِلَى القُنُوط من رحمةِ اللهِ، فيأتي بعده ذِكْر الجنَّة وأهلها فينْشَط ويَرْجُو رحمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعكسُ بالعكسِ.

وَمِنَ المعلوم للإِنْسَانِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ عَلَى وَتيرةٍ وَاحِدةٍ لَحِقه السَّأَم والمَلَل، فإذا تنوَّعتْ له الأحوالُ وتنوَّعَ الخطابُ نَشِطَ فيبدأ بالجنَّة أحيانًا وبالنار أحيانًا حَسَبَ ما يَقْتَضِيه السياقُ، إِنَّمَا فِي الغالبِ إذا ذكر الصِّفاتِ لهذا ذكر الصِّفاتِ لهذا؛ ليَكُون الْإِنْسَانُ غيرَ مالٍّ وغيرَ قانطٍ من رحمةِ اللهِ، وغير آمِنٍ من مَكْرِه.

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾: (الرَّحمن) كُرِّرت فِي مَوَاضِعَ قريبةٍ جدًّا ثلاثَ مرَّات.

- فِي قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

- وَفِي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

- والثالثةُ هُنا فِي قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ثم السُّورة كُلّها مُصدَّرة بالقُرْآنِ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ مِمَّا يدلّ عَلَى أَنَّ نُزُولَ هَذَا القُرْآنِ مِن رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأٌ، وما بَعْدَهُ صفاتٌ له، إِلَى أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ غير المُعْترضِ فِيهِ].

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عِبادُ جمعُ عبدٍ، وأضافهم إِلَى الرَّحمنِ ولم يَقُلْ: عباد اللهِ، أو عباد الربِّ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ العُبُودِيَّة الَّتِي اتَّصَفُوا بِهَا من آثارِ رحمةِ اللهِ، وأن الله تَعَالَى رَحِمَهُمْ حَتَّى صاروا عبادًا له. وَفِي الإضافةِ أَيْضًا معنًى آخرُ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي أَنَّهُمْ عبادٌ يَتَعَبَّدُونَ لله لِرَجَاءِ رحمتِه، وبرحمتِه أَيْضًا عَبَدُوه، لا يَتَعَبَّدُون رِيَاءً ولا سُمْعَةً، فهذا وجهُ الإضافةِ من الناحيتينِ؛ من ناحيةِ أنَّ عِبَادَتَهُم لله كانتْ مِن مُقْتَضَيَاتِ رحمتِه، ومن ناحيةٍ أُخرى أَنَّهُمْ يَرْجُونَ بِهَذِهِ العِبَادَةِ رحمةَ ربِّهم، لا يرجونَ بذلك دنيا ولا دَفْعَ مَذَمَّةٍ عنهم، وإنما يَرْجُونَ بِهَذَا رحمةَ اللهِ.

وهَذِهِ العُبُودِيَّة خاصَّةٌ؛ لِأَنَّ المرادَ بِهَا عُبُوديَّةُ الشَّرعِ، وعبودية الشرع خاصَّة بِمَن أتى بالشرعِ. أمَّا العامَّةُ فهي عُبوديَّة القَدَر، وَهِيَ الخُضُوع لِقَدَرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهَذِهِ عامَّة، كل أحدٍ خاضِعٌ لِقَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يُمْكِن أنْ يَسْتَعْصِيَ عليه، وَأَمَّا قول المُفَسِّر: [مبتدأ وما بعده صفات له] يَعْنِي: والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ [الفرقان:٧٥]، ففيه نَظَرٌ، بل الصواب أن (عباد) مبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، وما بعدَه معطوف عليه، يَعْنِي عباد الرَّحمن هم الَّذِينَ يمشُون عَلَى الْأَرْضِ هونًا إِلَى آخِرِهِ، ويكُون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ جملةً مُسْتَأْنَفَةً لبيانِ جزائِهم وثوابِهم؛ وذلك لأَنَّنا إذا مَشَيْنا عَلَى ما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لَزِمَ مِن هَذَا الفصلِ بَيْنَ المبتدأِ والخبرِ بفواصلَ طويلةٍ، لا داعيَ لها، ولَزِمَ أنْ يَكُونَ الكَلَامُ غيرَ تامٍّ حَتَّى نهاية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أيْ بِسَكِينَةٍ وتَوَاضُعٍ]، قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أبلغُ من (الماشون عَلَى الْأَرْض هَونًا)؛ لأنَّ الجملةَ الفعليَّة تَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ والتَّجَدُّدِ، يَعْنِي الذينَ فِي حالِ مِشْيَتِهِم يَمشُون

عَلَى الْأَرْض هونًا، وَفِي تعريفِ المبتدأِ والخبرِ دليلٌ عَلَى الحَصْرِ كما هو معروفٌ فِي القواعِدِ؛ أَنَّهُ إذا عُرِّف المبتدأُ والخبرُ كَانَ ذلك دليلًا عَلَى الحَصْر، يَعْنِي أنَّ عبادَ الرَّحمنِ هم هؤلاءِ.

قولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في سَكِينَةٍ وتَوَاضُعٍ] يَعْنِي ليستْ مِشْيَتُهم مِشْيَةَ الإِنْسَانِ الَّذِي لَيْسَ بِمُتَّزِن، وإنما مِشْيَتُهم مِشْيَةُ اتِّزانٍ، هَوْنًا بِدُونِ سُرْعَةٍ، ولا ينافي ذلك ما ثَبَتَ عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي بِقُوَّةٍ وجَلَد كأنما يَنْحَدِرُ مِن صَبَبٍ[1]، فإنَّما ذلك لِقُوَّتِه، وليس هَذَا من بابِ العَجَلَة الَّتِي تُقَبَّح، ففَرْقٌ بَيْنَ إنْسَانٍ يمشي كمِشيةِ المجنونِ غير المهذَّب، وإنْسَان يَمشي بقوَّةٍ ولَكِنَّه يمشي مشيًا مُتَّزِنًا، فالأَوَّلُ مذمومٌ، والثَّاني محمودٌ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى النشاطِ وعلى القوَّة، وأريحُ للبَدَنِ وأسرعُ فِي بلوغِ الغايةِ، كما كَانَ الرَّسولُ ﷺ يفعَلُ، وأيضًا كَانَ عمرُ إذا رأى الرجل يَتَوَانَى فِي مِشْيَتِه ضَرَبَه.

ثُمَّ إنَّ هَذَا المشيَ هل هو المشيُ الحِسِّيّ أو يَعُمُّ المشيَ الحِسِّيَّ والمَعْنَوِيَّ؟

الجواب: يَعُمُّهما جميعًا، حَتَّى المشي المَعْنَوِيّ، بدليل قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، وهذا من هَوْنِ المشي المعنويّ، أَنَّهُمْ إذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ لا يَتَسَرَّعُونَ فيقابلونه بمثلِ جَهْلِه، ولَكِنَّهم يَقُولُونَ: سلامًا.

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وليسَ المرادُ بالجاهلِ الَّذِي لَيْسَ بعالمٍ، بل المرادُ السَّفِيهُ؛ لأنَّ الجَهالَة تُطْلَق عَلَى السَّفَه، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء:١٧]، يَعْنِي السَّفَه، ثم يَرْشُدُون.

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب المناقب، رقم (٣٦٣٧).

يقول المُفَسِّر: [﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ بما يَكْرَهُون ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾، أي: قولًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الإثم]، وليس المراد (سلاما) يَعْنِي: السلام عليكم، كما يَظُنُّ بعضُ العامَّة، ولذلك تَسَلَّط الفعلُ عَلَيْهَا فَنَصَبَها، ولو كَانَ المرادُ بالسلامِ الجملة السلامية لقال: (قالوا: سلام)، ولَكِن المراد مثلَما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قولًا يسلمون فِيهِ من الإثمِ] ومن التطاوُلِ فِي الأذيَّةِ؛ لأنَّ الرجلَ إذا قابلَ الجاهلَ بمثلِ قولِه فالجاهلُ لا حدودَ له، لا يَحُدُّه شَرْعٌ ولا عقلٌ، إذا قَالَ كَلِمَةً أتاهُ بكلمتينِ، أو بعشَرةٍ، لَكِنه إذا كَانَ عاقلًا مؤمنًا مُتَّزِنًا فَإِنَّهُ يقولُ قولًا يَسْلَمُ فِيهِ مِنَ الإثمِ ومن الأذيَّة، وهذا القَوْلُ يَحْفَظُ للإنْسَانِ كَرَامَتَهُ؛ لِأَنَّهُ لم يَقُلْ: إنهم يَسْكُتُون، بل قَالَ: قَالُوا قولًا، فلا بدَّ من قولٍ لَكِنَّه قولٌ يَسْلَمُون بِهِ من أذيَّة هَذَا الجاهلِ ومن إثمِه، ومن النزاع والخصومةِ، ويَنتصِرون لأنفسِهم، فلا يحسبهم الجاهلُ جُبَنَاءَ ولا يحسبهم مُتَّصِفِينَ بما يقـول إذا سَكَتُوا؛ لأَنَّهُمْ إذا سكتـوا مع القُدْرَة عَلَى الإنكارِ فَإِنَّـهُ يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ راضونَ بما وُصِفُوا بِهِ، ولا بدَّ من مُقَابَلَتِهِم، ولَكِنْ كما قَالَ الله تَعَالَى بقولٍ يَسْلَمُ فِيهِ الْإِنْسَانُ منَ الإثمِ فيما بينَه وبينَ اللهِ، ومن اللَّجاج والخُصُومة فيما بينَه وبينَ هَؤُلَاءِ الجاهلينَ.

قوله: ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ مثـالُ ذلك لو قَالَ له: أنت فاسِقٌ، أنت سَروقٌ، أنـت كَذوبٌ، أنت كذا، ولا نستطيع أنْ نحدِّد؛ لِأَنَّ هَذَا يَرْجِعُ تحديدُه إِلَى الحالِ أو المقامِ الَّذي يَكُون فِيهَا الْإِنْسَانُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إذا سكت عنه سَيَنْتَهِي؟

نقول: الآيةُ ما تعرضتْ لهذا، لكِن لو رُوعِيَتِ المصلحةُ فلا بأسَ، فهم هنا وَصفهم أَنَّهُمْ يَقُولُونَ قولًا يَسلَمون فِيهِ مِنَ الإثمِ، لكِن القَوْل أحسن فِي الغالبِ،

وليس معنى القَوْلِ أن يردَّ عليه، فمن القَوْلِ أن يَنْصَحَهُ؛ يقول: يا أخي، اتقِ اللهَ، مثلما قَالَ الرَّسول ﷺ فيمَن شُتِمَ وهو صائمٌ، قال: «فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ»[1] فالمهمُّ أنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ؛ لِأَنَّ سكوتَه قد يؤدِّي إِلَى استطالةِ الآخرِ عليه ويَعْتَقِد أَنَّهُ ضعيفٌ أمامَه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، هل هَذِهِ الآيةُ مثل قَوْلِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؟

نقول: هَذِهِ الآية غير تِلْكَ، فَقَوْلُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾ الخِطَاب مَعَهم، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ يَعْنِي أَنَّ الكَلامَ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ فقَامُوا وَتَركُوهم وقالوا: سلامٌ عليكمْ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم (١٨٩٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم، رقم (١١٥١).

الآيــة (٦٤)

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٤].

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا ﴾ جَمْع سَاجِد ﴿وَقِيَٰمًا﴾ بمعنى قائمينَ، أي يُصَلُّون الليلَ]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يصلون الليل] أَخَذَهُ من قَوْلِهِ: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا ﴾ هَذَا معطوفٌ عَلَى ما سَبَقَ، وتقديم المعمولِ أو المُتَعَلِّق يَدُلّ عَلَى الحَصْرِ، يَعْنِي: لا يَسْجُدُون رِيَاءً ولا سُمْعَةً، وإِنَّما يَسْجُدُون لله وَحْدَهُ: لِرَبِّهِم، وَفِي قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ دونَ قولِهِ: (لله) إشارةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا السجودَ يُرِيدُونَ بِهِ ثوابَ اللهِ ورِضْوَانَه؛ لِأَنَّ الربَّ هو المالِكُ المتصرِّف، ومِن مُلْكِه وتَصَرُّفِه مُجَازَاة هَؤُلَاءِ عَلَى أعمالِهم.

وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ الساجِدُ معروفٌ، ﴿وَقِيَٰمًا﴾ والقائم أَيْضًا معروفٌ، يَعْنِي قائمينَ، ولم يَذْكُرِ اللهُ الركوعَ، ولم يَذْكُرِ القعودَ؛ لِأَنَّ القيامَ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ ذِكْرُه؛ أي مِن حيثُ الذِّكْرُ الَّذِي هو القُرْآنُ، والسجودُ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ الحالُ والهيئةُ، قَالَ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[(١)]، فَذَكر القيامَ لِشَرَفِه بِذِكْرِه، أي: بما يُقالُ فِيهِ، وذكرَ السجودَ لِشَرَفِه بِهيْئَتِهِ، فدلَّ ذلكَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

عَلَى أنَّ هَذَا أفضلُ حالاتِ الصلاةِ، وهوَ كذلكَ.

وقوله: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ ظاهرَ الآيةِ الكريمةِ أنَّهم يَسْهَرُون الليلَ؛ لِأَنَّهُ ذكرَ أنَّ وَصْفَهم فِي حالِ البياتِ القيامُ والسجودُ، فهل معنى ذلك مشروعيَّة قِيامِ الليلِ كلّه؟

نقولُ: إذا أَخذْنَا بظاهرِ الآيةِ فَهُوَ كَذَلِك، ولَكِن ما جاءتْ بِهِ السنَّةُ يدلُّ عَلَى خلافِ هَذَا، وأنَّ أفضلَ ما يَكُونُ أنْ ينامَ الْإِنْسَانُ نصفَ الليلِ ويقوم ثُلُثَه، وينام سُدُسَه[1] كما كَانَ ذلك صلاة داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وصلاة النَّبي ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ ينامُ سَحَرًا ويقوم فِي جوفِ الليلِ ﷺ، فيَكُون عَلَى هَذَا معناهُ أنَّهم يَبِيتُونَ غالبَ لَيْلِهِم، أو أن الله يَكْتُبُ لهم أَجْرَ الصلاةِ والقيامِ، وإنْ كانوا بائتِينَ، ما داموا عَلَى هَذِهِ النيَّة، وعلى هَذَا الفعلِ، ما داموا يفعلون ويَنْوُون أنَّهُمْ إذا ناموا إنَّما ينامون لِيَتَقَوَّوْا عَلَى القيامِ، فيكتب لَهُمْ أَجْره وإنْ كانوا نائمينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿يَبِيتُونَ﴾ لا يَلْزَمُ منه القيامُ بالليلِ، بل المرادُ مُطْلَق القيامِ؟

الجواب: لكِن قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَبِيتُونَ﴾ والبياتُ لا يَكُونُ إِلَّا باللَّيْلِ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما، رقم (٣٤٢٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم، رقم (١١٥٩).

الآيـة (٦٥)

• • ☙ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].

• • ☙ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أيْ لَازِمًا]، هَذَا مِمَّا يَدْعُونَ اللهَ به.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ فِي قولِهم: رَبَّنا اصْرِفْ عنَّا عذابَ جهنَّم دليلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لا يُدِلُّون عَلَى الله بأَعمالِهم، وأَنَّهُمْ معَ قيامهم بِهَذَا العملِ خائفونَ منَ النارِ، ولذلك يسألون الله تَعَالَى أن يَصْرِفَ عنهم عذابَ جَهنَّم، وجهنمُ اسْمٌ من أَسْماءِ النارِ، وسُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا بَعِيدةُ القَعر مُظْلِمَة.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أيْ لَازِمًا كملازمةِ الغَريمِ لِغَريمه، وهذا بالنسبةِ للعذابِ المطلَقِ، لا لِمُطْلَقِ العذابِ؛ لِأَنَّ مطلقَ العذابِ لَيْسَ بلازم، فالمؤمنُ يعذَّب بالنارِ عَلَى حَسَب ذُنُوبِه، ثم يخرج مِنها إِلَى الجنَّة، لكِن عذابها المُطْلَق غَرامٌ ملازِمٌ لها، فهم يسألون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يَصْرِفَهُ عنهم، ويُبيِّنُونَ مِقْدار هَذَا العذابِ الَّذِي استعاذوا باللهِ منه أَنَّهُ ملازِم لِمَن أُخِذوا به.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يخبر الله تَعَالَى أن من صفاتِهم أَنَّهُمْ يَتوسَّلُون إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِرُبُوبِيَّته لِيَصْرِفَ عنهم عذابَ جَهنَّم، والغالبُ

أنَّ الأدعِيَـةَ تُصَدَّرُ بالتوسُّلِ بالربوبيَّـةِ: (رَبَّنا)؛ لِأَنَّ فِيهَا التصرُّف والتدبـير. وَفِي قولهم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ توسُّل أَيْضًا؛ لِأَنَّ شِـدَّة هَذَا العذابِ وَمُلَازَمته يُوجِب للمرءِ الفِرار منه والاستعاذة باللهِ مِنْهُ.

• ● ● •

الآيــة (٦٦)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٦٦].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ ﴾ بَئِسَتْ ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ هي أي مَوْضِع استقرار وإِقَامَة].

قوله: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ ﴾ هَذِهِ الجملةُ يَحتمِلُ أَنَّهَا مِن كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويحتمل أنها من كَلامهم، يَعْنِي أَنَّهم استجاروا من النارِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَبَيَّنوا سَبَبَ ذلكَ بأن عَذَابَهَا دائمٌ، وأنها أَيْضًا بئست المَحَلّ للاستقرارِ والمُقام، فكأَنَّهُمْ بيَّنوا سَبَبَ استعاذتهم باللهِ مِنها بهذينِ الأمرينِ؛ بدوام عذابِهَا وبِسُوء مُقامها، والعياذُ باللهِ، مِمَّا يَحْفِزهم لسؤالِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنْ يَصْرِفَ عنهم هَذَا العذابَ.

قولـه: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ عكس أهل الجنَّـة ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤]، وقوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ قد يدلُّ أنَّ فِي النارِ خَيْرِيَّة كما هو مُقْتَضَى اسْم التفضيلِ، وليسَ كذلكَ.

• ● ۞ ● •

الآية (٦٧)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان:٦٧].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ عَلَى عِيَالِهِم ﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ بفتحِ أَوَّلِه وضَمِّه، أي يُضَيِّقُوا]، فتح أوله ﴿يَقۡتُرُواْ ﴾ وضَمِّه أي ضمّ أَوَّله، الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُفْصِحْ فِي القراءةِ، يَعْنِي لم يَذْكُرْ حُكْمَ التاء فِي المسألةِ الأخيرةِ؛ لِأَنَّ ﴿يَقۡتُرُواْ ﴾ ليست بظاهرةٍ من جهةِ التصريفِ، قَالَ: بفتحِ أَوَّله وضمه: «ولم يَقْتُروا»، «ولم يُقْتُروا»، هَذَا ظاهر كَلامه، وليس كَذَلِك، وإنما إذا قُرِئَ بضمِّ الياءِ كُسِرَتِ التاءُ: «ولم يُقْتِروا» من أَقْتَرَ الرُّبَاعِيِّ، لكِن فِي الثلاثيّ: «ولم يَقْتُروا» قراءة ثانية بكسر التاء: «ولم يَقْتِروا»، فتكون القراءات عَلَى هَذَا ثلاثةً: «ولم يَقْتُروا» «ولم يَقْتِروا» «ولم يُقْتِروا»[1]، والإقتار بمعنى الإقلال والتضييق.

قوله: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ قول الْمُفَسِّر: [على عِيَالِهِم] تَخْصِيصُه بالإنفاقِ عَلَى العِيَالِ فِيهِ نَظَرٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أنْ يُرِيدَ بذلكَ المَثَل، يَعْنِي مِثل الإنفاقِ عَلَى العِيالِ، وإِلَّا فَهُوَ شامِلٌ للإنفاقِ عَلَى العيالِ والإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ، وَفِي الزَّكَوات والصَّدَقَات، والإنفاق فِي وُجُوهِ الخيرِ، وَفِي كلِّ ما يَكُونُ إنفاقًا؛ لِأَنَّهُ لم يُبَيِّنِ الْمُتَعَلَّق، لم يَقُلِ اللهُ:

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

(أَنْفِقُوا عَلَى عِيالِهِم)، بل أطلَقَ، فيَشْمَل كلَّ ما أنفقوهُ؛ عَلَى العِيَالِ وعلى غيرِهِم، فهَؤُلَاءِ إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا، والإسرافُ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ كمِّيَّة أو كيفيَّة، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ يُضيِّقوا، فالإقتارُ هو الإقلالُ والتضييقُ، وفُهِم معناهُ مِمَّا قُوبِلَ بِهِ؛ وهو قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾، مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، ﴿ثُبَاتٍ﴾ لا يستطيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ ما معناها أبدًا، لَكِن لَمَّا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ عَرَفْنَا أَنَّ معنى (ثُبات): مُتَفَرِّقِينَ، وهذا مِمَّا يُعرف بِهِ تفسيرُ القُرْآنِ، فيُعرف تفسيرُ الكلمةِ بِمُقارنتها بما يُقابِلها.

قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكَانَ﴾ إنفاقُهُمْ بَيْنَ ذلكَ الإسرافِ والإقتارِ ﴿قَوَامًا﴾ وَسَطًا].

وقوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ تعودُ إِلَى الإسرافِ والإقتارِ، يَعْنِي كَانَ الإنفاقُ بَيْنَ ذلكَ المذكورِ؛ وهو الإسرافُ والإقتارُ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قَوَامًا﴾ أي مُستقيمًا، وإنما قال: ﴿قَوَامًا﴾ يَعْنِي مُستقيمًا لِأَنَّهُ قد يميل إِلَى الإسرافِ وقد يميلُ إِلَى الإقتارِ بِحَسَبِ الحالِ، يَعْنِي ما بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ مَنْزِلَةً، لَكِنْ قد يَكُون الأمرُ يَقتضِي أَنْ يميلَ إِلَى الإسرافِ، وقد يَكُون الأمرُ يقتضي أَنْ يميلَ إِلَى الإقتارِ، ولهذا قَالَ: ﴿قَوَامًا﴾، فلم يَقُلْ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وسكتَ، بل قَالَ: ﴿قَوَامًا﴾؛ يَعْنِي مُستقيمًا، إنْ كَانَ الأمرُ يَتطَلَّب أَنْ يَزِيدُوا قليلًا عَلَى الوسَطِ زادوا، وإن كَانَ الأمرُ يَتطَلَّب أَنْ يَنْقُصُوا نَقَصُوا، مثالُ ذلكَ إذا قَدَّرنا أن الإنفاقَ فِي هَذِهِ الجهةِ إنفاق ألف دِرْهَم يُعْتَبَر إسرافًا، وإنفاق أربع مئة دِرْهم يُعتبر إقتارًا، بينهما الآن ست مئة دِرهم، أحيانًا تكون الحال تَقتضي أَنْ يجعلوها تسعَ مئة، ويَكُون الفرق مئة، وأحيانًا تكون الحال تَتطَلَّب أن يجعلوها خمس مئة،

فيَكُون الفرق مئة، وأحيان تكونُ الحالُ تَقتضِي أنْ يَكُونَ سَبْع مئة، المُهِمُّ أَنَّهُ بَيْنَ ذلكَ قـوامًا، يَعْنِي عَلَى وَجْـهٍ تقـومُ بِهِ الحالُ، سواء ارتفعَ وقـرُب مِنَ الإسراف، أو انخفضَ وقربَ منَ الإقتارِ، فهَذَا معنى قولِهِ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾؛ يَعْنِي لا تُسْرِف، لكِن أحيانًا تَتَطَلَّب الحالُ أن تزيدَ، مثل لو أنَّ أحدًا دعا أُناسًا ذوي جاهٍ ومكانةٍ، هَؤُلَاءِ يُزادُ لهم بعض الشَّيْء، ومَن كَانَ دونَ ذلكَ فالحِكْمَةُ تَقتضي أنْ يُعْطَوْا بِقَدْرِ حالِهِمْ.

والإنفاقُ بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ هو داخلٌ فِي قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، إذا جَعَلْنَا المشيَ مَشْيًا معنويًّا؛ لِأَنَّ هَذَا من المشيِ المعنويِّ الهَيِّن الَّذِي لا يَميلُ إِلَى السرعةِ ولا يميلُ إِلَى الانحطاطِ.

• • ❁ • •

الآيتان (٦٨، ٦٩)

•••

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩].

•••

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: ﴿إِلَٰهًا﴾ بمعنى: معبودًا، و﴿لَا يَدْعُونَ﴾ هل المراد دعاءُ المسألةِ أو دعاءُ العِبَادَةِ أو هما؟

المرادُ كِلاهما، يَعْنِي لا يَدْعُون دعاءَ مَسألةٍ ولا يدعون دعاءَ عِبادةٍ، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، فدلَّ ذلك عَلَى أنَّ الدعاءَ عِبادةٌ، وقد جاء فِي الحديثِ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١) وهو ضعيفٌ، لَكِنَّه فِي الحقيقةِ واضحٌ، فدعاء الطلبِ واضحٌ أَنَّهُ يُسَمَّى دعاءً، يَعْنِي تقول: يا ربِّ اغْفِرْ لي.

ودعاء العِبَادَة كيف كَانَ دعاءً؟

نقولُ: لأنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْبُدُ الله عَزَّوَجَلَّ هو داعٍ بلسانِ الحالِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يرجو

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨).

رحمةَ اللهِ، ويخافُ عذابَه، فالْإِنْسَان إذا صلَّى وزكَّى وصامَ وحجَّ وبرَّ والديْه ووصلَ رَحِمَهُ ماذا يريد بذلك؟ يريد بذلك ثوابَ اللهِ، فكأنَّه يقولُ: رَبِّ أَثِبْنِي وأَعْطِنِي الجنَّة وأَنْجِنِي منَ النارِ، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، لهذا سُمِّيَتِ العِبَادَةُ دعاءً، فحقيقةُ الأمرِ أنَّ التعبُّدَ لله دعاءٌ بلسانِ الحالِ، فإنَّ الْإِنْسَانَ العابدَ لو سألته: لِماذا عَبَدْتَ اللهَ؟ قَالَ: رجاءَ ثَوَابِهِ وخوفَ عِقابِه، فَهُوَ فِي الحقيقةِ داعٍ.

وَأَمَّا دُعاءُ المسألةِ فواضِحٌ، لكِن كيفَ كَانَ دعاءُ المسألةِ عبادةً؟ نقول: لِأَنَّهُ يدلُّ عَلَى الذلِّ والخُضُوعِ، فَهُوَ راجٍ خائِف لِمَن دعاهُ، ولأنه مُقِرّ بأنه لا يقدر عَلَى الإجابةِ إِلَّا الله، فكأنه ثناءٌ عَلَى اللهِ، والثناءُ عَلَى اللهِ مِنَ العِبادَةِ، وهَذِهِ هي حقيقةُ العِبَادَةِ، فهم لا يَدْعُون معَ اللهِ إلهًا آخرَ، لا دعاءَ عبادةٍ ولا دعاءَ مسألةٍ، ولا يُنافي هَذَا أن يسألوا المخلوقينَ ما يقدِرون عليه، فإنَّ ذلكَ باعتقادِهِمْ أنَّ هَؤُلَاءِ المسؤولينَ سَبَبٌ، ولَيْسُوا مُسْتَقِلِّين، فعندما يسألُ الْإِنْسَانُ غنيًّا أو سلطانًا شَيْـئًا منَ الدراهمِ فهو يَعتقِد أنَّ هَذَا المسؤولَ مجرَّد وسيلةٍ فقطْ، وليسَ مستقِلًّا بالعطاءِ والمنعِ، وإنما العطاءُ والمنعُ بِيَدِ اللهِ، وهذا الَّذِي أعطاكَ أو مَنَعَكَ إِنَّما هو وسيلةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتُمْ أنَّ عِبادَ الرَّحمنِ يجوزُ لهم سؤال المخلوقينَ ما يَقدِرونَ عليه، فكيف نَجمَعُ بَيْنَ هَذَا وقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]، وكَذَلِك ما وردَ فِي الأحاديثِ فِي النهيِ عن السؤالِ؟

الجواب: السؤالُ أحيانًا يَكُونُ محمودًا، وأحيانًا يَكُونُ مذمومًا، وأحيانًا يَكُون مكروهًا؛ إِمَّا كَرَاهة أو تَحريما، لأنَّ الْإِنْسَانَ قد يسأَلُ عندَ الضرورةِ، فمُباحٌ له أَنْ يسأَلَ عندَ الضرورةِ، يَعْنِي لو أنَّ الْإِنْسَانَ جاعَ حَتَّى وصلَ إِلَى حدٍّ إِمَّا أن يموتَ وإما أن يسألَ فهنا يجوز له أنْ يسألَ، يجوز فِي الأَصْلِ وقد يَجِب.

المهمُّ أننا نتكلمُ عَلَى حالةٍ لا يُذَمّ فاعِلُها.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كَلِمة فِعَال دائمًا تأتي بمعنى مَفْعُولٍ، مثل بِناء بمعنى مَبْنِيّ، وغِرَاس بمعنى مَغْرُوس، وفِراش بمعنى مفروشٍ، فإِلَه بمعنى مَأْلُوه، والمألوهُ هو المعبودُ المتقرَّب إليه بالعِبَادَةِ، وعلى هَذَا فأصنامُ المشركينَ تُعتبر آلهةً باعتبارِ فِعْلِهم، أمَّا باعتبارِ الحقيقةِ فإنها ليستْ آلهةً فِي الحقيقةِ؛ لأنَّ الأُلُوهِيَّة حقًّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها إِلَّا بالحقِّ]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن المَفْعُولَ محذوفٌ تقديره (قتلها)، ويمكن أن نجعلَ المَفْعُول المحذوف ضميرًا فقطْ، فيَكُون صِلَة الموصول حُذف منه العائدُ، أي: الَّتِي حَرَّمها اللهُ، والمراد بِتَحْرِيمِها تحريمُ قَتلِها وأَذِيَّتها، والنفس الَّتِي حَرَّمَ اللهُ أربعةُ أنفُسٍ؛ المُسلِمُ، والذِّمِّيّ، والمعاهَد، والمستأمَن، هَذِهِ هي الأنفسُ الَّتِي حرَّم اللهُ، فهَذِهِ الأربعة أنفس محرَّمَةٌ.

ثمَّ إنَّ المسلمَ أَيْضًا قد يُبيحُ اللهُ قتلَه معَ إسلامِهِ؛ كالزاني المحصن، والقاتِل عَمدًا، فإن قتلَه مُباحٌ، معَ أَنَّهُ مسلِمٌ، لَكِنَّنا نقولُ: إن قتلَ المسلِم بهَذِهِ الأَسْبابِ طارئٌ، وإلَّا فوَصْف الإسلامِ مُحَرِّم لِقَتْلِه.

والذِّمِّي هو مَن عُقد معه عَهْدٌ عَلَى بَذْلِ الجِزْيَةِ والحماية. والمعاهَد مَن وَقَعَ بيننا وبينه عهدٌ بعدمِ القتالِ مُدَّةً معيَّنَةً، أو غيرَ معينةٍ، بدون حمايةٍ وبدونِ جزيةٍ.

والمستأمَن مَن دخلَ ديارَ المسلمينَ مِنَ الكفارِ بأمانٍ منهم، هَذَا هو أضعفُهم؛ لِأَنَّهُ عبارة عن تأمينٍ بدونِ عقدٍ، ولهذا يَصِحُّ من كلِّ إنْسَانٍ، فكل إنْسَانٍ يَصِحُّ

أنْ يُؤَمِّنَ الكافرَ؛ لقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[(١)]. وَأَمَّا المعاهَدَة والذِّمَّة فلا تكونُ إلَّا مِنَ الإمامِ أو نائبِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله ﷺ: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ»، أَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا يدخلُ فِي الإجارةِ حَتَّى يوافق الإمامُ؟

الجواب: لا، لا يدلُّ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ كَذَلِك لَمَنَعَ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غيرَها أنْ يُجيرَ بعدَ ذلكَ، فهذا لَيْسَ معناهُ إنشاء، بل معناه أَنَّهُ حُكْم، فالإنشاء حَصَلَ بإجارتها الأُولَى، يَعْنِي كأنه يقولُ: قد ثَبَتَتْ إجارتُكِ إيَّاه؛ لأننا لا نعلم أَنَّ الإجارة ثابتة إِلَّا بِهَذَا، فليسَ هَذَا إنشاءً، وإنما هو عبارة عن بيانِ حُكم أَنَّهُ أنْفَذَ إجارتَها.

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مستثنًى من الأَنْفُسِ المحرَّمة؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأنفس المحرَّمة قد تُستباحُ بالحقِّ، فمِنَ الحقِّ ما أَشَرْنَا إليه من كونِ المسلمِ يَزْنِي وهو مُحْصَن، وكَذَلِك الذِّمِّيُّ فَإِنَّهُ يُقامُ عليه الحَدُّ كما فعلَ النَّبيُّ ﷺ برَجْمِ الزانيينِ المحصَنينِ، وكَذَلِك مِنَ الحقِّ أنْ يَكُونَ ذلكَ قِصاصًا، ومِنَ الحقِّ إذا كَانَ قاطِعَ طَرِيقٍ، فهَذِهِ فِي الأَصْلِ أنفُسٌ محرَّمة، لكِن وُجِدَ حقٌّ يُبيحُ قَتْلَها.

وَأَمَّا إذا ارتدَّ فلا يدخل فِي الاستثناءِ، بل يدخُل فِي المفهوم ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فإن المرتدَّ مباح الدمِ، وليسَ هو ممن يَحْرُم قتلُه إِلَّا لسَبَبٍ، بل هو مِمَّن يجوز قتله، فيَكُون المرتدُّ داخلًا فِي مفهومِ قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ المرتدَّ لَيْسَ مُحَرَّمًا؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، رقم (٣١٧١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان، وأكملها ثمان ركعات، وأوسطها أربع ركعات، أو ست، والحث على المحافظة عليها، رقم (٣٣٦).

لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّن حرم مِنَ الأَصْلِ، فلَمَّا ارتدَّ صارَ وَصْفُه كافرًا، فلا يدخل فِي الأربعةِ، لكِنِ الزاني يَبْقَى عَلَى إسلامِهِ معَ زِنَاهُ، والقاتل يَبقَى عَلَى إسلامِهِ معَ قَتْلِهِ، فالمُرْتَدُّ نقولُ: سُلِبَ عنه وَصْفُ الإسلامِ، يَعْنِي زالَ عنه الوَصْفُ نَهائِيًّا، فيَكُون غيرَ مُحْتَرَم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ المرادُ بقولِهِ ﷺ: «التَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَماعَةِ»[1] المُرْتَدُّ التـارِكُ لدينِه المفارِقُ للجَماعَةِ بعضُهم قَالَ: المرادُ قُطَّاع الطَّرِيقِ؛ لأنَّ قَطْعَ الطَّرِيقِ تَرْكٌ للديـنِ؛ لأجلِ أنْ يَكُونَ الاستثناءُ مُتَّصِلًا، وبعضُهم قَالَ: إنَّ التـارِكَ لِدِينِهِ هو المرتَدُّ، ويَكُون الاستثناءُ بالنسبـةِ إليه منقطِعًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مسلمًا حينَ يَتْرُكُ دينه إلَّا باعتبارِ وصفٍ زالَ، والمفارق للجَماعَةِ هو الخارِجُ عَلَى الإمامِ.

قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ لَمَّا ذكرَ انتهاكَ الأنفسِ، ذكرَ انتهاكَ الأعراضِ، والزِّنا فِعْلُ الفاحشةِ فِي قُبُل أو دُبُر، فإن كَانَ بِذَكَرٍ سُمِّيَ لُواطًا، وإنْ كَانَ بِأُنْثَى فَهُوَ زِنا، وإنما لم يَذْكُرِ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى اللُّواط لِأَنَّهُ أمرٌ مُسْتَكْرَه مُسْتَبْعَد؛ لأنَّ الطبيعةَ لا تدعو إليه إلَّا مَن نكس اللهُ عَزَّوَجَلَّ طَبِيعتَه وفِطْرَتَه؛ لِأَنَّهُ أخبثُ، ولأنَّ اللواطَ لا يَحِلُّ بحالٍ، والفرجُ يَحِلُّ بالزَّواجِ، ولهذا كانتِ عقوبةُ اللواطِ عَلَى القَوْلِ الراجحِ الإعدامَ بكلِّ حالٍ، سواء كَانَ مُحْصَنًا أم غيرَ محصنٍ؛ لِأَنَّهُ فرج لا يُباح بحالٍ، ثم إنَّه أمر لا يُمْكِن التحرُّز منه، فلا يُمْكِن تَطهيرُ المجتمعِ إلَّا بإعدامِ الفاعلِ والمَفْعُولِ به.

وكَذَلِكَ أَيْضًا عَلَى القَـوْلِ الراجحِ الزِّنا بذواتِ المحـارِمِ يُوجِبُ القتـلَ بكلِّ حالٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الفرج لا يُبـاح بحالٍ مِنَ الأحوالِ، وقد وردَ فِي ذلكَ حديـثٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

فِي السُّنَنِ[١]، وهو صحيحٌ، والزِّنا بذواتِ المَحَارِمِ -كما لو زَنَا بأُخْتِه، والعياذُ باللهِ، ولو مِنَ الرَّضاعِ- يُوجِبُ قَتْلَه بكلِّ حالٍ، سواء كَانَ مُحْصَنًا أَمْ غيرَ مُحْصَنٍ.

وقد وَصَفَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الزِّنا بأنه فاحِشةٌ، ووصفَ اللُّواط عَلَى لسانِ لُوطٍ بأنه الفاحشةُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]، فدَخلَتْ عليه (أل)، أما بصيغة النكرة أي: كَانَ فاحشةً مِنَ الفَوَاحِش، لكِن كأنَّ هَذَا انحصرتِ الفاحشةُ فِيهِ لِعِظَمِهِ وقُبْحِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا زَنَا المُسْلِمُ فأُقِيمَ عليه الحدُّ هل يَكُونُ كفَّارة له؟

الجواب: نعم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا أُطلِقَتِ النفسُ هل تُخَصّ ببني آدمَ أم يدخل الحيوان فِي الأنفسِ الَّتِي نُهي عن قَتلِها؟

الجواب: تَختَصّ ببني آدمَ، أمَّا نفس الحيوان فلا تدخلُ فِي هذا، لكِن هي عَلَى كلِّ حالٍ تدخُلُ فِي المعاصي الأُخرى، لكِن إذا قِيلَ: لا يقتل النفس، أو من قتل نفسًا فعليه كذا وكذا، فالمراد نفسُ الآدمِيّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قاعدةُ: ما آذَى طبعًا قُتِلَ شرعًا مستقيمةٌ؟

الجواب: هي مُستقيمةٌ، فكلُّ ما آذى طبعًا فَإِنَّهُ يُقتَل شرعًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجِنُّ لو عَمِلوا هَذِهِ الأعمالَ، أي القتل، هل يقتل بعضهم بعضًا قِصاصًا؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن يقول لآخر: يا مخنث، رقم (١٤٦٢)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من أتى ذات محرم ومن أتى بهيمة، رقم (٢٥٦٤).

الجواب: الظاهرُ أن أحكامَهم مثل أحكامِ الإنسِ، فالرَّسولُ بُعِثَ إليهم، وهذا من الاعتداء، ولهذا يُذكَر أنَّ شيخَ الإسلامِ ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا أُتِيَ إليه بمصروعٍ وَعَظَهُ وزَجَرَهُ[١]، وبَيَّنَ له أنَّ الاعتداءَ عَلَى المسلمِ محرَّم، ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَعتقِدون تحريمَ ذلك، وأَنَّهُمْ مُلْزَمُون بهِ.

وقد سبقتْ هَذِهِ المسألةُ، وَهِيَ: هل تكليف الجنِّ كتكليفِ الإنسِ؟

قُلْنَا: إن ظاهرَ النصوصِ أَنَّهُمْ مساوون لهم؛ لِأَنَّ الرَّسولَ بُعِثَ إليهم جميعًا، ولم نعلمْ أن شريعةً تَخُصُّهم، ولَكِن مَن نظر إِلَى الحِكْمَة مِنَ التشريعِ وجدَ أن الله يَشْرَعُ لكلِّ أحـدٍ ما يُناسِبُهُ، فعلى هَذَا يَكُونُ تكليـفُ الجنِّ يخالفُ تكليفَ الإنسِ، ويُكَلَّفُون بما يَلِيق بهم، ويدل عَلَى هَذَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ لهم كلَّ عظمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه يَجِدُونه أوفرَ ما يَكُونُ لحَمًا[٢]، مِمَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُخالِفُونَ الإنسَ؛ لِأَنَّ الإنسَ لا يَحْصُل لهم ذلك. وأيضًا الإنسُ أنفسهم يختلفونَ فِي التكليفِ بِحَسَبِ الحالِ؛ فتكليفُ الغنيِّ بالزكاةِ لا يساويـه تكليفُ الفقيرِ؛ لِأَنَّهُ لا مالَ عنده، وتكليـف القادر عَلَى العِبـادَةِ لا يساويه تكليف العاجزِ عنها؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ الوصف الَّذِي لَزِمَ فِيهِ التكليفُ.

فالظاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أنْ يقالَ: أُصُولُ العِبادَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ مكلَّفون بِهَا، وَأَمَّا صفاتُ العِبادَةِ، وفروع العِبادَةِ، فَإِنَّهُ لا يَلْزَمُ أن يَكُونوا مُساوِينَ للإنسِ؛ لأَنَّهُمْ يَختلِفون عنهم فِي الحقيقةِ، والشريعة تَقتضِي أنْ يُشْرَعَ لكلِّ إنْسَانٍ ما يناسبه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ الجنُّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لَقُوا النَّبيَّ ﷺ مرَّةً وَاحِدَةً، فهل أعطاهم النَّبيُّ ﷺ تشريعاتٍ أَمِ انقطعَ تكليفُهُمْ؟

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

الجواب: لا يَلْزَمُ أنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الجماعَةُ الذينَ اتَّصلوا بِهِ انقطعَ تكليفُهُمْ، فقد يَكُونون مُلْزَمِينَ بما يَسْمَعُونه ويَعْلَمُونه مِنَ الشريعةِ، وإن كَانَ الرَّسولُ ما باشرهُ؛ لِأَنَّ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢]، يَقتضي أنَّهم يَهتدون بالقُرْآنِ كلِّه؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، وهم لم يَسْمَعُوا القُرْآنَ كلَّه؛ لِأَنَّ السورةَ مكيَّة، والقُرْآن ما نَزَلَ كله فِي مَكَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الجنَّ مُخاطَبُونَ بالتصديقِ فقطْ؟

نقول: لا، هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، هم مخاطَبون بالفروعِ بلَا شَكٍّ.

لكِن هل يَلْزَم من هَذَا أن يَكُونوا مساوينَ لنا؟

بعضُ العُلَمَاءِ يَقُولُونَ: يَلْزَمُ؛ لِأَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثَ إِلَى الجنِّ والإنسِ، ولم نَعْلَمْ أنَّ تَشْرِيعًا خاصًّا بالجنِّ قد جُعل لهم، فما دَامُوا مُكلَّفِينَ بالرِّسَالةِ فإنها تَلْزَمُهُمْ عُمُومًا.

وبعضُ العلماءِ يقولُ: مَن نظرَ إِلَى الحِكْمَةِ فِي التشريعِ قَالَ: إنَّ كلَّ قومٍ يُشْرَعُ لهم ما يُناسِبُهم، فإذا كَانَ الإنسُ يَختلِفُ بعضُهم عن بعضٍ بنوعٍ مِنَ التكليفِ خُصَّ بِهِ، فما بالُكَ بالجنسِ الآخرِ، وهذا أقربُ إِلَى الحِكْمَةِ فِي التشريعِ أنَّ لهم شرائعَ خاصَّةً بهم، أمَّا أُصولُ الدينِ فلَا شَكَّ أَنَّهُمْ مِثْلُنا، يَعْنِي مثل الصلاة وأصل الزكاة وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أفعالُ الصلاةِ والحجِّ بالنسبةِ للجنِّ هل تَختلِفُ عَنِ الإنسِ؟

الظاهر: أن هَذِهِ العبادات لا تختلِفُ؛ لأَنَّهُمْ يُمْكِنُهم أنْ يُصلُّوا، ويُمْكِنُهُم أنْ يَحُجُّوا، وهم مَخْلُوقُونَ من نارٍ، وأيضًا هم لا يرَوْنَ، وإلا فهم أجسامٌ، والعوامُّ يَقُولُونَ:

لَيْسَ لهم عظامٌ ولا عَصَبٌ، ولا ندري هل هَذَا صحيحٌ أو لا، المهمُّ أَنَّهُمْ أجسامٌ يأكلون ويشربون ويَبُولُون، والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»(١) وذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ إذا لم يسمِّ الْإِنْسَانُ عَلَى الطعامِ فَإِنَّهُ يُشارِكُه الشيطانُ: الجن(٢)، وأخبرَ بأن «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا»(٣).

ومَسْكَنُهم فِي ظاهرِ الْأَرْضِ، لكِن حَسَب ما نَعْرِفُ مِنَ التَّتَبُّعِ أَنَّهُمْ يَأْوُون دائمًا إِلَى الأماكنِ الخاليةِ فيَكُونون فِيهَا، وهذا من رحمةِ اللهِ بِنا وبهم؛ لأَنَّهُمْ لو كانوا فِي الأماكنِ المسكونةِ فيُمْكِن أَنْ يَتَأَذَّوْا، أو نحن نَتَأَذَّى بهم، وأحيانًا إذا سَكَنَ أحدٌ فِي أماكنَ خاليةٍ يأتونه ويَقُولُونَ: اذْهَبْ عنَّا. وقيل: إِنَّهُ كان يوجد مَحَلٌّ مهجورٌ لا يُسْكَن، فجاء إنْسَانٌ وسَكَنَه، فثاروا عليه بالليلِ فقالوا: لا بدَّ أَنْ ترحلَ عنَّا وإلا نقتل أولادك. فخرجَ وذهبَ وتركَه، وأنا -والحمد لله- سالمٌ مِنهم، ما عُمُري سَمِعْتُ منهم تهديدًا، لكِن هَذَا الشَّيْء مَعروفٌ عندَ النَّاسِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوزُ للإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنهم؟

بعضُ العلماءِ يقولُ: إِنَّهُ يجوزُ، وبعضُ العلماءِ يقولُ: لا يجوزُ أن الْإِنْسَان يَتَزَوَّج منهم؛ لأَنَّ من شرطِ الزواجِ مثلما قَالَ اللهُ: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]، فهم أولًا لَيْسُوا من أنفسهم، وثانيًا: لا يُمْكِن أَنْ يُسْكَنَ إليهم،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه، رقم (١١٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام، رقم (٣٧٦٨).

(٣) سبق تخريجه.

فبينهما غاية النفور، فكيف يمكن أنْ تكونَ زوجة له، لكِن صحيحٌ أنَّ الجنَّ يتناكحون، والدليل قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَتَزَاوَجُونَ ويتوالدونَ، وهذا صريحُ القُرْآنِ، والواقعُ أَيْضًا يَشْـهَدُ له، أمَّا كونُ الجنيِّ يَتَزَوَّج الإنسيَّـة، أو الإنسيّ يَتَزَوَّج الجِنِّيَّة؛ فهذا فِيهِ نظرٌ، فالصواب قـولُ مَن يَمْنَع ذلكَ، ولهذا الفقهاء قالوا: لو قالـتِ امرأةٌ: إِنَّ بِهَا جِنِّيًّا يُجامِعُـها كالرجل، وجب عَلَيْهَا أنْ تَغْتَسِلَ، ولَكِن هَذَا أولًا يُنْـظَر فِي إمكانه ووُجُوده ثم يُنْظَر فِي حُكْمِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُقام عَلَيْهَا الحدُّ؟

نقول: لا، إِلَى هَذَا الحدّ لا أَظُنّه، ونقول للسائل: انْتَبِهْ لهم الليلةَ، فالظاهرُ أنَّ هَذَا البحثَ الدقيقَ قد يَجْعَلُهُم يَتَّصِلُونَ بِكَ الليلةَ!

والغالبُ أَنَّهم يُكَلِّمون، وقد ذَكَرنا -كما تَقَدَّم- أنَّ الجِنِّيَّ يُكَلم شيخَ الإسلامِ ويخاطبه، ويأخذ عليه العهدَ، وأنه يَضْرِبه، لكِن يقول: إن الضربَ يَقَعُ عَلَى المصروعِ فِي الظاهرِ، وهو فِي الحقيقةِ عَلَى الصارِعِ، فإذا أفاقَ المصروعُ لا يُحِسّ.

وأذكُرُ أن وَاحِدًا من الإخوانِ قُدِّمَ إليه رجلٌ قالوا: إِنَّهُ مَصروعٌ، فَقَالَ: أَعْطُونِي الْعَـصَا، وبدأ يَضْرِبُه حَتَّى ازْرَقَّ جِلْدُه، ولم يَسْتَفِدْ المصروع من هَذَا الشَّيْءِ أبدًا، الْمسكين يَصْرُخُ ويقولُ: آلْتُمُونِي. ولَمَّا قام إذا الضربُ واقعٌ عليه. فهو يريدُ أنْ يفعلَ مثلما فعلَ ابن تيميَّة، فظنَّ أنَّ كلَّ إنْسَانٍ يَحْصُل له مثـلُ هَذَا الأمر يُفْعَل بِهِ هَذَا الفعلُ!

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أيْ وَاحِدًا من هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾]، قول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي وَاحِدًا من الثَّلاثَة] فِيهِ نظرٌ؛ لأنَّ الأَصْلَ فِي الإشارةِ

أنْ تعودَ لِمَا سبقَ كلّه، فيقتضي أنْ يَكُونَ: ومن يفعل ذلك المذكور من دعاءِ غيرِ اللهِ، وقتلِ النفسِ، والزنا، ثلاثة ﴿يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، وهذا الَّذِي قَرَّرناه من عَوْدِه عَلَى الجميعِ نَسْلَمُ بِهِ من إيرادٍ سيأتي عندَ قولِه: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ [الفرقان:٦٩]، فإن الزِّنا لَيْسَ موجِبًا لِلْخُلُودِ فِي النارِ.

والقتلُ ذَكَرَ الله تَعَالَى فِي سورة النساءِ أَنَّهُ مُوجِب للخلودِ فِي النار، وسيأتي إنْ شاءَ اللهُ ذِكْرُه قَرِيبًا.

فعَوْدُ الكَلامِ عَلَى الثَّلاثَةِ نَسْلَمُ بِهِ من الإيرادِ الآتي إن شاء الله، وَأَمَّا إذا فَعَلَ وَاحِدًا منها عَلَى الِانفرادِ فيُؤْخَذ حُكْمُه من دليلٍ آخرَ لَيْسَ بلازمٍ أنْ نَأْخُذَهُ من هَذِهِ الآيةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي عقوبة]، والأَثام والنَّكال بِمَعْنًى وَاحِدٍ، والعقوبةُ والنَّكال بمعنًى وَاحِدٍ أَيْضًا، فالمرادُ بالأثام هنا العُقُوبة، وهو مفرَد وليسَ بِجَمْعٍ؛ لِأَنَّ الجمع (آثام) جَمْع إثمٍ، وَأَمَّا قوله: ﴿أَثَامًا﴾ فمُفْرَد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يُضَٰعَفْ﴾ وَفِي قراءة «يُضَعَّفُ» بالتَّشْدِيد[1]]، وَهِيَ سَبْعِيَّة «يُضَعَّفُ» و«يضاعَف»»، والمضاعَفَةُ والتضعيفُ بمعنَى تَكريرِ الشَّيْءِ، وإنما ضُوعِفَ له العذابُ لِأَنَّهُ فَعَلَ ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وَهِيَ الإشراكُ باللهِ، وقتلُ النفسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأَسْبابَ إذا اجْتَمَعَتْ صارَ لكلِّ وَاحِدٍ منها أَثَرُه، فمَن فعلَ شَيْئًا وَاحِدًا من ثلاثةٍ فعليهِ إثْمُه، ومن فعل اثنينِ فعليه إثمهما، ومَن فعلَ ثلاثةً فعليه إِثْمُهنّ، فهذا وجهُ التضعيفِ.

قوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ العذابُ والنَّكال بمعنًى وَاحِدٍ، وهو العقوبةُ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ يومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ النَّاسُ، وَسُمِّيَ يوم القيامة لأسبابٍ ثلاثةٍ:

- لقيام النَّاسِ من القبورِ.

- وإقامةِ العدلِ.

- ولأنه تُقام فِيهِ الشهادةُ ويقومُ الأشهادُ فِيهِ: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وَهُمُ الملائكةُ والرسُلُ، وكَذَلِك الأُمَمُ.

إذَن سُمِّيَ يومَ القيامةِ لِهَذِهِ الوجوهِ الثَّلاثَةِ.

قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾ يَبْقَى ﴿فِيهِۦ﴾ أيْ فِي العذابِ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِجزْمِ الفعلينِ بدلًا، وبِرَفْعِهِمَا استئنافًا[1]]، الفعلانِ ﴿يُضَـٰعَفۡ﴾ ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾، يَعْنِي أن فيهما قراءتينِ ﴿يُضَـٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ (يُضَاعفُ له العذابُ)، ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾ (وَيَخْلُدُ). أمَّا قوله: ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾ فليسَ فِيهَا سِوَى قراءةٍ وَاحِدةٍ، وَهِيَ الجزمُ؛ لِأَنَّهَا جوابُ الشرطِ، وجوابُ الشرطِ لا بدَّ أنْ يَكُونَ مجزومًا، لَكِنْ فِيهَا إشكالٌ، وَهو أنَّها مفتوحةٌ (يَلْقَ)، فيقال: هي مجزومةٌ بحذفِ الألفِ، وهَذِهِ الفتحةُ ليستْ بفتحةِ الإعرابِ، ولَكِنَّها فتحةُ الفعلِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ ﴿فِيهِۦ﴾ هَذِهِ خارجةٌ عن شَبِيهَاتِها، فيجوزُ فِيهَا وجهانِ[2]: ﴿فِيهِۦ﴾ بالمدِّ، و﴿فِيهِۦمُهَانًا﴾ بالصِّلة: بالوصل، بدونِ مدٍّ، أمَّا ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بدون مدٍّ فهَـذِهِ عَلَى أَصْلِها، وَأَمَّا ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بالمدِّ فهَذِهِ عَلَى خـلافِ

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

الأَصْلِ، لَكِنها جائزةٌ؛ لِأَنَّهَا مسموعة عن النَّبي ﷺ، ولها نظيرٌ خارجٌ عن العادة أيضًا، وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]، وَفِي قراءةٍ أُخْرَى سبعيَّة (عَلَيْهِ اللهَ)[1]، يَعْنِي عَلَى الأَصْلِ، فهذانِ حرفانِ فِي القُرْآنِ خَرَجَا عن الأَصْلِ المتَّبعِ فِي القراءةِ المشهورةِ فِي المصاحِفِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُهَانًا﴾ حالٌ]، هَذَا قُصُورٌ من المُفَسِّر حقيقةً، أعربَ ﴿مُهَانًا﴾ عَلَى أنها حالٌ منَ الضميرِ فِي قولِهِ: ﴿وَيَخْلُدْ﴾، أو منَ الضميرينِ فِي قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ ﴿وَيَخْلُدْ﴾، لَكِنَّها للأقربِ أقربُ، إِلَّا أَنَّهُ لم يُفَسِّر ما معنى ﴿مُهَانًا﴾، ونحن إِلَى تفسيرِ الكلمةِ أحوجُ مِنَّا إِلَى إعرابِها؛ لِأَنَّنا سَنَقْرَؤُها كما هي لكِن لا نَفْهَم معناها، فما معنى ﴿مُهَانًا﴾؟ المُهانُ المُحْتَقَرُ الذَّلِيلُ، يَعْنِي مُحْتَقَرًا ذَلِيلًا، لا يُقامُ له وَزْنٌ ولا إكرامٌ.

• • ❁ • •

---

(١) المصدر السابق (ص٣٢٩، ٣٣٠).

الآية (٧٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ هلْ هَذَا الاستثناءُ مُتَّصِلٌ أو مُنْقَطِعٌ؟

الاستثناءُ متَّصِلٌ، يَعْنِي: من تابَ من دعاءِ غيرِ اللهِ معَه، ومَن تابَ من قَتْلِ النفسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحقِّ، ومَن تاب منَ الزِّنا، أَمَّا الأول، وَهُوَ التوبةُ من دعاءِ غيرِ اللهِ معَه، فلا شُبْهَةَ فِيهِ ولا إشكال؛ لِأَنَّهُ حقٌّ لله، فإذا تابَ الْإِنْسَانُ منه إِلَى اللهِ قَبِلَهُ إذا كانتِ التوبةُ نَصُوحًا، ولا حاجةَ إِلَى أنْ يَسْتَأْذِنَ أحدًا، فلا شك أنه لا يحتاج أن يَستأذن ويَسْتَرْخِص مِنَ الصَّنَم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ منهم]، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنهم] أيْ من فاعلِ هَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ: الشِّرك وقَتْل النَّفْس والزِّنا، وإِنَّما قَيَّدها بذلك لقرينةِ السياقِ، ولِئَلَّا تَتكَرَّر معَ ما بعدَها.

وما هي التوبةُ؟ التوبةُ هي الرجوعُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد ثَبَتَ فِي الحديثِ الصحيحِ فِي قصةِ الرجلِ الَّذِي قتلَ تسعًا وتسعينَ نفسًا ثم سألَ عابدًا: هل له من توبةٍ؟ فَقَالَ العابدُ: لَيْسَ لكَ توبةٌ، فالعابدُ جاهلٌ، واستعظَمَ تسعًا وتسعينَ نفسًا، قَالَ: لَيْسَ لكَ توبةٌ، فَقَالَ: نُكْمِل بكَ المئة، فَقَتَلَهُ، وهذا من الجَرِيرَةِ الَّتِي يَجُرُّها الْإِنْسَانُ

عَلَى نفسِه إذا أَفتى بغيرِ علمٍ، ثم سأَلَ عالِمًا: هل له من توبةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ومَن يَحُولُ بينَكَ وبينَ التوبةِ؟! ولَكِنَّه أرشدَهُ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ من قريتِه هَذِهِ إِلَى قريةٍ أخرى يَكْثُرُ فِيهَا الصالِحُون[1] إِلَى آخِرِ الحديثِ، فإذا كَانَ هَذَا فِي بني إسرائيلَ، فما بَالُكَ بهَذِهِ الأُمَّةِ الذينَ وَضَعَ اللهُ عنهم الآصَارَ والأغلالَ، يقولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف:١١١]، والنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَقُصَّها علينا مِنْ أجْلِ أَنْ نَفْهَمَ القصةَ فقطْ، لَكِنْ لِنَعْتَبِرَ بِهَا، وإِلَّا لكانتْ لَغْوًا، أَمَّا كونُها فِي شريعةٍ منسوخةٍ فإِنَّ مثلَ هَذِهِ الأمورِ لا يَدْخُلُها النسخُ، يَعْنِي كون الله يتوب عَلَى مَن تاب هَذَا من صفاتِه الَّتِي لا تَتَخَلَّف، ثم إِنَّ نَسْخَها لا يُمْكِن أَنْ يُنْسَخَ إِلَى أسوأَ فِي هَذِهِ الحالِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأُمَّة أكملُ مِن غَيْرِها، فقد رفعَ اللهُ عنها الآصارَ والأغلالَ، ولو كانتِ التوبةُ لا تُقْبَل مِنَ القاتلِ لكانَ هَذَا مِن أعظمِ الآصارِ والأغلالِ الَّتِي عَلَى هَذِهِ الأُمَّة، ولهذا بنو إسرائيلَ ما يَقُصُّ اللهُ علينا شيئًا من قَصَصِهِم، ولا كَذَلِك النَّبي ﷺ إِلَّا للتحذيرِ مما يُكرَه والترغيبِ فيما يُحَبّ.

والتوبةُ مِن قَتْلِ النفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ هل يَتَعَلَّقُ بِهَا حقٌّ آخَرُ لغيرِ اللهِ؟

الجواب: نعم يَتَعَلَّق بِهَا حقانِ آخرانِ؛ أَحَدُهما حقُّ المقتولِ: الميِّت، والثَّاني حقُّ أولياءِ المقتولِ، فلا تَصِحُّ التوبةُ إِلَّا بتمكينِ ذَوِي الحقوقِ أَنْ يأخذوا بِحُقُوقِهِم. فنقولُ: الميِّت لا يُمْكِنُ الوصولُ إِلَى أَخْذِهِ بحقِّه، لا يمكن لِأَنَّهُ مات ولا نعلم عنه وربما نعلم فِي الحقيقة أحيانًا إذا لم يَمُتْ حَتَّى أَبَاحَ صَاحِبَهُ، ربما نَعْلَمُ لَكِنْ فِي الغالبِ أَنَّهُ لا يعْلَم، وَأَمَّا أولياءُ المقتولِ فالتمكينُ مِن حَقِّهِم مُمْكِنٌ، فيذهب إليهم ويُسَلِّم

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٦).

نفسَه لهم، ويقول: أنتُمُ الآنَ بالخيارِ: تُريدون الدِّيَة، تُرِيدون القَتْل، تُرِيدون العَفْوَ.

إذَنْ نقول: التوبةُ مِن قتلِ النفسِ يَتَعَلَّق بِهَا حقَّـانِ آخرانِ غير حق الله؛ حقٌّ مُمْكِنٌ تحقيقُه، وهو حقّ الوَرَثَة: أولياء المقتول، وحقٌّ يمكِن أو لا يمكِن، وهو حقُّ المقتولِ؛ فإنْ أمكنَ تحقيقُه فِي الدُّنْيا وأسقطه فذاك، وإلَّا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا عَلِمَ من هَذَا القاتلِ أَنَّهُ تابَ إليه توبةً نصوحًا فإنَّ مِن تمامِ توبةِ اللهِ عليه أنْ يعطيَ المقتولَ حقَّه حَتَّى لا يأخذَ من حَسَنات القاتلِ شيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا لم يَتُبِ القاتلُ هل هو تحتَ المشيئةِ؟

نقول: إذا لم يَتُبِ القاتلُ فعليه الوَعِيدُ الَّذِي ذَكَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالقتلُ من الكبائرِ، فَهُوَ تحتَ المشيئةِ، لَكِنْ لا نجزم أَنَّهُ سَيُغْفَرُ له.

ننتقل إلَى الزِّنا فِي قولِهِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ هل يَتَعَلَّقُ بِهِ حقٌّ آخرُ سِوَى حقِّ اللهِ؟ وهل يَحتاجُ إذا تابَ أنْ يَستبيحَ أو أنْ يَسْتَحِلَّ المزنيّ بِهِ أو لا يَحْتَاجُ؟

إذا كَانَ باختيارِها وهي الَّتِي جَنَتْ عَلَى نَفْسِها، إذا كانتْ ذاتَ زوجٍ فنعَمْ، لَكِنْ إذا لم يَكُنْ لها زوجٌ فإذا كَانَ باختيارِها فلا حقَّ لها؛ لِأَنَّهَا هي الَّتِي انتهكتْ عِرْضَها، وإذا كانتْ مُجْبَرَةً فلها حَقٌّ، فلا بدَّ مِن استحلالِها. وقد يقالُ: إن التوبةَ إذا صارتْ نَصُوحًا وتابَ إِلَى اللهِ فلا حاجةَ إِلَى الاستحلالِ؛ فإن الله تَعَالَى يتوبُ عليه كما ثَبَـتَ فِي الحديثِ الصحيحِ؛ أنَّ الحدَّ يَكُونُ كفَّارةً للذَّنْبِ[1]، ولم يَذْكُرِ النَّبيُّ ﷺ شَيْئًا فوقَه بدونِ استحلالٍ، فمَن نظر إِلَى أن هَذَا فِيهِ حقّ انتهاكِ عِرْضِها وإكراهها عَلَى الفاحشةِ وسُوء سُمْعَتِها وسمعة أهلها قَالَ: لا بدَّ مِن اسْتِحْلَالِهَا من هَذَا الأمرِ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الحدود كفارة، رقم (٦٧٨٤)، ومسلم: كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩).

لِأَنَّهُ أمرٌ عظيمٌ، ومَن نظرَ إِلَى عُمُوماتِ الأدلَّة الدالَّة عَلَى أنَّ الزانيَ إذا أُقيمَ عليه الحدُّ وإذا تابَ تابَ اللهُ عليه قُلْنَا: إن الله تَعَالَى يَتَحَمَّل عنه حقَّ هَذِهِ المرأةِ المزنيّ بها؛ وعلى هَذَا فاستحلالُه أَوْلَى وأحسنُ.

إذَن نقول: الأوَّل حقٌّ لله مَحْض، ولا إشكالَ فِيهِ، والثَّاني حقٌّ لله ولغيرِه، ولا إشكالَ فِيهِ، والثالث حقّ لغيرِ الله، ولَكِن مَن نظرَ إِلَى عموماتِ الأَدلَّة الدالَّة عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بشرطٍ أنْ يَسْتَحِلَّ مَن زنا بِهَا قَالَ: لا حاجةَ إِلَى الاستحلالِ، ولَكِن الأَوْلَى والأحوط أنْ يَسْتَحِلَّ كما تَقَدَّمَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُفرَّق بَيْنَ البِكْر والثَّيِّب؟

نقول: كله وَاحِدٌ.

ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكر الفقهاءُ أن البِكر تُعْطَى بغِشاء البَكَارة؟

هَذَا من جهةِ المالِ، وليسَ من صحَّة التوبة، لكِن لا بدَّ أنْ يُبْذَلَ لها النقصُ الَّذِي حَصَلَ، مثل ما لو أتلفَ مالها، وإذا لم يَبْذُلْ تَصِحّ، ويَكُون ذنبًا آخرَ مستقِلًّا، وقد نقول: إِنَّهُ من تمامِ التوبةِ، ولا تَصِحُّ؛ لِأَنَّ هَذَا الفعلَ ناشئٌ عن ذلكَ، إِنَّمَا عَلَى كل حالٍ هَذَا لا يَدْخُلُ فِي مسألةِ العِرض، إِنَّمَا يدخل فِي مسألة المالِ، فالبكارة من جهةِ المالِ، لا من جهةِ العِرضِ.

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وشروط التوبة خمسة:

الأول: النَّدَم عَلَى الذنب، أي عَلَى فِعلِه.

الثَّاني: الإقلاع عن الذَّنب والإقلاع عن المعصيَةِ، ويَشْمَل إعادةَ الحقِّ؛ لِأَنَّهُ ما دام الحقّ عندك ما أَقْلَعْتَ، ولهذا نقول: لَيْسَ بشرطٍ إذا كَانَ الحق لآدميٍّ أن نزيدَ

لأنَّ هَذَا الشرطَ دخلَ فِي قولنا: الإقلاع.

الثالث: العَزْم عَلَى عدمِ العودةِ، لو قَالَ قائل: العَزْم عَلَى عدمِ العودةِ ألا يَدْخُلَ فِي الإقلاعِ عن الذنبِ؟

الجواب: لا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يُقْلِع ويقول: أنا اليوم لن أفعلَ، لكِن غدًا أفعله.

الرابع: الإخلاصُ لله؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يتوب رِياءً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: العزم عَلَى عدم العودة أَلَا يدخُل أَيْضًا فِي الإخلاصِ؟

نقول: الكَلام عَلَى أنْ تكونَ التوبةُ لله هَذَا معنى الإخلاصِ، وإلَّا فَإِنَّهُ إذا أخلصَ سَيُقْلِع وسيَنْدَم، وهكذا فِي كل الشروطِ ما عدا أن تكونَ فِي الوقتِ، لكِن المراد أن يَكُون الحامِل لها الإخلاص، يَعْنِي أَنَّهُ ما تاب رِياءً ولا سُمعةً ولا خوفًا من سلطانٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد يَكُون العَزْم عَلَى أَلَّا يعودَ إخلاصًا؟

نقول: لا يَلْزَمُ، يُمْكِن أن يَعْزِمَ عَلَى أَلَّا يعودَ نَظَرًا لأنَّ السُّلطة قويَّة ولا يستطيع، فلا بدَّ من الإخلاصِ، فكل عملٍ صالح لا بدَّ فِيهِ مِنَ الإخلاصِ.

الخامس: أن تكونَ التوبةُ فِي وقتِ قَبُولِها، أمَّا كونها فِي مَحَلِّها فهي بالنسبةِ لكلِّ وَاحِدٍ أنْ يتوبَ قبلَ أنْ يُعَاينَ المَوْتَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، وبالنسبةِ لِعُمُوم النَّاسِ أنْ تكونَ قبلَ طلوعِ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبها، فإن بعد طلوعِ الشَّمْسِ من مغربِها لا تُقْبَل لو تابَ الْإِنْسَانُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيفَ يُجْمَعُ بَيْنَ قولِهِ: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ وبينَ آياتِ التوبةِ؟

نقول: الآيةُ الَّتِي ذَكَرْتَ فِي قولِه تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ هَذِهِ لغيرِ التائبينَ، وهَذِهِ الآيةُ معَ آياتِ التوبةِ لَيْسَ فِيهَا إشكالٌ.

فَلَوْ قِيلَ: كيف الجوابُ عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]؟

نقول: هَذَا جزاؤه، وقد قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، ومعَ ذلكَ إذا أَسْلَمُوا وتابوا قُبِلَت تَوْبَتُهم، فنقول: حَتَّى الشرك وَرَدَ فِيهِ الخلودُ الأبديّ، ومعَ ذلكَ لو تابَ منه قُبِلَتْ توبتُه، هَذِهِ مثلها، لكِن الكَلام عَلَى أَنَّهُ إذا تابَ هل نقولُ: إن التوبةَ قُبلتْ مُطْلَقًا أو نقول كما قَالَ ابن القيِّم مثلما فَصَّلْنا: إن التوبةَ يَتعَلَّقُ بِهَا ثلاثةُ أشياءَ ولا بد من تَحْقِيقِها.

فَلَوْ قِيلَ: كيف الجواب عن قول ابنِ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عمَّن سألَه: أَلِمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتعَمِّدًا من توبةٍ؟ قال: لا[١]؟

الجواب: هَذَا يُحمَلُ مثلما قَالَ ابن القيِّم[٢] عَلَى أَنَّهُ لا يَجِدُ له توبةً بالنسبةِ لحقِّ المقتولِ؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، وحقيقةً فَإِنَّهُ بالنسبةِ للميِّت ففِي الغالبِ لا يُمْكِنُ الوصولُ إِلَى تحقيقِ التوبةِ، والسَبَب لِأَنَّهُ فاتَ، ولا يُمْكِن استحلالُه، كما تَقَدَّم، وَأَمَّا بالنسبةِ لحقِّ اللهِ فلا شَكَّ فِيهِ أبدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٧٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، رقم (٣٠٢٣).
(٢) انظر مدارج السالكين (١/ ٣٩٥ وما بعدها).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله فِي سُورَةِ طه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ [طه:١٦]، وَفِي سورة القَصَص ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ [القصص:٨٧]، ما الفرقُ بَيْنَهُما؟

نقول: آيةُ طه قوله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ ﴿مَن﴾ هَذَا الفاعل ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ﴾، إذَن هل الفعلُ مُفْرَد أو مجموعٌ؟ مفردٌ، وإذا كَانَ مفردًا يُبنى عَلَى الفتحِ لاتصالِهِ بنونِ التوكيدِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بينه وبين التوكيدِ شَيْءٌ، وَأَمَّا قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الَّتِي قبلَها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يَعْنِي المجرمين، فَهُوَ عائد إِلَى جمعٍ، فيكُون الفعل الآنَ غيرَ مباشرٍ لنونِ التوكيدِ، أصله يصدوننك، فحذفت النون للجازمِ، وبقِيت عندنا (الواو) ساكنة والنون المشدَّدة ساكن أَوَّلها، فحذفت الواو لالتقاء الساكنينِ، ثم بَقِيَت الدال عَلَى ما هي عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَلْزَمُ التائبَ مِنَ الزِّنا أنْ يَطْلُبَ إقامةَ الحدِّ عَلَى نفسِهِ مثلما فعلَ ماعزٌ والغَامِدِيَّة؟

نقول: لا يَلْزَمُ، بلِ الأَوْلَى أنْ يَسْتُرَ عَلَى نفسِهِ، وفِعْلُ هَؤُلَاءِ اجتهادٌ مِنهم، ولا مانعَ منه، والرَّسول ﷺ لاحِظ أَنَّهُ يراعي أشياءَ يَفْعَلُها الْإِنْسَان اجتهادًا ولا يُنْكِر عليه إذا كانتْ غيرَ مخالفةٍ للشرعِ، مثل الصدقة عن الميِّت، والحجّ عن الميتِ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ مِمَّا لم يَأْمُرْ بِهِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهَذَا جائزٌ وليس من المشروعِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ الذنبُ مثلًا غِيبَةً لأحدٍ، هل يَلْزَمُ أنْ نَطْرُق عليه بابه ونقول له: واللهِ يا أخي قدِ اغتبناكَ ونريدُ أنْ نَسْتَحِلَّكَ؟ وإذا كَانَ مالًا: افرض أَنَّهُ مال، أخذ من إنْسَانٍ مالًا وتاب إِلَى اللهِ، هل يَلْزَمُ أنْ يَذْهَبَ ويقول: هَذَا مالك؟ يَلْزَمُه؛ لِأَنَّ من تمامِ التوبةِ أن يُعِيدَ المالَ، والرَّسول ﷺ يقول: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»[(١)]، فإذا اغتـابَه فليسَ هناكَ فَـرْقٌ بَيْنَ المالِ والعِرض والرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمَعَ بينهما، إذَن نقول: اذْهَبْ إليه واسْتَحِلَّهُ. وإلى هَذَا ذهبَ الفقهاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ، فالمذهَبُ أَنَّهُ إذا تابَ مِنَ الغِيبة يَجِب عليه أن يُخْبِرَ المغتابَ ويقول له: أنا حَصَلَ مِنِّي كذا وكذا، فأَرْجُوكَ أنْ تَسْمَحَ لي.

القَوْل الثَّاني: لا؛ لأنَّ الغِيبة عبارةٌ عن قَدْحٍ فِيهِ وَرَدُّها بِمِثْلِها، وذلك بأنْ تُثْنِيَ عليه فِي المكانِ الَّذِي اغْتَبْتَهُ فِيهِ بما يُزِيلُ هَذِهِ الغِيبةَ، وهذا رَدُّه فِي الحقيقةِ؛ لأنَّ كَوْنَك تَذْهَب إليه وتقول له: حَلِّلني هَذَا لَيْسَ بِرَدِّ اعتبارِهِ الَّذِي سَقَطَ حينما اغتبتَه فِي المجلِسِ، فلا يزول إذا حلَّله، بل يَبْقَى، فرَدُّ الغِيبة أنْ تُثْنِيَ عليه بالخيرِ فِي مقابلِ الثناءِ بالسُّوء، وهذا أصحُّ؛ لأنك فِي الحقيقةِ لو ذَهَبْتَ تُعْلِمُه يُمْكِن أنْ تأخُذَهُ العِزَّة بالإثم ويقول: لا، ثم إنَّك لو قلتَ له: إنِّي قلتُ: فلانٌ بخيلٌ، قَالَ: لا، ما قَالَ: بخيل فقطْ، بلْ قَالَ: بخيل وشِرِّير وفاسِق وفاجِر؛ لِأَنَّ الشيطانَ يقولُ له هَذَا، فيَتَصَوَّر أنَّ الأمرَ أَكْثَرُ من هَذَا، ولا يُسَامِحك، فما دام ما وَصَلَه العلمُ فلا حاجةَ لأنْ تُخْبِرَه، نعم لو وَصَلَهُ العلمُ وعَرَفْتَ أنَّ الرجلَ قد أُخْبِرَ عنك بأَنَّك اغْتَبْتَه فهنا لا بدَّ أنْ تَسْتَحِلَّه.

فالخُلاصة أن يقالَ: إنَّ المغتابَ إن كَانَ عالِمًا بِغِيبَتِكَ فَهُوَ الآنَ قد صارَ فِي نفسِهِ عليك شَيْءٌ، فلا بدَّ أنْ تَسْتَحِلَّه لِيَزُولَ ما فِي نفسِهِ، وإنْ كانَتْ ما بَلَغَتْهُ، يَعْنِي أَنَّك ما تكلَّمْتَ إِلَّا بِهَذَا المجلِسِ، وعَرَفْتَ أَنَّهُ ما وَصَلَهُ العلمُ، فهنا لا حاجةَ إِلَى أنْ تَذْهَبَ وتقول له، وإنما تُثْنِي عليه بالخيرِ مقابلَ ثنائِكَ عليه بالشرِّ، وهذا القَوْلُ هو الصحيحُ، وهو اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٧٣٩).

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ التوبةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْهَا، والإيمانُ فِي اللغةِ: التصديقُ والإقرارُ، ولَكِنه فِي الشرعِ تصديقُ القلبِ المستلزِم للقَبول والإذعانِ، وليسَ مجرَّد التصديقِ، بل هو تصديقٌ مُسْتَلْزِمٌ لهذا، فإن لم يَسْتَلْزِمْهُ فليسَ بإيمانٍ، فيقبل ما جاء بِهِ الشرعُ ويُذْعِن له فيُصَدِّقه إنْ كَانَ خبرًا ويقوم بِهِ إن كَانَ طَلَبًا.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هنا ذَكَرَ العملَ ووَصَفَهُ بالصلاحِ؛ لِأَنَّ العملَ غيرُ الصالحِ لا يَنْفَعُ صاحِبَهُ، والعمل الصالح ما جمع شرطينِ، وهما الإخلاصُ لله والمتابعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فإنْ لم يَكُنْ فِيهِ الإخلاصُ فليس بمقبولٍ، وإنْ لم يَكُنْ فِيهِ المتابَعَةُ فليسَ بمقبولٍ، ففي الصحيحِ من حديثِ أبي هُريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، هَذَا دليلٌ على أنَّ غيرَ المُخْلِص فِيهِ مَرْدُودٌ، وَأَمَّا غيرُ المُتَابع فِيهِ فلقولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، ويَجْمَعُهُمَا قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منهم] أي من فاعلِ هَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ: الشِّرك وقَتْل النفسِ والزِّنا، وإنما قَيَّدَها بذلكَ بِقَرينةِ السِّياقِ، ولِئَلَّا تَتَكَرَّرَ معَ ما بَعْدَهَا.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ هَذَا مُسْتَثْنًى من قولِهِ: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، وما أُبدل منه، يَعْنِي ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فَإِنَّهُ لا يَلْقَى أثامًا، ولا يُضاعَف

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

له العذاب، ولا يَخْلُد فِيهِ، وتَقَدَّمَ أن شروطَ التوبةِ خمسةٌ: الإخلاصُ لله، والندمُ عَلَى ما وَقَعَ، والعَزْم عَلَى أنْ يُقْلِعَ عنها، وأنْ يَعْزِمَ عَلَى ألَّا يعودَ، وأن تكونَ فِي وَقْتِها، أي فِي الوقتِ الَّذِي تُقْبَل فِيهِ التوبةُ، وتَقَدَّمَ أَيْضًا أنَّ هَذَا الاستثناءَ يَشْمَلُ كلَّ الذنوبِ الثَّلاثَة: الشِّرك، وقَتْل النفسِ، والزِّنا، وأنَّ ما ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ القاتلَ لا تَوْبَةَ له، فإنْ أرادَ عَلَى وجهِ الإطلاقِ فليسَ بصحيحٍ، وإن أرادَ لا توبة له فيما يَتَعَلَّق بحقِّ المقتولِ فهذا صحيحٌ، عَلَى أنَّنا نقولُ: لا يَبْعُدُ أنَّهُ إذا تابَ توبةً نصوحًا أنْ يَتَحَمَّلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه حقَّ المقتولِ فيُرْضِيه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما رَأْيكم فِي قولِ ابنِ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي إعلامِ الموقِّعين[1] أنَّ الحدودَ تَسْقُطُ بالتوبةِ، استدلَّ بحديثِ النَّسائي، وفيه أَنَّ امْرَأَةً وَقَعَ عَلَيْهَا رَجُلٌ فِي سَوَادِ الصُّبْحِ وَهِيَ تَعْمِدُ إِلَى المَسْجِدِ عكُورَةً[2] عَلَى نَفْسِهَا، فَاسْتَغَاثَتْ بِرَجُلٍ مَرَّ عَلَيْهَا، وَفَرَّ صَاحِبُهَا، ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهَا ذَوُو عَدَدٍ، فَاسْتَغَاثَتْ بِهِمْ فَأَدْرَكُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَتِ اسْتَغَاثَتْ بِهِ، فَأَخَذُوهُ، وَسَبَقَهُمُ الْآخَرُ، فَجَاءُوا بِهِ يَقُودُونَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: أَنَا الَّذِي أَغَثْتُكِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْآخَرُ. قَالَ: فَأَتَوْا بِهِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَخْبَرَ الْقَوْمُ أَنَّهُمْ أَدْرَكُوهُ يَشْتَدُّ، فَقَالَ: إِنَّمَا كُنْتُ أُغِيثُهَا عَلَى صَاحِبِهَا فَأَدْرَكُونِي هَؤُلَاءِ فَأَخَذُونِي. قَالَتْ: كَذَبَ، هُوَ الَّذِي وَقَعَ عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْطَلِقُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ». فَقَامَ الرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ: لَا تَرْجُمُوهُ وَارْجُمُونِي، فَأَنَا الَّذِي فَعَلْتُ بِهَا الْفِعْلَ. فَاعْتَرَفَ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهَا، وَالَّذِي أَغَاثَهَا، وَالْمَرْأَةُ، فَقَالَ: «أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ غُفِرَ لَكِ»، وَقَالَ لِلَّذِي أَغَاثَهَا قَوْلًا حَسَنًا،

(١) (٣/ ١٥)، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أي قد غُلبت على نفسها.

فَقَالَ عُمَرُ: أَرْجُمُ الَّذِي اعْتَرَفَ بِالزِّنَى؟ فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا، إِنَّهُ قَدْ تَابَ إِلَى اللهِ»[1].

هذا صحيحٌ، فِفِي القُرْآنِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٤]، لا يُقامُ عليه الحدُّ إذا تابَ قبلَ القُدْرَةِ عليه، إذا كَانَ هَذَا فِي قُطَّاعِ الطَّرِيقِ وذَنْبُهم من أعظمِ الذنوبِ، فهذا من باب أَوْلَى، إِلَّا حدّ القَـذْف، فهو حقٌّ للآدميّ فلا يَسْقُط إِلَّا بإسقاطِ المقذوفِ، فاعترافُ الرجلِ علامةٌ عَلَى التوبةِ، أو أن الرَّسول ﷺ علِم منه ذلك، المهمُّ أَنَّهُ إذا تابَ قبلَ القُدْرَة فَإِنَّهُ لا يُقامُ عليه الحدُّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ المذكورة ﴿حَسَنَٰتٖ﴾ فِي الآخِرَةِ]، يُبَدِّلها، التبديلُ: جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَرِيَ أو تبديل جَزائيّ؟

اختلف فِي ذلك أهلُ العلمِ؛ فمِنهم مَن قَالَ: إِنَّهُ تبديل قَدَريّ، ومنهم مَن قَالَ: إِنَّهُ تبديل جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ تبديل قَدَرِيّ يَقُولُونَ: إن معنى تبديلِ السيئاتِ حسنـاتٍ أَنَّهُ لَمَّا آمنَ وعَمِلَ عملًا صالحًا صارَ بَدَلَ الشرك إيمانٌ، وصار بدل الزنـا وقتل النفس عَمَل صالح، معناه أن هَذَا الإيمانَ والعمـلَ الصالحَ صار بدلًا عن الكفرِ والزنا وقتل النفس، فالمعنى أن إيمانَه وعَمَلَه الصالحَ الَّذِي فَعَلَه هو الحسناتُ الَّتِي أبدلَ اللهُ السيئاتِ بِهَا، فيَكُون هَذَا التبديل قَدَرِيًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أَنَّ هَذِهِ المعاصيَ نفسَها تكون حسناتٍ، يبدِّل الله السيئاتِ السابقةَ يَجْعَلُها حسناتٍ، بالإضافة إِلَى حسناتِه الأخيرةِ الَّتِي قُدِّرَتْ له

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٤، رقم ٧٢٧٠).

فَفَعَلَها، وكيف ذلك؟ يَقُولُونَ: لأنَّ هَذِهِ السيِّئاتِ لَمَّا تابَ منها صارَ له بكلِّ توبةٍ من هَذِهِ السيئاتِ حسنة، فأُبدِلَتِ السيئاتُ حسناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنه كلَّما تَذَكَّر ما سبقَ من أعمالِه السيئةِ أحدثَ لها توبةً، فصارت هَذِهِ الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها، والصحيحُ شُمُولُ الآيةِ لهذا وهذا، وأن الآيةَ شاملةٌ للأمرينِ، فإنَّ مَن تابَ وآمَنَ وعمِلَ عملًا صالحًا تَبَدَّلَتْ سيئاتُه السابقةُ فصارتْ حسناتٍ، لَكِنَّها لَيْسَ هي الأُولَى نفسها، وكَذَلِك إذا تابَ منـها جُوزِيَ عَلَى هَذِهِ التوبةِ بالثـوابِ، فصارت السيئاتُ بالتوبةِ منها حسناتٍ.

وكَلامُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَميلُ إِلَى الثَّاني؛ إِلَى أن هَذَا التبـديل تبديل جزائيٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلۡآخِرَةِ﴾؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ قَدرِيًّا ما كَانَ فِي الآخرةِ؛ إذ التبديلُ القَدرِيّ إِنَّما يَكُونُ فِي الدُّنْيـا؛ لِأَنَّهُ عَمله، والصحيـح شمولُ الآيةِ للأمرينِ، فبالإيمانِ والعَمَـلِ الصالِحِ تَبَدَّلَتْ أعمالُهُ إِلَى أعمالٍ صالحةٍ، وبالتوبةِ من السيئاتِ صارتِ السيئاتُ السابقةُ حسناتٍ؛ لِأَنَّهُ يَزدادُ بِهَذِهِ التوبةِ رِفْعَةً ومَقَامًا عند اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أيْ: لَم يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ]، (كان) هنا -كما مرَّ- مجرَّدةٌ من الزمنِ، والمرادُ بِهَا اتصافُ اسْمِها بِخَبَرِها صفة لازمة، ولهذا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي لم يَزَلْ متَّصِفًا بذلك] أي بالمغفرةِ والرَّحمةِ. والغَفُورُ صِيغةُ مبالغةٍ، أو صفة مُشَبَّهَة، وكلاهما يدلّ عَلَى الثُّبُوتِ والدوامِ والكثرةِ. والمَغْفِرَة: سَتْرُ الذنبِ معَ التجاوُزِ عنه، يَعْنِي ستر الذنبِ وإسقاط عُقُوبَتِه، وليسَ مُجَرَّد الستر؛ لِأَنَّها مأخوذة مِنَ الْمِغْفَر، وبِالمغفرِ يَكُونُ السترُ والوِقَايَةُ.

وَأَمَّا الرَّحِيمُ: فَهُوَ ذو الرَّحْمَةِ الواصلة إِلَى المرحومينَ؛ لِأَنَّها تدلُّ عَلَى الفعلِ معَ الصِّفةِ أيضًا، والرَّحمة صفةٌ من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَكُون بِسَبَبِها الإنعامُ والإحسانُ

إِلَى الخَلْقِ بِجَلْبِ المنافعِ ودَفْعِ المضارِّ، وَأَمَّا مَن فسَّر الرَّحمةَ بالإحسانِ أو بإرادته فقولُه خطأٌ؛ لأنَّ إرادةَ الإحسانِ أَثَرٌ من آثارِ الرَّحمةِ، وكَذَلِك الإحسانُ، وليس هو الرَّحمةَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿غَفُورًا﴾ صفة مُشَبَّهَةٌ، معَ أنها منصوبةٌ ولم تَعْمَلْ؟

نقول: لَيْسَ بلازمٍ أنْ تعملَ، وَأَمَّا نَصْبُها فللعامِلِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وَرَدَ حديثٌ ما معناه: ما يزال العبدُ يَرَى سَيِّئَاتِه تُوضَع فِي كِفَّة موازين حسناته حَتَّى يَتمنَّى أنْ لو أَكْثَرَ منَ السيِّئات؟

الجواب: لا أعرِف هَذَا الحديثَ، لكِن نظرًا إِلَى تبديلِ السيئاتِ بالحسناتِ يُمْكِن من هَذَا الوجهِ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٧١)

• ● ○○ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان:٧١].

• ● ○○ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن تَابَ﴾ من ذُنُوبِه غيرَ مَن ذُكِرَ]، ولهذا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن سبق: [﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ (منهم)]، من هَؤُلَاءِ، وإنما قَالَ: [غير مَن ذُكر]؛ لِئَلَّا يَلْزَمَ التكرارُ، ولَكِن لا مانعَ من أنْ نقولَ: لا حاجة للاستثناءِ، وتكون الآيةُ الثَّانيةُ عامَّة، فيكُون من باب ذكر العامِّ بعد الخاصِّ؛ لِأَنَّ إخراجَ مَن سبقَ من عمومِ الآيةِ هَذِهِ لا وجهَ له، فالأَولى أن يقال: إن الآيةَ الثَّانيةَ عامَّةٌ تشمَلُ مَن سبقَ وغيرَهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ أي يَرْجِع إليه رُجُوعًا فيُجازيه خيرًا].

قوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾: ﴿تَابَ﴾ رَجَعَ من ذَنْبِه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ استزادَ مِنَ العملِ الصالحِ، فيكُون هَذَا الرجلُ استعتبَ مِمَّا فعلَ وازدادَ خيرًا، يقول: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ أيْ مَتابًا تامًّا، فالمصدرُ هنا لتعظيمِ هَذِهِ التوبةِ، أي مَتابًا عظيمًا؛ لكمالِ هَذِهِ التوبةِ، وإلَّا لو قَالَ قائل: هَذَا تحصيل حاصل، مَن تاب فَإِنَّهُ يَكُونُ تائبًا؟ نقول: لا، المقصودُ أنَّ تَوْبَتَهُ هَذِهِ توبةٌ كاملةٌ عظيمةٌ، فالإتيانُ بالمصدرِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ للدلالةِ عَلَى أنَّ هَذِهِ التوبة وَقَعَتْ مَوْقِعَهَا وأنها كاملةٌ، وهذا حقٌّ،

فإن الرجلَ إذا تابَ وازدادَ عَمَلًا صالحًا تَبيَّنَ بذلك صِحَّة توبتِه وكَمالها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لَيْسَ كقولِ القائلِ: الْأَرْضُ تَحْتَنَا والسَّماءُ فوقنا، يَعْنِي تحصيل حاصل، بل إن المعنى أنَّ هَذِهِ هي التوبة الصادقة الحقيقيَّة الكامِلَة.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعْنِي يَرْجِع إِلَى اللهِ رُجُوعًا تامًّا كاملًا، كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد اختلفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هل يُشْتَرَطُ للتوبةِ إصلاحُ العملِ، أو لا يُشْتَرَط؟

فمِنهم مَن قَالَ: إِنَّهُ يُشترط لها إصلاحُ العملِ، وعلى هَذَا فيَكُونُ ذلكَ شرطًا سادسًا زائدًا عَلَى الشروطِ الخمسةِ، وأن من تاب ولم يَصْلُحْ عَمَلُه فَإِنَّهُ لَيْسَ بتائبٍ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: بل تَصِحُّ التوبةُ معَ عدمِ إصلاحِ العملِ، وَقَالَ بعضهم: إنْ كَانَ العملُ من جنسِ ما تابَ منه فلا بدَّ من إصلاحِهِ، وإلَّا فلا تَصِحُّ التوبةُ، مثال ذلك: رجلٌ تابَ مِنَ الزنا ولَكِنه يَسرِق، فعلى القَوْلِ الأوَّل لا تَصِحُّ توبتُه من الزنا؛ لِعَدَمِ إصلاحِ العملِ، وعلى القَوْل الثَّاني تَصِحُّ؛ لأنَّ السَّرِقَة ليستْ من جنسِ الزِّنا، وعلى القَوْلِ الثالثِ من باب أَولى أَنَّهُ لا يُشترَط إصلاحُ العملِ مُطْلَقًا وأن مَن تابَ مِن ذَنْبٍ قُبِلَتْ توبتُه، ورجلٌ آخرُ تابَ من الزِّنا ولَكِنه استمرَّ فِي النظرِ المحرَّمِ، فاستمرَّ ينظر إِلَى النساءِ نظرًا محرَّمًا، فهذا عَلَى القَوْلِ بأنه لا يُشترَطُ إصلاحُ العملِ تَصِحُّ توبته من الزنا، وعلى القَوْل بأنه لا بدَّ من إصلاحِ العملِ لا تَصِحُّ توبتُه مِنَ الزِّنا، وعلى القَوْلِ الوَسَطِ الَّذِي يقولُ: إذا كَانَ من جِنْسِ ما تابَ منه لم تُقْبَلْ أَيْضًا لا تَصِحّ؛ لِأَنَّ هَذَا زِنا العينِ، كما قَالَ النَّبي ﷺ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم (٦٢٤٣)، ومسلم: كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، رقم (٢٦٥٧).

ولَكِن الصحيح أنْ يُقالَ: أمَّا إنْ أُريدَ بالتوبةِ وَصْف هَذَا الرجلِ بأنه مِنَ التائبينَ الَّذِينَ يَلْحَقُهُمُ الثناءُ، ويَصْدُقُ عليهم أَنَّهُمْ تائبونَ، فهذا لا يُمْكِن أنْ تَصِحَّ منه التوبةُ، أو أنْ يَسْتَحِقَّ وصفَ التوبةِ، إِلَّا بإصلاحِ العملِ؛ لِأَنَّهُ لم يَتُبِ التوبةَ المطلَقةَ، وإنما عنده مُطْلَق توبة، وَأَمَّا إنْ أُريدَ بالتوبةِ التوبةُ مِنَ العملِ المعيَّنِ، فالصوابُ الجَزْمُ بأن توبته تُقبَل؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى عدلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَن عَمِلَ خيرًا فله، ومَن عمِل شرًّا فعليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فكيف نقول: إن هَذَا الرجلَ لا تَصِحُّ توبتُه مِن عملٍ تابَ منه ورَجَعَ ونَدِمَ؛ لِأَنَّهُ مُصِرّ عَلَى غيرِه؟! لا يَصِحّ.

فالصوابُ فِي هَذَا أنْ يقالَ: أمَّا استحقاقُ وصفِ التائبينَ عَلَى وجهِ الإطلاقِ فهذا لا يَسْتَحِقُّهُ التائبُ إِلَّا بإصلاحِ العملِ؛ لِأَنَّهُ كيف يَكُونُ تائبًا إِلَى اللهِ مَن هو مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، ولو من غيرِ جنسِ ما تابَ منه، أو من جِنْسِهِ، وَأَمَّا إذا كَانَ المقصودُ التوبة من هَذَا العملِ المعيَّن، يَعْنِي مطلَق توبةٍ لا توبة مطلقة، فإن هَذِهِ تَصِحُّ جَزْمًا؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى عدلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وَرَدَ فِي الحديثِ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[١]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨).

نقول: هَذِهِ غيرُ مَسْأَلَتِنا، نحن نقولُ: هَذَا الرجلُ تابَ مِنَ الذنبِ، ولم يَرْجِعْ إليه، لَكِنَّه عاصٍ لله من جهةٍ أُخْرَى، هَذَا هو بَحْثُنا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا قُلْنَا بأنه جَزْمًا تَحْصُلُ له التوبةُ، فهناك أحكامٌ كثيرةٌ تَتَرَتَّب عَلَى التوبةِ، مثل قلب السيئات حسناتٍ؟

نقول: نعم، بالنسبة لهذا العملِ المعيَّن إذا تاب منه صارَ حسنةً.

وهل هو قلبٌ جزائيٌّ أو قلبٌ قَدَرِيٌّ؟

لَوْ قِيلَ: هَذَا إذا تابَ توبةً نَصُوحًا تامَّةً.

قُلْنَا: لا، تابَ من هَذِهِ الأشياءِ: الشرك والزنا وقتل النفس، المهمُّ أَنَّهُ حَتَّى مَن تابَ توبةً خاصَّةً مِن ذَنبٍ خَاصٍّ بُدِّلَتْ سيِّئاتُه حَسَناتٍ، فالسيئةُ الَّتِي تابَ مِنها تكونُ حَسَنَةً؛ لِأَنَّهُ تَرَكَهَا لله، وقد ثَبَتَ عن النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً»[1] لِأَنَّهُ تَرَكَهَا لله، فهذا مَثَلُه، ثمَّ إِنَّ مُجَرَّد أَنَّه يتوبُ إِلَى اللهِ ويَعرِف أنَّ له ربًّا يُؤَاخِذُهُ ويعاقبه ويَشْعُر بالخجلِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والحياءِ منه؛ هذا من الحسناتِ العظيمةِ.

فَلَوْ قِيلَ: لَكِنه وُصف بالعاصي والفاسِق.

نقول: عاصٍ بالنسبةِ لكذا، تائب بالنسبةِ لكذا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرقُ بَيْنَ الزنا والسَّرِقَة؟ هل كلاهما من الكبائرِ؟ وهل كلاهما فِسْقٌ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١).

الفرق بينهما هَذَا يُجلَد وهذا تُقطَع يدُه، وهذا يَكُونُ فاسقًا من وجهٍ، وذاك فاسقٌ من وجهٍ آخرَ، هَذَا باعتبارِ الأعراضِ، وهذا باعتبارِ الأموالِ، فبينهما فروق، لَيْسَ كل الذنوب عَلَى حدٍّ سواء، لا فِي النوعِ، ولا فِي القَدْر، ولا فِي الإثمِ.

وَلِهَذَا قُلْنَا: إن الوصفَ المطلَقَ للتوبةِ لا يَسْتَحِقُّه؛ لِأَنَّهُ حقيقةً لَيْسَ بتائبٍ؛ إذ إِنَّهُ عاصٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من وجهٍ، لكِن كوننا نقولُ: لا تُقبَل توبتُك من الزنا لأنك تَسْرِق، فهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فالَّذِي تابَ مِنه يُغْفَر له، والَّذِي أصرَّ عليه يَبْقَى عليه، صغيرةً كانتْ أم كبيرةً؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى عدلِ اللهِ، أليس هَذَا عَمِلَ خيرًا بتوبتِه.

وَقُلْنَا: إن قلبَ السيئةِ حسنةً بالتوبةِ؛ لِأَنَّ مجرَّد رُجوعِه إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتركه لها وتَوْبَته منه حَسَنَةٌ، هَذَا إذا قُلْنَا: إنَّ المرادَ بالحسنةِ الجزائي، يَعْنِي أَنَّهُ يُجازَى عَلَى نفسِ السيئةِ حسنةً. إذا قُلْنَا: إِنَّهُ قَدَرِيّ، بمعنى أن إقلاعَ هَذَا الرجلِ عن هَذَا الذنبِ واستقامته هَذَا منه، فالقدريُّ واضحٌ، والجزائيُّ أَيْضًا؛ لأنَّ كَرَمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسرعُ وأسبقُ من عقوبتِه، وقولنا: قَدَرِيّ من القَدَرِ، بمعنى أَنَّهُ يُقَدِّر له حَسَنات جديدة غير الأُولى، والجزائيّ أَيْضًا من القَدَر، لَكِنه ثواب بمعنى أَنَّهُ يُجْزَى عَلَى نفسِ السيئاتِ حسناتٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: (الواو) فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾ هل هي عاطفةٌ؟

نقول: نعم عاطفة.

فَلَوْ قِيلَ: إذا كانت عاطفةً نَرجِع إِلَى الشرطِ السادسِ الَّذِي يقولُ: لا بدَّ من صلاحِ العملِ؟

نَحْنُ قُلْنَا: إِنَّهُ لا يَسْتَحِقّ وصفَ التوبةِ المطلَق، إِلَّا بهذا: بالعملِ الصالحِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هناك آياتٌ من القُرْآنِ تَصِفُ الْإِنْسَانَ بالتوبةِ، ولو ما عَمِلَ عملًا صالحًا؟

نقول: نعمْ، مثل قولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٤].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ مثلًا العاصي يَعرِف من نفسِهِ ضعفَ إيمانٍ وتسلُّط عدوِّه عليه، وأنه سوف يعودُ إِلَى هَذِهِ المعصيةِ، أيُّهما أَوْلَى؛ كلَّما يَعْمَل معصيةً يتوب أو يترك التوبةَ؛ لئلَّا تكونَ تَوْبَة كَذب؟

يتوب، ما يُدْرِيهِ، نقول: توبته هَذِهِ لا تَصِحُّ، لكِن مجرَّد شُعُورِهِ بأنه مخطِئٌ قد يَنْفَعُه هذا، أمَّا أنْ يقولَ: سَأَسْتَمِرُّ فهَذَا لا يجوزُ، هو مُعْتَرِفٌ أَنَّهُ مُخْطِئٌ، لكِن هو يقول: أريدُ أنْ أَسْتَمِرَّ، لن أُقْلِعَ لا بِقَلْبِي ولا بِفِعْلِي، كلَّما سَنَحَتْ لي الفرصةُ سأفعلُ، فهَذَا شرٌّ، لكِن كونـه يَتُوبُ إِلَى اللهِ ويَخْجَل ويَصْير عنـده نوعٌ مِنَ التقرُّب إِلَى اللهِ أَحْسَن من عدَمِه، ولو تَعَدَّدَتْ تَوْبَتُه، لكِن الواجب عَلَى المؤمنِ أنْ يتوبَ جَزْمًا، وإِذَا قُدِّر فيما بعدُ أن أسباب المعصيةِ تَوَفَّرَتْ لديهِ وأن نفسَه غَلَبَتْه، فإن ذلك لا يَنْقُضُ توبتَه الأُولى، فَإِنَّهُ يُؤَاخَذ من جديدٍ بالمعصيةِ الجديدةِ ثم يتوب.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول: أَسْتَغْفِر اللهَ وأتوبُ إليه بعضهم يقولُ: إن قولَك: وأتوبُ إليه دائمًا توبة كذَّابين، واستغفارك أَيْضًا استغفارُ كذابينَ؟

عَلَى كلِّ حالٍ نسأَلُ اللهَ أنْ يتوبَ علينا، حَتَّى قول الْإِنْسَان إذا انْتَهَى مِنَ الأكلِ: الحمدُ لله، لا أحدَ يَشْعُر معنَى هَذِهِ الكَلِمَةِ تمامًا، إِلَّا أنَّها رُوتِينِيَّة، وباسْمِ اللهِ كَذَلِك، وأيضًا الصلاة عادة، وهذا الَّذِي فِي الحقيقة يُفسِدنا أن أعمالَ القلوبِ لا نشعُر بِهَا، تجد الكثيرَ مِنَّا يحافِظ عَلَى سنَّة رفعِ الإصبعِ عند الدعاءِ، لكِن رفع القلب عند الدعاء

لا أحدَ يَهْتَمّ بِهِ، معَ أنَّ هَذَا أهمُّ، الحقيقة أنَّ اللهَ يتوبُ علينا إذا فكَّرنا فِي أنفسنا، وإذا بنا ظاهريُّون لا باطنيُّون.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي هَذِهِ الآيةِ فِي التوبةِ العامَّة قال: ﴿مَن تَابَ﴾، ولم يَذْكُرِ الإيمانَ، وَفِي الآيةِ الَّتِي قبلَها فِي التوبةِ الخاصَّة ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، فذكر الإيمان، ما وجهُ ذلك؟

لِأَنَّهُ ذكرَ الشركَ هناك؛ فلا بدَّ مِنَ الإيمانِ مُقابِلَ الشِّرْكِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ إنْسَانٍ ابتُلِيَ بذنبٍ فأخذَ يَستغفرُ اللهَ ويتوبُ، وظَلَّ عَلَى هَذَا، وعَجَزَ أنْ يُقْلِعَ عنه؟

فالجواب: مسألةُ العجزِ هَذِهِ أمرٌ غيرُ وارِدٍ، إِلَّا عَلَى مَذْهَبِ الجَبْرِيَّة، لا أحد يَعْجِز عن التركِ، فالتروك أهـون من الأفعالِ، ولهذا لا تَجِد التَّرك رُتِّـبَ عليه مثلًا الثوابُ المطلَقُ، بخلافِ الفعلِ، فالفعلُ أشقُّ عَلَى النفسِ؛ لِأَنَّهُ جِهادٌ للنفسِ من وجهينِ، لكِن الترك من وجهٍ وَاحِدٍ، فكلمةُ عَجَزْتُ ليستْ بصحيحةٍ، ولو أنَّ سَوْطَ السلطانِ فِي ظَهْرِهِ مرَّة وَفِي بطنه مرَّة لا يَعْجِز.

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يَشربون الدُّخَان إذا نَصحناهم يقولون: واللهِ عَجَزْنا؟

هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، أنا أَشْهَدُ أَنَّهُ يكذِب؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ أُناسٌ صَدَقُوا العَزيمة وتابوا وأَقلَعوا عنه، فالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبلَ أنْ يَنزِلَ الخمرُ كانوا مُدْمِنِينَ عَلَى الخمرِ، وإمساك الخمر لِشَارِبِها أَكْثَـرُ من شُرْبِ الدخَانِ، ومع ذلك فِي يـومٍ وَاحِدٍ كلهمُ امْتَثَلُوا، فالكَلام عَلَى صِدق العزيمة، الآن فِي غيرِ الصيامِ هَذَا الشارِبُ لا يَستطيعُ أنْ يَتوَقَّفَ النهارَ كلَّه عَلَى زَعْمِهِ عن الدخانِ، وَفِي الصيامِ حيثُ إِنَّهُ عازِمٌ يَستطيعُ.

الآية (٧٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾، وسَبَقَ أنَّ الصحيحَ أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبرٌ وليستْ صِفَةً كما قَالَ المُفَسِّر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أيِ الكَذِبَ والبَاطِلَ]، معنى الزُّور مِنِ ازْوَرَّ، أي: مالَ وانْحَرَفَ، ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [الكهف:١٧]، فالزُّور كل مَيْل قَوليّ أو فِعليّ إنْ كَانَ قولًا وُصِفَ بالكَذِبِ، وإنْ كَانَ فِعْلًا وُصِفَ بالباطِلِ، فكل قولٍ أو فعلٍ مائلٌ عنِ الطَّريقِ فإنَّهُ زُورٌ، فالكَذِبُ زُورٌ، والشَّتْمُ واللَّعْن والغِيبة زورٌ أيضًا، والغَصْب والسَّرِقَة والزِّنا وغير ذلك زورٌ أَيْضًا، لكِن قد نُسَمِّيهِ باطِلًا إذا كَانَ فِعْلًا.

فالمهمُّ أنَّهم لا يَشهَدون الزُّور، وإذا كانوا لا يَشهَدون الزورَ فهل يفعلونه؟ من باب أَولَى؛ لأنَّهم إذا كانوا لا يَحْضُرُونَهُ فإنهم لا يَفْعَلُونه قَطْعًا؛ إذ لوْ فَعَلوه لَحَضَرُوه، كلُّ فاعلٍ حاضِر، وليس كل حاضرٍ فاعلًا عَلَى وجه الحقيقةِ، لَكِنه فاعلٌ حُكْمًا؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]،

فدلَّ هَذا عَلَى أنَّ المُشَاهِدَ لِلْعَاصِي -سواء كَانَ قاعدًا أو مُضْطَجِعًا أو واقفًا- مثل العاصي حُكْمًا عندَ اللهِ، وهذا فِي كلِّ المعاصي، إلَّا مَن أُكْرِهَ عَلَى الحضورِ فهذا شَيْءٌ آخَرُ لا حُكْمَ له، كمَن أُكرِه عَلَى الفعلِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ مِنَ الكَلامِ القبيحِ وغيرِهِ ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ مُعْرِضِينَ عنه].

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ اللغوُ الصوابُ أَنَّهُ لَيسَ الكَلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكَلامَ القَبيحَ داخلٌ فِي الزُّور، لكِن المراد باللَّغْوِ ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فِيهِ فَهُوَ لَغْوٌ؛ وذلكَ لِأَنَّهُ لا يُقْصَد، ومَا لا يُقْصَدُ فَهُوَ لغوٌ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، فاللَّغْوُ ما لا فائدةَ فِيهِ، سواءٌ كَانَ قولًا أو فِعْلًا.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ لم يَقُلْ مثلَما سَبَقَ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾؛ لِأَنَّ هناك خِطَابًا معيَّنًا مباشرًا، فلا بدَّ أنْ يقولوا قولًا يَسْلَمُونَ بِهِ، لكِن هنا يَمُرُّون بالشَّيْءِ بدونِ أنْ يُخَاطَبُوا بِهِ، والمراد بِالمُرُورِ بِهِ سواء كانوا مارِّينَ فِي طَرِيقٍ أو جالِسِينَ، فجاء شَيْءٌ لَغْوٌ لا فائدةَ فِيهِ، فإنهم يَمُرُّونَ كِرَامًا، ومعنى مرّ الكِرَام هنا أي أَنَّهُمْ لا يَلْحَقُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، بل يُحاوِلون الإصلاحَ؛ لأنَّ الكريمَ يُعْطِي غيرَه، يَنْفَعُ نفسَه وغيرَه، فهم إذا مَرُّوا باللَّغْوِ يَمُرُّونَ كِرامًا، يحاولونَ أنْ يُفِيدُوا من وُجُودِهِمْ، وذلك بأنْ يَنْقُلُوا هَذَا اللغوَ إِلَى أمرٍ مفيدٍ، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾، لم يَقُلْ: ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾؛ لِأَنَّ هناك يخاطبون بما يُسِيءُ إليهم، فيَقُولُونَ قَوْلًا يَسْلَمُونَ بِهِ؛ لأنَّ المَقَامَ يَقْتَضِي أنْ تُسَلِّمَ فقطْ، لكِنْ هنا لا يُؤْذَوْنَ إِنَّمَا يمرُّونَ بِلَغْوٍ لا فائدةَ منه، فيمرون كِرَامًا مُفِيدِينَ ومُسْتَفِيدِينَ.

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُعْرِضِينَ عنه] هَذَا غير صحيح أَيْضًا، قد لا يُعرِضون عنه لكِن يفيدون ويَستفيدونَ، والْإِنْسَان الموفَّق يَستطيعُ أنْ يُفيد ويَستفيدَ، حَتَّى إذا كَانَ المجلسُ مَجْلِسَ لَغْوٍ، يَعْنِي كَلامًا مباحًا يَستطيعُ أنْ يُحَوِّلَهُ إِلَى كَلامٍ مطلوبٍ، وذلك بما يَستعرِضه مثلًا من كونِ هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ بِهِ دليلًا عَلَى قُدْرَةِ اللهِ، أو عَلَى رحمة اللهِ، أو عَلَى حِكمةِ اللهِ مثلًا، فيُفِيد ويَستفيد، لكِن هَذِهِ الأمور فِي الحقيقةِ تُرِيدُ رِجالًا يَعْتَبِرُونَ أنفسَهم قادةً مُصْلِحِينَ، لا تُريد رجالًا يَعتبرونَ أنفسَهم مِن جِنْسِ مُجْتَمَعِهِم، يَمْشُونَ الهُوَيْنَى بدونِ إصلاحٍ؛ ولهذا يَفُوتُنا كثيرٌ فِي هَذِهِ الأمورِ، فنَجْلِسُ مجالسَ اللَّغْو لا نُفيد ولا نَستفِيد، غاية ما هُنالِكَ إنْ كَانَ الْإِنْسَانُ استحضرَ نيَّةَ التأليفِ وعدمِ الاِنْزِوَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ، وهذا خيرٌ، لكِن ولو، الخيرُ والأكملُ أنْ تُحاوِلَ الإفادةَ والاستفادةَ.

وبعضُ النَّاسِ أَيْضًا يريدُ مِنَ المجالِسِ التسلِّي فقطْ، لا يريدُ معنًى وراءَ ذلك، وهذا فاتَهُ خَيْرٌ كثيرٌ، وعلى كلِّ حالٍ النَّاسُ يَختلِفون، والمسائلُ تعودُ عَلَى النيَّاتِ، وكم من عملٍ عَمِلَهُ شخصٌ وعمِله آخرُ، فصار بينهما مثلُ ما بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، فالسجودُ يَكُونُ شِرْكًا ويَكُونُ طاعةً، إن سَجَدْتَ لِصَنَمٍ كَانَ شِرْكًا، وإِن سَجَدْتَ للهِ كَانَ طاعةً، وهكذا جميعِ الأعمالِ، فالنيَّةُ فِي الحقيقةِ لها تأثيرٌ كبيرٌ فِي إصلاحِها أو فِي إِفْسَادِها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنا أريدُ أنْ أُسافرَ معَ شبابٍ فِي بعضِ النوادي، وهَؤُلَاءِ الشبابُ لا يُريدونَ إِلَّا اللَّهْوَ، وأريدُ أنْ أَذهبَ معَهم إِلَى الأماكنِ الَّتِي يَذهَبون إليها، هم عَلَى قصدٍ وأنا عَلَى قصدٍ، وأنا لي هـدفٌ، أنا قَصدي أريدُ إصلاحَهـم، وأُحاولُ أنْ أُعالِجَهُم، وهم قَصْدُهم أني داخلٌ معهم؟

الجواب: لا بأسَ، فإذَا قَصَدْتَ الإصلاحَ فهذا طيِّب، لكِن نَخْشَى أنْ يَتَغَلَّبُوا عليكَ، لكِن لا تُحَوِّلهم قَفْزَةً، لكِن تستطيع رُوَيْدًا رُويدًا، الآن مثلًا عندما تحاولُ أنْ تمنعَ الماءَ الكثيرَ المنحدِرَ مرَّةً وَاحِدةً لا تستطيعُ، ضعْ أمامَهُ مَثَلًا نقطةَ طينٍ لا تَرُدّه، لكِن ضَعْها فِي الجوانبِ رُويدًا رويدًا يُمْكِن أنْ تَقْضِيَ عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذِهِ النوادي الَّتِي يَذْهَب إليها الشبابُ محرَّمة؟

النوادي ليستْ محرَّمةً، مَن يقولُ: إن النواديَ محرَّمة! بعضُ الأفعالِ فِيهَا قد تكونُ غيرَ مَرْضِيَّة، لَكِنَّنا لا نقولُ: إن هَذَا مُحَرَّم؛ لِأَنَّ تَرْكَهم وتركَ الاختلاطِ بهم مُشْكِلة أَيْضًا، معناه أَنَّهُمْ يُتْرَكُونَ والشياطين.

عَلَى كلِّ حالٍ لَيْسَ هناك شكّ أنَّ المرادَ منها -وهو أصل المؤَسِّسِينَ لها-: صَدُّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ، وهذا هو الواقِعُ؛ لَكِنْ معَ ذلكَ لا نقولُ: إنَّها مَعْدُومةُ الخيرِ مئةً بالمئةِ، فنحاولُ أنْ نَنْصَحَهُمْ، وليس إصلاحها إزالتـها، نحن لا نُؤَيِّدهم عَلَى أعمالِهم ولا عَلَى نواديهم فِي الحقيـقةِ، ونَرَى أَنَّهُ مِنَ المصلحةِ أنْ يُصْرَفَ الشبابُ إِلَى شَيْءٍ آخرَ؛ إِلَى تَعَلُّمِ الرِّمايةِ وإلى تعلُّمِ السِّباحة وإلى السباق وإلى الأشياءِ المفيدةِ، حَتَّى لو نجعلهم يَقْطَعون حصا، المهمُّ يفيدون النَّاسَ.

أَمَّا أنا فلا أقولُ: إنِّي أُؤَيِّدُ النواديَ، بل أقولُ: إن ضَرَرَها أكْثَرُ مِن نَفْعِها، وإن كَانَ مع ذلكَ لا نقولُ: إن ضررها مئة بالمئة، نقول: ضَرَرُها أَكْثَرُ من نفعِها، لكِن أَلَا ترى هَؤُلَاءِ الشبابَ الكثيرَ لو بَقِيَ مُسَرَّحًا فِي الأسواقِ ألا يحصُل من ذلك مَفْسَدَةٌ؟ واللهِ أنا عِندي أنها كافَّة عن أشيـاءَ كثيرةٍ، وأن الشباب لو بَقُوا مسرَّحينَ فِي الأسـواقِ لكانَ أفسدَ وأفسدَ، واتفـقنا عَلَى هَذَا؛ عَلَى أنها تحتاج إِلَى توجيهٍ، وأن وجودَ النوادي ضررٌ، لكِن لا نقولُ: إنها ضررٌ محْضٌ؛ لِأَنَّهَا كافَّة عن أشياءَ كثيرةٍ،

فلو أنَّ الشبابَ مثلًا قامَ يَتَجَوَّل فِي الأسواقِ ويتجمعون تجمُّعات كَانَ يَحْصُل شَيْءٌ عظيمٌ، نقول: إن هَذِهِ ليستْ بفكرةٍ جيِّدةٍ، وليست سليمةً أبدًا، وليسَ المقصودُ بِهَا الخيرَ للمسلمينَ أيضًا، أنا أَجزِمُ -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ ما قُصد بِهَا الخيرُ للمسلمينَ، إِنَّمَا قُصِدَ بِهَا إلهاءُ النَّاسِ وصَدُّهم عن دينِ اللهِ، لكِن معَ ذلك لا نقولُ: إنها شرٌّ مَحْضٌ، الكَلام الآنَ الَّذِي هو مَوْضِع نِقاشٍ هل هي شرٌّ مَحْضٌ أو فِيهَا خيرٌ، وأَقْصِد بالخيرِ لَيْسَ الخـير الإيجابيّ، لكِن أقصد الخـيرَ السلبيّ، بمعنى أنها تَكُفُّ عن مَفَاسِدَ -فِي ظنِّي- أَكْثَرَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَحَدُهم يكتُـب فِي الجرائدِ يَستـدِلّ بقولِه تَعَالَى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، ويذكر أدلَّـةً من القُرْآنِ عَلَى أنَّ الكُـرَةَ السعودية غيرُ مُتَدَهْوِرَة، ويقول: مَن يقولُ: إن الكرةَ السعودية متدهورة أو ضعيفة، رغم أنَّ عَلَمَ السعودية (لا إلهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ)، وكذلك تجمعهم الكرةُ مع لاعبي الكرة الآخرين، ولو كَانَ مع يهوديٍّ؟!

فهَذَا لَيْسَ فِيهِ شكٌّ، ولهذا تجدُ أنَّ بعضَهم يشجِّع أُناسًا من النصارى واليهودِ من هَؤُلَاءِ اللاعبين، وتجـدهم إذا جاءتِ المباراةُ فِي التلفزيون لو أُقيـمَتِ الصلاةُ يَسْمَع إقامةَ الصلاةِ ولا يقومُ للصلاةِ، هَذَا صحيحٌ، بل ربما يحبّون مَن يشجِّعون من هَؤُلَاءِ أشدَّ مِن حُبِّ اللهِ ورسولِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تُعْتَبَرُ كرةُ القدمِ صَنَمًا؛ لأَنَّهُمْ قدَّموا طاعتها عَلَى طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

صحيـحٌ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا عبـدُ الدِّينار والدِّرهم؛ لأَنَّهُمْ إن أُعطوا رَضُوا، وإنْ لم يُعْطَـوْا سَخِطُوا، إنْ نَجَحُوا رَضُوا، وإلا سَخِطُوا وقالوا: ما هَـذَا الحظّ! ما هَذَا

النصيبُ! ما هَذَا التقديرُ؟! حَتَّى يقال: إنَّ أَحَدَهم فِي البدائعِ مات فَرَحًا لانتصارِ فريقِه الَّذِي يراه، اللهُ أكبرُ، سبحانَ اللهِ العظيمِ!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ إذا طَلَبُوا من أحدِ طُلَّاب العلمِ أنْ يُلْقِيَ عندهم محاضرةً، هل يذهب إليهم؟

نقول: يَذهَب إليهم، ولا يَكُونُ إِلَّا خيرًا، فإذا كانوا همُ الذينَ طَلَبُوه، وهم لم يَطْلُبُوه إِلَّا وهم يَظُنُّون أَنَّهُمْ سَيَسْتَفِيدُونَ منه.

لَوْ قِيلَ: هم ما طَلَبُوه إِلَّا مِنْ أجْلِ أنْ يُبَارِكَ هَذَا العملَ؟

أنا أَخْشَى أَيْضًا أن يَكُون هَذَا خطيرًا، فيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أنْ يُرَاعِيَ الَّذِي بينه وبين اللهِ، فإذا طلبوا منكَ ذلك وقالوا: تعالَ ذكِّرْنا، وهم مجتمعٌ.

فَلَوْ قِيلَ: يوجد فِي هَذِهِ الأماكنِ منكَرات كصُور مجسَّمة وغيرها.

نقول: لا نريد هَذَا المكان، نذهب إِلَى مكان آخرَ، ثم بعد ذلكَ تَنْصَحُهم.

• • ۞ • •

الآية (٧٣)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان:٧٣].

• ● ● •

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ لم يُبيِّن مَنِ المُذَكِّر؛ لِيَشْمَل كلّ مذكّر، وليبيِّن أنَّ قبولَهم للتذكيرِ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ شخصِ المُذَكِّر؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَقبَل الحقَّ إِلَّا من شخصٍ معيَّن، وإذا جاءَهُ من شخصٍ آخرَ لم يَقْبَلْهُ، مثلَما فعلَ أهلُ الكِتَابِ وغيرُهم بالنَّبيِّ ﷺ، فلا يَقبَلُون الحقَّ إِلَّا من طائفةٍ معيَّنةٍ أو شخصٍ معيَّن ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة:١٤٥]، فهنا قال: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ ولم يُبيِّنِ المُذَكِّرَ إشارةً إِلَى أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْبَلُونَ الحقَّ لِأَنَّهُ حقٌّ، لا مِنْ أجْلِ مَن قَالَ بِهِ، فهم لا يَقبَلون التذكيرَ لأجلِ شخصِ المذكِّر، أو يَرُدُّونه مِنْ أجْلِ شخصِ المذكِّرِ، وإنما يقبلونه لِأَنَّهُ تذكيرٌ، وهَذِهِ هي الْفَائِدَةُ فِي حذفِ الفاعِلِ.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أيِ الْقُرْآنِ].

قوله: ﴿ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ هل المرادُ (ذُكِّروا بها) أي أنها جُعِلَتْ وسيلةً للذِّكْرَى أو التذكير، أو (ذُكِّروا بها) أي بما حكمت بِهِ لِيَعْمَلُوا به؟ شاملة للجميع، يَعْنِي سواء ذُكِّروا تذكيرًا بواسطةِ الآياتِ بأن قُرِئَتْ عليهم لِيَذَّكَّروا، أو ذُكِّروا بِهَا أي قِيلَ لهُمْ: اذكروا أحكامَ اللهِ واعْمَلُوا بِهَا، فَهُوَ شامِلٌ للأمرينِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي القُرْآن] الصوابُ العُمُومُ؛ القُرْآنُ وغيرُ القُرْآنِ، وأنه أَيْضًا أعمُّ من جهةِ كونِ الآياتِ كونيَّة أو شرعيَّة، فنحن نقول: بالقُرْآنِ وغيرِه من الكتبِ السابقةِ، ونقول أَيْضًا: بالقُرْآن والكتب أو بالآيات الكونيَّة؛ فإن الآيات الكونية مُذَكِّرة؛ لِقَـوْلِ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي الكُسُوف: «يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ»[1]، فالآياتُ الكونيَّة مخوِّفة ومذكِّرة باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا دائمًا يَحُثُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى النظَرِ فِي هَذِهِ الآياتِ الكونيَّة؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الدلالةِ عَلَى الخالقِ، وعلى ما تَشتمِل عليه من صفاتِه من الحِكْمَة والرَّحمةِ وغيرِ ذلك، فالآنَ عندنا عمومانِ فِي التذكيرِ بالآياتِ:

العمومُ الأوَّل: أنها تَشمَل الآياتِ الكونيَّة والشرعيَّة.

العموم الثَّاني: أنها تَشمَل القُرْآن وغير القُرْآن من الكتب السابقةِ؛ لأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لَيْسَ خاصًّا بعبادِ الرَّحمنِ من هَذِهِ الأمَّة، بل هو عامٌّ لكلِّ عبادِ الرَّحمنِ من كلِّ أُمَّة.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمۡ يَخِرُّواْ﴾ يَسْقُطوا ﴿عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا﴾ بل خَرُّوا سامعينَ ناظرينَ مُنْتَفِعِينَ].

قوله: ﴿صُمًّا﴾ جمع أَصَمّ، وهو الَّذِي لم يَسْمَعْ، ﴿وَعُمۡيَانًا﴾ جمع أَعْمَى، وهو الَّذِي لم يرَ، وإنما قَيَّده بهاتينِ الحاسَّتيْنِ لأنهما الوسيلة إِلَى وصولِ الشَّيْءِ إِلَى القلبِ؛ إذ الأشيـاء إمَّا مرئيَّة فوسيلتها النظرُ، وإما مسمـوعة فوسيلتها السمعُ، فنـفى أنْ يَكُونوا صُمًّا، ونفَى أن يَكُونوا عُميَانًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١١).

وقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لم يسقُطوا] وإنما يُقْبِلون عَلَيْهَا إقبالَ سامعٍ مُبْصِرٍ، لا أَنَّهُمْ يسقطون عَلَيْهَا عَلَى هَذَا الوجهِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الصِّفة سلبيةٌ، والصِّفاتُ الثُّبُوتيَّة أبلغُ فِي الثناءِ، فلماذا لم يَقُلْ: إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم أَقْبَلُوا عَلَيْهَا مُبْصِرِينَ سَامعينَ؟

نقول: حَتَّى إذا قُلْنَا: إن هَذَا النفيَ يَتَضَمَّن إثباتًا، والنفي -كما تَقَدَّم- لا يَكُون مَدْحًا إِلَّا إذا تَضَمَّنَ إثباتًا، لَكِنَّنَا نقول: لِماذا لم يُثْبِت أصلًا فلا يَرْتَفِع الإِشْكالُ؟ إِنَّمَا يقال: إِنَّهُ تَعْرِيض بهؤُلَاءِ الَّذِينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم خَرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُميانًا، فهم عَلَى نَقِيضِهم، لكِن نقول: لِماذا لم يَقُلْ: خَرُّوا عَلَيْهَا مُبْصِرِينَ سَامعينَ؟ مِنْ أَجْلِ السَبَبِ الَّذِي ذكرتُ، ومن المعروفِ أنَّ هَذِهِ السُّورة من أَوَّلها إِلَى آخِرِها فِي مُجَادَلَةِ المنكِرينَ لِمَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، وهم إذا كانوا مُنْكِرِينَ يَخِرُّونَ عَلَى الآياتِ صُمًّا وعميانًا، فهذا -واللهُ أَعْلَمُ- وجهُ المناسبةِ فِي العدولِ عن ذكرِ الصِّفةِ الثبوتيَّة إِلَى ذِكرِ الصِّفةِ السلبيَّةِ، ولهذا قَالَ المُفَسِّر: [بلْ خرُّوا سامعينَ ناظرينَ منتفعينَ].

الآيـــة (٧٤)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ بالجمعِ والإفرادِ]، ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ جَمْعٌ، و(ذُرِّيَّتِنَا) إفراد. ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لنا بأن نَراهُمْ مُطِيعِينَ لكَ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فِي الخيرِ].

بعد أنْ ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ صلاحَ هَؤُلَاءِ فِي أنفسِهِمْ، ذَكَرَ أنَّهم أَيْضًا يَسْعَوْنَ فِي إصلاحِ غيرِهِمْ مِمَّن يتَّصِلُ بهم من الأزواجِ والذرِّيَّة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾، وَفِي هَذَا دليلٌ واضحٌ عَلَى أنَّ دأبَ المؤمنينَ دُعَاء الله، وَأَمَّا مَن قالَ: (عِلْمُه بحالِي يَكْفِي عن سُؤَالِي) فهذا قولٌ باطلٌ، وليسَ بصحيحٍ؛ لأننا نقولُ: إن الله وصفَ الرُّسُلَ وأتباعَهم بأَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللهَ، وهم يعلمون علمَ اليقينِ بأنَّ الله يعلمُ بحالِهم، ومَن قَالَ مثلَ هَذَا القَوْل فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى استكبارِهِ عن دعاءِ الله عَزَّوَجَلَّ وعَدَم خُضُوعِهِ لِرَبِّهِ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أن اللهَ عالمٌ بحالِ كلِّ أحدٍ، فلماذا لم تَقُلْ: يا ربِّ؟ ولَكِنَّ هَذَا -والعياذُ بالله- من الطرق الشيطانيَّة الَّتِي أَرْسَلَها الشيطانُ عَلَى مُتَّبِعِيهَا من الصُّوفيَّة وغيرهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ الهِبَة بمعنى العَطِيَّة.

قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ هل (مِنْ) للتبعيضِ أو لبيانِ الجِنْسِ؟ لبيانِ الجنسِ، فهم لا يَقُولُونَ: بعض أزواجنا تَهب لنا منهم قُرَّةَ أَعْيُنٍ، بل الجميع، ولكنها للبيان، فـ(من) بيانيَّة وليستْ تَبْعِيضِيَّة.

وقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ جمع زوجٍ، فيَشمَل الذَّكَرَ والأُنثى، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الرجل يقوله؛ لأن (الذين) للمذكَّر، والمرأة تقوله أَيْضًا؛ لأن الخطاب أو التحدُّث بصيغةِ جمعِ المذكَّر يشمل المؤنَّث أَيْضًا، فالمرأة تقوله والرجل يقوله أيضًا.

قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ قراءتانِ[1]: «ذُرِّيَتِنَا» و﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾، أمَّا عَلَى قراءة ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ فالوجهُ فِيهَا ظاهرٌ لفظًا ومعنًى، أَمَّا لفظًا فلِمُناسَبَةِ الجمعِ قبلها: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾، وَأَمَّا معنًى فلأنه أشملُ، فشموله ظاهِرٌ مِنْ أجْلِ الجمعِ، وَأَمَّا «ذُرِّيَّتِنا» فإنها لا تَتَلاقَى معَ ما قبلَها من حيثُ الصِّيغةُ؛ لِأَنَّهَا مفردٌ، لَكِنَّها تُلاقيها من حيثُ المعنى؛ لِأَنَّهَا مفرد مضاف، والمفرد المضاف للعموم، ويَدُلُّ عَلَى أن المفردَ المضافَ للعمومِ من القُرْآنِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، يقينًا أن المرادَ بالنعمةِ هنا الجمعُ؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ والنعمة الوَاحِدةُ أوَّلًا: لا تُعَدُّ، والشَّيْء الثَّاني: تُحْصَى، والله يقول: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فهذا مثالٌ واضحٌ جِدًّا عَلَى أن المفردَ المضافَ يَكُون للعمومِ والشمولِ، إِذَن (ذُرِّيَّتنا) عَلَى قراءةِ الإفرادِ يلاقي ما قبله من حيثُ المعنى؛ لِأَنَّهُ يشمل جميع الذُّرِّيَّة.

ومَنِ المرادُ بالذُّرِّيَّة؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

المراد بالذريَّة الأولادُ؛ ذُكورُهُم وإناثُهم، وأولاد الأبناءِ دونَ أولادِ البناتِ، فإن أولاد البناتِ لَيْسُوا من الذريةِ لُغةً ولا شرعًا عند كثيرٍ مِنَ الفقهاءِ، وقيل: بل أولادُ البناتِ من الذُّرِّيَّة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ فِي إبْراهِيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٥]، وعيسى ولد بنت وليس ولدَ ابنٍ، فجعله اللهُ مِن الذريةِ، فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ أولادَ البناتِ من الذريةِ، ولَكِنَّا نقولُ: لَيْسَ فِي الآيةِ دَلالةٌ؛ لأنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمُّهُ أبوه، يَعْنِي لَيْسَ له نَسَبٌ من قِبل الأُبُوَّةِ، مُنْقَطِع؛ ولهذا المرأة المُلَاعِنة -أوِ المُلاعَنة- إذا نفَى زوجُها ولدَها منه صارتْ هي أُمًّا أبًا، فالصوابُ أن الذرية لا يَدْخُلُ فِيهَا أولادُ البناتِ، هَذَا من حيثُ ناحية اللُّغَة والشَّرْع.

أما من حيثُ الوَقْفُ والهِبَةُ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ مِمَّا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بنفسِهِ، وله الحرِّيَّة فِيهِ، فهذا حَسَبَ ما ينصّ عليه، لو قَالَ مثلًا: هَذَا وَقْفٌ عَلَى ذُرِّيَّتِي الذكور والإناث، ومَن مات منهم عن ولدٍ فنصيبه لولدِهِ، يَكُون هَذَا للجميعِ.

وكَذَلِك لو قَالَ: هَذَا وَقْفٌ عَلَى ذُرِّيتي ومَن تَفرَّعَ منهم، وليس له إِلَّا بنات، فيدخل أولاد البناتِ بِلَا شَكٍّ، أو قَالَ مثلًا: عَلَى ذُرِّيَّتِي، وأولاد البنات يَنزِلون منزلة أُمَّهاتهم، فكَذَلِك إذا نصَّ عَلَى الشَّيْءِ أو دلَّت القرينةُ عليه دَخَلَ أولادُ البناتِ، لكِن هَذَا الدخول بِحَسَبِ ما تَقْتَضِيهِ الصِّيغة عُرْفًا أو نُطْقًا، لا بِحَسَب الشرعِ واللُّغة العربيَّة.

قوله: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ما معنى قُرَّة العَيْن، قرة العين هل معناها الاستقرارُ، يعني أنَّها مأخوذة من الاستقرارِ، أو مأخوذة من القُرِّ، وهو البَرْد؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إن دُمُوع العين الحزينة حارَّة، والعَيْنُ القَرِيرَة باردةٌ؟

هَذَا هو الأقربُ، وليس منْ الِاستقرار، وليس المعنى أنَّ الْإِنْسَانَ إذا فَرِحَ قَرَّت عينُه، وإذا حَزِنَ اضْطَرَبَتْ وتحركتْ، لَيْسَ الأمر كَذَلِك، لَكِنها من القُرّ الَّذِي هو البرودة؛ لأن الْإِنْسَان إذا حَزِنَ حَمِيَتْ عَيْنُه، ولهذا يقالُ: دموع الحزينِ حارَّة، فالمعنى السرور والاطمئنان، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، وكُني بالعينِ لِأَنَّهَا تَتَأَثَّر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأنْ نَرَاهُمْ مُطِيعِينَ لكَ] هَذَا فِي الحقيقةِ من جُملةِ ما تَقَرُّ بِهِ عينُ المؤمِنِ، أن يَرَى أزواجَهُ وذرِّيَّاتِهِ مُطِيعِينَ لله، والغريبُ أنَّ الْإِنْسَانَ المسلمَ إذا رأى أزواجَهُ وذرياتِه مطيعينَ لله تَقَرُّ عينُه وإنْ كَانَ هو فَاسِقًا، الغريب أن الوالدَ يَفْرَح أن وَلَدَهُ يصيرُ مُطيعًا لله مُجْتَنِبًا للمعاصي، وهو فاسِقٌ، ويُحِبّ أنَّ وَلَدَهُ يصلي مع الجماعَةِ، ولو كَانَ هو لا يصلي، وكَذَلِك يحبُّ أنَّ وَلَدَهُ لا يشرب الدخَانَ، ولو كَانَ هو يشرب الدخانَ؛ لأن المسلمَ مجبولٌ عَلَى محَبَّة طاعةِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يقولون:﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يَعْنِي بأن نراهم مطيعينَ لكَ، هَذَا وَاحِد. والصواب أَيْضًا (ولنا)؛ لأن الْإِنْسَانَ أَيْضًا إذا كَانَ ولدُه وزوجتُه موافِقِينَ لطاعتِهِ تَقَرُّ عينُه، هَذَا إذا أُضيفت إِلَى طاعةِ اللهِ، لكِن إذا كانوا مطيعينَ لله وعاصِينَ له تَقَرُّ عينُه من وجهٍ، إذا ذَكَرَ طاعتهم لله وقِيامَهم بطاعةِ اللهِ رَضِيَ وفَرِحَ، وإذا رآهُـم عاصِينَ له فإن هذا يسوءه، كأنْ يقولَ للولدِ: اجْلِسْ فِي القهوةِ وانتظِرِ الرِّجالَ، ولَكِنَّه يخرج، ويقول للمرأةِ: أَصْلِحِي الطعامَ، ولَكِنَّها لا تُصْلِحُه، فلَا شَكَّ أن هَذَا الشَّيْءَ يَسُوءُه، ولا تَقَرّ عَيْنُه بِهِ، معَ أن هَذَا الأمرَ معصيةٌ لله.

يَعْنِي لَوْ شِئْنَا لَقُلْنَا: إن قولَه رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأنْ نراهُمْ مُطِيعينَ لكَ] يَشْمَلُ حَتَّى طاعتهم لأبيهم وطاعة المرأة لِزَوْجِها، يَشمَل هَذَا وهذا، وكَذَلِك قيامُ الرجلِ بما يَجِب لزوجتِهِ يدخلُ فِي ذلكَ، فلو شِئنا أنْ نقولَ هَذَا لَقُلْنَاه، لَكِنَّه خِلافُ ظاهِرِ الكَلَامِ،

فالصوابُ أن نراهم مُطيعينَ لكَ قائمينَ بما يَجِبُ عليهم لنـا؛ لأنَّ بذلك يَتِمُّ قَرار العَيْن.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: ﴿إِمَامًا﴾ يَعْنِي قُـدْوَةً، والإمامُ هو القُدْوَةُ المُتَّبَعُ.

وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ سَبَقَ الكَلامُ عَنِ التَّقْوَى عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وأن المرادَ بالتقوى اتِّخاذ وِقايـة من عذابِ اللهِ، وذلكَ بِفِعْلِ الأوامرِ واجتـنابِ النواهي، ومعنى كونه للمتَّقين إمامًا أي قُدوةً، لاتِّصافهم بالتقوَى، واتصافهم بالعلم؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ الْإِنْسَانُ قُدوةً إِلَّا إذا عُلِم فِيهِ العلمُ والتقوى، فإذا لم يكنْ عالِمًا لم يَثِقِ النَّاسُ بِهِ من حيثُ العلمُ، فالجاهلُ لا يَقْتَدُونَ بِهِ، وإذا كَانَ عالِمًا لكِن عنده انحرافٌ قوليّ، أو عمليّ، أو اعتقاديّ، فَإِنَّهُ أَيْضًا لا يَكُون قدوةً للمتَّقين، لا لعدمِ عِلْمِه، ولَكِن لِعَدَمِ نُصْحِه.

فهذا الدعاء ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: العلم والتقوى والتأثير؛ لأنَّ مَن لم يَكُـنْ عَالِمًا لم يَكُنْ قُدْوَةً، ومَن لم يكنْ مُتَّـقِيًا لم يكنْ قُدوةً، ومَن لم يكـنْ مُؤَثِّرًا لم يكن قدوةً أَيْضًا، والتأثـير بالقَوْلِ والفعلِ له دورٌ كَبـيرٌ، تَجِدُ مثلًا رجلينِ متقاربينِ فِي العلمِ لَكِنَّ أحدَهما يَصْرِفُ اللهُ القلوبَ إليه فيَتَّخِذُونَه قُدوةً، والآخر لا يحصُل له هَذَا الأمرُ، فلهذا نقولُ: نَزِيدُ عَلَى العلمِ والتقوَى التأثيرَ، والتأثيرُ كما هو معروفٌ يَكُونُ سَببه قوَّة البيانِ والفَصاحَة، إذا كَانَ التأثير بالقَوْلِ، ويَكُون سَببه أَيْضًا الاستقامة وحُسْن السُّلُوك، إذا كَانَ تأثيرًا بالفعل. وعلى كلِّ حالٍ فلا تَتِمُّ الإمامةُ إِلَّا بهَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ: العِلْم والتقوى والتأثير بِالْقَوْل أو بالفِعْلِ.

وَفِي الآيةِ إشكالٌ لفظيٌّ، وهو قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لأنَّ (اجعلنا)

فِعل يَنْصِبُ مَفْعُولينِ، أحدُهما مبتدأ والثَّاني الخبرُ، ومِن شروطِ المبتدأِ والخبرِ أنْ يَكُونَا متطابقينِ إفرادًا وتثنيةً وجَمعًا، هنا المبتدأ جمع، أي فِي قوله: (واجعلنا) فـ(نا) جمع ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (إمامًا) هَذَا الخبر، وهو المَفْعُول الثَّاني، وهو مفـرَد، فيبقى إشكالٌ وهو عَدَمُ مطابقةِ الخبرِ للمبتدأِ، والمطابقة أنْ يقالَ: واجْعَلْنا للمتقينَ أَئِمَّةً، فما هو الجوابُ عَنْ هَذا؟

بعضُهم قَالَ: إنَّ (إمامًا) لفظٌ صالحٌ للمفردِ وغيرِهِ، مثل فُلْك وجُنب وأشياءَ كثيرةٍ من هَذَا النوعِ، وعلى هَذَا لا إشكالَ لأنَّ (إمامًا) بمعنى أَئِمَّة، صالحة للجَمع.

ومنهم مَن قَالَ: إنَّ (نا) فِي قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ نائبةٌ عن كلِّ وَاحِدٍ، لَيْسَ عن المجموعِ، يَعْنِي اجْعَلْ كلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إمامًا، يَعْنِي كل وَاحِدٍ يدعو بمفـردِهِ، فعلى هَذَا لا إشكالَ أَيْضًا إذا جَعَلْنَـا الضميرَ فِي (اجعلنا) لَيْسَ عائدًا للمجموعِ، إنَّما عائد لكلِّ فردٍ مِنَ الجميعِ، فلا إشكال فِي المسألةِ، وهذا أقربُ؛ لأنَّ كلَّ وَاحِدٍ مِنَ المؤمنينَ لا يَسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يَجْعَلَ المجموعَ أئمَّةً، هو يريد أن يجعلَ كلَّ وَاحِدٍ إمامًا.

وفي هَذَا دليلٌ عَلَى فَضيلةِ الإمامةِ فِي الدينِ، ومنها إمامةُ المساجِدِ، فإنَّ الإمامَ فِي المسجدِ إمامٌ للمتَّقين؛ لأن الَّذِينَ يأتون للصلاةِ متَّقون إنْ شاء اللهُ، فَهُوَ إمام لهم، فيدلّ ذلك عَلَى فضيـلةِ تولِّي الإمامةِ فِي المساجِدِ، وأمرُ ذلكَ معلـومٌ، يَعْنِي فضل الإمامة فِي المساجد معلوم، ولو لم يَكُنْ منها إِلَّا أنَّ الْإِنْسَانَ يَكُون قُدوةً، وأن الإمامة تُعِيـنه عَلَى أداءِ الصلاةِ، فالإمامُ لا تَفُوتُـه الصلاةُ كلَّ يوم، وغيرُه تفوتُـه أو يفوته بعضُها، كَذَلِكَ الإمامُ إذا تكلَّم يَسْمَع له أَكْثَر، وكم من إنْسَانٍ ما بَرَزَ وظهرَ إِلَّا بسَبَبِ إمامتِهِ، لاسِيَّما إذا تَوَلَّى الخَطابة.

المهمُّ أنَّ إِمَامَةَ المساجِدِ يَنْفِرُ النَّاسُ مِنها معَ الأسفِ، الآنَ تَجِدُ حَتَّى بعض طَلَبَة العلمِ لا يُمْكِن أنْ يَتَوَلَّوْا إمامةَ مسجدٍ، حَتَّى معَ الضرورةِ إِلَى ذلكَ، وهذا يُتِيحُ الفُرصةَ لِمَن هم دُونَهم فِي العلمِ والاستقامةِ وحُسْن التوجيهِ والإرشادِ والقُدوة أنْ يَتولَّوْا إمامةَ المساجِدِ، حتى إِنَّ منهم مَن يخرُج عَلَى ما اعتادَهُ أهلُ البلدِ، مثل أنْ يَجْهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ ويَقْنُت فِي صلاةِ الفجرِ، وهذا وإنْ كَانَ جائزًا عندَ بعضِ أهلِ العلمِ أو مُسْتَحبًّا، لَكِنِ السنَّة عَلَى خِلافه، والسنَّةُ أَوْلَى، لاسيَّما إذا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي بَلَدٍ لا يَفْعَلُون هَذَا، لكِن أولئك يَرَوْنَ أنَّهم عَلَى حقٍّ، وأن الْإِنْسَانَ يَجِبُ أنْ يَتَمَسَّكَ بالحقِّ مَهْمَا كَانَ الأمرُ، وهم مَعْذُورون؛ لأَنَّهُمْ مُجْتَهِدون، ولَكِننا نَأسَفُ لطلبةِ العلمِ أنْ يُفْسِحُوا المجالَ لمثلِ هَؤُلَاءِ، فالمُسْتَحَبُّ المؤكَّد الَّذِي ينبغي أنْ يَتَولَّوْا هم هَذِهِ الإمامةَ؛ لِيَنْتَفِعُوا ويَنْفَعُوا غيرَهم ويَسُدُّوا الفراغَ الَّذِي رُبَّما يَشْغَلُه مَن لا يُوثَقُ فِي دينِه وعملِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لو أنَّ الأوقافَ تقومُ بحملةٍ توعيةٍ وإرشادٍ للناسِ فِي فضلِ وأهميَّةِ الإمامةِ لِأَجْلِ أَلَّا يَنْفِرَ طُلَّاب العلمِ مِنَ الإمامةِ؛ لأنَّ الأشخاصَ الَّذِينَ يَرْغَبُون فِي الإمامةِ يأتيهم مثلًا آباؤهم أو أقاربهم ويَقُولُونَ لهم: كيف تَتَحَمَّل الجَماعَةَ يومَ القيامةِ؟!

نقول: صحيحٌ، بعض النَّاسِ يَظُنُّون أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عن جماعتِهِ، ولَكِنه لَيْسَ مَسْؤُولًا أبدًا، هو مسؤولٌ عن صلاتِه، صحيح أن عليه مسؤولية من جهةِ إتمامِ الصلاةِ، يَعْنِي مثلًا إذا صليتُ وحدِي ممكِن أن أَقْتَصِر عَلَى الواجباتِ فقطْ، لكِن إذا كنت إمامًا لغيري لا يجوز أن أَقْتَصِرَ عَلَى الواجباتِ، يَجِبُ أنْ آتِيَ بالصلاةِ كاملةً، وهَذِهِ مسألة أَيْضًا يَجِب أنْ يُلاحِظَها الأئمَّة؛ لأن بعضَ النَّاسِ يقولُ: ما دام

أني إمامٌ أنا سآتي بأدنى الواجبِ، نقول: نعم، لو كنت تُصَلِّي وحدَكَ فلا حرجَ عليكَ أن تَقْتَصِرَ عَلَى أدنى الواجبِ، ولا حرجَ عليك أنْ تُطَوِّلَ ما شئتَ كما قَالَ الرَّسول ﷺ (١) لَكِنْ إذا كنتَ إمامًا فأنتَ الآن فِي ولايةٍ، والوَلِيّ عَلَى الشَّيْءِ يَجِبُ عليه أنْ يَفعَلَ ما هو أحسنُ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

فما دام أنك وَلِيّ يَجِب عليكَ أنْ تفعلَ فِي صلاتِكَ أكملَ ما يَكُونُ، فلا تَقْتَصِرْ عَلَى الواجِبِ. والفقهاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقُولُونَ: يُكْرَهُ سُرعةٌ تَمْنَعُ المأمومَ فعلَ ما يُسَنّ، وتَحْرُم السرعةُ الَّتِي تَمْنَع المأمومَ فِعلَ ما يَجِبُ. هَذَا صحيحٌ، لكِن أنا عندي أن السرعةَ الَّتِي تمنعُ المأمومَ فعلَ ما يُسَنّ ليستْ مكروهةً فقطْ بل حرام؛ لأنك الآن وليّ، ويَجِب عَلَى الوليِّ أنْ يفعلَ ما هو الأَصْلحُ لِمَن وُلِّيَ عليه، ولَا شَكَّ أن الأَصْلحَ هو اتِّبَاعُ السُّنَّةِ مثلما قُلْنَا فِي الأمورِ الَّتِي يُخَيَّر فِيهَا الْإِنْسَان، فالأمورُ الَّتِي يخيَّر فِيهَا الْإِنْسَان إن كانتْ مِنْ أجْلِ ما يَتَعَلَّق بنفسِهِ فالتخييرُ الَّذِي يَشتهي يَفْعَله، كالتخييرِ فِي خِصال الكفَّارة مثلًا إطعـام عَشَرة مساكين أو كِسْوَتهم أو تحرير رَقَبَة، وإذا كَانَ التخيـير فيما يتعلق بمصلحةِ الغيرِ فالتخييرُ تخييرُ مصلحةٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل عَلَى الإمامِ مسؤوليةٌ من جهةِ الذينَ لا يُصلُّون مع الجماعَةِ؟

الإمامُ لَيْسَ عليه مسؤولية فِي هَذَا إِلَّا مثل ما عَلَى غيرِه، كل إنْسَان رأى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ، ولا تزيد مسؤوليتُه أبدًا، فَهُوَ مثل غيره، لو كَانَ فِي المسجدِ إنْسَانٌ وَجِيهٌ كَلِمَته مسموعةٌ صارَ عليه من السلطةِ أكْثَر من الإمامِ، نحن نقول: هو مثل غيرِهِ بِحَسَبِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء، رقم (٧٠٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم (٤٦٧).

الحالِ، فالْإِنْسَانُ الَّذِي يَقْدِر أَنْ يُغَيِّرَ بِيَدِهِ يُغَيِّر بيده، والَّذِي لا يَقْدِر يغيِّر بلسانِهِ، والَّذِي لا يقدِر يغيِّر بقلبه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل واجبٌ عَلَى الإمامِ قِيَامه بالعددِ؟

قُلْنَا: لا يَجِب عليه العددُ أبدًا.

وَلَوْ قِيلَ: هَذَا من التعاونِ.

نقول: كل النَّاسِ يريدون أَنْ يَتَعَاوَنوا عَلَى هَذَا الأمرِ، حَتَّى لو فُرِضَ أن الرجلَ قَالَ: إن كنتُ إمامًا أَلْزَمْتُ نفسي بِهَذَا، فهل هَذَا من الخيرِ أو من الشرّ؟ الحمدُ لله إن كَانَ من الخيرِ فليكنْ مما يدعو إِلَى الإمامةِ ويُشَجِّع عَلَيْهَا، والحقيقة أن الله ﷺ جعلَ للأشياءِ شُرُوطا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، لا يُهدَى الْإِنْسَانُ سَبِيلَه إِلَّا بعدَ أنْ يُجاهِدَ فِيهِ، لكِن لا يُمْكِن أَنْ تَصِلَ إِلَى شَيْءٍ بِهِ السرورُ والأُنْسُ والحُبُور عَلَى جَناحِ الرِّيح! فلا بد من شوكٍ ومن حَصًا ومن كلِّ شَيْء: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ»(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الآن توجد للإمامةِ مُرَتَّبات وعدم قيامه بالعدد، فقط يَرْكَع الركعاتِ صار كأنه من الجماعَةِ، فما دام ما شعّ النُّور وصارَ المسجدُ مدرسةً، فما فائدةُ الإمامِ؟

لَيْسَ بلازمٍ، لَكِنْ لا يوجدُ شكٌّ أَنَّهُ مِنَ الكمالِ أَنْ يَكُونَ الإمامُ عالمًا أو طالِبَ علمٍ يَستطيع أَنْ يَتكلَّم، لَكِنْ إذا لم يكن.

أنا أقول: إِنَّهُ يَجِب أَنْ نَسُدَّ الفَراغَ عن غَيْرِنا؛ لأَنَّهُمْ إذا كَثُر الأجانبُ عِندَنا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٢).

وصارتْ مساجدُنا كلها أئِمَّة أجانبَ فالإمامُ يؤثِّر، ولولا أن النَّاسَ عِنْدَهم تمسُّك وعدم ثِقَة بالأجانبِ وعندهم ثقةٌ كبيرةٌ فِي المواطنينَ لكانَ كل الَّذِينَ يصلون وراء هَؤُلَاءِ الأجانبِ يَجْهَرُون بِالْبَسْمَلَةِ ويَقْنُتُونَ فِي الفجرِ، وهكذا، لكِن الحمد لله أَنَّهُمْ إِلَى الآنَ ما صارَ لهم قَبُول فِي البلدِ، وهَذِهِ من نعمةِ اللهِ، وإلَّا كانوا يؤثِّرون تأثيرًا بالغًا، فالإمام لَا شَكَّ أَنَّهُ يؤثِّر فِي مَن خَلْفه، نحن نقولُ: يَجِب عَلَى المواطنينَ عِندنا أن يَسُدُّوا هَذَا الفراغَ لِئَلَّا يَشْغَلَه مَن لا يُوثَق بِهِ، وبعضهم يُدَخِّنُونَ، لكِن الدخان أهون من العَقِيدة؛ لأن المشكِلة فِي العقيدةِ، الآن المهمُّ هو العقيدةُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الأوقافُ لها لوائحُ ويَجِب عَلَى الإمامِ كذا وكذا، فصارتِ الإمامةُ وظيفةً؟ هي وظيفةٌ، حَتَّى الفقهاء يُسَمُّونها وظائف، وإذا قُلْنَا: إِنَّهُ يَجِب عَلَى الإمامِ كذا بِمُقْتَضَى الإمامةِ، هل هَذَا يَمْنَع أَيْضًا لأنك أنتَ إذا ما قمتَ بِهَذَا قامَ بِهَا الأجنبيُّ.

لَوْ قِيلَ: الأَجْنَبِيُّ يُرْشِدُ النَّاسَ وسيقول كَلِمَةَ خَيْرٍ؟

قُلْنَا: ما الَّذِي يُدْرِيكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كَلِمة خير.

لَوْ قِيلَ: هَذَا واضح.

نقول: قبل أن يتكلم وهو غير معروف لك ليس بواضح.

ثم أَيْضًا هَذَا الإمام نفسُه قد لا يَكُونُ عِنْدَهُ إدراكٌ، فهذا الَّذِي يقولُ كَلِمَةَ خيرٍ يمكن أنْ يأتيَ بحديثٍ موضوعٍ؛ كقولِهم: الَّذِي يَتْرُكُ الصلاةَ له خَمْسَةَ عَشْرَةَ خَصْلَةً(١)

---

(١) قال الحافظ في لسان الميزان (٧/ ٣٦٦) في ترجمة محمد بن علي بن العباس البغدادي العطار: «زعم المذكور -صاحب الترجمة- أن ابن زياد أخبره عن الربيع، عن الشافعي، عن مالك، عن سُمَيّ، عَن أبي صالح، عَن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه: من تهاون بصلاة عاقبه الله بخمس عشرة خصلة ... الحديث. وهو ظاهر البطلان من أحاديث الطرقية».

وهو حديث موضوعٌ، ما الَّذِي يُدْرِيكَ، واتقاءُ الشرِّ قبلَ الوُقُوعِ فِيهِ أحسنُ مِن علاجِه بعدَما يَقَع.

لَوْ قِيلَ: الأَصْلُ الإباحةُ، والرَّسول ﷺ لم يَمْنَعْ أحدًا؟

أولًا ما أظُنُّ أنَّ أحدًا يَتكلَّم والرَّسول ﷺ حاضرٌ، هَذِهِ وَاحِدةٌ، وكَذَلِك أَيْضًا ما عَهِدنا أنَّ أحدًا يتكلَّم معَ وجودِ الأئمَّة، والشَّيْء الثَّاني نحن لا نقول: إن الحَقَّ يَجِب أنْ يمنع لكِن نقولُ: مَنْ يقولُ: إن هَؤُلَاءِ يريدون الحق؟ نجدُ كثيرًا يتكلمونَ وإذا انْتَهَوْا قالوا: أَعْطُونا. فهَؤُلَاءِ يَجِبُ أَنْ يُمْنَعُوا ويُضْرَبُوا أيضًا، فهم يَصطادون الدُّنْيا بالدِّين، فبعدما يُوَجِّه يقولُ: واللهِ أنا فِي الحقيقةِ مستحٍ منكم وخجلان، لكِن عليَّ كذا وكذا. أنت مستحٍ وخجلان فلماذا تَعِظُهم وتقول: أَعْطُوني قروشًا؟! وهَذِهِ حَصلَتْ عندنا بالجامعِ، وتحصُل عند غيرِنا، ونَسْمَع عن هَذَا، وهذا الشخص لَيْسَ معروفًا، وإذا كَانَ معروفًا لا يُمْنَع، وأنا لم تَأْتِنِي تبليغاتٌ من هَذِهِ، لكِن أَجْزِم جَزْمًا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الَّذِي لا تَعْرِفُونَه، فلا تَسْمَحُونَ لهم.

المهم أن هَذَا غير مانعٍ من تولِّي الإمامةِ، وأنت إذا كُنْتَ غيرَ إمامٍ وتَوَلَّى الإمامةَ غيرُكَ هل سَيَسْمَح للناس أن يَتكَلَّموا؟ أبدًا، أنا قَصْدي أن الإمامـةَ فِيهَا مصالحُ كثيرةٌ بالنسبة للشخصِ نفسِه؛ لِأَنَّهُ يَقْدِر أنْ يَتكَلَّم بما يشاءُ ويوجِّه النَّاسَ، وعندما لا يَكُون إمامًا لو جاء يتكلم قَالَ له الإمام: لا تَتكَلَّم، لكِن لو صارَ هو الإمامَ هل أحدٌ يَمْنَعُه ويقول له لا تتكلم؟ إذَن يَنْفَع النَّاس بِعِلْمِه، ثم هي أَيْضًا ممَّا يُعِين عَلَى الطاعةِ، فأنا أشعُر بِهَذَا عندَما كنتُ غيرَ إمامٍ، فيَفُوتني بعضَ الأحيانِ بعضُ الصلاةِ، وأتكاسَلُ، وأحيانًا أذهَبُ إِلَى هَذَا المسجِدِ، وأحيانًا أذهب إِلَى هَذَا المسجِدِ، لكِن لَمَّا صِرْتُ إمامًا لم تَفُتْنِي صلاةُ الجَماعَةِ.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: الَّذِي جَعَلَهُ مُنْضَبِطًا الإمامةُ فهل يَنْقُصُ أَجْرُه؟

لا ينقص أبدًا؛ لأن كونَ الْإِنْسَانِ يَصيرُ له مُشَجِّعَاتٌ عَلَى الخيرِ لا يُبْطِل هَذَا أَجْرَه، ما جَعَلَ اللهُ المُرَغِّبات الَّتِي فِي الكِتَابِ والسنَّة عَلَى الخيرِ إِلَّا لأجلِ أنْ يُسْعَى له.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: بعض النَّاس يَأْتُون الصلاةَ مُبَكِّرين بدونِ إمامةٍ، لماذا لم تُبكِّر إِلَّا لَمَّا صِرْتَ إمامًا؟

المسألةُ ليستْ مسألةَ التبكيرِ، المسألة أنها تُعِينني لَيْسَ عَلَى التبكيرِ فقطْ ولَكِن عَلَى إدراكِ الجَماعَةِ أَيْضًا إذا كنت لا أُبكِّر، فهذا ممَّا يُعِينُ، أليس الله جعلَ للناسِ من الغنيمةِ شيئًا، وأليس الأئمَّة والمؤذِّنون جعلَ لهم رصدًا من بيتِ المالِ، وأليس النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشَجِّع بإعطاءِ المؤلَّفة قلوبهم وغير ذلك؟

فكون الْإِنْسَان يَكُون له مُشَجِّعات عَلَى الخيرِ لا يُبْطِل أجرَه، فالأَصْل والكَلامُ عَلَى النِّيَّة، إذا كنتَ تَفْعَل هَذَا للدنيا فهَذَا صحيحٌ يؤثِّر فيك كثيرًا، أَمَّا إذا يَسَّرَ الله لكَ من أسبـاب الطاعة ما يُعِينُكَ عَلَيْهَا؛ فهذا طَيِّـبٌ، ولا يَنْقُـصُ الأجرُ، بل إن الرَّسول ﷺ يُشَجِّعُ عَلَى ما يُعِينُ: «تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»[1] وكان يَصُبُّ عَلَى رأسِه الماءَ وهو صائمٌ مِنَ الحَرِّ[2]، كل هَذَا يُعِينُه عَلَى الطاعةِ، فالمشَجِّعَاتُ عَلَى الخيرِ لا تَنْقُـصُ الخيرَ، الكَلام عَلَى النيَّـة فقطْ، إنْ فعلتَ هَذَا الشَّيْءَ للدنيا فيَكُون صحيحًا وحَبِطَ عَمَلُكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب، رقم (١٩٢٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، رقم (١٠٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب الصائم يصب عليه الماء من العطش ويبالغ في الاستنشاق، رقم (٢٣٦٥).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يُبَكِّر ويُسْرِع لإدراكِ الجماعَةِ خَجلًا مِنَ النَّاسِ؟

إذا كَانَ يُرائِي النَّاسَ فهَذَا شَيْءٌ ثانٍ، حَتَّى الَّذِي لَيْسَ بإمامٍ قد يَرَى أَنَّهُ يُفقد فِي الجماعَةِ ويحب ألا يُفْقَدَ، ولو لم يكن إمامًا، فالكَلام عَلَى النيَّة، إذا كَانَ يَخْجَل من النَّاس فهذا لَا شَكَّ أَنَّهُ يَنْقُص الأجرَ، لكِن إذا كَانَ يقولُ: أنا أُسْرِع لأقومَ بالواجبِ عليَّ ولا أُربك النَّاسَ، مرَّة أتقدَّم ومرة أتأخَّر، فهَذَا طيِّب، فهذا أسرع لإحسانِ عَمَلِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضُ الأئمَّة عوامٌّ، ولا يَستطيعونَ أنْ يَتكَلَّمُوا، مع أَنَّهُ يصلي خلفهم طلَّابُ عِلْمٍ، ولا يُمْكِن أنْ يتركوا الإمامةَ، فيوجد أربعة شباب من طلاب العلمِ يصلون خلفَ إمامٍ عاميٍّ؟

نقول: نحن نريد أن يأتوا هَؤُلَاءِ عندنا، وإنْ كَانَ تلاميذُنا هَذِهِ السنَةَ أَحْسَن ونَفَعَ بعضُهم فِي التراويحِ، وقاموا ببعضِ الواجبِ، لكِن نَحْتَاج المزيدَ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الأئمَّة مَنْ صَلَّى بهم إمام لا يُمْكِن أنْ نقولَ له: تَأَخَّر لأنَّ اختيارنا الأَوْلى عند ابتداءِ الإمامةِ، فإذا وُجد إمامٌ لا يمكن أنْ نَعْزِلَه إلَّا بسَبَبٍ شرعيٍّ، ولنْ يَرْضَى، ولو كَانَ مُتَطَوِّعًا، لكِن يجوز عَزْلُه إذا رَضِيَ، فليس هناك مانعٌ، لاسيما إذا كَانَ الَّذِي سَيَتَوَلَّى الإمامةَ خيرًا منه، فإذا كَانَ الَّذِي سَيَتَوَلَّى خيرًا منه فهذا طيِّبٌ، لكِن الإمام الأول هل يجوز أن يأخذَ المرتَّب؟ نعم؛ لأن هَذَا تنازَلَ له؛ لأن المرتبَ للثاني، والثَّاني تنازلَ عنه، وهَذِهِ وَقَعَتْ حسبَ ما سَمِعْتُ، مؤذِّن الجامع الكبيرِ فِي الرياضِ ابن ماجد كَانَ يؤذِّن فِي مسجدٍ فِي أحد الجِهات، ولَمَّا عُمِر هَذَا المسجد الجديد الكبير طَلَبُوا منه أن يَكُونَ هو المؤذِّنَ، لكِن إمامه الأول لم يكن راضيًا بذلكَ، فجعلوا له المرتَّب والوظائف الَّتِي للمسجدِ وهذا جعلوا له مُرَتَّبًا جديدًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضُ الأئمَّةِ عنده ظُرُوف فِي البيتِ مثلًا، كأنْ يَكُونَ كبيرًا فِي السنِّ أو شيئًا من هَذَا القَبيل، يقول: أنا أريد أن أُصَلِّيَ أوقاتي الَّتِي أستطيعُ أن أَحْضُرَ فِيهَا إِلَى المسجدِ، ويجعل شخصًا آخرَ من أهلِ البلدِ يساعده، هل يجوز هذا؟

لا يوجد مانعٌ إذا قَالَ لشخصٍ: إذا تَخَلَّفْتُ فَصَلِّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضُهم يقول: الإمامةُ ارتباطٌ ولا أستطيعُ السفرَ؟

هَذَا أَكْثَرُ ما يَعْتَذِرون بِهِ، يَقُولُونَ: واللهِ الإمامةُ تَربُط وتُشْغِل، وأنا أريدُ يومًا أتمشَّى هنا ويومًا أتمشى هنا؟ أنا أقولُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، كلُّ هَذِهِ عقَبَات الأَصْلُ عدَمُها، فأنتَ اجْزِمْ واحْتَسِبِ الأجرَ مِنَ اللهِ، وسَيُسَاعِدُكَ اللهُ ويُهَيِّئ اللهُ لكَ مِن أمرِكَ يُسْرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: رَجَّحْتُمْ أنَّ الأذانَ أفضلُ منَ الإمامةِ؟

إِذَا قُلْنَا: إنَّ الأذانَ أفضلُ مِنَ الإمامةِ فلَيْسَ معنى ذلكَ أنَّ الإمامةَ لَيْسَ فِيهَا فضلٌ، ثم نقولُ: جزاك اللهُ خيرًا كنْ مؤذِّنًا وإمامًا، فإذا كنتَ حَريصًا عَلَى الخيرِ فكنْ مؤذِّنًا وكنْ إمامًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما معنى حديث: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ»(١)؟

حديث: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ» الحديث فِيهِ مقال، لكِن إذا صحَّ فالمعنى أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عمَّن وَرَاءَهُ، يَعْنِي ضامنًا لهم، فيَجِبُ أنْ يَكُونَ فِي صلاتِه مثلَما قُلْنَا قبل قليلٍ: أن يأتي بِهَا عَلَى الوجهِ الأكملِ إذا صَلَّى بهم، أَمَّا ما وراء ذلك فليسَ عليه شَيْءٌ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت، رقم (٥١٧)، والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، رقم (٢٠٧).

فلو صلَّى وَاحِدٌ مُحْدِثًا فالإمامُ لَيْسَ عليه شَيْءٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ الأحسنُ أخذُ المُرَتَّب أم عدم أَخْذِه، خاصَّةً أنَّ الإمامَ غيرُ محتاجٍ، لكِن جَماعَة المَسْجِد قالوا: لا بدَّ أن تأخُذه حَتَّى لا يَنْقَطِعَ عنِ المسجِدِ؟

نرى أنَّ الأحسنَ أن يأخذَ المرتَّب، وكذلك الوظائف الَّتِي عَلَى المسجِدِ، فَهُوَ عَلَى خيرٍ، يَأْخُذه ما دامتْ نِيَّته أصلًا أَنَّهُ ما جاءَ إِلَّا لله، أليسَ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه يَأْخُذُون مِنَ الغنائمِ، وهل يوجدُ أحدٌ أخلَص منهم؟! لا، لم يَقُولوا: نحن لن نأخذَ من الغنائمِ، هَذَا شَيْءٌ جاءَ مِن بيتِ المالِ «إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ»(١).

وإذا شِئْتَ فَخُذْهُ واصْرِفْهُ فِي شَيْءٍ نافعٍ لَكَ، يَعْنِي حقيقة الأمر مثلما قالوا: إنَّك لو لم تَأْخُذْ أنتَ يَتعَطَّل المَسْجِد، وإذا جاء إمامٌ جديدٌ بعدَكَ يَحتاج إِلَى معاملةٍ جديدةٍ، وكَذَلِك أَيْضًا الوظائف، بعضُ النَّاسِ يقولُ: والله أنا لن أُطالِبَ النَّاسَ، أقول: أَعطُوني حقِّي، مثل بَعْض الصُّبَر الَّتِي تكون للإمامِ أو المؤذِّن، نقول: هَذَا باختيارِكَ، يَعْنِي كونك تأخذ أو لا تأخذ هَذَا شَيْءٌ ثانٍ، لكِن نظرًا لأنك إذا تركته وتناساهُ هَؤُلَاءِ ذهب لَيْسَ عليك فقط؛ لأنك أنتَ تقول: لا أُريده، بل يذهب عَلَى غيرِك أَيْضًا؛ لأنَّ الإمامَ فِي الحقيقةِ وأيضًا المؤذن كلاهما لَيْسَ مُسْتقِلًّا بما يُعْطَى من كلِّ وجهٍ.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف نفس، رقم (١٤٧٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، رقم (١٠٤٥).

الآية (٧٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٧٥].

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ جزاءُ عِبادِ الرَّحمنِ أَنَّهُمْ يُجْزون الغرفةَ بما صَبَرُوا. وأنواع الصبرِ: صَبْرٌ عَلَى أحكامِ اللهِ القَدَرِيَّـة، وصبرٌ عَلَى أحكامِه الشرعيَّة، والصبرُ عَلَى الأحكامِ الشرعيَّة يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ؛ صبر عَلَى ما حَرَّمَ اللهُ، وصبرٌ عَلَى ما أمرَ اللهُ به.

قوله: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ (الباء) للسَببيَّة، و(ما) مصدريَّة، أي بِصَبْرِهِم، إذا قُلْنَا: إن الباءَ للسَببيَّة فكيف نَجْمَعُ بينَها وبينَ قولِهِ تَعالَى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]؟

الجواب: هما مُتَّفِقانِ، فقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، فلا تَعارُضَ بينَهما، فـ(الباء) للسَببيَّة فِي هذا وهذا، لكِن نَحتاجُ إِلَى الجمعِ بينَهما وبينَ الحديثِ الصحيحِ: «**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»[1]، نقول: إن (الباء) فِي قوله: «**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» لِلْعِوَض، فالمنفيُّ (باء)

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، واللفظ لأحمد (٢/ ٢٥٦).

العِوَض، يَعْنِي لا يُمْكِن أنْ يَكُونَ العملُ عِوَضًا؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ عِوَضًا وأرادَ اللهُ أنْ يَقْتَصَّ مِنَ العاملِ لكانَ العملُ لا يكافِئ نِعْمَةً مِنَ النِّعَم، وَأَمَّا الآياتُ والأحاديثُ الَّتِي تُثْبِتُ أنَّ العملَ يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ بِهِ الجنَّةَ وينجو بِهِ من النارِ، فهَذِهِ للسَببيَّة، إذا قلت: بِعْتُ عليكَ ثَوْبًا بِدِرْهَم (الباء) هنا معلومٌ أنها لِلْعِوَضِ، لَيْسَ بسَبَبِ الدرهمِ، لو كَانَ الدرهمُ مَعَكَ ما أَعْطَيْتُكَ الثوبَ، لكِن إذا عَوَّضْتَنِي بِهِ أَعْطَيْتُكَ الثوبَ، فهذا هو الفرقُ.

قوله: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ هل هما مترادفانِ أو مُتَغايِرانِ؟

التحيَّة أعمُّ، فكل سلامٍ تحيَّة، ثم أَيْضًا التحيَّة كما تكون بالقَوْلِ تكونُ بالفعلِ، ولهذا يقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبِطِيب المنزِل، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ.

قوله: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يُلَقَّوْنَ بالتحيةِ قَوْلًا، وبالسلامةِ بقاءً، يَعْنِي يَبْقُونَ سالِمِينَ، وهَذِهِ المعاني ثابتةٌ بالنسبةِ لأهلِ الجنَّةِ؛ فإنهم يُحَيَّوْنَ بأنواعِ التحيَّاتِ المرضيَّة المُفْرِحة المُسِرَّة، وكَذَلِك أَيْضًا يُسَلَّمُونَ من كلِّ الآفاتِ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ مِنَ الملائكةِ]، هَذَا فِيهِ نقصٌ؛ فَإِنَّهُ يُحَيِّي بعضُهم بعضًا، وَيُحَيِّيهمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكَذَلِك الملائكةُ، لكِن كأنَّ المُفَسِّر خَصَّصَها بقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، لكِن هَذَا ما يُعْطِي التخصيصَ.

• • ❁ • •

الآيــة (٧٦)

• • ۞ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٦].

• • ۞ • •

قوله: ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ أي ماكِثِينَ، وهنا أطلقَ الخلودَ وقيَّده بالأَبَدِيَّة فِي مواضعَ مُتعَدِّدةٍ بالنسبةِ لأهلِ الجنَّةِ، وكَذَلِك بالنسبةِ للنارِ ذكر الله تَعَالَى فِيهَا الخلودَ مُطْلَقًا ومُقَيَّدًا بالأبديَّة.

قوله: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي فِي هَـذِهِ الغُرْفَة، أي ماكِثِـينَ أبدًا، ثم أَثْنَى اللهُ عَلَى هَذِهِ الغُـرفةِ بقولِهِ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، قَالَ المُفَـسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَوْضِع إِقَامَة لَهُم]، فهم ضِدُّ أهلِ النارِ الَّذِينَ قَالُوا فيها: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦]، لكِن فِي هَذِهِ الآيةِ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَوْضِع إقامةٍ]، وَفِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ مَوْضِع استقرارٍ وإقامةٍ]، وهَذِهِ الآيةُ يَنْبَغِي أنْ تكونَ مِثْلَها، لكِن هل بينَهما فرقٌ، أي بَيْنَ المُسْتَقَرّ والمُقام؟ المُسْتَقَرُّ الشَّيْء الثابت، والمُقَام الَّذِي يُقِيم فِيهِ الْإِنْسَانُ، سواء استقرَّ أَمْ لَمْ يَسْتَقِرَّ. فإنْ قيلَ: لا حاجةَ إِلَى قولِهِ: (وَمُقَامًا)؛ لأن الجنَّة أو النارَ مُسْتَقَرٌّ دائمٌ ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]؟ نقول: المُسْتَقَرُّ باعتبارِ المكانِ، والمُقَام باعتبارِ ما يَحْصُل لهم من النَّعِيم والسُّرور والتحيَّة، وغير ذلك، تقول: مُقامي فيكم سُرُور، أو مقامي فِي هَذَا المكانِ حُزْنٌ، أو ما أشبهَ ذلكَ، ويمكن أَيْضًا أن يقال:

الْمُقام بالنسبةِ للزمنِ، يَعْنِي أنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَيْهَا مكانًا وزمنًا، وكوننا نُحاوِل أنْ يَكُونَ بَيْنَ اللفظينِ تغايُر أَوْلى من الترادُف؛ لأننا إذا قُلْنَا بالترادُفِ فِي هَذَا وغيرِه صارَ فِي المسألةِ تكرارٌ، والأَصْلُ عدَمُ التكرارِ، فحاوِلْ ما استطعتَ أنْ تجْعَلَ اللفظينِ متغايريْنِ إذا أمكنَ فِي كلِّ آيةٍ، فِي آياتِ القُرْآنِ وغيرِ القُرْآنِ، فحاوِلْ فِي كلِّ كَلامٍ فصيحٍ أنْ تكونَ الألفاظُ مُتمَيِّزًا بعضُها عن بعضٍ فِي المعنى؛ لأن الترادفَ لا يُصارُ إليه إِلَّا عندَ الضرورةِ؛ لِأَنَّهُ مجرَّد تكرارٍ.

قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وأُولَئِكَ وما بعدَه خبرُ عِبَادِ الرَّحمنِ الْمُبْتَدَأ]، وعِبَاد الرَّحمنِ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفةَ هَذَا بعيدٌ جِدًّا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَذْكُرُهم لِيُبَيِّنَ جَزاءَهم، وإنما يَذْكُرُهم لِيُبَيِّنَ صِفَاتِهم أولًا، ثم يأتي بالجزاءِ كالخاتمةِ، فالصوابُ، بل المتعيّن، أن تكونَ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ وما عُطِفَ عليه، وتكون جملة: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ استئنافيةً لِبيَانِ جزائهم عَلَى هَذِهِ الأعمالِ.

بعدَ أنِ انتهتْ هَذِهِ الصِّفاتُ الجليلةُ لم نَأْخُذْ فوائدَها، وعَمْدًا فَعَلْنَا ذلكَ؛ لأجلِ أنْ نَسْتَنْبِطَ الفوائدَ بعدَ استكمالِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ الكَلامَ مُتَّصِلٌ بعضُه ببعضٍ، ولَكِن إذا رأَى الطالبُ أنْ يَمْتَحِنَ عَضلاتِه العقليَّة والفكريَّة بأنْ يَسْتَنْبِطَ ما يُستفادُ مِنَ الآياتِ، ومِنَ الأحكامِ العمليَّة والعِلمية والسلوكيَّة، وصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وغير ذلك، ويُعِدّ الطالب عِدَّة ورقاتٍ: ورقة لِمَا فِي الآياتِ من صفاتِ اللهِ مثلًا، وورقة لِمَا فِيهَا مِنَ الأخلاقِ، وورَقَة لِمَا فِيهَا مِنَ العملِ؛ لأن الآياتِ فِيهَا عمل وفيها أخلاق، وإذا شاء أنْ يسيرَ عَلَى ترتيبِ الآياتِ فلا بأسَ، لكِن ربما تختَلِفُ أفهامُ النَّاسِ فيَظُنّ هَذَا من بابِ السلوكِ، وذاك يقولُ: من باب العملياتِ، إذَن نسير

عَلَى ترتيبِ الآياتِ، فَهُوَ أسهلُ بِلَا شَكٍّ وأضمنُ، ويمكن أنْ يَستعينَ الطالبُ ببعضِ الكتبِ، لكِن لا ينقُل نقلًا، وموضع البحث كما تقدَّمَ من قولِهِ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إِلَى قولِهِ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

• ● ● •

الآيــة (٧٧)

• ● • ●

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ [الفرقان:٧٧].

• ● • ●

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّةَ، ﴿مَا﴾ نافِيةٌ ﴿يَعْبَؤُا۟﴾ يكْتَرِث ﴿بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إيَّاه فِي الشدائدِ فيَكْشِفها، ﴿فَقَدْ﴾ أي فكيف يَعْبَأ بكم وقد ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ الرَّسولَ والقُرْآنَ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾].

قوله: ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يَعْنِي ما يَكْتَرِث بكم، أي بإهلاكِكُم والقضاءِ عليكم، لَيْسَ ذلك مِمَّا يَثْقُل عليه، ولا مما يَعْجِز عنه، بل هو قادرٌ عليه، ولَكِن الَّذِي يَمْنَعُ هو الدعاءُ ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يَعْنِي ودعاؤكم هَذَا يَمْنَع من أَخْذِكُم، ولَكِنَّه إِلَى أجلٍ، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ وحينئذٍ يَحُلُّ بكم العقابُ، فقد كذَّبتم النَّبي ﷺ وما جاء بِهِ، وهذا التكذيبُ موجِبٌ للعقابِ، ولهذا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العِقَاب لكم ﴿لِزَامًۢا﴾ مُلازِمًا لكمْ فِي الآخرةِ بعدَما يَحل بكم فِي الدُّنْيا]، معنى الآية الكريمة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو شاءَ لَأَهْلَكَكُمْ، ولم يَعْبَأْ بكم؛ لأنكم لا تُعجِزُونَ اللهَ، ولَكِن المانع دعاؤكم فِي الشدائدِ؛ لأَنَّهُمْ إذا أُصِيبُوا بشِدَّة دَعَوُا اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَكْشِفَها عنهم ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، هَذَا الدعاءُ مانع معَ كُفرِهِم، فعلى هَذَا يَكُونُ الخِطاب للكفارِ،

والمعنى كما تَقدَّمَ: لولا دعاؤهم الله لَعَاجَلَهُمْ بالعذاب، ويَكُون هَذَا الدعاء إذا نزلَ بهم العذابُ، هَذَا هو ظاهرُ الآيةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾.

وقيل: إنَّ الخطابَ للمؤمنينَ، وإن المرادَ بالدعاءِ العِبَادَةُ، يَعْنِي ما يَصنَع اللهُ بكم لولا عِبَادتكم، ويَكُون قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ انتـقال إِلَى خطابِ آخرينَ، لكِن فِي هَذَا تشتيتُ الضمائرِ فِي الواقعِ، واختلاف السياقِ بعضه مع بعضٍ، وما دام المعنى صحيحًا مع وجودِ التناسُقِ بَيْنَ الكَلامينِ فَهُوَ أَولَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الدعاءُ لَيْسَ دليلًا عَلَى مَحبَّتِهِمْ لله، بل لِحَاجَتِهم؟

لكِن فِي هَذِهِ الحالِ دعاء مُضْطَرّ، والله سبحانه يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وهذا عامٌّ، فدعاء المضطرّ ودعاء المظلومِ يُجاب؛ لأن المضطرَّ فِي تلك الحالِ يعلم أَنَّهُ مضطرّ إِلَى اللهِ، ويسأله سؤالَ افتقارٍ، وسؤالَ حاجةٍ، والله عَزَّوَجَلَّ أكرمُ الأكرمينَ، ما أحد يَحتاج إليه ويدعوه، ولو كَانَ كافرا؛ إِلَّا أجابَه، فالكافرُ لو دعا عَلَى ظالمٍ يُستجاب، ولو كَانَ كافِرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]؟

هَذَا تَقبُّل العملِ؛ لِأَنَّهَا فِي سياق عَمَلٍ، قَرَّب أحدُهما قُربانًا فتُقُبِّلَ منه، والثَّاني لم يُتقَبَّل، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

لَوْ قِيلَ: والدعاء أَيْضًا عملٌ، لكِن الدعاء سؤالٌ وإلحاحٌ، يَعْنِي أَنَّ وَاحِدًا محتاجًا يَسْأَلُكَ، والكريم إذا سأله السائلُ، ولو كَانَ أعدَى عدوٍّ له، فَهُوَ يعطيه؛ لِكَرَمِهِ، لَيْسَ لذاتِ الشخصِ السائلِ، كما أَنَّ المظلومَ يُجاب ولو كَانَ كافرًا، لَيْسَ لِشَخْصِهِ،

ولَكِن إقامةً للعدلِ، ولهذا يقبل الدعاء حَتَّى من غيرِ المتَّقي مثلما ذَكَرْنَا، ثم إن اللهَ تَمَدَّحَ فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، ثم الله بَيَّن ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

ثم تَهَدَّدَهُمُ اللهُ تَعَالَى بقولِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يَعْنِي فالآنَ لا يَنْفَعُكم الدعاءُ بعد أنْ كَذَّبْتُمْ، بل يَحُلّ بكم العقابُ الملازِمُ لكم فِي الآخِرَةِ. يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعدَما يَحُلُّ بكم فِي الدُّنيا]، وعلى هَذَا التفسيرِ يَكُون فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى عذابِ القبرِ؛ لأَنَّهُمْ إذا لَازَمَهُمُ العذابُ مِن حينِ يَحُلُّ بهم إِلَى الأبدِ كَانَ ذلك دليلًا عَلَى عذابِ القبرِ، والأدلَّةُ عَلَى عذابِ القبرِ كثيرةٌ وأصرحُ من هَذَا وأبينُ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فقُتل منهم يومَ بدرٍ سبعونَ]، الَّذِي قُتِلَ من أهل مكَّة يوم بدر سبعونَ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأُسِرَ سبعونَ. وجواب (لولا) فِي قوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ دلَّ عليه ما قبلَه، فهَذِهِ شرطيَّة، وجوابها ما سبقَ، المعنى: لولا دعاؤكم ما عبأ الله بكم، ولَكِن الدعاء يَمْنَعُ، واللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كمالُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه لا يَعْبَأُ بأحدٍ مِن خَلْقِه مهما كَثُروا عددًا وعُدَّةً؛ لقولِه: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن الدعاءَ مانعٌ من العقوبةِ، كما أن فِي الدعاءِ أَيْضًا جالبًا للمصالحِ «وَإِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) فيَمْنَع أحدُهما الآخرَ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١/ ٣١، رقم ٣٣).

فالحاصلُ: أن الدعاء مانعٌ مِنَ العذابِ وجالِبٌ للرحمةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ورد فِي الحديث: «**وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ**»[١] كيف يُوَفَّق بَيْنَه وبين ما وَرَدَ، سواء فِي الكِتَابِ أو فِي السنَّة أَنَّ القَضَاء لا يَرُدُّه شَيْءٌ؟

فيَجِبُ أَنْ تعرفَ أَنَّ القضاءَ هو وُقُوعُ الشَّيْءِ عَلَى ما كَانَ، فالدعاء إذا وقعَ فهناكَ قضاءٌ كَانَ يقع لولا الدعاءُ، فإذا وقعَ الدعاءُ كَانَ مِنَ القضاءِ، فيكُون إخبار النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذَا هو حثّ النَّاس عَلَى الدعاءِ، مثلَما ذكر «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٢].

فَهُنَا إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أليسَ الأَجَلُ مُقَدَّرًا، والرزق مقدَّرًا؟

قُلْنَا: بلَى، هو مُقَدَّر ولا يَتَغيَّر، فيَكُون المقصود من الحديثِ حَثّ النَّاسِ عَلَى البِرِّ والصلةِ، ولا بدَّ أنْ يَقَعَ ما أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِن بِرِّك وصِلَتِك، وتكون النتيجةُ أَنْ يَكُونَ عُمُرك ممدودًا بسَبَبٍ، كما لو وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي هَلَكَةٍ وجاء إِنْسَانٌ وأنقذَهُ، هَذَا الإنقاذُ صارَ سَبَبًا لحياتِهِ وطُول عُمُره، لكِن معَ ذلك هو مقدَّر، لا بدَّ أنْ يَقَعَ، فيَكُون معنى «**لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ**» أن الدعاءَ من الأَسْبابِ الَّتِي تَمْنَعُ القضاءَ الَّذِي يَكُون لولا هَذَا الدعاء، ولَكِن لن يَكُونَ هَذَا القضاء لِأَنَّهُ سَيَسْبِقُه دعاءٌ مُقَدَّر مِن قبلُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» أَلَا يَكُون تفسير الحديثِ معنويًّا بأنْ يُبَارِكَ له فِي عُمُرِهِ، وطِيب العُمُر،

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧).

وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ؟

فالجواب: لِنَقُلْ ذلك. والمباركَة فِي العُمُر وعَدَم المباركةِ مكتوبةٌ.

إذَن ما الفرقُ، ولماذا نُحَرِّف الحديثَ؛ لأنَّ يَنْسَأ بمعنى يُؤَخِّر معروف، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:٣٧]، لماذا نحرِّف الحديثَ ونجعل (ينسأ) كنايةً عن بركةِ العُمُر فِرارًا من امتدادِ الأجلِ، معَ أنَّ البَرَكَة فِي العُمُر ونَزْع البركة من العُمُر كِلاهما مكتوبٌ؟ إذَن لا فرقَ.

وَكَمَا قُلْنَا: إِنَّهُ أَجَلٌ مُقَدَّر لا يَتغَيَّر؛ لأن هَذَا الرجلَ الَّذِي صار عُمُره خمسينَ سنةً كُتِبَ عُمُره خمسين سنةً لِأَنَّهُ بَرٌّ بوالديْهِ، وكُتب بِرُّه أَيْضًا، لكِن أنا غيرُ معلومٍ عندي أني بارٌّ، ولا أنَّ عُمُري خمسونَ مثلًا، فيَكُون المقصود من هَذَا الحديثِ هو حثّ النَّاس عَلَى البرِّ، وإلَّا فكلُّ شَيْءٍ مكتوبٌ، فالَّذِينَ فَرُّوا من ذلك يقال أَيْضًا لهم: هذا كما فِي الحديثِ أنَّ الجَنِينَ فِي الرَّحِمِ يَكْتُبُ المَلَكُ رِزْقَه[1]، والبركة فِي الرِّزْقِ أَيْضًا مكتوبةٌ من قبلُ، مع أنَّ الرَّسولَ يقولُ: «يُبْسَط لَهُ فِي رِزْقِهِ» يَعْنِي يُوَسَّع، فلا حاجةَ إِلَى هَذَا التحريفِ.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: أَلَا يُمْكِن أن يَكُونَ هَذَا القدرُ الَّذِي كَانَ سَيَحْدُث مكتوبًا وغُيِّر؟

لا، هو بِصَدَدِ أنْ يقعَ، لكِن ما كُتِبَ أن يقعَ، هو بصددِ أن يقعَ لكِن وُجِدَ مانعٌ مقدَّر أَيْضًا، ومثلما قلتُ لكَ: إذا قَالَ قائل: ما الْفَائِدَة إِذَن؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، رقم (٧٤٥٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

نقول: الْفَائِدَةُ هي حَثُّ النَّاس عَلَى الدعاءِ، وأن يَحْرِصَ الْإِنْسَان عَلَى الدعاءِ؛ لأجلِ أن يَمْتَنِعَ بِهَذَا الدعاءِ ما كَانَ موجودًا أسبابُه من القضاءِ.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: هَذَا يخالِفُ الظاهرَ، ولو قُلْنا بظاهِرِهِ لَخَالَفْنَا أَيْضًا القدرَ؛ لأن الدعاء مقدَّر، وعدم الدعاء مقدَّر، حَتَّى دعاؤك أنت مقدَّر، بل كل شَيْءٍ مقدَّر، فمعناه: لا بد أنْ تَدْعُوَ فيرد القضاء الَّذِي انعقدتْ أسباب وجوده، فالدعاء مانعٌ، وأسبابُ وجودِ القضاءِ الَّذِي كَانَ سَيَقَع لولا هَذَا المانع موجودةٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الإِشْكالُ إذا قَالَ قائل: إذا كَانَ الدعاء مقدَّرًا فمعناه أن هَذَا الَّذِي قُدِّر لن يقعَ؟

فيقال: إن أسبابَ هَذَا الَّذِي قُدِّر موجودةٌ، والدعاء مانعٌ، فيَكُون عندنا أسبابٌ انعقدتْ لِحُصُولِ هَذَا الواقعِ الَّذِي مَنَعَهُ الدعاءُ، وكلٌّ منها مقدَّر.

الْفَائِدَة الثالثة والرابعة: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، وإثبات الموانعِ أَيْضًا؛ لقولِهِ: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، ففيها إثباتُ الموانعِ لِمَا انعقدَ سَبَبُه، وإثباتُ الأَسْبابِ لِمَا لم يوجدْ حَتَّى يَكُون، وإثبات الموانع أَيْضًا موجود بكثرةٍ، الرَّسول ﷺ أمرَ عندَ الكسوفِ بالصلاةِ والدعاءِ والاستغفارِ[1]، وهذا مانعٌ للعذابِ الَّذِي انعقدَ سَبَبُه ووُجِدَ الإنذارُ بِهِ، فيمنع هَذَا العذابَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد تكونُ المصيبةُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا للعبدِ ابتلاءً لِرَفْعِهِ دَرَجَتَه، كما حصل عَلَى الأنبياءِ؛ كنُوح ولُوط، حيث ابتلاهما اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِزَوْجَتَيْهِما، وهما مِنَ الأنبياءِ، وكما حصل للرسولِ ﷺ من عُمُومتِه؟

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، رقم (١٠٤٠).

قُلْنَا: هَذَا صحيحٌ، لكِن قد لا يَكُون الكَسْب هَذَا من يدِ الْإِنْسَانِ نفسِه؛ لأن البلاءَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ، فقد يَكُونُ ما أُصيبَ بِهِ الْإِنْسَانُ من ذنوبِ غيرِه؛ ليَكُونَ موعظةً له، فيُبتلَى بِهَذَا وهذا؛ بالحُكم الشرعيِّ والقَدَريّ، وربما يَكُون هناك ذنوب خَفِيَّة ليست بيِّنة، فيُبتلَى بِهَا، والذنوب لَيْسَ معناها فِعل المعاصي لُزُومًا، قد يَكُون الذنب تقصيرًا فِي واجبٍ، لكِن الآية عامَّة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى:٣٠]، ولْيُعْلَمْ أنَّ البلاءَ مِنَ المصائبِ، والمصائبُ من الذنوبِ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، هَذِهِ الذنوبُ لِآثَارِها موانعُ، وهي الاستغفارُ والتوبةُ والرجوعُ إِلَى الله.

الْفَائِدَة الخامسة: إثباتُ عذابِ القبرِ، كما أشار إليه المُفَسِّر أَنَّهُ سَيُلازِمُهُمُ العذابُ بعدَما يَحُلُّ بهم فِي الدُّنْيا، فيَكُون فِي هَذَا إثبات لعذاب القبرِ، وقد دلَّتْ عليه السنَّة الصريحةُ، وظاهرُ القُرْآنِ، كما مرَّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الأحقاف:١٥]، بعض العوامّ يقول: الْإِنْسَان لا يَكُونُ صالحًا إِلَّا إذا بلغَ أربعينَ سنةً، وهَذَا ليس صحيحًا أبدًا، لكِن المعنى أن الْإِنْسَان لا يَرجِع فِي الغالبِ ويَتبيَّن ويَتَفَطَّن الأمر إِلَّا إذا بلغَ أربعينَ سنةً، فكل إنْسَان مكلَّف يعقل، وكَوْنه لم يبلُغِ الأربعينَ لَيْسَ بعُذْرٍ، لكِن يقال: إنك لا تعقِل الأمورَ، فأنتَ الآنَ فِي الحقيقةِ فِي حالةِ سَفَهٍ، وكما يَقُولُونَ: الشباب جنونٌ، لا تعقِل هَذَا الأمرَ إِلَّا إذا بلغتَ أَشُدَّكَ وعرَفْتَ ما يَحْصُل من أولادِك. ولهذا قال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف:١٥]، فهنا يَتبيَّن مدى عُقُوقِ الوالدينِ، إذا كبِر الْإِنْسَان وجاءه أولادٌ ورأى مَنْزِلَةَ البِرِّ بالوالدينِ من أولادِهِ، فأنتَ لا تشعُر فِي الحقيقة بمودَّة الوالدينِ لكَ،

وبِمَنْزِلَتِكَ عندهم حَتَّى يَكُونَ لكَ أولادٌ، ولا تَشْعُر بقيمة البِرّ حَتَّى يَكُون لكَ أولاد يَعُقُّونَك، حينَئِذٍ تَشْعُر.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ هل معنى ذلك أَنَّهُ الآنَ بدأ يشكُر؟

لا، لَيْسَ معناه الآن بدأ يَشكُرُ، معناه الآنَ بدأ يَصْحُو.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الآيَةُ قِيلَ: إنها نزلتْ فِي أبي بكرٍ؟

قُلْنَا: لا، والعِبرة بعُمُومِ اللفظِ، لا بِخُصُوصِ السَبَبِ، حَتَّى لو نزلتْ فِي أيِّ إنْسَانٍ؛ لأن صحوةَ الْإِنْسَانِ حقيقةً بعدَما يَكْبَر ويُولَد له أولادٌ، فيعرف قَدْر الوالدينِ، وإلا قبلُ فَهُوَ طائشٌ، ويؤاخَذ عَلَى ذلكَ؛ لأن التكليفَ فِي سنِّ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُ ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ العقلَ يَكْمُلُ عندَ خمسٍ وعشرينَ وسبعٍ وعشرينَ، أَلَا يَتَعَارَضُ معَ الآيةِ؟

الجواب: لا أعرِفُ عنِ ابنِ عبَّاس هَذَا القَوْل، إِنَّمَا الآياتُ تَدُلُّ عَلَى أنَّ الكمالَ بالأربعينَ، ويدلُّ عَلَى هَذَا أنَّ اللهَ ما بَعَثَ نبيًّا إِلَّا بعدَ سِنِّ الأربعينَ، فالرَّسول ﷺ لَـمَّا تمَّ له أربعونَ بُعث، وَهِيَ فِي الحقيقةِ استكمال العقل والقوى، فبعد الأربعينَ بعشر سنوات وَمَا أَشْبَهَ ذلك يَضْعُفُ.

• • ❁ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»	٢٥٧
«أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ»	٢٨٥
«اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا»	٢٦٦
«إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ»	٣٣٨
«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»	١٤
«إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ»	١٥٨
«أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي»	٣١٠
«أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مئة سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»	١٤٦
«اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ»	٦١
«أَصَلَّيْتَ؟»	١٤
«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»	٢٧٤
«الْإِمَامُ ضَامِنٌ»	٣٣٧
«التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»	٢٨٦
«الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»	٢٨٢
«اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»	٥٤

«أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» ١٢٩

«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» ١٧٦

«أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ غُفِرَ لَكِ» ٣٠٤

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ» ١٧٥

«إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» ١٠٠

«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ» ٢٦٥

«إِنَّ للهِ مئة رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ» ٨٧

«إن من البيان لسحرا» ١٢٥

«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ٢٠٥

«انْطَلِقُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ» ٣٠٤

«بِئْسَمَا لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ سُورَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، أَوْ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ» ١٠٨

«تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً» ٣٣٥

«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ» ٢٥٧

«حَديث الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ جَاؤُوا والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أصحابِهِ، فأَحَدُهم جلسَ وأحدُهم دخلَ الحَلْقَة، والثالث انصرفَ» ١٤

«حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ» ٣٣٢

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ١٤٥

«ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ» ٢٩٠
«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» ٨٩
شَرِبَ اللبنَ وقال له النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اشْرَبْ» ١٢٧
«عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ» ٢٤٤
«عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» ٢٢٦
«فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ١٥٥
«فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ» ٣٠١
«فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ» ١٩٥
«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» ١٧٦
«فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ» ٧
«فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ» ٢٧٣
«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ٣٠٣
«قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» ٢١٥
«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ» ٢٨٥
«قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ» ١٤
«قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» ٢٠٢
«كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ» ٨٩

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» ١٨٦

«لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ما أَعْلَمُه إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيه اللهُ رَجُلًا في القُرْآنِ» .. ١٢٦

«لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» ٣٣٩

«لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ» ٣٤٧

«لَا، إِنَّهُ قَدْ تَابَ إِلَى اللهِ» ٣٠٥

«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا» .... ١٧، ٢٩٠

«لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا» ٢٠٩

«مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ» ٢٣٩

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» ١٥٠

«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ٣٤٧

«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» ١٩

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» .... ١٦٥، ٣٠٣

«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ» ٣٦

«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً» ٣١١

«مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ١٥٥

«نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» ١٦١

«نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ» ١٨٧

«هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» ٢١٥
«هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» ٥٤
«وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ» ١٤٣
«وَإِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٣٤٦
«وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ» ١٣٧
«وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ» ٩٥
«وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ» ٢٣٩
«يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» ١٢٧
«يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ» ٣٢٢
«يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الفَحْلُ؟!» ٩٥

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
الكَلامُ على البَسْمَلَةِ	٧
(الله) هُوَ عَلَمٌ على الذَّات المقدَّسة	٨
(الرَّحمنِ) من الأَسْماء المُخْتَصَّة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى	٨
الرَّحمنَ والرَّحيمَ إذا اجتمعا	٩
﴿نَزَّلَ﴾ فَعَّل تُفِيدُ النُّزُول شيئًا فشيئًا	١١
﴿نَزَّلَ﴾ دليلٌ على صفةِ العلوِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى	١٢
﴿الْفُرْقَانَ﴾ هو القُرْآنُ	١٢
المرادُ بالمتشابِهِ هنا الموافِق بعضُه بعضًا	١٣
وإذا رُدَّ المُتَشَابِهُ إلى المحكَم صار الجميع محكَمًا	١٣
مثال رَدِّ المتشابِهِ إلى المحكَم	١٣
العبودية تَنقسِم إلى ثلاثةِ أقسامٍ	١٤
وصفُ الإنْسَان بالعبوديَّةِ	١٥
الضميرَ يعود إلى أقربِ مذكورٍ	١٦
﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ العَالَم، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإنس والجن دون الملائكة]	١٦
النَّذير هو المُخبِر بما يُخَوِّفُ، والبَشير المُخْبِرُ بما يَسُرُّ	١٧
إذا وَرَدَتِ البِشارةُ مُقيَّدةً بأمرٍ مَخُوفٍ	١٧

القُرْآنَ كلَّه واضحٌ صريحٌ ١٨
فضل الرَّسول ﷺ حيث كُلِّفَ الرِّسَالة إلى جميع الخَلقِ.......................... ١٩
لو تُعَلِّم إنْسَانًا فيَعْمَل بعِلمه ويُعلِّم آخر ويعلم آخر ويعلم آخر فَإِنَّهُ يأتيك من الأجر والفضل بقَدْرِ مَنِ انتفعَ به ١٩
السَّموات والأرض يَدْخُلُ فيهما كلُّ من فيهما ٢٠
إذا نَفَى عن نفسِهِ صفةً فليس المراد بذلك نفي الصِّفة فقط، بل نفي الصِّفة وإثبات كمال ضِدِّها........................ ٢٢١
الَّذِينَ يقولون: إن بعض الأولياء يَتَصَرَّفُونَ بالكون ٢٢
الخالق لا يمكن أن يَكُونَ هو المخلوقَ ٢٣
لو احتجَّ علينا المُعْتَزِلة والجَهْمِيَّة الَّذِينَ يقولون: إن القُرْآن مخلوقٌ فبماذا نُجيبهم؟ ... ٢٣
التسوية تكون بعد الخَلْق........................ ٢٤
التقدير بمعنى القضاء سابِقٌ للخلق ٢٤
كيف نَجمَع بين هَذَا النفيِ وبينَ هَذَا الإثباتِ؟........................ ٢٧
الَّذِي يُحْيي الأموات حقيقةً هو اللهُ........................ ٣٠
النُّشُور هو بَعْث المَوْتى وتفريقهم........................ ٣٠
ما الفرق بين الحياة والنشور؟ ٣٠
إذا ادَّعى المبطِل دعوى فإننا نَنْقُلُه إلى ما هو أوضحُ؛ لِأَنَّ المقصود ليس المجادَلة، إنَّما المقصود إقامة الحجَّة على بُطلان هَذَا الأمر ٣٢
عند المخاصَمة ننتقل إلى أمر أعظم وأَبْيَنَ وأوضحَ........................ ٣٣
إثبات الرِّسَالة لا شكَّ أَنَّهُ أَحَدُ شَطْرَيِ التَّوحِيدِ........................ ٣٤

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كُفْرًا وكَذِبًا]، المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَ الظُّلْمَ بالكفرِ ٣٥
الزُّور في الأَصْل كل ما انحرفَ عن الصراط المستقيم.................. ٣٥
إن مُحَمَّدًا ﷺ عاش فيهم قبل الوحيِ أربعينَ سنةً وما قَالَ يومًا من الأيَّام: إِنَّهُ يُوحَى إليه ٣٦
أساطير جمع أُسطورةٍ، وهي الأحاديث الرائِجَة الَّتِي لا أصلَ لها ٣٧
الإنْسَان -والعياذ بالله- إذا حُجِبَ قلبُه رأى الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا ٣٨
وكُلَّما أعرضَ الإنْسَان عن القُرْآن يَكُون أشدَّ خفاءً عليه وأبعد عن معرفته ٣٨
وماذا يستفيد المرء من اللفظ وهو لا يعرف معناه؟! ٣٨
الَّذِي يَحُول بيننا وبينَ هَذَا التِّبيانِ لكلِّ شَيْءٍ هو عدمُ إقبالنا على هَذَا القُرْآنِ، والتأمُّل فيه، والتفكُّر فيه، وإلَّا لو أنَّنا تأمَّلناه لَوَجَدْنَاهُ تِبْيَانًا لكلِّ شَيْءٍ.............. ٣٩
هل يجوز أن يكتب القُرْآن الكريم حسَب القواعد الإملائية الَّتِي في عصرنا؟ ٤٠
يجوز أن يُكتَب القُرْآن بحسَب القواعد العصرية الَّتِي كُتب بها؛ لِأَنَّ كتابته ليس بتوقيفيَّة ٤١
هل كتابةُ القُرْآن بطَريقةِ برايل تجوز أو لا؟ ٤٢
كتابة المصحف على الرسم العُثمانيّ قد تشكل بالنسبة للقراءات ٤٢
حديثٍ ذكَره الزُّرقاني ذَكَرَ فيه كيفيَّة أمرِ النَّبيّ ﷺ لهم بكتابةِ القُرْآنِ على هَذِهِ الصِّفةِ، كأنْ يقولَ لَهُم: مُدُّوا الألفَ أَوْ حرِّكوا اللامَ ٤٣
أن في القُرْآن أسرارًا وإخبارًا بالغيب ٤٦
إظهار في مَقام الإضمارِ ٥٠
الرِّسَالة لا تَتَوَقَّف على المال، وليس المال دليلًا للرسالة؛ لِأَنَّ هناك أُناسًا كثيرينَ أغنياء ولَيْسُوا برسلٍ ٥٢

الفاء عاطفة وتفيد السَبَبِيَةَ ٥٤
ابن القيِّم في (مِفتاح دار السَّعادة) أَنَّهُ تكلم مع شيخِه ابن تيميَّة في مسائل فجعل يُورِد عليه بالنقض ٥٤
الشيطان يحبُّ من ابن آدم أن يَرِدَ على قلبه هَذِهِ الشبهات لِيَضِلَّ ٥٥
السحر الَّذِي طرأ على النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٥٥
وإزالةُ الشُّبَه عن الأُمَّة هَذَا من رَحمة ٥٦
كلمةُ الساعةِ تُطْلَق في اللُّغة على كل أمرٍ هامٍّ ٦٠
التكذيبُ بالساعةِ يَشمَلُ التكذيبَ بوقوعِها رأسًا ٦٠
النار مَخلوقةٌ الآن ٦١
والمؤذِّن لا يسمع صوته شَجَرٌ ولا مَدَرٌ إلا شَهِدَ له يومَ القيامةِ ٦٢
إن قال قائلٌ: وردت أحاديثُ ضعيفةٌ في أن النار لها عينانِ، وهَذِهِ الأحاديث تؤيدنا؟ ... ٦٣
العادةَ أن الرجلَ إذا دَعَا بالثبورِ في الدُّنْيا رُحِم ٦٧
هل كل كفَّار العرب يُنكِرون الساعة؟ ٦٧
من قالَ: إن عذابَ النار غير مؤبَّد ٧٠
مناسبة قوله: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ٧١
العربُ تَتَمَدَّحُ بإخلافِ الوعيدِ دونَ إخلافِ الوعدِ ٧١
مما ينصب مَفْعُولينِ ليسَ أصلهما المبتدأ والخبر ٧٣
الفعلَ كما هو معروفٌ يَدُلّ على زمنٍ ومعنًى ٧٣
من المعلومِ أنَّ المتقينَ الآنَ ما دَخَلُوا الجنةَ ولا صاروا إليها، ولَكِنَّهم سَيَصِيرُونَ لذلك ٧٤

كتب المواعظ ٧٥
في كتب الوعظ أشياء كثيرة تُرَغِّب فيما نهى عنه الشرع ٧٥
هل حديثُ ضَغطةِ القبرِ صحيحٌ؟ ٧٦
هل فَناء الجسم أو بقاؤه دليل على الصلاح؟ ٧٦
هل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء؟ ٧٦
معنى حال لازمة ٧٧
كل سماء أكْثَر ملائكة من السَّماء الَّتِي تحتها ٨٠
الحُجَّة السلطة يتمكن بها المدَّعي من إثباتِ دَعْوَاهُ ٨١
بعض النَّاس من أهل العلم بالطبيعة يحاولون أن يُوجِدوا لكل حادثٍ دليلًا خاصًّا من القُرْآن، وهذا لا يجوز ٨١
أحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنْيا ٨٣
القضية المشهورة عن الشيخ مُحَمَّد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ مع الرجل النصراني حينما سأله عن كيفية صنع الطعام الَّذِي قُدم لهم في المطعم ٨٣
الملائكة في السماءِ ٨٥
كُلَّما كان الإنْسَانُ أَقوَى إيمانًا باللهِ، وأشدَّ تقوى لله، كان يُسْرُ ذلك اليومِ عليه بحسَبه ٨٩
في حديثِ الشفاعةِ الأنبياءُ كلُّ وَاحِدٍ منهم يقولُ: نفسي نفسي، فهذا دليلٌ على أنَّ في هَذَا اليومِ عندهم شِدَّة وخوف؟ ٨٩
تنفيذ العدل يُعتبَر رحمةً ٩٠
شيخ الإسلام لا يرى وجود المجاز في اللغة العربية إطلاقًا؛ لا في القُرْآنِ ولا في غيرِه ٩٣

ميزان المجاز الَّذِي لا أحدَ يمانِع فيه صِحَّة نفيه، أي صحة نفيِ المجازِ، وليس في القُرْآن ما يَصِحّ نفيُه ٩٤
من علامات الاسْمِ النداء ٩٦
يَجِب على المرءِ أنْ يختارَ لنفسِه الأصحابَ ٩٧
حال الظالِمِ يوم القيامةِ ٩٧
التحذير من الظُّلْم ٩٧
الخَلِيل هو الحَبيب الَّذِي بلغتْ محبَّتُه الغايةَ ٩٩
لكلِّ نوعٍ من المعاصي شيطانٌ ١٠٢
الخِذلان معناه إذلال الإنْسَانِ في مَوْطِنٍ يَحتاج معَه إلى النصرِ ١٠٣
ما علامة كونِ هَذَا الفعلِ من أوامرِ الشيطانِ، وما الَّذِي يدرينا أن الشيطان أَمَرَنا بهذا، وأن هَذَا من عملِ الشيطانِ؟ ١٠٤
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يقول الله تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ والوحي ما زال ينزل؟ ١٠٧
هَجْرُ القُرْآنِ ينقسِم إلى قسمينِ ١٠٨
ما حُكْم هَجْر المصحَفِ ١٠٩
هل عدم تدبُّر القُرْآن يَكُون هجرًا له؟ ١١٠
هل استماع القُرْآن يُغني عن القراءةِ؟ ١١٠
الحقَّ يَتبيَّن بضدِّه ١١٥
ابتلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمؤمنِ؛ فَإِنَّهُ إذا كان الإيمانُ قويًّا فَإِنَّهُ يصمد أمام هَذِهِ الشُّبُهات ١١٥
الشُّبهة قد تكون شبهة في باديءِ الأمرِ ١١٩

قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ١١٩
من فوائد الترتيل ١٢١
ما العيب في كون القُرْآن لم يَنْزِلْ جملةً وَاحِدةً؟ ١٢٢
ألَا يكُون قول المشركين: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ اعترافًا منهم بأن القُرْآن منزل من عند الله؟ ١٢٢
إثبات الحِكْمَة في أفعال الله ١٢٣
من الحِكْمَة في إنزال القُرْآن تثبيت قلبِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٢٣
كل شُبهة يُورِدُها الكفَّار في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفيما بعده فهي باطلٌ .. ١٢٥
كم من آيةٍ تمرّ بشخصٍ يَستنبِط منها عدة مسائل، وآخر لا يستطيع أن يأتيَ منها بمسألةٍ ١٢٦
ويُذكَر أن الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ استضافَ الإمامَ الشافعيَّ ذات ليلةٍ ١٢٦
النَّاس يختلفون في فَهْم الكِتَابِ والسنَّة، واستنباط الأحكام من الكِتَاب والسنَّة... ١٢٧
قوله: ﴿يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ كيف يمشون على وجوههم؟ ١٢٩
ما وَجْهُ العقوبة بحَشْرهم على وُجوههم؟ ١٢٩
ما اشتهر بين النَّاسِ الآنَ من تسمية النصارى بالمسيحِّين أَنَّهُ خطأ، وأنه لا يَنبغي أنْ نُسمِّيَهم بالمسيحيين ١٣٨
ثمود هم قوم صالحٍ ١٤٣
هل نبيّ الله صالح عربيّ؟ ١٤٣
هل أحدٌ تَعَرَّض لتعريبِ أَسْماءِ الأنبياءِ، أي معرفة معناها؟ ١٤٤
قيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ -ورجَّحه ابنُ جَرِير- هم أصحابُ الأُخدود الَّذِينَ ذَكَرَ الله تَعَالَى في سورة البُرُوج ١٤٤

لماذا سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ؟ ١٤٤
يُطلَق القرنُ على الزمنِ، واختلفوا في مِقدارِه ١٤٦
الإهلاك للقرونِ يَكُون لأهل الأزمان ١٤٦
غالبَ الأنبياءِ كُذِّبَ فيما سَبَقَ ولم يَتْبَعْه إلَّا القليل ١٤٦
أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا جعل لكل نبيٍّ عدوًّا مِنَ المجرمينَ ١٤٨
وأمَّا عاد فأُهلكوا بالريحِ ١٤٨
ثمود أُهلِكوا بالرَّجفة مع الصيحةِ ١٤٨
الاسْم إذا ابتُدِئَ به يَكُون مبتدأً ١٤٩
لم يَكِلِ اللهُ العبادَ إلى فِطَرِهم ١٥٠
ليس الخبر كالمعايَنة ١٥٣
قرى قوم لوط ليست قريةً وَاحِدةً ١٥٣
البحر الميِّت هو مكان قُرَى قوم لُوط، وصار بحيرةً مالحةً ١٥٣
المَطَر نوعانِ ١٥٤
الإجماع السكوتيّ ليس إجماعًا قطعيًّا ١٥٥
إذا كثُرتْ هَذِهِ الفاحشةُ وجبَ على وُلاةِ الأمورِ أنْ يَكُونوا أشدَّاءَ على فاعليها ١٥٦
مَن أُكرِه على فعل الفاحشةِ فلا شَيْءَ عليه ١٥٨
الزنا كما قَسَّمه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكذلك اللواط أنواع ١٥٨
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لا يَنبغي أن ننسُب اللُّواط لاسْم النَّبيِّ ﷺ ونقول ما ورد في الحديثِ: «عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ» ١٥٩
لا يشكُّ أن الله تَعَالَى قادرٌ على إحياءِ المَوْتَى ١٦١

الاستفهام للتقريرِ ١٦١
لا يَتَعَيَّن أن نَحمِل الرجاءَ على الخوفِ ١٦٢
الآلهة تطلَق على المعبودِ، لكِن تطلق إطلاقًا مجازيًّا على المعبود بغير حقٍّ، ١٦٨
الكلمة في سِيَاقها، أو الجملة في سياقها حقيقة ١٦٩
هل الإنْسَانُ المؤمِنُ يُمكِن أنْ يَضِلَّ عند المَوْتِ؟ ١٧٤
أن الإنْسَانَ لو بَنَى عملَه على عقيدةٍ سليمةٍ، سواء بإخلاصٍ، أو بغير إخلاصٍ، فلا يمكِن أن يَخْذُلَ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنَ أبدًا، المؤمنَ حقيقةً ١٧٥
العملُ الأساسيُّ فَهُوَ عملُ القلبِ ١٧٥
قال أهل العلمِ: إننا ننظُر إلى أهلِ المعاصي نظرينِ؛ نظرًا شرعيًّا، ونظرًا كونيًّا ١٧٨
فالواجب على المرءِ أنْ يَنْظُرَ إلى الأمورِ مِنَ النافذتينِ: نافذة القَدَر ونافذة الشَّرْع ... ١٧٨
العقل الَّذِي هو مَناط المدح ١٨١
هل العقل الَّذِي نفاه الله عن الكفَّار يَقتضي نفيَ الذكاء عنهم؟ ١٨١
إذا قال الكِتَابيُّون: نحن نَدين دِينَ الحقِّ لأننا نتَّبع رسولًا ١٨٣
توجَد آياتٌ في القُرْآن كما أَسْلَفْنَا مشتَبِهات يتبعها الَّذِينَ في قُلُوبهم زَيْغ، ولَكِنَّ المؤمنين يَرُدُّونها إلى المحكَمِ، فتكون كلها محكَمَةً ١٨٤
هل يَحْرُم استخدام الكافر؟ ١٨٦
الكفَّار همُ الخَبَثُ ١٨٧
الَّذِينَ يكذبون بالرَّسول لَيْسُوا بمؤمنينَ ١٨٧
كلَّما كانتِ الآية أدلَّ على العموم كان القَوْلُ به أَولى ١٨٩
ما الفرق بين الظلِّ والفيءِ؟ ١٩٣

إنَّ خروجَ النَّفَسِ من جسم الْإِنْسَان أمرٌ معتادٌ، ولهذا لا يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِقَدْرِ هَذِهِ النعمةِ ١٩٧
السَّبْتُ بمعنى القَطْعِ ١٩٩
هل أحد يستطيعُ لو لم يجعلِ اللهُ الليلَ أنْ يأتيَ بالليلِ؟ ٢٠٠
هل يستطيع أحدٌ أنْ يُنَوِّمَ أحدًا؟ ٢٠٠
هل النوم بكل أنواعِه قاطعٌ للتعَبِ؟ ٢٠١
هل النوم فِي بعض الأوقاتِ مكروهٌ؟ ٢٠٢
حديث: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» ٢٠٢
فائدةُ اختلافِ القراءاتِ ٢٠٤
الرَّحمةُ المضافةُ إِلَى اللهِ تَنقسِم إِلَى قِسمينِ ٢٠٤
لماذا ذكر الأَنْعامَ قبلَ الأناسيِّ؟ ٢١٠
إن إحياءَ الْأَرْضِ لمصلحةِ الْإِنْسَانِ ٢١٠
إرسالُ المُبَشِّرات والمقدِّمات بَيْنَ يَدَي الأشياءِ؛ لقوَّة الرجاء ٢١١
حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكونِ المطرِ يَنزِل مِنَ السَّمَاءِ ٢١١
الأَصْل فِي الماءِ الطهارةُ ٢١١
جوَاز ذِكرِ بعضِ الفوائد؛ لأنَّ الاقتصارَ عَلَى البعضِ لا يُعَدُّ نَقْصًا ٢١٢
حديث زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ حينَ صلَّى بهم عَلَى إثرِ سماءٍ كانتْ مِنَ اللَّيْلِ فِي الحُدَيْبِيَةِ ٢١٥
لو قَالَ الْإِنْسَان: (مُطِرنا فِي نَوْء كذا) ٢١٥
النَّاس يَنقسِمون إِلَى قسمينِ: كافر ومؤمِن ٢١٦

استعمال المؤكِّدات فيما ينبغي تأكيدُه ٢١٧
إبطالُ مَذهَب الجَبْرِيَّة ٢١٧
قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ ٢١٩
هل كلمة بَرْزَخ تُقاسُ بالنسبةِ لِلْبَرْزَخِ المعروفِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ؟ ٢٢١
لو قَالَ قائل: البحَّارة يجدون عُيُونًا فِي البحرِ حُلوةً، ما صِحَّة هذا؟ ٢٢٢
نرى أن تقييدَ القُدْرَةِ بالمشيئةِ لا يَنبغِي ولا يَلِيقُ ٢٢٥
تقييدَ المشيئةِ عائدٌ عَلَى الفعلِ، لا عَلَى القُدرة ٢٢٦
كلُّ إنْسَانٍ يُعين أحدًا فِي باطلٍ فَإِنَّهُ ظَهير عَلَى ربِّه ٢٢٨
كل عاصٍ حالَ مَعْصِيَتِهِ فَهُوَ مُعِينٌ عَلَى اللهِ بِمَعْصِيَته، فلماذا خصَّه فِي الآيةِ بالكافِرِ؟ ٢٢٨
أليسَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معلِّمًا يُعلِّمُ النَّاسَ الأحكامَ ٢٢٩
وجوبُ التوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٢٣٣
الخَلْق نفسُه من صفاتِ اللهِ ٢٣٦
إن خلق السَّمواتِ والْأَرْضِ له أسبابٌ ٢٣٧
مِنَ التَّعَمُّق والتَّنطُّعِ أنْ نَبحَثَ ونسأل عن ماهيَّة هَذَا العرشِ ٢٣٩
المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يُؤَوِّلُ آياتِ العُلُوّ، فكيف نُوَجِّه قولَه: [استواء يليق به] ٢٣٩
أليسَ اللهُ عاليًا عَلَى جميعِ المخلوقاتِ؟ ٢٤١
الجمعُ بَيْنَ قولِه تَعَالَى فِي آيةِ الكُرسيّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وبين قولِه تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ٢٤٢
كمالُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ٢٤٥
أنَّ الاستواءَ مِن الصِّفاتِ الفعليَّة ٢٤٦

هَلِ التَّوْرَاةُ والإنجيلُ يُقَرِّرَانِ ويُثْبِتَانِ المَعادَ كما يُثْبِتُهُ القُرْآنُ؟ ٢٤٨
الواجبُ عَلَى المؤمنِ إذا رأى ما لا يَعرِفه أو سمِع ما لا يَعرِفه التَّثَبُّتُ ٢٥٠
لا تكاد تجد معصيةً مِنَ المعاصي إِلَّا وَفِيها مُشابَهة من جنسها من الكُفْرِ ٢٥٠
يَجِبُ أنْ تدعوَ عَلَى العمومِ، وليس عليكَ هُداهم ٢٥٣
العاقبةُ للمتَّقين ٢٥٤
بعض النَّاس يَقُولُون: كيف نَدْعُو النَّاسَ ونحن عاجزونَ عن إصلاحِ أنفسِنا؟ ... ٢٥٥
أن الشرعَ لا يُقاس بالهوى والعقل ٢٥٦
أن عدمَ استجابةِ المَدْعُوِّينَ للداعي لا يدلُّ عَلَى فسادِ قَصْدِهِ أو عَمَلِهِ ٢٥٧
أن السجودَ من أسبابِ الرَّحمةِ ٢٥٨
بُلُوغ المشركينَ الغايةَ فِي الاستكبارِ ٢٥٨
كيف كَانَ كُفَّار مكَّة يَطَّلِعُون عَلَى القُرْآنِ؟ ٢٥٩
مِنَ التذكُّر العمليّ أن الإِنْسَانَ إذا نَسِيَ عبادةً فِي ليلٍ قَضاها فِي النهارِ، أو فِي نهارٍ قَضاها فِي الليلِ ٢٦٥
هل الوِتْرُ يُصَلَّى عَلَى صِفتِه إذا كَانَ قضاءً؟ ٢٦٦
مَن أرادَ أنْ يَشْكُرَ نعمةَ ربِّه عليه فِي هَذَا النهارِ والليلِ فَإِنَّهُ له المجالُ ٢٦٦
الله تَعَالَى أَثْنَى عَلَى نفسِه بمخلوقاتِه العظيمةِ ٢٦٨
أنَّ الجملةَ الفعليَّة تَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ والتَّجدُّدِ ٢٧٠
ليس المراد (سلاما) يَعْنِي: السلام عليكم، كما يَظُنُّ بعضُ العامَّة ٢٧٢
أَنَّ القيامَ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ ذِكْرُه؛ أي مِن حيثُ الذِّكْرُ الَّذِي هو القُرْآنُ، والسجودُ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ الحالُ والهيئةُ ٢٧٤

الغالبُ أنَّ الأدعِيَةَ تُصَدَّرُ بالتوسُّلِ بالربوبيَّةِ: (رَبَّنا) ٢٧٧

قولُه: ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟﴾ قول المُفَسِّر: [على عِيَالِهِم] تَخْصِيصُه بالإنفاقِ عَلَى العِيَالِ فِيهِ نَظَرٌ... ٢٧٩

الإقتارُ هو الإقلالُ والتضييقُ ٢٧٩

الإنفاقُ بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ هو داخلٌ فِي قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، إذا جَعَلْنَا المشيَ مَشْيًا معنويًّا ٢٨١

دعاء العِبَادَة ٢٨٢

دُعاءُ المسألةِ ٢٨٢

السؤالُ أحيانًا يَكُونُ محمودًا، وأحيانًا يَكُونُ مذمومًا ٢٨٣

النفس الَّتِي حَرَّمَ اللهُ أربعةُ أنفُسٍ؛ المُسلِمُ، والذِّمِّيّ، والمعاهَد، والمستأمَن ٢٨٤

الذِّمِّيُّ فَإِنَّهُ يُقامُ عليه الحَدُّ كما فعلَ النَّبيُّ ﷺ بِرَجْمِ الزانيينِ المحصَنينِ ٢٨٥

المُرْتَدُّ التاركُ لدينِه المفارِقُ للجماعَةِ ٢٨٦

إذا زَنَا المُسْلِمُ فأُقِيمَ عليه الحدُّ هل يَكُونُ كفَّارة له؟ ٢٨٧

إذا أُطْلِقَتِ النفسُ هل تُخَصّ ببني آدمَ أم يدخل الحيوان فِي الأنفسِ الَّتِي نُهِي عن قَتلِها؟ ٢٨٧

قاعدةُ: ما آذَى طبعًا قُتِلَ شرعًا مستقيمةٌ ٢٨٧

هل تكليف الجنِّ كتكليفِ الإنسِ؟ ٢٨٨

الجنُّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لَقُوا النَّبيَّ ﷺ مرَّةً وَاحِدةً، فهل أعطاهم النَّبيُّ ﷺ تشريعاتٍ أمِ انقطعَ تكليفُهُمْ؟ ٢٨٨

لو قَالَ قائل: إنَّ الجنَّ مُخَاطَبُونَ بالتصديقِ فقطْ؟ ٢٨٩

أفعالُ الصلاةِ والحجِّ بالنسبةِ للجنِّ هل تَختلِفُ عَنِ الإنسِ؟ ٢٨٩

هل يجوزُ للإنْسَانِ أنْ يَتزَوَّجَ مِنهم؟ ٢٩٠
هل يُقام عَلَيْهَا الحدُّ؟ ٢٩١
الزِّنا لَيْسَ موجِبًا لِلْخُلُودِ فِي النارِ ٢٩٢
يومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ النَّاسُ ٢٩٣
قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ هلْ هَذَا الاستثناءُ مُتَّصِلٌ أو مُنْقَطِعٌ؟ ٢٩٥
ما هي التوبةُ؟ ٢٩٥
التوبةُ مِن قَتْلِ النفسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ ٢٩٦
إذا لم يَتُبِ القاتلُ هل هو تحتَ المشيئةِ؟ ٢٩٧
قولِهِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ هل يَتعَلَّقُ بِهِ حقٌّ آخرُ سِوَى حقِّ اللهِ؟ ٢٩٧
هل يُفَرَّق بَيْنَ البِكْر والثَّيِّب؟ ٢٩٨
شروط التوبة خمسة ٢٩٨
كيف الجواب عن قول ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عمَّن سألَه: أَلِمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتعَمِّدًا من توبةٍ؟ ٢٩٥
هل يَلْزَمُ التائبَ مِنَ الزِّنا أنْ يَطْلُبَ إقامةَ الحدِّ عَلَى نفسِهِ مثلما فعلَ ماعزٌ والغَامِدِيَّة؟ .. ٣٠١
الغِيبة ٣٠٢
إنَّ المغتابَ إن كَانَ عالِمًا بِغِيبَتِكَ فَهُوَ الآنَ قد صارَ فِي نفسِهِ عليك شَيْءٌ، فلا بدَّ أنْ تَسْتَحِلَّه لِيَزُولَ ما فِي نفسِهِ ٣٠٢
ما رَأْيُكم فِي قولِ ابنِ القَيِّم فِي إعلامِ الموقِّعين أنَّ الحدودَ تَسْقُطُ بالتوبةِ ٣٠٤
هل يُشْتَرَطُ للتوبةِ إصلاحُ العملِ ٣٠٩
إنْ أُريدَ بالتوبةِ وَصْف هَذَا الرجلِ بأنه مِنَ التائبينَ الَّذِينَ يَلْحَقُهُمُ الثناءُ ٣١٠

استحقاقُ وصفِ التائبينَ عَلَى وجهِ الإطلاقِ فهذا لا يَسْتَحِقُّهُ التائبُ إِلَّا بإصلاحِ العملِ ٣١٠
ما الفرقُ بَيْنَ الزنا والسَّرِقَة؟ ٣١١
لو قَالَ قائل: هناك آياتٌ من القُرْآنِ تَصِفُ الْإِنْسَانَ بالتوبةِ، ولو ما عَمِلَ عملًا صالحًا؟ ٣١٣
ما حُكْمُ إنْسَانٍ ابتُلِيَ بذنبٍ فأخذَ يَستغفرُ اللهَ ويتوبُ، وظَلَّ عَلَى هَذَا، وعَجَزَ أَنْ يُقْلِعَ عنه؟ ٣١٤
الزُّور كل مَيْل قَوليّ أو فِعليّ ٣١٥
المراد باللَّغْوِ ما لا فائدةَ فيه ٣١٦
هل هَذِهِ النوادي الَّتِي يَذْهَب إليها الشبابُ محرَّمة؟ ٣١٨
هل تُعْتَبَرُ كرةُ القدمِ صَنَمًا ٣١٩
عندنا عمومانِ فِي التذكيرِ بالآياتِ ٣٢٢
الصِّفاتُ الثُّبُوتِيَّة أبلغُ فِي الثناءِ ٣٢٣
المراد بالذريَّة الأولادُ؛ ذُكُورُهُم وإناثُهم، وأولاد الأبناءِ دونَ أولادِ البناتِ ٣٢٥
الوَقْفُ والهِبَةُ ٣٢٦
معنى قُرَّة العَيْن ٣٢٦
الكَلَامُ عَنِ التَّقوَى ٣٢٨
دليلٌ عَلَى فَضيلةِ الإمامةِ فِي الدينِ ٣٢٩
لو أنَّ الأوقافَ تقومُ بحملةِ توعيةٍ وإرشادٍ للناسِ فِي فضلِ وأهميَّةِ الإمامةِ لِأَجْلِ أَلَّا يَنْفِرَ طُلَّاب العلمِ مِنَ الإمامةِ ٣٣٠

هل عَلَى الإمامِ مسؤوليةٌ من جهةِ الذينَ لا يُصلُّون مع الجماعَةِ؟ ٣٣١
هل واجبٌ عَلَى الإمامِ قِيامه بالعددِ؟ ٣٣٢
الإمامُ يؤثِّر ٣٣٣
الأوقافُ لها لوائحُ ٣٣٣
لو قِيلَ: الأَجْنَبِيُّ يُرْشِدُ النَّاسَ وسيقول كَلِمَةَ خيْرٍ؟ ٣٣٣
أن الإمامةَ فِيهَا مصالحُ كثيرةٌ بالنسبة للشخصِ نفسِه.............................. ٣٣٤
كون الْإِنْسَان يَكُون له مُشَجِّعات عَلَى الخيرِ لا يُبْطِل أجرَه ٣٣٥
ما حُكْمُ مَن يُبَكِّر ويُسْرِع لإدراكِ الجماعَةِ خَجَلًا مِنَ النَّاسِ؟..................... ٣٣٦
بعضُ الأئمَّة عوامٌّ ٣٣٦
بعضُهم يقول: الإمامةُ ارتباطٌ ولا أستطيعُ السفرَ؟ ٣٣٧
أنَّ الأذانَ أفضلُ منَ الإمامةِ.. ٣٣٧
ما معنى حديث: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ».. ٣٣٧
جزاءُ عِبَاد الرَّحمنِ... ٣٣٩
قوله: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ هل هما مترادفانِ أو مُتَغَايِرانِ؟ ٣٤٠
الَّذِي قُتِلَ من أهل مكَّة يوم بدر سبعونَ ٣٤٦
أنَّ القضاءَ هو وُقُوعُ الشَّيْءِ عَلَى ما كَانَ ٣٤٧
إثباتُ الأَسْبابِ.. ٣٤٩
إثباتُ عذابِ القبرِ ٣٥٠

• ● ۞ ● •

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة الفرقان ٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ ١١

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ ٢٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ ٢٦

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ ٣٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ ٣٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ ٤٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ ٤٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ ٥٣

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾ ٥٧

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ ... ٦٠

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ ٦٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ٦٥

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ ٦٩

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ ....

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ٩٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٠١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ١١٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ... ١٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٣٣

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ ١٣٦

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ ١٤٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ ١٤٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ ١٥٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ ١٧١

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ ١٨٠

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ ١٨٩

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ ١٩٩

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ ٢٠٣

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ ٢٠٧

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾ ٢١٤

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ ....

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ ٢١٩

” وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾ ٢٢٤

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا (٥٥)﴾ ٢٢٧

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦)﴾ ٢٢٩

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٥٧)﴾ ٢٣١

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨)﴾ ٢٣٣

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا (٥٩)﴾ ٢٣٤

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾ ٢٤٩

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ ٢٦٠

” قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ

أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ ٢٦٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ ٢٦٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ ٢٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ ٢٧٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ ٢٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ ٢٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ ٢٩٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ ... ٣٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ ٣١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ ٣٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ ٣٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ ٣٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ ٣٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ ٣٤٤

فهرس الأحاديث والآثار ٣٥٣

فهرس الفوائد ٣٥٩

فهرس آيات السورة ٣٧٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)

تفسير
القرآن الكريم

سورة الشعراء

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)

تفسير القرآن الكريم

سورة الشعراء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة الشعراء. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ

٣٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٤)

ردمك: ٢ ـ ٥٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ القرآن ـ سورة الشعراء ـ تفسير.

أ ـ العنوان

ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٦

ردمك: ٢ ـ ٥٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية

القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimeen.com

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوبر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)(١)، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لِعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سُورَةُ الشُّعَراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ. وبَعدُ:

قال المُفَسِّرُ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [سُورَة الشُّعَرَاء [مَكِّيَّة إِلَّا آيَة ١٩٧ و٢٢٤ إِلَى آخِرِ السُّورَة فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٢٢٧ آيَة نَزَلَتْ بَعْد الْوَاقِعَة].

الشُّعَرَاء: جمع شاعرٍ، وسُمِّيَتْ به لِأَنَّهُ ذُكِرَ فِي آخِرِها، والتَّسميةُ للسُّوَرِ منها شيْءٌ تَوْقِيفِيٌّ منَ النبيِّ ﷺ ومنهـا شيْء اجتهـادِيٌّ، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا يذكرُ السُّورَةَ بعينها، مثلما قَالَ: «**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ**»[2]، وأحيانًا لا يَذْكُرُهَا ولا يُبيِّنُ اسْمها، ولكن يَجْتَهِدُ الصَّحابةُ فِي تَسْمِيَتِها.

وتَسميةُ السُّور أيضًا قد تكون واحدة، بمَعْنى: أن تُسَمَّى السورةُ باسْمٍ واحدٍ، وقد يكونُ للسورةِ عِدَّةُ أسماء.

ومن السُّور ذوات الأسماء العدة سُورَةُ الإسراء، فهي تُسَمَّى أيضًا سُـورةَ بني إِسْرَائِيلَ، لكـنَّ بعض القَوْمِيِّينَ أنكـروا ذلك، وحجتُّهم في هذا الإنكـار: أنَّه

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

لا يمكنُ أن تكونَ سُورَةٌ باسْم بني إِسْرَائِيل، يعني سُورة اليَهود، فأنكروا هَذَا الشَّيْء.

وقلنا: إن القومِيِّين أثبتوا أن اليَهودَ قتَلُوا عيسى بنَ مَرْيَمَ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النِّساء:١٥٧].

يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة]، والمكيُّ هُوَ الَّذِي نزلَ قبلَ الهجرةِ عَلَى القولِ الصَّحيحِ، يعني: فالمُعْتبَر الزمنُ لا المكانُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلا ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إِلَى آخِرِها]، وهي أربع آيات: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٧]، وهذا الاستثناء لَيْسَ بمقبولٍ إلَّا إذا دلّ الدَّليلُ عليه، والدَّليل عليه تارةً يكون بالنقلِ، وتارةً يكون بالمَعْنى، والمَعْنى قد يكون واضحًا وقد يُنازَع فيه.

فهنا المُفسِّرُ استثنى هَذِهِ الآياتِ الأربعَ بقرينةِ السياقِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، قيل: لَـمَّا نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]، تأثر لها حسَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٧][1]، والانْتِصار بعد الظُّلم كَانَ فِي المدينةِ وليسَ بمكَّةَ، ومِن ثمَّ قالوا: إن هَذِهِ الآيات مَدَنِيَّة.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٤١٨).

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مائتانِ وسبعٌ وعشرونَ آيةً]، وتقسيم الآيات أيضًا توقيفيٌّ، حَتَّى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَيْسَ له شأنٌ فِي تقسيمِ الآياتِ، فتنزل الآيات من عند الله مُقَسَّمةً، وأيضًا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأمر بوضعها فِي مكانها من السورة، فهي توقيفيَّة أيضًا فِي الترتيبِ.

قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والبَسْملَة متعلِّقة بفعل محذوف متأخِّر مناسِب لما يُسَمَّى عليه، فمثلًا: عِندَما تريد أن تقرأ تقول: بسم الله الرَّحْمن الرحيم، فالتَّقدير: «بسْم الله الرَّحْمن الرحيم أقرأُ».

وقُدِّر فعلًا لِأَنَّهُ الأَصْل فِي العمل.

وقدِّر متأخرًا لإِفادة الحصر والتبركِ بتقديم اسْم الله.

وقُدِّر مناسبًا لِأَنَّهُ أخفُّ، وإلا فيجوزُ أن تقدِّر: باسْم الله أبتدئُ، ولكنّه إذا قُدِّر خاصًّا فهو أخصُّ وأدلُّ عَلَى المقصود.

• ● ❁ ● •

الآيــة (١)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء:١].

• ● ∽ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿طسٓمٓ﴾ اللهُ أعلمُ بمُراده بذلك]، ويَحتمِل قوله: [بمرادِهِ بذلكَ] أَنَّهُ يَقصد أن لهذه الكلمةِ أو لهذه الحروف معانيَ واللهُ أعلمُ بها، ويَحتمِل أن مراده (الله أعلم بذلك) أي: بالغَرَضِ الَّذِي من أجلِهِ أَتى بهذه الحروف الهِجائيَّة، وبين المعنيينِ فرقٌ، يعني: عَلَى التَّقديرِ الأوَّل تكون هَذِهِ الكَلِمَةُ لها معنًى لكن لَيْسَ معروفًا، وعلى التَّقديرِ الثَّاني يكونُ لا معنًى لها، ولكن الحِكمة فِي الإتيان غير معروفة.

أمَّا احتمال أن يكون لها معنًى فهذا بعيدٌ، ووجهُ البُعْدِ أنَّ القُرآن أَتى بِلِسانٍ عربيٍّ، وأن هَذِهِ الحروف الهجائيَّة لمجرَّد كونها حروفًا لَيْسَ لها معنًى، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُنْزِل لنا حروفًا هجائيَّةً ويَقصِد بِهَا المَعْنى؛ لِأَنَّ هَذَا خِلاف أن يكون القُرآن بيانًا وخُروجًا عن مُقْتَضَى اللُّغة العربيَّة.

وأمَّا الاحتمال الثَّاني فَهُوَ أن يُقالَ: اللهُ أعلمُ بما أرادَ؛ بالغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أتى بهذه الحروف الهجائيَّة؛ فهذا حقٌّ؛ فإذا قال الْإِنْسَانُ: أنا لا أعلم واللهُ أعلمُ فهذا حقٌّ، ولكن بعض أهل العلم أَبْدَى مناسبةً، وقال: إن منَ المناسباتِ أن القُرآنَ الكريمَ المعجِزَ للناسِ أجمعينَ أَنَّهُ لن يأتيَ بأمرٍ غريبٍ، وإنَّما أتى بكلماتٍ من

هَذِهِ الحروف، الَّتِي يتكوَّن منها كَلام النَّاس، ومع ذلك أَعْجَزَهُمْ؛ لِأَنَّهُ لو أَتى بحروفٍ جديدةٍ غيرِ معلومةٍ للناسِ لقِيلَ: إن إعجازَه ظاهرٌ، ولا أحدَ يَقدِر، لكن وجه الإعْجاز وتمام الإعْجاز أن يأتِيَ بحروفٍ هِيَ من حروفِ الكَلامِ الَّذِي يتكلَّم بِهِ النَّاس، ومع ذلك يُعجِزهم، واستأنسوا لإثْبات هَذِهِ المناسبةِ بأَنَّكَ لو تَدَبَّرْت هَذِهِ السُّوَرَ الَّتِي ابتُدِئت بالحروف الهجائيّة لوجدتَ أَنَّهُ يذكر بعد الحروفِ ما يَتَّصِل بالقُرآنِ:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣].

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢].

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١].

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:١].

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١-٢].

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢].

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت:١-٣].

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣].

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢].

﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١-٢].

وسِيروا عَلَى هَذا.

بَقِيَ أَنَّهُ يجب أن يُرَدَّ بأنَّ الآياتِ: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، و﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣]، و﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢]، لَيْسَ فيها ذِكْرٌ للقرآنِ؟

فيُقال: فيها ذِكْر للقرآن: فـ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هَذَا وَحْيٌ، و﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فإنَّ قصصَ وأخبار الأوَّلين إنَّما كانتْ بالوحيِ، و ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إخبارٌ أيضًا عن أمرٍ مُسْتَقْبَلٍ من أمور الغيبِ لا يُعْلَم إلا بالوحيِ.

ثم لو فُرِضَ أن هَذَا لَيْسَ بواضحٍ؛ فإن النادرَ لا حُكْمَ له، وهذا المَعْنى -الذي أَشرنا إليه- ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وأيّده شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢) ط دار الفكر.

الآيــة (٢)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:٢].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ﴾ أي: هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾]، وتعبيرُ القُرآن: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ وهناك فرق بين التعبير القُرآنيّ وتعبير المفسِّر؛ الفرقُ بينهما أن التعبيرَ القُرآنيَّ أتَى بالإشارةِ للبَعيد، والمُفسِّر أتى بالإشارة للقريبِ.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾]، أيضًا لِيُبيِّن أن آيات الكِتاب هِيَ الخبرُ.

والصَّوابُ أن نقولَ: لو قال المُفسِّر: (تلك الآياتُ آيات) لكَانَ أحسنَ؛ لِأَنَّ كونه يعدِل عن الإشارةِ بالبعيدِ إِلَى الإشارةِ بالقريبِ، معَ أن الله تعالى أثبتَ الإشارةَ للبعيدِ، فهذا لَيْسَ تفسيرًا، والصَّواب بلا شكّ: القُرآن هُوَ الصَّوابُ، والإشارة بالبعيدِ هنا مع قُربِ القُرآنِ الكريمِ وكَوْنه بينَ أيدينا إشارةٌ إِلَى عُلُوّ مَرْتَبَتِه، فهو للتَّعْظيمِ، وإذا صِرنا عَلَى ما قال المُفسِّر فاتنا هَذَا المَعْنى الَّذِي أُرِيدَ بالإشارة للبَعيد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن، والإضافة بمَعْنى (مِن)]، يعني: آيات من الكِتابِ.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمَعْنى: المكتوب، كاللِّبَاسِ بمعنَى: المَلْبُوس، والغِرَاس:

بمَعْنى المَغْرُوس، والبِناء بمَعْنى: المَبْنِيّ، والفِرَاش: بمَعْنى المَفْرُوش. وسُمِّيَ كِتابًا لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي اللَّوْح المَحْفُوظ، وكُتِب بالصُّحُف الَّتِي بأيدي الملائكة، وكُتِبَ فِي الأرض بين النَّاس، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات جمع آيةٍ، وهي فِي اللُّغة: العَلامَة، والمُراد بِهَا هنا العَلامَةُ الدالَّةُ عَلَى منزِّل هَذَا القُرآنِ، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن كلُّ آيةٍ منْ هَذِهِ الآياتِ فيها إعجازٌ؛ لِأَنَّهُ لو لم يكنْ فيها إعجازٌ لم تكنْ آيةً؛ لِأَنَّ الآيةَ العَلامَةُ الفارقةُ، ولا يكون القُرآن عَلامَةً فارقةً بينه وبين كَلامِ الآدميِّين إلا إذا كَانَ مُعْجِزًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُبِينِ﴾ المُظْهِر الحقّ من الباطِل]، وأحيانًا يفسِّرون المُبينَ بالبيِّن، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، يعني: البيِّن الواضِح؛ وذلك لِأَنَّ أبانَ تُستعمل قاصرةً ومُتعَدِّيَةً، يعني: فتستعمل قاصرةً: بَانَ الشَّيْءُ وأبانَ الشَّيْءُ، وتُسْتَعْمَل مُتعَدِّيَةً، فيُقال: أبنتُ الحقَّ، يعني: أظهرته، فالمبين إذا فُسِّرَتْ بالبيِّن فمعناه أن السِّياق لا يَقتضي سوى ذلك، فتكون منَ اللازم، فإذا كَانَ المعنى يَحتمِل أن تكونَ من المتعدِّي -يعني: بمَعْنى مُظْهِر- وجبَ أنْ تُفَسَّرَ به؛ لِأَنَّ تفسيرها بالمُظْهِر يَشْمَل أو يَتَضَمَّن تَفسيرها بالبَيِّن؛ إذِ المُبين معناه: بيِّنٌ بنفسِهِ، مُبِينٌ لِغَيْرِهِ، خلاف البيِّن بنفسه فقد لا يُبين غيرَه.

إذن كلَّما جاءتْ (مُبين) فِي القُرآنِ إنْ أمكنَ أنْ تُفَسَّرَ بالإبانةِ، الَّتِي هِيَ الإظهارُ وَجَبَ؛ لِأَنَّ ذلكَ أشملُ، وإذا لم يمكنْ فُسِّرت بالبيِّن الَّذِي هُوَ اللازمُ دونَ المتعدِّي؛ كقولِهِ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، فهِي بمَعْنى (بيِّن)

منَ اللازمِ، ويمكن عَلَى بُعدٍ أن تكونَ بمَعْنى (المُبِين)، يعني: المُظهر لِضَلَالِهِم، ولكن المعْنَى الأوَّل أَبينُ.

على كلِّ حالٍ نقول: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ هنا بمَعْنى: المظهِر للحقِّ، ولا يكون مُظهِرًا للحقِّ إلَّا وَهُوَ بيِّن بنفسه.

وترك المفعول فِي قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لإفادة الْعُموم والشُّمولِ، فهو مُبِينٌ لكلِّ شيْءٍ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وهذا يدلُّ عَلَى أنَّ القُرآن شاملٌ لكلِّ شيْءٍ، وأمّا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، فليسَ المُراد بِهِ القُرآن، وإنْ كَانَ كثيرٌ منَ النَّاس تَسمعهم يَستدِلّون بهذه الآيةِ عَلَى أن القُرآن شاملٌ لكلِّ شيْءٍ، ولكن المُراد ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: اللوح المحفوظ.

و﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أبلغ، فهو مذكور فيه بيانُ كلِّ شيْءٍ، فالقُرآن تِبيان لكل شيْءٍ، ولا يَخفَى عَلَى أحدٍ تبيان القُرآنِ إلا لعلَّةٍ فيه ليستْ فِي القُرآن، لعلة فِي نفس الَّذي خفِيَ عليه؛ لأنّا نَجزم بصِدْقِ هَذِهِ القضيّة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وما خفي عَلَى أحدٍ منَ النَّاسِ ما خفِيَ من الأحكامِ، إلا لِقُصُورٍ فِي فَهمهم، أو فِي عِلمهم، أو فِي إرادتهم، فهو إمّا قاصرٌ فِي الفهم لا يفهم، وهذا لا يَتبيَّن له الشَّيْء، وإما قاصِر فِي العلم لَيْسَ لديه معلوماتٌ، وإما قاصر فِي قصده، أي نِيَّته.

ولهذا قال شيخ الإسلامِ: «مَن تَدَبَّر القُرآنَ طالبًا الهُدَى منه تَبيَّنَ له طريقُ الحقِّ». ذَكَره فِي (العقيدة الواسطية)(١)، حينما تكلَّم عن الآياتِ القُرآنيَّة الدالَّة عَلَى

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:٧٤) ط. أضواء السلف.

الصِّفات، وهي كلمة لها معناها.

إذن فقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المُبين لكلِّ شيْءٍ، وخَفاء بعضِ الأمورِ عَلَى النَّاس منَ القُرآن لَيْسَ من قصورِ القُرآنِ، ولكن من قصورهم؛ إما لقصورٍ فِي الفهم، أو العلم، أو القصد.

قد يقول قائل: إننا لا نجد كل شيْء فِي القُرآن؟ وأوّل ما يُعترض علينا أنّنا لا نجد كمّ عددِ الرَّكَعات فِي الصلاةِ، فأينَ البيانُ؟

فيُردُّ عليه بأنَّ القُرآنَ أتَى بتِبيانِ كلِّ شيْءٍ عَلَى الْعُمومِ، والسنَّة أنزلها اللهُ عليه ﷺ لِتُبيِّنَ للناس موضوعَه، والرسول ﷺ قد فسَّر القُرآن، ولكن عَلَى الصِّيَغ العامَّةِ والإشارات العامَّة بالقُرآن، وأمَّا التفريعات فبينها رسول الله ﷺ.

فنقول: بيان القُرآنِ نوعانِ:

أحدهما: أنْ يُبيِّنَ الشَّيْءَ بِعيْنِه.

والثَّاني: أن يُبيِّنَه بِوَسِيلَتِهِ وطَريقته. يعني: يقول: الطَّريق إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا كذا.

فتَارَةً يُبيِّن الشَّيْء بعينِه، والغالب أن ذلك فيما لا يُمْكِن إدراكُه، وتارةً يبيِّن الشَّيْءَ بطريقته ووسيلتِهِ، يعني: يقول الطَّريقة إِلَى كَذَا هِيَ كذا، فمثلًا: بيَّنَ لنا الطَّريق إِلَى معرفةِ عددِ الصلاةِ بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وبقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء:١١٣]، وبقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء:٨٠]، وبقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وغير ذلك.

وقد نُقلت قصةٌ عن الشيخِ مُحَمَّد عَبْدُه معَ رجلٍ نَصرانيّ اعترضَ عليه،

حيث قَالَ النصرانيّ: إنّنا لا نجد فِي القُرآنِ كيف نصنعُ هَذَا الطعام؟ فدعا الشيخُ محمَّد عبده بصاحبِ المطعمِ وقال له: كيف صنعتَ هَذَا الطعامَ؟ فقال صاحبُ المطعم: فعلت كَذَا وكذا. فقال الشيخ محمد عبده: هكذا علَّمَنا القُرآن. فقال النصرانيُّ: كيف عَلَّمَكُم القُرآن؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فالتِّبيان فِي القُرآنِ تارةً يُبيِّن الشَّيْءَ بِعَيْنِهِ، وتارةً يُبين وسيلتَه الَّتِي تُظْهِرُه وتُبَيِّنه.

ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ عُلُوّ شأنِ القُرآنِ؛ للإشارةِ بقوله: ﴿تِلْكَ﴾، وأنه آياتٌ، والآيةُ هِيَ العَلامَةُ الخاصَّة أو المُعْجِزَة مثلًا؛ لِأَنَّ عَلامَة الشَّيْء معناها: ما يَخْتَصّ به، ولو كَانَ هَذَا الشَّيْءُ لا يختصُّ باللهِ ما صارَ آيةً له، فالآية هِيَ العَلامَةُ الخاصَّةُ الَّتِي لا تكونُ لغيرِ مَن كانتْ له، فالشَّمْسُ والقمرُ لا يمكِن لأحدٍ أنْ يأتيَ بِمِثْلِهِمَا، والقُرآن لا يمكن لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلِه.

فالعَلامَة الخاصَّة لمن كانتْ له، بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمثلِه، سواء كانت كونيَّة أو شرعيَّة، وفِي هَذِهِ الآيةِ أن جميعَ آياتِ القُرآنِ معجِزات، ولو كانتْ آيةً واحدةً فإنها مُعْجِزةٌ، وقد تكون معجزةً بذاتها وقد تكون معجزةً بسياقِها؛ لِأَنَّ مثلًا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١]، قد لا يستطيع أحدٌ أن يقولَ: إنها معجزةٌ، وإن كل إِنْسان ممكِن أن يأتيَ بكلمة (ثُمَّ نَظَرَ)، لكنها مُعجزةٌ فِي سياقها وفِي مَوْضِعها، فالآيَات حَقيقةً قلنا: إنها حروفٌ، ومن كلماتِ النَّاسِ، وهذه الحروفُ ليستْ معجزةً؛ لأنها من كَلامهم ويستطيعونها، لكن مكانها وسياقها وما تدلُّ عليه هَذَا هُوَ المعجز.

ومنَ المذاهب الباطلةِ: (مَذْهَب أهل الصرفة) وَهُوَ مذهب لَيْسَ بصحيحٍ؛ ومعناه أن باستطاعةِ الْإِنْسَان أن يفعلَ لولا المانعُ، يقولون: إن النَّاس مَصْرُوفون عن معارضةِ القُرآنِ، لا عاجزون، وفَرْق بين مَن يكون باستطاعته أن يفعلَ لولا المانعُ، ومن يقول: لَيْسَ باستطاعته أن يفعله، فالأخير أبلغ. ولهذا (مذهب أهل الصرفة) يقولُ العلماء: مذهبٌ باطلٌ، وإنه لَيْسَ باستطاعةِ أحدٍ أن يفعلَ أبدًا.

فَإِنْ قِيلَ: يأتي بكَلامٍ رَكيكٍ.

قلنا: بل أتى بكَلامٍ يَضْحَك منه النَّاسُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَلام بعضِ البشرِ، هل يُنقَل فِي القُرآنِ عَلَى حقيقتهِ أم حكايةً؟

فالجَواب: لَيْسَ هُوَ لفظه الحقيقيّ، ولهذا مثلًا: كَلام مُوسَى باللُّغة العِبْرِيَّة، وكَلام فِرْعَوْن باللُّغة القِبْطِيَّة، وما أشبهَ ذلك، ثم إن الكَلِمات أيضًا تختلف، يعني: نفس الآيَات تُنْقَل مرةً كَذَا ومرةً كذا، فالله يعبّر، ويكون السياق هُوَ الَّذِي يقتضي هَذَا التعبيرَ دون ذاك.

• • ❁ • •

الآيــة (٣)

• • ••

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

• • ••

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمدُ ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ قاتِلُها غَمًّا من أجلِ ﴿أَلَّا يَكُونُواْ﴾ أي: أهل مكة ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ و(لعلَّ) هنا للإشفاقِ، أي: أَشْفِقْ عليها بتخفيفِ هَذَا الغمِّ].

(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليلِ وتكون للتَّرجِّي. فإذا تعلقتْ بمكروهٍ فهي للإشفاقِ، وإذا تعلَّقت بمحبوبٍ تكونُ للترجِّي، وإذا تعلقتْ بعلَّةٍ مِنَ العِلَلِ فهي للتعليلِ، وهي هنا للإشفاقِ، مثل أن تقول: (لعلَّ الحبيبَ هالِكٌ) فلا يمكن أن يكون قَصْدُك ترجِّيَ أنْ يَهْلَكَ حَبِيبُك، لكنَّك تُشفِق.

والله تعالى أشفقَ عَلَى نبيِّه ﷺ من أن يُهلِك نفسَه -يَقْتُلها منَ الغمِّ- بسببِ عدمِ إيمانهم، والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعاني من عدمِ إيمانهم، ومنَ المشقَّة الشديدةِ، ويحزن، ويضيق صدرُه ولكن الله تعالى يُسَلِّيهِ بمثل هَذِهِ الآية: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]، وهنا يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ مهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ففي هَذَا دَليل عَلَى أن الإِنْسَان الداعيَة لا يَنبغي أنْ يُهْلِكَ نفسَه فِي الهَمِّ والغَمِّ لعدم قَبُولِ النَّاسِ للحقِّ؛ لِأَنَّهُ إذا أتَى بما يَجِبُ عليه انشرحَ صدرُه، وكفى. فأنت أتيت بما يجب عليك من الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ، ثم إنِ

امتثلَ النَّاس فهو نِعمةٌ عَلَى الجميعِ، وإنْ لم يَمتثِلوا فلا تَغْتَمَّ؛ لأنك إذا اغتممتَ اشتغلتَ بغيرِكَ عن نفسِكَ، وصار هَمُّكَ وَلاء النَّاس، وهذا يُفسِد عليك أنت عباداتِكَ الخاصَّةَ، فاشتغِلْ بنفسِكَ، وغيرك أدِّ ما أوجبَ اللهُ عليك لهم، ثم إنِ اهتدوا، وإلَّا لستَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ. وبهذا يَستريح الإِنْسَان راحةً عظيمةً ويكون مُقبِلًا عَلَى عبادتِهِ، مُحْسِنًا لها.

فإن قالَ قائلٌ: بعض النَّاس الَّذين لا يَدْعون النَّاس لهم حُجَّةٌ فِي ذلك، ويقولون حديثًا عن الرسول ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ العَوَامَّ»(١).

فالجَواب: قال «عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» فمِن خاصَّةِ نفسِكَ أن تأمرَ بالمعروفِ وتَنهى عنِ المنكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]. فلا تَدَعْ نفسَكَ فِي ملاحقةِ النَّاسِ والاشتغال بهم عن دِينك.

ويُستفاد من الآية الكريمة: تَسلِيَة الرسول ﷺ لعدم إيمان قومه.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

الآيــة (٤)

• ● ○ ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤].

• ● ○ ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ بمَعْنى المضارعِ، أي: تَظَلّ، أي: تَدُوم ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ فيؤمنون].

قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ جملة شَرطيَّة، فِعل الشَّرط: (نَشَأْ) وجَوابه: (نُنَزِّلْ)، وفي الإتيانِ بهذه الصيغةِ: ﴿نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ من تعظيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ ما لا يَخْفَى؛ لِأَنَّهُ جعلَ الأمرَ هنا يَسيرًا عليه إذا شاءه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإرادته لم يفعلْ، ثم الإتيان بنونِ العظمةِ هُوَ تَعظيمٌ آخرُ أيضًا، فالله تعالى ما قَالَ: إذا شِئنا نَزَّلْنا، قَالَ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ أي: عَلامَة، وهذه العَلامَة لا شكَّ أَنَّهُ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلها -كما أشرنا إليه قريبًا- ثم إنها عَلامَة أيضًا ليستْ عَلَى قُدرة مَن هِيَ له، أو عَلَى انفرادِهِ بالخلقِ، ولكنها آيةٌ أيضًا عَلَى أَنَّهُم لم يُؤمِنوا، وعلى تهديدهم بالوعيدِ، ولهذا قَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ فلا تستطيع أن تمثّل هَذِهِ الآية لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نكّرها، فهي آيةٌ ليستْ معلومةً لنا؛ لِأَنَّ الله لم يُنْزِلْها، لكنها آيةٌ تُخْضِعُهم، ولهذا قَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هل المُراد بِهَا السَّقْف أم المُراد بِهَا العُلُوّ؟ مُحْتَمَلٌ هَذَا وهذا، يَحتمِل أَنَّهَا بمَعْنى العلوِّ، ويَحتمِل أن المُرادَ بِها السَّقف الَّذِي هُوَ عَلَى الأرضِ. وأيًا كَانَ فإن إتيانَ الشَّيْءِ من فوق أبلغُ فِي التهديدِ؛ لِأَنَّ مَن فوقَكَ فقد علاكَ، ومَن علاكَ فلا طاقةَ لك به، بخِلاف مَن كَانَ بحذائِكَ فقد تفرّ وقد تناضِل، ولكن المشكِل إذا جاء الأمر من فوق.

وقوله: ﴿فَظَلَّتْ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بمَعْنى المضارع، أي: تَظَلّ)، وإنَّما قال المُفسِّر: (بمَعْنى المضارع) لِأَنَّ قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ مضارع، فناسبَ أن يكون ﴿فَظَلَّتْ﴾ مضارعًا، لكنه عدلَ عنه لبيانِ أَنَّهُ كالأمرِ الواقعِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، مع أَنَّهُ سيأتي، فالمَعْنى: فإذا نزلتْ بهم ظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ.

وقوله: ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا﴾ أي: لهذه الآية، فيَحتمِل أن تكونَ اللامُ هنا للتعدِّيَةِ، أي: خاضعينَ لها، أو للتعريف، أي: من أجلها. وقوله: ﴿خَٰضِعِينَ﴾: أي ذَلِيلِينَ. قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولَـمّا وُصِفَتِ الأعناقُ بالخضوعِ الَّذِي هُوَ لأربابها، جُمعتِ الصِّفَةُ منه جمعَ العُقَلَاء]، المُراد بـ(الصِّفَة منه) هنا الخبر ﴿خَٰضِعِينَ﴾، والخبر صفة فِي المَعْنى، وإن كَانَ فِي الإعرابِ لا يُسَمَّى صفةً، لكنَّه فِي المَعْنى صفةٌ. وهنا ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ المعروف الكثير فِي اللُّغة العربيَّة أن تكون (خاضعة): (أعناقهم لها خاضعة)، مثل: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم:٤٣]، لكنَّه لما كَانَ الخُضُوع من أوصافِ العُقَلاء لا من أوصافِ غيرِ العاقلِ جُمع جَمعَ عاقلٍ؛ لِأَنَّ جمع المذكر السالم يَختَصّ بالعقلاء، فجمعت جمع العاقلِ لهذا السَّبَبِ.

ولا يُمْكِن أن نقولَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا﴾ (لَهَا) هِيَ الخبر، وتكون (خَاضِعِينَ)

حالًا من الضَّميرِ المُسْتَتِرِ فِي الخبر، نقول: هَذَا بعيد، لِأَنَّهُ لا مَعْنى لـ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا﴾، فإذا قال إِنْسان: ربما يكون التَّقديرُ: ناظرةً لها؛ أي: ظلتْ أعناقهم ناظرةً لها، فرَدُّ هَذَا بأَنْ يُقالَ: إن المتعلّق إذا كَانَ خاصًّا فَإِنَّهُ لا يُحذَف، وإنَّما يُحذَف إذا كَانَ عامًّا، يعني: تقديره كائن أو مستقِرّ، هَذَا الَّذِي يُحذَف، أمّا إذا كَانَ خاصًّا كراكبٍ وجالسٍ، وما أشبهَ ذلك؛ فَإِنَّهُ لا يُحذَف.

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْباتُ المشيئةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِن نَّشَأْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ القُدْرَة؛ لِقوله: ﴿نُنَزِّلْ﴾ .

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التهديد لـهَؤُلَاءِ المكذِّبين؛ لقوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها دليلٌ عَلَى أن الأَسْبابَ مؤثِّرة؛ لِأَنَّهُ إذا نزلتِ الآيةُ خَضَعوا، وهذا دليلٌ عَلَى ثُبُوت الأَسْباب، وأنها مؤثِّرةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فيها دَليل عَلَى إِثْبات الحكمةِ؛ لِأَنَّ الله لم ينزلْ هَذِهِ الآيَةَ؛ لِأَنَّهُ لو أَنزَلَها لكانَ الإيمان اضطراريًّا، والإيمانُ الاضطراريُّ لا مَدْحَ فيه ولا ثناء، بل لا يَنفَع صاحبَه، فلهذا إذا آمنَ الْإِنْسَان عند ملاقاةِ الموتِ ما نَفَعَهُ، وبعد طلوعِ الشَّمْسِ من مَغْرِبها ما نَفَعَه، نعم، لا ينفع إلا إذا كَانَ الإيمانُ اختياريًّا، ولَمَّا نَتَقَ اللهُ الجبلَ فوق بني إِسْرَائِيل آمنوا، ولكن هَذَا الإيمان لا شكَّ أَنَّهُ ضعيفٌ؛ لِأَنَّهُ إيمان اضطراريٌّ، فمِن حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لم يُنَزِّل هَذِهِ الآية ليكونَ الإيمانُ عنِ اختيارٍ، لا عن اضطرارٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل تَدُلُّ الآيةُ عَلَى أنَّ الله فِي السَّمَاءِ؟

فالجَواب: لا، فنزول الآيةِ منَ السَّمَاءِ لا يُستدَلّ بِهِ عَلَى أن الله فوقُ.

وإن قيل: هل يدل تنكيرُ الآيةِ عَلَى عَظَمَتِها؟

قلنا: نعم، يدلُّ عَلَى عظمةِ مَن هِيَ له، وعلى تعظيمِ الآيةِ نفسِها، ولهذا تظلُّ أعناقهم لها خاضعينَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥)

•●ෆ●•

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

•●ෆ●•

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ قرآنٍ ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ صِفَة كاشِفَة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾]، (ما): نافية؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟﴾، وهذا الاستثناء مفرّق من عُمومِ الأحوالِ، يعني: لا يكونُ لهم من أيِّ حالةٍ منَ الأحوالِ سِوَى الإِعْراضِ.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾، (مِنْ) زائدةٌ إعرابًا للتَّوكيدِ، والتَّقدير: ذِكْرٌ، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ قال المُفسِّر: (قرآن)، وسُمِّيَ القُرآنُ ذِكرًا لِأَنَّ بِهِ التذكُّرَ والتَّذكير أيضًا، فهو تذكيرٌ منَ اللهِ وتذكُّر من سامِعِهِ، ولهذا سُمِّي ذِكرًا، ووُصِف القُرآنُ مرَّةً ثانيةً بأنه ذو الذِّكْر، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، والقُرآن للذكرِ؛ فمرةً جعله ذِكرًا، ومرةً جعله ذا ذكرٍ، ولا فرقَ بينهما في الواقع؛ لِأَنَّهُ ذِكْرٌ بِنفْسِهِ وتذكيرٌ، ولأنه ذو ذِكرٍ، أي: ذو تذكُّرٍ، فمَن قرأهُ وحفِظه وتدبَّره تذكّر به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يكون كذلك القُرآنُ مُشْتَمِلًا عَلَى الذِّكر؟ أي فيه آياتٌ فيها أذكارٌ.

فالإجابة: لا، فحتى الأذكارُ المقصودُ بِهَا تذكيرُ النَّاسِ. فالمقصود بكونه ذِكرًا أَنَّهُ مُذكِّر، ويتذكر بِهِ مَن تَذَكَّرَ.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ [الأنبياء:٢]، فذِكْر الرَّحْمن هنا إشارة إِلَى أن نزولَ هَذَا القُرآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ اللهِ، وأن الله تعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَحِمَ العبادَ بهذا القُرآنِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، أي ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ مِنَّا ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وليس المَعْنى -كما يَفهم كثيرٌ منَ العوامّ- ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ يعني: أنك أنت الرحمة، لا، يعني: وما أرسلناك إلا لِنَرْحَمَ العِبادَ، هَذَا هُوَ المَعْنى، وليس هُوَ نفسه رحمةً كما يقول أهل الغُلُوِّ فِي النبي ﷺ والجاهلون أيضًا.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صفة كاشفة]، والصِّفَة الكاشفةُ هِيَ الَّتِي تُبيِّن الواقِعَ، ولا تُقيِّد الموصولَ؛ لِأَنَّ الصِّفات منها صفةٌ مقيِّدة تُخرِج ما سواه، ومنها صفة كاشفة تبيِّن حقيقةَ أمرِهِ.

فهنا يقول المُفسِّر: إن كلمة (مُحْدَث) صفة كاشفة؛ فكلمة: (مَا يَأْتِيهِمْ) تدل عَلَى (مُحْدَثٍ)، فلا مفهوم لها؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ يأتيهم وجبَ أن يكونَ محدَثًا؛ لِأَنَّ بإتيانِهِ إِيَّاه صار مُحْدَثًا، ووجه ذلك ظاهرٌ أَنَّهَا صفةٌ كاشفة؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ غيرَ مُحْدَثٍ ما صحَّ أن يقول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾، إذ هُوَ آتٍ من الأَصْل.

وقوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ ظاهرُ الآيةِ الكريمةِ أن المحدَثَ هُوَ الذِّكر نفسُه، فيكون فِي الآيةِ دَلالة عَلَى أنَّ الله تعالى يَتكَلَّم بالقُرآنِ حينَ إنزالِهِ، وأنه لَيْسَ -كما رُوي عنِ ابنِ عبَّاس- أَنَّهُ نزل إِلَى بيتِ العِزَّة منَ اللَّوْح المحفوظ[1]، وإِنَّما يَتكلَّمُ

(١) أخرج النسائي فِي السنن الكبرى (٧/ ٢٤٧، رقم ٧٩٣٧) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «فُصِلَ

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ حينَ إنزالِه.

وقيل: ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه، فلا تكون الصِّفَة هنا حقيقيةً، وإنَّما هِيَ صفةٌ سببيَّة؛ لِأَنَّ الموصوفَ فيها حقيقةً لَيْسَ الذِّكر، بل هُوَ الإنزالُ، هَذَا إذا قلنا: ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه، كما إذا قلتَ: مَرَرْتُ برجلٍ قائمٌ أبوه، فـ(قائم) هَذِهِ الصِّفَة من حيثُ الإعرابُ لـ(رجل)، لكن من حيثُ المَعْنى صفةٌ لـ(أبوه)، وهذا الوصف عَلَى هَذَا الوجه يُسمّى بالنَّعْت السَّبَبِيّ.

فعلى هَذَا عَلَى القول بأن المُراد: ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه يكون النَّعْت هنا سَبَبِيًّا لا حقيقيًّا، ولكن إذا دار الأمرُ بين أن يكون النَّعْتُ صفةً حقيقيَّة أو صفة سببيَّة؛ فالواجب أن يكون صفة حقيقيةً؛ لِأَنَّ الصِّفَة السَّبَبِيَّة تحتاج إِلَى تقديرٍ، وكلُّ ما يحتاج إِلَى تقديرٍ يحتاج إِلَى دليلٍ، فهنا نقول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ ظاهر اللفظ أن القُرآنَ نفسَه مُحْدَث، ثم إن ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه لا مَعْنى لها فِي الواقعِ بعد قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يَأْتِيَهُمْ إلا وإنزالُه مُحْدَث؛ لِأَنَّ (أَتى) معناه (حدث). فعلى هَذَا نقول: الصَّوابُ أنّ المُرادَ بالمُحْدَث نفسُ الذِّكر، وليس إنزاله.

قالَ تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، (عَنْهُ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بـ(مُعْرِضِينَ)، و(مُعْرِضِينَ) خبر (كان)، وفائدة تقديمه عليه هنا لفظيَّة ومعنويَّة؛ أمَّا اللفظيَّة فمراعاة الفواصلِ -فواصل الآيات- وأمَّا المعنويَّة فلإفادة الحَصر، كأنه يقول: ما تكون حالهم إلا الإِعْراض عنه دون غيرِه، يعني: عنه فقط وحدَهُ مُعْرِضِينَ، وهذا

= الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّماءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَتِّلُهُ تَرْتِيلًا».

أبلغُ فِي الذمِّ ممَّا لو قَالَ: إلا كانوا مُعرِضين عنه؛ لِأَنَّهُ يَحتمِل أن يُعْرِضوا عنه وغيره، ولكنه لما قَالَ: ﴿عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ كأنَّهم لا يَتَّصِفُون بالإِعْراض إلا عنْ هَذَا الذِّكر.

وهذا الإِعْراضُ معنويٌّ وحِسِّيٌّ، يَشمَل الأمرين؛ فهم مُعْرِضون وإنْ حَضَروا بأبدانهم، ومُعْرِضون أيضًا بأبدانهم يقومون عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فهم مُعْرِضون -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- فِي قُلُوبِهِم وأبدانهم.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:٦].

• • ● •

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ به]، أي: بهذا الذكرِ، والجُملة مُحَقَّقَة بـ(قد)، والمَعْنى أَنَّهُ معَ وُضوح كون هَذَا الذِّكر منَ الرَّحْمنِ ما انتفَعوا به، بل كَذَّبُوا به، والتَّكذيبُ بِهِ يَعُمُّ التَّكذيبَ بِهِ رأسًا، بأنْ يقولوا: إن هَذَا القُرآنَ لَيْسَ منَ اللهِ، كما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، أو التَّكذيب ببعض الآياتِ منه، كما لو كذّبوا بقصَّة أَحَد الرُّسُل، أو بقصةٍ قَصَّها الله تعالى عَن أحدٍ؛ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، أو ما أشبه ذلك.

فهو إما أن يكون التَّكذيب بِهِ رأسًا فيُقال: أنت لا يُوحى إليك، وهذا القُرآن لَيْسَ بوحيٍ، أو التَّكذيب ببعضِ الآيات الَّتِي جاءتْ بهذا، فكله تكذيبٌ، والتَّكذيبُ أبلغُ منَ الإِعْراضِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَان قد يُعْرِض تهاونًا وتكاسلًا ولسببٍ منَ الأَسْبابِ ولا يكذِّب، لكن المكذِّب أشدُّ؛ لِأَنَّ المكذِّبَ لا يُمْكِن أن يُقبِل، وكيف يُقبل عَلَى أمرٍ يَعْتَقِده كَذِبًا؟! ولهذا قَالَ: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ ما قَالَ: فقد أعرضوا، قَالَ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ وهذا شاملٌ للإعراض والتَّكذيب.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بِهِ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ عواقب ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾]، الفاء عاطفةٌ، وتفيد الترتيبَ، والسين تفيدُ التقريبَ أيضًا، والمَعْنى:

فبسببِ تكذِيبِهِم فَسَيَأْتِيهِمْ عن قُرْبٍ، و﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ﴾ بمَعْنى: أخبار، والأنباء: جمعُ نَبَأٍ، وَهُوَ الخبرُ مِنَ الأمورِ الهامَّة، والمُراد بالخبرِ هنا العواقبُ، كما قال المُفسِّر؛ لِأَنَّ العواقبَ أخبارٌ فِي الحَقِيقَةِ، فمثلًا: فِي القُرآنِ أنَّ الله تعالى يَنْصُر رسوله ويُهْلِك المكذِّبين، هَذِهِ أنباء هِيَ فِي الحَقِيقَة ستكونُ عواقبَ: سَينتصِر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسيُهزَم أعداؤُه، وهذه هِيَ الحَقِيقَة، وهي العاقبة.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي يَسْخَرون، وتقديمُ المعمولِ فِي قوله: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ للفائدتينِ السابقتينِ: اللفظيَّةِ والمعنويَّةِ. وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ﴾ يَحتمل أن تكون مجرَّدة عنِ الزَّمان، أي: ما يستَهْزِئُون به، ويحتمل أن تكونَ للزَّمانِ، أي: ما كانوا فِي الماضي يستَهْزِئُون بِهِ عند وقوعِ العاقبةِ، فإِنَّ استهزاءَهم بِهِ سابقٌ لهذه العاقبةِ، ولكن الظَّاهر أَنَّهَا مجرَّدة عن الزَّمانِ، وَهُوَ غالبُ ما تأتي (كان)، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الحجر:١١]، أي: يَسْخَرون ويضْحَكون منه.

والتَّكذيب بالشَّيْءِ الحقّ نوعٌ منْ الاستهزاء به؛ لِأَنَّهُ مثلًا إذا كَانَ مع الرسول وعدٌ ووعيد، وأمرٌ ونهيٌ، وخبر واستخبار، وإرشاد وتوبيخ، ثم كُذِّب بِهِ فمعناه أَنَّهُ يُستهزأ به، وبأحكامِه، وبأخباره، وبما تَضَمَّنَهُ مِن هَذِهِ الأمور.

فائدة: يقولون: إن زيادةَ المَبْنَى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعنى، فإذا وجدتَ بالكلمةِ حروفًا زائدةً فمَعْنى ذلكَ أن هناك معانيَ زائدةً، والزيادةُ هنا للْمُبالَغةِ، مثل: (استكبَرَ وتكبّر)، (استكبر) أبلغ من (تكبّر)، وهنا: (استهزأ به) أبلغ من (هزئ به)، فلذلك نقول: السين والتاء هنا للْمُبالَغة.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧].

• ● ● •

قال اللهُ تعالَى مُبِّينًا دليلًا واضحًا عَلَى آياتِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: كثيرًا ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نَوْعٍ حَسَنٍ]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: هَؤُلَاءِ المكذِّبُون. و﴿يَرَوْا﴾ يقول المُفسِّر: (ينظروا)، فجعلها من الرُّؤْيَة الحِسِّيَّة، لا من الرؤية العِلمية، ولكن نقول: إنها تَحتمِل المعنيينِ؛ الرؤية الحِسِّيَّة: إذا نظر بعينه هو، والعلميَّة: إذا عِلم بذلك من غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ هناك أشياءَ لا نَعْلَمُها ممَّا يَنْبُتُ فِي الأرضِ، يعني: لا نراها ولكنَّنا نُخبَر بها، فالأَوْلَى أن يُقالَ: إنه شاملٌ للنظرِ بالعَيْنِ، والنظرِ بالقلبِ الَّذِي هُوَ العِلْمُ.

قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا﴾ يقول المُفسِّر: (أي كثيرًا)، و(كثيرًا) هَذِهِ تفسيرٌ لـ(كم)، يعني أن (كم) هنا تكثيريَّة، المَعْنى: كثيرًا أَنبتنا فيها، مثل قوله تعالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، أي: كثيرًا تَغْلِب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ.

وقوله: ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أضافَ الإنباتَ إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ هُوَ الفاعل حقيقةً، وإذا أُضيفَ الإنباتُ إِلَى المطرِ فإنَّما ذلك لِأَنَّهُ سببٌ.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: صِنف، والكريمُ فِي الأَصْلِ: كثيرُ البَذْل، ولكنَّه يُطلَق أحيانًا عَلَى الحسنِ، ومنه قوله ﷺ لِمُعَاذٍ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِـهِمْ»[1] أي: حَسَنَها، وليسَ مَعْنى كرائمها الَّتِي تُعْطي كثيرًا؛ لأنها لا تعطي البهائم، ولكن المُراد بِهَا الحسنة. فهنا الكريم نقول: الحَسَن، والزوج بمَعْنى: الصنف والنوع.

وهذه الأصنافُ والأنواعُ الحسنةُ البهيجةُ تدلُّ عَلَى قُدْرَةِ خالقها تَبَارَكَ وَتَعَالَى وعلى فَضْلِهِ وإحسانه، وعلى حِكْمَته، فانظرْ إِلَى الأرضِ وفيها هَذَا النباتُ تجده مختلفًا فِي حَجْمِه، ومختلفًا فِي لونه، ومختلفًا فِي نفعِه، ومختلفًا من جميعِ الوُجُوهِ، والأرضُ واحدةٌ والماءُ واحدٌ، بل أحيانًا تجد النوعَ الواحدَ من هَذَا النباتِ يختلِفُ، كما إذا نظرنا إِلَى البُرِّ، فالبُرُّ نوعٌ واحدٌ بالنِّسبة للحُبُوبِ، ومعَ ذلكَ يختلِف، وإذا نظرنا أيضًا إِلَى النخلِ وَجدناه يختلفُ، وإذا نظرنا إِلَى البِطِّيخِ وغيرِه نجدُه مختلِفًا، ممَّا يدلُّ عَلَى كمالِ قُدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كما قال الله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، فالماء واحدٌ، والأرضُ واحدةٌ، فتأخذ من هَذَا شيئًا تَذُوقه وإذا هُوَ مُرّ، وتأخذُ من هَذَا تَذُوقه وإذا هُوَ حُلوٌ، معَ أن الأرضَ واحدةٌ والماءَ واحدٌ، ولكن هَذِهِ هِيَ قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا الموفَّقون عَلَى كمال قدرته.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فِي الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إِلَى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الآيـة (٨)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٨].

• ● ● •

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ دلالةً عَلَى كمالِ قُدرته تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي: فِي ذلك المَذْكُور منَ الإنباتِ، ومنَ الأنواعِ، ومن الحُسن، فتكون (آية) هنا بمَعْنى (آيات)، و(آية) يقول المُفسِّر: (دلالة عَلَى كمال قُدْرَتِهِ تعالى)، هَذَا صحيحٌ، فأبرزُ ما فيها القُدرة، لكن فِي الآيات أيضًا الدَّلَالَةُ عَلَى الحِكْمَةِ البالغةِ فِي تَنويعِ هَذِهِ الأشياءِ واختلافها؛ فَإِنَّها لحكمةٍ أرادها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالقُدرة -مِثلما قال المُفسِّر- هِيَ أبينُ ما يكونُ فِي هَذَا النباتِ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنَّها أيضًا آية عَلَى أُمور أُخْرَى.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال المُفسِّر: [في عِلْمِ اللهِ]، يَقصِد (كان)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لأنَّهم إِلَى الآن ما آمَنُوا، وليسَ معناه أَنَّهُم لم يَكُونوا مُؤمِنينَ فيما سبقَ والآن هم مؤمنونَ. فيقول المُفسِّر: [في علم الله]، ما كانوا فِي علمِ اللهِ [و(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ].

وهذا إدخالٌ مِنَ المُفسِّرِ لقولٍ فِي قولٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي يقول فِي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾: إنَّ (كان) زائدةٌ لا يقولُ: (في علمِ اللهِ)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يعني: حَسَبَ الواقعِ والحالِ، أمّا الَّذِي يقولُ: (فِي علمِ اللهِ) فلا يحتاج إِلَى كونها زائدةً، ومن يقول: إن (كان) فعل ماضٍ عَلَى حقيقتها، يَحتاجُ إِلَى أنْ يقولَ: «في علم الله».

ولكنَّنا نَتَخَلَّص من هَذَا كلِّه بأن نقولَ: إن المُراد بـ(كان) هنا مجرَّد الحَدَث، أي الدلالة عَلَى الحدثِ فقطْ، فهي مجرَّدة عنِ الزَّمانِ، وإذا كانت مجردةً عن الزَّمانِ فلا نَحْتاج إلى أنْ نقولَ: إنها زائدةٌ، ولا نَحْتاج إلى أنْ نقولَ: فِي علمِ اللهِ، نقول: إن الواقعَ أَكْثَرُهم لَيْسَ بمؤمنٍ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ لا يَتَوَجَّه عَلَى كَلامِ الشارحِ، إلَّا أن يكون قولًا آخرَ؛ لأنك إذا قلتَ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فِي علمِ اللهِ، لا يصلح أنْ تقولَ: (كان) زائدةٌ.

ومَعْنى قوله: [و(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ]، أنَّ سِيبويهِ يَرى أَنَّهَا زائدةٌ، والمُفسِّر يرى أَنَّهَا أصليَّة لكنْ باعتبارِ علمِ اللهِ، ونحن نقول: إنها أصليَّة مجرَّدة عنِ الزَّمانِ، بل للدلالةِ عَلَى الحدثِ فقطْ.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ عَلَى أنَّ بعضَهم مؤمنٌ، وَهُوَ كذلكَ؛ فإن بعضهم مؤمنٌ وآمَنَ بالفعلِ.

قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا يَنتفعُ بالآيةِ إلَّا المؤمنُ، فإذا لم ينتفعْ بِهَا أحدٌ ما صارتْ بالنِّسبةِ إليه آيةً، ولهذا قيَّدها بقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يَنتفعون بها.

• • ۞ • •

الآيــة (٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الربوبيَّة هنا خاصَّة؛ لِأَنَّ الله تعالى ربُّ النبيِّ ﷺ وغيرِه، لكنَّه للعناية بِهِ ﷺ وبيان أَنَّهُ لن يَخْذُلَهُ معَ هَذَا التَّكذيبِ، بل لا بدَّ أنْ يَتولَّاه بربوبيَّته وعنايته الخاصَّة.

وقوله: ﴿لَهُوَ﴾ اللام للتَّوكيدِ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: ذو العِزَّةِ يَنْتَقِمُ مِنَ الكافرينَ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يَرْحَم المُؤمنينَ]، والعِزَّة: بمَعْنى الغَلَبَةِ، ويُقال: عزّ بِمَعْنَى: غَلَبَ وقَهَرَ، وقد قالوا: إنَّ العِزَّةَ تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: عِزة القَدْر، وعِزة القَهْر، وعِزَّة الامتناعِ.

فمَعْنى عِزَّة القَدْر: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عزيزٌ لا يَبْلُغُ أحدٌ قَدْرَهُ.

وعزَّة القهر: عزيزٌ لا يُقهَر، بل هُوَ الغالبُ.

وعزَّة الامتناع أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُمْتَنِعٌ عليه النقصُ فِي أيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، يعني: عبارة عن القوَّة، ومنه: الأرض العَزاز، يعني الصُّلبة القويَّة.

على كلِّ حالٍ، العِزَّة بجميعِ أنواعها هَذِهِ الثلاثة كاملةٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن عِزَّتِهِ أَخْذُ المكذبينَ، ولهذا قال المُفسِّر: [ينتقم من الكافرينَ]، وهذا يعود -من الأنواع الثلاثة- إِلَى عِزَّة القَهر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يَرْحَم المُؤمِنينَ]، ولو أنّ المُفسِّرَ أَبقاها عَلَى عُمُومِها لكان أَولى، لكنه لما قالَ الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، أخذ المُفسِّر يُقيِّد كلمةَ الرَّحيمِ بالمُؤمِنينَ، ولكنَّه يَنبغي أنْ يكونَ عامًّا؛ لِأَنَّ عِزَّته لا تَقتضي انتقامَه، بل قدْ يَمنع الانتقامُ هَذِهِ الرحمةَ الَّتِي تخصّص بها.

فالجمعُ هنا بين هاتينِ الصفتينِ العِزَّة والرحمةِ للتناسُب البالغ؛ لِأَنَّ مِنِ اجتماعِهما يحصُل الكمالُ، فهو بعِزَّتِهِ ذو رحمةٍ؛ فلو قارنّا بين العزّةِ والرحمةِ فِي صفاتِ المخلوقينَ، لوجدنا أنَّهما لا يجتمعانِ فِي الغالبِ، وأن العزيزَ الَّذِي يَرَى نفسَه قاهرًا فِي الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ، فاجتماعُ الصفتينِ يَحْصُلُ بهما كمالٌ عَلَى الكمالِ: عِزَّة ورحمة، ثم اجتماعهما كمالٌ، فيكون معَ العِزَّة رحيمًا لا يؤاخِذ ولا يَنتقم، ولهذا لم يُعَجِّلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العُقوبةَ للظالمِ، ولكنَّه بحِكْمَتِه يُمْلِي له حَتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْهُ.

وفي هَذِهِ الآيةِ خَتَمَ اللهُ تعالى بِعِزَّتِهِ ورحمته؛ لِيَجْمَعَ بينَ الترغيبِ والترهيبِ؛ الترهيب بالعِزَّة، والترغيب بالرحمةِ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٠، ١١)

• • ❊ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠-١١].

• • ❊ • •

يُكْثِرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي القُرآنِ الكريمِ مِن ذِكْرِ قِصَّة مُوسَى، وما جَرَى له معَ فِرْعَوْن ومعَ بني إِسْرَائِيلَ؛ وذلك ليستعدَّ النبيُّ ﷺ لليَهُودِ الَّذين فِي المدينةِ؛ حَتَّى يَعرِفَ مِن أَمْرِهِم ما لم يكنْ معروفًا عندَه، ولهذا كَانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا بَعَثَ أحدًا أَخبره بكَلامِ اليَهودِ له، ثم قال لمعاذٍ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**»(١)؛ لِيَسْتَعِدَّ لهم، وقد كرَّر الله تعالى قِصّة مُوسَى مختصرةً ومبسوطةً لهذا الغرضِ؛ لِيُبَيِّنَ حالَ هَؤُلَاءِ اليَهودِ الَّذين هم من سكَّان دار الهِجرة.

وقد بدأ الله تعالى بِذِكر قصصِ الأَنْبياءِ مقدِّمًا ذِكْرَ قصة مُوسَى؛ لِطُولها ولأهميتها بالنِّسبةِ لنبيِّه ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ (إذ) هَذِهِ ظرفٌ، عاملُها محذوفٌ تقديرُه ما قَدَّرَهُ المُفسِّر: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ يا محمدُ لقومِكَ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ليلةَ رَأَى النارَ والشَّجرةَ...]، إِلَى آخِرِه.

قال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ناداه: أي: دعاهُ بصوتٍ مرتفعٍ؛ لِأَنَّ النداءَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إِلَى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

لا يكونُ إلّا بصوتٍ عالٍ، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢]، فالنداءُ يكونُ للبعيدِ، ويَلْزَم أن يكونَ بصوتٍ عالٍ، وأمّا المناجاةُ فهي للقريبِ.

قال: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ هُوَ ابنُ عِمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقوله: ﴿رَبُّكَ﴾ الإضافةُ هنا للتخصيصِ، فهي ربوبيَّة خاصَّة؛ لِأَنَّ ربوبيَّةَ اللهِ نوعانِ، كما أنَّ عُبُودِيَّته نوعانِ.

قال: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، (أن) تفسيريَّة؛ لأنها سُبقت بمَعْنى القولِ دونَ حُروفه، و(أنْ) إذا سُبقت بمَعْنى القولِ دونَ حروفِه تُسَمَّى تفسيريَّة، ومثلها ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]؛ لِأَنَّ الوحيَ فيه مَعْنى القولِ دونَ حروفِه، فيُعْرِبُونَ مثلَ هَذِهِ بأنها تفسيريَّة. ولهذا قال المفسِّر: [أي بأنِ ﴿ٱئۡتِ﴾].

وقول المُفسِّر: [ليلة رأى النارَ والشَّجرة]، فكونه (ليلة رأى النارَ) صحيحٌ، قال تعالى: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه:١٠]، وكذلك الشَّجرةُ، ولكن التزام أَنَّهُ رآها فيه نظرٌ؛ لِأَنَّ سُورَة القَصَص لا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رآها، قال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٢٩-٣٠]، فلا يَتبيَّن منَ القُرآن أَنَّهُ رأى الشَّجرةَ، إنَّما يَتبيَّن أن الصوتَ سَمِعَهُ مِن قِبَل الشَّجرةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رسولًا]؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ المُراد أَنَّهُ يأتيهم فقطْ، بل يأتيهم بالرِّسالَة، و(القَوْم): الجماعة، و(الظَّالِمِينَ) سيأتي ذِكر المُفسِّر لَمعْنى الظُّلم.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ معه، ظَلَمُوا أنفسهم بالكفرِ باللهِ وبني إِسْرَائِيل باستعبادهم]، فهم منَ الظالمينَ المعتدِين الناقصينَ حق الله وحق العباد، أما حقُّ الله فإنهم كَفَروا بِهِ وأَشركوا به، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وأمَّا حَقُّ الْإِنْسَان فقدِ استعبدوا بني إِسْرَائِيلَ، وصاروا يذبِّحون أبناءَهُمْ، ويَسْتَحْيُونَ نِساءَهم.

وفي قوله: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ تخصيص بعد تعميمٍ، أو بيانٌ بعد إجمالٍ؛ لِأَنَّ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ مُبْهَم، لكن: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مُبيَّن.

وفائدة الإبهام ثم البيان بعده التَّأكيدُ من وجهٍ، وبيانُ الاهتمامِ بِهِ من وجهٍ آخَرَ، وتلقّي السمعِ له بالقَبولِ من وجهٍ ثالثٍ.

أما التَّأكيد فلأنه كُرر مرتينِ: مرَّةً مُجْمَلًا، ومرَّةً مُبيَّنًا، وهذا التَّأكيد، وأما الاهتمام بِهِ فلأنَّ ذِكْره مؤكدًا دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مهتمٌّ به، وأمَّا تلقِّي السمع له بالقبولِ فلأنه إذا جاء اللفظُ له مُجْمَلًا بَقِيَ الذهنُ يدورُ: ما هذا؟ ومَن هَؤُلَاءِ مثلًا؟ فإذا أتى البيانُ إليه بعد ذلك أَتَى إِلَى ذِهْن مُتَشَوِّق حَريص عَلَى معرفةِ هَذَا المبهَم، فيتَلَقَّاه بالقَبول أكثر؛ لِأَنَّهُ مُتَشَوِّقٌ إليه، ومُتَطَلِّعٌ إليه، فهذه فوائدُ البيانِ بعدَ الإجمالِ.

وفي وَصْفِهِمْ بالظُّلمِ قبلَ بيانهم -أي فِي هَذِهِ الآية- إشارة إِلَى عِظَم أَمْرِهم، حيث قدّم الوصفَ عَلَى الموصوفِ فِي الحَقِيقَة؛ لِأَنَّهُ عِندَما يُقال: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَتَصَوَّر الْإِنْسَان ويَعْرِف أَنَّهم ظَلَمَةٌ، فإذا جاء بيانُهم جاء بعدَ الحُكْمِ عليهم بهذا الوصفِ، مِمَّا يدلُّ عَلَى قُبح ما هم عليه من هَذَا الأمرِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاريِّ ﴿يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بِطَاعَتِهِ فيوحّدونه]. قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يَحتمل أَنَّهُ من المرسَل به، يعني: يقول لهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، ويَحْتَمِل أَنَّهُ من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمُوسَى، لِيُبيِّنَ له حالهم، وأنَّهم يَتَجَنَّبُون التَّقْوى، وأن الأليقَ بهم أن يَتَّقُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: [﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ]، مُقْتَضَى كَلامه أن يقولَ: الهمزةُ للاستفهامِ، و(لا) نافية، يعني: أَهُم لا يَتَّقُون، وأنه لا يَصِحّ أنْ يَجْعَلَها للعرْض، نحو (ألا تَنْزِل عندنا فتُصِيبَ خيرًا)، ويكون المقصود بقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ عرَض التَّقْوى عليهم.

فعلى كَلام المُفسِّر تُعْرَب الهمزةُ وَحْدَها، و(لا) وحدها، فتكون الهمزةُ للاستفهامِ، و(لا) نافيةً.

وعلى الاحتمال الَّذِي ذَكَرنا أن تكون للعرض، يعني: اعْرِضْ عليهم التَّقْوى مُلْزِمًا لهم بها، وسبقَ أن المُرادَ بالتَّقْوى اتِّخاذ الوقايةِ مِن عذابِ اللهِ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثبات النداء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾، فيكون كَلامه بصوتٍ عَلَى هذا، وأنه بحرفٍ؛ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلها حروف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الخَلْق؛ لإرسالِهِ الرُّسُلَ، فإرسال الرُّسُلِ دليلٌ عَلَى فضلِ اللهِ عَلَى الخلقِ، وعنايته بهم؛ لِأَنَّ الخلقَ مَهما أُوتوا من ذَكاءٍ لا يُمْكِنُهُم أنْ يُدْرِكوا ما يجبُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى التفصيلِ.

والعاقلُ يُدْرِك ما يجبُ لله عَلَى وجهِ الإتمامِ، فإدراكه أن له الكمالَ المطلَق، وأنه المستحِقّ العبادةِ، لكن عَلَى وجهِ التفصيلِ، لا يمكن إلا عن طريق الرُّسُل، ولهذا قَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى سُوء حالِ فِرْعَوْن وقومِه؛ لقوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى أَنَّهُ لا بأسَ فِي الإجمالِ فِي الكَلام، بشرطِ أن يأتيَ التفصيلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾. وفائدةُ الإجمالِ ثم التفصيل بعده الاهتمامُ، فيكون مُتَشَوِّقًا ومُتَطَلِّعًا إذا كَانَ هَذَا المُجْمَل سيأتيهم وَهُوَ عَلَى شَفَقَةٍ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٢)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء:١٢].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾]، هَذَا جَوابُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للهِ مُبَيِّنًا له حالَه حَتَّى يكون الأمرُ لَدَى مُوسَى واضحًا، فينشط ويقوَى، وليس المُراد بهذا معارضة أَمْرِ اللهِ؛ فإن مُوسَى لن يعارِضَ أمرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن يريدُ أنْ يَستبينَ الأمرَ؛ ماذا تكون حالُهُ مع فِرْعَوْن وقدِ اتَّصف بهذه الصِّفة، وهي الخوفُ، قَالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، و(أن) هَذِهِ مصدريَّة، يعني: أخاف تكْذِيبَهم إيَّايَ، والمُراد بالخوفِ هنا أَنَّهُ يَتوَقَّع ذلك: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَعْلَم منهم هَذَا الأمرَ، وعُتُوَّهُم، واستكبارَهم، والتزامَهُمْ بعبادةِ فِرْعَوْن.

• • • •

الآيــة (١٣)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ مِن تَكْذِيبِهِم لي]، قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ فيه إشكالٌ، حيث رُفع معَ أَنَّهُ يلي المنصوب: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لِأَنَّ (أنْ) هَذِهِ مصدريَّة، و(يُكَذِّبُونِ) منصوبة بِهَا بحذفِ النونِ، والنونُ الموْجودةُ للوقايةِ، وأصلها: يكذبونني، ثم حُذِفت النون الأُولى للناصبِ، وحُذفت الياء للتخفيفِ، لكن قَالَ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ ولم يقلْ: «ويضيقَ صدري».

والجَواب أنّ (الواوَ) عاطفةٌ عَلَى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، يقول: أنا أخاف أن يُكذِّبوني وأخافُ أن يضيقَ صدري ولا يَنطلِق لِساني بتكذيبهم.

و﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لا تعدو أن تكونَ مفعولًا به، مثل: ضربتُ زيدًا وأكرمتُه.

قال تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾، وضِيق الصَّدرِ: عدمُ انشِرَاحِهِ وانبساطِهِ، وهذا أمرٌ فِطريٌّ أن الإِنْسَان إذا خُولِفَ فسوف يَضيق صدرُه، كما كَانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضيق صدرُه، ولكن الله تعالى يُسَلِّي رُسُلَه؛ لِئَلَّا تَضيقَ صُدُورُهم، ولا يَحْزَنُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المكذِّبين؛ لِأَنَّ لهم يومًا يحاسبهم الله تعالى فيه والرُّسُل يُبَلِّغون فقطْ.

ويقولون: إنَّ ضِيق الصَّدرِ من أسْبابِ حدوثِ الضغطِ، ولهذا يَنصحون المصابينَ بالضغطِ بأن يَتَجنَّبُوا الغضبَ، وما يحزنهم ويضيق صُدُورهم، فهذا فِي الحَقِيقَةِ هُوَ الواقعُ؛ لِأَنَّ الضغطَ يَستلزمُ ضِيقَ الصَّدرِ، وضيق التنفُّس، وضيق الأرض عَلَى الْإِنْسَانِ، فإذا عرّض نفسَه لِـمَا يفعل بِهِ ذلك ازدادَ عليه الضغطُ، فإذا عوّد نفسَه الانبساطَ والانشراحَ وعدمَ الاكتراثِ فِي النوازلِ؛ فَإِنَّهُ يحصلُ خيرٌ كثيرٌ، ويبقى دائمًا فِي سرورٍ، لا سيَّما إذا كَانَ مُحْتَسِبًا ومؤمنًا بالقَدَرِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأداء الرِّسالَةِ للعُقدةِ الَّتِي فيه]، وهذه العقدة معنويَّة وليستْ حِسِّيَّة.

فَإِنْ قِيلَ: هَذِهِ العقدة لِأَنَّهُ أخذَ الجمرةَ وَهُوَ صغيرٌ.

قلنا: لا، قِصَّة أَخْذ الجَمرة باطلةٌ، فقصة إِسْرَائِيلَ ليستْ مقبولةً، لكن يَحتمِل أنَّ العُقْدَةَ مَعنويَّة، بمَعْنى أَنَّهُ لا يَستطيعُ التَّعبير بانطلاقٍ وفصاحةٍ. وقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه:٢٧-٢٨]، وقول فِرْعَوْن فِي وصفه ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، يَحتمل -وهو الأقرب- أن تكونَ فيه لُثْغَة؛ إمَّا سُرعة القول بِنُطْق الحروفِ، بحيث تُتابع الحروف حَتَّى لا تَفْهَم؛ لِأَنَّ منَ النَّاس من يكونُ كذلك، لَيْسَ فِي لِسانِهِ عُقْدَة حِسِّيَّة، لكن تَتَرَادَف الحروفُ فِي كَلامِهِ بحيثُ لا تدري ما يقول.

أو لِأَنَّهُ فيه لُثْغَة لا تَتبيَّن الحروف من كَلامِه، وكلُّ هَذَا مُحْتَمَل، وهذه العُقْدَة ليستْ كما ذكر من الجمرةِ، وأن لها أثرًا حِسِّيًّا يَمْنَعُه منَ الكَلامِ، بل هِيَ أثرٌ خَلْقِيّ، يعني بأصلِ الخِلقة.

ويَحتمِل أَنَّهَا جَهْلُ البَيَانِ، يعني: لَيْسَ فصيحًا فِي خِطابه وبيانِه وإقناعِه، لكن الأَوَّل أَولى، وأنها عُقدة معنويَّة، وذلك بصفةِ الكَلامِ، بحيثُ لا تَتبَيَّن الحروفُ فِي كَلامِهِ؛ إما لِعَجَلَتِهِ، وإما لِلُثْغَتِهِ، أو غير ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ﴾ أخي ﴿هَٰرُونَ﴾ معي]، أرسل إليه يعني: ابعثْ له بالرِّسالَةِ؛ حَتَّى يكونَ مُعِينًا ووزيرًا له، وقد قيلَ: إنه لا يوجدُ أحدٌ أشدّ مِنّةً عَلَى أخيه من مُوسَى عَلَى أخيه هارونَ؛ لِأَنَّهُ طلبَ أَن يكونَ أخوه فِي المقامِ الأعلى من مَقاماتِ بني آدمَ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم، وهي الرِّسالَةُ.

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ بيانِ الْإِنْسَانِ حالَه إذا لم يَقْصِدْ بِهِ الشكوَى؛ لقولِهِ: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، فإِنَّ هَذَا وصفٌ له فِي الضعفِ، وعدم التحمُّل نفسيًّا بضِيق الصَّدرِ، وعدم الكَلام المتقَن؛ لكونِهِ لا يَنطلِق لِسانُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ ذِكْر الوسائلِ الَّتِي تَسْتَوْجِب القَبولَ فِي الدُّعاء؛ حيث ذكر معلوماتٍ كثيرةً بكونِه يَضيق صدرُه ولا يَنطلِق لسانُه، وهذا من باب التوسُّل الزائد، فذِكر حالِه من الوسائلِ الَّتِي تَستوجِب قَبُولَ دُعائِهِ.

الآية (١٤)

• • ❧ • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء:١٤].

• • ❧ • •

ذكر الرِّسالَة حيث قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ثمّ بيّن مانعًا آخرَ غيرَ التَّكذيبِ، فقال: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقتلِ القِبْطِيِّ منهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾]، هَذَا خوفٌ آخرُ ناتجٌ عن معاملتِه معهم، والأوَّل خوفٌ يتعلَّق بالرِّسالَةِ، فهذا خوفٌ متعلِّق بالمعاملةِ معهم، ولهذا فِي الأول قَالَ: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ما قَالَ: أن يقتلونِ، ولا كَانَ يتصوَّر أن يُقتل إذا جاء بالرِّسالَة، ولهذا قال فِي الثَّاني: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بأيِّ شيْءٍ؟ مثلما قال المُفسِّر: [بقتل القِبطيِّ منهم]، وقصتُه مشهورةٌ فِي سُورَة القَصَص.

حيث إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ رجلًا قويًّا وشديدًا، فخرج باكرًا فوجدَ فِي المدينة رجلينِ يَقتتلانِ؛ أحدهما من شِيعته من بني إِسْرَائِيلَ، والثَّاني من عدوّه: الأقباط، فاستنجدَ بِهِ الإِسْرَائِيليُّ، فوكَزَ مُوسَى القبطيَّ حَتَّى ماتَ، وفِي اليوم الثَّاني خرج فوجد صاحبَه الإِسْرَائِيليّ معَ رجلٍ آخرَ، وقال له مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٨]، وأراد أن يَبْطِشَ بالعدوِّ، فظنَّ الإِسْرَائِيليُّ أَنَّهُ يريدُ أنْ يَبْطِشَ به؛ لِأَنَّهُ وَبَّخَهُ وقال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فلمّا تهيَّأ للبَطْشِ ظنَّ أَنَّهُ سَيَبْطِش به، فقال الإِسْرَائِيليُّ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القَصَص:١٨-١٩]، -اللهُ يَكْفِيكَ شرَّ مَن تُحسِن

إليه!- فلمّا قال هكذا انتبهَ له القِبْطِيُّ، فدلّ عَلَى مُوسَى بهذا السَّبَبِ، فخرج مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خائفًا يترَقّب ولجَأَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٢١]، فنجّاه الله ومَنَّ عليه بالرِّسالَةِ.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: يقتلوني به، وحُذِفت الياء للتخفيفِ، والنون من الفعلِ حُذفت للنصبِ.

وفي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ الخوفِ الطبيعيّ، وأنه لَيْسَ بشِرْكٍ، وقد ذكر الخوف مرتينِ؛ قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، والمقصود الخوفُ الثَّاني، والمُراد بالأوَّل مُلازِمُه وَهُوَ التوقُّع، يعني يتوقع هذا، فقوله: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لَيْسَ معناه أَنَّهُ يخافُ خوفَ الذُّعْر الَّذِي يقع فِي النَّفسِ، بل المَعْنى التوقُّع.

الآية (١٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لا يَقْتُلُونَكَ ﴿فَٱذْهَبَا﴾ أي: أنت وأخوك، ففيه تغليبُ الحاضرِ عَلَى الغائبِ]، وفيه أيضًا أن الله تعالى أجابَ دعاءَ مُوسَى، كما قال فِي سُورة طه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، أجابه وأرسلَ إِلَى هارونَ بالرِّسالَةِ.

قال: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء للمصاحبةِ، أي مصاحبيْن بآياتِ اللهِ، أي: العلامات الخاصَّة به، الَّتِي تدل عليه وحدَه دون غيره، والآيات الَّتِي ذهب بِهَا هِيَ الوحيُ، والثَّانيةُ قَلْبُ العصا، والثالثة اليَدُ.

هَذِهِ الآياتُ الَّتِي كانتْ عندَ الوحيِ إليه ثم تلاها بعدَ ذلكَ تسعُ آياتٍ كما هُوَ واضحٌ. وهذه الآيات ثلاثٌ: منها آيةٌ مَعنويَّة، وآيتانِ حِسِّيَّتانِ مناسبتانِ للسحرةِ؛ لِأَنَّ انقلابَ العصا حَيَّةً يُشْبِه السِّحرَ وليسَ بسِحر، لِأَنَّ هَذَا حقيقة، والسِّحر خيالٌ، وأيضًا كون اليد إذا أَدخلها فِي جَيْبِهِ تَخْرُج بيضاءَ من غير سُوء، يعني: من غير ضررٍ ونقصٍ، هَذَا أيضًا يشبه السِّحرَ، ولكنه لَيْسَ بسحرٍ، ففيه آيةٌ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعجزة لهؤُلَاءِ أَنْ يأتوا بِمِثْلِها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ ما تقولونَ وما يُقال لكم، أُجْرِيَ

مجرَى الجماعةِ]. قَالَ: إنّ الضَّمير لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلفظ الغلبةِ، مع أَنَّهُ فِي سُورَة طه قَالَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، لكن هنا ذكر ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾، وكانت المُبالَغة حصلتْ بانضمامِ الأمرينِ: السمع والرُّؤية، وهنا ما ذكر إلا الاستماع فقطْ، ولهذا جاء فِي صورةِ العَظَمَةِ بالنِّسبةِ للمبتدأ، فقال: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ ولم يقلْ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ كما قال فِي سُورَة طه، يقول المُفسِّر: [أجري مجرى الجماعة].

فالجَواب عن هَذَا ما قال المُفسِّر: [أجري الاثنان مجرى الجماعة]، وإذا قلنا: إن أقلَّ الجمعِ اثنانِ نقول: هَذَا وإن كَانَ بلفظِ الجمعِ لكنَّه دالٌّ عَلَى الاثنينِ باعتبارِ الوضعِ اللُّغويّ، فلا حاجةَ إِلَى التعيينِ.

وقيل: الجمعُ باعتبارِ ما مع مُوسَى وهارونَ من الآياتِ؛ كأنَّهم ثلاثٌ، وإن كانت الآيَات ليست آدميّة، ولكنها مؤيِّدة؛ لِأَنَّ التأييدَ يكون بالأدلَّة وبقوَّة الداعي والمستدلّ.

ويحتمل أيضًا أَنَّهُ جمع باعتبار أن مُوسَى وهارونَ سيكون لهما قومٌ وسيكونُ اجتماع مُوسَى وهارون بِقَوْمِهما.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبات المَعِيَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمعيَّة فِي الحَقِيقَة معناها: المصاحَبَةُ المُطْلَقَة، ولكنها فِي كلِّ شيْءٍ بِحَسَبِهِ، فنقول مثلًا: سَقَاني لبنًا معَه ماءٌ، فهذه تَقتضي الامتزاجَ والاختلاطَ.

فتفسيرُ مَعِيَّة الله عَزَّوَجَلَّ بالإحاطةِ عِلمًا وقدرةً وسلطانًا وبصرًا وسمعًا، وغير ذلك من معاني الربوبيَّة، لَيْسَ تفسيرها بذلك من بابِ التأويلِ، بل من بابِ ذِكر الحَقِيقَةِ؛ لأنها حَسَب ما تُضاف إليه.

إذن إذا كانت من بابِ ذكر الحَقِيقَةِ فيَمتنع أنْ تكونَ مَعِيَّة الله مشاركةً فِي المكانِ؛ لِأَنَّهُ لو أَثبتنا أَنَّها مشاركة فِي المكانِ، لَأَبْطَلْنا أَنَّهُ عالٍ فِي السَّماءِ؛ لِأَنَّهُ لا يمكنُ أن يشاركَ فِي المكان فِي الأرضِ وَهُوَ عالٍ فِي السَّماءِ، لهذا مَن زَعَمَ أن الإمامَ أحمدَ تأوّل وأثبت عنه رواية بجوازِ التأويلِ فِي الصِّفاتِ استنادًا إِلَى تفسيره المعيَّة بالعلم، فقد أخطأ خطأً بيِّنًا؛ لِأَنَّ تفسيرَ الإمامِ أحمدَ للمعيَّة فِي العلمِ أراد بِهِ الردَّ عَلَى الجَهْمِيَّة، الَّذين يقولون: إنه معنا بذاك، فيقول: إن دخلت الحُشّ فالله فِي الحُشّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وإن دخلت المسجدَ فالله فِي المسجدِ، وإن دخلت البيتَ فاللهُ فِي البيتِ.

وهكذا يَصِفون الله تعالى بما لا يَليق أن يُوصَف بِهِ بناءً عَلَى ظاهرِ الآيةِ الَّتِي لم يَفْهَمُوا حقيقةَ معناها، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّرها بالعلمِ؛ ردًّا عَلَى هَؤُلَاءِ، وتفسيرُه لها بالعلمِ لَيْسَ إخراجًا لها عن معناها، لكنَّه تفسيرٌ لها ببعضِ لَوازِمِها؛ لِأَنَّ من لازِمِ المعيَّة أن يكون عالمًا بالأمرِ.

ولا تَقْتَرِنُ المعيَّة بالمشاركةِ بالمكانِ؛ لِأَنَّ اللهَ مُحيطٌ بكلِّ شيْءٍ سمعًا وبصرًا، ولهذا سَمِعَ قولَ المُجَادِلَة الَّتِي تُجادِلُ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي زوجها، وتقول عائشة: «لقد جاءت المجادلة إِلَى النبي ﷺ، وأنا فِي ناحيةِ البيتِ، تشكو زوجها، وما أسمعُ ما تقولُ»[1].

وفرقٌ بينَ قولنا: إنَّ المعيَّة (تَقتضي) المشاركة فِي المكانِ أو (تَستلزم)، فإذا قلنا: تقتضي، فمعناه أن هَذَا من معانيها، وإذا قلنا: تَستلزم، فمعناه أَنَّهُ لازِم، فهذا هُوَ الفرق.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذِهِ الآيةِ دليلٌ عَلَى مبدأ تشجيعِ الْإِنْسَانِ فِي مهمتِه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فهنا التشجيعُ من دون ثلاثةٍ: إبطال الخوف بقوله: ﴿كَلَّا﴾، واستصحاب الدَّليلِ بقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، والعلم بالمدافع وَهُوَ قوله: ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، فكلُّ شيْءٍ يحتاج إِلَى تشجيعٍ، فينبغي للإنْسانِ أن يظهرَ تشجيعَ صاحبِه؛ حَتَّى يَنْشَطَ، ويؤديَ الرِّسالَةَ عَلَى الوجهِ الأكملِ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٦)

• • • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦].

• • • •

قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، وقال قبلها: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء:١٠-١١]، فدلَّ ذلك عَلَى أنَّ القومَ والآلَ إذا أُضيفت إِلَى الشخصِ فإِنَّهُ يدخلُ معَ مَن أُضِيفَ لهم، فقوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، لا يدلُّ عَلَى نجاةِ فِرْعَوْن؛ لقولِه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨]، فهو أَوَّلُهم، وهنا أيضًا ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم قَالَ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ مِمَّا يدلُّ عَلَى أن القومَ إذا أُضيفت فأوَّل ما يدخل فيها مَن أُضيفت له، ما لم يَمْنَعْ مِن ذلك مانعٌ حِسّيّ كمَوْتِهِ مثلًا، فإذا مات لم تَعُدْ توجد فائدة، لكن إذا كَانَ موْجودًا فهو أوَّل مَن يدخل فِي قومه.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يُبيِّنِ اللهُ تعالى صفةَ القولِ، بل بَيَّنَ هنا المَقُولَ، لكنَّه بيَّن فِي آية فِي سُورَة طه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤]، فأمر مُوسَى وهارون بأنْ يقولا: إنهما رسول من اللهِ، وذلك بلهجةٍ ليِّنةٍ لا بِلهجةٍ قاسيةٍ؛ لِأَنَّ القاسيَ إذا قُوبِلَ بلهجةٍ قاسيةٍ قَسَا أكثرَ، فإذا قُوبلَ بلهجةٍ ليِّنةٍ اجتمع ليِّن وقاسٍ، فلا يحصل الصدامُ والاصطدامُ بينهما، وهذا منَ الحكمةِ فِي الدعوةِ، أمَّا الْإِنْسَان إذا كَانَ عاتيًا جبارًا فلا ينبغي أن يُقابَلَ

بالعُتُوِّ والجَبروتِ؛ وذلك لِأَنَّهُ لا يزيد الأمر إلا شدَّة، فيقابل باللين حَتَّى تقوم عليه الحُجَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا﴾ كُلًّا مِنَّا ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، قدّر المُفسِّرُ (كلًّا مِنّا) لأجل التناسُبِ مع المبتدأِ الَّذِي هُوَ اسْم (إن)، والخبر الَّذِي هُوَ رسول: ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]، هكذا بالتثنيةِ، وهنا بالإفرادِ، فخرّج المُفسِّرُ الآيَةَ عَلَى أنّ المَعْنى: كلّ واحد منّا، كما فِي قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، أي: اجعل كلَّ واحدٍ منهم. هَذَا أحدُ الوجوهِ.

وجهٌ آخرُ أنَّ ﴿رَسُولُ﴾ بمَعْنى الرِّسالَةِ، أي بمَعْنى اسْم المصدرِ، والمصدرُ إذا وُصِفَ بِهِ يَستوي فيه المفردُ وغيرُه.

ووجه ثالثٌ أن يُقالَ: إنّ الأَصْل فِي الرِّسالَةِ مُوسَى، وَهُوَ واحدٌ، وهارون مُعِين ووَزير، وإلَّا فالأَصْل أن مُوسَى هُوَ الرسول، كما يوجد فِي آياتٍ كثيرةٍ ذِكْر مُوسَى بدونِ ذِكر هارونَ.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقلْ: «إنا رسول الله»؛ لأنّهما سيقابلان شخصًا يدّعي الربوبيّة وأنه الربّ، فيتبين له من أولِ الأمرِ أنَّ الربوبيّة ليستْ له وإنّما هِيَ لله.

والعالَمون: كل مَن سِوى الله فهو عالم، وكلُّ المخلوقاتِ عالمٌ، ومع ذلك رُبّما تُضاف إِلَى أنواعِها، ويُقال: عالم البشر، عالم الجنّ، عالم الإبل، عالم كَذَا وعالم كذا، لكن إذا جمعتَ هكذا شملتْ جميع أنواعها، فكل مَن سوى الله فَإِنَّهُ عالمٌ، قالوا: وسُمُّوا عالمًا لأنَّهم علَم عَلَى خالقهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك]، قدّر المُفسِّرُ (إليك) للإيضاحِ، وإلّا فلا حاجةَ؛ لأنَّهما يخاطبانِه، فهما ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليه.

فوَائِدُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآية دَليل عَلَى أن القَوْم والأَهْل، وما أشبه ذلك، إذا أُضيفتْ دخل فيها مَن أضيفت له، ونأخذه من قوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ثم قال هنا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ دلّ ذلك عَلَى أن فِرْعَوْن منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي الآية أيضًا دَليل عَلَى أَنَّهُ يَنبغي أن يخاطَب الْإِنْسَان بما تَقتضيه حالُه، فمنكِر الربوبيَّة نخاطبه بإِثْباتِ الربوبيَّة، ومنكِر الألوهيَّة نخاطبه بإِثْبات الألوهيّة؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: ما الَّذِي دلَّنا أن فِرْعَوْن كَانَ يَعتقد بربوبيّة الله؟

فالإجابة: من قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

فَإِنْ قِيلَ: هَؤُلَاءِ قوم فِرْعَوْن؟

فالإجابة: فِرْعَوْن معهم، وقال له أيضًا مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

• • ۞ • •

الآيــة (١٧)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٧].

• ● ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إِلَى الشامِ ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾].

قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الإرسال بمَعْنى الإطلاقِ، يعني: أطلقهم؛ لِأَنَّهُ كَانَ قد ضيّق عليهم الخِناقَ وعَذَّبهم بكونِه يقتلُ أبناءَهُم ويَستحيي نِساءَهم، فاضطرَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يطلبَ منه أن يرسلَ معه بني إِسْرَائِيل، ويُطْلِقهم. وستأتي المناقشةُ بينه وبين مُوسَى فيما بعد إن شاء الله.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٨)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذكر جَوابِ فِرْعَوْن لِمُوسَى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن لمُوسَى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾]، فِي الآيةِ إيجازٌ، والإيجازُ عندَ البلاغِيِّين مُنْقَسِمٌ إِلَى قسمينِ: إيجاز حَذْف، وإيجاز اختصارٍ، والمَوْجود هنا إيجازُ الحذفِ، ولهذا قَالَ: [فأَتَيَاهُ فقالَا لَهُ ما ذُكر ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن لمُوسَى...]، إِلَى آخره.

ومُوسَى لَـمَّا أدّى الرِّسالَةَ هُوَ وأخوه، قال فِرْعَوْن مُجيبًا لهذه الدعوة: [﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ فِي مَنازِلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا قريبًا من الولادة بعد فِطامه]، هَذِهِ واحدة، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: أفبعد هَذَا الأمر تأتي وتدّعي أنك رسول رب العالمين؟! ومَعْنى ذلك أَنَّهُ ينكر ربوبيَّة فِرْعَوْن، فكأنه يقول بعد هَذِهِ الأمور الثلاثة: كَانَ الأليق بك أن تأتيَ معتذِرًا، وأن تأتيَ خاضعًا؛ لأنّنا مَنَنّا عليك، ولأنك أخطأتَ علينا.

والمنّة قَالَ: [﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ فِي منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا قريبًا من الولادة بعد فِطامه]، والقصة معروفة فِي سُورَة القَصَص، أن الله تعالى أوحى إِلَى أُمِّه إذا خافتْ عليه أن تجعله فِي تابوت، وتُلْقِيَه فِي اليَمِّ، وفعلتْ؛ إيمانًا منها بوعدِ الله، ثم قدّر الله

تعالى أنْ وقعَ هَذَا التابوتُ فِي قبضةِ آل فِرْعَوْن فالتقطوه؛ لحكمةٍ يريدها الله عَزَّوَجَلَّ وهم لا يشعرونَ، فلمّا التقطوه أرسلتْ أمُّ مُوسَى أختَه لتقصَّ الخبرَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القَصَص:١١]، عن بُعد، ثم رأتهم يطلبون له مرضعةً، فعرضتْ عليهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢]، فرُد إِلَى أُمِّه، ولم يَرْتَضِعْ ثديَ أُنثى غيرها، وهذا من تمامِ قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووفائه بوعدِهِ، أَنَّهُ ردّه إِلَى أُمه قبلَ أنْ يَتغذَّى بشيْءٍ سِوى لَبنها، وبقِي معها حَتَّى فطَمَتْهُ.

وبحسب الحال سوف يرجع إِلَى آل فِرْعَوْن الَّذين التقطوهُ، فرجع إليهم فنشأ فيهم، وهذا من تمامِ قُدْرَة اللهِ أن يَنْشَأ هَذَا الصبيُّ الَّذِي كَانَ هلاكُ فِرْعَوْن بسببه فِي حجْرِهِ.

وقد قيل: إن فِرْعَوْن كَانَ يُقتّل أبناءَ بني إِسْرَائِيل خوفًا من هَذَا الولدِ؛ لِأَنَّ الكَهَنَة قالوا له: إنه سيظهرُ رجلٌ فِي بني إِسْرَائِيل يكون زوالُ مُلْكِكَ عَلَى يدِه، فصار يقتل أبناءَهم.

هَذِهِ عَلَى كلِّ حالٍ مِن الإِسْرَائيليات الَّتِي لا ندري هل تُصدَّق أم لا؟ إنَّما كونه يقتل الأبناء ويَسْتَحْيي النِّساء هَذَا فِي القُرآن، لكن هل هُوَ إذلال للشَّعب واستعبادٌ لهم، أم خَوْفًا مِن هَذَا الوَلَدِ؟ اللهُ أعلمُ.

على كلِّ حالٍ، تَرَبَّى عندهم فكان يَمُنّ عليه فِرْعَوْن بهذه المِنَّة ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يعني: فكيف تأتي ضِدَّ ما نريدُ، وتدّعي أنَّ لك ربًّا أَرْسَلَكَ، ثانيا: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ -وليسَ سِنينًا؛ لِأَنَّهُ ملحَق بجمعِ المذكَّر السالِمِ-.

وقوله: ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ فِي الأَصْل صِفة للسِّنين، أصلها: لَبِثْتَ فينا سِنينَ مِن عُمُرِكَ، ولكن القاعدة فِي النحوِ أن الصِّفَةَ إذا قُدّمت أُعْرِبَتْ حالًا؛ لِأَنَّ الحالَ

صفةٌ فِي المَعْنى، والصِّفَة للمَعْنى -الذي هُوَ النَّعْت- لا يمكن أن تَتَقَدَّم عَلَى المنعوتِ، لهذا قالوا: إنّ الصِّفَةَ -صفة النكرة- إذا قُدّمت عليها أُعْرِبَتْ حالًا منها، هَذِهِ قاعدةٌ عندَ النحْوِيِّينَ.

قال: ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ هَذِهِ السنونَ ثلاثونَ سنةً، حَسَبَ ما قال المُفسِّر وأكثرُ المُفَسِّرِينَ، ولكن الأَولى أنْ تُبهَم كما أبهمَ اللهُ، لكن هم قَدّروا هَذِهِ الثلاثينَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نُبِّئَ عَلَى رأسِ الأربعينَ عَلَى ما هِيَ عادةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي إرسالِ الرُّسُلِ، فقالوا: إن الثلاثينَ كانتْ عند فِرْعَوْن، ثم إنَّه ذهبَ إِلَى مَدْيَنَ وبَقِيَ فيهم عشْرَ سنواتٍ، ثم أرسلهُ الله.

فمِن هنا صارتِ السنونَ ثلاثينَ، ولكن هَذَا لَيْسَ بلازمٍ؛ لِأَنَّهُ قد يكون تَرَبَّى عند فِرْعَوْن أقلَّ مِن هذا، ثم انضمَّ إِلَى بني إِسْرَائِيل، فلهذا لا ينبغي أنْ نَجزِمَ بأنها ثلاثونَ سنةً، فلنقلْ كما قال الله: ﴿سِنِينَ﴾ وهي جمعٌ، وأقلُّ الجمعِ ثلاثُ سنواتٍ، ولكن يبدو أَنَّهَا أكثر؛ لِأَنَّ الثلاثَ سنواتٍ قد لا تكون بِهَا تلك المِنّة الَّتِي يَمُنّ بِهَا فِرْعَوْن.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَلْبَسُ من ملابس فِرْعَوْن، ويَرْكَب من مَرَاكِبِهِ، وكان يُسَمَّى ابنه]، ولذلك قالتِ امرأة فِرْعَوْن: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص:٩].

فهذا دَليل عَلَى أَنَّهُم اتَّخذوه ولدًا، يعني: عسى أن يَنْفَعنا مُطْلَقًا وإنْ لم يَتَبَنَّهُ أو نَتَّخِذه ولدًا، ومن المعلومِ أن الولدَ سوف يَنْفَع، ولكن الله يقول: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القَصَص:٩] لم يكنِ الأمرُ كما تَوَقَّعُوه، بل كَانَ بالعكسِ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٩)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ]، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ أبهمها تعظيمًا لها، والإبهامُ يأتي للتَّعْظيم أحيانًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢]، وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، هَذَا إبهامٌ يُراد بِهِ التعظيمُ، وهنا قَالَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ ولم يَقُلْ: قَتَلْتَ القِبْطِيَّ؛ إشارةً إِلَى تعظيمها، وأضافها إليه من بابِ التقريرِ، يعني: إنك فعلتَ تلك الفعلةَ الَّتي لم يَفْعَلْهَا سِواك، وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ، الَّذِي كَانَ فِي مشاجرةٍ معَ الإِسْرَائِيليّ.

قال تعالى: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الجُملة حالٌ من الضَّميرِ فِي ﴿فَعَلْتَ﴾.

قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكافرين: لَيْسَ باللهِ؛ لِأَنَّهُ لا يؤمنُ باللهِ، ولكن من الكافرينَ بفِرْعَوْن؛ لِأَنَّ مُوسَى لم يَتَّخِذْهُ إلهًا كما اتَّخَذَهُ الأقباطُ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الجاحدينَ لِنِعْمَتِي عليك بالتربيةِ وعدمِ الاستعبادِ]، فهذا ما ذهبَ إليه الْمُفَسِّر؛ أَنَّ المُرادَ بالكفرِ هنا كفرُ النعمةِ، وذلك جحده لما مَنَّ بِهِ فِرْعَوْن عليه من التربيةِ، وعدم الاستعباد، كما استعبد بني إِسْرَائِيل، ولكن الَّذِي ينبغي أن نقولَ: هِيَ أعمُّ ممَّا قال الْمُفَسِّر، بل كذلك -وهي الأهم عند فِرْعَوْن- أَنَّهُ كفرَ بِعُبُودِيَّتِهِ، فلم يَتَعَبَّد له.

الآية (٢٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: حينئذٍ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عمَّا آتاني اللهُ بَعْدَها مِنَ العِلْم والرِّسالة].

قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ كلمة (إِذًا) للمستقبَل؛ لِأَنَّ أصلَها: (إذا)، فَنُوِّنَتْ، و(حينئذٍ) تكون للماضي، فتفسير الْمُفَسِّر (إِذًا) بـ(حِينَئذٍ) من باب التفسير بالمعنى، لا التفسير باللفْظ؛ إذْ لا يُفسَّر حرف بحرفٍ يقابله فِي المَعْنى، ولكن من باب التفسيرِ بالمَعْنى، يعني: فعلتُها حينئذٍ فعلتُها فيما مَضَى ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وذهب بعضُ المفسِّرين إِلَى أنَّ (إِذًا) عَلَى ما هِيَ عليه جَواب لِفِرْعَوْن كالمتهكِّم به، كأنه يقول (إذن أفعلها) يعني: ولا أُبالي بك، ولكنّي مِنَ الضَّالِّينَ الجاهلين لحُكْم القتلِ. ولعلَّ هَذَا أقرب أن تكونَ: (إِذًا) عَلَى بابها ليستْ بمَعْنى الماضي، وكأنَّ ذلك جَوابٌ لِفِرْعَوْنَ عَلَى سبيلِ الاستهانةِ بِهِ وعدمِ الاكتراثِ، وأنَّه لا يُبالي به.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ جَوابٌ لقولِ فِرْعَوْنَ له: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩]. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقولُ الشارح -أو المفسِّر-: [عمَّا آتاني الله بعدها من العلمِ والرِّسالَةِ]، فيكون الْمُراد بالضَّلالِ هنا الجَهْل. وعلى هَذَا فيكونُ الضَّلالُ يَنْقَسِم إِلَى قِسمينِ:

- ضلال يُذَمّ عليه الفاعلُ أو الضالُّ.
- وضلال لا يُذمّ عليه.

والضَّلالُ الَّذِي حَصَلَ أو الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حينَ قَتْلِه القِبْطِيَّ ضَلالٌ لا يُلام عليه؛ لِأَنَّهُ لم يأتِهِ وحيٌ ولا رسالة حينئذٍ، فهو معذورٌ، ومن هنا نعرِف أَنَّهُ يَصِحّ أنْ نصِفَ المخالفينَ للصوابِ من أهلِ العلمِ بالضَّلالةِ، لكن لا الضَّلال المُطْلَق الَّذِي يُذمّون عليه إذا عُرف أَنَّهُم أهلُ نُصحٍ فِي الإسلامِ، لكن أَخْطَئُوا بعدَ الاجتهادِ.

مثال ذلك: أنَّ كثيرًا من أهلِ العلمِ أَشاعِرَة منَ الَّذين عُرفوا بالإخلاصِ للإسلامِ، وبمَقام الصِّدق فيه، ومعَ ذلك نَصِفُهم بأَنَّهم ضالّون، لكن لا الضَّلال المطلَق الَّذِي يُشمّ منه، أو يُشْعِر بالذمِّ والقَدْح، لكن المُراد مخالفة الصَّوابِ، وإلا سَنَجِدُ مَنْ يُشنِّع إذا قلنا مثلًا: ابنُ حَجَرٍ ضالٌّ، والنَّوَوِيُّ ضالٌّ، وكثير من أكابرِ العلماءِ مُخْطِئُون للصوابِ، أو مُخْطِئُون فيما يقولون، مجانِبُون للصوابِ، لكن لا نقول: لَيسَ الضَّلال المطلَق الَّذِي يُذمُّ عليه الفاعلُ؛ لِأَنَّ الضَّلالَ مع الاجتهاد وتحَرّي الحَقّ لا يُذَمّ عليه المرءُ وإنْ وُصِفَ به.

فائدة: قوله: ﴿إِذًا﴾ فِي جَواب للحالِ باعتبارِ جَوابِه لِفِرْعَوْن. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجُملةُ الحاليَّة حالٌ منَ الفاعلِ ﴿فَعَلْتُهَآ﴾، فـ ﴿إِذًا﴾ لا تكونُ متعلِّقة بـ(فعلتُ)، وتكون متعلقة بجَواب: أُجيبك إذن، ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: باعتبار جَوابِهِ لِفِرْعَوْن، لا باعتبارِ أَنَّهُ فَعَلَها.

فكأنه يُشعر بعدمِ الاكتراثِ وبالتحدِّي لِفِرْعَوْن، وأنه لم يبالِ به. يقول ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والمُراد بالضَّلال: الجهلُ الَّذِي لَيْسَ عن عمْدٍ.

الآية (٢١)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١].

• ● ● •

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾. وسببُ فِرارِهِ منهم أن رجلًا جاءه يسعى وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القَصَص:٢٠]، وهذا الرَّجُلُ مجهولٌ، لكن قَبِلَ مُوسَى خَبَرَهُ لوُجودِ القَرينة؛ وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ، وإلَّا فإنَّهُ ما يُقْبَل خبرُ رجلٍ مجهولٍ. ثم إن هَذَا الرَّجُل أكَّد خبره بقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فخرجَ وفرّ منه خائفًا.

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، (لَـمَّا) ظرفٌ بمَعْنى: (حينَ)، وتُستعمَل عدَّةَ استعمالاتٍ، فتُسْتَعْمَل ظرفًا بمَعْنى: (حين)، وتُسْتعمل بمَعْنى أداةِ استثناءٍ، بمَعْنى: (إلَّا)، وتُستعمَل شرطيَّةً، وتُستعمَل نافيةً، أمَّا استعمالها نافيةً ففي مثل قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٤]، يعني: لم يدخلْ.

وأمَّا استعمالها شرطيَّة ففي مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١]، فهذه الشَّرطيَّة، وأمَّا استعمالها بمَعْنى

(إلَّا) ففي مثلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، يعني: ما كلّ نفس إلَّا عليها حافظ.

وهنا ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ اسْم بمَعْنى: (حين)، فهي ظرفٌ يعني: حين خِفْتُكُم.

وهذا ممَّا يؤيِّد ما سبقَ أنْ أشرنا إليه بأن الكَلِمات تعتبر حقيقةً بِحَسَبِ السياقِ، وأنَّ هَذَا هُوَ مأخَذُ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغة العربيَّة ما يُسَمَّى بالمَجازِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ لَيْسَ أمرًا ذاتيًّا للكلمةِ، بل الكلمة لها مَعْنى بحسَب قِياسها وقرائن أحوالِها.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ عِلمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾].

﴿فَوَهَبَ لِي﴾: أعطاني، قَالَ: [﴿حُكْمًا﴾ عِلمًا]، ولكن تفسير الحُكْم بالعلمِ قد يقول قائلٌ: إنَّ فيه نظرًا؛ لِأَنَّ الله تعالى يَعْطِف بَعْضَها عَلَى بعضٍ؛ كما فِي قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]، والعطفُ يَقْتَضِي المُغَايَرة، وإذا كَانَ كذلك، فَإِنَّهُ لا يمكن أن يفسَّر أحدهما بالآخرِ.

ولننظرْ: هل هَذَا الاعتراضُ صحيحٌ، أم يُقال: إنهما من الألفاظِ الَّتِي إذا اجتمعتِ افترقتْ، وإذا افترقتِ اجتمعتْ، فإذا اجتمعتا تَغَايَرَتَا، وإذا انفردتْ إحداهما صارَ مَعْنى كلٍّ واحدةٍ مَعْنى الأخرى.

قال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الحُكم: القضاءُ بالشَّيْءِ، ويُسمَّى حُكمًا، ولا حكم إلا بعلمٍ، فتفسير الحكمِ بلازِمِهِ، وإذا جمع معَ العلمِ صار العلمُ ضدَّ الجهلِ، والحكم تطبيق ذلك العلمِ، فالذي يَظْهَر أن المُرادَ بالحكمِ هنا أخفّ منَ العلمِ، يعني: الحكم: القضاء، أو ما بِهِ يَقضي الإِنْسَان بينَ النَّاسِ،

ولا يكون ذلك إِلَّا بعلمٍ، فتفسير المُفسِّر له تفسير بلازِمِهِ؛ لِأَنَّ مِن لازِمِ الحكمِ العلم، وليس من لازم العلمِ الحُكْم؛ لِأَنَّهُ قد يَعْلَم ولكنْ لا يَحْكُمُ.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هَذَا بعدَ أنْ أَوحى اللهُ إليه وآتاه منَ العلمِ والحُكم جعله أيضًا مُرْسَلًا وكُلِّفَ بالرِّسالَةِ.

وفي قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقلْ: وجَعَلَني رسولًا، كالتنبيه لِفِرْعَوْن أَنَّهُ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرسُل، وأنه لم يأتِ بأمرٍ جديدٍ، بل إن أمامَه رُسُلًا، وقد ذكر الله تعالى فِي سُورَةِ غَافِرٍ أن الرَّجُل المؤمنَ يقولُ لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر:٣٤]، فكأنَّه يقول له: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الَّذين عندَكَ خَبَرُهُمْ، فلستُ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ.

الآيــة (٢٢)

• ● ◦ ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢].

• ● ◦ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أَصْلُها: تَمُنّ بِهَا عَلَيَّ]، أي: تَجْعَل بِهَا مِنّة عليّ، ولكن حُذف حرفُ الجرِّ وعُدِّي الفعلُ إليها. قَالَ: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أي: تجعلها مِنّة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول: [بيان لـ(تلك)، أي: اتَّخَذْتَهُمْ عَبيدًا]، وإذا كانتْ بيانًا لـ(تلك) فتكون (أنْ) تفسيريَّة، تفسير لاسْم الإشارة فِي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ أي: حين عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل جعلتَ تَربيتي عندكَ وليدَ النعمةِ، وفي الحَقِيقَة هَذَا لَيس بنعمةٍ؛ لِأَنَّ كَوْن الْإِنْسَان لا يقتلُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ يقتلُ غيرَه عُدوانًا لَيْسَ بنعمةٍ؛ لِأَنَّ أصلَ قتلِ أولئكَ ظُلْمٌ وجَوْرٌ، فكونه لا يقتلُ هَذَا الرَّجُلَ لَيسَ نعمةً.

وغايةُ ما هنالكَ أَنَّهُ لم يَظْلِمْهُ، فهو لنْ يدفعَ عنه ضررًا نازلًا بِهِ من غيرِه، ولم يَجْلِبْ إليه نفعًا. فمُوسَى يقول: كيف تَمُنُّ عليّ بهذه النعمةِ أنْ عَبَّدْتَ بني إِسْرَائِيل، يعني: ولم تَسْتَعْبِدْنِي، فهذه ليستْ نعمةً؛ لِأَنَّ كون الْإِنْسَان لا يظلمُ هَذَا الرَّجُلَ ويظلمُ ذاك، فهذا لَيْسَ نعمةً عَلَى مَن لم يُظْلَمْ؛ إذ لم يُسْدِ إليه نفعًا، ولم يَدْفَعْ عنه ضررًا، غايةُ ما هنالك أَنَّهُ امتنعَ عن ظُلْمِهِ.

وفي الواقع امتناعُه عن ظُلمِهِ نعمةٌ عَلَى نفسِ الظالمِ؛ أن الله تعالى أنعمَ عليه

فمَنَعَهُ مِن ظُلْم هَذَا الرَّجُلِ، ولهذا يقول المُفسِّر: [﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم تَسْتَعْبِدْنِي، لا نعمةَ لك بذلكَ لِظُلْمِكَ باستعبادهم]، فأنت ما أعطيتني منّةً جديدة ونعمةً جديدةً حَتَّى تمُنّ بها، فهو يُنكر عليه، ولهذا يقول المُفسِّر: [وقدَّر بعضُهم أوَّل الكَلام همزةَ استفهامٍ للإنكارِ]، يقول: كيف تمنُّ عليّ بهذا الشَّيْء؛ بأنك عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل، هَذَا لَيْسَ بنعمةٍ.

ففِرْعَوْن يراها نعمةً، قَالَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فهو جعل هَذِهِ مِنَ النِّعم.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كونك عَبَّدْتَهم، أي: جَعَلْتَهم عبيدًا لكَ، ووجهُ الاستعبادِ أَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- كَانَ يقتّل الرِّجالَ، فتبقى النِّساء بدون قيِّمٍ، والمرأةُ إذا بَقِيَتْ بدون قيِّم تضطرُّ إِلَى أن تَخْدُمَ، ولهذا قال العلماءُ: إنه كَانَ يستخدِم النِّساء فيُبْقِيهِنَّ بالضرورة، وإذا لم يكن لهنّ قيِّم سوف يَلْجأْنَ إِلَى الأقباطِ لاستخدامهنَّ.

وسبقَ أن قال مُوسَى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠]، ثم قَالَ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١]، فكأنه يقول: أنتم لم تألوا جُهْدًا فِي معاقبتي، ولكنَّني فَرَرْتُ منكم فلم تُدْرِكُوني فنجوتُ، فالعُقوبة نجوتُ منها بالفرارِ، والجهلُ تَنَزَّهْتُ منه بالرِّسالَةِ.

فكأنه يقول: تَرْك الظلمِ بالنِّسبةِ إِلَيّ لا يُعَدُّ نعمةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان لَيْسَ مُسْتَحِقًّا له حَتَّى نقول: إنه عَفَا عنه وتركه، فهذا ما صار عليه المُفسِّرُ، لكن هناك احتمالٌ آخرُ، فالإساءة إِلَى قومه إساءةٌ له، فكأَنَّه يؤكِّد نفيَ النعمةِ، يعني: أين النعمة وأنت قد

عبّدت بني إِسْرَائِيل وهم قومي، فإذا قُدّر أنّي سلِمتُ منَ التَّعبيد والظُّلم، فأنا فَرْدٌ من قبيلةٍ وقومي قد عبَّدتَهم، فأين النعمة؟!

وقوله: [قدَّر بعضهم أوَّل الكَلام همزةً]، لَيْسَ ببعيدٍ أَنَّهُ قَالَ: أوَتلك نعمةٌ تَمُنّها عليَّ أنْ عَبَّدْتَ بني إِسْرَائِيل. يعني: فليس لك عليّ نعمة.

و(أنْ) تبين المبهَم فِي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فكأنه يقول: تَمُنّ عليّ بهذه النعمةِ حينَ عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل، يعني: ولم تَسْتَعْبِدْهُمْ، هَذَا هُوَ المَعْنى.

ولولا أنَّ هَذَا المَعْنى ظاهرٌ لَقُلنا: إن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَرف نعمتَه عليه كالمتهكِّم به، يعني: يقول: أين النعمة الَّتِي أنعمتَ بِهَا عليّ وأنتَ تُعَبِّد بني إِسْرَائِيل؛ لِأَنَّ تعبيدَ بني إِسْرَائِيل خلافُ النعمةِ فِي الواقع، ومنَ المعلومِ أن مُوسَى مِن بني إِسْرَائِيل، فتعبيدُ بني إِسْرَائِيل -وهم قومُه- إذلالٌ له، وهذا مَعْنى جيِّد فِي الحَقِيقَةِ، نقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني: كيف تمنّ عليّ بهذه النعمةِ وأنت تعبِّد بني إِسْرَائِيل، ويكون هَذَا من بابِ ما يُسَمُّونه بـ(تأكيد الذمّ بما يُشْبِه المَدْحَ)، وحينئذٍ تكون ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تفسيرًا لـ(تِلْكَ)، يعني: أهذه النعمة الَّتِي تَمُنُّها عليّ أنْ تُعبِّد بني إِسْرَائِيل، فأين النعمة؟! فهذا مَعْنى جيِّد.

• • ۞ • •

الآيتان (٢٣، ٢٤)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِمُوسَى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الَّذِي قلت: إنَّك رسوله؟ أي: أيُّ شيْءٍ هو؟ ولَـمَّا لم يكنْ سَبيل للخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقيقتِهِ تعالى، وإِنَّما يَعْرِفُونه بصفاتِهِ، أجابه مُوسَى ببعضِها ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾].

هذا الكَلام الَّذِي قاله المُفَسِّر فِي تفسيرِ الجُملةِ بعيدٌ منَ الصَّوابِ كلَّ البُعْدِ؛ قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من المعروف أن (مَا) يُستفهم بِهَا عن الحَقِيقَةِ، فتقول: ما الذهَب؟ يُقال مثلًا: هُوَ مَعْدِنٌ نَفيس.. إِلَى آخره، تقول مثلًا: ما العِلم؟ تقول: إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عليه إدراكًا جازمًا، فـ(ما) يُسْتَفْهَم بِهَا فِي الأَصْلِ عنِ الحَقِيقَةِ.

ويدّعي المُفَسِّر أنَّ فِرْعَوْن استفهمَ عن ذلك -عن الحَقِيقَة- ولكنَّه لَيْسَ كذلكَ، ففِرْعَوْن استفهمَ عن هَذِهِ الربوبيَّة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فما هَذِهِ الربوبيَّة الَّتِي زعمتَ أنَّ الله تعالى أرسلكَ وَهُوَ ربُّ العالمين؟!

لأننا لو قلنا: إنَّه يَسْتَفْهِم عن حقيقةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَلَزِمَ منْ ذلك أن يكونَ قد أقرَّ به، وَهُوَ لم يُقِرَّ بِهِ حَتَّى يسأل عن حقيقةِ هَذَا الربِّ، وإِنَّما يُنْكِر الربَّ أصلًا،

فالاسْتِفهام للإنكارِ: أيّ شيْءٍ هُوَ ربُّ العالمينَ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ أرسلكَ؟! يعني: لَيْسَ هناك ربٌّ، فالتفسيرُ الَّذِي ذهبَ إليه المُفسِّرُ بِناءً عَلَى ما هُوَ معروفٌ مِن أنَّ (ما) -وهو عندَ المناطِقِ أيضًا، لَيْسَ معروفًا فِي اللُّغةِ العربيَّة، بل عند أهل المنطِقِ- يُسْتَفْهَم بِهَا عن كُنْهِ الشَّيْءِ وحَقِيقَتِه، فقال: إن فِرْعَوْن يَستفهِم عن كُنه الخالِقِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحقيقته، ولكن مُوسَى لَـمَّا لم يمكنْ أن يجيبَ عن ذلك، عَدَلَ إِلَى بيانِ صفةٍ من صفاتِهِ، فيكون الجَواب من مُوسَى غيرَ مُطابِقٍ للسُّؤالِ، ويُسَمَّى هَذَا بأسلوبِ الحكيمِ، أن يُجابَ السائلُ بغيرِ ما يَتوقَّع.

ولكن ما قاله وما ذهبَ إليه لَيْسَ بصحيحٍ، كما أنكره ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي تفسيره[1]، وقال: إن هَذَا معناه إقرار فِرْعَوْنَ باللهِ، لكن يسأل عن حقيقةِ هَذَا الإلهِ، فالصَّوابُ أنَّ مُوسَى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أجابَهُ بجَوابٍ مطابِقٍ للسُّؤالِ، وأنَّ فِرْعَوْن يسأَلُ عن هَذِهِ الربوبيَّة الَّتِي زعمَ مُوسَى أَنَّهُ مُرسَل من ربِّ العالمينَ فقال ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! أيّ شيْءٍ ربُّ العالمينَ الَّذِي أرسلكَ؟! وليس معناه: أي شيْء هُوَ مادتُه.

والجَواب: [﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالِق ذلك]، ولا يكفي أن يفسَّر بالخالق، بل خالق ذلك ومدبِّره، والمتصرِّف فيه؛ لِأَنَّ الربَّ لا يَكفي أن يكونَ خالقًا، بل لا بدَّ مِن خَلْقٍ وتدبيرٍ وتصرُّفٍ.

قال: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وليست ربوبية فِرْعَوْن كهذه الربوبيَّة؟ وفِرْعَوْن يدخل فِي ذلك؛ لِأَنَّ الله ربُّه، لِأَنَّهُ لا يخرجُ عنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فهو فِي الأرضِ، وكأنه أيضًا أجاب بهذا إشارةً إِلَى إبطالِ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْن؛

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٣٨) ط. دار طيبة.

لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لا خَلَق سماواتٍ ولا أرضًا، ولا ما بينهما، فالذي يَسْتَحِقّ الربوبيَّة هُوَ الله.

ويَنبغي الوقوف: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ثم يُقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فالأمرُ بيِّنٌ.

ولهذا المُفسِّر قدّر الجَواب، وقال: [﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى خالِقُه فآمِنوا بِهِ وحدَه].

وإنَّما قلنا: إنها لا تَعلّق لها بما قبلُ؛ لِأَنَّهُ لو تَعَلَّقَتْ بها قبلها لكانَ مَعْنى أَنَّهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ إنْ أَيْقَنُوا بذلك وإلَّا فليس ربَّ السماواتِ والأرضِ، وهذا الكَلامُ لا يَستقيمُ.

والتَّقدير: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ -أي: من ذوي الإيقانِ- فأَيْقِنُوا بذلك؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يَقْدِر عَلَى خَلْق السماواتِ والأرضِ، فـ(إنْ) هنا شرطيَّة، وجَوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وقدَّرَ المُفسِّر: (فآمنوا بِهِ وحدَه). و(آمنوا) و(أيقنوا) معناهما واحد.

الآيـة (٢٥)

• • ○ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥].

• • ○ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِن أشرافِ قومِه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جَوابَه الَّذِي لم يُطابِقِ السُّؤالَ]، وهذا غريب! فالاسْتِفهامُ هنا للتهكُّم بلا شكٍّ، يعني: أَلَا تَستمعونَ إِلَى هَذَا الَّذِي زَعَمَ أنّ ربَّ العالَمِينَ ربُّ السماواتِ والأرضِ، والواقع -على حَسَب زَعْمِه- أنّ ربّ العالمينَ هُوَ فِرْعَوْن، فهو يَتَهَكَّم به، يقول: استمعوا إِلَى هَذَا يقول: إن ربَّ العالمينَ ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بَينَهما. فيكون عَلَى هَذَا خاطئًا فِي تَهَكُّمِهِ، وقصدُه بهذا حقيقةَ التهويلِ، وتحطيمُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبيانُ أنَّ ما جاء بِهِ لَيْسَ بصوابٍ، أمَّا عَلَى رأيِ الْمُفسِّر فجَوابُه لم يُطابِقِ السُّؤالَ، ولو كَانَ الأمرُ كذلك لكانَ فِرْعَوْن مُحِقًّا فِي اعتراضِهِ؛ لِأَنَّ كلَّ أحدٍ إذا عرفَ أن الْإِنْسَان أجابَ بغيرِ ما سُئِل عنه فمَعْنى ذلك أَنَّهُ مُنْقَطِع عن الحُجَّة، وعاجزٌ عن دَفعها، فهذا من أبعد ما يكون.

ونحن نقولُ للمؤلِّف ولغيرِ الْمُفسِّر مِمَّن نَشَأَ عَلَى طريقته: إنّ جَوابَ مُوسَى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مطابِقٌ للسُّؤالِ، وإن فِرْعَوْنَ لم يسأل عن حقيقةِ وكُنْهِ الخالِقِ أبدًا، ولا دارَ فِي فِكْرِهِ هذا، ولا يبالي بِهِ مِن أيِّ شيْءٍ هو.

فلهذا نقول: إن الجَوابَ مطابِق للسُّؤالِ، و﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ الاسْتِفهامُ للتهكُّمِ؛

لِأَنَّ مُوسَى أَتَى بأمرٍ بعيدٍ عمَّا يريده فِرْعَوْن، ففِرْعَوْن الَّذِي يقول: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يريدُ مِن مُوسَى أن يقول: ربُّ العالمينَ فِرْعَوْن، ولكنه قَالَ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ثم أيضًا اسْتَبْلَهَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يعني: إن كنتُم من ذوي الإيقانِ والعلمِ فأيقِنوا بذلك.

والاسْتِفهامُ هنا فِي ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ فِي هَذَا المقام لا شكَّ أَنَّهُ سَيَصْدُرُ مِن مثلِ فِرْعَوْن، حيث يَتَهَكَّم بمُوسَى الَّذِي جاء بالحَقِيقَةِ ولا يستطيعُ فِرْعَوْن أنْ يَدْفَعَها.

• • ❁ • •

الآيــة (٢٦)

• ● ● •

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا وإنْ كَانَ داخلًا فيما قبلَه يَغِيظُ فِرْعَوْن].

مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسلوبه أسلوبٌ حكيمٌ: أتى أوَّلًا بالربوبيَّة العامَّة للسماوات والأرضِ وما بينهما، ثم أتى للربوبيَّة الخاصَّة لِفِرْعَوْنَ الَّذِي يَدَّعي أَنَّهُ ربُّه، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، إشارة إِلَى أنكم أنتم أتيتم مِن آبائكم، ومَن أَتَى مِن أبٍ فكيفَ يُمْكِن أنْ يكونَ رَبًّا؟! هُوَ مخلوقٌ مِن نُطْفَةٍ.

فكأنه يقول: ارْجِعُوا إِلَى أَصْلِكُم، فالله تعالى ربُّكم أنتم الَّذين تَدَّعُونَ أَنَّكم أربابٌ وربُّ آبائكم الأوَّلين الَّذين أتيتم منهم، فيذكّرهم بأصلِهم؛ لِيَذْكُروا أَنَّهم كانوا محدَثين، وأنَّهم لا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يكونوا أربابًا، وهذا مِن حُسن الجَوابِ، وفي الحَقِيقَةِ كلُّ جَوابٍ يقوله مُوسَى فهو حُجَّةٌ قاطعةٌ تَدْمَغُهم، ولكن -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- مَن لم يُوَفَّقْ بالحقِّ فَإِنَّهُ لا يَنْتَفِع بِهِ ويَسْتَكْبِر عنه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا وإنْ كَانَ داخلًا فيما قبلَه يَغيظ فِرْعَوْن]، وفي الحَقِيقَة هَذَا كَلامٌ لَيِّن من المُفسِّر، ولو قَالَ: هَذَا أيضًا إقامة حُجَّة أُخرى عَلَى فِرْعَوْن أَنَّهُم مَرْبُوبُونَ، وأنَّهم مخلوقونَ من أصلابِ آبائهم

الأوَّلين، ومَن كَانَ كذلك مولـودًا فلا يَسْتَحِقّ أنْ يكـونَ ربًّا وإلـهًا -اللهُ أكبرُ- لو قال ذلك لكان أَولى، فالرُّسُلُ يعانون من أقوامهم شَيئًا كثيرًا.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧].

(إنّ) للتَّوكيد، و(لَمَجْنُونٌ) اللام أيضًا للتَّوكيدِ، فأكّد جنون مُوسَى بأمرينِ؛ بـ(إنّ) واللام، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ منَ التهكُّم ما هُوَ غيرُ خفيٍّ، يَتَهَكَّم بِهِ لِأَنَّهُ يُنْكِر رسالتَه وينكر ربوبيَّة ما أرسله، فهذا من بابِ التهكُّم به، ثم إنه لم يُضِفْهُ إِلَى نفسِهِ تكبُّرًا، فما قَالَ: إن الرسول الَّذِي أرسلَ إلينا أو إن رسولنا، قَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾، وهذا عُلُوٌّ منه وتكبُّر وتهكُّم بمُوسَى.

فالعلوُّ والتكبُّرُ والترفُّعُ حيث أضافه إليهم، فكأنَّه هُوَ فِي شأنٍ أعلَى مِن أنْ يُرسَل إليه ولا عَلَى سبيلِ التهكُّم، ثم إنَّ إضافةَ الرِّسالَةِ إليهم وَهُوَ ينكِر ذلك تهكُّمٌ بمُوسَى ظاهرٌ، فقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ولم يقلْ: أرسله ربُّ العالمينَ، مع أن مُوسَى قَالَ: إنِّي رسول ربِّ العالمينَ؛ لِأَنَّهُ ما سَمَحَ لنفسِه أن يصفَ اللهَ تعالى بالربوبيَّة ولا عَلَى سبيلِ التهكُّم.

وقوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ المجنونُ: فاقدُ العقلِ، وهذا دَأْبُ جَميعِ الَّذين كذّبوا الرُّسُلَ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، يقولـون: ساحر أو مجنون، و(أو) هَذِهِ مانعةُ خُلُـوّ وليستْ مانعةَ جمعٍ؛ لأنَّهم قد يقولون: ساحرٌ فقط، أو مجنونٌ فقطْ، أو ساحرٌ ومجنونٌ، وهذا ما وَقَعَ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما سيأتي قريبًا إن شاء الله.

الآية (٢٨)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾]، يعني: هُوَ ربُّ المشرق والمغربِ، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ الْمُراد منه الجِهة فقط، ولكن الْمُراد الجِهَة وما يَحْدُثُ فيها مِن شُروقِ الشَّمْسِ والقمرِ والنجومِ، وما إليها.

قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وهذا كقولِ إِبْرَاهِيم للذي حَاجَّه، قال إِبْرَاهِيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فكأنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عدَلَ إِلَى أمرٍ ظاهرٍ بيِّن لا يُمْكِن المماراةُ فيه أبدًا؛ قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ والذي بينهما وما يحدُث مِنَ السَّحاب والرِّياح وغيرِ ذلك، فهذا أمرٌ لا أحدَ يُنْكِره، ولهذا قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الأمرَ ظاهرٌ للعقلاءِ.

ثم فِي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعريضٌ لهم كَرَدٍّ عَلَى قولهم: إنَّ رَسولَكم لمجنونٌ، كأنه يقول: المجنونُ مَن يُنْكِر هَذِهِ الأشياءَ.

ولهذا قَالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من ظهورِ القوَّة مِن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنه لم يَكْتَرِثْ بهم، فهو رجلٌ وحدَه أمامَ جبّار عَنيد، وهذا

كَلامٌ مُزْعِج فِي الواقعِ أنْ يقوله الْإِنْسَانُ لِمَن كَانَ نِدًّا له، ولكن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا قَالَ اللهُ له فِي الأَوَّل: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]، كَانَ واثقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وموقنًا بأنَّه لن يَضُرَّهُ فِرْعَوْن، والأمرُ كذلك.

الشَّاهدُ أن المشرقَ والمغربَ وما بينهما لظهورِ الآياتِ فيهما؛ قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فهذا من وجهٍ.

ثانيًا: أراد أن يقابل قول فِرْعَوْن: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧]، فكأنه يقول: المجنون مَن لم يستدلَّ بهذه الآيات عَلَى الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّهُ كذلك فآمنوا بِهِ وحده]، مثلما قال المُفسِّر فيما سبق: [﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقه فَآمِنُوا بِهِ وَحْده].

الآية (٢٩)

• • • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾]، بعد أنِ انقطعَ بِهِ سُلطانُ الحُجَّة والبُرهان عدَلَ إِلَى سلطانِ القوَّةِ والتهديدِ؛ فهكذا العاجزُ عن ردِّ الحجةِ بالحجةِ يَعْمِد إِلَى القوةِ إذا كَانَ له سلطانٌ، وهذا له سلطانٌ عَلَى مُوسَى، ولهذا هَدَّدَهُ بقولِهِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ لم يقلْ: لَئِنْ دَعَوْتَ إِلَى اللهِ فقطْ، يعني: يريد منه أن يَمْتَنِع عنِ الدعوةِ إِلَى اللهِ بالأولى، وأن لا يَتَّخِذَ إلهًا سواه، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ فِرْعَوْن كَانَ ينكرُ أن يكون هناك ربٌّ سواه، وأن قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، صفة كاشفةٌ وليستْ صفةً مُقَيِّدَةً؛ لِأَنَّهُ لا يَعْتَقِد أن هناك ربًّا سِواهُ.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ فيه شيئانِ يحتاجانِ إِلَى جوابٍ: الشَّرطُ والقَسَم، والمَوْجودُ هنا جَوابُ القسمِ وليسَ جَوابَ الشَّرطِ؛ فكلمة ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ ليستْ جَوابَ شرطٍ، بل جَواب قَسَم، ولهذا أُكِّدَتْ بالنونِ واللامِ، فهي جوابُ قَسَمٍ، وهذه هِيَ القاعدة؛ يقول مالك[1]:

---

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وهنا اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ: الشَّرط (إنْ)، والقسم (والله) المحذوف، يقول: «احذِف لَدَى اجتماعِ شرطٍ وقسمٍ جَوابَ ما أخرت» والمؤخَّر هُوَ الشَّرط، فيكون الجَواب المَوْجود للقسمِ، وَهُوَ كذلك.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ (إلَهًا) بمَعْنى: مألوهٍ، أي: معبود، والمُراد بالمعبودِ هنا المعبودُ الَّذِي يَستحِقّ أن يُعْبَد، وذلك لربوبيَّتِهِ، فهو يعتقد أَنَّهُ الرب، فيجب أن يكون هُوَ الإله الَّذِي يُعْبَد.

قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ انظر: ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقلْ: لَأَسجنَّنك، كما قال الله تعالى فِي قصة يُوسُف: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ [يوسف:٣٥]، بل قَالَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ زيادة فِي تهديدِ مُوسَى، كأنه يقول: إن هناك سُجَناء، وأنا قادرٌ عَلَى سجنِ النَّاسِ، فإذا لم تَتَّخِذْنِي إلهًا واتخذتَ إلهًا غيري، جعلتُكَ فِي جملةِ هَؤُلَاءِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ كَانَ سِجْنُه شديدًا؛ يَحْبِسُ الشخصَ فِي مكانٍ تحتَ الأرضِ وحدَه، لا يُبْصِر ولا يَسْمَع فيه أحدًا]. وهذا لَيْسَ شديدًا بما نَعْرِفُ من السجونِ، فهي أشدُّ من هَذَا بكثيرٍ، وفِرْعَوْن إنَّما قَالَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أما كيف يَسْجُنُهُ فالآيةُ لم تَتَعَرَّضْ له، وأيضًا إذا كَانَ معروفًا أَنَّ سَجْنَهُ بهذه الكيفيَّة فهذا السِّجْنُ لَيْسَ شديدًا، بل فِي السُّجُون مِنَ التعذيبِ ما هُوَ أشدُّ، فنسمع أَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- يُؤْتَى بالشخصِ ويُجْعَل فِي مِثْل برميل، وفيه مساميرُ وتحته نارٌ، فهذا الرَّجُلُ لا يستطيع أنْ يَجْلِس؛ إن جلسَ خَرَقَتْهُ المساميرُ، وإنِ اتَّكَأَ عَلَى أحدِ الجُدران كذلك، فهذا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- من الأساليب الَّتِي يَفْعَلُونها.

ونسمع أيضًا أَنَّهُ من الأساليب أَنَّهُم يجوّعون السِّبَاع الضارِيَةَ ثم يرسلونها عَلَى السجناءِ تَنْهَشُهُم، ولا يستطيعون الدفاعَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عندهم القُدْرَة، مثلما فعل الحَجَّاج بِجَحْدَرِ بنِ مالِكٍ، فَإِنَّهُ كَانَ منَ الخوارِجِ، فقَبَضَه، وكان شُجاعًا جِدًّا، فلمّا قَبَضَه حَبَسَه وأتى به، وقال: إنّا مُلْقُوك إِلَى الأسدِ، وإنّا سنقيِّد يَدَكَ، وأنت وشأنك، فأتى بأسدٍ فأجاعه ثلاثة أيامٍ، ثم قال له جَحْدَر: أَعطِني سيفًا، وشُدَّ إِحدى يَدَيَّ، فأعطاه السيفَ وشدّ إحدى يديه، ثم ألقاه إِلَى الأسد والأسد جائعٌ ثلاثةَ أيامٍ لم يأكلْ، يقولون فِي ترجمته: فلمّا وثبَ عليه الأسدُ ضَرَبَه فِي نَحْرِهِ بالسيفِ بيدٍ واحدةٍ، فخرَّ الأسدُ صَريعًا، فأطلقه الحجاجُ؛ لقوتِه وشجاعته[1]. فهذه الأساليبُ أيضًا مِمَّا يَعْمِدُ إليه أهلُ الظلمِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- بالسجناءِ.

والمهمُّ أنَّ الآيَةَ الكريمةَ لَيْسَ فيها ذِكْر ما يُفعل بمُوسَى، إنَّما فيها أَنَّهُ سيكونُ مِنَ المسجونينَ؛ أي من جملةِ مَن يُسْجَن.

• ● ۞ ● •

---

(١) تاريخ دمشق (١٢٢/ ١٤٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٤٥) ط إحياء التراث.

الآيات (٣٠- ٣٥)

• • ✿ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٠-٣٥].

• • ✿ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ له مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ﴾ أي: أَتَفْعَل ذلك ولو ﴿جِئْتُكَ﴾]، إذا اقترنتْ همزةُ الاسْتِفهامِ بالعاطِفِ فإمَّا أن تقدّر بعدها جملةً يعطف عليها ما بعد الهمزة، أو تقدَّر الهمزة متأخرةً بعد حرفِ العطفِ، وجهانِ لأهلِ العلمِ، والوجهُ الأخير أسهلُ؛ لِأَنَّ الأول -كما يمر بك- قد لا يمكنُ فيه التَّقديرُ، وأما هَذَا فتقول: الهمزة للاستفهامِ، وهي مقدَّمة، والواو حرفُ عطفٍ، وَهُوَ مقدَّم حُكمًا، مؤخَّرٌ لَفظًا، والجُملة معطوفةٌ.

أَمَّا عَلَى ما ذهبَ إليه المُفسِّرُ هنا فَإِنَّهُ جعل الهمزةَ داخلةً عَلَى شيْءٍ محذوفٍ: [أتفعل ذلك ولو ﴿جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾]، كأن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال له: عَلَى رِسلكَ، لا تَسْجُنِّي، فأنا ما جئتُ بباطلٍ وسأُقيم البرهانَ عَلَى ما أتيتُ به: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن لُطْفِ الله أنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، وكان مُقْتَضَى جبَرُوتِهِ وطُغْيَانِهِ

أن يقولَ: ولو جِئْتَنِي بشيْءٍ مُبِينٍ إنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ، ولكن القلوب بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فألَانَ اللهُ قلبَ هَذَا الرَّجُلِ المتكبِّر الجبَّار لِمُوسَى حين قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا اللِّين قد يكون له سبب حِسِّيٌّ، فهو لِئَلَّا يَنْقَطِعَ أمامَ المَلَأِ الَّذين عنده؛ لِأَنَّ مُوسَى إذا عرضَ عليهم خطَّة الرُّشْد ثم تَعَسَّف، وقال: ولو جِئْتَنِي بهذا، فربَّما حينئذٍ يَظْهَرُ أمامَ مَلَئِهِ أَنَّهُ مُعانِدٌ وأنه منقطِع، فقال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

ثم إنه أيضًا قد يكونُ ممَّا حَمَلَه عَلَى ذلك أَنَّهُ أرادَ أن يأتيَ بِهِ ليكونَ إبطالُه أو دَعْوَى بُطْلانِهِ عَلَى يَدِهِ؛ لِأَنَّهُ ربَّما يأتي بِهِ مُوسَى فِي مكانٍ آخرَ فيغترّ بِهِ النَّاس -على زَعْمِه- فأراد أن يأتيَ بِهِ أمامَه؛ لِيَتَمَكَّنَ مِن دَعْوَى بُطلانِهِ.

نقول: ووجهُ التليين -أو أن الله ألانَه له- أَنَّهُ ما قَالَ: لا تأتِ بشيْءٍ وسَأَسْجُنك ولو لم تأتِ؛ فقد عَرَضَ عليه أَنَّهُ يأتِي بشيْءٍ مُحْتَمَلٌ أنْ يأتيَ به، ولكن فِرْعَوْن لَانَ بعضَ الشَّيْءِ للأسْبابِ الَّتِي ذكرناها:

أولًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألانَه، واللهُ عَلَى كل شيْء قديرٌ.

ثانيًا: الأسْباب الحِسّيّة لأجلِ ألّا يُقال: إن حُجَّته انقطعتْ، وإنّ الرَّجُل عرَض عليه خطّة رُشْد فأَبَاها.

ثالثًا: لأجلِ أنْ يكونَ إبطالُ ما يأتي بِهِ مُوسَى عَلَى يدِهِ حَتَّى يُبينَ، وأنه أراد أن يتحدّاه، وإنْ كَانَ هَذَا ما يَمْنَع أن يقول: لا تأتِ به؛ لِأَنَّهُ هُوَ قادرٌ عَلَى أن يقولَ: لا تأتِ بِهِ بدون أن يتحدّاه؛ لِأَنَّ تحديَه له فيه احتمالٌ أنْ يأتيَ به، وحينئذ تَنْقَطِع حُجَّة فِرْعَوْن.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ بُرهان بيِّن عَلَى رِسالتي]، شيْء: فَسَّرَهُ المُفسِّرُ بِبُرْهانٍ، (مُبِينٍ): بِـ(بيِّن)، إذنْ فهي من (أبان) اللازِم؛ لأننا نقول: أبانَ بمَعْنى أظهرَ مُتَعَدٍّ، وأبانَ بمَعْنى بانَ.

وقوله: [بيِّن عَلَى رِسالتي]، المُفسِّر قيَّدها بقولِهِ: (على رِسالتي) والأَوْلى أن يُقالَ: إنها أعمُّ مِن ذلكَ؛ عَلَى كلِّ ما قلتَ من الرِّسالَةِ، ومن وصفِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، و﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، و﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ولكن كَلام المُفسِّر لا يأباهُ إذا قلنا: إن المُرادَ بالرِّسالَةِ كلّ ما جاء بِهِ مُوسَى.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾]، أي: بهذا الشَّيْءِ المُبين [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه].

والجُملةُ الشَّرطيَّة موصولةٌ فيما قبلها وليستْ منقطِعةً، يعني: إن كنتَ منَ الصادقينَ فأتِ به، وفي مثلِ هَذَا التركيبِ يقول بعضُ النَّحْويين: إنه لا حاجةَ إِلَى جَوابِ الشَّرطِ؛ لِدَلالةِ ما قبلَه عليه، وبعضهم يقول: إن جَوابَ الشَّرطِ محذوفٌ، ودلّ عليه ما قبلَه، ولا أعلمُ أن أحدًا قَالَ: إن جَوابَ الشَّرطِ ما سبقَ؛ وذلك لِأَنَّ جَوابَ الشَّرطِ لا يَتَقَدَّم عَلَى العاملِ، ولكن الصَّحيح الأَوَّل: أنَّ التركيبَ فِي مثلِ هَذَا لا يحتاجُ إِلَى جَوابٍ، والفرقُ بينَ هَذَا وبينَ الَّذِي بعدَه أن الَّذِي بعده يقول: يجبُ أنْ يقدَّر الجَواب، ولكنه حُذِف للعلم به، ونحن نقول: إنَّ ما عُلِم فلا يحتاجُ إِلَى جَوابٍ إطلاقًا، فهذا هُوَ الصَّحيحُ، ومثلُ هَذَا يقعُ أيضًا فِي القَسَم.

وقوله: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ذَكَرْنا أنَّ هَذَا الخُضُوعَ من فِرْعَوْن يَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ، ومنها أن الله ألانَ قلبَه، فقد تحدَّاه بقولِهِ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، مع أَنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ هَذَا التحدي لولا أَنَّ اللهَ ألانه لكانَ ما تَحَدَّاه به؛ إذ مِنَ الجائزِ أن يقولَ له: لا تأتِ به، ومنَ الجائزِ بعدَ أَنْ تَحَدَّاهُ أَنْ يأتيَ بِهِ مُوسَى، فيكون كذلك حُجَّة عَلَى فِرْعَوْنَ.

فأتى بالآيتينِ العظيمتينِ، وهما آيةُ العصا، وآية اليَدِ، وقابَلَهُما فِرْعَوْن بمثلِ ما قابلَ بِهِ أَوَّلًا، وَهُوَ التمويهُ، وادّعاءُ السِّحْر، وأنه ساحرٌ عَليمٌ جيِّدٌ فِي سِحْرِهِ. ثم قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٥]، ما قَالَ: أَنْ يُخْرِجَنِي مثلًا، أو أَنْ يُخْرِجَنا؛ تَرَفُّعًا وتعظُّمًا أن يبدوَ أمامَ مُوسَى بِمَظْهَرِ الضعفِ الَّذي يهدِّد، ولكنه خاطبَ بِهِ قومَه.

ثم قَالَ: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾؛ تهييجًا لهم؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لا شكّ أَنَّهُ لا يمكّن أحدًا لِيُخْرِجَهُ مِن أرضِهِ، ولهذا قَالَ: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ولم يقلْ: من أرضِ مِصْرَ، ولا: منَ الأرضِ؛ تهييجًا لهم عَلَى مقابلةِ مُوسَى بما يقابلونه به، ولأجلِ أن يَكْرَهوا مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويَرَوْا أَنَّهُ عدوٌّ مُسْتَعْمِرٌ.

وقوله: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ الباء للسببيَّة، أي: بسببِ سِحره، وفِرْعَوْن هنا قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، والمَلَأُ ما قالوا: (بِسِحْرِه)، أما هُوَ فقال: (بِسِحْرِهِ)؛ لأجل أن يُشَدَّهُمْ إِلَى طلبِ السَّحَرَة الَّذين يقابلون فِرْعَوْن، قال فِي سُورَة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠]، ولم يقل: (بسحره)، والفرق أن فِرْعَوْن أراد أن يشدّهم، وأن يُغريَهم بما يقابلون بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ لَيسَ المُراد بالأمرِ هنا هُوَ طلب الفعلِ عَلَى وجهِ الاستعلاءِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لنْ يَخْضَعَ لقومِهِ حَتَّى يطلبَ منهم أمرًا، ولكن المُراد بالأمرِ

المَشُورَة، يعني: فبماذا تشيرونَ عليّ؟ وسُمي المُشيرُ آمِرًا لِأَنَّهُ مُوجِّه؛ فإنَّ مَنِ استشاره لا شك أَنَّهُ يطلبُ توجيهه، فتكون مشورتُهُ بالأمرِ أمرًا به.

والإشارة هنا لمصلحتِهِ؛ لِأَنَّهُ إذا استشارهم فَإِنَّهُ يريد أن يَخْتَبِرَهُمْ ماذا يكون عندهم، ويريد أيضًا أن لهم وزنًا لأجلِ أن يَتَشَجَّعوا عَلَى هَذَا الأمر.

فائدة: قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القَصَص:٣٢]، وقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢]؛ لِأَنَّهُ -والله أعلم- أن الجيبَ فِي مقدِّمة الجسم، ويمكن لو أَنَّهُ ألقاها خَلْفَ ظَهْرِهِ ثم أَخرجها أن يقول قائل: إنه عمِل فيها عملًا لم نشاهدْه، لكن هَذَا أمامهم وظهرَ.

وكنت أتصوَّر بالأوَّل أَنَّهُ لـَمَّا كَانَ فِي العادةِ أنّ اليدَ إذا أُدخلتْ وتغيبتْ عن الشَّمْسِ والهواء ابيضتْ، فالظَّاهر أن الجِلْد كلَّه المسْتُور من الإِنْسَان أبيض، والبارز للشَّمْس والهواء أسمر، ولكن أنْ يتغيَّر بهذه السُّرعةِ فهذا خلافُ العادةِ، ففي العادةِ لا يتغيَّر إلا بعدَ مدَّة طويلةٍ، وهذه السُّرعة تدلُّ عَلَى أَنَّهَا ليستْ أمرًا عاديًّا، بل هُوَ أمرٌ خلافُ العادةِ، وهذه من آياتِ اللهِ.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٦، ٣٧)

• ● ∽ ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٣٦-٣٧].

• ● ∽ ● •

إذا أرادَ الله أمرًا هَيَّأَ أسْبابَه، لو سُلِّطَ فِرْعَوْن عَلَى مُوسَى وأخِيه لَقَضَى عليهما، ولكن الله تعالى جعلَ لكلِّ شيْءٍ سببًا.

أشار المَلَأُ عَلَى فِرْعَوْنَ أنْ يُؤَخِّرَ أمرَ مُوسَى وهارونَ، وأنْ يبعثَ فِي ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ جمع مَدِينة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعينَ، يعني: يُرسل إِلَى مَدَائِن مِصْرَ مَن يَجْمَع السَّحَرَة.

ولهذا جاء الجَواب: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾، وكان من المتوقَّع أن يقولَ: (يأتونك)، فما هُوَ الفرقُ بينَ (يَأْتُوكَ) وبين (يأتونك) من حيثُ المَعْنى؟

لو قَالَ: (يأتونك) لكانتْ صفةً لـ(حَاشِرِينَ)، أي: حاشرينَ يأتونك بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ، لكن المُراد خِلاف ذلك؛ لأن: (يَأْتُوكَ) أبلغُ من: يأتونك، حيثُ كانتْ جَوابًا للأمرِ، الَّذِي هُوَ لِلْمَشُورة، إذن (ابعث) أيضًا ليستْ أمرًا حقيقيًّا، فهي أمرٌ للمشورةِ: (ابعث يأتوك)؛ لِأَنَّهُ بمجرَّد بعْثك يأتونك به.

لكن لو كانتْ صفةً لـ(حَاشِرِينَ): (حاشرين يأتونك) لكان من الجائزِ ألَّا يأتوا، فصفةُ الحاشرِ مَن يَجْمَعُ ويأتي بالسَّحَرَة، لكن قد يَتَهَيَّأ له ذلك وقد لا يتهيَّأ،

أمّا إذا قَالَ: ابْعَثْ يأتوك، صار هَذَا مثلَ الشَّرطِ والجزاءِ، يعني: إنه إذا حصلَ بَعْثُكَ لَزِمَ منه النتيجةُ، وَهُوَ أنْ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

و(سَحَّار) هِيَ من بابِ المُبالَغةِ، أو هِيَ من بابِ النِّسبة، كما يُقال: بنّاء ونجّار وصنّاع، يعني: لِأَنَّ صنعتَه السِّحرُ، ولا يكون ذلك ولا يُنْسَبُ الْإِنْسَان إِلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إلّا إذا كَانَ مُجيدًا فيها، فلا يُقال لِمَن بَنَى مرَّةً واحدةً: إنه بنّاء، ولا لِمَنْ نجَر مرةً واحدةً: إنه نجّار، وإنّما يُقالُ ذلك فيمَن أتقنَ المِهْنَةَ والصَّنعة.

إذن فالسحّارُ إمّا صيغةُ مبالغةٍ أو صيغةُ نِسبةٍ، والفرقُ بينهما ظاهرٌ؛ لِأَنَّ (سَحَّار) على مَعْنى المُبالَغة بمَعْنى كَثير السِّحر، ولكن (سَحَّار) على مَعْنى النِّسبة بمَعْنى أَنَّهُ مُتْقِن لهذه الصنعة؛ لِأَنَّهُ نُسب إليها.

والظَّاهرُ أنّ النِّسبةَ أولى، يعني: بذي سحر قد أتقنَ هَذِهِ المهنةَ، فتكون للنسبةِ، ويُغْنِي عن المُبالَغةِ قولهم: (عَلِيم) يعني فائِق السِّحر، وقد يُقال: إن هَذَا يُغْنِي عن النِّسبةِ وإن (سَحَّار) صيغة مبالغة لكثرة سِحْرِه وإتقانه.

قال: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي سَحَّار وعليم، ولهذا قد يَتَرَجَّح أَنَّهَا للْمُبالَغةِ وتكونُ النِّسبةُ مفهومةً من قولِه: ﴿عَلِيمٍ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يَفضُل مُوسَى فِي عِلْم السِّحر]، يعني: يَزِيد عليه، فعلى هَذَا طَلَبُوا أنْ يأتوا بسَحرةٍ يفوقون مُوسَى فِي الكمّ وفي الكيفِ، وفعلًا حصلَ هذا، وأتوا بِمَهَرَةٍ سَحَرَةٍ وبعددٍ كبيرٍ، ولكن لَيْسَ الأمر الَّذِي من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثل السِّحر الَّذِي هُوَ خَيال لا حقيقةَ له.

الآية (٣٨)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:٣٨].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وَهُوَ وقتُ الضُّحى من يَوْمِ الزِّينَةِ].

﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ (أل) للعُمومِ، والجامعُ إما فِرْعَوْن وإما الحاشرونَ الَّذين ذهبوا إِلَى المدائنِ يَحشُرون النَّاس.

وقوله: ﴿لِمِيقَٰتِ﴾ اللامُ للتوقيتِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، أي: لوقتِ عِدَّتِهِنَّ.

جُمِعوا لهذا اليوم ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لدى النَّاس، والذي فَرَضَ هَذَا اليوم -سبحان الله- مُوسَى والذي اقترحه مُوسَى، انظر كيف التَّفصيل! فمُوسَى هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ الزَّمانَ والمكانَ، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩]؛ لِأَنَّهُ واثقٌ بنصرِ اللهِ، ولهذا وَعَدَهُمْ يومًا يُسَمُّونه (يوم الزِّينة) بمنزلة عيدِ المسلمينَ، وأَمَرَهم أيضًا أن يكونَ فِي واضحةِ النَّهارِ ضُحًى؛ لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ من الرؤيةِ والمشاهدةِ عَلَى وجهِ التأنِّي والطُّمأنينة.

• ● ● •

الآيتان (٣٩، ٤٠)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:٣٩-٤٠].

القائل مُبهَم؛ لِأَنَّ القائلِينَ كثيرون، يقولون: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ والاسْتِفهام هنا للأمرِ، يعني: اجْتمِعوا، أو هُوَ للتشويقِ؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠]، لكن الأمر أوضح، يعني: أُمروا أنْ يَجتمِعوا ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الاسْتِفهام للحَثّ عَلَى الاجتماعِ والترجِّي عَلَى تقديرِ غلَبَتِهِم، لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى دِينهم، فلا يَتَّبِعُوا مُوسَى]، وما ذكره المُفَسِّرُ مُحْتَمَلٌ، وَهُوَ التشويقُ الَّذِي أشرنا إليه، ويَحتمل أَنَّهُ للأمرِ، يعني: يأمرون النَّاسَ أنْ يَجْتَمِعوا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قولهم: ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ألا يُفهَم منه أَنَّهم شاكُّون فِي انتصارِ السَّحَرَة عَلَى مُوسَى؟

فالجَواب: يمكن هَذَا أَنَّهم شاكُّون، فهذا من بابِ التحرُّز، فما قالوا: لعلَّنا نَتَّبعُ الغالبَ، أو الحقَّ، ثم إِنَّه يَحتمِل قولهم: ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أن هَذَا من بابِ الشَّرطِ المبيّن الواقِع؛ لأَنَّهم سيغلبون.

وقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، (لَعَلَّنَا) يعني مَعْشَر الأقباط جميعًا ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ دون مُوسَى، لكن بشرط: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وهذا الشَّرطُ فِي ظَنِّهم أَنَّهُ مُتَحقِّق، وأن السَّحَرَة سوفَ يَغلبون.

وفي قولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ من إظهار التعصُّب ما لا يَخفَى؛ لِأَنَّ الواجبَ عليهم أن يقولوا: لعلَّنا نَتَّبع الغالبَ، لا أن يقولوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، فقد يكونُ الحَقّ مع مُوسَى وقد يكون الحَقّ مع السَّحَرَة، فلو وُفِّقوا لقالوا: لعلَّنا نَتَّبعُ الغالبَ أو الحَقَّ، ولكنهم قالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾.

ثم استدركوا فقالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وهذا ما يُسَمَّى بـ(التحفُّظ) -في لُغَة العصر- يعني: كأنَّهم حَكَمُوا بأنَّ الغلبةَ للسحرةِ، لكن معَ تحفُّظ لِقَوْلِهِم: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

وفي قولِهِم: ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إشكال من الناحيةِ الإعرابيَّة؛ لأن: (هُمْ) ضمير، والخبر يكون مرفوعًا، فلماذا نُصب؟

نقول: (هُمْ) هنا ضميرُ فَصْلٍ لَيْسَ لها مَحَلّ منَ الإعرابِ، و(الْغَالِبِينَ) خبر (كانَ)، ومعلوم أنَّ خبر (كَانَ) يكون منصوبًا. وضميرُ الفَصْلِ له فوائدُ:

أولًا: تمييزُ الصِّفَةِ عنِ الخبرِ، مثل أن تقولَ: زيدٌ الفاضلُ، وزيدٌ هُوَ الفاضلُ، فإذا قلتَ: زيدٌ الفاضلُ، قد يكون (الفاضل) نعتًا والخبرُ لم يأتِ، أمَّا إذا قلتَ: هُوَ الفاضلُ فقد حَدَّدنا أن (الفاضِل) خبرٌ.

ثانيًا: وكذلك من فَوائده حَصْرُ المبتدأِ بالخبرِ، (زيدٌ هُوَ الفاضل) يعني: لا غَيْرُه.

ثالثًا: التَّأكيد، يعني أنَّك إذا قلتَ: زيد هُوَ الفاضلُ، كأنك تؤكِّد ذلك: أَنَّهُ الفاضلُ دون غيره.

قال: [﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الاسْتِفهام للحَثِّ عَلَى الاجتماعِ]، قوله: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ يعني: اجتمعوا كترغيب وحَثٍّ [والترجي عَلَى تقدير غلبتهم]، الترجي فِي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [ليستمِرُّوا عَلَى دِينهم فلا يَتَّبِعُوا مُوسَى].

وهل هَؤُلَاءِ الَّذين ذهبوا يجمعون النَّاسَ هل فيهم نوعٌ مِنَ الإنصافِ؟

قالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فيه نوعٌ من الإنصافِ؛ لِأَنَّهُ ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ اتَّبَعْنَاهُم، وإلَّا فلا. لكن تقديم اتِّباع السَّحَرَةِ وترجّي اتباعهم هَذَا هُوَ الَّذِي فيه نوعٌ من التعصُّب، وكان عليهم ألَّا يذكروا السَّحَرَةَ إطلاقًا، وأن يقولوا: لَعَلَّنا نَتَّبعُ الغالِبَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ هل يمكنُ أن تكون للتعليلِ؟

فالجَواب: يُمْكِن، لكِن للترجِّي أَبْيَنُ.

الآية (٤١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤١].

• • ● • •

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ يعني: لِفِرْعَوْن ﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿أَئِنَّ﴾ قَالَ: [بتحقيقِ الهمزتينِ، وتسهيلِ الثَّانيةِ، وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ]، التَّحقيق والتسهيل، ﴿أَئِنَّ﴾ هَذَا تحقيقٌ، وتسهيل الثَّانية (أَينَّ)، وإدخال الألف بينهما على الوجهين: (آئِنَّا)، (آينَّا)، فتكون القِراءَة عَلَى هَذَا أربعًا[1].

قال: ﴿لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ هَذِهِ اللامُ للتَّوكيدِ: ﴿لَأَجْرًا﴾، والمُراد بالأجرِ هنا المَثُوبَة الدُّنْيَوِيَّة والقُربى والزُّلْفَى منه، أو نقول: المثوبة الدنيويَّة فقط، لكن هُوَ زادهُمُ القُربى والزُّلْفَى منه: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وهنا يقول: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ وقد يُقال: كيف دخلتْ لامُ التَّوكيدِ عَلَى الاسْتِفهامِ والاسْتِفهامُ إِلَى الآنَ ما وقع بعدُ، فكيف يؤكد؟

ولهذا نظائر فِي القُرآن، مثل قوله تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، فكيف يَصِحُّ التَّوكيدُ معَ الاسْتِفهامِ والمستفهِم يسأل فإلى الآن ما تَبَيَّن له الأمرُ أَنَّهُ واقع، فكيف يؤكَّد؟

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٢٨٩).

فيُقال: إن التَّأكيد هنا يُراد بِهِ تأكيدُ الجَوابِ، كأنه يقول: أتؤكّد لنا الأجرَ؟ أتؤكد لنا أنك أنت يوسف؟ أمَّا بالنِّسبة للسائل فلا يمكِن التَّوكيد؛ لِأَنَّهُ سائل مُسْتَفْهِم، ولا جمع بين الاسْتِفهامِ الَّذِي هُوَ جَهْل وبين التَّوكيدِ الَّذِي هُوَ عِلم مُحَقَّق.

فعليه نقول: الاسْتِفهام هنا عَلَى تقدير: أتؤكِّد لنا أنَّ لنا لأجرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ الجَواب: قَالَ: نَعَمْ.

فهَؤُلَاءِ يُريدون الراكبَ قبلَ المَرْكَبَةِ، يَبْغُونَ الأجرَ، مثلما يقول بعض النَّاسِ إذا طُلب منه أن يكون إمامًا فِي مسجد: هل هناك شيْء؟ أو مؤذنًا، أو ما أشبه ذلك، فكذلك هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ المقام مَقام انتصار حقّ عَلَى زَعْمِهِم، ومع ذلك قالوا: إنِ انتصرنا عَلَى الباطلِ -كما يَزْعُمُون- بالحقِّ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا؟ فقال لهم: نَعَمْ؛ يعني: لكم أجر.

و(نَعَمْ) حرف جَوابٍ، ويُقال: إن الجَواب سؤالٌ مُعادٌ، فالحرف نائبٌ عن السُّؤالِ، يعني: نعم لكم أجرٌ، ولهذا فِي هَذِهِ القاعدةِ، وَهُوَ أن حرف الجَواب إعادة لسؤال، لو قيل للرجل: أطلّقتَ امرأتك؟ فقال: نعم، وما قَالَ: هِيَ طالق، قَالَ: نعم، فهل تطلق؟

نقول: تطلق، لِأَنَّ حرف الجَوابِ إعادةٌ للسُّؤالِ، كذلك أيضًا لو قيل له: أقَبِلْتَ النِّكاح؟ فقال: نعم، انعقدَ النِّكاحُ. ولو قيل له: أعتقتَ عبدَكَ؟ فقال: نعم، عَتَقَ، أوقفتَ بيتَكَ؟ قَالَ: نعم. فلو أراد الكذِبَ فِي مثلِ هَذِهِ الأحوالِ، إنْ قلنا: أوقفتَ بيتَكَ؟ قَالَ: نعم، وَهُوَ يكذب، أطلقتَ امرأتك؟ قَالَ: نعم، وَهُوَ يكذب، فهل يقع الطلاقُ والوقفُ والعِتقُ، وما أشبهَ ذلك، أم لا يقع؟

نقول: أمّا الطلاق ففيه تفصيلٌ، وحقُّ الغيرِ يَقَعُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْخَذ بالظَّاهِرِ، فيُقال: هَذَا يدين، حُكْمًا لا يُقبل، وأمَّا فيما بينه وبينَ اللهِ إذا لم يُحاكَم فَإِنَّهُ يُقْبَل، يعني: لو أَنَّ زَوْجَتَه وَثِقَتْ بِهِ وقالتْ: إن الرَّجُلَ لَـمّا قيل له: أطلقتَ امرأتَكَ؟ قَالَ: نعم، أراد أنْ يَكذِب عَلَى صاحبِهِ، فإنها تَبقَى معه؛ لِأَنَّ ما ادّعاه مُحْتَمَلٌ، وإذا كَانَ محتملًا ولم ينازِع فيه مَن له الحَقّ وصدَّقه؛ فَإِنَّهُ يُقبل منه.

فـ(نعم) حرفُ جَوابٍ لُغةً وعُرفًا، ولا تأتي فِي اللُّغة ولا فِي العُرف استفهاميَّة، إلا إذا قُرِنت بشيْءٍ، مثل: نعم ماذا تقول؟ يعني: كأنه يقول: نعم هاتِ ما عِندَكَ، يعني: يستجيب.

فَإِنْ قِيلَ: هم يُسَمُّونَ العالِمَ عندهم ساحرًا؛ استدلالًا بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]، أو أَنَّهُ اتِّهام لِمُوسَى بأنه ساحرٌ؟

فالجَواب: لا، هَذَا غير صحيحٍ، فهم مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ساحرٌ، وقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ من بابِ التهكُّم.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٢)

• ● ● •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:٤٢].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: حِينَئِذٍ]، ولكن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فتفسير (إِذًا) بـ(حينئذٍ) غيرُ صحيحٍ؛ لِأَنَّ (حينئذٍ) للماضي، لكن (إِذًا) أي: إذا غلبتموه إذا كنتم الغالبين ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني: لديّ، فكأنه زادهم عَلَى ما طلبوا القُربى منه، وإنَّما وعدهم بذلك تشجيعًا لهم عَلَى هَذَا الأمر، فأجابهم عَلَى ما سألوا وزيادةً؛ تشجيعًا لهم.

والتنوين فِي (إِذًا) عِوَض عن جمعٍ، يعني: إذا غلبتموه.

وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ اللام للتَّوكيدِ.

وقال: ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إشارةً إِلَى أَنَّهُ سَيَجْعَلُهُمْ فِي حاشِيَتِهِ؛ لِأَنَّهُ ما قَالَ: لَأُقَرِّبَنَّكُمْ، قَالَ: ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني: إنكم تكونونَ فِي جملةِ الحاشيةِ الَّذين هُم أقربُ النَّاس إليّ.

• ● ● •

الآيـة (٤٣)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء:٤٣].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ -بعدما قالوا له: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥]-: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، فالأمر فيه للإذنِ بتقديمِ إلقائِهِمْ تَوَصُّلًا بِهِ إِلَى إظهارِ الحقِّ].

قوله: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مِثْلَمَا قال المُفسِّر: بعدَ أن قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥]، قَالَ: ﴿أَلْقُوا۟﴾، هَذَا الأمر يقول المُفسِّر: إنه للإذنِ.

ويَحتمل أن يكون للتحدِّي، ولهذا قَالَ: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. و(ما) لصلة الْعُمومِ، يعني: ألقوا ما تريدون ممَّا تُلْقُونه، فأنا لا أَكْتَرِث بِهِ ولا أَهْتَمّ به، ويدلُّ عَلَى ذلك أَنَّهُ طَلَبَ أن يكونوا هم المُلْقِينَ؛ لأجلِ أن يكونَ هُوَ الغالبَ بعدهم؛ لِأَنَّهُ لو أَلقى عصاهُ فصارتْ ثعبانًا مُبِينًا فماذا تَصْنَع وليسَ أمامها شيْء؟

فأمرهم أن يُلْقُوا هم أولًا؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واثقٌ بوعدِ اللهِ، فهو يَنْطِق من مَنْطِقِ القوّة، يقول: أنا لا أَكْتَرِث بكم، أَلْقُوا ما تريدون: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، والإبهامُ هنا للمُبالَغة، يعني: ألقوا الَّذِي تريدون ممّا تُلْقُونه، وفي قوله: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ بالجُملةِ الاسْميةِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مهما كانوا متَّصِفين بِهِ من الإلقاء؛ فَإِنَّهُ لا يهتمّ به.

الآيــة (٤٤)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٤].

يقول: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أعوذُ باللهِ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾. ﴿حِبَالَهُمْ﴾ يعني: الَّتِي يَسْحَرُون النَّاس بها، ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ الَّتِي يسحرون النَّاس بِهَا، وهم يُلْقُون هَذِهِ الحبالَ وهذه العِصِيّ فتكون فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ثَعابِينَ وحيَّاتٍ، وأيضًا تَظْهَر بِمَظْهَر الكثرة وتملأ الواديَ، وهي حقيقةً ليستْ ثعابِينَ وحيَّاتٍ، إذن السِّحرُ هُوَ حقيقة، وليس خيالًا.

والحِبال: جمعُ حبلٍ، والعِصِيّ: جمعُ عَصًا، وتلك الحبال والعِصِيّ يُلْقُونها لِيُوهِمُوا النَّاسَ بِسِحْرِهِم أَنَّهَا حيَّات وثعابِين، حَتَّى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاف وأوجسَ من هَذَا خِيفةً لَـمَّا رأى هَذِهِ الحيَّات والثعابين تُقبِل إليه، ولكن الله قال له فِي تلك الساعة: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه:٦٨-٦٩]، وقالوا لَـمَّا أَلْقَوْها: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ والباء للسببيَّة، وعِزَّة فِرْعَوْن: غَلَبَتُه وقَهْرُه، وفي تقديمهم هنا للعزةِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُم لا يَعْتَزُّون بغيرِه، وأَنَّهم لا يَرَوْنَ أَنَّهم يَنْتَصِرون بِسِوَى عِزته.

والسِّحر حقيقةٌ، لكن باعتبارِ ما سُحِر بِهِ خيالٌ، حقيقةٌ لِأَنَّهُ أثر فِي الرؤيةِ،

وأثّر بدلًا مِن أن يَرَى الْإِنْسَان هَذِهِ الحبالَ حِبَالًا وعِصِيًّا صار يراها ثعابينَ وحيَّاتٍ.

إذن فهذه حقيقةٌ، لكن بالنِّسبةِ لِمَن يراهُ فليسَ مُتَغَيِّرًا عن حقيقتِه، فالحبالُ حبالٌ، والعِصِيّ عِصِيّ، ولو رآها مَن لم يَصِلْ إليه السِّحرُ لرآها حقيقةً: حِبَالًا وعِصِيًّا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُقْتَلُ العائنُ؟

فالجَواب: لا، الصَّحيحُ أَنَّهُ لا يقتلُ إلَّا إذا تَعَمَّدَ القتلَ، إذا قَالَ: أنا أقتلُ فلانًا.

فإذا أكّد يُحْبَس، وَهُوَ يجب حبسه عَلَى كل حالٍ، مثلما قال أهل العلم، ولكن الغريب أن هَذَا مشهورٌ فِي الزمنِ السابقِ بينَ النَّاسِ، والوُلاة أقوياءُ والأمراءُ أَقوى مركزًا من اليومِ، حَتَّى أمراء البُلدان، والقضاةُ موْجودونَ وكَلامُ الفقهاءِ أيضًا الحنابلة، فالمذهب أَنَّهُ يجب أن يُحْبَس هَؤُلَاءِ، ولكن مع ذلك ما فِي عُمُرنا سمِعنا أَنَّهُم حُبِسوا، وإلَّا لو حُبسوا لقلَّ الشرُّ.

وأمَّا إذا كَانَ ما قَصَدَ قَتْلَه ولكن ماتَ، فهذا خطأٌ، يَرْمُونَه بالدِّيَة، عَلَى أن بعض العلماء يقولون: لا يُقتل حَتَّى وإنْ كَانَ تعمَّد قتلَه؛ لِأَنَّ هَذَا السلاح سلاح خَفِيّ باطنٌ، وبعضهم قَالَ: يقتل بمثله بإيجاد واحد يحسده قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦]، لكن نخاف أن يُشَجِّع هَذَا الَّذينَ يصيبون الناس بالعين.

فإن قال قائل: فبِمَ يعالَج الْإِنْسَان إذا أُصيب بعينٍ؟

فالجَواب: بالقِراءَة، ويعالج بالحِسّ معالجةً حِسِّيَّة، فيُؤْتَى بالعائنِ ويتوضأ، ويُؤخذ ما يتناثر منه، ويسقى عَلَى هذا، ويُرشّ بِهِ رأسُه من فوق عَلَى جهةِ ظَهره،

وبإذن الله يَبْرَأُ. وعند النَّاسِ شيْء لَيْسَ معروفًا فِي السنَّةِ لكنَّه مُجرَّب، أَنَّهُ يأخذ من ثِيابه التي تحمل من عرقه إن كانت طاقية أو غُترة أو (فنيلة) أو سروالًا، ويغسل، ويُؤخذ غُسالته ويشربه المصابُ، وينْتَفِعُ.

والعَيْنُ لا تأتي إلَّا عَلَى غَفْلَةٍ، وأكثر ما تأتي أيضًا مَن يخافُ منها.

إذن فالعلاج أَنَّهُ يتوضأ ويرش عَلَى بدنه؛ عَلَى الأعضاءِ زِيَادَةً عَلَى الوضوء.

ويَزْعُمُونَ أن الْإِنْسَانَ العائِنَ إذا صُلِّيَ عليه صلاةَ الجنازةِ أَنَّهُ يكفِّر، ولكن هَذَا لَيْسَ بصحيح.

والعَيْن مَنْشَؤُها الحسدُ، ولهذا قيل فِي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]: العائن إذا عان.

الله يرحمه شيخنا، كَانَ يدرسنا باللَّيلِ بينَ العشاءين، ومرَّت الطيورُ هَذِهِ الَّتِي تَصِيح باللَّيل، وأظنُّها يسمونها البطّ، ورفعت رأسي، فقال هو: إن صَيدَ العلمِ أفضلُ -أو خيرٌ- من صيدِ الطيورِ! وَهُوَ صحيحٌ ما فيه شكّ، وأنا أَجزِم جَزمًا أن الْإِنْسَان الَّذِي يَلْتَفِت يقينًا (بيروح)، وَهُوَ ما يَلْتَفِت إلا مُؤْتَمِرًا بأمرِ قلبِه، لا يمكن أنْ يلتفتَ إلا بهذا.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أكَّدوها بـ(إنّ) واللامِ؛ لأنَّهم يَعْتَقِدُون تلكَ الساعةَ أَنَّهُ لا أحدَ أقوى مِن فِرْعَوْنَ، وأنَّهم بِعِزَّتِهِ سَيَغْلِبُون لا مَحَالَةَ، ولهذا أكَّدوها بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وأتَوْا بالجُملةِ الاسْميَّة إشارةً إِلَى أن هَذِهِ الغَلَبة ستدومُ وتستمِرُّ؛ لِأَنَّ الجُملةَ الاسْميَّةَ تَدُلُّ عَلَى الثبوتِ والاستقرارِ والدوامِ.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ﴾ إذا أَعْرَبْنَا (نحن) ضميرَ فصلٍ ففيه ما يُستفادُ من

ضميرِ الفصلِ، وَهُوَ التَّأكيدُ والحصرُ والفصلُ، يعني: إنا لنحنُ الغالبونَ دونَ غيرنا بهذه العزةِ العظيمةِ، الَّتِي كانوا يَعْتَقِدُونَهَا حينذاكَ.

ومن فوائد الآية:

أن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قَالَ: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أَلْقَوْا حِبالهم وعِصِيَّهم، واستعانوا بغيرِ مُعِين؛ فقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٥)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥].

• • ● • •

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ ألقى مُوسَى عصاه بوحيٍ خاصٍّ منَ اللهِ، كما فِي سُورَةِ طه: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه:٦٨-٦٩]، فألقى مُوسَى عصاهُ، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بحذفِ إحدى التاءينِ من الأَصْلِ، تَبْتَلِع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾]: (تَلَقَّف)[1] ولم يُشِرْ المُفَسِّر إِلَى القِراءَة الثَّانيةِ، وهي (تَلْقَف)، أمَّا قِراءَة: (تَلْقَفُ) فليس فيها حذف إحدى التاءينِ، وأما (تلَقَّف) ففيها حذف إحدى التاءين، وأصله: (تَتَلَقَّف)، ومعناهما واحد، يعني: تَبْتَلِع، لكن (تلقّف) تفيد معنًى زائدًا عَلَى (تلْقَف)، فهي تفيد التَّتَبُّعَ، يعني: كأنها جَعَلَتْ تتبع حَتَّى أَفْنَتْهَا كلَّها؛ لِأَنَّهُ إذا كانتِ الحبالُ أمامَها كثيرةً فلا تتبعها، فأيُّ جهةٍ تأخذُ تلقفُ، لكن لـمَّا فَنِيَتْ وقلّتْ صارتْ حَبلًا هنا وحبلًا هنا، فهي تَتَلَقَّفُهُ: تتبعه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يَقْلِبُونه بِتَمْوِيهِهِمْ، فيُخَيِّلُون حِبالَهم وعِصِيَّهم أَنَّهَا حَيَّاتٌ تَسْعَى]، ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ الإفكُ: الكَذِب، وهذا كَذِب بالفعلِ وليسَ بالقولِ، فهذا كذب فعليٌّ؛ لِأَنَّ الكذبَ القوليَّ يكون باللسانِ، وَهُوَ إخبارُ

---

(١) السبعة فِي القراءات ص٢٩٠.

الْإِنْسَانِ بما لا يُوافِق الواقعَ، والكذبُ الفعليُّ يكون بالفعلِ، وَهُوَ إظهارُ الْإِنْسَانِ الفعلَ بخلاف الحَقِيقَةِ، فهَؤُلَاءِ أظهروا الحبالَ والعِصِيَّ حَيَّاتٍ، لكنها ليستْ كذلك، ليستْ حياتٍ، وإنَّما هِيَ حبال وعصيٌّ.

وقد زعم بعضُ العلماءِ أن السِّحرَ لا حقيقةَ له، واستدلُّوا بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، والصَّوابُ أن له حقيقة، وحقيقتُه هَذَا التخييلُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يؤثِّر السِّحرُ؟

فالجَواب: نعم، يؤثِّر فِي التصوُّر، وفي الإحساسِ، وما أشبهَ ذلك، أمَّا أن يؤثِّر بقلب الحقائق، فلا؛ لِأَنَّ هَذَا من صفاتِ الخالِقِ.

• • ❁ • •

الآيات (٤٦- ٤٨)

• • ••• •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٦-٤٨].

• • ••• •

لَـمَّا رأى السَّحَرَة، وهم أعلمُ النَّاسِ بالسِّحرِ وآثارِه وتأثيرِه، لَـمَّا رَأَوْا ما تَفْعَلُه هَذِهِ العصَا الَّتِي وَضَعَها مِن يَدِهِ وهم يُشاهِدون، عرَفوا أن الأمر لَيْسَ بسحرٍ؛ لِأَنَّ سِحْرَهم أقوى ما يكونُ من السِّحرِ وأكثره.

وكان السِّحرُ فِي ذلك الوقتِ أيضًا شائعًا، ولهذا جاءتْ آيةُ مُوسَى بشيْءٍ يُشْبِهُه؛ بنوعٍ منه، ولكن هم عرَفوا أن هَذَا لَيْسَ بسحرٍ، وأنه فوقَ طاقةِ السَّحَرَةِ، فماذا حصل؟ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

قال: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ ولم يقلْ: فسجدَ السَّحَرَةُ، كأن هَذَا السُّجود أمر اضطراريّ؛ لقوّة ما دَفَعَهم إليه، يعني: لا كأنه أمر اختياريّ، لكن لقوة الدافعِ صار كأنَّهم أُلْقُوا إلقاءً بدونِ اختيارٍ.

و﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ (أل) للعُمومِ، يعني: جميع السَّحَرَة مع مَهارَتِهم ومَعْرِفَتِهم أُلْقُوا سَاجِدِينَ لله، بدليل قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾، وليسوا ساجدينَ تعظيمًا لعصا مُوسَى؛ لِأَنَّ تصريحهم بالإيمانِ دليلٌ عَلَى أَنَّهم ساجدونَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ هَذَا البدلُ من أحسن ما يكون بعد الْعُمومِ

﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يقول: إنه رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فقالوا: ربّ العالمينَ، وكان فِرْعَوْن أيضًا يقول: إنه ربُّ العالمينَ، فأخرجوا ربوبيَّة فِرْعَوْن بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وإنْ كَانَ يدّعي أَنَّهُ ربّ العالمينَ، لكنّه لَيْسَ ربَّ مُوسَى وهارونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى وهارون يُنكرانِ رُبُوبِيَّته، فلذلك كَانَ هَذَا البدلُ من أحسن ما يكون فِي بيانِ المُرادِ.

وإتيانهم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ دون أن يأتوا مباشرةً بربّ مُوسَى وهارونَ، إشارة إِلَى أَنَّهُم آمَنُوا برسالةِ مُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ما قَالَ: أنا رسولُ ربِي، قَالَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هَذِهِ هِيَ فائدةُ البدلِ بقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، والترتيب هنا بين مُوسَى وهارون ترتيبٌ يطابقُ الواقعَ؛ فإِنَّ مَرْتَبَةَ مُوسَى أعلى من مرتبةِ هارونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى من أُولي العزمِ.

ولكن الترتيب اختلفَ فِي سُورَة طه: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، من أجل مراعاةِ الفواصلِ، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ القُرآنَ الكريمَ وكل كَلام فصيح قد تُراعى فيه الفواصلُ والنغماتُ، لكن فِي الأمرِ المعلومِ، فمن المعلوم أن مُوسَى أفضلُ من هارونَ، وترتيبه فِي الذكرِ لا أحدَ يَتَوَهَّمُ منه أن هارونَ أعلى منه مرتبة، فالتقديمُ له غايةٌ، ولهذا قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(١).

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لِعِلْمِهم بأنّ ما شَاهَدوه منَ العَصا لا يتأتّى بالسِّحرِ]، فلما آمنوا هَذَا الإيمانَ أَعْلَنُوه إعلانًا غيرَ مُبالينَ بما يَنْتُج وراءَ ذلك؛ لِأَنَّ الإيمانَ الصادقَ يَقضي عَلَى كلِّ عاطفةٍ، فعاطفةُ حبِّ النَّفسِ أمرٌ جِبلِّيٌّ فِطْرِيّ، لكن الإيمان يَقضي عليها، ولهذا الْإِنْسَان يُعَرِّض نفسَه للهلاكِ حينما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

يخرجُ مجاهدًا فِي سبيلِ اللهِ وَهُوَ يعرِف أن سيوفَ القومِ قد تَبْتُرُ رَقَبَتَهُ، لكنه لا يبالي، وكذلك الْإِنْسَان يَنسَى العاطفةَ بينه وبين أقاربِه، حَتَّى إن الرَّجُل لَيَقْتُلُ أباهُ إذا كَانَ من الكفّار.

فهنا قالوا معلنينَ هَذَا الإعلانَ غيرَ مُبالينَ بما يَنْتُجُ، وفي ظنِّي أَنَّهُم سَيَعْلَمُون أَنَّهُ سَيَنْتُجُ عن ذلك أمرٌ عظيمٌ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ جاء بهم كسلاحٍ له، فإذا خانُوه فِي هَذَا المجتمعِ العظيمِ، وَهُوَ يومُ الزِّينة، فسَيَنْتُجُ عن هَذَا العُقوبات، إلا أَنَّهُم غيرُ مبالينَ بهذا؛ لِـمَا أشرنا إليه قبلُ.

فائدة: فِي سُورَة طه قال تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٢-٧٤]، قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ تبعٌ مِن كَلامهم هم، لكن: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قد يَحْتَمِل أن يكونَ من كَلامهم أو من كَلام اللهِ.

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أن الحقّ إذا تَبَيَّنَ كَانَ أعلم النَّاس بِهِ مَن يَعْرِف هَذَا الحَقَّ؛ فإن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوّل مَن تبيَّنَ له أن ما جاء بِهِ الحقّ، وأنه لَيْسَ بسحرٍ؛ هم السَّحَرَةُ الَّذين عَرَفُوا السِّحرَ وباطلَه، فالذي يعرِف الحَقّ هُوَ الَّذِي يعرِف الباطلَ، أما مَن لا يعرف الباطلَ فَإِنَّهُ قد تَلْتَبِس عليه الأمورُ، ولهذا قيل: «بِضِدِّها تَتَبيَّنُ الأشياءُ»(١).

(١) ديوان المتنبي (١/ ٢٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبادَرَةُ السَّحَرَة إِلَى الإيمانِ، حَتَّى إن الإيمانَ كَانَ كأنَّه أمر اضطراريّ؛ لقوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ﴾؛ لقوَّةِ ما شاهدوا من الآياتِ الَّتِي لم يَتَمَكَّنُوا معها أن يتأخَّروا، فلمَّا رَأَوُا الآياتِ ما أَمْكَنَهُمْ أن يتأخَّروا عنِ الإيمانِ، فكأنَّهم أُلقوا اضطرارًا.

الآيتان (٤٩، ٥٠)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٩-٥٠].

• ● ● •

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ هَذَا قول فِرْعَوْن، وكلمة ﴿قَالَ﴾ أتتْ بالفصلِ وليسَ بالوصلِ؛ لِأَنَّ الوصلَ هُوَ العطفُ بالواوِ، ومعَ ذلك فهي مفصولةٌ لكن تدلُّ عَلَى وقوعِ هَذَا الشَّيْءِ مباشرةً كأنه جَوابٌ عن فِعلهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ بتحقيق الهمزتينِ، وإبدال الثَّانيةِ ألفًا ﴿لَهُۥ﴾ لِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ﴾]، هَذَا أمرٌ لا يكونُ عادةً من هَؤُلَاءِ ولا من غيرهم أن يؤمنَ أحدٌ لعدوِّ فِرْعَوْن بدونِ إذنِه، وفي قوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إشارة إِلَى أن الرَّجُلَ قد سيطرَ عليهم سَيطرةً تامَّةً، وأنَّهم لا يَتَصَرَّفون بشيْءٍ إلا بإذنِه.

والاسْتِفهامُ فِي قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ للإنكارِ والتوبيخِ.

فَإِنْ قِيلَ: فِي سُورَة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٣]، وهنا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؟

فالجَواب: فِي الأَصْل بينهما فرقٌ: آمَن به: أقرَّ بِهِ واعترفَ الإيمان الكامل، وآمن له: مُضَمَّنة مَعْنى انقاد. فإذا جمعتَ بين الآيتينِ هنا صارتْ أبلغَ، يعني:

كأنَّهم آمَنُوا إيمانًا به، ثم آمنوا له فانقادوا له.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ انظر التمويه، هَذَا غريبٌ، فهذا فِي الحَقِيقَةِ مظهرُ ضعفٍ منه، كيف يكون كَبيرَهم الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحرَ وهم قد حُشِروا من المدائنِ وليسوا مع مُوسَى فِي مدينتِه، وكيف يُقال: إنه علَّمَهُم، بل إنهم فِي مدائنَ متباعدةٍ، وكيف يمكن أن يُقال: إنه كبيرهم الَّذِي علّمهم السِّحرَ وهم قد وضعوا حبالَهم وعِصِيَّهم لِيَقْضُوا عليه؟! فإن مَن عَلّمهم السِّحرَ لا بدَّ أن يخافوا منه، وكيف يُقال: إنه علّمهم السِّحرَ وهم قد استعزُّوا بعِزَّة فِرْعَوْنَ ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وهم يعلمون أن فِرْعَوْن خَصمٌ لِمُوسَى، لكن هَذَا من باب التمويهِ عَلَى قومه، كما قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، يعني: عقولهم بالنِّسبة لفِرْعَوْن لا شيْء، فهم خَفِيفُو العقولِ والتفكيرِ، ولا يعرفون شيئًا سوى فِرْعَوْن، أَنَّهُ إِلَهُهم!

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وقلنا: إن هَذَا باطلٌ من الأوجهِ الَّتِي ذَكَرْنا، وإنه لا يُمْكِن، لكن هَذَا مَظْهَر ضعفٍ من فِرْعَوْنَ بلا شكّ، يعني: كأنَّه يقول الآن: أنتمُ اجْتَمَعْتُمْ عليّ، وتحاشدتُمْ عليّ، أنتم ومُعَلِّمُكُمْ، ثم لجأَ إِلَى التهديدِ كعادته قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينالكم مني ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾].

قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تهديدٌ بأمرٍ مُبْهَمٍ، والإجمالُ ثم التفصيلُ من فوائدِهِ تشوّقُ المخاطَب إِلَى تبيُّنِ هَذَا المُجْمَل، وإذا كَانَ وَعيدًا فَإِنَّهُ يَتَشَوَّقُ ذلك لكنه يكون خائفًا جِدًّا؛ لِأَنَّهُ لا يَدْرِي ما هَذَا المبهَمُ الَّذِي وُعِدَ به، بَيَّنَهُ بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ واللامُ واقعةٌ فِي جَوابِ القَسَمِ، بدليل أَنَّهُ مؤكّد ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾.

وقوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: مُتَخَالِفَةً؛ إذا قطعَ اليدَ اليُمنى قطعَ الرجلَ اليسرَى، وإذا قطعَ اليدَ اليسرَى قطعَ الرجلَ اليمنَى، وليس مَعْنى: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أني أُخالِفُ بينكم فمِنكم مَن أُقطّع يديه ومنكم من أُقطع رِجليه، بل هَذَا واقعٌ عَلَى محَلٍّ واحدٍ، فالخلافُ فِي محلٍّ واحدٍ، يعني: كل واحدٍ مِنكم أُقَطِّعُ يَدَهُ ورجلَه متخالفتينِ، وهذا فِي شَريعتنا حدّ قطّاع الطَّريقِ، يعني: أحدُّ ما يُحَدّ بِهِ قُطّاع الطَّريقِ هُوَ هذا؛ أَنْ تُقَطَّع أَيْدِيهم وأَرْجُلُهُمْ مِن خِلافٍ.

قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بعد أنْ أفعلَ هَذَا لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعينَ، يعني: كما قال فِي آيةٍ أُخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وهنا يشيرُ إِلَى أَنَّ فِي مِصْر نَخْلًا، فهو وَعَدَهُمْ بذلكَ. والصَّلْبُ: الرَّبْطُ، وهل يُشْتَرَطُ أَنْ يكونَ المصلوبُ ممدودَ اليدِ أو لا؟ لَيْسَ بشرطٍ، فالمهمُّ أن يُرْبَطَ رَبطًا محكمًا عَلَى خشبةِ الصَّلِيب.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الصَّلْبُ بعدَ الموتِ أم قبله؟

فالجَواب: قبلَ الموتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾.

وإنْ قالَ قائلٌ: الصَّلْبُ فِي آياتِ قُطَّاع الطَّريقِ قبلَ الموتِ أم بعدَه؟

فالجَواب: الصلبُ فِي آياتِ قُطَّاع الطَّريقِ اختلفَ فيه العلماءُ: هل يكونُ قبلَ الموتِ أم بعدَهُ، والمشهورُ فِي مَذْهَبِنا أَنَّهُ بعد الموتِ، ولكن الصَّحيح أَنَّهُ قبلُ؛ لأنَّهم إذا صُلبوا قبلُ نالُوا الألَمَيْن: الحِسِّيّ والنَّفسيّ، أو القلبيّ، لكن إذا صُلِبوا بعد الموتِ فلا يُؤْلِمُهم شيْءٌ أبدًا.

ثم إن تَصْلِيبِهِمْ بعدَ الموتِ لا فائدة منه، لهذا لَـمَّا قيل لأسماء بنتِ أبي بكرٍ -رضِي الله عنه وعنها-: إن الحَجَّاج فعلَ كَذَا وكذا بعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ بعدَ موتِهِ،

قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَمَا يَضُرُّ الشاةَ سَلْخُ جِلْدِها بعد موتِها؟»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ لا يؤثِّر.

فكان جَوابهم أن قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضررَ علينا فِي ذلكَ]، ما شاء الله! يعني: لقوَّة إيمانهم قالوا: هَذَا لا يَضُرُّنا، ولا يؤثِّر، وفي هَذَا من التحدِّي وإظهار القوَّة والشجاعة ما هُوَ ظاهرٌ؛ لأنَّهم يخاطبون أعتَى أهل الأرضِ، وَهُوَ فِرْعَوْنُ، يقولون: لَا ضَيْرَ، افعلْ ما تريدُ، لا يُهِمُّنا، وصَدَقُوا أَنَّهُ لا ضيرَ عليهم فِي ذلك ما دامَ تَعذِيبُهم هَذَا فِي ذاتِ اللهِ، فهم هنا إنَّما يعذَّبون فِي ذاتِ اللهِ فقطْ، وهذا لا يَضُرُّهُمْ أبدًا، بل يَزيدهم رفعةً، ولذلك كَانَ ذِكْرهم إِلَى يومِ القيامةِ، فأشادَ اللهُ تعالى بذِكْرِهِمْ فِي القُرآنِ، وسَيَبْقَى إِلَى يومِ القيامةِ، وهذا فيه أكبرُ منفعةٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعدَ مَوتِنا بأيِّ وجهٍ كَانَ ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعونَ فِي الآخرةِ]، يعني: يقولون: مهما كَانَ حَتَّى لو بَلَغْنَا إِلَى الموتِ فإنَّ النهايةَ أننا سَنَرْجِعُ إِلَى رَبِّنا، ورُجُوعُنا إِلَى ربِّنا خيرٌ من الدنيا؛ لأنَّهم يَرْجِعُون إِلَى نَعيمٍ أَبَدِيٍّ لا يُماثِلُه شيْءٌ من نَعيم الدُّنيا، وفي سُورَةِ طه: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢]، يعني: اقضِ ما تريدُ، غاية ما يكونُ أنْ يكونَ تَعْذِيبُكَ مُوصِلًا إِلَى الموتِ، وإذا أوصلَ إِلَى الموتِ فالنتيجةُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُم صادقونَ فِي الإيمانِ، وأن إيمانهم راسخٌ جِدًّا.

وفي هَذَا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبيانِ قُدْرَتِهِ ما هُوَ ظاهرٌ، ففي لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العظيمُ إِلَى إيمانٍ عَميقٍ، فبمجرَّد أنْ رَأَوْا ما تَفْعَلُه عَصا مُوسَى انقلبوا

---

(١) شرف المصطفى لأبي سعد الخركوشي (٢/ ٣٣٠).

بعدَ الكفرِ مُؤمِنينَ، ولهذا قال بعضُ العلماءِ: أَصْبَحوا كفّارًا سَحَرَةً، وأَمْسَوْا شُهَدَاءَ بَرَرَةً[١]. وهذا صحيحٌ أَنَّهُم كانوا بَرَرَةً وأتقياءَ، وكانوا من أقوى النَّاسِ إيمانًا وجِهادًا فِي سبيلِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿لِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وفي هَذَا أيضًا دليلٌ عَلَى إيمانهم بالبَعْثِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿لِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، فهم مؤمنونَ بِلِقاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ من أصولِ الإيمانِ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: شِدَّة تَمويهِ فِرْعَوْن حينَ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ معَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بينَ مُوسَى وبينَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ شيْءٌ مِنَ الاِتصالِ، ولكنَّه لقوَّةِ تمويهِهِ أرادَ أنْ يُمَوِّهَ بهذا الكَلامِ الَّذِي لَيْسَ بمعقولٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوَّة جَبَرُوته حِينَ هَدَّدَهُمْ بقطعِ الأيدي والأرجلِ مِن خِلاف ثم الصَّلب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوَّة إيمانِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ الَّذين تَحدَّوْا فِرْعَوْنَ بِجَبَرُوتِهِ، وقالوا: إنه لا ضررَ علينا فيما هَدَّدْتَنَا به؛ لأَنَّنا سَنَنْقَلِبُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسيُعْطِينا مِنَ الأجرِ والثوابِ أكثرَ ممَّا فَقَدْنَا من هَذِهِ الحياةِ الدنيا، كما قال فِي سُورَةِ طه: ﴿إِنَّمَا نَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإيمان إذا صَدَقَ صارَ أقوى من العاطفةِ، فَحُبُّ النَّفسِ أمرٌ فِطريٌّ، ولكن الإيمان يؤدِّي إِلَى أن ترخصَ النَّفسُ عند المرءِ بجانبِ دينِه.

---

(١) ذكره السمرقندي فِي بحر العلوم (١/ ٥٤١) عن عبيد بن عمير، وعزاه فِي فِي تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٩) لابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة.

الآية (٥١)

• • ۞ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١].

• • ۞ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن﴾ أي: بأَنْ ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي زَمانِنا].

﴿نَطْمَعُ﴾ يعني: نرجو ونؤمِّل، وهذا الطمعُ مما يُمْدَحُ عليه العبدُ، لكن إذا فعل أسْبابه، أمَّا إذا لم يفعلْ أسْبابَه فَإِنَّهُ منَ الأمانيّ الباطلةِ، كما جاء فِي الحديثِ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»(١).

هم أكَّدوا أَنَّهُم يَطمعونَ فِي مَغْفِرَةِ اللهِ؛ لأَنَّهم فعلوا السَّبَبَ، وَهُوَ الإيمانُ بعدَ الكفرِ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فهم طَمِعُوا هَذَا الطمعَ معَ وُجودِ سببِه، وَهُوَ مدحٌ، وقولهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ الغَفْر معناه: سَتْر الذَّنْب والعفو عنه، وقولهم: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾ جمع: خطيئةٍ، وهلِ الخطايا والسيئاتُ واحدةٌ، أم بينهما فرقٌ، أم يفرق بينهما عند الاجتماع فقطْ؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٥٩)، ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠).

يُفرَّق بينهما عندَ الاجتماعِ فقطْ، وأمَّا إذا أُفردت إحداهما فإنها تشملُ الأخرى، ففي سُورَةِ آلِ عِمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، إِلَى أن قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، ففرّقوا بين الذُّنوبِ والسيئاتِ، فالذُّنوبُ طَلَبُوا مَغْفِرَتَها، والسيئاتُ طلبوا تَكفِيرَها؛ لأنها من الصغائرِ الَّتِي تكفِّرها الأعمالُ الصَّالحةُ، والسيئاتُ المُرادُ بِهَا هنا الكبائرُ، الَّتِي لا تزولُ إلا بمغفرةٍ، لا بتكفيرٍ.

قال تعالى: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا لَيْسَ من بابِ الإدلالِ عَلَى اللهِ والمِنَّة عليه بكونهم أولَ المُؤمنِينَ، ولكن من بابِ التحدُّثِ بنعمةِ اللهِ الَّذِي يَرَوْنَهُ سببًا ووسيلةً لمغفرةِ الذُّنوبِ؛ لِأَنَّ السبقَ إِلَى الإيمانِ وإلى العملِ الصَّالحِ مَنْقَبَةٌ، ومن أَسْبابِ الرُّتَبِ العاليةِ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠]، فالسبقُ إِلَى الإيمانِ والعمل الصَّالح له مَزِيَّتُه، ولصاحبِهِ مرتبةٌ عاليةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ هم الَّذين أَتعبوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدُ؟ أم هَؤُلَاءِ قُتلوا؟

فالجَواب: لا، هَؤُلَاءِ إيمانهم صحيحٌ، وهَؤُلَاءِ إما أَنَّهُم قُتِلُوا مباشرةً، أو أَنَّهُم لم يحدثْ لهم شيْءٌ، أما الَّذين آذوه فهم قومُه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل كَانَ بنو إِسْرَائِيل مُؤمِنينَ؟

فالجَواب: فِي هَذِهِ المعالجةِ الظَّاهِرُ ما كانوا مُؤمِنينَ، أو كَانَ بعضُهم مؤمنًا، لا أدري؛ لِأَنَّ أصلَ إنزالِ التوراةِ بعدَ ذلكَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القَصص:٤٣].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل قتل جميع السَّحَرَة؟

فالجَواب: الظَّاهِرُ أَنَّهُم كلّهم؛ لِأَنَّ قولَ بعضِ العلماء: «شُهَدَاء بَرَرَة» يدلُّ عَلَى أَنَّهُم قُتِلُوا، وعلى كلِّ حالٍ نَحتاج إِلَى التثبُّتِ.

وإِنْ قال قائلٌ: هل آمنوا جميعُهم؟

فالجَواب: كلهم آمنوا، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٤٦]، فكلهم آمنوا إيمانًا كاملًا.

فوائِدُ الآيةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: قوَّةُ رجاءِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دليلٌ عَلَى أن السبقَ إِلَى الإيمانِ من أسْبابِ المغفرةِ والرفعةِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد دلَّ عَلَى ذلكَ الكِتابُ فِي قولِهِ تعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، ولما تخاصمَ عبدُ الرَّحْمنِ بنُ عوفٍ وخالدُ بنُ الوليدِ قال النبيُّ ﷺ لخالدٍ: «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ**

لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أيضًا أن الإطلاقَ تُقَيِّدُهُ قرينةٌ؛ لقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ المُراد أَوَّل المُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِهِم، وإلَّا فقد آمن أحدٌ قبلَهم، أو أوَّل المُؤمنينَ من آلِ فِرْعَوْن؛ لِأَنَّهُ قد آمن أحدهم قبلَهم، فقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من آل فِرْعَوْنَ، والمُفسِّر يقولُ: [في زَمانِنا]، ولكن هَذَا لَيْسَ بظاهرٍ، بل الظَّاهِرُ أَنَّهُ من آلِ فِرْعَوْن؛ لِأَنَّ من بني إِسْرَائِيل مَنْ آمَنَ قبلَ ذلك.

•••

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١).

الآية (٥٢)

• ● ❦ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢].

• ● ❦ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعدَ سِنينَ أقامها بينَهم يدعوهم بآياتِ اللهِ إِلَى الحقِّ، فلم يَزِيدُوا إِلَّا عُتُوًّا].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ والوحيُ فِي اللُّغةِ: الإعلامُ بسرعةٍ وخَفاءٍ، وأمَّا فِي الشرعِ: فهو إعلامُ اللهِ تعالى بالشرعِ لأحدِ أنبيائِهِ، ثم إنَّ الوحيَ قد يكونُ بواسطةٍ، وقد يكون بغيرِ واسطةٍ، وقد قسمَ اللهُ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١]، فقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ هَذَا الإلهامُ (الوحي الإلهامي)، ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ مكالمة صريحة، لكن مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، والثالث: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ (أَنْ) تفسيريةٌ؛ لأنَّهم يقولون: إذا سَبقَها مَعْنى القولِ دونَ حُروفِهِ فهي تفسيريَّة، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧]، وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، وهنا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾؛ لأنها تفسّر ما يوحَى به.

وقوله: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾ المُراد بهم بنو إِسْرَائِيلَ، وهي عبوديَّة شرعيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ بني إِسْرَائِيل، وفي قِراءَة[١] بكسرِ النونِ ووصلِ همزةِ ﴿أَسْرِ﴾ مِن سَرَى لغة في أسرَى، أي: سِرْ بهم ليلًا إِلَى البحرِ]، يعني: يُقال: أَسْرَى وسَرَى، فالأمر من أسرى الرباعي: أَسْرِ، والأمر مِن سَرَى: اسْرِ بهمزةِ وصلٍ، فعلى أَنَّهُ من الرباعي تكون ﴿أَنْ أَسْرِ﴾، تظهر (أَنْ) وتبقى ساكنةً، وعلى أَنَّهَا من (سَرَى) تكسِر النونَ؛ لملاقاةِ الساكنِ، وتكون الهمزة همزةَ وصلٍ: (أنِ اسْرِ بعبادي).

والمَعْنى: سِر بهم ليلًا، يقول المُفَسِّر: [إلى البحرِ]، والدَّليلُ أَنَّهُ إِلَى البحرِ قولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان:٢٤].وكذلك أيضًا ما جاء فِي سياقِ هَذِهِ الآياتِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وجنودُه فيَلِجُونَ وراءكم البحرَ، فأُنْجِيكم وأُغْرِقهم]. أمَرَهمُ اللهُ أن يَسيروا ليلًا، وإنَّما أُمِرُوا أن يسيروا ليلًا؛ لئلَّا يَظْهَرَ أمرُهم، لأنَّهم لو أرادوا أن يَسيروا نهارًا وتجهّزوا، لشَعَرَ بهم آلُ فِرْعَوْن، وحينَئِذٍ يَمْنَعُونَهم أو يُؤْذُونَهم، فلذلك أُمِرُوا أنْ يَسِيروا باللَّيلِ.

قال: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أُكدتْ هَذِهِ الجُملةُ بـ(إنّ) معَ أَنَّهَا جملةٌ اسْميَّةٌ أيضًا، إشارة إِلَى أَنَّهُ لا بدَّ أن آل فِرْعَوْن يتبعونهم بدونِ تردُّد، فاتباعهم لهم أمرٌ مؤكَّدٌ، ولكنهم يَتَّبِعُونَهم طلبًا لهم؛ لأجلِ أن يَقْضُوا عليهم.

• • ❁ • •

(١) الحجة للقراء السبعة (٥/ ٣٥٩).

الآية (٥٣)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٥٣].

• ● ● •

بعدما سَرَوْا ليلًا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حينَ أُخْبِرَ بِسَيْرِهِم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ قيل: كَانَ له ألفُ مدينةٍ، واثنا عشرَ ألفَ قَرْيَةٍ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعينَ الجيش]، فلمَّا علِم بهم فِرْعَوْنُ تحفَّز وخاف أنْ يَخْرُجوا إِلَى مكانٍ آخرَ، فيكوّنوا أُمَّةً فيَغْزُوه، فأراد أنْ يَقْضِيَ عليهم، فأرسلَ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ، والمدائنُ مدائنُ مِصْرَ، وكَوْنُها بهذا العددِ الَّذِي قال المُفسِّرُ يحتاجُ إِلَى ثُبُوتٍ، ونحن ما علينا إلَّا أن نقولَ ما قاله الله، ولكنَّا نَفْهَم أن هَذِهِ المدائنَ كثيرةٌ، ووجهها أن (فعائل) صيغةُ مُنْتَهى الجُمُوع، فهي تدلُّ عَلَى الكثرةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعينَ الجيش]، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّهم لَيْسُوا يقولون: اخْرُجُوا، بل يُجْبِرُونَهم عَلَى أنْ يَخْرُجوا.

• ● ❁ ● •

الآيـة (٥٤)

• ● ● •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:٥٤].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعينَ الجيش قائلًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ﴾ طائفةٌ ﴿قَلِيلُونَ﴾]، هَذَا من بابِ الإغراءِ عَلَى الخروجِ أنْ يُقَلِّلَ الْإِنْسَان عدوَّه فِي مسامع القومِ؛ لأجل أن يَتَشَجَّعُوا.

فإذا قيلَ: أليسَ من الأَولى أنْ يُكَثِّرَهُمْ لأجلِ أنْ يَسْتَعِدُّوا؟

فالجَواب: الأَولى من حيثُ التجهيزُ العسكريُّ التقليلُ، هَذَا هُوَ الظَّاهرُ، وإن كَانَ البعضُ قد يَتَبَادَر إِلَى ذِهْنِه أن يقول: لماذا لم يُكَثِّروا لأجلِ أن يَسْتَعِدُّوا ويَخْرُجوا؟

فيُقال: إن المفاسدَ الَّتِي تَتَرَتَّب عَلَى التكثير أكثرُ من المفاسدِ الَّتِي تترتَّب عَلَى التقليلِ.

فَإِنْ قِيلَ: من المقصود بقوله: (شِرذمة)؟

فالجَواب: المقصود مُوسَى وقومه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَشِرۡذِمَةٌ﴾ طائفة ﴿قَلِيلُونَ﴾]، وكلمة: (شِرْذِمَة) ليستْ بمَعْنَى طائفة فقط، كما قال المُفسِّر، بل بمَعْنَى التحقِير، يعني: أبلغ مِن كَلِمة طائفة،

و﴿قَلِيلُونَ﴾ تدلُّ عَلَى قِلَّة العدد، و(شِرذمة) تدلُّ عَلَى قلة القوَّة، ففيها هنا التقليلُ الكَمِّيّ والكيفيّ، فالكميّ بقوله: ﴿قَلِيلُونَ﴾، والكيفيّ بقوله: (شِرْذِمَة)؛ لِأَنَّ الشرذمةَ الشَّيْءُ الَّذِي لا يُعبأ به؛ لضعفِهِ مثلًا أو عدمِ استعدادِهِ، وما أشبهَ هذا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: كانوا سِتَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفًا، ومُقَدِّمة جيشه سبع مئة ألفٍ]، هَذَا نقول: لا أصلَ له ولا صِحَّة له؛ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أن يكون بنو إِسْرَائِيل بهذا المبلغِ الكبيرِ الَّذِي ذكَر، بل كانوا قليلينَ مُسْتَضْعَفِينَ بِمِصْرَ، حَتَّى إن فِرْعَوْن كَانَ يقتّل أبناءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ، فليسوا إِلَى هَذَا الحدِّ بكثرةٍ، فنحنُ نقول: إن هَؤُلَاءِ وإنْ كانوا ليسوا كما وصفَ فِرْعَوْن بكونهم شِرْذِمَةً قليلينَ، لكن نعلم أَنَّهُم ليسوا بهذه الكثرةِ.

ويقول: [فَقَلَّلَهُمْ بالنظرِ إِلَى كثرةِ جَيْشِهِ]، وليس كذلك أيضًا، وإِنَّما قَلَّلَهُمْ بمسامعِ النَّاسِ من أجلِ أَلَّا يَتَأَخَّرَ أحدٌ، ومن أجلِ أنْ يَتَشَجَّعُوا للخروجِ، فيقول: هَؤُلَاءِ شِرْذِمَةٌ قليلونَ، فهم لُقْمَةٌ سائغةٌ لا يحتاجونَ مِنَّا كثيرَ عَناءٍ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٥)

• ● ● •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء:٥٥].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾: فاعلونَ ما يَغِيظُنا]، هَذَا أيضًا من بابِ الإغراءِ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا ﴾ يعني: لنا آلَ فِرْعَوْن ﴿لَغَآئِظُونَ ﴾ فاعلونَ ما يغيظنا، وهذه نقطةٌ أُخرى للتيسيرِ عَلَى الخروجِ إليهم؛ لِأَنَّ أحدًا من النَّاسِ لا يَرضى أنْ يَغِيظَه أحدٌ، فهو إغراءٌ لبني إِسْرَائِيل.

فَإِنْ قِيلَ: قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ هَذَا الكَلامُ قائلُه فِرْعَوْن نفسه أو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْكِيه؟

فالجَواب: فِرْعَوْن الَّذِي قاله، ولكن لَيْسَ يقولُه أمامَ النَّاسِ، يقوله لرسلهِ الَّذين أرسلَهم إِلَى المدائنِ، يقول: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ كل هَذَا مما أُرسل بِهِ الرُّسُلُ؛ لأجلِ أنْ يَنْشَطَ النَّاسُ عَلَى الإقبالِ.

وإن قيل: القَصَصُ فِي القُرآنِ يكونُ من كَلام القاصِّ، يعني: من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو من كَلام المتحدِّث؟

فالجَواب: من كَلام مَن أُخبر عنه، لكن لَيْسَ بلفظِه؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لُغته قِبْطِيّة ولكن الله ترجمَ كَلامَه إِلَى اللُّغةِ العربيَّة.

• ● ● •

الآية (٥٦)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٦].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ متيقِّظون، وفي قِراءَةٍ: «حَاذِرُونَ»[1] مُسْتَعِدُّون]، بدأ بنفسه، وأخبر أَنَّهُ هُوَ وقومه حَذِرون، أو «حَاذِرُونَ»، واجتماع القراءتينِ يفيد المعنيينِ جميعًا، أي: إننا متيقِّظون، ولِتيَقُّظِنا كنَّا مستعدينَ، فهاتان القراءتانِ تفيدانِ معنيينِ: المَعْنى الأول: التيقُّظ، وَهُوَ استعدادٌ نفسيٌّ، والمَعْنى الثَّاني: الاستعدادُ الحِسِّي؛ لقوله: (حَاذِرُونَ)؛ لِأَنَّ الحاذرَ اسْمُ فاعلٍ، وَهُوَ الَّذِي فعلَ ما يَحْذَرُ به، وَهُوَ الاستعداد فقط.

فَإِنْ قِيلَ: ألا تشمل (حَاذِرُونَ) كلا المعنيينِ؟

فالجَواب: لا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يَسْتَعِدّ ويُحْسِن الإعدادَ والأجهزةَ لكن لا يكونُ مُتيقِّظًا، فقد يستعدّ ولا يتيقَّظ. أليس أهل مِصْر فِي حربِ الأيَّام الستَّة كانوا مُسْتَعِدِّينَ، ولكنَّهم ليسوا مُتيقِّظِينَ، فالطائراتُ قد ملأتِ المطارَ والدعايات من الإذاعات كثيرةٌ جدًّا، ومع ذلكَ لعدمِ تيقُّظِهِمْ قُضِيَ عليهم، فلا بدَّ مِنِ استعدادٍ وتيقُّظٍ.

• • • •

---

(١) الحجة فِي القراءات السبعة (ص:٢٦٧).

الآيتان (٥٧، ٥٨)

• • ◦ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٨].

• • ◦ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي: فِرْعَوْن وقَوْمَه من مِصْرَ لِيَلْحَقُوا مُوسَى وقومَه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: بساتينَ كانتْ عَلَى جانبِي النيلِ، ﴿وَعُيُونٍ﴾: أنهارٍ جاريةٍ فِي الدُّور منَ النيلِ، ﴿وَكُنُوزٍ﴾: أموالٍ ظاهرةٍ منَ الذهَب والفِضَّة، وسُمِّيَتْ كُنوزًا لِأَنَّهُ لم يُعط حقّ الله منها، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: مجلسٍ حَسَنٍ للأمراءِ والوُزراء، يَحُفُّه أتباعُهم].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ الضَّمير يعود عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بصيغة العظمةِ لمناسبةِ المقام؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذين تعاظَموا فِي أنفسهم وتكبَّروا قُوبلوا بِما هُوَ أعظمُ، وَهُوَ قوّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾ يقول المُفسِّر: [بساتين كانت عَلَى جانبي النيلِ]، ولا يُقالُ للبساتين: (جَنَّات) إلّا إذا كانت كثيرةَ الأشجارِ والزروعِ، بحيثُ تَسْتَتِر أرضها بِهَا ويستترُ مَن فيها بها، وأما ما فيه نخلات قليلة أو زرعٌ قليلٌ فلا يُسَمَّى جَنَّةً. وفي قولِهِ: ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إِلَى كَثرتها، ولعلَّ الكثيرَ منهم كَانَ له بستانٌ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعُيُونٍ﴾: أنهار جارية فِي الدورِ من النيلِ]، وينبغي أن يُقالَ: فِي الدورِ وغيرها، حَتَّى الجنات الَّتِي هِيَ البساتينُ إذا كانت فيها أنهارٌ مختلفةٌ؛ فإن ذلك لا شكّ ممّا يُبْهِجُ ويَسُرّ القلبَ، فهو أعمُّ من كونها فِي الدورِ، أو فِي هَذِهِ الجناتِ.

وقوله: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يقول المُفسِّر: [أموال ظاهرة]، ولكن فِي هَذَا نظرٌ كونه يفسّرها بالأموالِ الظَّاهرةِ، ولو فَسَّرْنَاها بالأموالِ الَّتِي تُكنَز سواءً كانتْ مكنوزةً بالفعلِ؛ لكثرةِ المالِ ووفرتِه، فهم لا يحتاجون إِلَى إنفاقه، وإنَّما يكنزونه فِي الأرضِ لِيَرْصُدُوه لِما يُستقبل؛ أقول: سواء كانت مكنوزةً بمَعْنى مدفونةٍ أو غير مدفونة؛ لِأَنَّ الذهب والفضة يُسمَّى كَنزًا إذا لم تؤدّ زكاته، وهذا كنزٌ شرعيٌّ، وإذا دُفن سُمِّيَ كنزًا؛ لُغويًّا.

المهم أننا نقول: الكنوز هِيَ الأموالُ العظيمةُ الكثيرةُ من الذهبِ والفضّة، وسواء كانت هَذِهِ الكنوز نقودًا أو كانت حُليًّا يتحلَّون بها.

يقول: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المقام نقول: المجلسُ، ويمكن أن يكونَ المُراد بِهِ محَلّ الإقامةِ، يعني: المُراد بالمقام المَسْكَن، فهو أعمُّ من أنْ يكونَ المجلس. والكريم: الحَسَن، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِـهِمْ»[1] يعني: أَحَاسِنها، فصار هَؤُلَاءِ ممتَّعين من كلِّ وجهٍ: مقام كريم بأمنٍ وطمأنينةٍ، وراحة، وحسن، وباللون والكيفية، وكذلك أيضًا من حيثُ الأموالُ الوفيرةُ الَّتِي تَوَفَّرَتْ لهم حَتَّى صَاروا يَكْنِزُونَها.

---

(١) سبق تخريجه.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيانُ عُقوبةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للطاغِينَ، وذلك بإزالةِ النِّعَم عنهم؛ إما بإخراجهم منها، وإما بإزالتها هي، وتُؤخَذ من قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ العُقوبةَ بعد التنعيمِ أشدُّ، ولذلك نصَّ عليه، فما قَالَ: فأخرجناهم من أماكنهم فقطْ، أو من دِيَارِهِمْ، ولكن بيَّن عَلَى سبيلِ التعيينِ ما هم فيه منَ النَّعيم؛ لِأَنَّ الأخذَ بالعُقوبةِ بعدَ النعيمِ يكونُ أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحذير للطُّغاة من أنْ تزولَ نِعَمُهُم بسببِ طُغيانهم، ففي عَصْرِنا هَذَا فتحَ اللهُ عَلَى النَّاسِ من أنواعِ النعيمِ ما لم يكنْ مَوْهومًا من قبلُ، وبالأَولى لَيْسَ معلومًا، فيُخْشَى أنْ يخرجَ هَؤُلَاءِ من هَذَا النعيمِ إذا طَغَوْا وعَتَوْا عن أمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي ذلك دليلٌ عَلَى أنَّ الْإِنْسَانَ قد يُؤْخَذ من حيثُ يَرَى أَنَّهُ عَلَا وظهرَ؛ فإن فِرْعَوْنَ بعثَ فِي المدائنِ حاشرينَ يَدْعُوهم إِلَى قتالِ مُوسَى وقومه، فخرجوا تابعينَ لهم عَلَى أَنَّهُم سيدركونهم، فصارَ فِي هَذَا الخروجِ حَتْفهم وهلاكهم، ونظيرُه فِي هَذِهِ الأمّة ما صنعتْ قُريش حينَ خَرَجَت إِلَى بَدْر، وكان أبو جهلٍ يقول: واللهِ لا نَرْجِع حَتَّى نَقْدَمَ بدرًا فنَسْقِي فيها الخُمُور، وتَعْزِف علينا القِيَان، ونشرب الخمور، حَتَّى تسمعَ بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا[1]. فأُخذوا من حيثُ أَتَوْا.

---

(١) مغازي الواقدي (١/ ٤٤).

الآيـة (٥٩)

• • ❀ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

• • ❀ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: إِخْراجنا كما وَصَفْنا، ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾]، يعني أنَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، يعني: إخراجنا لهم كَانَ كذلك، أو يكون التَّقدير: الأمر كذلك. المهمُّ أن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، فهي جملةٌ مستقلَّة عما قبلها وعما بعدها.

ثم قَالَ: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ يعني هَذِهِ الجنَّات والعيون والكُنُوز والمقام الكريم، أورثناها [﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بعد إغراق فِرْعَوْن وقومه]، فصارتْ لهم.

وقوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إِسْرَائِيل: هُوَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ، ومعناه: عبدُ اللهِ، وإِنَّما نُسبوا إليه لِأَنَّ بني إِسْرَائِيل تَفَرَّعُوا منه.

وقوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فيه من الإشكالِ أن النبيَّ ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»(١)، وهنا أورثَ اللهُ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وقومه وأموالهم بني إِسْرَائِيل؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٥٢١).

والجَواب: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أهلك فِرْعَوْن فِي البحرِ بدونِ حربٍ، والغنيمةُ هِيَ ما أُخذَ من مالِ الكفّارِ بقتالٍ وما أُلحِق به، هَذَا تعريفها شرعًا، وهذا ما أخذ بقتالٍ فهؤُلَاءِ هَلكُوا، فبَقِيَتْ دِيَارُهُم لبني إِسْرَائِيلَ، وحتى لو لم يَسْكُنْها بنو إِسْرَائِيل لَسَكَنَهَا آخرونَ غيرُهم، فالمسألة هَذِهِ ما غَنِمُوها بأيديهم، ولكنها من الله عَزَّوَجَلَّ لهلاكِ هَؤُلَاءِ، يعني: كَانَ الأمر أَنَّهُم لَـمَّا هَلَكُوا صارتْ إرثًا لبني إِسْرَائِيل: إرثًا قدريًّا؛ لِأَنَّهُ لا بد أن يكون كذلك.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فهذا شيْء كتبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من بَدْءِ الخَليقة أن الأرضَ للمُؤمنينَ، فهذه هِيَ القرينة الَّتِي تخرجها عن الغنائم فلا تكون غنيمةً.

فالجَواب: لا، هِيَ ليست أرضًا فقطْ، بل جنَّات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، وهذه الكنوز مما يُنْقَل.

وإن قيل: هل كان بنو إِسْرَائِيلَ يسكنون معهم؟

فالجَواب: ساكنون فِي جانبٍ من مِصْرَ، من جانب المدينةِ، لكن اهم أخذوا كنوز فِرْعَوْن وآل فِرْعَوْن.

المهم أن الجَواب الصَّحيح هُوَ الأول، وَهُوَ أن يُقال: إن الغنيمة هِيَ ما أُخِذَ بقتالٍ وما ألحقَ به، وما عدا ذلك لا يُسَمَّى غنيمةً شرعًا.

إذن نقول: ﴿وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ظاهرها مُشْكِل مع قوله: «أُحِلَّتْ لِـيَ الْغَنَائِمُ»، ونحن نقول: أصلًا ليس هناك غنيمة، يعني: كوننا نقول: هَذِهِ من الغنائم

لَيْسَ بصحيحٍ، فليستْ غنيمةً، لكن قد يَتَبادَر لِذِهْنِ أحدٍ عِندَما يقرأ الآية: كيف يؤتيها الله بني إِسْرَائِيل وقد قال النبي ﷺ: «**إن الغنائم لم تَحِلّ لأحدٍ قبلي**»؟ فجَوابه أن نقول: إن هَذِهِ ليستْ من بابِ الغنائمِ.

فنقول: إن هَذَا التوريث لَيْسَ من بابِ الغنيمةِ؛ لِأَنَّ الغنيمةَ ما أُخِذَ من كفّارٍ بقتالٍ، وما أُلْحِقَ به.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل مُوسَى بعد إِبْرَاهِيم -عليهما السلام- مباشرة؟

فالجَواب: لا، بينهما مدة طويلة، هناك إسحاقُ ويعقوبُ، وجاء بعدهم يوسفُ بنُ يَعْقُوبَ إِلَى أهلِ مِصر رسولًا، ولهذا المؤمن قَالَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر:٣٤].

وإن قيل: هل بنو إِسْرَائِيل خرجوا كلهم من مصر؟

فالجَواب: نعم، الظَّاهر أَنَّهُم خرجوا مع مُوسَى كلهم، قال تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢]، فهذا عامٌّ. وبعد ذلك عادوا ورجعوا إِلَى مصر وصاروا فيها.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٠)

• ● ∞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء:٦٠].

• ● ∞ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ لَحِقُوهم ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾ وقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ]. والواوُ فِي قوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ تعودُ إِلَى فِرْعَوْنَ، والهاءُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وعلى هَذَا فقولُهُ: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ﴾ من حيثُ المَعْنى جملةٌ مُعْتَرِضة؛ لِأَنَّ توريثَ بني إِسْرَائِيلَ كَانَ بعدَ أنْ غَرِقَ فِرْعَوْنُ وقومُه.

فيصير ذِكْرُ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ﴾ مناسبةً تَقْدِيمُها فِي الترتيبِ عَلَى ما بعدها؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ كأنَّ قائلًا يقولُ: مَنِ الَّذِي حلَّ مَحَلَّهم؟ فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ﴾، فلمناسبةِ الإخراجِ قُدِّمَتْ، وإلَّا كَانَ مُقْتَضَى الترتيبِ أنْ تكونَ بعد ذِكرِ إهلاكِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ لَحِقُوهم]، يُقال: تَبِعه واتَّبَعه وأَتْبَعَهُ بمعنًى واحدٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥]، (فأَتْبَعَهُ) يعني: تَبِعه أوِ اتَّبَعه، فكلُّ الثلاث بمعنًى واحدٍ، فقولُهُ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ يعني: اتَّبَعُوهم أو تَبِعُوهم، بمَعْنى: لَحِقُوهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّشْرِقِينَ ﴾ وقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ]، وإلى جهةِ المَشْرِقِ أيضًا، مِثْلَمَا نقولُ نحنُ: مشرّق، يعني: نحوَ المَشْرِقِ، فهم فِي الحَقِيقَةِ ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾

إمَّا كما قال المُفسِّرُ: [وقتَ شروقِ الشَّمْسِ] أو مُتَّجِهِينَ نحوَ المشرقِ، وكِلَا المعنيينِ صحيحٌ، فمُشْرِقٌ: مُتَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشْرِقٌ وقتَ الشُّرُوقِ باعتبارِ الزَّمانِ، والعادةُ أنَّ الخُرُوجَ أوَّلَ النَّهارِ أنشطُ للناسِ وأَولى، وكان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يخرج مبكِّرًا، ولكنَّه يَبْقَى حَتَّى تَفِيءَ الأفياءُ، وتزولَ الشَّمْسُ، وتَهُبَّ الرِّيَاحُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا مُوسَى ومَن مَعَه خَرَجُوا فِي اللَّيل وفِرْعَوْن ما خَرَجَ بعدَهم إلَّا بعدَ خُرُوجِ الشَّمس؟

فالجَوابُ: خرجَ مُوسَى وقومُه ليلًا اختفاءً؛ خوفًا عَلَى أنفسهم من فِرْعَوْنَ فخَرَجُوا باللَّيلِ، أمَّا هَذَا فما خرجَ خائفًا حَتَّى ينتظرَ قدومَ اللَّيلِ، فخرجَ مُعْلِنًا أنَّه ظاهرٌ منتصِرٌ لنفسه.

• • ❁ • •

الآيتان (٦١، ٦٢)

• • ☙ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

• • ☙ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ رأى كلٌّ مِنهما الآخرَ]، والمُرادُ بهما جَمْعُ مُوسَى وجَمْعُ فِرْعَوْنَ [﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يُدْرِكُنا جَمْعُ فِرْعَوْنَ، ولا طاقةَ لنا به].

قال: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أكَّدوا الإدراكَ بـ(إنّ) واللامِ، يعني: مُدْرَكُون يَقينًا؛ وذلك لِأَنَّ البحرَ أمامَهم وآلَ فِرْعَوْنَ خَلفَهم، فلا بدَّ أنْ يُدْرِكُوهم، فأينَ يَذْهَبُون؟ فليسَ أمامَهم إلَّا البحر؛ إنْ خاضوا البحرَ غَرِقُوا، وهم لنْ يَخُوضُوه بِحَسَبِ اعتقادِهِمْ فِي تلكَ الساعةِ؛ لأنَّهم لا يَعْلَمُون بالأمرِ، فهم لنْ يَخُوضوا البحرَ، فما بَقِيَ إلَّا أنْ يُدْرِكَهُمْ آلُ فِرْعَوْنَ.

ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بالجُملةِ الاسْميَّةِ المؤكَّدة بـ(إنّ) واللامِ، ولكن مُوسَى أجابَهُم بقولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لن يُدْرِكُونا]، قال ذلك مُوسَى إيمانًا باللهِ تعالى، وثِقةً بوعدِهِ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أمرهم بالخروجِ إلَّا لِيَحْمِيَهُمْ مِن فِرْعَوْن وآلِهِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بِنَصْرِهِ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النَّجاةِ].

أولًا: ما قَالَ: كلَّا إنِّي سأُهدَى، بل قدّم مَعِيَّةَ اللهِ؛ لأنها أَقْوَى فِي تَثْبِيتِ قومِهِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وكلُّ إنسانٍ يكونُ اللهُ معَه فلنْ يَضُرَّهُ شيْءٌ، ثم قال أيضًا مؤكدًا أثر هَذِهِ المعيَّة: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ والسينُ تدلُّ عَلَى التَّحقيقِ والقُربِ، ومَعْنى ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سَيَدُلُّنِي عَلَى طريقٍ أَنْجُو به، ومُوسَى لم يكنْ عالمًا بهذا الطَّريقِ حينَ ذاكَ، ولكنَّه واثقٌ منَ النَّجاة، ولهذا أَتى بالسِّينِ الدالَّة عَلَى التَّحقيقِ وعلى القُرْبِ أيضًا؛ لِأَنَّ المَقامَ يَقْتَضِي ذلكَ.

فهَؤُلَاءِ أكَّدوا أَنَّهُم مُدْرَكُون، فقُوبِلُوا بالتَّأكيدِ أَنَّهُم لنْ يُدْرَكُوا، وتأكيدُ ذلك أوَّلًا بِذِكْرِ مَعِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وتأكيدُه ثانيًا بقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ لِأَنَّ السِّينَ كما هُوَ معروفٌ عند أهلِ النَّحْوِ تدلُّ عَلَى التَّحقيقِ والقُرْبِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وفعلًا حصلَ ما تيقَّنَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أنَّ اللهَ سُبْحَانَه سَيَهْدِيه طريقَ النجاةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما توجيهُ المَعِيَّة هنا فِي قول المُفَسِّر: [﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصرِه]؟

فالجَواب: المُرادُ بالمعيَّة هنا المعيَّةُ الخاصَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي النصرَ والتأييدَ؛ فإنْ قصَدَ المُفسِّرُ بنصرِهِ أَنَّهُ تفسيرٌ بالمعيَّة بالمَعْنى العام فهذا لَيْسَ بصحيحٍ، وإنْ أرادَ بنَصْرِهِ أَنَّهُ أثرٌ لذلكَ، فهذا صحيحٌ، فالمُفسِّر لا يُعْتَرَضُ عليه؛ لِأَنَّ هناكَ احتمالًا أَنَّهُ يقولُ: معي بِنَصْرِهِ، بمَعْنى أن هَذِهِ المعيَّة سيكونُ أَثرها النَّصْر.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي هَذَا دليلٌ عَلَى قوَّة إيمانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قولِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ووجهُ قوَّةِ الإيمانِ أَنَّهُ فِي هَذَا المَقامِ المُحْرِجِ الَّذِي لا يرى الْإِنْسَان فيه إلا أَنَّهُ هالِكٌ، ولهذا قال أصحابُه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما يَهدي إِلَى الطَّريقِ المعنويّ يهدي أيضًا إِلَى الطَّريقِ الحِسِّيّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وليس المُراد هنا هداية العلمِ والتوفيقِ للعملِ الصَّالحِ، وإنَّما المُرادُ بالهدايةِ لِطَرِيقِ النَّجَاةِ الَّتِي يَنْجُو بها، فهداه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• ● ● •

الآيــة (٦٣)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣].

• ● ● •

قال تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ وهذه لا يَصْلُحُ فيها: (أَنْ أَضْرِب)؛ لِأَنَّ (ضَرَبَ) لا يأتي رُباعِيًّا، ولهذا يجب كسرُ النونِ: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾، و(أَنْ) هَذِهِ تفسيرية.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فَضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾]. تقديرُ الْمُفَسِّرِ (فضربه) صحيحٌ؛ لِأَنَّ البحرَ لم يَنْفَلِقْ بمجرَّد الوحيِ، بل بالضَّرب، وفي قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ إشارة إِلَى أن مُوسَى ﷺ بادرَ بضربِ البحرِ، وأن البحرَ انفلقَ حالًا بدونِ تأخُّر.

ومَعْنى ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ قال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فانشقَّ اثني عَشَرَ فِرقًا، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجبل الضخم، بينهما مسالِكُ سَلَكُوها، لم يبتلَّ منها سَرْجُ الراكبِ ولا لِبْده].

يقول: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهذه العصا الَّتِي كَانَ يَحْمِلُها دائمًا يَتَوَكَّأُ عليها، ويَهُشّ بِهَا عَلَى غنَمِه، وله فيها مآرِبُ، فتكون هَذِهِ العصا فيها مصالحُ عظيمةٌ، وفيها من آياتِ اللهِ ثلاثُ آياتٍ، هَذِهِ إحداها.

والثَّانية: الثُّعبان، أَنَّهُ إذا ألقاها صارتْ ثعبانًا مُبينًا.

والثالثة: إذا ضَرَبَ بِهَا الحَجَرَ تفجَّر عُيونًا.

فهذه ثلاثُ آياتٍ، أما البقيَّة: فالاتِّكاء عليها، والهَشّ بِهَا عَلَى الغنم، ودفع الصَّائل، وما أشبهَ ذلك، فهذه ليستْ منَ الآياتِ، بل من الأمورِ المعتادَة.

وقوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ المُراد بِهِ البحرُ الأحمرُ، ويُسَمَّى بَحْرَ القُلْزُم، هَذَا البحرُ انفلقَ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبلِ العظيمِ، يعني: لِكِبَرِه وارتفاعه؛ لِأَنَّ قاعَ البحرِ قويٌّ عميقٌ، فيكون كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ للكِبَرِ وللارتفاعِ، وظاهرُه أَنَّهُ عريضٌ؛ لِأَنَّ الطودَ العظيمَ يتناولُ الكِبَرَ والارتفاعَ والعَرْض، وَهُوَ كذلك، وهذا من آياتِ اللهِ؛ لِأَنَّ العصا إذا ضربت لا تَتَّسِع لمكانٍ واسعٍ، وهذه الأطوادُ -الاثنا عَشَرَ- مكانها بلا شكّ واسعٌ، والطرقُ أيضًا ستكونُ واسعةً.

ثم إن فِي هَذِهِ الضربة من آياتِ اللهِ -غير انفلاق البحر- أَنَّهُ صارَ يَبَسًا، يَبِسَ فِي الحالِ، قال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، وهذا أيضًا من آياتِ اللهِ، أن الله أزال عنهم الخوفَ وألقاه عنهم، وإلَّا فطبيعة البشرِ تَقتضي إذا كَانَ الماءُ عَلَى يمينِه ويسارِه كالأطوادِ أن يخافَ، ولكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ألقى عنهمُ الخوفَ، فلم يخافُوا أبدًا.

وفي قوله: ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ظاهرٌ أَنَّ الماءَ لم يَتَغَيَّرْ، يعني: لم يتجمَّدْ بالمَعْنى المعروفِ، فيكون أبيضَ جامدًا، ولكنَّه بقِيَ جامدًا عَلَى طبيعته أسودَ، وهذا أعظمُ ممّا لو تجمَّد وَهُوَ عَلَى غيرِ طبيعتِه لصارتْ فيه آيةٌ واحدةٌ، وهي سرعةُ التجمُّد بهذه اللحظةِ، فكونه لا يَسيل وَهُوَ جامدٌ أمرٌ طبيعيٌّ عاديّ، لكن كونه يبقى مائعًا ولكن لا يَسيل، فهَذَا أبلغُ من ذلك. ففيه آيتان: أَنَّهُ لا يسيل، وأنه لا يسيل وَهُوَ عَلَى طبيعته، والله تعالى عَلَى كل شيْءٍ قديرٌ.

وفيه أيضًا دَليل عَلَى أنّ كلّ شيْءٍ يَمتثِل لأمرِ اللهِ، وأن الله تعالى قادرٌ عَلَى قلبِ الأمورِ عن طبائعها، فضلًا عن تغيّر صفاتها، فهذه النارُ الَّتِي من طبيعتها الإحراقُ والحرارةُ كانت بردًا وسلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم فِي الحالِ، وهذا الماءُ الَّذِي من طَبيعته الإغراقُ والسَّيَلان صارَ أمْنًا وجامدًا لا يسيلُ بالنِّسبةِ لبني إِسْرَائِيلَ.

قال أهل العلم: إنه ما من آيةٍ أُعْطِيَها أحدٌ من الأَنْبياءِ إلَّا وكانتْ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والآية المقابلةُ لهذا الأمرِ ما جَرَى لِسَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ لَـمَّا أرادَ الغزوَ حيث خاضَ الماء[1]، ولكن ما صار يَبَسًا، وهذا أبلغُ؛ أَنَّهُ يكونُ باقيًا عَلَى طبيعته يجري كما هو، وهذه الخيولُ والإبلُ والمُشاةُ يمشون عليها.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ ليست بعهدِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

فالجَواب: كرامةُ أتباعِهِ مُعْجِزَةٌ له.

فالحاصلُ أن يُقالَ: إن ما جَرَى لبني إِسْرَائِيلَ جَرَى لهذه الأُمَّة مثله؛ وذلك لِأَنَّ كرامةَ أتباعِ النبيِّ مُعْجِزة له؛ إذ مَعنَى الكرامةِ الشهادةُ بأنَّ ما عليه هَذَا المكرَم حقٌّ، فإذا كَانَ أتباعُ النبي ﷺ جاء لهم شهادة بأنَّ ما هم عليه حقّ، كَانَ مَعْنى ذلك أنَّ ما جاء بِهِ الرسولُ ﷺ هُوَ حقٌّ.

فَإِنْ قِيلَ: قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ اثني عَشَر فرقًا، الاثنا عشرَ هَذِهِ ضرب اثنتي عشرة مرةً أم ضربة واحدة فانفلق اثني عشرَ؟

فالجَوابُ: لا، ضَرْبَة واحدة، فانفلقَ اثني عشرَ.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٥٧٤، رقم ٥٢٢).

وإنْ قيلَ: كل اثني عَشَر ألفًا يدخلونَ من طريقٍ؟

فالجَوابُ: لا نَدْرِي، كلّ اثني عشر ألفًا يدخلونَ من طريقٍ أو عشرة آلاف أو ألف

وإنْ قيلَ: كم عَدَدُهُمْ؟

فالجَواب: لا ندري، هم عَلَى كلِّ حالٍ اثنتا عشْرَةَ قبيلةً، فالأسباطُ فِي بني إِسْرَائِيلَ مثلُ القبائلِ فِي العربِ، وهم اثنتا عَشْرَةَ، لا نَعْرِفُ كم عَدَدُ القبيلةِ؛ قد تَقِلُّ أو تَكْثُرُ، فيمكنُ كل قَبيلة مثلًا خَمْسُ مئةِ نفرٍ أو أكثرُ أو أقلُّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ دَليلٌ عَلَى الكثرةِ؛ لِأَنَّهُ ينافي الحكمةَ لو أخبرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الطَّريقَ عظيمٌ وهم قليلٌ؟ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلَ اثني عشرَ طريقًا لقبائلِ بني إِسْرَائِيل، وهم قليلونَ وينافي الحكمةَ، فلا بدَّ أَنَّهُم كثيرونَ، وكلُّ واحدٍ كالطَّوْدِ العظيمِ؟

فالجَواب: كلُّ فِرقٍ لَيْسَ معناهُ الطَّريق، فالماءُ الَّذِي بينها مثلُ الجبالِ وليسَ نفس الطَّريق، فـ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: من الماء، فالماء الَّذِي بينها مثل الجبال. وذكر بعضُ الَّذينَ يَنْقُلُونَ الإِسْرَائِيليَّات أَنَّهُ صار بهذه الأطواد فُرَج ينظرُ بعضُهم إِلَى بعضٍ؛ زيادةً فِي الأمنِ، ولكن الله تعالى أعلمُ هل هَذَا صحيحٌ أو لا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فمَنِ المقصودونَ فِي قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]؟

فالجَواب: هم الَّذين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النِّساء:١٥٣]، هَؤُلَاءِ المختارون.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يكونون المختارينَ ثم يقولون: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ؟!

فالجَواب: نعمْ، لا شكَّ أن هَذَا فِي الحَقِيقَةِ مما يدلُّ عَلَى أَنَّهُم مهما بَلَغُوا بالكمالِ أَنَّهُم ليسوا كهذه الأمَّة.

فَإِنْ قِيلَ: الظَّاهرُ أنَّ إيمانَهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم وَصَلُوا إِلَى حدّ عبادةِ الصنمِ؟

قلنا: لا، هم طلبوا إلهًا، لكن مُنعوا، وقد عبَدوا العجلَ بعدَ أنْ غاب عنهم مُوسَى. وهم عَلَى كلِّ حالٍ حَتَّى لو كَانَ إيمانهم ضعيفًا فِي أوَّل الأمر، ونحن لا نعلم عن إيمانهم، لكن ظاهرُ الآياتِ أَنَّهُم مُنّ عليهم بهذا لكمالِ إيمانهم، والْإِنْسَان إذا توفرتْ لديه النعمةُ قد يَختلف حالُه، فهم خرجوا فِي الأوَّل وهم فِي قِلّة وفي ضعف وفي خوفٍ، وهم أقربُ إِلَى الإيمان مما إذا نُعِّمُوا هَذَا النعيم؛ لِأَنَّ العادة أن الْإِنْسَان إذا نُعّم فَإِنَّهُ يَحْصُلُ منه الأَشَرُ والبَطَر، هَذَا هِيَ العادة.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمْكِنُ أَنْ يُقالَ: إن هَؤُلَاءِ الَّذينَ حَصَلَ منهم هَذِهِ الأشياءُ أَنَّهُم ذُرِّيَّتُهُمْ؟

فالجَواب: الظَّاهر أَنَّهُم عَلَى حَسَبِ الأجيالِ المعروفةِ يَتَوَالَدُون، والَّذين صاروا فِي التِّيهِ وحُرِّمَتْ عليهم الأرضُ المقدَّسة أربعينَ سنةً فلأجلِ أنْ تَتَغَيَّر أوضاعهم وأحوالهم بإنشاءِ خلقٍ آخرَ.

المهم نَجْزِم أن إيمانَهم فِي ذلك اليوم كَانَ إيمانًا جيِّدًا قويًّا حينما أغرقَ فِرْعَوْنَ، ولهذا نُصِروا هَذَا النصرَ العظيمَ عَلَى فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ سياقَ الآياتِ يدلُّ عَلَى هذا.

فَإِنْ قِيلَ: إن إيمانهم ضعيفٌ بقرينةِ ما حصلَ؟

قلنا: ما حصلَ بعدُ، والْإِنْسَان يَتغَيَّر.

فَإِنْ قِيلَ: المهاجرونَ لَـمَّا آمنوا إيمانًا قويًّا، والأنصار لما آمنوا إيمانًا قويًّا ما صار منهم شيْء مثلما حصلَ من بني إِسْرَائِيلَ؟

قلنا: لا نقارنُ بني إِسْرَائِيلَ بهذه الأمَّة، فمسألة المقارنةِ غيرُ واردةٍ؛ لِأَنَّهُ لا سـواء، بنو إِسْرَائِيلَ ابْتُلُوا بالحِيتان فلـم يَصْبِرُوا وتحيَّلوا، وهذه الأمَّة ابتُلـوا بالصَّيد وهم مُحْرِمون فصَبَروا، وغيره، وغيره، فلا تقارن إيمان هَذِهِ الأمة بإيمان مَن سبقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أقصدُ المقارنةَ، ولكن أقصدُ أن الإيمان إذا كَانَ جيِّدًا فِي البدايةِ فالغالبُ أَنَّهُ تصرف عنه مثل هَذِهِ الأشياء الخطيرةُ، وإلا فالصغائر أمرها أقل خطرًا.

قلنا: عَلَى كل حالٍ هم حينَذاك لا شكّ أَنَّهُم مؤمنونَ؛ لأنَّهم شاهدوا الإيمان وورثوا الأرض، ولا مانع أن تطرأ لهم أحوال يتغيَّرون بها.

فَإِنْ قِيلَ: لو لم يكونوا مُؤمِنينَ لَـمَا صَبَروا عَلَى أذى فِرْعَوْن حينما قطَّعَ أرجلَهم وأيديَهُمْ من خلافٍ، وهذا دَليلٌ عَلَى قوة إيمانهم العظيم.

قلنا: لا، هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ لا شكّ فِي قوة إيمانهم، والسَّحَرَة من آلِ فِرْعَوْن. وهم غير الَّذين ذهبوا مع مُوسَى، فالكَلامُ عَن بني إِسْرَائِيلَ، وبنو إِسْرَائِيل غير السَّحَرَة، فالسَّحَرَة من القِبط من آلِ فِرْعَوْن.

فنقول: الأَصْلُ أن إيمانهم فِي تلكَ الساعةِ قويٌّ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وإنَّ النصرَ إِنَّما يَسْتَحِقُّه المؤمنونَ، وإِنَّما يَرِثُ الأرضَ عبادُ الله الصَّالحون، لكن لا مانعَ من أن تطرأ أحوالٌ، وتَتَجَدَّد أعمالٌ، فيَنْصَرِفون هم أو بعضهم عن الحقِّ.

فهذا الجدلُ لا فائدةَ فيه، نحن نقولُ: إنّ مَنِ انتصرَ فهو مؤمنٌ حقًّا، ومَن نصرهُ اللهُ وأورثهُ الديارَ فهو من عبادِ اللهِ الصَّالحينَ، هَذَا الأَصْلُ. ثم إذا طرأتْ أحوالٌ نقول: الله أعلمُ كيف تطوَّرت هَذِهِ الأحوال، ففي الحَقِيقَةِ لَيْسَ فِي هَذَا فائدةٌ، وليست المسألة عَمَلِيَّة نُطَبِّقُها حَتَّى نُحقِّق كيف نعملُ، فقد قصّ الله علينا فِي هَذِهِ المسألةِ أحوالًا لبني إِسْرَائِيلَ تدلُّ عَلَى أن هَؤُلَاءِ القوم آمنوا وطرأتْ عليهم أحوالٌ، وبالنظرِ إِلَى أحوالهم العامَّة نَعْرِف أن إيمانهم لَيْسَ كإيمان هَذِهِ الأمَّة، وأن هَذِهِ الأمَّة أكملُ فِي إيمانها، وأكملُ عملًا.

فَإِنْ قِيلَ: هل نستنتج من هَذَا أَنَّهُ من الممكنِ أن يكونَ هناك إيمان كامل فِي البدايةِ ثم يَنْقُصُ نقصًا شديدًا إِلَى أن يصلَ إِلَى حدٍّ ما وصلوا إليه؟

فالجَواب: هَذَا ممكنٌ، وليس هناك إشكال أن الإيمان حاصل، لكن الَّذِي أشكل أَنَّهُ كيف تطورتِ الأحوالُ إِلَى أن يقولوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وهذا لا يمنع أن بعضهم قال هذا، أو تقلَّبت بهم الأحوالُ، فالله أعلمُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما المقصود بالفِرق؟

فالجَواب: الفِرق: الطائفةُ من الماءِ، فصار كل فِرقٍ وقطعة منه مثل الطَّوْد العظيم.

فَإِنْ قِيلَ: ما الغرضُ من ذِكْر عهدِ أسلافهم؟

فالجَوابُ: مِنَ المُمْكِنِ أنَّ اللهَ يُذَكِّرهم بِعُيُوبِهِم السابقةِ لَعَلَّهم يَرْتَدِعوا، أو يُذَكِّرهم بهذا لبيانِ أن هَذَا من عادتهم وسَجِيَّتِهِم، فهو بين أمرينِ:

■ إما أن يبيِّن عَيْبَهُم لعلَّه يُصْلِح من أحوالهم، ويكون ما صلحَ من أحوال باقيهم كالهادمِ لَمِا سَبَقَ.

■ وإمَّا أن يُقالَ: إن هَذَا بيان؛ لِأَنَّ هَذِهِ طبيعتهم وسَجِيَّتهم مثلًا، فيكون فيه مع التوبيخ لِهَؤُلَاءِ تسليةٌ للرسولِ ﷺ وأصحابه.

فَإِنْ قِيلَ: وماذا عن أحوالهم الآن؟

فالجَواب: ما صاروا عليه أخبثَ؛ لأنَّهم صاروا كفّارًا؛ لِأَنَّهُ بعد بعثةِ الرسولِ ﷺ، بل بعد بعثة عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكفرهم بِهِ صاروا كفّارًا وليس فيهم إيمان أبدًا.

ولا شكَّ أن عندهم عُتُوًّا، ومَن أراد أن يعرِفَ عن أحوالهم شيئًا فليراجِعْ (إغاثة اللَّهْفان) لابن القَيِّم، لكن الكَلام عن الَّذين أُورِثُوا أرضَ فِرْعَوْن فِي ذلك الوقتِ، ما لنا فِي الحَقِيقَة حقٌّ أن نقولَ: إيمانهم كاملٌ، أو إيمانهم ناقصٌ، إنَّما نعرِف من قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أنَّهُم فِي ذلك الوقت صالحونَ فقطْ، وتغير الأحوال بعد ذلك الوقت واضحٌ.

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ بفَلْقِ البحرِ، وتَيْبِيسه فِي الحالِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَليلٌ عَلَى أن لكلِّ شيْءٍ سببًا، حَتَّى الآيات الَّتِي يجعلها اللهُ عَلَى يدِ الشخصِ لها سببٌ؛ فإن الله تعالى لم يَفْلِقِ البحرَ إلَّا بعد أن أَوحى إِلَى مُوسَى أنِ اضْرِبِ البحرَ بعصاكَ، فضربه فانفلقَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هَذَا الماء كالأطوادِ -كالجبالِ العظيمةِ- عَلَى إيمانهم وشَمائِلِهم، ليكونَ فِي عُبُورِهم؛ حَتَّى لا يأخذهم العُجْبُ والعُلُوُّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأطواد هِيَ فِي الحَقِيقَةِ بمنزلةِ نواقيس الإنذار، يخافون ويرهبون إذا كَانَ الماءُ عَلَى إيمانهم وشمائلهم مثل الأطوادِ؛ فإنهم لا يَرَوْنَ فِي أنفسهم استغناءً عن الخوفِ، فيكونون بين الخوفِ وبين الرجاءِ؛ وذلك فِي قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها أيضًا مِن آياتِ الله -فوقَ تَفْلِيقِ الماءِ- إِثْباتُ الماءِ جامدًا حَتَّى لا يسيلَ، واللهُ تعالى عَلَى كلِّ شيْءٍ قديرٌ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

• • ✽ • •

الآيات (٦٤- ٦٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٤-٦٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قرّبنا ﴿ثَمَّ﴾ هناكَ ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ فِرْعَوْن وقومَه حَتَّى سَلَكُوا مَسَالِكَهُم]، الإزلافُ: بمَعْنى الإقرابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠]، أي: قُرِّبت

وقوله: ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناكَ عِندَ البَحْرِ. وقوله: ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ يعني فِرْعَوْن وقومَهُ، قرّبهم اللهُ تعالى إِلَى البحرِ، فرَأَوْا هَذِهِ الطُّرُقَ مفتوحةً أمامهم، فما كَانَ منهم إلَّا أنْ دَخَلُوها؛ لِأَنَّها طُرُقٌ أمامَهم رَأَوْا مُوسَى وقومَه قد عَبَرُوا منها، فاتَّبَعُوهم، فلمّا تكاملَ هَؤُلَاءِ داخلينَ وهَؤُلَاءِ خارجينَ، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بإخراجِهِمْ منَ البحرِ عَلَى هَيْئَتِهِ المذكورةِ]، وهذا إنجاءٌ من أعظمِ المِنَنِ، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِرْعَوْن وقَوْمَه بإطباقِ البحرِ عليهم لما تمّ دُخُولُهم فِي البحرِ وخروج بني إِسْرَائِيل منه]، فانتقم اللهُ تعالى من فِرْعَوْن وقومِهِ، وأَغْرَقَهُم بالماءِ الَّذِي كَانَ يَفْخَرُ بِهِ فِرْعَوْنُ من قبلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يقولُ لقومِهِ مُفْتَخِرًا: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فهو افتخر عَلَى قومه بأن الأنهارَ تَجْرِي من تحته، وهي ماءٌ، فأُغْرِقَ بما كَانَ يَفتخرُ به.

وهذا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن الله يُغْرِق المُعْجَبِين؛ إمَّا بما أُعجِبوا به، وإما بما هُوَ أهونُ شَيئًا. فعادٌ لما قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، أُهلِكوا بألطفِ الأشياءِ، وهي الرِّيحُ.

• • ❀ • •

الآيــة (٦٧)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٦٧].

• ● ● •

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إغراقِ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ ﴿لَآيَةً﴾]، وتفسيرُ المُفسِّر لِلمشارِ إليه فيه قُصُورٌ؛ لِأَنَّهُ ليستِ الآيَةُ بإغراقِ فِرْعَوْنَ وقومِه فَحَسْب، ولكن بِفَلْقِ البحرِ، وكونه يَبَسًا، وإنجاء مُوسَى وقَوْمِه، وإغراق فِرْعَوْن وقومِه، ولو قيل: إنّ الإشارةَ تعودُ إِلَى كلِّ ما ذكَر، يعني: إن فِي ذلك المذكور من قِصَّة مُوسَى ﴿لَآيَةً﴾ علامَة عَلَى قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى نَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، فيكون مُتَضَمِّنًا لتسليةِ النبيِّ ﷺ وتحذير المُخالِفِينَ له؛ لكانَ أَولى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَآيَةً﴾ عِبرةً لِمَن بَعْدَهم]، واللامُ للتَّأكيدِ، ومَحَلُّها لام الابتداء الَّتِي تكونُ فِي أوَّلِ الجُملةِ: (لَئِنّ فِي ذلك)، لكن قال النَّحوِيُّونَ فِي تَعليلهم لهذا: إنَّه لا يَنبغي أنْ يَجتمِعَ مؤكِّدان متواليانِ، فأخّروا اللامَ إِلَى ما تأخّر من خبر إنّ واسمها، والله أعلم هل هَذَا حقيقة أمْ أنَّ العربَ نَطَقُوا بِهَا هكذا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ باللهِ، فلم يؤمنْ منهم غير آسِيَةَ امرأةِ فِرْعَوْنَ، وحِزقِيل مؤمن آل فِرْعَوْن، ومَرْيَم بنت ناموصى، الَّتِي دلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]. يجوز أن يكون: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني: أكثر قومِ مُوسَى الَّذين أُرسل إليهم، ويجوزُ أن يكون: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر النَّاس

المخاطَبِينَ بهذا القُرآنِ، يعني: هَذَا فيه آيةٌ لكن ما كَانَ أكثر المخاطَبين بِهِ مُؤمِنينَ به.

والأَولى أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ يعود عَلَى الَّذين نزلَ عليهم القُرآنُ، لا عَلَى بني إِسْرَائِيل، أو آل فِرْعَوْن.

وأمَّا ما ذكرهُ المُفسِّر فنقول: أمَّا امرأةُ فِرْعَوْنَ، فصحيحٌ أَنَّهَا آمنتْ، وأمَّا مؤمنُ آل فِرْعَوْنَ فصحيحٌ أَنَّهُ آمن، لكنْ تَسْمِيَتُه بحِزْقِيل يَحتاجُ إِلَى دَليلٍ، والثالثة مَرْيَمُ بنتُ ناموصى، هَذِهِ لا ندري بعدُ من أين جاءتْ؟! وما سَمِعنا بِهَا إِلَى الآنَ، وقوله: [التي دَلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُفَ]، هُوَ ابنُ يَعقوبَ، ولا نَدري أين عِظَامُه، ثم إذا دلَّتْ عَلَى عِظامه فهي إِلَى الذمِّ أقربُ مِنَ المَدْحِ؛ لِأَنَّ العظامَ مُحْتَرَمَةٌ، والمفروضُ أَنَّهَا لا تُنبَشُ ولا يُسأَلُ عنها، ثم إن قولَه: [عِظَام يوسف]، هَذَا خطأ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ أن اللهَ حرَّم عَلَى الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأَنْبياءِ[1]، فكيفَ يُقالُ: ما بَقِي إلا عِظَامُه؟!

الحاصلُ أنَّ مثل هَذِهِ الإِسْرَائِيليَّات يُؤسَفُ مِنَ المُفسِّر ومن غيرِه أنْ يَنْقُلُوها.

فَإِنْ قِيلَ: بإمكان فِرْعَوْن أن يعومَ فِي الماء؟

فالجَواب: هَذَا لَيْسَ محَلّ العومِ؛ لِأَنَّهُ انطبقَ عليهم الماءُ فِي أعماقِ البحرِ، فلا يستطيعونَ، ثم إنّ العذابَ إذا نزلَ لا تَنْفَع فيه سباحةٌ ولا غيره، فأظنُّ قبل ثلاث سنوات نزل عَلَى محَطَّة الكهرباء فِي نيويورك صواعِقُ معَ أن عندهم مانعاتُ صواعقَ فقَلَعَتِ الأعمدةَ، فما نَفَعَها.

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

الآيــة (٦٨)

• • • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٦٨].

• • • •

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هَذَا مِمَّا يؤيِّد ما ذَهبنا إليه؛ أنَّ المُرادَ بأكثرهم: الَّذين نزلَ عليهم القُرآنُ، ولهذا أضافَ الربوبيَّة إِلَى النبيِّ ﷺ فِي قولِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لأنها تَقْتَضِي العنايةَ الخاصَّة بالرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفي قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أتى باللامِ الدالَّة عَلَى التَّأكيدِ؛ لتكونَ الجُملةُ مؤكدةً بمؤكديْنِ.

فإذا قال قائل: الخطاب للنبي ﷺ وحاله لا يَقتضي التَّأكيدَ؛ لِأَنَّهُ مقرّ، ومن قواعدِ البلاغةِ أَنَّهُ لا يؤكَّد الكَلامُ إلَّا لِلْمُتَرَدِّد أو للمُنْكِرِ؛ فإن كَانَ للمتردِّد فهو استحسانٌ، وإنْ كَانَ للمنكِرِ فهو وجوبٌ، يعني التَّأكيد، وهنا أكَّد بمؤكدينِ معَ أن الخطابَ للنبيِّ ﷺ وَهُوَ مُقِرٌّ بذلك؟

فيُقال: إن هَذِهِ القاعدة الَّتِي ذكروها ليستْ عَلَى إطلاقها، بل فيها قُصُورٌ؛ فإنّ الشيْء يُؤَكَّد باعتبارِ حالِ المخاطَبِ، وحينَئذٍ نقولُ: إذا كَانَ مُتَرَدِّدًا فَيَحْسُنُ تأكيدُه، وإذا كَانَ مُنكِرًا فيجبُ تأكيدُه، كذلك يؤكَّد الكَلامُ باعتبارِ أَهَمِّيَّتِهِ، فإذا كَانَ الكَلامُ موضعَ اهتمام فَإِنَّهُ يؤكَّد حَتَّى وإنْ كَانَ المخاطَبُ مُقِرًّا به؛ لبيانِ اعتناءِ المتكلِّم به، فهنا هَذِهِ المسألةُ مُهِمَّة جدًّا.

ثم يُقال أيضًا: إن الآية ذكرتْ تسليةً للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومن جهةٍ أُخرى تهديدًا للكفّارِ، والكفّار قد يشكّون -أو يُنْكِرون- فِي عِزَّة اللهِ ورحمته، فلهذا جمعَ بينهما مؤكّدًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فانتقم من الكافرينَ بإغراقِهِمْ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمُؤمِنينَ، فأنجاهم مِنَ الغَرَقِ]، يَقْرِنُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دائمًا بينَ العِزَّةِ والحِكْمَة، وأحيانًا فِي مثلِ هَذِهِ السُّورة بينَ العِزَّة والرَّحمة.

وبينَ الوصفيْنِ أو الاسمينِ تناسبٌ ظاهرٌ، أمَّا العِزَّة والحِكمة فالتناسُبُ بينهما هُوَ أنَّ الْعَزِيز هُوَ الغالبُ القاهرُ، والغالبُ القاهرُ إنْ لم تكنْ فِي غَلَبَتِهِ حِكْمَةٌ صار تَصَرّفه غيرَ محمودٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ مِن مصدرِ القوَّةِ، وإذا كَانَ يَتَصَرَّفُ من مصدرِ القوةِ ولا حِكْمَة عنده صار يَبْطِشُ بطشًا فِي غير محَلِّه، وربَّما يَتْرُكُ ما يَنبغي فيهِ البَطْشُ، فجاءتِ الحكمةُ مقترِنةً بالعزّةِ، وأمّا هنا فلمَّا كَانَ فِي سِياقِ الآياتِ يَتَضَمَّن ما تَقتضيه الرحمةُ ويَتَضَمَّن ما تَقتضيه العزَّةُ، فإهلاك فِرْعَوْن يَقتضي أن يُقابَل بالعزَّةِ، وإنجاء مُوسَى يَقتضي أن يُقابَل بالرَّحمةِ لِأَنَّهُ من مقتضاه؛ جمعَ اللهُ تعالى بينهما.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٦٩، ٧٠)

• • ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٠].

• • ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كفّار مكّةَ]، والصواب: أي: عَلَى النَّاسِ الَّذين أُرسِلتَ إليهم. والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تلا عَلَى النَّاسِ، حَتَّى إننا نقول: هُوَ تلا عليهم، حَتَّى فِي هَذَا العصرِ وفيما بعدَه فقد تلا رسول الله ﷺ عَلَى النَّاس هَذَا النبأ.

وقوله: [﴿نَبَأَ﴾: خبر]، ولكن لا يكون النبأُ إلَّا فِي الأمورِ الهامّة، والخبرُ يكونُ فيها وفي غيرِها، لكن النَّبأ لا يكون إلا فِي الأُمُور الهامَّة، وهذا النبأُ هامٌّ جِدًّا؛ لِـمَا يَتَضَمَّنه منَ التوحيدِ والمناظرةِ، وما يَتعلَّق بذلك مِنَ الثوابِ والعقابِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ويُبْدَل منه]، أي: من ﴿نَبَأَ﴾ [﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾]، فتكون (إِذْ) هنا فِي محَلّ نَصْب بدلًا من (نبأ). وإِبْرَاهِيم هُوَ خليلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ معروف.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أبوه اسمه: آزَرُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:٧٤]، وأما قومُه فالَّذين بُعِث إليهم، وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أن إِبْرَاهِيمَ لم يُبْعَثْ إِلَى النَّاسِ عامَّةً، وإنَّما بُعِثَ إِلَى قومِه كسائرِ الأَنْبياءِ.

فَإِنْ قِيلَ: ورد فِي بعض التفاسير أنَّ (آزَر) لَقَب[1]؟

فالجَواب: لَيْسَ بصحيح.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ (ما) للاستفهامِ، والمُراد بِهِ الإنكارُ والتعجُّب أيضًا، أي أَنَّهُ ينكر متعجبًا.

• ● ● •

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٢٢).

الآيـة (٧١)

• • ● ○ ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾ [الشعراء:٧١].

• • ● ○ ● • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ صَرَّحُوا بالفعلِ؛ لِيَعْطِفُوا عليه: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾]، (أَصْنَامًا) جمع صنمٍ، والمُرادُ بالصنمِ كلُّ ما اتُّخِذَ إلهًا معَ اللهِ، سواءً كَانَ شجرًا أو حَجَرًا، أم غيرَهما، ولكن هل يُشْتَرَطُ أن يكونَ منصوبًا؟

الظَّاهرُ عدمُ اشتراطِهِ وأنه لَيْسَ شرطًا، وأنه قد لا يكونُ منصوبًا، فقد يكون مَبْطُوحًا ومُضْجَعًا، وغيرَ قائمٍ.

وقول المُفسِّر: [صرَّحوا بالفعل لِيَعْطِفُوا عليه ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾]. هَذِهِ مناسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ قد تكونُ مقصودةً وقد لا تكون مقصودةً. قد يقول قائل: لو قالوا: (أصنامًا فنظل)، لكان المَعْنى مُستقيمًا، ولا حاجة إِلَى ذِكر الجُملةِ ليعطفَ عليها؛ لأننا نرى أَنَّهُ تأتي أحيانًا جُملٌ عُطِفَ عليها جُمل وهي محذوفةٌ، مثل: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ [الروم:٩]، ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [السجدة:٢٦]، عَلَى أحد الوجهينِ.

ولكن الصَّحيح أَنَّهم صَرَّحُوا بالفعل؛ إظهارًا لِفِعْلِهِمْ كأنَّهم يَفْتَخِرون به، يعني: يُحقِّقون العبادة ويفخَرون بعبادتهم؛ لِأَنَّ التصريحَ بالعبادةِ للمعبودِ تدلُّ عَلَى أن الْإِنْسَان فخورٌ بها: قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾، يعني: فهم أظهروها تأكيدًا وافتخارًا بها، هَذَا الَّذِي لا شكَّ فيه، وأمَّا لأجلِ العطفِ فهذا العطفُ نقول:

يَصِحُّ بدون ذِكْرِه، وهذا لَيْسَ بمقصودِهِ فيما يبدو، وإنَّما المقصود هُوَ تأكيدُ هذا، والافتخارُ به، مثلما يقول لك القائل: «أنت تفعل كذا؟»، فتقول: «نعم أفعله»، لو قلت: «نعم» لَكَفَى، لكن: «أَفْعَلُه» من بابِ تأكيدِهِ والافتخارِ به، فهم كذلك يقولون: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ مؤكِّدين لعبادتها مفتخرينَ بها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ نقيم نهارًا عَلَى عِبادتها، زادوه فِي الجَوابِ افتخارًا به]، صحيح، قالوا: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ وَهُوَ ما سَأَلَهُمْ: هل أَنْتُم تَدُومُونَ عَلَى عِبادَتِها أم لا؟ لكنهم زادوا عَلَى هَذَا وقالوا: ﴿فَنَظَلُّ﴾ يعني: نَسْتَمِرّ ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَهَا﴾ مُتَعَلِّق بـ﴿عَٰكِفِينَ﴾ وتقديمُه عليه يفيد الحصرَ، يعني: إننا نَعْكُفُ لها لا لغيرها. ويقول المُفَسِّر: [زادوه فِي الجَوابِ افتخارًا به]، وَهُوَ كذلك، ثم إصرارًا وعنادًا، يعني: لسنا نعبدها وقتًا دونَ وقتٍ، بل نعبدها ونستمرُّ عَلَى عِبادتها.

وقول المُفَسِّر: [نهارًا]، أخذها من قولهم: إنَّ (ظَلَّ) فعلٌ يدلُّ عَلَى وقوع الشيْء نهارًا، وهذا هُوَ المعروفُ عندَ النَّحْوِيِّينَ، والذي يَظْهَر أَنَّهَا تدلُّ عَلَى وقوعِ الفعلِ باستمرارٍ، نحو قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، أيّ وقتَ يُبَشَّر بِها يَسْتَمِرُّ وجهُه مُسْوَدًّا ليلًا ونهارًا، فالصوابُ أن هَذَا الفعلَ يُشعِر بالاستمرارِ، ولا يَخْتَصّ بالنَّهارِ كما قاله المُفَسِّر وغيرُه.

• • ❁ • •

الآيــة (٧٢)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ [الشعراء:٧٢].

• ● ● •

قَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ﴾ حينَ ﴿تَدْعُونَ﴾]، (إذ) هَذِهِ ظرفٌ للفعلِ (يَسْمَعُون)، و(هَلْ) للاستفهامِ المُراد بِهِ الإنكار معَ التحدِّي، يعني: يَتَحَدَّاهُم، يقول: هَذِهِ الأصنامُ الَّتي تَعْبُدُونَها وتسألونها الحوائجَ ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾؟ والجَوابُ: لا.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٧٣، ٧٤)

• • ❊ • •

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٣-٧٤].

• • ❊ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كُمْ إن لـم تعبدوهم]، أي: أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ والجَواب: لا.

هم أقروا: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنَّها لا تَسْمَعُ ولا تَنْفَع ولا تضرُّ، وإنَّما فعلنا ذلك تَقليدًا فقطْ مَحْضًا لآبائنا.

وقوله: ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ قدَّرَ المُفسِّرُ المفعولَ بقولِهِ: (يَضُرُّونكم) وحينَئذٍ نسألُ: ما الحكمةُ فِي حذفِ المفعولِ؟

الحكمة هِيَ بالنِّسبةِ لآخر الآيةِ لفظيَّة، وهي مراعاةُ الفواصلِ، وبالنِّسبةِ للعُمومِ معنويَّة؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْبُدُ الشيْءَ لا يريدُ أن يضرَّه، بل يريد أن يَنْفَعَهُ، ولهذا قَالَ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾، أما أَنَّهُ يريد أن يضرَّه فلا، نعم يريدُ أن يضرَّ غيرَه، فقد يعبد هَذَا الشيْءَ لِيَدْعُوَهُ أن يضرَّ عدوَّه، فالحذف هنا للعُمومِ، يصير إما: أو يضرونكم إنْ لم تَعْبُدُوهُمْ، أو: أو يضرون عدوَّكم إذا عَبَدْتُمُوهُم.

وجَوابُ هَؤُلَاءِ: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ معناه أَنَّهُم أَنْكَروا أنْ

تَسْمَعَهُم هَذِهِ الأصنامُ، أو تنفعهم، أو تَضُرَّهم، ولكنهم وَجَدوا آباءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، يعني: يفعلون كذلك، يَعْبُدُونَ هَذِهِ الأصنام.

والكافُ اسمٌ بمَعْنى (مثل)، و(ذا) اسمُ إشارةٍ تعودُ إِلَى الفعلِ، يعني: مثل ذلك الفعل يَفْعَلُونَ. ومحلُّ الكافِ بقولِهِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ النصبُ عَلَى أَنَّهَا مفعولٌ مُطْلَقٌ، أي: يفعلون مثلَ فِعْلِنا، وليتَ أنَّ المُفسِّرَ جَعَلَ [أي مثل فعلنا]، قبل ﴿يَفْعَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ تأخيرَه عن الفعلِ يُوهِم أَنَّهُ يريدُ أنْ يكونَ مفعولُ الفعلِ مَحْذُوفًا، أي: مثل فعلنا، والصوابُ أَنَّهُ موْجودٌ، وَهُوَ قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، فيَحْسُن بِهِ أنْ يُقَدِّمَ [مِثل فعلنا]، عَلَى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل فعلنا ﴿يَفْعَلُونَ﴾. ولصار ما لهم حُجَّة إلا التقليد الأعمى فقطْ، أَنَّهُم وجدوا آباءهم عَلَى هَذِهِ المِلَّة فسَلَكُوها.

• ● ● •

الآيات (٧٥- ٨٦)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء:٧٥-٨٦].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ لَا أَعْبُدُهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَإِنِّي أَعْبُدُهُ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إِلَى الدِّينِ، ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ أَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ الْجَزَاءِ، ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ عِلْمًا ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ النَّبِيِّينَ، ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ مِمَّنْ يُعْطَاهَا، ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ بِأَنْ تَتُوبَ عَلَيْهِ فَتَغْفِرَ لَهُ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ] اهـ[1].

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآيــة (٨٧)

• قالَ اللهُ عزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧].

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآية إِثْباتُ البَعْثِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيها أيضًا أنَّ كلَّ إِنْسانٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى الدُّعاءِ حَتَّى الأَنْبياء؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلكَ.

الآيتان (٨٨، ٨٩)

• • ✿ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

• • ✿ • •

ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبيِّنًا أَنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَانَ يومَ القيامةِ إِلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، فالمالُ والبنونَ لا ينفعونَ إِلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وفي هَذَا الاستثناءِ دَليلٌ عَلَى أنَّ المدارَ عَلَى القَلْبِ، وَهُوَ أن يكونَ سَليمًا، وسلامتُهُ يقولُ المُفسِّر: [مِنَ الشِّرْكِ والنِّفَاق]، ولكن هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ: سلامتُهُ منْ كلِّ عملٍ أو قولٍ، وللقلبِ قولٌ وعملٌ، أمَّا قولُه فإقرارُهُ، وأمَّا عَمَلُه فهو تحرُّكُهُ مِن رجاءٍ، وخوفٍ، ومحبَّةٍ، وغيرِ ذلكَ.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي ذلكَ دَليلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي يومِ القيامةِ لا تنفعُ الأموالُ ولا البنونَ؛ لقولِهِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، خلاف ما كَانَ النَّاسُ عليه فِي الدُّنيا؛ فإن الأموالَ والبنينَ تنفعُ، لكن فِي الآخرةِ لا تنفعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيهما كذلكَ دَليلٌ عَلَى فضيلةِ القلبِ السَّليمِ؛ لِأَنَّهُ سببٌ لاستفادةِ الْإِنْسَانِ من مالِهِ وبَنِيهِ، بِناءً عَلَى أنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ، وَهُوَ كذلك.

• • ✿ • •

الآيات (٩٠- ٩٣)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٠-٩٣].

قوله: ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول المُفسِّر: [أي غيره]؛ لِأَنَّ (دون) تأتي بمَعْنى: غير وسوى، وتأتي بمَعْنى: أقلّ، فعِندَما تقول: هَذَا دونَ هذا، يعني: أقلّ منه، حَسَبَ السِّياق.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بِدَفْعِ العذابِ عنكم]، والجَواب: لا، مع أَنَّهُم يَزْعُمون أَنَّهَا تَنْفَعُهم، ولكنَّها فِي الواقعِ لا تَنْفَعُهم، بل تَضُرُّهُم [﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بِدَفْعِهِ عن أنفسِهم؟ لا].

فإذا كانوا لا ينصرون ولا يَنْتَصِرون، فلا خيرَ فيهم ولا فِي عبادتهم.

وفي قوله: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ دَليلٌ عَلَى أنَّ هَذِهِ الأصنامَ تُعذَّبُ وتُلْقَى فِي جهَنَّمَ، كما جاءَ فِي الآياتِ الأُخْرَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، لكن إذا كَانَ الَّذِي يُعبَد مِن دونِ الله مِمَّا كُلِّفَ فإنْ رَضِيَ بعبادتهم فهو معَهُم، وإنْ لم يرضَ فقدْ قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: لا يدخلون النارَ.

فإذا قيل: ما فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النارَ وتعذيبها معَ أَنَّهَا لا تَفْهَم؟

قلنا: إهانةً لعابديها؛ لِأَنَّ هَذَا فيه من الإهانةِ وبيان أَنَّهَا لا تنفعُ ما هُوَ ظاهر.

فوائدُ الآياتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى والثَّانيةُ: فِي ذلكَ دَليلٌ عَلَى إِثْباتِ الجنَّةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾، وأنَّ أهلها هم المتَّقُونَ، وهم الَّذين فَعَلوا ما يَقِيهم من عذابِ اللهِ بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النواهِي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى إِثْباتِ النارِ؛ لقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فرّق اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بينَ التعبيرينِ فِي إزلافِ الجنةِ وإظهارِ النارِ، وَهُوَ دَليلٌ عَلَى أن الرحمةَ سَبقَتِ الغَضَبَ؛ لِأَنَّ الجنَّةَ تُدنَى للمُؤمِنينَ، أمّا أولئك فتَظْهَر لهم فيرونها من بعيدٍ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]؛ لأجلِ أن يكونوا فِي خَوْفٍ وذُعرٍ من قبْلِ أنْ يَصِلوا إليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى أنَّ أصحاب الجَحِيمِ: كلّ غاوٍ، والغِوَايةُ ضدُّ الضَّلالِ، والغوايةُ: ضدُّ الرُّشْد، فالمُرادُ بالغاوينَ هم الَّذينَ جَانَبُوا الصراطَ المستقيمَ، جانبوه لا ضَلُّوا عنه، يعني: عَلِمُوه ولكن جَانَبُوه، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى التعذيبِ البدنيِّ والقلبيِّ لأصحابِ النارِ؛ البَدَنِيّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، والقلبيّ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾.

الآيتان (٩٤، ٩٥)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥].

• • ● • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَكُبْكِبُوا﴾ أُلْقُوا ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾]، (هُمْ) الضَّميرُ يعودُ عَلَى ما يَعْبُدُونَ من دونِ اللهِ، وقولُه: ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ بمَعْنى: أُلقوا، ولكن هَذَا التكرارُ يدلُّ عَلَى معنًى أدقَّ من الإلقاءِ فقطْ، يعني: كأنَّهم يُكَبُّون فيها عَلَى وُجُوهِهِم، وبدون أيضًا ترتيبٍ، وبدونِ نظامٍ، كأنما يحثون حثيًا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ويُلقَون.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾: أتباعُه ومَن أطاعَهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾]، أعوذُ باللهِ! جنودُ إبليسَ هم الَّذين يَتَّبِعُونَه ويُغْوُونَ النَّاسَ، فكلُّ مَن سَعَى فِي إغواءِ النَّاسِ والإفسادِ بينهم؛ فإنهم جنودُ إبليسَ، ومعلومٌ أن جنودَ إبليسَ عَلَى عكسِ جنودِ الرَّحْمنِ، فجنودُ الرَّحْمنِ يَدْعُون إِلَى الخيرِ، ويأمرون بالمعروفِ وينهونَ عنِ المُنْكَر، وأولئك يَدعونَ إِلَى الشرِّ، ويأمرونَ بالمنكرِ وينهون عن المعروفِ.

وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحـدًا فهو من جُنُـودِهِ ولـو بالاتباع؛ فَإِنَّهُ يكونُ من جُنْدِهِ، ولـهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠).

ومنْ أحبَّ شخصًا أطاعَهُ واتَّبعَهُ.

قوله: ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ المُراد بـ(الغاوون) هنا الغاوونَ الأوَّلونَ الَّذين سَبقوا، ولكن كَرَّرَ ذلك الوصفَ، ما قَالَ: فكُبْكِبُوا فيها هم وأولئك، كَرَّرَهُ لإظهارِ ذمِّ الغوايةِ، ولكن قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هَذَا هل هُوَ من بابِ عطفِ المتغايرينِ وأن الغاويَ لَيْسَ من جنودِ إبليسَ، أم أَنَّهُ من بابِ عطفِ المترادفينِ؟

نقول: الأَصْلُ فِي العطفِ: التغايُرُ، والظَّاهرُ أنَّ الغاويَ هُوَ الفاسِدُ فِي نفسِهِ، وأنَّ جنودَ إبليسَ عَلَى اسمِهِم جنود يَنْصُرُونَه ويَدْعُونَ لِـمَا يَدْعُو إليه، يقول المُفسِّر: [أتباعه ومَن أطاعَهُ]، يقيّد بمَن أطاعه فِي إغواءِ النَّاسِ ودَعوتهم إِلَى الضَّلالةِ، فيصيرُ هنا من بابِ عطفِ الخاصِّ عَلَى العامِّ؛ لِأَنَّ كلَّ مَن دعا النَّاسَ إِلَى الباطلِ فهو غاوٍ ولا عَكْس.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي قولِهِ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ دَليلٌ عَلَى إغاظةِ هَؤُلَاءِ العابدينَ للأصنامِ بإهانةِ أصنامِهِم، ويُسْتَثْنَى من ذلكَ مَن عُبد وَهُوَ صالحٌ، فَإِنَّهُ لا يُكَبْكَبُ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ مَنِ اتبعَ الشيطانَ لم يَكُنْ مِن أتباعِهِ فحَسْب، بل من جنودِهِ المناصرينَ له؛ لقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾؛ وذلك لِأَنَّ المُتَّبعَ للشخصِ مقوٍّ له، وناصرٌ له، وناشرٌ لما يريدُ، فيكون كالجنديِّ المسخَّرِ له.

• • ۞ • •

الآيات (٩٦- ٩٨)

• ● ◦ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٦-٩٨].

• ● ◦ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟﴾ أي الغَاوُونَ ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ معَ مَعْبُودِيهِم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، لكن هَذَا الإقرار يَنْفَعُ لو كَانَ فِي الدُّنيا، فهم يَتَخَاصَمُونَ: العابد والمعبودُ، والتَّابعُ والمتبوعُ يومَ القيامةِ، كما قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦]، وكذلك أيضًا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ [سبأ:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، وهكذا ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

فهَؤُلَاءِ الَّذين كانوا فِي الدنيا عَلَى ضلالٍ وعلى باطلٍ يومَ القيامةِ كما قالَ الخليلُ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]، ونحنُ نَسْتَعْرِضُ مثلَ هَذِهِ الآيَاتِ ونعظ النَّاس بها، ونقول لكلِّ قوم اجتمعوا عَلَى فسادٍ: سَتَزُولُ يومَ القيامةِ هَذِهِ المَحبَّةُ بينَهم، وهذه الرابطةُ، ويَتَبَرَّأُ بَعْضُهم مِن بعضٍ، ويَلْعَن بعضُهم بعضًا، ونذكّرهم بهذا الأمرِ الَّذي فِي الحَقِيقَةِ لَيْسَ ببعيدٍ، فما بينَهم وبينه إلَّا أنْ تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُم من

أَجسامِهِم، ثم يَجِدونه، وخروجُ الرُّوحِ منَ الجَسَدِ لَيْسَ بِبَعيدٍ، فقد يكونُ قَريبًا جِدًّا، وكما قال أبو بكرٍ[1]:

كُــلُّ امْــرِئٍ مُصَــبَّحٌ فِي أَهْلِـهِ ... وَالمَـوْتُ أَدْنَـى مِـنْ شِرَاكِ نَعْلِـهِ

وقد يكونُ غير قَريب جدًّا، ولكنَّه مؤخَّر لِأَجَلٍ مَعدودٍ، فإذا كَانَ اللهُ تعالى يقولُ فِي يوم القيامةِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، فكيفَ إذن بِأَجَلِ الْإِنْسَانِ نفسِهِ فيكون من باب أَولى!

قال: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ﴾ (تَاللهِ) هَذَا قَسَمٌ بحرفِ التاءِ. وحروفُ القَسَمِ ثلاثةٌ: الباءُ والواوُ والتاءُ، والأَصْلُ الباءُ، فهذه الحروفُ لَيْسَتْ كُلُّها أُصُولًا، فكلُّها يُقْسَمُ بها، لكن بعضها أَصْلٌ وبعضها غيرُ أصلٍ، مثل أَنْ يُقال: كَانَ وأَخَواتُها مثلًا.

والدَّليلُ عَلَى أنَّ الباءَ الأَصْلُ أنَّ الباءَ تأتي معَ القَسَمِ وبدونِهِ، وتكون فِي الضَّمير والظَّاهر: (أُقْسِمُ باللهِ) و(أُقْسِمُ به) و(أُقْسِمُ بكَ يا ربِّ).

فلهذا نقولُ: هِيَ الأَصْلُ، حَتَّى ما تأتي إلا مَعَ الظَّاهرِ وبدونِ فِعْلِ القَسَمِ، وأيضًا ليستْ معَ كلِّ ظاهرٍ، وإنَّما تكونُ باللهِ فقطْ، وقد يُقْسَمُ بالرَّحْمنِ، فيُقال: (تَالرَّحْمنِ) وقد يُقْسَمُ بربِّ الكَعْبَةِ، لكن عَلَى قِلَّةٍ، والواوُ تدخُلُ عَلَى كلِّ ظاهِرٍ، فيُقْسَم بِهَا بكلِّ اسمِ ظاهرٍ، سواء الله أو الرَّحْمن أو العَزيز، وما أشبهَ ذلكَ، ولكنْ لا يُقْسَمُ بِهَا فِي المُضْمَرِ، ولا يأتي مَعَها غير القَسَم، وبهذا يَتبَيَّنُ أَنَّ الأُمَّ من هَذِهِ الثلاثةِ: الباءُ، ثُمَّ الواوُ، ثُمَّ التاءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، رقم (١٨٨٩).

قال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (إنْ) يقولُ المُفسِّرُ: [مُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، واسمها محذوفٌ، أي: إنه]، أي: الفعل [﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ]، كلها بفعلٍ ماضٍ، ولم يُسْلَبْ منها الدلالة علَى الزمنِ؛ لِأَنَّ المُرادَ: كنَّا فِي الدنيا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ ﴿إِذْ﴾ حَيْثُ ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فِي العِبَادَةِ]، وهذا صحيحٌ، فهذه غاية ما يَكُونُ مِنَ الضَّلالِ أنْ يُسَوِّيَ الْإِنْسَانُ المخلوقَ بالخالِقِ فِي العِبَادَةِ، وليستِ العبادةُ هِيَ الركوعَ والسجودَ فقطْ، بل حَتَّى مَن أطاعَ أحدًا فِي تَحريمِ ما أحلَّ اللهُ، أو تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ؛ فَإِنَّهُ عابدٌ له، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، قال عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ للنبيِّ ﷺ: إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ -يعني: ما نعبدُ أَحبارنا ورُهْبَانَنا، يعني: عُلماءنا وعُبَّادنا- فقال النبي ﷺ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**». قال عَدِيٌّ: بلى. قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»(١).

فهَؤُلَاءِ الَّذينَ يُطَبِّقُونَ أَنْظِمَة وضعيَّة معَ مُخَالَفَتِها للشَّرع، فيكون مآلهم يومَ القيامةِ كهَؤُلَاءِ، يعني: يَتبَرَّءُونَ منهم ويُخاصِمُونهم، ويقولون مُقِرِّينَ عَلَى أنفسهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فمثلًا: الْإِنْسَان يقولُ له اللهُ فِي كِتَابِهِ وعلى لسانِ رسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هَذَا حلالٌ، فيقول له الحاكِمُ: هَذَا حرامٌ ممْنُوعٌ، فيَمْنَعُه، ويَرَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ؛ معَ تحليلِ اللهِ له، فلا شكّ أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الحاكِمَ إلهًا معَ اللهِ مُشَرِّعًا، كذلك يقولُ له مثلًا ربُّه:

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥)، واللفظ للطبراني فِي الكبير (١٧/ ٩٢، رقم ٢١٨).

هَذَا حرامٌ، فيأتي هَذَا الحاكِمُ ويقولُ: النِّظَامُ أو الدُّسْتُورُ يَقْتَضِي الحِلَّ، فيُحِلّه، فلا شكَّ أيضًا أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الحاكِمَ إلهًا معَ اللهِ، وسيكونُ مآلُهُ مآلَ هَؤُلَاءِ القومِ، سَيُخَاصِمُهُ يومَ القيامةِ ويقولُ له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولهذا جاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ أنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»(١)، يعني طاعة وَلِيِّ الأمرِ فِي المعروفِ، الَّذِي عَرَّفَهُ الشرعُ.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يتصوَّر أن أصحاب النارِ يَتجادلون حالَ العذابِ؟

فالجَواب: أحوالُ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا، أليستِ الشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الخَلائقِ يومَ القيامةِ بِمِقْدَارِ مِيلٍ؟! لو قُرِّبَتِ الشَّمْسُ مِقْدَار أُنْمُلَة عن مَكانها، لَأَحْرَقَتِ الدنيا إِحراقًا، وتكون يومَ القيامةِ بمقدارِ مِيلٍ ولا تُحْرِق النَّاسَ! فلا يُمْكِن أنْ تُقاسَ أحوالُ الآخِرَةِ بأحوالِ الدنيا أبدًا، كما أنَّ أحوالَ البَرْزَخِ إذا ماتَ الْإِنْسَانُ وأُقعِدَ وسُئِلَ وعُذِّب، فلا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا.

الحاصلُ أنَّ اللهَ تعالَى يقولُ هَؤُلَاءِ الَّذينَ اتَّخَذُوا معبودينَ سِواه، سواء كانتْ عبادةَ التذلُّل، أم عبادة الحُكْم، يقول لهم: إنهم يُكَبْكَبُونَ فِي نارِ جَهَنَّم، ويَخْتَصِمون فيها، ويقول التابعونَ للمتبوعينَ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء فِي غير معصية، وتحريمها فِي المعصية، رقم (١٨٤٠).

فوائدُ الآياتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فيها دَليلٌ عَلَى نَدَمِ أهلِ النارِ نَدَمًا عَظيمًا، حين قالوا وهم يَختصِمون -يُخاصِم بعضُهم بعضًا-: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ﴾، وهنا أَقسموا وأكَّدوا: ﴿تَاللَّهِ﴾ قسَم، ﴿إِن كُنَّا﴾ إنْ مُخفَّفة منَ الثقيلة، وتفيد التَّوكيدَ، واللام، و﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كذلك، وإن كَانَ بعض النَّحْويين يُسمِّي اللامَ هنا الفارِقَةَ، ولكنها معَ كَونها فارقةً هِيَ أيضًا مؤكِّدة، ومَعْنى فارقةٍ أَنَّهَا تُفرِّق بين (إنِ) النافيةِ و(إنِ) المخفَّفة؛ لِأَنَّ الصورةَ واحدةٌ، ولا يَتبيَّن أنَّ المُرادَ هَذِهِ أو هَذِهِ إِلَّا بوُجودِ اللامِ؛ فإن عُدِمَتِ اللامُ امتنعَ الكَلامُ إِلَّا إذا دلَّتِ القرينةُ عَلَى خلافِ ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي قولهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ اعترافٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا شَبيهَ له؛ لأنَّهم أنكروا وبيَّنوا أنَّهم فِي ضلالٍ مُبينٍ حينَ سَوَّوْا هَذِهِ الأصنامَ بالربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي لا يُماثِلُه أحدٌ فِي هَذَا الوصفِ؛ ربِّ العالمينَ، هَذِهِ الأصنام الَّذين يَعْبُدونها يَعْتَقِدون أنَّ رُبُوبِيَّتها، أو أُلُوهِيَّتَها بالأصحّ، أنَّهَا محصورةٌ فِي عَابديها، أمَّا ربُّ العالمينَ فهو ربٌّ لكلِّ أحدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قولِهِ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إِلَى بيانِ الضَّلالِ؛ إذ لا يمكِن التسويةُ بينَ مَن هَذَا وصفه -ربَّ العالمين- بِمَن لم يَسْتَحِقّ من هَذَا الوصفِ شيئًا، وهذه الأصنام لا تَسْتَحِق وَصْفًا منَ الربوبيَّة إطلاقًا، فضلًا عن الربوبيَّة العامَّة لجميعِ العالَمينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي ذلكَ أيضًا اعترافُهم البالِغ بضلالِهم: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: بيِّن ظاهِر، حيثُ نُسَوِّيكُم، ولكن هَذَا الاغترار وهذا الإقرارُ بالربِّ،

وهذا التنزيهُ له عن المساواةِ فِي ذلكَ المكانِ لا يَنْفَعُ؛ لِأَنَّهُ فاتَ الأوانُ -وقت العمل فِي الدنيا- أمَّا الآن فهو وَقْتُ الجزاءِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتفاءُ التَّشْبِيهِ عنِ اللهِ؛ يُؤْخَذُ من قَوْلِهِم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ففي هذا نفيُ تشبيهِ المخلوقِ بالخالِقِ.

• • ۞ • •

الآيـة (٩٩)

• ● ● •

❁ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الشعراء:٩٩].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عنِ الهُدى ﴿إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: الشياطين]، يعني: شياطين الإنس والجِنِّ، هكذا يُجِبُ، والمُجْرِمُ: فاعلُ الإجرامِ، ويُطْلَقُ كثيرًا فِي القُرآنِ عَلَى الكافرِ، والمَعْنى: ما أَضَلَّنَا إلَّا أهل الكُفر والإجرام، الَّذين اعْتَدَوْا علينا بهذا الإضلالِ، ولكن حقيقةً هم ما اعْتَدَوْا عليهم؛ لأَنَّهم هم الَّذين انقادوا لهذا الكُفْرِ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]، وفي سُورةِ سَبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

فالكفَّار الَّذينَ تَبِعُوا المُسْتكبِرِينَ لا عُذْرَ لهم عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى وإنْ سبُّوهم، وقالوا: إنهم مُجْرِمُونَ؛ فإن ذلكَ لَيْسَ بِعُذْرٍ، فإنهم قد أعطاهم اللهُ تعالى العقولَ والإدراكَ، وأرسلَ إليهم الرُّسُلَ، وأنزلَ عليهم الكتبَ، فما بَقِيَتْ لهم حُجَّة فِي أنْ يَحْتَجُّوا بأن هَؤُلَاءِ أضلُّوهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الشياطين، أو الأَوَّلون الَّذين اقْتَدَيْنَا بهم]، فهذا إذا كَانَ المُراد بالمجرِمِ الضالّ، سَوَاء اعتدى أو لم يَعْتَدِ؛ لِأَنَّهُ إذا كانوا آباءهم الَّذين اقتدوا بهم فإنَّهم لم يُضِلُّوهم، ولم يُجْرِمُوا عليهم، فهَؤُلَاءِ هم الَّذين أجرموا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ولا يَبْعُدُ أنْ يُرادَ بالآياتِ المعنيانِ جميعًا؛ فإنهم ضَلُّوا بأمرينِ:

الأَوَّل: بِمَن يدعونهم وهم أحياءٌ إِلَى الضَّلالِ.

والثَّاني: بِمَن يُقَلِّدُونهم وهَؤُلَاءِ من الأموات.

لكن فِي المسألةِ الأُولى يكون الجُرمُ عليهم وعلى مَن أضلَّهم، وفي الثَّانية عليهم وَحْدَهم؛ لِأَنَّ أولئكَ الأموات فِي الحَقِيقَةِ ما جَنَوْا عليهم؛ إذ إن الرُّسُل جاءتهم وبيَّنَتْ لهم.

ويستفاد من الآية:

سبُّ هؤُلاءِ بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فهذا قَدْحٌ فيهم من جهةِ أَنَّهم أَضَلُّوهم، ومن جهةِ أَنَّهم مُجْرِمُون.

الآيــة (١٠٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمُؤمِنينَ منَ الملائكة والنبيِّين والمُؤمِنينَ].

كلمة (ما) نافية وليستِ استفهاميَّة، والدَّليلُ إتيانُ (مِن) المؤكِّدة: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، وأصلها: فما لنا شافعونَ، ولكن أُتِي بـ(مِنْ) للتَّوكيدِ.

والشَّافع: هُوَ المتوسِّطُ للغَيْر بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فشفاعةُ النبيِّ ﷺ لأهلِ المَوْقِفِ أنْ يُقضَى بينهم من بابِ الشَّفاعةِ؛ لدفعِ المضرَّةِ والمشقَّة، وشفاعته لأهلِ الجنَّة أن يَدْخُلوا الجنَّة من باب جَلْبِ المنافِعِ، فالشَّفاعةُ هِيَ التوسُّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفع مَضَرَّة، وإنْ شئتَ فَقُلْ: لِدَفْعِ الضَّيْر أو جَلْب الخَير، فهذه هِيَ الشَّفاعةُ.

فهم لَيْسَ لهم شافعونَ؛ لِأَنَّ من شَرط الشَّفاعةِ أنْ يكونَ المشفوعُ له مؤمنًا، والدَّليلُ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]. وهؤُلَاءِ لا يَرْتَضِيهِمُ اللهُ، فهم يقولونَ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يعني: ما لنا أحدٌ يَشْفَعُ إطلاقًا لا منَ الأنبياءِ ولا من غيرهم؛ لِأَنَّ من شرطِ الشَّفاعةِ أنْ يرضى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنِ المشفوعِ له، وعنِ الشافِعِ من باب أَولى، فإذا كَانَ لا بدَّ مِن رِضَا الله عن المشفوعِ له، فعن الشافِعِ من باب أَولى.

وأمَّا الإذنُ فهو شَرْطٌ أيضًا حَتَّى معَ رضا اللهِ عن هَذَا وهذا، فلا بدَّ أيضًا منَ الإذنِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يَأْذَنُ بالشَّفاعةِ إلَّا لِمَن يَرضاه، فصارَ لا بدَّ منَ الشَّرطينِ، فلا يُقال مثلًا: إنه إذا ارتضى شخصًا فَإِنَّهُ لا بدَّ أن يأذنَ له، فقد يأذَنُ وقد لا يأذنُ، ولكن نَعْلَم أنَّهُ لن يأذنَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى، وهَؤُلَاءِ لا يَرْتَضِيهم اللهُ.

فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: انْتِفَاءُ الشَّفاعَةِ عن المكذِّبين للرُّسل وأنَّه لا يُشفع لهم، وتُؤْخَذ من قَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْبات الشَّفاعَة للمُؤمِنينَ، ويُؤْخَذ من قولِهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾، فنفَوْا أن يكونوا منَ الشافعينَ، ومفهومُ هذا أن المُؤمِنينَ لهم شفاعة، كَأَنَّهم لَـمَّا رَأَوْا أن المُؤمِنينَ يَشفعونَ بعضهم لبعضٍ، قالُوا: نحن ما لنا مِن شافعينَ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١].

• • ۞ • •

الآيــة (١٠١)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١].

• ● ● •

قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ معطوف على: ﴿شَٰفِعِينَ﴾ باعتبارِ اللفظِ، ولو عَطَفْتَ الآيَةَ هنا باعتبارِ المَحَلّ لكانتْ: (وَلَا صَدِيقٌ)؛ لأن: (شَافِعِينَ) في محَلّ مبتدأٍ.

قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الصَّديق: مَن صَدَقَكَ الوُدَّ، يعني: الصَّاحب الصَّادق فِي وُدِّه يُسَمَّى صَديقًا، وَهُوَ أخصُّ مِنَ الصَّاحِبِ، فكلُّ صديقٍ صاحبٌ، وليسَ كلُّ صاحبٍ صَديقًا، وأمَّا الحَمِيم فَإِنَّهُ القَريب، أو أَنَّهُ البالِغُ فِي الصَّداقةِ، بحيث يَحْنُو عليكَ كما يحنو القريبُ.

والمُفسِّر يقولُ: [﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يُهِمُّهُ أَمْرُنا]؛ لِأَنَّ الصَّديقَ الحميمَ الحانيَ العاطفَ أوِ القريبَ يُهِمُّهُ أمرُ صَاحِبِهِ وصَدِيقِهِ، وهل هَذِهِ الصِّفَةُ -حميم- صِفَة كاشفةٌ أمْ صفة مقيِّدة؟

هي صفة كاشفةٌ، إذا قلنا: ما من صديقٍ إلا وَهُوَ حميمٌ، فهي صفةٌ كاشفةٌ، وإذا قلنا: قد يكون صَديقًا لكنه لَيْسَ بحَمِيمٍ، فهذه تكونُ صفة مقيِّدة، بشرطِ أنْ نجعلَ الحميمَ هنا بمَعْنى القريبِ؛ لِأَنَّهُ قد يكونُ صَديقًا وليسَ قريبًا، فإذا جعلنا الحَمِيم بمَعْنى الحانِي الَّذِي يكونُ كالقَريبِ بِحُنُوِّهِ وعَطْفِهِ، فهي صفةٌ كاشفةٌ، لكن إذا قلنا: حَميم قَريب، صارَتْ مقيِّدةً؛ لِأَنَّهُ ما كلُّ صَدِيقٍ يكون قَريبًا.

الآيــة (١٠٢)

• ● ∽ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢].

• ● ∽ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رَجْعة إِلَى الدُّنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (لو) هنا للتمنِّي، و(نكون) جَوَابُه]، يعني: ليتَ لنا كَرَّة، أي رَجْعَة إِلَى الدنيا، (فَنكُونَ) الفاء للسببيَّة، و(نكون) مَنْصُوبةً بأَنْ مُضْمَرَةً بعدَ فاءِ السَّبَبيَّة بتقدُّمِ التمنِّي، ولهذا يقول: [(لو) هنا للتمنِّي و(نكون) جَوابه].

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: ليتَ أنَّ لنا كَرَّة ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقولوا: (ليتَ)؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقامُ تَذَلُّلٍ وخُضُوعٍ، و(لو) للتمنِّي أقلّ مِن (ليت)؛ لِأَنَّ (ليتَ) صَريحةُ الطَّلَب، و(لو) فيها نوعٌ منَ اللِّين والعرْض، مثلما تقول للإِنْسانِ الَّذِي تَتَمَنَّى أنْ يَزُورَكَ: (لو أنَّك تَزُورنا)؛ فإن (لو) هَذِهِ للتمنِّي بلا شكّ، لكنها تمَنٍّ بلِينٍ وعَرْض ولُطفٍ، والمَقامُ هنا يَقتضيه؛ لِأَنَّهم فِي مَقامِ ذُلٍّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وخُضُوع، فلم يَقُولوا: لَيْتَنا نَرْجِع، ولكنهم يقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

عَلَى أَنَّهُ فِي سُورةِ الأنعام يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، فيُقال: الجمعُ بينهما أن لهم حالاتٍ، فأحيانًا يقولون بهذا وأحيانًا يقولون بهذا، لكن أيُّهنَّ أوَّل؟ ليت أم لو؟

الظَّاهر (ليت) هِيَ الأُولى، يعني: كأنه يكونُ بالأوَّل بِعَزْمٍ عَلَى التمنِّي، ثم إذا لم يَحْصُلْ لهم رَجَعُوا إِلَى الخُضوعِ والخُنُوعِ والعَرْض.

ولو أَنَّهُم رُدُّوا هل يَرجعون؟

يقول الله تعالى فِي سُورَة الأنعام: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، هَذَا الخبرُ الصادقُ، يعني: لَيْسَ قولهم: إننا إذا رجعنا نكون من المؤمنين، فهذا خبرٌ كاذبٌ، والخبرُ الصادقُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فِي قولهم: ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

فَإِنْ قِيلَ: فِي نَفْسِ المَقامِ يَسْتَشْعِرُونَ أَنَّهُم كاذبونَ أم فِي عِلم اللهِ أَنَّهُم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه؟

فالجَواب: الظَّاهرُ أَنَّهُ فِي عِلم اللهِ، فيمكِن أَنَّهُم حِينما يقولونه فِي تلك الساعة يقولونه صِدقًا، ولكن الله أخبر بأنَّهم إذا رَجَعوا فسيعودون إِلَى الكفرِ.

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من المصدِّقين المُقِرِّينَ المُلْتزِمينَ بالعملِ؛ لِأَنَّ الإيمانَ وَحْدَهُ لا يَنفَعُ، فإذا لم يَسْتَلْزِمِ العملَ فليسَ بإيمانٍ، ولهذا نقول: إن الكفّار الَّذين أتتهم آيات الله كان بها مؤمنين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، ولكن لكونهم لا يَنقادون لم يَنْتَفِعوا بإيمانهم، فإبليسُ بمَعْنى التصديقِ مؤمنٌ، لكنه مستكبِر، فلم يَنْفَعْهُ إيمانه.

وأذكر أَنَّهُ حينما صَعِدَ أَوَّلُ رَجُلٍ إِلَى الفضاءِ مِنَ الرُّوس وشاهَدَ الكونَ أعلنَ أن هَذَا الكونَ له مدبِّر، فجاء أصحابُه الروس وقالوا: ما تقول؟!

فإذا لم يَنْقَدِ الإنسانُ فليسَ بمؤمنٍ، ولهذا نقولُ: إنَّ الإيمانَ هو التصديقُ المستلزِمُ لِلْقَبُولِ وللانقيادِ: قَبُول الخَبَرِ والانقياد للأَمْرِ والنَّهْيِ، هذا هو الإيمانُ. وأمَّا مُجَرَّد أنَّ الإنسانَ يقول: أنا مُؤمِن بالله، وأنا أَعْتَرِف بأنَّ اللهَ موْجودٌ، وأن له رُسُلًا، لكنَّه لا يَعْمَل، فلا يَنْفَعُهُ هذا الإيمانُ.

فالإيمان الَّذي يَنْفَعُ هو ما ذكرتُ، وقد يُطْلَقُ الإيمانُ لغةً على مجرَّد التصديقِ، ويُقال: هذا مؤمنٌ بشيْءٍ، لكنَّه كافرٌ بأشياءَ، فهذا ليسَ الإيمانَ الشرعيَّ.

وكلُّ مَن كَانَ مُسْتكْبِرًا فهو أشدُّ؛ لأنَّ الَّذي يَتبَيَّن له الحقُّ ويَسْتكْبِر عنه، يكون كُفْرُه كفرَ عِنادٍ، والذي لا يَعْرِف الحقَّ وهو الآن يَعْمَل بعملِ أهلِ الكُفْرِ، هذا كُفْرُه كُفْرُ جَهْلٍ.

فالنَّصارَى في عهدِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبلَ بَعْثَتِهِ يُعْتَبَرُونَ ضالِّينَ، وبعد أنْ بُعِثَ وتَبَيَّنَ لهمُ الحقُّ يكونونَ مَغْضُوبًا عليهم؛ إذ لا فرقَ بينهم وبينَ الْيَهُودِ، فكلٌّ منهم بُشِّر بمُحمَّدٍ ﷺ، واللهُ تَعالَى يقولُ في وَصْفِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، معروفٌ، وكُفْرُهم على حدٍّ سواءٍ، ولهذا لا يَصْلُحُ أنْ نقولَ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢]، فهذه لا تَنْطَبِق على زَماننا هذا، ولا على ما قبله بأزمنةٍ؛ لأنَّ اللهَ بَيَّنَ هذه العِلَّة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ المائدة: [٨٢-٨٣]، الآن منهم قِسِّيسُونَ ورُهبان مُسْتكْبِرون عنِ الحقِّ، داعونَ إلى الضَّلال -والعياذُ باللهِ- فلا يُمْكِن

أن يَنْطَبِقَ عليهم هذا الوصفُ، وعداوتُهُمُ الآنَ لِلمسلمينَ والَّذينَ آمنوا أيضًا، خاصَّةً للذين آمنوا لا للمسلمينَ فقطْ، ظاهِرَةٌ، وهم لا يَنْسَوْنَ أبدًا غَزَوَاتِ المسلمينَ لهم في عُقْرِ دارهم، ولا يَنْسَوْنَ أبدًا الحروبَ الصليبيَّة، ولا يَنسونَ الافتتاحَ العظيمَ الَّذي حَصَلَ في دارهم؛ فإنَّ بلاد الرُّوم كلّها أُخِذَتْ، والروم كُلّهم نَصَارَى، فأخذت على أيدي المسلمينَ.

وفي الآية الكريمة دَليلٌ على النَّدَمِ البالغِ الَّذي يُصيبُ هؤُلاءِ في ذلكَ اليومِ، وتمَنِّيهم لو أَنَّهم رَجَعُوا إلى الدُّنيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا التمنِّي ليسَ بصَحِيحٍ؛ فإنَّهم لو رَجَعُوا لما كَانوا مُؤمِنينَ؛ والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

الآيتان (١٠٣، ١٠٤)

• ● ● •

۞ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٠٣-١٠٤].

• ● ● •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذْكُور مِنْ قِصَّة إبْراهِيم وقَوْمه].

يقول اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه هو المذكورُ مِن قِصَّة إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه ﴿لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقد سبق الكَلام عليها.

لكن يجبُ علينا أنْ نَعْرِفَ أنَّ اللهَ تَعالَى إذا قالَ عن شَيْءٍ: إنَّ فيه آيَةً، يَجِب ألَّا نَأْخُذَه مَأْخَذَ الظَّاهِرِ فقطْ، بل يَجب أنْ نَتَأَمَّل ما هذه الآيات.

وقَوْلُهُ: ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ هل المُرادُ بذلكَ جُملةُ القِصَّة، أم في كلِّ جزءٍ مِنَ القِصَّة؟

فنقول: إنَّ الإشارةَ إلى المجموعِ بلا شَكٍّ، ففي كلِّ قطعةٍ منها آيةٌ، وفي اجتماعِ هذه القِطَعِ بَعْضها إلى بعضٍ أيضًا آيةٌ، فتكون الآيةُ مُوزَّعَةً على كلِّ قطعةٍ، ويكون أيضًا اجتماعُ هذه الأشياءِ جميعًا فيه آيةٌ.

وإنَّما المهمُّ أن الله تَعالَى إذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يجبُ عليك أنْ تتأَمَّلَ وتَتفَكَّرَ وتَعْتَبِر؛ لِتَظْهَرَ لكَ هذه الآيةُ.

وقَوْلهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ الراجِح أَنَّه يعودُ إلى مَن كَانوا في عَهْدِ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(ما) فيها قولانِ:

الأَوَّل: أنها حِجَازِيَّة على الصَّوابِ، وليستْ هي العاملةَ، بلِ الصَّوابُ أنَّ الَّذي عَمِلَ (كان)؛ لأنك إذا جعلتَ (ما) هي العاملة صارت (كان) زائدةً، والأَصْلُ عَدَمُ الزيادةِ.

والثَّاني: أنها نافيةٌ، فيكون قَوْلهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: لـم يكنْ أكثرُهُمْ مُؤْمِنًا.

• • ۞ • •

الآية (١٠٥)

• ● ~ ● •

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥].

• ● ~ ● •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بِتكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي المجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ، أَوْ لِأَنَّهُ لِطُولِ لُبْثه فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُل، وَتَأْنِيث (قَوْم) بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ وَتَذْكِيرُه بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ].

قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ﴾ ذَكَرَ المُفسِّر جوابًا على تأنيثِ الفعلِ معَ أنَّ الفاعلَ مذكَّر.

قَوْلُهُ: ﴿نُوحٍ﴾ نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أوَّل رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إلى أهلِ الأَرْضِ، يُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، أما آدمُ فهو أوَّل نَبِيٍّ نُبِّئَ؛ فإنَّه كَان نبيًّا بلا شَكّ، ونوح كَان أوَّل رَسُولٍ، وإنَّما كَان آدمُ نبيًّا للضَّرورَةِ؛ لأنه لا بُدَّ أنْ يَتَعَبَّد لله، ولا عِبادَةَ للهِ إلَّا بما شَرَعَ، ولا شَرْعَ إلا بوحيٍ، لكنَّه لم يرسَلْ؛ لعدمِ دعاءِ الحاجةِ إلى ذلكَ؛ إذِ النَّاسُ كَانوا مُتَّفِقِينَ، فلمَّا اختلفوا بعثَ اللهُ الرُّسُلَ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، في قِراءَة ابن عباس: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فاخْتَلَفُوا»[1]، وهذه الجُملة لا داعيَ لها؛ لأنها مأخوذةٌ مِن قَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦، رقم ٤٠٠٩).

فعلى كُلِّ حالٍ، في عَهْد آدمَ لم يكنْ حاجةٌ إلى الرِّسَالَةِ، إنَّما النبوَّة فقطْ، وهو يَتعَبَّد للهَ وأبناؤُه، بل أولاده يَتَّبِعُونَه في ذلك على وجهِ الاتِّفاقِ بينَهم.

ولـمَّا كَثُرَتِ الأُمَّةُ وانتشرتْ في الأَرْض اختلفوا، فصارتِ الحاجةُ والضَّرورَةُ داعيةً إلى إرسالِ الرُّسُلِ، فبعث اللهُ تَعالَى نوحًا، وهو أَوَّلُ رَسُولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى الأَرْضِ، كما يُشيرُ إلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، وكما هو صَحِيحٌ صريحٌ في حديثِ الشَّفاعَةِ: «وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»[(١)].

وإذا قلنا: إنَّه أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَه الله إلى أهلِ الأَرْضِ، فهل نقولُ: إنه أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، فيُحتاج حينئذٍ أنْ نجمعَ بينَه وبينَ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»[(٢)]؟

قلنا: هو أَوَّلُ رَسُولٍ؛ لأنه لو شارَكَهُ غيرُه ما كَان هو الأوَّلَ، لكَانَ هو وغيره هو الأوَّل. وقد يقول قائلٌ: لعلَّ أحدًا بُعِثَ في حياة نُوحٍ، لكن في غيرِ مكانِه، وقد نقولُ بظاهرِ الأوَّل، وإنه إنَّما بُعِثَ إلى النَّاسِ لأن النَّاس كَانوا في ذلكَ الوقتِ أُمَّةً واحدةً قليلينَ، لم يَنتشروا كثيرًا في الأَرْض، فكَان هؤُلاءِ النَّاس بمنزلةِ القومِ في الرُّسُلِ الَّذينَ بعدَهم، وعلى هذا الطريق نَسْلَمُ منَ الإشكالِ الآخَرِ، وهو أنَّ الله تَعالَى أغرقَ جميعَ أهلِ الأَرْضِ في عهدِ نوحٍ، إلا مَن آمَنَ معه، إذ يُقالُ: كيف يُغْرَقُون ولم يَبْعَثْ إليهم رسولًا؟ فلولا أنَّ نوحًا كَان رسولًا إليهم ما أُغرقوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

جميعًا، وإنْ كَان منَ الجائزِ أنْ يُقال: لعلهم أيضًا -الَّذين بُعِث إليهم في زَمَنِه- كذّبوا رُسُلَه، لكنْ ظاهرُ الآيَاتِ أنَّ الَّذينَ غَرِقوا إنَّما غَرِقوا بسؤالِ نوحٍ.

وعلى كُلِّ حالٍ، هذا إشكالٌ دائرٌ بين العُلَماءِ من قَدِيم، وقد أجابوا عنْ ذلك بأنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانت رسالتُه إلى النَّاسِ كافَّةً في ذلكَ الوقتِ؛ عرَضًا لا أصلًا.

وفرْقٌ بينَ ما يأتي إلى أُمَمٍ مُخْتَلِفَةٍ أُرْسِل إلى كلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ، ثم يُقال لهؤُلاءِ الأمم كلِّهم: يجب أن تَتَّبِعوا هذا الرَّسُولَ، لتكونَ الأُمَّةُ واحدةً، وبينَ مَن لم يُبْعَثْ إلَّا في قومِه فقطْ؛ في أُمَّة واحدةٍ فقطْ، فإنَّ كونَه مبعوثًا إليهم جميعًا على سبيلِ الاتِّفاقِ والعُرْف لا على سبيلِ القصدِ، وبهذا تَظْهَرُ المَيْزَةُ بينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وبين نوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونَسْلَمُ منَ الإشكالِ.

فنقول: نوح أُرْسِل إلى قومِهِ وليس هناك أُمَمٌ مختلفةٌ يجبُ أنْ يَتوحَّدُوا على رَسُولٍ كما كَان في عهدِ النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ، وكونه مُرْسَلًا إلى جميعِ النَّاسِ في ذلك الوقتِ ليسَ من بابِ القَصْدِ، بل هو من بابِ الاتِّفاقِ والعَرَض، أي أنَّه اتَّفَقَ أن النَّاسَ كلَّهم انْحَصَرُوا في قومِ نوحٍ، فهنا ما قصدَ من رسالتِهِ أن تكونَ شاملةً لجميعِ الأُمَمِ، بخلاف رسالةِ النَّبيِّ ﷺ فإنَّه قصدَ أن تكونَ شامِلَةً، وأن يتوحَّد الْيَهُودُ والنَّصارَى والمَجُوسُ والوَثَنِيُّونَ، كلهم يَتَوَحَّدُون في أُمَّةٍ واحدةٍ، بفرق بين الْعُمومَيْن: الْعُموم القَصْدي والْعُموم الاتفاقي.

فهذا نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول لهم: إن قومَه كذبوا المُرْسَلِينَ، ونحن نعلمُ أنَّهم ما كذَّبوا إلا رَسولًا واحدًا، فليسَ قبلَ نوحٍ أحد حتى نقول: كذبوا هذا وهذا.

وكيف نَجْمَعُ بينَ ما جاء في حديثِ الشَّفاعَةِ: «فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»[1]، وبين قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنه أوَّل الرُّسُلِ؟

يقول المُفسِّرُ في الجَوابِ عن هذا: [بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ -أي: المرسلين- فِي المَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ]؛ إذِ اشتركوا كلُّهم في المجيءِ بتوحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ والقيام بطاعتِه، فصاروا جنسًا واحدًا، وتكذيبُ واحدٍ منَ الجنسِ تكذيبٌ للجميعِ؛ إذ إنهم لم يُكَذِّبوا نوحًا لأنه نوحٌ، لكن كذَّبُوه لأنه جاء بالتوحيدِ، فلو جاءَ كلُّ نبيٍّ بالتوحيدِ لَكَذَّبُوه، وعلى هذا فإذا جاءهم هُودٌ كذّبوه، إذ لا فرق، وإذا جاءهم صالحٌ كَذَّبُوه، وإذا جاءهم مُوسَى كذَّبوه، وإذا جاءهم مُحَمَّدٌ كذبوه؛ لأنَّهم كذَّبوا الجِنْسَ لا الشخصَ؛ لأنه أَتَى بما يُخالِفُ ما هم عليه فكذَّبوه، لذلك يكونونَ مكذِّبين لجَمِيعِ الرُّسُلِ.

ولهذا نقولُ للنَّصارى الَّذينَ يَدَّعُونَ أنَّهم مُؤْمِنُونَ بِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنكم كافرونَ به، مكذّبون له؛ لأنَّهم كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ، لا سِيَّما وأن رسولهم عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بشَّرَهُم به كما حَكَى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، ولا شكَّ أنه لن يُبَشِّرَهُمْ بمَن ليسَ لهم.

أرأيتَ لو أنَّ مَولودًا لِفلانٍ وُلِد فهل آتي إليك وأقول: أَبْشِرْ بمولودِ فلانٍ وليس بينك وبينه ارتباطٌ؟!

(١) سبق تخريجه.

ولو أن إِنْسانًا قدِمَ لِيُوَزِّعَ جوائزَ على آلِ فلانٍ، فهل أُبَشِّرُكَ بقُدُومِهِ؟! ولو حدثَ هذا لكان سَفَهًا.

إذن لم يُبَشِّرْهُمْ عِيسى إلَّا لأنه رَسُولٌ إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، يَعْنِي: عَيّنه بالاسمِ حتى لا يَبْقَى فيه إشكالٌ فيما بعدُ، ولكن -والعياذُ باللهِ- هم كَفَرُوا، وكفروا بالنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيكونونَ كافرينَ بعِيسى بنِ مَرْيَمَ.

وكذلكَ الْيَهُودُ كُفْرُهم بمُحمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كفرٌ بِمُوسى وبالتَّوراة الَّتي وُجِد فيها رَسُولُ الله مكتوبًا عندَهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، مثلما أنَّ الإِنْسان يَعْرِف ابنَه فهم يَعرِفونَ مُحَمَّدًا ﷺ بوصفه، ولكنه الاستكبارُ والعياذُ باللهِ.

فإن سأَلَ سائلٌ: إن كانَ نوحٌ نُبِّئَ ولم يُرْسَلْ برسالةٍ، فكيف اتَّبعَهُ أولادُه؟

فالجَوابُ: رَأَوْا ما يفعل ففعلوا؛ لأنَّه عادةً أنَّ الإِنْسانَ يُقَلِّدُ مَن هو أكبرُ منه، وليسَ هناك موانِعُ وفوارِقُ تمْنَعُهم وتَصرِفُهُمْ عن تقليدِهِ.

فإن كانَ في عِبادته أشياءُ قَوْلِيَّة تَحتاج إلى تفسيرٍ، فإِنَّه سَيُفَهِّمُهُمْ مِن فِعْلِهِ ومن قولِهِ، لكن هذا لا يَعْنِي أنه صارَ رسولًا؛ لأن المرسَلَ هو المبلِّغُ المكلَّفُ، أمَّا هذا فليسَ بمكلَّفٍ، ولهذا نقول مثلًا: إن الجنَّ لم يَنتفعوا برسالةِ نوحٍ؛ إذِ المعروفُ عند أهلِ العِلْمِ أنه لم يُرسَلْ إليهم، وأنه ما أُرْسِلَ إلى أحدٍ من الجنِّ إلا مُحَمَّدٌ ﷺ، مع أنَّهم يقولونَ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٣٠]، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا مُنْتَفِعِينَ بكتابِ موسى.

فإنْ قيلَ: وما دَليلُ أهلِ العِلْمِ على أنَّ الرُّسُلَ السَّابقينَ لم يُرْسَلُوا إلى الجنِّ ما دامَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؟

قلنا: هم يقولونَ: إنَّ النَّبيّ يُبعَث إلى قومِه، وقومُه قبيلتُه وما يَتَّصِل بهم، والجنُّ ليسوا من جِنْسِهِ حتى يكونوا من قومه.

لكن رسالة النبي ﷺ إلى الجنِّ لا تدلُّ على عُمومِ رسالتِهِ إلى الجنّ؛ لأن الجنَّ لَيسوا منَ النَّاسِ، لكن في كونِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَجتمِع بهم ويُواعِدُهُمْ، ويَقْرَأُ عليهم القُرآنَ، ويُخْبِرُهم بما فيه يدلُّ على أنه مُرْسَلٌ إليهم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، هل يَعْنِي أنَّ الجنّ يَعبُدُونَ بِشَرْعٍ؟

قلنا: الأَصْلُ أنَّ مَن يعبدونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم يَعبدون بالشرعِ، فهم يَتَعَبَّدُونَ بالشرعِ بلا شَكّ.

وهل منهم رُسُلٌ أو ليسَ منهم رسلٌ؟

هذه المسألة موضع نزاع بين العلماء؛ فمنهم من قال: منهم رُسُلٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الأنعام:١٣٠]، فقال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، والرَّسُول لا بُدَّ أنْ يكونَ من جِنس مَن أُرْسِلَ إليه؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ولا يمكن أن يرسل إلى الجِنّ بشرٌ.

ومنهم من قال: إن قَوْلهُ: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعود إلى المخاطَبينَ باعتبارِ المجموعِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يخاطب اثنينِ، والضَّميرُ في: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعود إلى أحد الاثنين،

مثلما قالُوا -على زعمهم-: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرَّحْمن:١٩-٢٢]، وزَعَمُوا أنَّ اللُّؤْلُؤَ والمَرجان لا يخرجانِ إلَّا مِنَ المالِحِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فإن عَوْد الضَّميرِ على واحدٍ من المجموعِ إذا خُوطِبَ الجميعُ شائعٌ في اللُّغة.

وبعضهم يقول: إن المُرادَ بالرُّسُلِ هنا النُّذُر، فقلنا: رُسُل؛ لِمُشَابهَتِهِم له، والنُّذُر لا شكَّ أنَّهم يأتونَ إلى الجنِّ كما يأتونَ إلى الإنسِ.

والراجحُ أنه ليسَ منهم رَسُولٌ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف:١٠٩]، والجنُّ ليسوا من (رِجَالًا).

والنَّبيُّ غيرُ الرَّسُولِ، فالنَّبيُّ مَن أُوحِيَ إليه؛ لأنَّ الوحيَ الَّذي يُشَبَّه بوحيِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو مِن نوحٍ فأقلَّ فما دُونَه، فالوحيُ المشبَّه بوحيِ اللهِ إلى رسولِه مُحَمَّد ﷺ هو ما كَانَ إلى نوحٍ ومَن بَعْدَه؛ لأنه وحيٌ مَقرونٌ بالإرسالِ.

ونقول: إنَّ اللهَ تَعالَى بَشَّرَ النَّصارَى على لسانِ عِيسَى نَبِيِّكم بمُحمَّدٍ، فالذي لا يَعتقِد إلَّا أنه مُخبِر بأنه سوفَ يُبْعَثُ رَسولًا؛ فإن هذا من ضلالِ قومِه الَّذينَ أَضَلُّوه، وإلَّا ما عندنا شك أن عيسى بشَّر قومه بمُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى يَتَّبِعُوه، وإلَّا ما الفائدةُ من البشارةِ؟!

ومَن كذَّب أيَّ رَسُولٍ فهو منكِرٌ لله، أو واصفٌ اللهَ بما لا يَسْتَحِق؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى يؤيِّد الرَّسُولَ بالآياتِ، فإذا كَان كاذبًا لزِمَ أنْ يكونَ اللهُ تَعالَى غيرَ موْجودٍ، أو أنه تَعالَى -والعياذ بالله- خائن أو ما أشبهَ ذلك.

فوائدُ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ التَّكذيبَ بالحقِّ من شخصٍ تكذيبٌ به من جميعِ الأشخاصِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، معَ أَنَّهم ما كَذَّبُوا إلَّا واحدًا، لكن في الحَقِيقَةِ هم كَذَّبُوا الحقَّ، سواء جاءَ به نوحٌ أو غيرُه، ولهذا صاروا مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَليلٌ على أنَّ نوحًا أُرسلَ إلى جميعِ النَّاسِ في وقتِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وجه الدلالة أنَّهم قد كَذَّبوا عامَّة الْمُرْسَلِينَ، ونوح هو أوَّل الرُّسُلِ، وليس من رسولٍ قبله.

وقد تَقَدَّمَ أنَّ هذا لا يُنافي عُمومَ رسالةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن في ذلك الوقت لم يَكُنْ في الأرضِ إلَّا قومه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، وهذا أمرٌ ليس قصدًا، وإنَّما هو وَقَعَ اتِّفَاقًا، ومَعْنى وقعَ اتِّفاقًا أنَّ اللهَ تَعالَى لَـمَّا أرسله لـم يكنْ في الأَرْضِ سِوَى قومِه. أمَّا الرَّسُول ﷺ فإن الأقوام كثيرونَ: بنو إسرائيلَ، والعرب، والأجناس الأخرى، ومع ذلك فإِنَّه مبعوثٌ إليهم جميعًا.

• • ❁ • •

الآيات (١٠٦- ١١٠)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٦-١١٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نَسبًا ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عَلَى تَبْلِيغ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيد اللهِ وَطَاعَته، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغه ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِيَ﴾ أَيْ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا].

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا﴾: في الأَصْلِ تكونُ للعرضِ، وهو الطلبُ برِفْقٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٧]، ولكنِ المُرادُ به هنا التَّحْضِيضُ، وهو الطَّلَبُ بحثٍّ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تَتَّقُونَ اللهَ، يَعْنِي أنه يَحُثُّهم على أنْ يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويَتَّخِذُوا وِقايةً مِن عذابِهِ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيه.

ثم بَيَّن لهم أنَّه إنَّما قامَ بهذه الموعظةِ لأنه رَسُولٌ أمين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، فقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ يَعْنِي: لا لِغَيْرِكُم، والخطابُ لِقَوْمِهِ، وفي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقل: إني رَسُولٌ، حَضٌّ لهم على قَبولِهِ؛ لأنه إذا كان رسولًا مُطْلَقًا قد يقولون: إنَّكَ لم

تُرْسَلْ إلينا، فإذا قال: ﴿لَكُمْ﴾ تعيَّن.

ثمَّ إنَّه إذا قال: ﴿لَكُمْ﴾ يُشْعِرُهم بأنَّ الله تَعالَى قد اعْتنَى بهم، حيثُ بَعَثَ إليهم هذا الرَّسُول، فيكون فيه هنا حَمْلٌ على أن يَقْبَلُوا رِسالته.

وقول: ﴿رَسُولٌ﴾ أي: من الله، وهذا معروفٌ مِن سِيَاق هذه الآيَاتِ، ومن غيرِها منَ الآيَاتِ الأُخرى.

وقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٌ﴾ الأمين: هو مَن كَانَ مَحَلّ أمانةٍ، والرُّسُلُ -عليهم الصلاة والسلامُ- كلُّهم محَلُّ أمانةٍ لِرِسَالَتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على تَبليغِ ما أُرْسِلْتُ به]، واضحٌ، فالذي ائْتَمَنَهُ على ذلكَ هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إظهارٌ لِوَصْفِهِ الخاصِّ المناسِبِ لِلْمَقَامِ، وهي الرِّسالَةُ، بأمانةٍ لا خِيَانةَ فيها، لا بزيادةٍ ولا بنقصٍ.

وقد يقولُ قائلٌ: أيُّ فائدةٍ لِوَصْفِهِ نَفْسَهُ بأنه: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهو يُخاطِبُ قومًا قد أَنْكَرُوه، فإذا كَانوا قد أَنْكَرُوا رِسَالَتَهُ فبالأَولى يُنكِرون أمانَتَهُ؟

والجَواب: أنَّه لم يَدَّعِ أنه رَسُول أَمِينٌ فقط، ولكنه جاءهمْ بآياتٍ، فـ«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»(١)؛ لأن الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٢).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عليمٌ حكيمٌ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُرْسِلَ أحدًا إلى أقوامٍ فيُسَفِّه أحلامَهم، ويُفْسِد أديانَهم، إلَّا ومعَه منَ الآياتِ ما يُؤْمِنُون على مِثْلِهِ لو لم يَسْتكْبِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا في المَعْنى مُكَرَّر مع ما قبلَه، لكنَّه في الأسلوب أشدُّ منَ الأوَّل، فالأوَّل حضٌّ بصفةِ العَرْض: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهنا أمر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وفي هذا دليلٌ على قوَّة جانبِ الأَنْبِياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- بحيثُ تَوَصَّلُوا إلى أنْ يَأْمُرُوا أقوامَهُم، معَ أنَّهم في الواقعِ يَتَحَدَّثُونَ من مصدرِ المُلْتَمِسِ، لكن هم بأنفسِهِمْ أَعِزَّاء، وقد يكونُ أنَّهم يَتَكَلَّمُونَ من مصدرِ القُوَّةِ، أمّا هم بالنِّسبةِ لإخوانهم فإنَّ أقوامَهم مُسْتكْبِرُونَ عنهم، ليسوا مُبالِينَ بِهِم.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، وهم إذا اتَّقوا اللهَ وأطاعوا رسولَه، فقد حَقَّقُوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ هذا رَسُولُ اللهِ، وهو أمرهم بهذا، ولا يَتِمُّ الإسلامُ في أيِّ زمانٍ أو مكَانٍ إلَّا بذلكَ -شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذا رَسُولُ اللهِ- أمَّا بعدَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتعَيَّنَ: وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

قال المفسِّر: [فيما آمُرُكُمْ به]، أي: من توحيدِ اللهِ وطاعتِهِ. وفي أَمْرِهم بهذا إشارةٌ إلى أنه أُرسِلَ بذلكَ، أي: أُرْسِلَ بأنْ يَأْمُرَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ؛ لأَنَّه قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، والفاءُ لِتَرْتِيبِ ما بعدَها على ما قَبْلَها، يَعْنِي: هذه الرِّسالَةُ الَّتي أُرْسِلْتُ بها تَتَضَمَّنُ التَّقْوَى، وطاعةَ الرَّسُولِ؛ لأن طاعةَ الرَّسُولِ طاعةٌ لِلْمُرْسِلِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قلتُ، أي: على تبليغِ الرِّسالَةِ، و(مِنْ): زائدةٌ، و(أَجْرٍ): اسمٌ منصوب على أنه مفعول ثانٍ لـ(أَسْأَلُكُمْ)، وهو منصوبٌ بفتحةٍ مُقَدَّرَةٍ على آخِرِهِ، منعَ مِن ظُهُورِهَا اشتغالُ المَحَلّ بحركةِ حرفِ الجرِّ الزائدِ.

وأتت (مِنْ) هنا في سياق النفي داخلة على نكرةٍ؛ للتنصيصِ على الْعُمومِ، يَعْنِي: من أجرٍ قليلٍ أو كثيرٍ، والمُرادُ بالأجرِ هنا أجرُ الدنيا، وهو المعاوَضَةُ، يَعْنِي: ما قلتُ لكم: أَعْطوني أَجْرًا، ولو أَمَرْتُكُمْ بهذا لقِيلَ: هذا رجلٌ يريدُ أنْ يَسْتَجْدِيَ بما يَدَّعِيهِ منَ الرِّسالَةِ.

وهناكَ أُناسٌ يَتكَلَّمُونَ في المساجدِ، ويَعِظُون النَّاسَ ويُوَجِّهُونَهُم؛ فإذا انْتَهَوْا مَدُّوا أَيْدِيَهُم يسألونَ النَّاسَ، وهؤلاء حالُهم خلافُ حالِ الرُّسُلِ، ولهذا تجدونَ النَّاسَ لو كانوا قد تَأَثَّروا بِمَوْعِظَتِهِمُ الأُولى، فإذْا مَدُّوا أَيْدِيَهم بعدَ أنْ وُعِظوا ذهبَ كلُّ ما كان في نُفوسهم من هذا التأَثُّر؛ لأنَّ الإِنْسانَ إذا طلبَ الدنيا بما يُرَاد به الآخرةُ، فسَدَ أَمْرُه، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٥-١٦].

ويُسْتَفَادُ من هذا: أنَّ مَن طَلَبَ العِلْمَ الَّذي جاءتْ به الرُّسُلُ لِيَنَالَ به أمرًا منَ الدُّنيا، فليسَ طريقُه طريقَ الرُّسُلِ؛ لأن الرُّسُلَ إنَّما يَأْمُرُونَ النَّاسَ ويَنْهَوْنَهُم؛ لِـمَا يرجونه منْ ثوابِ اللهِ لا لِـما ينالونه من الأجرِ، ففي هذا دليلٌ على وُجُوبِ تصليحِ النيَّة لِمَنْ قامَ مَقَامَ الرُّسُلِ بالدعوةِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول المُفَسِّر: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ﴾]، ففَسَّرَ (إنْ) بـ (ما)، فهي نافيةٌ، وفسَّرَ ﴿أَجْرِيَ﴾ بقَوْلِهِ: [ثَوَابِي]، فالمَعْنى: ليسَ أَجْرِي عليكم ولا على غَيْرِكُم منَ الخلقِ، وإنَّما هو: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي هذا إخلاصُ المرءِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وأنه لا يُريدُ ثوابًا منْ أحدٍ ولا مَنالًا إلَّا منَ اللهِ، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ عملَ الإِنْسانِ لِيَنَالَ الثَّوابَ ليسَ أمرًا مَمْقُوتًا، بل هو طريقُ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وأَتْبَاعهم.

وقَوْلهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: مالِكِهِم المدبِّرِ لهم بما يشاءُ، وأصلُ المالِكِ: المتصرِّفُ في الشيْءِ، ومنه سُمِّيَ ربُّ البيتِ، وربُّ البهيمة، وربُّ كذا، ويُطلَق بمَعْنى (صاحب) كقولِهِ تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات:١٨٠]، ورَبّ الْعِزَّةِ يَعْنِي: صاحب العِزَّة، ولا يُمْكِن أنْ تكونَ الربُّ هنا مثلَ الربِّ في قولِ: ربّكم؛ لأنَّ العزَّة من صفاتِ اللهِ، ولا تكونُ مخلوقةً.

فهنا: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبِّر أَمْرِهِمْ بما شاءَ، و(الْعَالمينَ) معناها: كلُّ ما سِوَى الله.

وقَوْلهُ: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كُرِّر تأسيسًا؛ لأنه بناهُ على قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يَعْنِي: فإذا انتفى ذلك فأنتم اتَّقُوا اللهَ وأطيعوني، فيكون هذا تأسيسًا، ولا يُستفاد المَعْنى المقصود منه لو حُذِفَ.

والفرقُ بينَ التَّأكيدِ والتأسيسِ: أن التَّأكيدَ لو حُذِفَ لاستُفِيدَ المَعْنى منه ممَّا بَقِيَ دونَ التَّأكيدِ، أي أن المؤكَّد لا يُستفاد منه سِوَى التَّأكيدِ، فلا يَحْمِلُ معنًى جديدًا، أمَّا التأسيسُ فيحملُ معنًى جديدًا، وهو: وعلى أنني لا أريدُ الأجرَ، وإنَّما ألتمسُ الثَّوابَ منَ اللهِ، فيَجب عليكم أنْ تتَّقُوا اللهَ وتُطِيعُوني.

ويُستفاد من قوله: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أنَّ التَّقوَى لا تُضافُ إلى المخلوقِ، بخِلاف الطَّاعةِ، فلا بأس أن أقولَ: أنا أطعتُ فلانًا، لكن لا يجوزُ أنْ تقولَ: اتقِ فلانًا، بمَعْنى التَّقوى المُسْتَلْزِمَة للتَّذَلُّل.

• • ۞ • •

الآيات (١١١- ١١٥)

• ● ∽ ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

• ● ∽ ● •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾ نُصدِّق ﴿لَكَ﴾ لِقَوْلِكَ ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ وَفِي قِراءَةٍ: «وَأَتْبَاعك»(١) جَمْع تَابع مُبْتَدأ ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ السَّفِلَة كَالحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَة، ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى﴾ أيّ عِلْمٍ لِي ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ﴾ مَا ﴿حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ فَيُجَازِيهِمْ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عِبْتُمُوهُمْ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ﴾ مَا ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بَيِّن الإِنْذَار].

قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ إجابةٌ صريحةٌ قَبيحةٌ في الواقعِ؛ لأنَّ الاسْتِفهامَ هنا من إنكارٍ، وإتيانُ الاسْتِفهامِ منَ الإنكارِ والنفي أبلغُ منَ النفيِ المجرَّدِ، يَعْنِي: كيف نُؤْمِنُ لك، ولا يُمْكِنُ أنْ نُؤْمِنَ لكَ؟ وقَوْلُهُ: ﴿لَكَ﴾ ما قال: بِكَ، وقولُ المفسِّر: (لِقَوْلِك) فيه نَظَرٌ؛ لأنَّهم يُرِيدُونَ الاستكبارَ لا نفيَ مجرَّد التصديقِ، فيكون قولُهم: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ ضُمِّن مَعْنى (ننقاد).

قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ حاليَّة على تقديرِ (قد)، يَعْنِي: وقدِ اتَّبَعَكَ الأرذلونَ، يَعْنِي:

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٥).

لا يُمْكِن أنْ نُؤْمِنَ لكَ.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي الأنقصون من الخلق، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ فيها قراءتان: (وأتباعك) جمع: تابع، مبتدأ، و(الْأَرْذَلُونَ) خبرُه، أمَّا على قِراءَة ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ فـ(الأرذلونَ) فاعلٌ.

والمَعْنى: أنَّهم قالُوا: لو كَان أتباعُكَ المَلأَ والأشراف لاتَّبَعْنَاكَ، لكن أَتْبَاعك أراذلُ النَّاسِ، مِنَ الفُقَرَاءِ والسُّوقة، والَّذينَ لا يُقَدِّرُونَ الأمورَ ولا يَعْرِفُونها؛ فهم أراذلهم من حيثُ المالُ -على زَعْمِهِم- ويُمْكِنُ أنْ نقولَ: إنَّهم أراذلُهم من حيثُ الثقافةُ أيضًا والجاهُ والشرفُ، فهم أرذلُ الأراذلِ عندهم.

وهل هذا مانعٌ، فهو يوجه الخطابَ إليكم أيها الأكملونَ، فكيف تقولونَ: لا نؤمن وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟ فالخطابُ موجَّه لكم؛ لأنكم لو آمنتم ما احتيجَ إلى توجيهِ الخطابِ والأمر لكم بتقوى اللهِ، وطاعته، ولكنَّكم مُعانِدونَ.

وهنا قالُوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ على سبيلِ الإطلاقِ بدونِ إضافةٍ إلى أحدٍ، وفي سُورةِ هُود قالُوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧]، فكَانت العبارةُ هناكَ أهونَ من هذه من جهتينِ:

أوَّلًا: لأنَّهم أَضافوا الأمرَ إليهم، وهنا أَطلقوا.

ثانيًا: أنَّهم هناكَ قالُوا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ يَعْنِي: ولعلَّه عند التأمُّل لا يكونُ الأراذلُ همُ الأتباعَ، وهنا أَطلقوا فما قالُوا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ ولا آخر الرأيِ، فإمَّا أن تكونَ هذه الآيةُ قبلَ تلكَ أو تلكَ قبلَ هذهِ.

ويَحتمِل أنَّ هذا قولُ طائفةٍ، وهذا قالَتْهُ طائفةٌ أُخرى، لكن حمْله على حالينِ

أحسنُ من حملِهِ على طائفتينِ، فأوَّلُ التبليغِ يكونُ الإنكار أَشَدّ، و﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ على الْعُموم، ثم قالُوا: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ للتخصيص.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا عِلۡمِى﴾ أيّ عِلْم لي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾]، فقد يُقال في بادئ الأمر: إن اعتذارهم منه يَعْنِي: كَوْنهم آمنوا وهم على زَعْمِكم ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ أنا لا أدري أنَّهم الأرذلون؟ يَعْنِي: فأنا ما قَصَدتهم حتَّى آمنوا لعلمٍ بهم، ولكن هكذا جَرَتِ الدعوةُ، فاتَّبعها هؤُلاءِ، فهذا ما يَتَبادَرُ إلى الذِّهن في أوَّل الأمرِ.

ولكن الظَّاهر -واللهُ أعلمُ- أن نفيَه العِلْم هنا نفيٌ للتَّبَعِيَّةِ، يَعْنِي: أيّ شَيْء يكون عليَّ وأيّ شَيْء يلحقني بعملهم؟ فلو كانوا هم الأراذلَ على زَعْمِكُم، فأنا لا يَضُرُّنِي ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِلۡمِى﴾ أي: ما حسابي، وما التَّبِعَةُ الَّتي تُلحِقوني بها فيما كَانوا يَعْمَلُونَ؟

وقال المفسِّر: [﴿وَمَا عِلۡمِى﴾ أيّ علم لي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾]، أي أنَّهم يَدَّعُونَ أنَّهم إنَّما تابَعُوه لِيَنَالُوا بذلك جاهًا ومالًا، فيكونون غيرَ مخلصينَ في إيمانهم، فالمَعْنى: بما كَانوا يَعْمَلُونه من أعمالِ القلوبِ، على أنَّ هذا ليسَ بظاهرٍ، ولكن هذا خلاف الظَّاهرِ فيما يَبْدُو.

بل إن المَعْنى: إن عَمَلَهُم هذا ليس عليَّ فيه تَبِعة مهما عَمِلوا، ولو كَانوا في زَعْمِكُمُ الأراذلَ؛ فإن ذلك لا يلحقني بشيْءٍ ما دامتْ رِسالتي قائمةً، وآياتي بيِّنة، فالحُجَّة عليكم قائمةٌ، أمَّا هم حتى وإن كَانوا الأراذلَ عندكم، فحِسابُهم على رَبِّي.

و﴿إِنْ﴾ بمَعْنى (ما): فما حِسَابُهُمْ -كما قال المُفسِّر- ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فيُجازِيهم، وأمَّا أنا فما عليَّ مِن حِسابهم مِن شَيْءٍ، كما أنه لَيْسَ عليَّ أيضًا من حسابِكم مِن شَيْءٍ.

أمَّا كونُ عَمَلِ هؤلاءِ بالقلوبِ فليسَ بظاهرٍ؛ يَعْنِي: حِسَابهم على ربِّي حتى لو عَمِلُوا هذه الأعمالَ؛ لأنَّ أعمالَ البواطنِ لا يُمْكِنُ أنْ يُقدَحوا بها، ولو قُدِحُوا بهم ما قُبلَ، فيقول: حسابُهم على اللهِ ليس عليَّ، وأنا ما عليّ إلا تَبْلِيغ الرِّسالة.

وقَوْلُهُ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ الشُّعورُ هنا بِمَعْنى: العِلْم، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما عِبتموهم]، يَعْنِي: ما قَدَحْتُم فيهم، يَعْنِي: لو أنَّكم تَشْعُرُونَ بالأمرِ وتَعْلَمُونه ما عِبْتُمُوهم بِقَوْلِكُمْ: أَرَاذِلُنا، ولكن عَيْبهم إيَّاهم في الواقعِ لأنَّهم آمَنُوا بِنُوحٍ، فهم أراذلُ عنْدَهُم لأنَّهم آمَنُوا بمَن يَرَوْن أنَّه ليسَ على حقٍّ، ومعلومٌ أنَّ مَنِ اتَّبعَ مَن ليسَ بحقٍّ فهو مِن أراذلِ النَّاسِ معنًى، وإنْ لم يكنْ من أراذلهم حِسًّا، فالذي يَتَّبعُ مَن لم تَقُمْ عليه البيِّنَةُ، فهو من أراذلِ النَّاسِ معنًى، وإنْ كَان فيما بينَ النَّاسِ قد يكونُ له جاهٌ، ويكون عزيزًا.

فالمَعْنى: لـو تَشْعُرون بالأمرِ على حقيقتِهِ لَعَرَفْتُم أنَّهم ليسـوا بأراذلَ، وأن حِسَابَهم ليسَ عليَّ، وأنَّ عليَّ واجبًا وعليهم واجب.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يُشْعِر بأنَّه عَلِم إخلاصَهُم، وأنَّهم إنَّما قالُوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ تَلميحًا لِطَرْدِهِمْ بلا شكّ، فهذا الَّذي قالُوه كأنَّهم يقولون: نحنُ نَأْنَفُ أن نكونَ معَكَ ومعك هؤُلاءِ الأرذلونَ، فنكون نحنُ على اليمينِ وهم على اليَسارِ، أو على اليسارِ وهم على اليمينِ، فلا بُدَّ أنْ تَطْرُدَهُمْ لِنُؤْمِنَ،

فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فأكَّد قولَه بالباءِ، يَعْنِي: لا يُمْكِن أنْ أَطْرُدَهُمْ أبدًا؛ لأنني أنا دَعَوْتهم إلى الإيمانِ فآمَنُوا، فكَانَ حَقّهم عليَّ الإكرام.

وهذا الَّذي قالَه قومُ نوحٍ، وهو أوَّل الرُّسُل، قالَه قومُ مُحَمَّدٍ ﷺ وهو آخِر الرُّسُلِ، فقال الله تعالَى له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]، فهذا دَأْبُ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ، ما عنْدَهُم شَيْءٌ يَعْتَمِدُونَ عليه سِوَى التَّمْوِيهِ والتضليلِ وزخارِفِ القولِ، الَّتي لا تَنْطَلِي إلَّا على العُميانِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾]. والنَّذيرُ هو المُخْبِرُ بما يخوِّف، يَعْنِي الإعلامَ المَقْرُون بالتَّخْوِيف.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بيِّن الإِنْذار]، فجعلَهُ المُفَسِّر مِن (أبَانَ) اللازِمِ، معَ أنه يحْتَمِل أنه مِن (أبانَ) المتعدِّي، فتكون بمَعْنى: مُظْهِرٍ، يَعْنِي: إني مُظْهِرٌ لِـمَا جِئتُ به، فأنا نذير مبيّن للناسِ.

فوائدُ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنه يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يقرّبَ منه كلَّ مؤمنٍ، وأنْ يختارَ لنفسِه أصلحَ الأصحابِ، كما جاء في السنَّة في الحثِّ عليه، فهذا اختيارُ الجَليسِ الصَّالحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيه أيضًا دليلٌ على أنه يَنْبَغي موالاةُ المُؤْمنِينَ، والقُرب منهم، وأن هذا دأبُ الأَنبياءِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه أيضًا الصبرُ على ما يَجِدُ من المؤمنِ من الجفاءِ، ومن دَناءة المهنةِ، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾..

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه أيضًا التواضُعُ للمُؤمِنينَ، وعدمُ إبعادِهِمْ ولو كَانوا مَن كَانوا فيها بينَ النَّاسِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أشرفُ الخلقِ جاهًا عندَ اللهِ، وأعظمُهم منزلةً، عاتبه الله في رجل أعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:١-٤].

الآيات (١١٦- ١١٨)

• • ● ● • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٦-١١٨].

• • ● ● • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عَمَّا تَقُول لَنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بِالحِجَارَةِ أَوْ بِالشَّتْمِ، ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أَيِ احْكُمْ، ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ يَعْنِي: لـمَّا رَأَوْا تَصْمِيمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنه لنْ يَطْرُدَ المُؤمنينَ لِقَوْلِهِم، وأنَّ هؤُلاءِ الأراذل ليس عليهم من حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ، وإنَّما حِسَابُهم على اللهِ وهم مؤمنونَ، فلجَئُوا إلى القُوَّةِ، فقالُوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عمَّا تقولُ لنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارةِ أو بالشَّتم].

وقَوْلُهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ في الآية إشكالٌ من حيثُ الإعرابِ؛ لأنَّ فيها قَسَمًا وشَرْطًا، وكلاهما يَحتاجُ إلى جوابٍ، فأين جَوابُ الشَّرطِ؟ وأين جَوابُ القسمِ؟

والجَواب: أن ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ جوابُ القَسَمِ، وابنُ مالِكٍ يقولُ[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

---

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

وأيضًا: ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ لا تَصْلُح جَوابَ شرطٍ؛ لأن اللامَ لا يُمْكِن أنْ تَقْتَرِنَ بجَواب الشَّرطِ، إنَّما تَقترن بجَوابِ القَسَم.

والقاعدةُ عند أهلِ العِلْم في النحوِ يقولون: إنه إذا اجتمعَ شَرْطٌ وقَسَمٌ، فاحذِفْ جَوابَ المتأخِّر، فإذا قلت: «إنْ قمتَ واللهِ ضَرَبْتُكَ»، جاز أن تقول: «لَأَضْرِبنَّكَ»؛ لأن الشَّرطَ متقدِّم، ولكن لو قلتَ: «واللهِ إنْ قمتَ ضَرَبْتُكَ» فلا يجوزُ أن تقولَ: «لَأَضْرِبَنَّكَ».

وقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أكدوا فيه -والعياذُ باللهِ- ما أرادوا من رَجْمِهِ بثلاثةِ مُؤَكِّدات: القَسَم، واللام، ونون التَّوكيد، ثم أَوْغَلُوا في الوَعِيد والتهديدِ، حيث قالُوا: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ ولم يقولوا: لَنَرْجُمَنَّك، كَأَنَّهم يقولون: هناك مَن سَبَقَكَ فرُجِم، فنحنُ نَرْجُمُكَ معَهم، فهذا أبلغُ مِن لو أَنَّهم قالوا: (لَنَرْجُمَنَّكَ)؛ لأن فيه تَخويفًا؛ حيثُ إنه ليس أَوَّلَ مَن يُرْجَم، بل هناك مَن رُجِمَ قبلَه.

وهل يَقصِدون أنَّهم يَرْجُمُونه بالحجارةِ أو بالقولِ؟

الظَّاهرُ والأقربُ أنَّهم يَقْصِدون رَجْمَه بالحجارةِ؛ لأنَّ الرجمَ بالقولِ قليلُ الاستعمالِ، ثم إنَّ التهديدَ به من هؤُلاءِ الَّذينَ يَرَوْنَ أنَّهم يَتكَلَّمُونَ من مصدرِ القُوَّة ليس بلائقٍ في المَقامِ، فالصَّوابُ أنَّهم يُهَدِّدُونَه بالرَّجْم بالحجارةِ، واللهُ أعلمُ.

حينئذٍ لجأَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾، وهذا الدُّعاءُ جَمَعَ بين أَسْبابِ الإجابةِ الثلاثةِ، وهي:

الأوَّل: دُعاء الله تَعالَى باسمِ الربوبيَّة: ﴿رَبِّ﴾.

الثَّاني: ذِكْر الحالِ الداعيةِ المُقْتَضيةِ في الدُّعاءِ: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾.

الثالثُ: الطَّلَب، ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أولًا: قَوْلهُ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾، والربوبيَّة تَنقسِم إلى قِسمينِ: عامّة وخاصّة، وهذه من الربوبيّة الخاصّة، بل هي من أخصِّ الرُّبُوبيَّات؛ لأنّها رُبوبيّة اللهِ تَعالَى في رُسُلِه.

ثانيًا: قَوْلهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ إظهارٌ للأضعفِ، يَعْنِي: لما هو أضعفُ؛ لأن قَوْلهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ كَان مُقتضى الحالِ أن يكونوا مُصدِّقين له؛ لأنَّهم قومه، ولكنهم -والعياذُ باللهِ -صاروا مُكذِّبين له، فصارتْ حالُه تَقتضِي رأفةً أكثرَ، حيثُ إنَّ قومَه هم الَّذينَ كَذَّبوه، ثم إنه يَقتضي أن تكونَ النِّكاية فيهم أعظمَ أيضًا؛ لأنَّهم قومُه.

وهذه الإضافةُ فيها فائدتانِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيان أنه مُسْتَحِق للرأفةِ أكثر؛ لأنَّ قومَه هم الَّذينَ كذَّبوه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ قَومَه مستحِقّون للتنكيلِ بهم أكثر؛ لأنَّهم قومُه، وكَان عليهم أنْ يُصدِّقوه ويَمنعوه، يَعْنِي: من أنْ يُؤْذَى، فكيف يكونون هم الَّذينَ يُؤْذُونه؟!

وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١-٢]، ولم يقلْ: «ما ضلَّ النَّبيّ أو الرَّسُول»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، يَعْنِي: الَّذي تَعرِفونه، وتعرِفون رَجَاحَةَ عقلِهِ، وتعرفون أمانتَه، فكيف تُنكِرون ما جاءكم به منَ المِعراج؟!

قال: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ يَعْنِي: نَسَبُونِي إلى الكَذِب، وقالُوا: كذّبه، وكذَبه، والفرق بينهما أن (كذَبه) أخبره بخلافِ الواقعِ، و(كذّبه) أنه لم يُصَدِّقْ ما جاء به.

ثالثًا: الفاءُ للسببيَّة في قَوْلِهِ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾، وهذا القولُ ظاهِرُهُ الأمرُ، لكنَّه في جانبٍ له يُسمَّى دُعاءً؛ إذِ الأمرُ لا يكونُ إلَّا ممَّن يَستعلي على المأمورِ، وليس الطالبُ بمُسْتَعْلٍ على مطلوبِه، ثم إن الله جَلَّوَعَلَا فوقَ كلِّ شيْءٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: احْكُمْ، وسُمِّيَ الحُكْمُ فَتحًا؛ لأنه يَنْفَتِحُ به الأمرُ ويَتبيَّن، فينفصِل هذا عن هذا، وهذا الفتحُ بأنْ يُنْجِيَه ومَن معَه من المُؤمنِينَ، ويُهْلِكهم، أمَّا نجاتُه ومَن معه من المُؤمِنينَ فمصرَّح بها، وأمّا إهلاكُهم فلا نجاةَ إلَّا مِن هَلَكة، هذا هو الفتحُ الَّذي سأله نوحٌ أن يُهْلِكَ الله تَعالَى قومَه وأن يُنْجِيَه هو ومن معَه منَ المُؤمنينَ.

وقد قال تَعالَى عنه في سُورَة نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وقد يقول قائلٌ: هل يُخْبِرُ نوحٌ اللهَ تَعالَى بالواقِع؟ أليس الله تَعالَى عالمًا به؟

فالجَوابُ: بلى، هو عالـمٌ به، لكن قَصْده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بيانُ الحاملِ له على هذا الدُّعاءِ أنه يَعتقِد أنه إذا أبقاهم لا يَلِدُوا إلَّا فاجِرًا كَفَّارًا، وإلَّا فاللهُ تَعالَى عليمٌ به، فيكون هذا كالاعتذارِ عن هذا السُّؤالِ العامّ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه المَعِيَّةُ لَيسَتْ مَعِيَّةَ اختلاطٍ كما هو معروفٌ، بل هي مَعِيَّةُ اشتراكٍ في عملٍ وعقيدةٍ؛ فإنَّ الَّذي معَ نوحٍ من المُؤمنينَ

كَانوا مشارِكينَ له في العقيدةِ والعملِ، وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ المعيَّة ليستْ كما فَهِمَه المحرِّفون في معيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنها تَقتضي المشاركةَ في المكَانِ، أو الاختلاط، فهذا ليسَ بلازمٍ.

وقَوْلهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِبيانِ المُبْهَمِ فيمَن معي؛ لأن (مَن) اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يحتاجُ إلى بيانٍ، وبيانُه إمَّا من صِلَته وإمَّا من غيرها.

ويُستفادُ منه أنه عندَ اليأسِ يجوزُ أنْ يدعوَ الإِنْسانُ على المكذِّبين والمعانِدِينَ.

وهل أقرَّ شَرْعُنا هذا أم خالَفَه؟

الجَواب: إنَّ شرعنَا أقرَّه، لكنَّه فضّلَ عدمَ الدُّعاءِ، إلَّا إذا كَان ثَبَتَ أنَّهم لا يَستقيمون، ولا يُؤمِنون، فيُشْرَع الدُّعاء، والدَّليلُ على ذلك أنَّ الله رأى النَّبيّ ﷺ عِندَما نادى عليه جِبريلُ وقال له مَلَكُ الجبالِ: إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١). لكنه لم يمنعْ أحدًا.

ودليلٌ أصرحُ منه أن النَّبيَّ ﷺ لـمَّا دعا عليهم في الصلاة قال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» لأحياءٍ منَ العَرَبِ؛ نزل عليه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٨](٢) فكفَّ عن هذا، فشَرْعُنا أمرَ بالصبرِ، وعدمِ الدُّعاءِ عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾،

ولكن قد يُقال: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَريعته تخالِف شَريعَتَنا، ولا مانعَ منْ أنْ تختلفَ الشرائعُ بمثلِ هذا، وأيضًا فإن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مكَثَ في قومِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وكلَّما دَعَاهُم ازدادوا إصرارًا واستكبارًا، فما كانَ للصبرِ عليهم فائدةٌ، لكنَّه لم يهاجرْ منهم كما فعل يونسُ، بل بَقِيَ فيهم، حتى عَذَّبَهُمُ اللهُ.

وهل كون الرَّسُولِ ﷺ دعا على المَلَأِ من قُريشٍ، يدلُّ هذا على جوازِ الدُّعاءِ؟

نقول: نعم، لكنَّه مُنِع منه في آخِرِ الأمرِ، وهو دعا على الملأِ من قريشٍ في مكَّة قبلَ أن يُهاجِرَ، ففي الأخيرِ مُنِع ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

• ● ❁ ● •

= رقم (٤٥٦٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥).

الآيات (١١٩- ١٢٢)

• • • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢٢].

• • • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المَمْلُوء مِنَ النَّاس وَالحيَوَان وَالطَّيْر، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بَعْد إنْجَائِهِم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مِنْ قَوْمِه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ الفاءُ للسببيَّة، أي: فبسبب دعائِهِ أنجيناهُ، وهي معَ إفادتها السَّببيَّة تفيد أيضًا التَّعقِيب، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ معَ أنَّ دعاءه: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨]، فكلمة: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أعمُّ.

فما هي الحكمة في ذلك؟

ذلك لأنَّه صَحِبَ معه بعض الحيواناتِ والمخلوقات، وأخذَ من كلِّ زوجينِ، فهذه لا تلصقُ في الإيمانِ أو عَدَمه.

وقد نقول: لعلَّه ما قَصَدَها أيضًا من نوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في دُعائه، فما كَان -فيما يظهر- يَدُور في ذِهْنِهِ أن الله يُنجي هذه المخلوقاتِ الأخرَى، بل قال: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد نقول: إن قَوْلَهُ: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من بابِ التَّغْليب؛ لأنه هو أيضًا إنَّما دعا مَن معَه، فكأنّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ غلَّب جانبَ العُقَلاء؛ لأنه هو إنَّما دعا بإنجائهم، فصار هذا أنسبَ لمطابقةِ الإجابةِ للطلَبِ.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، الفُلْك الَّذي بناه أو صنعه نوحٌ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، وهنا قال: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

وأيُّهما أخطر؛ قَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، أم قَوْلُهُ: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾؟

الفُلك بلا شك أخطر من: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، لكن في السُّورة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، كما هو معروف في تَواصُل آياتها ومَقاطعها وجُمَل الآيات المناسِبة لها: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

كما أنَّ فيه فائدةً معنويةً، وهي بيان موادّ هذه السَّفينة، أنَّها منَ الألواحِ والمَسَامِير، ليكونَ في ذلك دليلٌ على أنَّها مُحْكَمة، ولأجلِ أنْ يَتعَلَّم صناعةَ السُّفُن مَن لم يَعْرِف، والصناعةُ في ذلكَ الوقتِ ما تَطَوَّرَتْ إلى هذا التطوُّرِ.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المملوء منَ النَّاسِ والحيوانِ والطَّير]، فهو مشحونٌ مملوءٌ منَ الحيوانِ، ومِن النَّاس، والطير، والطيرُ مِن الحيوانِ، لكن عطْفُه عليه من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ، وكَأنّه يريدُ أنَّ الحيوانَ هو ما يَمشي على رِجلَيْهِ، والطير ما يَطِير بِجَنَاحَيْهِ، وإلَّا لو قالَ: الحيوان لَكَفَى.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ اسمُ جِنسٍ يَشمَل بلفظِه الواحدَ والجمعَ، يَعْنِي هذا اللفظ صَالِحٌ للجمعِ والمُفرد، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ

طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ هنا أراد بالفُلْكِ الجمعَ، وقال في موضعٍ آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [لقمان:٣١]، فهنا أرادَ المفردَ، ولو كَان بالجَمْع لقالَ: تَجْرِين.

فإنْ قيلَ: وهل هذا الفُلْك يَشْمَل الطائراتِ والسياراتِ؛ لِقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس:٤١]، ولم يقلْ: أنّا حمَلْناهُم؟

قلنا: الَّذي يَمْنَع من هذا هو قَوْلهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والذُّرِّيَّة تأتي بعدُ، فكيف تكونُ آيةً لهم وهم سابقونَ عليها، ولذلك أكثر المُفَسِّرين على خلافِ هذا الرأيِ، يقول: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يَعْنِي ذُرِّيَّةَ أبيهم، أي نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبعضُهم قال: إنَّ الذُّرِّيَّة هنا بِمَعْنى الآباءِ، لكن استعمال الذريَّة بمَعْنى الآباءِ بعيدٌ في اللُّغة العربيَّة، لكن استعمالها بمَعْنى الذُّرِّيَّة الَّتي نَشئوا منها، ليس في الإضافة للذرية الَّتي نشأتْ منهم، وهي ذُرِّيَّة أبيهم نُوح، وهذا أنسب؛ لأن الحَقِيقَة أننا لو جعلنا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لِذُرِّيَّةٍ ما بعدُ جاءَت تكون آيةً لَمن قد ماتَ، فهذا بعيدٌ.

لكنَّها ربما تُطْلَق على الطائراتِ وغيرها من وسائلِ النقلِ الحديثةِ؛ لأن الفُلْكَ هو كلُّ مركوبٍ مخلوقٍ، ولهذا حصرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المركوباتِ في هذا: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف:١٢]، فالفُلْك ما نَصْنَعُه نحنُ، وَالْأَنْعَامُ ما يَخْلُقُه الله.

لكن الكَلام هُنا على كونِ هذه الوسائلِ آيةً لهم، وهم موْجودونَ، والذُّرِّيَّة ما بعدُ أتتْ، فنفسُ الآياتِ الموْجودةِ في عهدِه إذا حَمَلْنَاها نحن على الطائراتِ والسياراتِ وسائرِ المراكبِ، لا يكون آيةً لهؤلاءِ.

ثم إن كلمة: ﴿حَمَلْنَا﴾ يُحتاج إلى تأوِيلها إلى: سَنَحْمِل، وحينئذٍ إذا كَانتْ سَنَحْمِلُ لا تَصيرُ آيةً لهم إلا باعتبارها وعدًا منَ اللهِ ليس مشاهدًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخاطب هؤُلاءِ المعاندين بما يقتضيه وعده فقطْ، وإنَّما يُخاطِبُهُم بآياتٍ يُشاهِدونها، أو تكون معلومةً لديهم، بحيثُ لا يُتمكَّن مِنَ الإنكارِ.

فالقولُ بأنَّ الفُلْكَ المشحونَ هنا يُراد به الطائراتُ وغيره ليسَ له وجهٌ، والصَّوابُ أن نقول: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، يَعْنِي الذُّرِّيَّة الَّتي كَانوا منها، فالإضافةُ -كما يقولُ النحْويُّون- لِأَدْنَى مُلابسةٍ، فآباؤهم بالنِّسبةِ لنوحٍ ذُرِّيَّة، وأمَّا عادةُ الإطلاقِ أنَّ الذريَّة تأتي بالمَعْنى الحقيقيِّ للآباءِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد إِنجائِهِم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه]، والَّذينَ هم نَجَوْا كما قال الله تَعالَى في سُورَةِ هودٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، وابنُه -أحد أبنائه- ما نَجا؛ لأنه كَان كافرًا، وهو قد سأَلَ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨].

وفي الآيات الأُخْرَى أنَّ اللهَ تعالَى قال له: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ثم استثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دَعا الله تَعالَى مُشْفِقًا وراجيًا رحمتَه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، فقال اللهُ تَعالَى له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، والجَوابُ هنا فيه إشكالٌ، إنَّما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لأنه كَان مُقْتَضَى ما سبق أن يقولَ: إنه ليس من أهلِكَ؛ لأنّه استثنى قبلًا: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

لكن لو قيل كذلك -لأنه سبق عليه القول- لقالُوا: ولماذا سبقَ عليه القولُ؟

فذكر النتيجةَ الأخيرةَ، وهو أنه: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إلى آخره، ولها توجيهانِ:

التوجيهُ الأوَّل: أنه، أي: سؤالك ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لأنك سألتَ ما لا يجوزُ في عِلْمِ اللهِ.

التوجيه الثَّاني: أنه، أي: الولد ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ من بابِ المُبالغةِ، يَعْنِي: عاملٌ غيرُ صالحٍ، فأطلق عليه المصدر كما يُقال: فلانٌ عدْل، وفلانٌ رِضًا، بمَعْنى ذي عدلٍ ورِضًا، فالمَعْنى أنه ذو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ، ويؤيِّد هذا الاحتمالَ قِراءَةُ: (إِنَّه عَمِلَ غيرَ صالحٍ)[1].

فإنْ قيلَ: هؤُلاءِ الَّذينَ نَجَوْا هل هُمُ الَّذينَ بَقُوا منْ أهلِ الأَرْضِ؟

قلنا: لا، ليسوا هم، بل ذُرِّيَّة نوح هم الَّذينَ بَقُوا، وأمَّا مَن كَانَ معَه منَ المُؤْمنينَ فإنَّهم فَنُوا، وما بَقِيَ لهم نسلٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

ولهذا يُقال: إنَّ نُوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الأبُ الثَّاني للإنْسانِ؛ فالأبُ الأوَّلُ آدمُ، ونوحٌ هو الأبُ الثَّاني؛ لأن جميعَ بني الإنْسانِ ماتُوا، وما بَقِيَت إلَّا ذُرِّيَّته: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، و﴿هُمُ﴾ ضميرُ فصلٍ يفيد الحصرَ والاختصارَ، فهم الَّذينَ بَقُوا.

ويقول المؤرِّخون: إنهم ثلاثة: سامٌ، وحامٌ، ويَافِثُ، واللهُ أعلمُ إنْ كانتْ هذه أسماءَهم أم لا؟ وهل هم ثلاثة أم أكثرُ أو أقلُّ؟ إنَّما هذا كَلام المؤرِّخينَ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:١٨٧).

والمهمُّ أنَّ المتيقَّنَ أنه ما بَقِيَ أحدٌ منْ أهلِ الأَرْضِ إلَّا ذُرِّيَّة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكون هو الأبَ الثَّانِيَ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي أنَّ إغراقَهم آيةٌ عظيمةٌ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١]، وفيها ﴿فَفَتَحْنَا﴾، و«فَفَتَّحْنَا»[1]: قراءتانِ سبعيَّتانِ، و(فَفَتَّحْنَا) أبلغُ من ﴿فَفَتَحْنَا﴾. ففتحَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، يَعْنِي: نازِلٍ بقوَّة وشدَّة وكثرةٍ.

قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، المعرِبون يقولون: إن الأَصْل: (فجرنا عيونَ الأَرْض)، وإنها تمييزٌ مُحَوَّلة عن مفعولٍ، وفي الحَقِيقَةِ أن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أبلغ وأعظم، يَعْنِي: كَأَنَّ الأَرْضَ كلها صارتْ عُيُونًا، فهو أبلغُ من: (فجّرنا عيونَ الأَرْضِ)، فعيونُ الأَرْضِ نَفرِضُ أنَّها عشرُ عُيُونٍ، فلا تفيدُ لو كَانت: (فجَّرنا عيونَ الأَرْضِ)، لكن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كلها، حتى إن التَّنُّور بدأَ يفورُ منَ الماءِ، والتنورُ أبعدُ ما يكون عن الماءِ؛ لأنه مَحَلُّ تفجيرِ النارِ، ومحلُّ تفجيرِ النارِ يكونُ يابسًا يُبُوسًا بالِغًا، ولكن مع ذلك صارَ بإذنِ اللهِ يفورُ.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، حتى بلغ قِمَمَ الجبالِ، وغَرِقَ النَّاسُ كلُّهم إلَّا مَن في هذه السَّفينة، وحينئذٍ صَدَقَ قولُ نوحٍ لقومِه: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩]، فصارتِ السُّخْرِيَةُ السخريةَ الحقيقيَّةَ لهؤلاءِ

---

(١) حجة القراءات (ص:٦٨٩).

الَّذينَ على السَّفِينَةِ، وكَأَنِّي بهم يَطَّلِعُونَ إليهم من نوافذها، وهم يَعُومُونَ في هذا الماءِ ويَغْرَقُون، وهؤُلاءِ في مَنجاةٍ منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على رأي المُفَسِّر المُراد أكثر قوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الأصح: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أي: الَّذينَ بُعِثَ فيهم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، (ما) نافية، و(كَان) أصليَّة، فالعملُ لـ(كَان)؛ لأن الأَصْلَ عدمُ الزيادةِ، وإذا جعلتَ العمل لـ(مَا) لزِم أنْ تجعلَ (كَان) زائدةً، وإذا جعلتَ العملَ لـ(كَان) بقِيت (ما) نافيةً على ما هي عليه.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجامع بين العزَّة الغالبة القاهِرة والرَّحمة البالغة، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجمعِهِ بينَ العزّ والرحمة صارتِ الرحمةُ تكون في مواضعها، والعزّ يكون في مواضعِهِ.

وأقسامُ العِزَّةِ الَّتي يَتَّصِفُ الله بها ثلاثةٌ: عِزَّة قَدْر، وعِزَّة قهْر، وعزة امتناعٍ.

وعزة القَدْر: هي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له القَدْر العالي، وهو الَّذي لا يُشْبِهُهُ أحدٌ منَ المخلوقاتِ؛ لأنه إذا صار عزيزَ القَدْر يَعْنِي أنَّ قَدْرَه لا نظيرَ له، مثل أن تقولَ: هذا عَزيزٌ، يَعْنِي: لا يوجدُ له مَثِيلٌ.

وعِزَّة القَهْر: هي أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قاهرٌ لِمَن سواهُ منَ المخلوقاتِ، وغالبٌ له.

وعزةُ الامتناعِ: هي أنه لا يُمْكِن لأحدِ المخلوقاتِ أن يَتوصَّل إليه، يَعْنِي: يَمْتَنِع عليه دون سوء أو نقص.

وقالُوا في المَعْنى الأخير: منه قولهم: أرضٌ عَزازٌ، يَعْنِي: صُلبة قويَّة مُمتَنِعة، ليستْ رِخْوَةً ليِّنة.

وأمَّا الرَّحِيمُ فمعناهُ: ذو الرحمةِ الواصلة إلى خَلْقِه؛ لأن: (الرَّحِيم) غيرُ (الرَّحْمن)، وأهل السنَّة والجماعة يُثْبِتُون الرحمةَ لله حقيقةً، وغيرُهم يُؤَوِّلُها بأنَّ المُرادَ بها الإحسانُ، أو إرادة الإحسانِ، يَعْنِي أنَّهم يُثْبِتُونها إلى لازِمِها؛ لأن الرحمةَ هي الرِّقَّة، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منزَّه عن الرِّقَّة! فيُقال: مَن قال لكم: إن اللهَ منزَّه عن رِقَّة الرحمةِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَرْحَمُ عبدَه، بمَعْنى أنَّه يَعْطِف عليه، وأيّ مانعٍ يَمْنَع اللهَ منَ العطفِ؟! فالقاسي ليس بمحمودٍ، أمَّا اللَّيِّن فهو المحمودُ لا شكّ.

ثم إننا نقول: إنَّ لِينَ الإنْسانِ غيرُ لينِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ لِينَ الإنْسانِ سَببُه الضعفُ أحيانًا، وعدمُ القُدْرَةِ، ولهذا يَرْحَمُ الإنْسانُ أحيانًا مَن لا يَسْتَحِقّ الرحمةَ؛ لأنه ما عنده إلا مجرَّد العاطفة؛ عاطفة اللِّين، الَّتي سببها الضعفُ، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإنّ رحمته رحمةُ قوّةٍ، ورحمة حِكْمة، ولهذا يُعذِّبُ أهلَ النارِ ذلك العذابَ العظيم، وهو أرحمُ الراحمينَ.

فإن الأدلَّة على رحمة الخالِقِ ليستْ كرحمةِ المخلوقِ.

فوائدُ الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنجى مَن معه منَ المُؤْمِنينَ بناءً على دعائِه، وأنجى غيرَهم أيضًا ممَّا يحتاجونَ إلى وُجودِهِ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشادة بهذا الفُلك، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وهذا من وجوهٍ:

أولًا: وَصْفُه بالمشْحُون، وكونه مَشحونًا يدلُّ أيضًا على قوَّته؛ لأنَّ ما ليس بقويّ لو شُحِنَ لَغَرَقَ.

ثانيًا: تعريفُ (الفُلك) بـ(أل) التعريف الدالَّة على الكمالِ.

ثالثًا: وفي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ يَعْنِي: كان من على مَتْنِهِ كثيرينَ، ومع ذلك استقامَ، وأنجى اللهُ فيه مَن معَه.

• ● ❁ ● •

الآيات (١٢٣- ١٢٨)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٨].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ءَايَةً﴾ بِناءً عَلَمًا لِلْمارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَالجُمْلَةُ حَالٌ مِن ضَمِيرِ (تَبْنُونَ)].

قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عادٌ هم قومُ هُودٍ، ولهذا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ومَحَلُّ هؤلاءِ القومِ في الرَّبْعِ الخَالِي في الأَحْقَافِ، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، فهؤُلاءِ القومُ معروفونَ بالقُوَّةِ والشدَّة إلى حَدِّ أنَّهم قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ فإنَّهم مُسَيْطِرونَ.

وأمَّا المبالغةُ الَّتي يَذْكُرها المُفَسِّرون والمؤرِّخون في كِبرِ أَجسادِهِم وقوَّتِهم، فاللهُ أعلمُ بها، ولكنَّهم بلا شَكّ قومٌ أقوياءُ، وعُتَاة، يَعْنِي: جُفاة القُلوب، أقوياء الأبدان، فهم مَعروفونَ بالقُوَّة، ولكن الله تَعالَى أرادَ أنْ يوبِّخهم ويُقِيمَ الحُجَّة عليهم في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ [فصلت:١٥]، جعلهم يَطْمَئِنُّونَ، يَعْنِي: يُخفِضُون رُءُوسهم، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ فهم مخلوقونَ، وهو خالِق، فلا بُدَّ ضرورةً

أن يكون الخالِقُ أعلى منَ المخلوقِ، وأنْ يكونَ المخلوقُ في قَبْضَتِه، وهذه هي الحكمةُ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، ولم يقلْ: إنَّ الله الَّذي خلق السماواتِ والأَرْضَ، مع أن ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، لكن لأجلِ أن يُخفِضَ رُءوسَهم أكثر ﴿خَلَقَهُمْ﴾، فهم بأنفسهم مخلوقون مَرْبُوبُونَ ذَلِيلُونَ.

وكلٌّ منَ القومينِ كذَّبَ نبيَّه، كذب قومُ نوحٍ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكذَّب قومُ هودٍ هودًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، معَ أنَّه نَصَحَهُمْ هذه النصيحةَ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهذا الاسْتِفهامُ إمَّا للتحضيضِ، أو أنه استفهامٌ بمَعْنى التوبيخ، يَعْنِي: يُوَبِّخُهُم على عدم التَّقْوَى.

وقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي الله؛ لأن هذه الجُملة مُختَصَرَة، ومعروفٌ أنه كَان يَأْمُرُهُم ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يؤيِّد أنَّ قولَه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ليسَ المقصود أنه أرسلَ للناسِ كافَّة.

قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: مُرْسَلٌ من قِبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ يدلُّ على الاختصاصِ، أي: مُرْسَلٌ لكم خاصَّة؛ لأنَّ كلَّ رَسُولٍ يُبْعَثُ إلى قومِهِ فقطْ.

وقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: ذو أمانة، ائتمنني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على رسالته.

فإذا قال قائل: هذان الوصفان: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مجرَّد دعوى، وهم ينكرونَ أنْ يكونَ رَسولًا أمينًا، بل يقولون: إنه كاذبٌ خائنٌ، فهل بمجرَّد الدعوَى تقومُ عليهم الحجَّةُ؟

فالجوابُ: لا، لكن هذه الدَّعْوَى مؤيَّدة من آيات من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1]، فهي ليست مجرَّد دَعوى؛ لأنها لو كانتْ مجرَّد دعوى لكانَ سهلًا رفضُها، لكنها دَعوى مؤيَّدة ومدعَّمة منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بآياتٍ بيِّنة، يُؤمِن على مِثلها البشرُ.

وفي قوله لهم هذا القولَ، جازِمًا به، دليلٌ على قوَّة آياتِه، وأنَّ معه منَ الآياتِ ما جَعَلَه يعبِّر هذا التعبيرَ الجازِمَ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وفي هذا دليلٌ على أنّ الرِّسالَةَ أكبرُ دليلًا على أمانةِ الشخصِ؛ لأنه لولا أنه أمينٌ ما ائتمنه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الوحيِ، الَّذي فيه الحُكْمُ على النَّاسِ بالسعادةِ والشقاءِ، بل الحكم عليهم باستباحةِ أموالِهم، واستباحة نِسائِهم، واستباحة دِمائِهم.

فلولا أنَّ الرُّسل -عليهم الصلاةُ والسلامُ- هم أعظمُ النَّاسِ أمانةً ما ائتمنهمُ اللهُ على هذا الوحيِ العظيمِ.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذا عَودٌ في المَعْنى على قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٢٤]، يَعْنِي: فلأني رَسُولٌ أمينٌ افْعَلُوا ما آمركم به منَ التَّقْوَى، وأَحُثُّكُم عليه.

وإنَّما قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وما قال: (واتقوني)؛ لأنه لا يَمْلِك لنفسِهِ نفعًا ولا ضَرًّا، لا هو ولا غيرُه، فوظيفة النَّاس بالنِّسبةِ للرسلِ ليستْ تَقْوَى الرُّسُل، بل طاعة الرُّسُل، ولهذا ما جاء على لسانِ أيِّ واحدٍ منَ الرُّسُلِ أنه قال لقومِه: (اتقوني)، بل يأمرونهم بالطَّاعةِ، وأما التَّقْوى والخشية والخوفُ فهي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) سبق تخريجه.

والتَّقْوى هي اتّخاذ وِقاية من عذابِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بفعلِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيهِ، وهذا أجمعُ ما قيل في التَّقْوى، ولهم فيها عباراتٌ كَثِيرَة.

أمَّا الطَّاعة فأصلُها الانقيادُ، ومنه قولهم: هذه الناقةُ طَوْعُ صَاحِبِها، أي: مُنقادة له وذليلةٌ، وتفسّر بأنها موافقةُ الأمرِ تَذَلُّلًا للآمِرِ؛ لأن موافقةَ الأمر قد تكونُ تَذَلُّلًا للآمرِ، وقد تكون كالإكراهِ، والتي تكونُ كالإكراهِ لا تكونُ طاعةً.

ويُستفاد من قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وجوبُ تقوى الله، ووجوبُ طاعةِ رسولِه؛ لأن طاعةَ رسولِه من طاعتِه؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: ٨٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾: أي: على ما أقولُه لكم، أو: على تبليغِ الرِّسالَةِ، والمَعْنى متقارِبٌ، يَعْنِي: أنا لستُ أقولُ: أَعْطوني شيئًا، وإنَّما آمُرُكم بما فيه خَيْرُكم، لو كنتُ أسألكم أجرًا على ذلك لكَانَ لكم الحُجَّة في أنْ تَرُدُّوا، لكنِّي لا أسألكم عليه أجرًا، يَعْنِي ثوابًا وعِوَضًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنۡ﴾ مَا ﴿أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾]، وفي هذا كمال الإخلاص، يَعْنِي: أنا لا أريدُ الأجرَ إلَّا منَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقول العلماءُ: إنَّ (عَلَى) تفيدُ الوجوبَ؛ لأنه ما قال: إن أَجْرِي إلَّا مِن ربِّ العالمينَ، بل قال: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهلِ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَجِبُ عليه شيْءٌ؟

الجَواب: أمَّا أنْ نُوجِب عليه فلا، وأما أنْ يُوجِب على نفسِه تكَرُّمًا، فهذا لا مانعَ منه.

قال ابن القيِّم[1]:

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْـرَ الْعَظِـيمَ الشَّـانِ

كَـلَّا وَلَا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعٌ ... إِنْ كَـانَ بِـالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَـانِ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ، وَالْفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

قيّد بقَوْلِهِ: «إن كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ»، والإحسانُ هو المتابعةُ، أمَّا إذا لم يكنْ بالإخلاصِ والإحسانِ فيَضِيع: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ءَايَةً﴾ بِنَاءً عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ]، ففسَّر هنا الآيَةَ بأنها العَلامَةُ، لكنها تحتمل أن تكونَ عَلامَة على الطريقِ كما قال المُفسِّر، معَ أن السياقَ لا يؤيِّده، لكنه كذلك لا يَمْنَعُه.

وكذلك قد يكون المُراد آيَة أي: عَلامَة على قُوَّتِكُم ومَقْدِرَتِكُم، وهذا هو الأقربُ، ولهذا قال: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ يَعْنِي أنَّكم تريدون من هذه البِناياتِ أن تكونَ آيةً ودليلًا وبُرهانًا على قوتكُم.

وقَوْلُهُ: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تَتَّخِذُونَ ذلك عَبَثًا؛ لأنه لا مصلحةَ لكم فيه إلا مجرَّد العَبَث، وإظهار العَظَمَة، وإظهار القُوَّة، وهذا بلا شَكّ كون الإِنْسان يُظْهِر قوَّتَه أنه عبَث وفسادٌ.

---

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية (ص:٢٠٨-٢٠٩) ط. مكتبة ابن تيمية.

وعلى هذا يَتبَيَّن لنا أن هؤُلاءِ الَّذينَ يحاوِلون أنْ يَصِلُوا إلى الكواكِبِ، ويُطْلِقوا هذه الأقمارَ الَّتي لا يَستفيدون منها في الأَرْض مثل قوم عادٍ تمامًا، يَعْنِي: الطريقة هي الطَّريقة، وإنْ كَانَ الأسلوبُ مختلِفًا، يَعْنِي: يفعلون هذه الأشياءَ آيةً وعَبَثًا؛ إذ لا يَستفيدونَ منها فيما خُلِقَ لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وليس الَّذي في السماء، لكن الَّذي في الأَرْضِ هو الَّذي مخلوقٌ لنا، فانْتَفِعُوا به مباشرةً، أمّا الذي في السَّماء فمُسَخَّر لِمصالحنا، ولكنَّنا لا نَنْتَفِع به مباشرةً، فالَّذي يُنْتَفع به مباشرةً هو ما في الأَرْضِ.

ولهذا يقول بعضُ النَّاسِ: لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلُوا للسماءِ وأنتم عاجزونَ عن حلّ مشاكلكم في الأَرْضِ؟ وهذا صَحِيحٌ، لكنَّهم يَعْمَلُونَ هذا لمجرَّدِ العَبَثِ والفَخْرِ، وأنَّهم أقوياءُ، معَ أنّ قومَ هُودٍ، وهؤُلاءِ القوم أيضًا المعاصرونَ يَخْسَرون على هذه الأمورِ خسائرَ باهظةً، فصارتْ عَبثًا؛ لأن كلَّ شَيْءٍ يُتْعِب الإِنْسان فيه جِسْمَه ومالَه وفِكْرَه بدون فائدةٍ، فهو عَبَثٌ، ولا فائدةَ منه.

بل إنه إذا أرادَ ما وراءَه من إظهارِ العَظَمَةِ والكِبرياء على الخَلْق، صار أيضًا فَسادًا، فصار إيجابيًّا لا سلبيًّا فقطْ، إيجابيًّا لأنه فسادٌ، وهو ينكِر عليهم هذا الأمرَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾.

وأمَّا ما سَلَكه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّهم يَجْعَلُون علاماتٍ للمارَّة لأجل إذا مَرُّوا بهم يَسْخَرُونَ منهم؛ فهذا بعيدٌ عن السِّياق، وإن كَان السياقُ لا يَمْنَعُه لكنَّه لا يؤيِّده، فالصَّوابُ في هذه الآيةِ أنَّهم يبنونَ بناياتٍ عظيمةً، تدلُّ على قُوَّتِهم وقُدْرَتِهم عَبَثًا؛ لأنَّهم لا يَستفيدون منها سِوَى إظهارِ العَظَمَةِ فقطْ، وهذا لا شكّ أنه عَبَثٌ.

وإذا تأمَّلتَ الإِنْسان الأوَّل هو الإِنْسان الأخير، أو الإِنْسان الأخير هو الإِنْسان الأوَّل، لكن يختلف الأسلوبُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢]، وهذه الأمورُ إذا طبَّقْناها في الوقتِ الحاضرِ فهي موْجودةٌ.

فقولهم: ﴿لَضَآلُّونَ﴾ قديمًا، يُساويه قولُهمُ الآنَ: رَجْعِيُّونَ! أو مُحافِظُونَ! أو ما أشبهَ ذلك، وهو نفسُ الشيْءِ، فالفِكْر هو هو، لكن الأسلوب يختلف مُسايرةً للزمَنِ.

وهل صَحِيحٌ قولُ بعضِ النَّاسِ: إن الحيوانات في زَمَنِ نُوحٍ كانتْ أقلَّ أنواعًا من هذا الزمنِ، وسبب كثرتها بسببِ نزولِ بعضها على شكلٍ آخرَ، فتولَّدَتْ منها أشكال؟

أمَّا الآيةُ فلا تُصَرِّح، لكن الذي وَرَدَ أنه حمل معه ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠]، يَعْنِي: من كلِّ الموْجوداتِ، لكن لا شكَّ أنه ما وُجدَ أصلٌ جديدٌ أبدًا، لكن ربَّما صارتْ زيادة الأنواع بالتوالُد، أو بِنُزُولِ بعضها على بعضٍ فاختلفتْ، مع أنّ المعروفَ عنْدَهُم أنه ما حصلَ من توالدٍ من نَزْو بَعْضِها على بعضٍ أنه لا يتوالدُ، والحاصلُ بالتوالُدِ لا يتوالد، كل شَيْء نشأَ منَ التوالُد لا يتوالدُ، فهذا معروفٌ عندهم، ولهذا البَغْلُ لا يُمْكِن أنْ يَصِيرَ له ذُرِّيَّة أبدًا.

فوائد الآيَات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: ويُستفاد من هذه الآيةِ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ جوازُ وصفِ الإِنْسانِ بالثناءِ على نفسِه للمصلحةِ، وهذا أيضًا وردَ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه

قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»[١]، وورد أيضًا عنِ الصَّحَابَةِ مثل هذا المَدْح في قول ابن مسعودٍ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[٢]، لكنْ بِشَرْط أنْ يكونَ غَرَض الإِنْسان مِن ذلك المَصْلَحَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هذا دليلٌ على إخلاصِ الرُّسُل لله في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أيضًا الاحتسابُ؛ احتسابُ الإِنْسانِ عَمَلَهُ على اللهِ، فليس هذا للإدلالِ على اللهِ بهذا العملِ والمنّة عليه به، ولكن الاحتساب به عليه لرجاءِ ثوابِهِ؛ لقَوْلهُ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي هذا دليلٌ على جَبَروت عاد، ومَحَبَّتهم للكِبرياء والعظمة فيما أنكره عليهم نبيُّهم: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيها دَليل على أنه يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يكونَ غَرَضه من عمله، لا سِيَّما العمل الجبَّار العظيم، أن يكونَ غَرَضُه غَرَضًا صَحِيحًا، لا عَبَثًا ومُباهاةً؛ لقَوْلِهِ: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾، وهذا هو مَحَطّ الانتقادِ، ليسَ بأن يَبْنُوا ﴿بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾، ولكن كون ذلك عَبَثًا هو مَحَلُّ الانتقادِ ومَحَطّ اللَّوْم.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

الآيتان (١٢٩، ١٣٠)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٢٩-١٣٠].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ لِلْماءِ تَحْت الْأَرْض ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كَأَنَّكم ﴿تَخْلُدُونَ﴾ فِيهَا لَا تَمُوتُونَ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بِضَرْبٍ أَوْ قَتْل ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مِنْ غَيْر رَأْفَةٍ].

ثم قالَ اللهُ تَعالَى في سِيَاق ما قالَه هود لقومه: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: جمع مَصْنَع، وهو مَحَلّ الماء، كما قال المُفسِّر، فالمصانعُ عِبارة عن الخزَّانات الَّتي تحت الأَرْض يَتَّخِذُونها لعلَّهم يَخْلُدُونَ، يَعْنِي: كَأَنَّهم خالدون في هذه الدُّنيا غير مَيِّتِينَ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ذكر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أتى بها للتَّشْبيه: [كَأَنَّكم]، ولكن ما رَأَيْنا أحدًا ذكرَ أنَّها تأتي للتَّشبيه، بل إنَّما قال: إنها تأتي للإشفاقِ والتعليل والترجِّي، هذا هو المعروف من معاني (لَعَلَّ).

وأيُّ هذه المعاني الثلاثة هو أَولى بها؟

الأَولى أنها للتَّرجِّي، يَعْنِي: يَتَرَجَّوْنَ أنْ يَخْلُدُوا في ذلكَ، وقد تُفيدُ التوقُّعَ، أيْ أَنَّهم يَتَوقَّعُونَ الخُلُودَ، لكنَّها للترجِّي أقربُ. يَعْنِي أَنَّهم يتَّخِذون هذه المساكنَ لأجلِ أنْ يَبْقُوا فيها، كَأَنَّما يَخْلُدُونَ فيها.

وقَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحْت الْأَرْض]، قد يُنازَع فيها أيضًا، بأن يُقالَ: إن المُراد بالمصانِعِ مكَانُ الصناعةِ، يَعْنِي أَنَّهم أيضًا اتَّخَذوا مصانعَ كَثِيرَةً، كما تدلُّ عليه صِيغة مُنْتَهى الجُمُوع (مَفَاعِل)، ثم إنها قويَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؛ لأنه لا أحدَ يَبني شيئًا للبقاءِ الكثيرِ إلا ويُحكِمه ويُتْقِنُه.

فيكون هودٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَبهم في أمرينِ:

الأمرُ الأوَّلُ: اتِّخاذ الآياتِ -الأبنية القويَّة العظيمة- عَبثًا وإظهارًا للقوة والفخر.

الأمر الثَّاني: هذه المصانع العَظِيمة الَّتي اتَّخَذُوها لأجْلِ أن يَخْلُدُوا ويَبْقُوا فيصنعوا فيها، وقد قالَ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وهذه العماد العظيمةُ الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلَادِ لا بُدَّ أنْ تكونَ ناتجةً عن مصانع قويَّة لِتَوَلَّدَ هذه الموادَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

ثم قال: من جَبروتهم أيضًا العدوانيّ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ لأن الأوَّل جَبَرُوت مِعْمَارِيّ، والثَّاني مَصْنَعِيّ، والثالث الجَبَرُوت العُدواني.

وقِس هذه الأشياء على وَقْتِنا الحاضِرِ، فتَجِدها مُنْطَبِقَةً تمامًا، فهناك مَن يَتَّخِذُونَ من هذه القُوَّة آيةً للفَخْرِ والعَبَث، ثم هذه المصانع أيضًا الَّتي يَتَّخِذُونها -مصانع القنابل الذَّرِّيَّة والنَّوَوِيَّة وغيرها- لأجْلِ أن يَخْلُدُوا؛ حتى لا يَتَسَلَّط عليهم أحدٌ، وحتى تكون لديهم السيطرةُ في هذه المصانعِ.

وكذلك الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يَعْنِي: إنكم تَبْطِشُون، فهو موْجودٌ كذلك.

وإنَّما قلت: إنَّكم تبطِشون؛ لأن (إذَا) تُفِيد تحقُّق وُقُوعِ الشَّرط، بخِلاف (إنْ)، فإذا قلت: (إنْ قام زيدٌ فقُمْ)، لا تدلّ على تحَقُّق وُقُوع الشَّرط، لكن إذا قلت: (إذا قام زيدٌ فقُمْ)، فهذا معناه كَأنَّه سيقومُ، ولكن لِيَكُنْ وقتُ قِيَامِك وقتَ قيامِه.

فقَوْلهُ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ يَعْنِي: وأنتم تَبْطِشون، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بضربٍ أو قتلٍ ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ من غيرِ رأفةٍ]، فهذا الوصفُ الثالثُ -والعياذُ باللهِ- العُدْوَان، والذي حَمَلَهُم على هذا العدوان -الإِنْسان بَشَر- لما رَأَوْا أنفسهم أقوياءَ في البناءِ والصناعةِ، قالُوا: ليس أَحَدٌ فَوْقَنا، فبَطَشُوا -والعياذُ باللهِ- بدونِ رأفةٍ؛ لأن الإِنْسانَ بطبيعتِهِ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

• • ❁ • •

الآيات (١٣١- ١٣٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٤].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي ذَلِكَ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ، ﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أَنْهَارٍ].

قَوْلُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ذلك ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّره تأسيسًا، إذا كَان يعود على ما بعد قَوْله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وإذا كَان لا يعودُ عليه، وأنه قال ذلك إبلاغًا للرِّسالَةِ، فإنَّه يكونُ معَ الأوَّل تأكيدًا.

وفي الحَقِيقَةِ أنّ المَقام يَقتضِي التَّأكيدَ، وأنَّ المَقامَ أيضًا في الأمورِ الثلاثةِ الَّتي وَبّخهم عليها يَقتضي أنْ يُخصَّصَ بزيادةِ العِنايةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثم قال لهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ﴾، هنا أتى بالوصفِ لأن ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾ الاسم الموصول وَصِلَته بمنزلةِ الاسمِ المشتَقّ، يَعْنِي: واتَّقُوا المادَّ لَكُمْ، والاسم المُشْتَقّ أو اسم الفاعل وَصْف.

وهنا انتقلَ من وَصْف الأُلُوهِيَّة إلى وصف الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة، الَّذي ناله منه، وهو: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾؛ لأن إمداد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنِّعَم من مُقْتَضَى الربوبيَّة.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ أتى بهذا الوصفِ أيضًا إقامةً للحُجَّة عليهم؛ لأنَّ مَن أَمَدَّكَ بهذه النعم كَان أَولى بأن تَتَّقِيه.

وقَوْلُهُ: ﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ مُبْهَم؛ لأن (ما) اسم موصولٌ، والاسمُ الموصولُ مُبْهَم وعامّ، ثم فصّله بقَوْلِهِ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ﴾. والتفصيلُ بعدَ الإجمالِ، أو البيان بعد الإبهامِ، له فوائدُ، منها:

١- تَنبيهُ السامِعِ أو القارِئِ؛ فإذا كَان مثلًا يقرأ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ﴾ يشعر براحةٍ ثم بِتَنْبِيهٍ؛ لأن السياقَ تَغيّر، فمِن المُبْهَم إلى المخاطبينَ بَيِّن وواضح، فهذا فيه تنبيهٌ.

٢- التشويقُ؛ لأن الإنسان يحبّ الاستطلاعَ، فإذا أُبهم إليه الأمرُ ووَضَحَ، اشتاقَ إليه ورَسَخَ في ذِهنه؛ ترسيخ الكَلام في الذِّهن؛ لأنه إذا جاء مُبْهَمًا تَشَوَّق له الذِّهْنُ، فإذا بُيِّنَ له بعدَ ذلكَ تَرَسَّخَ فيه.

٣- العِناية؛ لأن كونَه يُبْهِمُه ثم يُبَيِّنه أو يُجْمِلُه ثم يُفَصِّله؛ لأجل أن الإِنْسان يتشوَّق إليه ويَرتقي من معناه أنه أمر يُعتنَى به، كما أنَّ فيه أيضًا تأكيدًا؛ لأنه ذُكِر مرتينِ: مرَّةً مُبْهَمًا، ومرَّةً مُفَصَّلًا أو مُبَيَّنًا.

٤- تأكيده؛ بذِكره مرتينِ: مَرَّةً مُجْمَلًا، ومَرَّةً مفصَّلًا، أو مبهمًا ثم مُبَيَّنًا.

قَوْلُهُ: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ ما قال: (أمدَّكم بأنعامٍ وبَنِينَ)، بالنِّسبة لهذه الآية بالذاتِ، فبيَّن لهم أن اللهَ أمدَّهم بأمرٍ لا يُمْكِنُهم إنكارُه؛ لأنَّهم يعلمونَ، فقدَّم: ﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ على ذِكر المُنْعَم به بإقامةِ الحجَّة عليهم، حيثُ إنَّ هذه نِعَم مفهومة ومعلومة لهم، فلا يُمْكِنُهم إنكارُها.

قَوْلُهُ: ﴿بِأَنْعَـٰمٍ﴾ الأنعامُ: جمعُ نَعَم، يَعْنِي الإبل، وإذا قلتَ: إنَّ نِعْمَة جَمْعُها نِعَم، وجَمْع نِعم: أَنْعَام، صار المُراد بالأنعامِ ما هو أعمُّ منَ الإبلِ، يَعْنِي: كَأَنَّه يقول: بنِعَمٍ كَثِيرَة، والمعروف أنها للإبلِ فقطْ، لكن إذا قيلَ: بَهِيمة الأنعامِ، فتَشْمَل الثلاثة، وفي الحديث: «خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1].

وقَوْلُهُ: ﴿وَبَنِينَ﴾ الذكور منَ الأولاد، وخصّ البَنين؛ لأنَّهم أبلغُ في شَرَف الإِنْسانِ، ولأنَّ أولادَهم يُكَوِّنون قَبيلةً، لكن أولاد البنات من غَيْرِهم، فلا يكونونَ قبيلةً ولا يكونونَ أسرةً.

وقَوْلُهُ:[(﴿وَجَنَّـٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهارٍ]، وهذا ممّا يَدُلُّ على أنّ هذا الرَّبْع الخالِي الآنَ منَ الماءِ أنه كَان فيه بساتينُ، وكَانَ فيه أنهارٌ، ولعلَّ هذا يُوحِي به أيضًا قولُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»[2]، فإنَّ قَوْلَهُ: «حَتَّى تَعُودَ» العَوْد بعدَ البَدْء، فهذه الجنَّات ليستْ مجرَّد بساتينَ فقطْ؛ لأنه لا يُسَمَّى البستانُ جنَّةً إلا إذا كَان كَثِيرَ الأشجارِ والزُّرُوع، حيث يُجِنّ مَن فيه ويَسْتُرُه، والعيونُ جَمْعُ عَيْنٍ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّها أنهارٌ فباعتبارِ جَرَيَانِها، وإلَّا فالعُيُون هي الَّتي تَنْبُع من الأَرْض، والأنهار كما هو معروفٌ لا تَنْبُع منَ الأَرْض، وإنَّما تأتي منَ الأمطارِ والسيول وغيرها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، رقم (٢٩٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم (١٥٧).

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ الداعِيَةَ يَنْبَغي له أن يذكِّر المدعوَّ بِنِعَمِ اللهِ عليه، وتُؤْخَذ من قولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، والحكمةُ من تذكيرِه بالنعمِ أنَّ النعمَ تَستوجِب الشكرَ وطاعةَ الرَّحْمنِ، وتضمن ذلك عقلًا؛ لأنَّ مَن أحسنَ إليكَ؛ فإنّه مِنَ المُسْتَحْسَن عَقلًا أنْ تُطِيعَه بما يأمُرُكَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه النعم الَّتي يمدّ الله بها العبدَ تَستوجب أنْ يقومَ بتقوَى اللهِ؛ لأن قَوْلَهُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ في التعليلِ للأمرِ بالتَّقْوَى، فتكون النعمُ مُسْتَوْجِبَةً لِتَقْوَى العبدِ لِرَبِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا للأشرِ والبَطَرِ والبُعْد عن اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ حيث عَدَل عن قَوْلهُ: (وَاتَّقُوا الله) إلى ما ذُكر؛ إشارةً إلى أن هذا السَّبَبَ كبيرٌ لِوُجُوبِ التَّقْوى.

الآيات (١٣٥- ١٣٨)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٥-١٣٨].

• • ● • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إنْ عَصَيْتُمُونِي، ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ مُسْتَوٍ عِنْدَنا ﴿أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أَصْلًا، أَيْ لَا نَرْعَوِي لِوَعْظِك، ﴿إِنۡ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي خَوَّفْتنا بِهِ ﴿إِلَّا خَلۡقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1] اخْتِلَاقُهمْ وَكَذِبُهمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الخَاء وَاللَّامِ، أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارٍ لِلْبَعْثِ إِلَّا خُلُق الْأَوَّلِينَ، أَيْ طَبِيعتهم وَعَادَتهم، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾].

قول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إنْ عَصَيْتُمُونِي]، يَعْنِي: إِنِ اسْتَمْرَرْتُم على ما أنتم عليه منَ الكُفْر بهذه النِّعَم العظيمة؛ فأخاف عليكم عذابَ هذا اليومِ.

وقَوْلُهُ: ﴿عَظِيمٖ﴾ صفة لليوم، لكن يقول: [في الدنيا والآخرة]، ووَصْف هذا العذاب بالعِظم في الدنيا باعتبارِ ما عدَاهُ، وأمَّا وصْفه بالعِظَم في الآخرة فظاهرٌ؛

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٨).

لأنه عظيمٌ أعظم ما يكون في الآخرةِ.

وإن قيل: قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ألا يدلُّ هذا على أنه يوم القيامة خاصة؟

قلنا: لا، فإنَّ اليومَ الَّذي يقع عليه العذابُ بالدنيا يُوصَف أيضًا بأنه يَوْم عَظِيم؛ وهو أيضًا لم يُعيِّن يومًا.

﴿قَالُواْ﴾ في الجَوابِ بعد هذا التذكيرِ بالنِّعم، وبعد هذا الوعظِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أعوذ بالله! فهذا كِبرياء عَظيم! و﴿سَوَآءٌ﴾ بمَعْنى مستوٍ، وهي خبرٌ مُقدَّم، و﴿أَوَعَظۡتَ﴾ الجُملةُ الاسْتِفهاميَّةُ هذه في تأويلِ مَصْدَر لمبتدأٍ مؤَخَّرٍ، يَعْني: وَعْظُك وَعَدَمُه سَوَاءٌ.

وهذا من المواضعِ الَّتي تكون مؤوَّلة بالمصدرِ بدون حرفٍ مصدَرِيٍّ؛ مع أنَّ الَّذي دخلَ عليها أداة الاسْتِفهام، لكن بعد (سَوَاءٌ) هكذا تؤول وما بعدها بالمصدر، كقولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون:٦]، أي: استغفارُكَ وعدمُه، وكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، أي: إنذارُك وعدمُه.

فهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نَرْعَوِي لِوَعْظِكَ، وهذا مِنَ الجَبَرُوتِ ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ بالفعلِ ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ لم يَكُنْ وَصْفك الوَعْظ، ﴿سَوَآءٌ﴾ تركتَ الوعظَ أم لم تَتْرُكْه؛ لأنَّهم ما قالُوا: سواء عَلينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ بل ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾.

فالمقصودُ من هذا أنه لا يُهِمُّهم أن يكونَ وَاعِظًا، أو غيرَ واعظٍ، ولا أن يَعِظهم

بالفعلِ أو لا يَعِظهم، كلّ الأمرِ عنْدَهُم سواءٌ، وإنَّما قالُوا ذلكَ لأنَّ الإنْسانَ قد لا يَكْتَرِث بالواعظِ لكونِهِ غيرَ أهلِه، وقد لا يَكترث به عِنادًا، وهؤُلاءِ لما قالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾ دلّ ذلك على أنَّهم مُعانِدُون، حتى وإنْ كان من غيرِ أهلِ الوعظِ، أو وعظت وأنتَ مِن أهلِ الوعظِ، وفي هذا من بلاغةِ القُرآنِ ما هو ظاهرٌ؛ لأنَّهم قالُوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ﴾ أم لم تعظْ، لكن ربَّما يقولون: إنه قد يَعِظ وليسَ أهلًا للوعظِ، ولكنهم قالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾ يَعْنِي: لـم تكن ممَّن يَسْتَحِقُّون أنْ يُوصَفوا بهذا الوصفِ.

فيؤخَذ من هذا أنه حُذِف من كلّ واحدةٍ ما يُقابلها؛ اختصارًا للوضوحِ، فيصير التَّقدير على هذا: (أوعظتَ أم لم تَعِظْ، أو أكنتَ واعظًا تَسْتَحِقّ أنْ يَنْصَرِف النَّاس لك، ويأخذوا منك، أم لم تكنْ واعظًا)، وهذه غاية ما يكون من بلاغةِ القُرآنِ، وبالنِّسبة لهم غاية ما يكون منْ الِاستكبارِ، وعدم الاكتراثِ بِوَعْظِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ﴾ فسرها المفسِّر بـ[ما]، يَعْنِي نافية، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي خوَّفْتنا بِهِ ﴿إِلَّا خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اخْتِلَاقُهمْ وَكَذِبُهمْ]، يَعْنِي: إنَّك أنتَ يا هودُ ما جِئتنا إلَّا بأمرٍ اختلقه مَن قَبْلَكَ، فكذَّبوه هو ومَن قبله أيضًا، وقالُوا: هذا خَلْق الأوَّلين، خَلْقُهُم أي: اخْتِلَاقُهم وافْتِرَاؤُهم وكَذِبُهم، كما قال الله تَعالَى عن إبراهيمَ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧]، يَعْنِي: تَخْتَلِقُونه وتُزَوِّرُونَه.

قال: [وفي قِراءةٍ بضمّ الخاءِ واللّام: ﴿خُلُقُ﴾]، وهذه القِراءَةُ سَبْعِيَّة بناءً على قاعدةِ المُفَسِّر، فإذا قال: «قُرِئَ» فهي ليستْ سبعيَّة، وإذا قال: «فيه قِراءَة» فيريد أنها سبعيَّة، قال: [أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إنْكَارِ لِلْبَعْثِ إلَّا خُلُق الْأَوَّلِينَ، أَيْ طَبِيعتهم وَعَادَتهم].

والمُفَسِّر -على القِراءَة الثَّانية- يَرَى أنَّ اسمَ الإشارةِ يعودُ إلى ما كَانوا عليه، وعلى قِراءَة: (خَلْق) فهو عائد على قولِ هودٍ، وسياقُ الآيةِ يدلُّ على أنه راجعٌ إلى قولِ هودٍ، سواءٌ بضمّ الخاءِ أو بِفَتْحِها، أمَّا فتحها فظاهرٌ: (إن هذا إلا خَلْق الأولين)، وأما ضَمُّها فهو أيضًا ظاهر كَأنَّهم يقولونَ: إنَّ ما جئت به هو خُلُقُ الْأَوَّلِينَ من قَبْلِكَ -يَعْنِي بعضهم- الَّذي كَانوا عليه، يَعْنِي الأَنبياء السابقين، فعلى هذا يكون مَرْجِع الإشارةِ واحدًا.

أمَّا على رأيِ المُفَسِّر: (إن هذا إلا خَلْق الأولين) فيُريد أَنَّهم يحتجون به، كَأنَّهم يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، وهذا ما عليه آباؤنا، فسنبقى عليه، والآيةُ محتمِلة، ولكنها في الأوَّل أظهرُ:

أولًا: لأن القراءتينِ يفسِّر بعضهما بعضًا.

ثانيًا: إنهم يريدونَ أن يَرُدُّوا على قوله هو، لا أن يُبَرِّروا فِعلَهم.

قَوْلُهُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هذا إنكارٌ لقَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كَأنَّهم يقولونَ: ما تَخَوَّفْتَ ليسَ له أصلٌ، فما نحنَ بمعذَّبين.

وتأمَّل هذا التعبيرَ الَّذي أتى مؤكَّدًا بالباء في قَوْلِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لم يقولوا: «وما نحن معذبون»، وكذلك أتوا بالوصفِ: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الجُملة الاسميَّة؛ للدَّلَالَةِ على انتفاءِ هذا أبدًا؛ لأن الجُملةَ الاسميَّة تَدلّ على ثُبوت مَدْلُولِها، فعليه يكونون قد أَنكَروا أنْ يُعَذَّبُوا، وادَّعَوْا أنَّهم لن يعذَّبوا أبدًا، ولكن هذا كما قال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «العَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1]، فهؤلاءِ

(١) سبق تخريجه.

-والعياذُ باللهِ- أَتبَعوا أنفسَهم هواها، وتمَنَّوا على اللهِ الأمانيّ إن كَانوا مصدِّقين بالبعثِ، ولا ندري ربما يكونونَ مكذِّبين به، وأنه لا بعثَ ولا جزاءَ ولا عذابَ.

فوائدُ الآيَاتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيانُ أَنَّه يَنْبَغي للداعيةِ معَ القَرْن بذِكْر النِّعَم أن يَقْرِنَ الدعوةَ بالتخويفِ، وتُؤخَذ من قَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنْبَغي إذا كَان المَقامُ أنسبَ أن يكون غير مُصَرَّح بذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ ولم يقل: إنكم ستُصابون بيومٍ عظيمٍ، فالمتوقَّع له غير الجازِم به؛ لأن المَقامَ يَقتضي ذلكَ، ولكلِّ مَقامٍ مَقالٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي الآيَات دليلٌ على أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يَطْبَع على قلبِ العبدِ فلا يَستفيد بموعظةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، هذا إذا لم يكنْ هذا القولُ منه كَذِبًا.

فإن كَان كذبًا فلا شاهدَ فيه لذلكَ، يَعْنِي: إنْ كَان الأمر حقًّا كما يقولونَ أنَّهم سَواء وُعِظوا أم لم يُوعَظوا؛ فإِنَّه يدل على أن العبدَ -والعياذُ باللهِ- إذا رانَ على قَلْبِهِ ما يَعْمَل، لم يَسْتَفِدْ من موعظةٍ، أمّا إن كَان كذبًا فإِنَّه يدلُّ على عُتُوّ هؤُلاءِ القومِ، وشِدَّة استكبارهم عن الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي التعبيرِ بقَوْلِهِ: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ دليلٌ على بلاغةِ القُرآنِ، حيث الجمع في جملةٍ واحدةٍ بين أربعةِ معانٍ: وَعظْتَ أم لم تَعِظ.. كنتَ منَ الواعظينَ أم لم تكنْ. وذلك في كلمتينِ؛ لأنه حَذَف من كل كلمةٍ ما يقابلها في دلالة أُخْرَى عليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي الآيات دليلٌ على أنه لا حُجَّةَ للمُعانِدِ للرسُل سوى التمسُّك بما كَان عليه أسلافُهم، تُؤْخَذُ من قولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا على حَسَب ما فَسَّره المُفَسِّر، وعلى حَسَب ما صارَ عليه.

أما على القِراءَة الثَّانية: «إِلَّا خَلْق الأَوَّلِينَ»؛ فإِنَّه يُستفاد منه أن هؤُلاءِ لم يَقتصروا على تكذيبِ نبيِّهم، بل تَعَدَّوْا إلى تكذيبِ غيرِه أيضًا، مع أَنَّهم لم يُطالَبوا به، فلم تُطالِبهم الرُّسُل السابقونَ بذلك، إلا أَنَّهم بعنادِهِمْ واستكبارِهِم كذّبوا حتى السابقينَ، ولأجلِ أن يقولوا: إن هذا ليس بالأمرِ المجرَّب، وإنَّما ذلك دَأْبُ مَن كَان من قبلهم.

• ● ۞ ● •

الآيتان (١٣٩، ١٤٠)

• • ● • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرِّيحِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يَعْنِي: فبهذا القولِ الَّذي صَدَرَ منهم يَصْدُقُ عليهم هذا الوصفُ، أنَّهم كذَّبوا هُودًا، فيكونون مُسْتَحِقِّين للعذابِ، ولهذا أتى بالفاء ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

قال المُفَسِّر: [﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ في الدنيا بالرِّيح]، أهلكهم اللهُ تَعالَى بالريحِ، ومنَ العجائبِ أن الله -سبحانه وبحمده- أهلكهم على حين تَشَوُّق منهم للرَّحمة؛ لأنَّهم أُصيبوا بالجدْبِ والقَحْط، وبقُوا مدَّةً، وصاروا ينتظرونَ الفَرَجَ بالمطرِ، فلمَّا أَرسلَ اللهُ هذه الريح ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، استفرحوا بذلك وظَنُّوا أنَّ الفَرَج قريبٌ، ولكنه كَان فَرَجًا لهُودٍ ونقمةً عليهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، وهذه الريحُ الَّتي بَعَثَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عادٍ فيها من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هؤلاءِ القوم الأشدَّاء الأقوياء

الفخورينَ بقُوَّتِهم على غيرِهم أُهلكوا بألطف الأشياءِ، وهي الرِّيح.

ثم إنهم أُهلكوا في حالِ الرجاءِ؛ لأنَّ النِّقْمَة إذا أَتَتْ والإِنْسان يَتَوَقَّع النعمةَ، فتكون أشدّ، وكذلك إذا أتتِ النقمةُ والإِنْسانُ في نعمةٍ تكون أيضًا أشدَّ وأنكى، والعياذُ باللهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إلى آخره موعظةٌ لنا لِـمَا نَسْمَعُه أحيانًا من هذه الأعاصيرِ المدمِّرة الَّتي تُقْلِع الأشجارَ، وتَخْرِب الدِّيارَ، وتُهلِك الثِّمار، وتهلِك الإعمارَ أيضًا، ولكن -مع الأسفِ- فإنَّ الكثيرَ منّا يَصْدُقُ عليهم قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

والنَّاسُ الآنَ يَسمَعون بالزلازل، ويَسمعون بالأعاصيرِ، ويَسمعون بالفَيَضَانات العظيمةِ، ولكنَّهم لا يرونها أنها غَضَب من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكن يرون أنها أمرٌ طبيعيّ، ولهذا لا يتأثَّر الإِنْسان بها إطلاقًا، وكَأَنَّها لا شيْء، بينَما ونحنُ صِغار كنَّا إذا سمِعنا أنَّ الأَرْضَ زُلزلت في أُحُدٍ نَرْتَجِف ونحن في بُيُوتنا آمنونَ؛ لأنه ما كَان أحد يقول لنا: إنه هذا أمر طبيعيّ، وهذا أمر لا يُهِمّ، وهذا أمرٌ كائن لا محالَةَ.

ومثل ذلك الكسوفُ، كَان النَّاس في الماضي إذا كَسَفَ القمرُ تَحْصُل منهم رَهبةٌ عظيمةٌ، ويحصُل منهم خوفٌ، ويَحْضُرون بأعدادٍ كبيرةٍ إلى المساجدِ من رجالٍ ونساء، وتحصُل صلاةٌ، وبكاءٌ، وخوفٌ، وقد رأيتُ هذا، أما الآنَ فلا ترى شيئًا من هذا، بل تجد هذا يشاهَد في التِّلفاز أغنيةً، وهذا يسمع أغنيةً من الراديو!

ويُستفاد من الآية أَنَّهم قد عَصَوْا وكذَّبوا برسالةِ هودٍ، فهذه الآيةُ فيها العِنادُ،

وفي آياتٍ أُخْرَى ثَبتَ أنَّهم لم يُصَدِّقوا بهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود:٥٩]، رسل الله، ولم يصدقوا عنادًا.

وإن سأل سائل: ما الحِكمة في كونِ بعضِ الرُّسُلِ أو بعض الأُمَم تَكَرَّر ذِكرها في القُرآنِ كثيرًا، وبعض الرُّسُل لم يأتِ له ذِكْرٌ قطُّ؟

فالجَواب: ما ذكرَ إلا الرُّسُل المحيطينَ بالعرب، الَّذينَ كَانوا يَعرفون أنباءَهم، فيكون هذا أقوَى، لكن الَّذي يكون بعيدًا عنِ العربِ ما ذُكر، لكن نَعْلَم أنّ الله بعثَ إليهم رسلًا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، لكن ما ذكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الرُّسُل إلّا ما كَان حولَ الجزيرةِ.

ولا يدلُّ هذا على أن الَّذينَ ذُكروا في القُرآن أفضلُ من غيرهم؛ لأن غيرَهم ما ذُكروا؛ فلا نعرِف عنهم شيئًا، إنَّما أُولو العزم الخمسة هؤُلاءِ لا شكّ أنَّهم أفضلُ من غيرِهم.

حتى الأماكن والقرى التي ما اكتَشَفُوها إلّا حَديثًا، لكن هي موْجودةٌ من قبلُ، فهي موْجودةٌ من زمانٍ بلا شَكّ، وموْجود فيها أُناسٌ، ويُذكر أنّ شيخَ الإسلامِ تكلَّم عن هذا، وقال: لا بُدَّ أن هناك أحدًا في المقابلِ لوجهِ الكرةِ الأَرْضيَّة، فلا بُدَّ أن هناك أُناسًا، فلا يُمْكِن أن تُتْرَكَ الأَرْض بدون عِمارةٍ.

وفي قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دَليل على أن التَّكذيب سببٌ للإهلاكِ، فيَنبغي للمؤمنِ الَّذي يَعتبر بِقصصِ الأَنْبياءِ السابقينَ أنْ يَحْذَرَ من هذا -أي: منَ التَّكذيبِ- لأنه إنْ فَعَلَ أُهلِك.

الآيات (١٤١- ١٤٥)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤١-١٤٥].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه هي القِصَّةُ الثالثةُ الَّتي يَذْكُرُها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دائمًا عندَ ذِكر قصَص الأنبياءِ، فهم يكونون في الترتيبِ بعد قومِ هودٍ: يكون هودٌ قبلَ صالحٍ، وصالِحٌ بعدَه.

وثَمُودُ هي القبيلة المعروفة مَساكنهم في شَمالِ المَمْلَكَةِ العربية السُّعُودِيَّة، وتُسمَّى الآن (مَدائِن صالِح)، وهي تُسَمَّى في الأَصْل (الحِجج)، هؤُلاءِ القومُ أعطاهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قوَّةً وقُدرةً وإبداعًا في الصُّنْع، ولهذا أُوتوا بِآيَةٍ تُناسِبُ حالَهم، وهي الناقةُ؛ كما سيُذكر إن شاء اللهُ.

قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنَّما كذَّبوا رَسُولًا واحدًا لكن سَبَقَ أنْ قُلنا: إنَّ المُرْسَلِينَ جاءُوا بدعوةٍ واحدةٍ، وتكذيبُ الواحدِ مِنهم تكذيبٌ للجِنْسِ عُمومًا؛ لأن هؤُلاءِ الَّذينَ يكذِّبون رسولًا لم يكذِّبوه لِعَيْنِهِ وشَخْصِهِ، ولكن كذَّبوه

لدعوتِهِ، وهذه الدعوةُ الَّتي جاء بها هذا الرَّسُولُ المعيَّن هي دعوةٌ لجميعِ الرُّسُلِ، فكَأنَّهم كذَّبوا جِنْسَ هذه الرِّسالَةِ، فصَدَقَ عليهم أنَّهم مكذِّبون لجميعِ الرُّسُلِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِذْ﴾ هذه إمّا للتعليلِ أو ظَرف للتكذيبِ، يَعْنِي: إنَّ التَّكذيبَ حَصَلَ بهذه القصَّة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وسمَّاه أخًا لهم مع بُعد ما بين المؤمنِ والكافرِ؛ لِأُخُوَّة النَّسَب، لا لأُخُوَّة الدِّين.

قَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، كلُّ هذه الجُمَل تَقَدَّمَ الكَلامُ عليها، وذِكْرُ الإيراداتِ على قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والجَوابُ عنها.

الآيات (١٤٦- ١٥٢)

۞ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخْلٖ طَلْعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٢].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ مِنَ الخَيْرات ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخْلٖ طَلْعُهَا هَضِيمٞ﴾ لَطِيف لَيِّن، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بطِرين، وَفِي قِراءَة: (فَارِهِينَ)[1] حاذِقِين، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيما أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بِالمَعاصِي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ].

قَوْلُهُ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ (فِي مَا): أي في الَّذي (هَاهُنَا): الإشارة إلى مكانِهم؛ لأنَّ مكانَهم كما وَصَفَهُ صالحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخْلٖ طَلْعُهَا هَضِيمٞ﴾.

والاسْتِفهام في قَوْلِهِ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ للتَّحذِير، يَعْنِي: أتظنُّون أن تُتْرَكُوا؟ لا، فلن تُتْرَكوا، فهو للنفيِ المُتَضَمِّن للتحذير.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٨).

وقَوْلهُ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ مبنيٌّ للمجهولِ للعلمِ بالفاعلِ، والفاعلُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يَعْنِي: أَيَتْرُكُكُمُ اللهُ ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾؟

وقَوْلهُ: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إلى آخرِه، تذكيرٌ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، وأنَّهم لا يُمْكِنُ أنْ يُتركوا في هذا الحالِ بدونِ أمرٍ ولا نَهْيٍ، فهو كقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقَوْلِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقَوْلهُ: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ حالٌ منَ الواوِ في: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾، يَعْنِي حالَ كونِكم آمِنِينَ، والآمِنُ هو الَّذي أَمِن منَ الخوفِ، وفيه دليلٌ على استقرارِهم في أوطانِهم، وأَمْنِهم، والأمنُ معَ الرِّزق الواسعِ هما غايةُ النعمةِ في هذه الحياةِ.

قَوْلهُ: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والجنَّات جمع جنَّة، وهي البساتينُ الكَثِيرَةُ الأشجارِ؛ لأنها تَسْتُرُ مَن فيها، وقَوْلهُ: ﴿وَعُيُونٍ﴾ جمعُ عينٍ، وهي المياهُ الجاريةُ بدونِ دوالٍ ولا نواضِحَ.

قَوْلهُ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ عطفَ ما ذكرَ على الجنَّات من بابِ العطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للعنايةِ به، وإلَّا فهو داخلٌ في الجنات؛ فإنَّ الزُّروع منها والنخيل كذلك.

والطَّلْع يَعْنِي: ما تطلعه، وقَوْلهُ: ﴿هَضِيمٌ﴾: يقول: [لطيف لَيِّن]، والأمرُ كذلك؛ فإنَّ طَلْعَ النَّخيل من ألين ما يكونُ وألطفه.

وقيل: إنَّ الهَضِيم بمَعْنى النَّضِيد، كما قال الله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠-١١]، يَعْنِي أنه منضودٌ ليسَ متفرِّقًا لأجلِ أنْ يَسْهُلَ أخذُه وَجَنْيه.

وإنَّما نصَّ على الطَّلْع دونَ غيره من الفوائدِ معَ كثرةِ فوائدِ النخيلِ؛ لأنه غاية ما يُنْتَفَعُ به منها، وإلَّا ففيها منافِعُ كَثِيرَةٌ، ولهذا شبّه النَّبيُّ ﷺ المؤمِنَ بها؛ لكثرةِ خيراتِه وفوائدِهِ، هذا من حيثُ الزُّرُوعُ والتنميةُ.

أما من حيثُ البناءُ والمساكنُ فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَطِرين، وفي قِراءَة: (فَارِهِينَ) حاذقينَ].

قَوْلُهُ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ المُراد بالنَّحْت منَ الجبال أنَّهم يجعلون البيتَ من الجبلِ، وليس معناه أنَّهم يَنحِتُون الحَصَى ثم يَبْنُونَها، ولكنهم يجعلون البيتَ نفسَه منَ الجبلِ، فيكيّفون الجبلَ كما يريدونَ، وهو دَليل على مَقْدِرَتِهِم، وعلى كمالِ مَعْرِفَتِهِم بالهندسةِ؛ لأن شيئًا ليسَ أمامك، بل هو في باطنِ الحصَى والجبال والصخور، فتحتاج إلى تفكيرٍ قويٍّ كيف تَصْنَعُه؟ وكيف تجعلُ مَدْخَلَه؟ وكيف تجعل منه استراحةً؟... إلى آخرِهِ. فهو دليلٌ على قُوَّتِهِم، وعلى حَذْقِهِم في الهَنْدَسَةِ.

وكلمة: ﴿فَرِهِينَ﴾ يَعْنِي: بَطِرِينَ، فهي صفةٌ مُشَبَّهة، و(فَارِهِينَ) بالمَدّ اسمُ فاعلٍ، والمُرادُ به الحَذْقُ.

واختلافُ القراءَتَيْنِ تكون فيه فائدةٌ، وهي اجتماعُ المعنيينِ من هذه الكلمةِ، فيكونون متَّصِفينَ بالأمرينِ: بالبَطَر بِناءً على قِراءَةِ القَصْرِ، وبالحَذْقِ بناءً على قِراءَةِ المدّ، وهذا من فوائدِ تنوُّعِ القِراءَةِ؛ لأن تنوُّعَ القِراءَةِ له فوائدُ كَثِيرَة؛ منها أن تكونَ الكلمةُ جامعةً لمعنيينِ.

قَوْلُهُ: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذه الجُملةُ مثلما تَقَدَّمَ في قِصَّة عادٍ؛ إما أنْ تكونَ مبنيةً على ما ذُكِر، وإما أن تكونَ مكرَّرةً لما سَبَقَ، فعلى الأوَّل تكون تأسيسًا، وعلى

الثَّاني تكون تأكيدًا، والمَقام مهمٌّ جدًّا، ويَحتاج إلى أن تُكرَّر فيه هذه الكلمةُ، وهي تقوى الله، وطاعة الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ هذا أمرٌ ونهيٌ: أمرٌ بِتَقْوَى اللهِ وطاعته، ولكنَّه نهيٌ عن طاعةِ أَمْرِ المسْرِفِينَ، واحد الأوامر، يَعْنِي: لا تُطيعوا أمرَهم.

ولماذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وما قال: وأَطِيعوا أمري، وهنا قال: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولم يقلْ: لا تُطيعوا المسرفينَ في إفسادِهِمْ؟

والجَواب: أنَّه يَنهاهم عن طاعةِ أمرِ المسرفينَ، في أنَّهم كِبار القومِ ووُجَهاؤُهُمْ، وأنَّهم يأمرونَ، فهذا أبلغُ مِن لو قالَ: ولا تُطِيعُوهم.

ولو قال: لا تطيعوا المسرفينَ أنفسَهم، ربما يُقالُ: إن هذا لِعَدَاوَةٍ بينه وبينهم، فهو لا يريدُ أن يُطاعوا، وأمرَ بطاعةِ نفسِه، لكن لما قال: ﴿أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ فكَأَنَّه يقول: أنا لا يُهِمُّنِي أن يكونَ هذا من فلانٍ أو من فلانٍ، ولكن الكَلام على أنه أمرٌ من مُسْرِف؛ لأجلِ أنْ يُبعِد اتِّهامَه بأنَّه لا يريدُ المسرفينَ أنفسهم، حيث وجَّه النهيَ عن طاعتهم لأنفسِهم، فجعلَ النهيَ عن طاعةِ أمرِهِمُ الَّذي هو أمرُ إسرافٍ وفسادٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ يَعْنِي المُتجاوِزينَ للحَدّ، فالمسرِفُ: مَن جاوَزَ حدَّه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:٣١]، أي لا تَتجاوَزُوا الحَدَّ كَمِّيَّةً ولا كيفيَّة.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الصِّفَةُ كاشفةٌ وليستْ قَيْدًا؛ لأن كلَّ مُسْرِفٍ مُفْسِد في الأَرْض، فالصِّفَةُ كاشفةٌ، وقَوْلهُ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يكونون سببًا في فسادِها، أو أنَّ المعاصيَ نفسَها فسادٌ.

يَعْنِي: إما أنْ تكونَ هي الفسادَ فيفسدون، من بابِ إضافةِ الشيْءِ إلى سببِهِ، وإمّا أن تكونَ المعاصي سببًا للفسادِ، أو أنها هي نفسها فسادٌ.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ في طاعةِ الله، ولا بغيرِها أيضًا.

وفي قَوْلِهِ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دليلٌ على فسادِهِم، وأنه ليس فيها صلاحٌ، فالنفيُ هنا يُقْصَدُ به النفيُ للإصلاحِ معَ إِثْباتِ كمالِ ضِدِّه، وهو الفسادُ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بطاعة اللهِ]، الطَّاعة نفسها إصلاحٌ بلا شَكّ، وهي أيضًا سببٌ للإصلاحِ؛ فإنَّ طاعةَ اللهِ تَعالَى سببٌ لِصَلاح كلِّ شيْءٍ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

• ● ۞ ● •

الآيتان (١٥٣، ١٥٤)

• ● ● •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

• ● ● •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ الَّذِينَ سَحَرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ، ﴿ مَآ أَنتَ ﴾ أَيْضًا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فِي رِسَالَتِك].

هذا جوابُهم، حيثُ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ اتَّهمُوه بأنَّه مسحورٌ، ومُسَحّر أبلغُ من مَسْحُور أيضًا.

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ حصرٌ لأعمّ الأحوالِ، يَعْنِي: ما حالُك أبدًا تَخْرُجُ عن هذا الوصفِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّذينَ سُحِروا كثيرًا حتى غلب على عقلهم]، هذا -والعياذُ بالله- جَوابُهم، مثلما أجابَ به كثيرٌ منَ النَّاس، بل إنَّما كلّ الأَنْبياء يُقالُ لـهم مثلُ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]؛ وذلك لأنَّه لا حُجَّة لهم، وكلُّ إِنْسانٍ ليس عنده حُجَّة إنَّما يَذْهَب إلى السَّبِّ والشَّتْم، ويظنُّ أنه بذلك يُنفِّر عمَّن خَصَمَه وعَجزَ عن مُقابَلَتِه، وأمَّا الإِنْسان الَّذي عنده حُجَّة فإِنَّه لا يَلْجَأُ إلى الشَّتم، وإلى السبِّ، ولهذا يُعابُ على

بعضِ العُلَماء أن يكونَ دأْبُهُ السَّبَّ والشتم معَ خُصُومهم.

وكان ابنُ حَزْمٍ -رحِمه الله، وعفَا عنه- شديدًا في المناقشةِ، ولو كَان يُناقِشُ بهدوءٍ لكَان أحسنَ له، وأمّا السبُّ والشَّتم في قومٍ هم مثلُه أرادوا أنْ يَصِلُوا إلى الحقّ، فهذا لا يَنبغي، ولا يَليق به، ولا يَليق بالإِنْسانِ العامِّيِّ، فضلًا عن العالِـمِ، فالمقصودُ ليسَ هو التهجُّم على الشخصِ، فالمقصودُ أن يردّ على المقالةِ وتَبطُل، لكن أعداء الرُّسُل ليس عنْدَهُم ما يُقاوِمُون به ما جاءتْ به الرُّسُل، فلهذا يلجئُون دائمًا إلى السبّ والشتمِ.

ولا شـكّ أنّ اتّهامه بأنه مِن المسحَّرين كَـذِب، بل هـو من أعقلِ النَّاسِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولولا أنه أعقلُ قومِهِ ما جعلَ اللهُ الرِّسالَةَ فيه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهو أعقلُهم، وأكثرُهم أمنًا، وأقواهم صَبرًا.

أما قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فهذا صَحِيحٌ، لكن هذه العِلّة غير مانعةٍ من أن يكونَ رسولًا، ولهذا قالتِ الرُّسُلُ لقومِهم الَّذينَ احتجوا عليهم بهذه الحجة: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١]، وهذا جَوابُ هذه الشُّبهة، فهي شُبهة جعلوها حُجّةً، فيُقال: وإذا كَان بشرًا مثلكم، فلا مانعَ من أنْ يَمُنَّ اللهُ عليه بالرِّسالَةِ.

وأيضًا لا يُمْكِن أن يرسِلَ اللهُ أحدًا إلى البَشَرِ إلّا مِنَ البَشَرِ، حتى ولو جُعِل مَلَكًا كما اقترحَ لجُعِل بسُورَةِ الرَّجُل، ثم عاد الأمرُ على هؤُلاءِ مُلْتَبِسًا مُشْتَبِهًا، فلم يَستفيدوا من ذلك شيئًا.

قَال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في رِسـالتك]، لو اقتَصَرُوا على قَوْلِـهِم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ لكَانَ هذا كَلامًا سليمًا؛ لأنَّ كلَّ إِنْسانٍ يَأتيه بَشَرٌ مثله ويقول: إنني رَسُولُ ربِّ العالمينَ، فسيقول: هاتِ آيَةً ودَليلًا، وإلَّا لأمكنَ كلَّ كذّابٍ أنْ يدَّعِيَ النبوَّةَ، وأنْ يَسْتَحِلّ دماءَ غيرِه وأموالهم بهذه الدعوَى الكاذبةِ.

فقولُـهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ صَحِيحٌ، لكن ما المُرادُ منه، هل يُرادُ به التحدِّي أم الاسترشادُ؟

يَظهَر من حالِهم أن المُرادَ به التحدِّي، يَعْنِي أنَّه لا يُمْكِن أنْ يأتيَ بآيةٍ، على حدِّ قولهم: إنه مُسَحّر، وقولهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يدلّ على استبعادهمْ أنْ يكونَ كذلكَ، وعلى أنّهم يُريدون بهذا التحديَ له.

• • ۞ • •

الآيات (١٥٥- ١٥٩)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٥٥-١٥٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ نَصِيبٌ مِنَ المَاءِ، ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بِعِظَمِ الْعَذَابِ، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرَهَا بَعْضُهم بِرِضَاهُمْ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ عَلَى عَقْرِهَا، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المَوْعُودُ بِهِ فَهلَكُوا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

أجابَهُمْ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾، فهذه الناقةُ آيةٌ أعظمُ مِمَّا يَصْنَعُونه منَ الحِجَارة، وما يَزْرَعُونه مِنَ الزُّرُوع، ويَغْرِسُونه منَ الأشجارِ؛ لأنها خَرَجَتْ عنِ النُّوق الأُخرى، فلم تكنْ مثلَ النُّوقِ المعروفةِ المألوفةِ.

ووجهُ كَوْنِها آيةً بَيِّنَةً في قَوْلِهِ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، هذا وجهُ الآيةِ في هذه الناقةِ.

وأمّا ما جاءَ في الإسرائيليّاتِ مِن أنَّها خَرَجَتْ من صخرةٍ، فهذا لا أصلَ له،

ولو كَانَتْ كذلك لذُكِرَ في القُرآنِ؛ لأن خُرُوجَها من صخرةٍ -وهي من الحيوانِ- أشدُّ وأظهرُ وأجلَى في الآيةِ مِن كونها لها شِرب ولهؤُلاءِ شِرب.

والصَّوابُ أن يُقال: إن هذه الناقةَ ناقةٌ وُلدتْ من نُوق، ولكن لها مَزِيّة على غيرِها، وهي هذه المزيّة العظيمةُ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، يَعْنِي أنها هي تَشْرَب منْ هذا البِئر، فتأتي وتَشرب، واليوم الثَّاني تَذهب وتَرعى، لكن في اليومِ الَّذي تَشرب قال أهلُ العِلْم: إنَّ كلَّ مَن أعطاها دَلوًا منَ الماءِ أَعْطَتْه دَلوًا منَ اللَّبَن، فصاروا هم يَشربون يومًا لَبنًا، ويومًا ماءً، وهذا اللَّبَن يأخذونه من هذه الناقةِ، وهذا بلا شَكّ من آياتِ اللهِ؛ إذ لا توجدُ ناقةٌ على هذه الصِّفَةِ.

وقَوْلهُ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ كَان هذا الشِّرب مُؤَقَّتًا بوقتٍ جعَلُوه لأنفسهم، بحيثُ لا يَلْتَبِس على مَن ليسَ في البَلَد حتى لو كَان الإِنْسان في خارجِ البلدِ يعرف أن اليومَ يومُ الناقةِ، أو أنَّ اليومَ يومُ النَّاسِ، فيأتي ويَرِد هذه البئرَ ويَشرب منها، أو يَرد الناقة بيومها فيَشرب مِن لَبَنِها، وهذه هي الفائدةُ من قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول المُفَسِّر: إنه عَظيمٌ في عِظَم العذابِ، يَعْنِي: وليسَ اليوم نفسه هو العظيم، ولكن لِوُقُوع العذابِ فيه صارَ عَظيمًا، و﴿عَظِيمٍ﴾ وصفٌ لليومِ.

وهل هو وصفُ مَدْح أم وصف ذمٍّ؟

هو في الحَقِيقَة وصفُ مَدْح، ودليلٌ على القُوَّة فيما وصف به، حتى إنْ كَان عذابًا فهو دليلٌ على قوّة العذاب، وإنْ كَان خيرًا فهو دليلٌ على قوّة هذا الخيرِ،

فالعَظَمَةُ مِن حيثُ هي مَعْنى من المعاني تدلُّ على الكمالِ والمدحِ، سواء كَان هذا في عذابٍ أو في نعمةٍ.

وقَوْلهُ: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كثيرٌ منَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أنْ يَصِفُوا المخلوقَ بـ(العظيم)، ولكن الحَقِيقَة لا وجهَ لهذا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢]، ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦]، فوصَفَ اللهُ تَعالَى بالعِظَم نفسَه وكَلامَه ووحيَه، ووصفَ به أيضًا بعضَ مخلوقاتِهِ، ممّا يدلّ على أنّه لا بأسَ به.

وقد كَان النَّاسُ يَتحاشَوْن أيضًا قَول (المُعظَّم)، وهذا أيضًا لا يُتحاشى منه، والسَّبَبُ أنه معظَّم ليس عظيمًا، فـ(المعُظم) قد لا يكون عظيمًا، فقد يُعَظَّم مَن ليس بِعَظيمٍ، وهو أقلّ رُتبةً من العظيم؛ فإذا كَان (العَظيم) جائزًا إطلاقُه، فـ(المعظَّم) من باب أَولى.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: عَقَرَها بعضُهم بِرِضاهم، ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عقرها، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود به، فهلكوا]، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾، ولكنَّهم مَسُّوها بأسوأ السُّوء -والعياذُ بالله- فعَقَروها، والظَّاهرُ أنّ المُرادَ بالعقرِ القتلُ، وليس قطعَ الأرجُل فقطْ، بل أنّهم أَهلكوها، فعُوقِبوا بمثلِ ما جَنَوْا.

وهل أصبحوا نادمينَ على ما فَعَلُوا من ذنبٍ، أم أنَّهم نَدِموا على ما فَاتَهُمْ من مَصلحتها؟

الظَّاهر أنَّهم نَدِموا على المصلحةِ؛ لأنَّهم ما بعدُ أَتاهمُ العذابُ، فالظَّاهرُ أنَّهم نَدِموا على ما فاتَهُمْ منَ المصلحةِ الدنيويَّة؛ لأنّهم لو ندِموا على الذّنب لكَانوا تائبينَ،

ولَمَّا استحقُّوا العذابَ، لكن نَدِموا على مَصْلَحَتِهِم فقد كانوا يَشربون مِن لَبَنِها، ثم فاتَهم هذا.

وقد بَقُوا بعد ذلك ثلاثةَ أيامٍ، والحكمةُ من هذه الأيّام الثلاثةِ -واللهُ أعلمُ- لعلَّهم يَتُوبُونَ، ولكنَّهم لم يَتُوبوا، وقد أُخِذ منْ هذا استتابة المرتَدّ ثلاثةَ أيّام، فإنْ تابَ وإلا أُجري عليه الحدُّ، على خِلافٍ بينَ أهلِ العِلْم في هذه المسألةِ.

والمهمُّ أن هؤلاءِ لم يَنْدَمُوا على فِعل المعصيَةِ، ولو نَدِموا لكَانَ توبة، ولكنهم نَدِموا على ما فاتهم من حَظِّ الدنيا فقطْ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الموعودُ به، فهَلَكُوا]، إلَّا أنَّ اللهَ تَعالَى أنجَى صالحًا ومَن معَه.

وقولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ معلومٌ أنّهم لم يكونوا كلّهم عَقَروها، ولكن لَـمَّا كَان برِضا الجميعِ، ومِن زُعَمائِهم، فنُسِب إليهم جميعًا، ففِعل الطائفةِ منَ الأُمَّة يُعتبَر فعلًا للجميعِ إذا لم يُنكِروه، فإذا سَكَتُوا ولم يُنْكِروه فهو فِعْل الجَميع، ولهذا يذكِّر اللهُ تَعالَى الْيَهُودَ في عهد الرَّسُولِ ﷺ بما فعلَ أسلافُهم، ويُخاطِبُهم به مُخاطَبَةَ الفاعلِ؛ لأنها أُمَّة واحدة، فإذا لم تُنْكِر ما كَان عليه أسلافُها، نُسب للجميعِ.

وما هو العذابُ الَّذي أَخَذَهُم؟

الجَواب: صَيْحَة ورَجْفَة، يَعْنِي: رَجَفَ اللهُ بهم الأَرْض وصاحَ بهم جِبريلُ، فماتوا، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧]، -والعياذُ باللهِ- صَرعى كنفسٍ واحدةٍ.

وفي هذا دليلٌ على كمالِ قُدرة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنّ الله تَعالَى قادرٌ على كلِّ شيْءٍ، ولا يُعْجِزُه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى

ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، ولو أنّنا عقَلْنا -نحن المسلمينَ- وآمنّا حقيقةَ الإيمانِ، ما كنّا بهذه الحالِ الّتي نحن عليها، يَعْنِي: ما كنّا نخاف النّاس أكثر ممّا نخاف الله.

فالإِنْسانُ لا بُدَّ أنْ يخافَ ويَرْجُو، لكن إمّا أن يخاف اللهَ أو يخاف غيرَه؛ فإنْ خافَ اللهَ خافَهُ النَّاس، وإنْ خاف غيرَ اللهِ استولَى عليه هذا الخوفُ، وهذا صَحِيحٌ وحقّ، فإنَّ مَن خافَ اللهَ خافَه كلّ شيْءٍ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ اتَّقاه كلُّ شيْءٍ، والعكسُ بالعكسِ.

فعلينا جميعًا أنْ نكونَ واثقينَ بوعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرَ ناظرينَ إلى الأَسْبابِ الحاضرةِ، ولو نَظرنا نظرةً مادِّيَّة مَحْضَةً، لكنّا لا يُمكِن أنْ نَتكلَّم معَ هؤُلاءِ، أو أنْ نَتحدَّاهم في تنفيذِ الشريعةِ ومُحاربتهم، لكن يجبُ أنْ لا نَنْظُر إلى هذه الأَسْبابِ الحاضرةِ، ويجب أن ننظرَ إلى أسْبابٍ أُخْرَى فوق المادَّة.

ولهذا مَن نَظَرَ إلى هذه الأَسْبابِ -المشاهدة الطبيعيَّة- لا يَستقيمُ له أمرٌ، فالصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِندَما جاءتِ الفُرْسُ والرُّوم لم يَنْظُروا إلى هذه الأَسْبابِ، فقد كَانوا يحاصِرون المدينةَ العظيمةَ لمدَّةٍ، ثم يَخْرُجون في الصَّبَاح، فيكبّرون اللهَ، فإذا كبّروا تصدّعتِ الأسوارُ، وهذا شَيْءٌ مُتواتِرٌ في التاريخِ عنهم، أنّهم يُحاصِرون المدينةَ مُدَّةً، ثم إذا كبَّروا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأنّها صَوارِيخ وقنابل تَصدّع هذه الجُدران، ولكنه تكبيرٌ يَخْرُج منَ القلبِ.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فقومُ صَالِحٍ بِغَضِّ النظَرِ عن عَقْرِ الناقةِ قدْ آمَنَ قليلٌ مِنهم باللهِ.

فإنْ قيلَ: كيف أخذت منهم أحكام المُرْتَدّ وهم أصلًا لم يُؤْمِنوا؟

قلنا: أخذ هذا من إمهالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم ثلاثةَ أيامٍ، فصار أننا نُمْهِل الكفّار ثلاثةَ أيامٍ، لكنّ الكفّارَ الأَصْليِّينَ في الشريعةِ الإسلاميَّة لهم أحكامٌ خاصَّة، كإقرارهم بالجِزْيَة مثلًا، وغيرهم ممَّن لا يقرّ على دينه وهو المرتدّ يُنْظَر ثلاثةَ أيَّام، والمسألةُ خِلافيَّة، ثم إنَّ الرِّدَّة أيضًا تختلف: فمِن الرِّدَّة ما يمكِن أن يُمهَل، ومنها ما لا يمكن أن يُمهَل.

وهل كان قومُ صالحٍ كلّهم يَشربون من بِئرٍ واحدةٍ؟

نقول: لعلَّ هذه البِئر هي الصَّالحةُ في الشُّربِ، وغيرها لا تَصْلُحُ للشُّرب، المهمُّ أنَّ أصلَ شُربهم من هذهِ البئرِ، ولهذا قسّم وقتها: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ولا مانعَ أيضًا من أنْ تكونَ هذه البِئْر تَسقي كلَّما أمكن، لكن الأقرب -والله أعلم- أنَّ البساتينَ مُنْتَشِرة فيها العيونُ، وأنَّ هذه البِئر هي الَّتي يأخذون منها ماء الشُّرب.

فإنْ سألَ سائلٌ: لماذا منع الرَّسُولُ ﷺ منَ الشُّرب من مائهم حين مَرَّ بدِيارهم؟

فالجَواب: لأنَّ استعمالَ هذا الماءِ يؤدِّي إلى النزولِ فيه والطُّمأنينة، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَـمَّا مرّ بها مرَّ مقنِّعًا رأسَه وأسرَعَ، وقال: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**»(١)، فالمسألةُ ليستْ هيِّنَةً، والعجيبُ أنَّ كثيرًا منَ النَّاس اليومَ يذهبونَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠]، رقم (٤٧٠٢)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

إليها مَذْهَبَ الفُرْجَة والنُّزْهَة، وهذا حَرامٌ، لا يجوزُ.

ولا يُعارِضُ هذا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥]؛ لأنَّهم كافرونَ، أي أنّ فِعْلَهم لا يدلُّ على الجواز.

أو يُقال: إنَّ شَرِيعَتَنَا وردتْ بخلافِ ذلكَ في التحريم، وأمَّا قولُ بعض النَّاس: الأَرْض كلّها لا تخلو من أممٍ مكذِّبة، فأنا أقول: نعم، الأَرْضُ كلُّها لا تخلو من أممٍ مكذِّبة، لكن مَن قال: إن هذا المكان المعيَّن مكان أُمَّة مكذِّبة.

والأحقافُ في الأَصْلِ يجوزُ أن نَزُورَها؛ لأننا لا نَعْلَم مَساكِنَهم بعينها، لكن ثَمُود مساكنهم موْجودةٌ بعينها، فإذا دخلها الإِنْسانُ كَأَنَّه داخلها بذلك الوقتِ، ولهذا منعَ الرَّسُولُ ﷺ منَ الدخولِ إلَّا والإِنْسان باكٍ، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»، لكن عندنا اليومَ يدخلون ومعهم آلاتُ التصويرِ.

فإن قيل: وهل شَدُّ الرَّحْل لِزِيَارَةِ مساكنِ ثَمُودَ محرَّم؟

قلنا: شدُّ الرَّحْل لغيرِ التعبُّد ليسَ فيه مانعٌ، فكلُّ النَّاسِ يَشُدُّون الرِّحال للتِّجارة ولغيرِ التجارةِ، لكن شَدّها للنُّزهة فهذا حرامٌ.

أمَّا أنْ يذهبَ للخُشُوع والتعبُّد بتذكُّر مآلِ هؤلاءِ الجبَّارين لَـمَّا عَصَوْا أمرَ ربِّهم، فقد يُقال: إن هذا لا بأسَ به، على أنَّ المسألةَ فيها نظرٌ، فقد يُقال: إنّ الاعتبارَ بها في القُرآنِ أبلغُ بها في البُنيان، لكنَّه أهونُ منَ الَّذي يذهب للنُّزهة والفُرجة، فزيارةُ هذه المساكنِ مَشروطةٌ بأنْ يَعْتَبِرَ الإِنْسانُ.

وهل يجوزُ الشُّرب من مائهم؟

يقول العلماء: إنَّه يجوز، حتى من بِئْر الناقةِ؛ لأن المُسلمينَ كَانوا يشربونَ منها، فبئرُ الناقةِ كانتْ معروفةً في الزمنِ السابقِ، أمَّا الآنَ فلا نَدري أمعروفةٌ أم لا، وإلَّا فقد كَانتْ معروفةً في الماضي، وحَسَب كَلام الفُقهاء أنها كَانت بئرًا كبيرةً، يَرِدُها الحجّاج الَّذينَ يَقْدَمُونَ منَ الشامِ.

من فوائد ذِكر قومِ صالحٍ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فيها دليلٌ على عدمِ البقاءِ في حالِ الرفاهيَةِ عِقابًا لِمَنِ الْتَزَمُوا شِرْكَهم، أيْ أنَّه لا يمكِن أنْ يُتركوا بدونِ رُسُلٍ وشكرٍ للنعمةِ، ويُؤْخَذُ من قولِه تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾، والمُراد بالاسْتِفهامِ هنا للنفيِ والتوبيخِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَلالةٌ على عِظَم نعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّها تَستوجِب الشكرَ العظيمَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه هو مُعْطِي الأمان وآخِذه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم نِعمةِ الأمنِ، وهذا صَحِيحٌ، فإنَّ نِعمة الأمنِ قد تُقابِل نِعمة الشِّبَع والشُّرب والرِّيّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّخيل من أطيبِ أنواعِ الفواكهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، فهي ليِّنة وسهلة الهَضم، ووجهُه أنَّها مفضَّلة على غيرِها، وأنها تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حِينٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان قُوَّة قومِ صالحٍ، ويُستفاد من قَوْلِهِ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾، إذ بَلَغُوا من القوَّة أنْ كانوا يَنْحِتون بيوتهم في الجبالِ، وأيُّ قوَّةٍ بعدُ؟!

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فيه دليلٌ على دِقَّتِهم في العملِ، والحِذق في الهَندسة؛ لأن

هذا يَتطَلَّب حِذقًا، حيثُ إنه أمرٌ مُغيَّب ليسَ شيئًا أمامَك كي تَحْصُلَ على ما تريدُ، ويُؤْخَذُ من قِراءَة: (فارهين) بمَعْنى حاذِقينَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يُؤخَذ من قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فائدتانِ: لفظيَّة ومعنويَّة، الفائدةُ المعنويَّةُ أنَّهم لا يُشارِكُ فَسادَهم صلاحٌ، فيكون في هذا نفيُ إِثْباتٍ لكمالِ الفسادِ، والفائدةُ اللفظيَّةُ أنّ فيها طِباقًا، فهذا لا شكّ أنه من الأسلوبِ اللفظيِّ الحَسَن، مع ما فيه من معنًى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ ما أصابهم هو نتيجةُ فَسادهم؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فيها تَسْلِيَة لكلِّ داعيةٍ إذا دعَا إلى حقٍّ لو أُصيب بمثل هذا، فإنَّ كلَّ مُفْتَرٍ على أهلِ الحقِّ أو رافِض له فِعْلُهُ شَبيهٌ بِعَقْرِ هذه الناقةِ، ولكن الواجب على الداعيَةِ أن يَصْبِرَ، وأن يقولَ: جَرَى للأنبياءِ مثلُ هذا وأشدُّ، وَهُمْ أَشْرَفُ عندَ اللهِ منِّي ما هو أَعْظَم.

• • ❁ • •

الآيات (١٦٠- ١٦٤)

• • ••• • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦٤].

• • ••• • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ هؤُلاءِ في قَريةٍ يُقالُ لها: (سَدُوم) من أرضِ فِلَسْطِينَ، ولوطٌ هو -كما يقول المؤرِّخون- ابنُ أخي إبراهيمَ، فيكون إبراهيمُ عمَّه، أرسلهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى أهلِ هذه القريةِ.

وكَانوا معَ كُفرهم باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْمَلُون عَمَلًا فاحشًا، يُعْتَبَرُ من أسفل الأعمالِ -والعياذ بالله- وقد سمّاه اللهُ تَعالَى خَبيثًا في قَوْلِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، فهو خَبثٌ ورِجْسٌ؛ لأنه قَبيح عَقْلًا، وفِطرةً، وشَرعًا، والَّذي يعملونه هو أنَّهم يأتون الذُّكران -والعياذُ باللهِ- كما يأتون النِّساءَ.

وهنا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكل هذا تَقدَّم الكَلامُ عليه.

الآيتان (١٦٥، ١٦٦)

• • ✿ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

• • ✿ • •

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ النَّاسِ، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أَقْبالَـهُنَّ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُتَجاوِزُونَ الحَلَالَ إِلَى الحَرَامِ].

كلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلون أوَّلًا بتحقيقِ التوحيدِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، لكن هناك أنواع مُعَيَّنة منَ المعاصي يَرْتَكِبُها بعضُ الأممِ ويركز عليها الرُّسُل عليهم الصلاة والسلامُ، ففيها ذكر في قومِ لوطٍ كَان جُرمهم هذه الفاحشة، ولهذا قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ و هذا الاسْتِفهامُ للتوبيخِ والإنكارِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ أي: الذُّكور، جَمْع ذَكَر، ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيان للذُّكران، أي: منَ النَّاسِ، سواء كَانوا من قَبيلتكم أو من غيرِ قَبليتكم، ولهذا لم يقلْ: «أتأتونَ الذُّكران مِنكم»، بل قال: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم -والعياذُ بالله- لا يَتحَاشَوْنَ عن أحدٍ، فهم مثل الكِلابِ.

ثم معَ ذلك -زيادةً على قُبحِهم- أنَّهم تَركوا النعمةَ الَّتي خَلَقَها اللهُ لـهم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾، فلو كُنْتُم تأتونَ الذكران من العالمينَ؛ لأنكم مُضْطَرُّونَ لذلك، وليس لكم منَ الحلالِ ما يُغْنِيكم، لكَان الأمرُ أهونَ، لكن لكم منَ الحلال ما يُغنيكم، فكيف تأتونَ الخبائثَ وتَدَعُونَ الطيِّبات؟!

ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وهي داخلةٌ في مَضمونِ الاسْتِفهامِ، يَعْنِي: وأَتَذرونَ، بمَعْنى: تتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أقبالهن]، وهذا تفسيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يَعْنِي: تأتونَ الَّذي خلقَ لكم منَ الأزواجِ، وهو القُبُل، هذا ما ذهبَ إليه المُفَسِّر، والصَّوابُ خلاف هذا، والصَّوابُ أن (مِن) بيانٌ لـ(مَا) أي: ما خلقَ لكم ربُّكم منَ الأزواجِ، يَعْنِي: وتذرون الأزواجَ، هذا هو المَعْنى.

وفرْقٌ بينَ ما ذكرتُ وبينَ ما ذهبَ إليه المُفَسِّر، يَعْنِي: كَأَنَّه يقول: تَذَرُونَ فُرُوجَ النِّساءِ، ولكن لو قال: (أتأتونَ أدبارَ الذُّكور) لكَان صوابًا، وتذرونَ فروجَ النِّساءِ، لكن لما قال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ صار المناسِب أنَّ المَعْنى: وتَدَعُونَ النِّساءَ.

لكن قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ دونَ قَوْلِهِ: ﴿أَزْوَاجِكُم﴾؛ إشارةً إلى أن الله تَعالَى هَيَّأَ هذه الزوجةَ للذَّكر يَتَمَتَّع بها كما يشاءُ، إلَّا فيما حرَّم اللهُ مِنَ الدُّبُر مثلًا، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥-٦]، وهذا يدلُّ على إباحةِ استمتاعِ الرَّجُلِ بامرأتِهِ إباحةً مُطْلَقَةً بلا حدودٍ، ما عدا أمرينِ: الدُّبُر، والفَرْج في الحَيْض، وما سِوَى ذلك فكلُّ شَيْءٍ مُباحٌ.

وهذا يزيدُ الأمرَ قُبحًا إلى قُبْحِهِم، حيث يَدعون الطيِّبَ ويأتونَ الخبيثَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾ الفائدةُ المعنويَّة الَّتي أَشرنا إليها، وهي زيادةُ القُبْح، والفائدةُ اللفظيَّة، وهي الطِّبَاق بذِكْر الأمرِ ومقابلِهِ.

وقولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ اللامُ للإباحةِ أو للتعليلِ، أي: خَلَق لِأَجْلِكُم، أو: أباح لكم.

وقَوْلُهُ: ﴿رَبُّكُم﴾ إشارة إلى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المتصرِّف فيهم الَّذي يُحْيِيهِم.

وقَوْلُهُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، (بَلْ) للإضرابِ، والإضرابُ هنا كَأَنَّه قال: لا تأتونَ الذُّكران فِطرةً ولا عَمَلًا عادِيًّا محبوبًا إلى الفِطَر، ولكن الَّذي حَمَلَكُم على هذا هو العُدوان المجرَّد -والعياذ بالله- متجاوزينَ الحلال إلى الحرام، فبيّن لهم لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ ما فَعَلُوه أمرٌ مُسْتَنْكَرٌ عقْلًا، ومستنكَرٌ شَرعًا وعُرفًا؛ لأن العدوانَ لا شكّ أنّ كلّ أحدٍ يُنْكِره، وهؤُلاءِ مُعْتَدُونَ.

ومنَ الغَريبِ أنّ الفاعلَ مِنهم اليومَ قد كَانَ مَفعولًا به بالأمسِ! والمفعول به اليومَ يكونُ فاعلًا في المستقبَل! وهذا غاية ما يكونُ مِنَ العُدوان.

وسبحان اللهِ! كيف هؤُلاءِ الجماعة -نسأل الله السلامةَ- يرى الإِنْسانُ ولدَهُ أو أخاهُ الصغيرَ تُفعَل به الفاحشةُ ولا يبالي بهذا؟! والظَّاهرُ أَنَّهم يَفعلونها جهرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، فهم لا يُبالُونَ -والعياذُ باللهِ- أن يَرْكَبَ بعضُهم بعضًا جِهَارًا، وهذا غايةُ ما يكون منَ السُّخْط.

الآيات (١٦٧- ١٧٥)

• • • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى
لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا
عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٦٧-١٧٥].

• • • •

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ﴾ عَنْ إِنْكارِكَ علَيْنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ مِنْ بَلْدَتِنا، ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المُبغِضِينَ، ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِنْ عذَابِهِم، ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ ﴿فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الْباقِينَ أَهْلَكْناها، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أَهْلَكْناهُمْ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾ حِجارَةً مِنْ جُمْلَةِ الإِهْلاكِ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مَطَرُهُمْ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

هذا الجَوابُ القَبيح منهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ﴾ عنِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وهذا أبلغُ مِن لو قالوا: (لَنُخرِجَنَّكَ)، كأنَّهم يُهَدِّدُونَهُ بما هو أعظمُ؛ ترويعًا له، يَعْنِي: إنَّنا أَخرجنا غيرَكَ وستكونُ أنتَ من جملةِ المُخْرَجِينَ؛ لأنَّ لنا قُدْرَةً وسُلطةً على إخراجِكَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ تأكيدٌ بالقَسَمِ واللامِ ونونِ التَّوكيدِ: فاللامُ في

﴿لَئِن﴾ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَم، أمَّا اللام في ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ فهي واقعةٌ في جَوابِ القَسَم، والجَوابُ المَوْجودُ هنا لِلْقَسَمِ، قال ابن مالك(١):

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

قالَ لهم لوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُبْغِضِين]، وهذا فيه نوعٌ مِنَ التحدِّي لـهم. يَعْنِي: إنْ أَخْرَجْتُمُونِي فأنا راضٍ بذلكَ، ولا يُهِمُّنِي إخراجي؛ لأني ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ والإِنْسانُ المبغِض لعملِ قومٍ لا يحب أنْ يَبقَى معَهم، فكَأَنَّه يقولُ: أنا لا يُهِمُّنِي إذا خرجتُ؛ لأنني لا أرغبُ بالمُقامِ معَكم وأنتم على هذا العملِ الخبيثِ الَّذي أُبْغِضُه، والإِنْسانُ أشدّ ما يكونُ عليه أنْ يَبْقَى مع قومٍ يَكْرَهُهُمْ، يقول المُتنبِّي(٢):

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وهذا صَحِيحٌ، فأنْ تَبْقَى معَ قومٍ تكْرَه أفعالَهم، هذا صعبٌ على النفوسِ، فكَأَنَّه يقول: أنا أرغبُ بهذا، ومُسْتَعِدٌّ له، ولا أُبالي بإخراجِكُمْ.

وفيه دليلٌ على أنه يَجِبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُبْغِضَ عملَ هؤُلاءِ القومِ؛ لأن الرُّسُلَ يُبْغِضُونه، وهذه هي فائدةُ الجمعِ في قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: من المُبْغِضِين له، وإنْ كَان هو ما فيه إلّا قليل منَ الَّذينَ آمنوا معه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، يَعْنِي أنه ما آمنَ معه أحدٌ إلا أهلُ بَيْتِهِ، وليس كلّ أهلِه؛ فامرأتُه كَانتْ من الكَافِرينَ.

---

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

(٢) ديوانه (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال المفسِّر: [﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عَذابِهِم]، ولا شكّ أنّ هذا التأويلَ قاصِرٌ؛ لأن: ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من فِعْلِهم ومن عذابِهِم أيضًا.

ولا يَمْتَنِع أن يَسأَلَ اللهَ تَعالَى أنْ يُنْجِيَهُ مِن هذا العملِ، وإنْ كَانَ الرُّسُل لا يُمْكِن أنْ يَعْمَلُوهَ؛ لأنَّ الصَّوابَ المقطوعَ به أنَّهم معصومونَ ممَّا يُخِلّ بالشَّرَفِ والكرامةِ، وعملُ قومِ لوطٍ هذا يُخِلّ بالشرفِ، لكنه هو دعا لنفسِه وأهلِه: ﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾، وأهلُه ليسوا مَعصومينَ.

والصَّوابُ أنَّه سألَ اللهَ أن يُنْجِيَه من عَمَلِهِم، ومن عَذَابِهِم.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ الفاءُ للتفريعِ، يَعْني: فتفريعًا على دعوتِه أُجيب.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ، ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا]، وفي بعض النسخ: [أَهْلَكْنَا]، وكَأنَّه يريد أنَّ (أهلكنا) مُسَلَّطٌ على قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يَعْنِي: إلَّا أنّا أَهْلَكْنَا ﴿عَجُوزًا﴾، و(أهلكناها) أيضًا لها مَعْنى أوضح؛ لأنه إذا قال: (الباقين أهلكنا) قد يظن الظانّ أنَّ المُرادَ أهلكَ الباقينَ. وعلى كُلِّ حالٍ استجاب الله دعوتَه، فنجّاه وأهلَه.

قَوْلُهُ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأهلَ كَانوا عددًا كثيرًا، والصَّحِيحُ أننا لا نَدري كم عَدَدُهم، إنَّما أهله، ولكن: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يدلُّ على الكثرةِ؛ لأن: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هذه جمعٌ، وأدنى ما يُقال فيه ثلاثةٌ، معَ أنَّ هذه الكلمةَ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تدلُّ على جماعةٍ مُسْتَكْثَرَةٍ.

وقَوْلهُ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ -والعياذُ باللهِ- هذه المرأة عَجُوز كبيرة في السِّنِّ، وكَان الَّذي يَنْبَغي لكبيرِ السنِّ أن يكونَ مُنِيبًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنّه قَريبٌ مِنَ الموتِ، وأقرب إلى الموت من الشابِّ، ولكن هي صارتْ خبيثةً -والعياذُ باللهِ- كافرةً باللهِ، لكنَّها كاتمةٌ لذلكَ، ولهذا قال اللهُ تَعالَى في سُورة التَّحريم: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، ليستْ خيانةَ شَهوةٍ وزِنًا، لكن خِيانة كُفْر، ولهذا قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]، ثم قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، لم تُشْعِرَاهُما بالكُفْر، فما عَلِمَا بِكُفْرِهِما.

وهي لَـمَّا كَانتْ مُؤَيِّدَةً لِفعلِ القومِ كانَ هذا إقرارًا بالكفرِ، فهي كافرةٌ ومؤيِّدة أيضًا زيادة.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقينَ]، والغابِرُ: يُطْلَق على مَعَانٍ، منها: الباقي، ومنها: الماضي أيضًا، فيكون مِنَ الأضدادِ؛ وهي الكَلِمات التي تَصْلُحُ للشيْءِ ولِضِدِّه.

قَوْلهُ: ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ أنْ أَنْجيْنا لُوطًا وأهلَه ﴿دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾؛ لأنه بعدَ أَنْ أُمِر أنْ يسيرَ بأهله ليلًا، وأن يخرج من البلدة إلا امرأته، دمر الله هذه البلدة، يَعْنِي: فخرجَ ثمَّ دُمِّرَتْ، وقَوْلهُ: ﴿ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ المُرادُ به قومُه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكناهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حِجارَةً، من جملةِ الإهلاكِ]، والظَّاهرُ لي أن قَوْلَهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ عطْفُ تَفسيرٍ على قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾؛ لأنَّ هذا هو الَّذي دُمِّروا بِهِ، أنَّ اللهَ أمطرَ عليهم مَطَرًا، وهذا المطر هو ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، مُتَتابع، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود:٨٣]، عندَ اللهِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: مَطَر هؤُلاءِ القومِ، وإنَّما قال: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لِبيانِ أنها قد قامتْ عليهم الحُجَّة ولم يُنْذَرُوا بالعذابِ إلَّا بعدَ أنْ أعذرَ مِنهم.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآيةِ وغيرِها منَ الآياتِ ما يدلُّ على أنَّ قومَ لُوطٍ أُهلِكوا بهذه الحِجارةِ: بالتدميرِ بالحجارةِ وليسَ بالقلبِ كما هو مشهورٌ عندَ أهلِ العِلْمِ وكثيرٍ من المُفَسِّرينَ، أنَّ بلادهم حُملتْ إلى عَنانِ السَّماء ثم قُلِبت، فهذا ليسَ في القُرآنِ ما يدلُّ عليه، والّذي في القُرآنِ قَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:٧٤]، وجَعْلُ العالي سافلًا يكونُ بغيرِ القلبِ؛ فإنَّ هذه الحجارةَ إذا نزَلتْ على المنازلِ وهَدَّمَتْهَا صار العالي منَ المنازلِ سَافلًا، ثم إنها إذا قُلبتْ -مثلًا- وصارَ النَّاسُ في باطنِ الأَرْضِ، فليسَ للحِجارة حِينَئذٍ قيمة.

والمهمُّ أنَّه ليس في الأمرِ عنِ النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يدلُّ على أنّ أرضَهم حُملتْ فقُلبتْ، وما دام أنَّه ليسَ في الأمرِ ما يدلُّ على ذلكَ، فالأَولى أنْ يُقال: إنّهم دُمِّروا بهذه الحجارةِ.

ويُستفاد من قِصَّة لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الدُّعاءُ إلى توحيدِ اللهِ والأمر بِتَقْواهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإخلاصُ في الدَّعوة إلى اللهِ تعالى، وأنَّه لا يَنْبَغي للدَّاعي أنْ يأخذَ على دَعْوَتِهِ أَجْرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِن بني آدمَ مَن تُقلَب طَبِيعَتُه وتُصْرَف حتى يَسْتَحْسِنَ الخبيثَ؛ لأنَّ هؤُلاءِ هذا حالُهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: زيادةُ الإنكارِ فيما إذا كَان للإِنْسانِ مَنْدُوحَةٌ عنِ الحرامِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ الاستمتاعِ بالزوجةِ استمتاعًا مُطْلَقًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَن تجاوزَ الحلالَ إلى الحرامِ، فهو عادٍ ظالـمٌ لنفسِهِ ولغيرِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: في الآيات دليلٌ على أنَّ المعانِدِينَ لِلرُّسُل إنَّما يَلْجَئُون إلى قُوَّتِهِم وسُلْطَتِهِم، لا إلى العقلِ والإقناعِ، قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧]، وقال ذلكَ قومُ نوحٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، لكنَّه عذابٌ آخرُ، وكذلك أيضًا قالَهُ فِرعون لِموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقالَه آزرُ لابنِه إبراهيمَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦].

كلُّ هذا ممَّا يدلُّ على أنَّ هؤُلاءِ الَّذينَ يُهدِّدُونَ بالسُّلطة لا بالإقناعِ والعقلِ، هؤُلاءِ لا حُجَّةَ لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يَجِبُ على الإِنْسانِ أن يُبغِضَ ما أبغضَهُ اللهُ؛ لأنَّ هذه طريقةُ الرُّسُلِ؛ قال: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا غِنى لأحدٍ عن دعاءِ اللهِ: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٩]، وأمَّا قولُ بعضِ العارِفِينَ الجاهلينَ: «عِلْمُهُ بِحالي يُغْنِي عن سُؤَالِي»[1]،

---

(١) يُروى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما أُلقي في النار، انظر تفسير البغوي (٥/ ٣٢٧)، وانظر تنزيه

فهذا قولٌ باطلٌ، فالله يعلمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسُلُ وأَتْبَاعُهم يَدْعُون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: وُجودُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقَوْله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾ [الشعراء:١٦٩]، وقَوْلِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ [الشعراء:١٧٠]، وهذا دليلٌ حِسِّيٌّ ظاهرٌ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إجابةُ اللهِ للدُّعاء، وهذه الإجابةُ تَتَضَمَّن عِدَّةَ صفاتٍ، فتتضمَّن العِلْمَ، والقُدْرَة، والرَّحمة.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةَ عَشْرَةَ: في الآيات دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْقِذ أهلَ الحقِّ من إهلاكِ الكَافِرينَ، ويُهلِك الكَافِرينَ ولو كَانوا في أحضانِ أهلِ الحقِّ؛ لأنَّ اللهَ أنجَى لُوطًا، وأهلكَ امرأتَه، وهي في أحضانِهمْ، وهذا هو السرُّ في قَوْلِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، فالتعبيرُ القُرآنيُّ أنَّ المُؤمِنينَ نَجَوْا، لكن البيت المُسْلِم ما نَجا كله، فالمرأةُ الَّتي كَانتْ تَتظاهَرُ بالدِّين وهي مسلمةٌ ظاهرًا؛ ما نَجَتْ، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فهذا البيت أهلُه مُسْلِمُونَ، لكن ليسَ كلّهم مُؤمِنينَ، بل فيهم هذه المرأةُ العَجُوز كَانت كافرةً، وليسَ في الآيةِ دليلٌ -كما يقول بعضُ النَّاسِ- على أنَّ الإيمانَ هو الإسلامُ؛ لأن فَرْقًا بينَ هذا وهذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالثةَ عَشْرَةَ: أنّ القُربَ من الأَنْبِياء والأولياءِ لا يُغْنِي الإِنْسانَ شيئًا، لأنَّ هذه زوجة نبيّ، ومعَ ذلك هَلَكَتْ معَ مَن هلكَ، فكونُ الإِنْسانِ قَرِيبًا من إِنْسانٍ وليٍّ للهِ لا يُفِيدُه شيئًا، فأبو لَهَبٍ عمُّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومعَ ذلك ما نزلَ

= الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (١/ ٢٥٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ليس له إسناد معروف وهو باطل. مجموع الفتاوى (١/ ١٨٣).

مِنَ القُرآنِ في أحدٍ مُعيَّن منَ الكفَّار سِوَى أبي لَهَبٍ عمّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وما نزلَ القُرآنُ في تَسْمِيَةِ شخصٍ بعينِه منَ المسلمينَ إلَّا في زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ، مَوْلًى منَ الموالي، من أبعد ما يكون عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبهذا يَتبيَّن أنَّ قُرب النسَبِ وقرب المصاهرةِ وغيره لا يُغني عنِ الإنْسان شيئًا.

وتأمَّل ما نزل في سُورَةِ التحريمِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]؛ لأنَّ عائشةَ وحَفْصَةَ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا على النَّبيّ ﷺ قد يَغْتَرَّانِ بِقُربهما إلى النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيَعْمَلَانِ ما عَمِلاه، وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه لا تَنْفَعُهما صِلَتُهما بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ عُقوبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتَنَوَّع حَسَبَ العملِ؛ لأن هنا تُمْطِر مطرًا حتى هَدَّمَتْ مَنازِلَهم، وصار عاليها سافلها، ثم خُسِف بها فيما بعدُ، ولذلكَ الآن هي بُحيرة اسمها (بُحيرة لُوط) معروفة، وهي البحر الميِّتُ؛ وسُمِّيَتِ البحرَ الميِّتَ لأنه غيرُ مُتَّصِل بالبِحار، ويقولون أيضًا: إنه لا يعيشُ فيه السمكُ والحوتُ بمثل ما يعيشُ فيه غيرُه، فهو فيه سمكٌ لكنه ليسَ مثلَ غيرِه؛ لأنه ليسَ مُتَّصِلًا بالبحارِ العميقةِ، فلا يكون فيه ذلك الشيْءُ الكثيرُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: استدلَّ بعضُ العُلَماءِ -أخذًا من هذه القصّة- أنَّ اللُّوطِيَّ يُقتَل بأنْ يُرمَى بالحجارةِ حتى يموتَ؛ قياسًا على رَمْيِ اللهِ تَعالَى لهؤلاءِ بالحجارةِ.

وهذه المسألة فيها خلافٌ:

فالقولُ الأوَّل: أنَّ اللُّوطيّ لا يُتعرّض له ولا يُقال له شيْءٌ.

والقول الثَّاني: أنَّه يُعزَّر بالضربِ والحَبْس، وما أشبهَ ذلك.

والقولُ الثالثُ: أنه كالزاني: إنْ كَان مُحْصَنًا رُجِمَ، وإنْ كَان غيرَ مُحْصَنٍ جُلِدَ وغُرِّبَ.

والقولُ الرابعُ: أنه يُقْتَل بكُلِّ حالٍ، سواء كَان مُحْصَنًا أم غيرَ مُحْصَنٍ، ولكن اختَلفوا في كيفيَّة قَتلِه، فقيل: بالرَّجْم، وقيل: بالسَّيف، وقيل: بالتَّحْرِيق، وقيل: بإلقائه منَ الشاهِق وإتباعه بالحِجارة، وهذا القولُ هو الَّذي اتَّفَقَ عليه الصحابة أنه يُقْتَل.

وهذا القولُ هو الصَّحِيح المتعيَّن، أنه يُقتل بكُلِّ حالٍ؛ فاعلًا كَان أمْ مفعولًا به، إذا كَان بالغًا عاقلًا؛ لأنَّ هذا ليسَ كالزِّنا، بل أشدّ وأعظم، ولأنه أمرٌ لا يُمْكِن التحرُّزُ منه، بخلافِ الزِّنا، فالزنا يمكن التحرُّز منه، لكن هذا لا يُمْكِن؛ فإنَّه لو أنَّ خَبيثًا أمسكَ بِيَدِ أمردَ لا أحدَ يقولُ: ما الأمردُ هذا؟ ولماذا تُمْسِك يدَه؟ وما أشبهَ ذلك، فهو أمرٌ لا يُتَحَرَّز منه، فيأتي في نوادي الرِّجال وغيرها.

وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الصَّحَابَة أجمعوا على قَتْلِه[1].

أمّا مَن قال: إنه لا يُتَعَرَّض له، فحُجَّتُه أنَّ هذا ممَّا تَنْفِرُ عنه الطِّباع، وما تنفر عنه الطباعُ يُكتَفَى بالرَّدْع الطبيعيّ، كما أنَّ شاربَ البَوْلِ لا يُتعرّض له، وشارب الخَمْر يُجْلَد؛ لأن الخمرَ تَدْعُو النَّفسُ إليه، وهذا لا تَدعو النفوس إليه.

ولكن هذا قولٌ باطلٌ مِن وجوهٍ:

أوَّلًا: فإن قولَـهم: «إنها لا تدعو النفوسُ إليه» هذا صَحِيحٌ لكن النفوس

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٣٤).

السَّليمة بلا شَكٍّ هي التي لا تَدعو إليه، وتَسْتَهْجِنه وتَسْتَقْبِحه، لكن النفوس الخَبيثة تَهواه أكثر مِنَ النِّساء، فيَهْجُرُونَ نِساءَهم في فُرُشِهِنَّ، ويَذْهَبُونَ إلى فِعْل هذه الفاحشةِ!

ثانيًا: قولهم: «إنَّ البولَ لا يُعزَّر على شُربه، ويُكتفى برادعٍ طبيعيّ»، هذا باطلٌ أيضًا، بل يجبُ أنْ يُعَزَّرَ على فِعله، ومَن رأيناهُ يَشرب بولًا يجبُ أن نُعَزِّرَهُ؛ لأنه فعَلَ محرَّمًا، والتعزيرُ واجبٌ لكلِّ مَعْصِيَةٍ لا حدَّ فيها ولا كَفَّارة، فالصَّوابُ أنه يُقْتَل في كُلِّ حالٍ. واللهُ المستعانُ.

فإنْ قيلَ: كيف أجازَ الصَّحابة تَحْرِيقَه، وقد وردَ النهيُ عنِ التعذيبِ بالنارِ في قولِهِ ﷺ: **«لا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»**[1]؟

قلنا: كَأَنَّهم رَأَوُا ذلك لِعِظَم هذا الفِعل، وأنّ المقصودَ بتعذيبِ النارِ في الأمورِ الَّتي دونَ هذا، وإلَّا فقد وقعَ ذلك من أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، وعليّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن هشام بن عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ، ثلاثة مِنَ الخُلَفاء كلّهم اتَّفَقُوا عليه.

والراجِحُ أنَّ حَدَّه القتلُ في كُلِّ حالٍ، يَعْنِي: لو يَتَلَوَّط مَن له سبعَ عشْرةَ سنةً بِمَن له ستَّ عشْرةَ سنةً، قُتِلَا جميعًا، وإن كَانا غيرَ مُحْصَنَيْنِ، أو كانا مُحْصَنَيْنِ.

وقد وردَ في مواطنَ أُخْرَى منَ القُرآنِ الكريمِ أنَّ لُوطا عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ لقومِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، يَعْنِي: تَزَوَّجُوهُنَّ.

وبعضُ المُفَسِّرين قالُوا: ﴿بَنَاتِىٓ﴾ يَعْنِي: بنات الأُمَّة؛ لأن الرَّسُولَ أبٌ لِقَوْمِه،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥).

(٢) ذم اللواط للآجري (ص:٥٨).

فيكنّ له بِمَنْزِلَة بناتِه. والَّذي دعاهم إلى هذا أنَّهم قالُوا: إن بناتِه مسلمات مُؤْمِنات، وهؤُلاءِ كفَّار، والكافرُ لا يتزوَّج بالمؤمنةِ.

فيُقال: الجَواب عن هذا: إمَّا أنَّ شَريعتهم تُبيح ذلك، أو أنَّ مَعْنَى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ يَعْنِي: فأَسْلِمُوا وتَزَوَّجُوهُنَّ.

وهذا في الحَقِيقَةِ كَأَنَّه يقول: أنا أُحَافِظ على ضيوفي أكثر ممَّا أحافظ على أيّ شيْءٍ آخرَ، يَعْنِي: فإني أَحْمِيهم حتى إني أَتَنَازَلُ عن بناتي وتتزوجونّ؛ من أجل المحافظةِ على هؤُلاءِ المسلمينَ.

• • ❁ • •

الآيات (١٧٦- ١٨٠)

• • • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٨٠].

• • • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِحَذْفِ الهَمْزَةِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الـهَاءِ[1]، هِيَ غَيضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، لَـمْ يَقُلْ لَـهُمْ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قوله: ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِـراءَةٍ بحذفِ الـهمزةِ وإلقاءِ حرَكَتها على اللَّام وفتحِ الـهاءِ]: (لَيْكَةَ)، هذه هي القِراءَةُ الثَّانيةُ، وعلى قِراءَةِ الهمزةِ إنَّما كُسِرَتِ الهاءُ لأجلِ (أل) التعريفِ؛ فإنَّ القِراءَةَ الثَّانيةَ الَّتي أشارَ إليها بالتفسير: (كذب أصحاب لَيْكَةَ) حُذِفَتِ الهمزةُ معَ (أل) المعرفة، وعلى هذا تكون ممنوعةً منَ الصرفِ؛ لأنه لم يوجدْ فيها (أَلِ) الَّتي تحوِّل غيرَ المصروفِ إلى مُنْصَرِفٍ.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥١٩).

وما هي الأيكةُ؟

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هِيَ غيضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ]، أي أَرْض مَمْلُوءَة بالشجرِ، والغالبُ أنْ تكونَ هذه الأشجار المُلْتَفَّة بعضها على بعض.

و(مَدْيَن) يَظْهَر أنَّه في طُور سِيناء، من قِصَّة مُوسى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لم يقلْ: أخوهم؛ لأنه لم يكن منهم]، بينما قالَ في غيرِه ممَّا مَضَى مِنَ القَصَصِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥]، فتبيَّن بهذا أن أصحابَ الأيكةِ لَيْسُوا أهلَ مَدْيَنَ.

ولهذا قال المُفَسِّر: [قُرب مَدْيَن]، وليسوا منَ القريةِ الَّتي بُعِث فيها شُعَيْب؛ لأنَّ أهلَ القريةِ الَّتي بُعِثَ فيها مَدْين مِن قَبيلته، ولهذا لَـمَّا ذكرَ مَدْيَنَ قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وأمَّا هنا فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقلْ: أَخوهم.

وممّا يدلُّ على أنَّهم ليسوا أصحابَ مَدْيَنَ، أنَّ العذابَ الَّذي أُخِذوا به غيرُ العذابِ الَّذي أُخِذَ به أصحابُ مَدْيَنَ، فأصحابُ مَدْيَنَ أُخِذوا بالصَّيْحَة، وهؤُلاءِ أُخِذُوا بعذابِ الظُّلَّة، كما سيأتي إن شاء الله.

وهل مَعْنى هذا أنَّ شُعيبًا أُرسلَ مرّتينِ؟

الجَواب: لا، بل أُرسل مرَّةً واحدةً، لكن إلى قومينِ؛ إلى هؤُلاءِ وهؤُلاءِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا من بابِ التبع، يَعْنِي: هذه القرية صغيرةً مثلًا، وكَانت تابعةً لبلدتِهِ، ويدلُّك على هذا أن عَمَلَهم واحد؛ عمل هؤُلاءِ، وعمل أهل مَدْيَنَ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هذا المَعْنى عامّ لكلِّ الرُّسُل، فالذّنبُ الخاصُّ لهؤُلاءِ كما سيأتي: [﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨١]، الناقِصِينَ].

• • ۞ • •

الآيات (١٨١- ١٨٤)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٤].

• ● ● •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ النَّاقِصِينَ، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ المِيزان السَّوِيِّ، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لَا تَنْقُصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ (عَثِيَ) بِكَسْرِ المُثَلَّثَة: أَفْسَدَ، و(مُفْسِدِينَ) حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلها، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخَلِيقَةَ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾].

هؤُلاءِ القومُ الَّذينَ بُعث إليهم شُعيب، سواء كَانوا قومَه أو أهلَ هذه القريةِ، كَانوا يَبْخَسُون المِكيال والميزان -والعياذُ باللهِ- فإذا وَزَنُوا للناسِ نَقَصُوه، وإذا اتَّزَنُوا منهم اسْتَوْفَوْهُ، هذا الظاهِرُ، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣]، وقال هنا: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ وبينهما مُقابَلَةٌ؛ لأجل ألّا يُقالَ: إن مَن أوفَى في أكثر الأعمال يكونُ مُوفِيًا، مِثل قَوْله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢].

فـ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ يَعْنِي: في كلّ فَرْد من أفرادِ معاملاتكم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من المتَّصِفين بالإقساط، والإقساطُ بمَعْنى النَّقْص.

قولُه تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ هذا الوزنُ، والفرقُ بين الوزنِ وبين الكيلِ: أنَّ ما قُدِّر بالحَجْم فهو كيْل، لأنَّ المكيالَ تَضَع فيه الشيْء فيكون حَجْمُه هكذا، وأمَّا ما يُقَدَّر بالثّقل فيُسمى وَزْنًا، وقَوْلُهُ: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ يقول المُفسِّر: [المِيزان السَّوِيّ]، فَعَلى هذا القِسطاس بمَعْنى: المِيزان، والمستقيم بمَعْنى: السَّوِيّ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ قال: [لا تَنْقُصُوهم من حَقِّهم شيئًا]، هذا عامٌّ حتى فيما يُزرَع، وفيما يُعَدُّ.

مثل هؤُلاءِ القوم ذَنْبُهم الخاصّ الَّذي بُعِث هذا الرَّسُولُ لإصلاحِه، مع عِبادَة اللهِ، هو بَخْسُ النَّاسِ في الكيلِ والميزان وغيرهما، ولهذا عَمَّمَ: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لا تَنْقُصُوهم حُقُوقَهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالقتلِ وغيرِه]، ولم نعرِفْ أن هؤُلاءِ القوم -أي: قوم شُعَيْب- كَانوا يَقْتُلون النَّاسَ، بل المعروف من ذَنْبهم أنَّهم كَانوا يَبْخَسُون النَّاسَ أشياءَهم، فيمكِن أن يكونَ المقصودُ هو الإفسادَ بالقتلِ أو غيره. إنَّما الإيعاد سواء بالحَبْس أو بالضربِ أو بغيرهما، فهو من الفسادِ، ومن الفسادِ أيضًا نقصُ النَّاسِ أشياءَهم.

وقَوْلُهُ: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكِّدة؛ لأن العُثُوَّ هو الفسادُ، كما لو قلتَ: «لا تَقُمْ قائمًا»؛ فإنَّ قائمًا حالٌ مؤكِّدَةٌ لقَوْلك: «لا تَقُمْ».

قَوْلهُ: [﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾: الخَلِيقَة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾]، ذَكَرهُم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالذي خَلَقَهُم، وخَلَقَ الخَلْقَ الأَوَّلَ أيضًا، إشارة إلى أَنَّكم سَتَزُولُون كما زالَ مَن قبلَكم، فأنتم مَخْلُوقُونَ مِنَ العَدَمِ، وتعودونَ إلى العَدَمِ.

• • ۞ • •

الآيات (١٨٥- ١٩١)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٩١].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقِيلَة، وَاسْمُها مَحْذُوفٌ، أَيْ إِنَّهُ ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا﴾ بِسُكُونِ السِّين وَفَتْحِها[1]: قِطَعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي رِسالتك، ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هِيَ سَحَابَة أَظَلَّتْهُمْ بَعْد حَرٍّ شَدِيدٍ أَصَابَهُمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نارًا فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ مثل جواب قومِ صالحٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ مثلهم تمامًا، فالجوابُ واحدٌ، و(إنْ) مخفَّفة منَ الثقيلة، واسمها محذوفٌ، أي: إنه -أي: الشأن- ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

(١) حجرة القراءات (ص: ٥٢٠).

والدَّليلُ على أنها مخفَّفة ليستْ نافيةً: أمرانِ:

الأمر الأوَّلُ: لَفظيّ، وهو اللامُ؛ لأن اللامَ لا تَقْتَرِن إلَّا في خبرِ (إنْ) المخفَّفة.

والأمر الثَّاني: المَعْنى: فلو قال قائل: إنّ (إنْ) نافية، قلنا: ليس كذلك؛ لأنَّهم لو قالُوا: ما نَظُنُّكَ مِنَ الكاذبينَ، لكَانوا مُصدِّقينَ به، والأمرُ ليس كذلكَ، بل هم يريدونَ: إننا نظنُّك منَ الكاذبينَ، وهذا الظنُّ حَسَب اعتقادهم إنْ كَانوا جاهلينَ بالأمرِ، أو حسب عِنَادِهِم إنْ كَانوا عالِـمينَ وكاتمينَ، مثل قول فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٧]، وهو يعلمُ أنه صادقٌ.

قَوْلهُ: [﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ بسكون السين وفتحها: قِطَعًا: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في رسالتك]، أعوذ بالله! هؤُلاءِ أخبثُ من قومِ صالحٍ؛ لأن أولئك قالُوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ [الشعراء:١٥٤]، لكن هؤُلاءِ قالُوا: إنْ كنتَ صادِقًا بما تُوعِدُنا به فَأْتِ بالعذابِ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، كقولِ قريشٍ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين قالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وهذا من سَفَاهَتِهِمْ، وكَان الواجب أنْ يقولوا: اللَّهمَّ إنْ كَان هذا هو الحقَّ مِن عندِكَ، فاهْدِنا إليه ووَفِّقْنا.

وما فعله أصحابُ الأيكةِ في تكذيبهم لِشُعَيْبٍ هو ما فَعَلَهُ غيرُهم من أقوامِ الأَنْبياءِ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨]، وهذا التشابهُ تشابهٌ في القلوبِ والأفعالِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، (إِنْ) شرطيَّة، والغَرَضُ منها التحدِّي.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم به]، يَعْنِي: أنتم فعلتُم كلَّ قبيحٍ، وقابلتموني بكلِّ إثمٍ صَريحٍ، ولكن الَّذي يَعْلَم ذلك هو اللهُ، وهو يُهَدِّدُهُمْ بلازِمِ العِلْمِ. ولهذا قال المُفسِّر: [فيجازيكم به].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال المُفسِّر: [هي سَحابةٌ أظَلَّتْهُم بعدَ حرٍّ شديدٍ أَصابَهم، فأمطرتْ عليهم نارًا، فاحْتَرَقُوا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾]، فهم -والعياذُ باللهِ- أُصيبوا بحرٍّ شديدٍ عظيمٍ جدًّا ما أطاقوهُ، فأنشأ اللهُ السَّحابة تُظِلُّهُمْ، فخرجوا من بلادهم عن بَكْرَةِ أَبيهم إلى هذا الظلِّ.

ولكن -والعياذُ باللهِ- لَـمَّا وَصَلُوا وإذَا هي نارٌ -والعياذ بالله- أَحْرَقَتْهُمْ عن آخِرِهِم، وهذا من أشدّ ما يكون -والعياذُ باللهِ- منَ العذابِ؛ لأنَّهم جاءُوا هاربِينَ من عذابٍ، فوَقَعُوا في أشدّ منه -والعياذُ باللهِ- فكَانوا حينما أقبلوا يظنُّون أنَّهم نَجَوْا من الحرِّ بهذه الظِّلال، ولكنه -والعياذ بالله- صارَ حَتْفَهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولهذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا العذاب ﴿كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ فصدقَ اللهُ.

وهذه القَصَص عِبَرٌ في الحَقِيقَةِ، يَعْتَبِر بها الإِنْسانُ من عدَّة نواحٍ.

أولًا: يَعْلَم بها صبرَ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وجَلَدَهُم، وإخلاصَهم للهِ، وأنَّهم لا يُبالون بما نالَـهُمْ في ذاتِ اللهِ.

ثانيًا: يُعتبر بها في التَّسَلِّي بما أصابَ الرُّسُلَ؛ لأن الإِنْسانَ يتسلَّى بما أصاب غيرَه، بأنْ يَصبِرَ هو على الدعوةِ إلى اللهِ، ولا يَمَلّ ولا يكِلّ؛ لأن العاقبةَ تكونُ

للصابرينَ والداعينَ إلى اللهِ، فكلُّ العواقب الَّتي رأيناها في القَصَصِ للرسُلِ عليهم الصلاة والسلامُ.

ثالثًا: إن فيها عِبْرة تحذِّر المخالفينَ للرسُلِ، فإنّ كلّ المخالِفينَ للرسلِ -كما رأيتم كلهم- عُوقِبوا، وأَخَذَهُمُ العذابُ.

رابعًا: بيان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ يَنزِل العذاب، فينجو منه مَن يَنجو، ويَهلِك به مَن هَلَكَ، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

خامسًا: إن الإِنْسان يَتَعَجَّب كيف يصل بنو آدمَ إلى هذا العُتُوّ والعنادِ والاستكبارِ.

سادسًا: إنك تَقيس حاضِرَكَ بغائبكَ، فإنَّه يوجد الآنَ أمثال هؤُلاءِ؛ لأن طبيعةَ البشرِ واحدةٌ من آدمَ إلى اليومِ، فيوجد مِن هؤُلاءِ وإنِ اختلفَ الأسلوبُ، فالأسلوبُ قد يَختلف، لكن المَعْنى واحدٌ: العُتُوّ والاستكبارُ.

فيوجَدُ الآنَ مِن بَنِي آدمَ مَن يقولُ: إنَّ الدِّين خُرافة!

ويوجَد من بني آدمَ مَن يقولُ: إنَّ الله يَجِبُ أنْ يُوضَعَ في قَفَصِ الاتِّهام! لأنَّه لماذا يُشْبع هذا، ويُجُوعُ هذا؟! ولماذا يؤَمِّن هذا ويُخوِّف هذا! وهذا يَصِحّ وهذا يَمْرَض؟ والعياذ بالله.

فهذه الأشياءُ يجب أن تَعْتَبِر بها، وأنه ما سبقَ قبل زمانِكَ وُجِد مثلُه في زمانِكَ، والعِظَة من هذا كَثِيرَة.

ولوْ أنَّ الإِنْسانَ كَتَبَ هذه العِبَرَ لكان أفضل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]؛ لأنك كلما استنتجتَ عبرةً ازددتَ عقلًا؛ لأنَّ الله جعل العِبَرَ لِأُولي الألبابِ، فكلّما كَان اللُّبُّ أقوى كَانتِ العبرةُ الَّتي تؤخَذ من هذا أكثرَ.

وفي سُورةِ هُودٍ الكثيرُ مِن قصصِ الأَنْبياءِ، وذَكَرَ اللهُ في آخِرِها: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

ويُستفاد من قِصَّة شُعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بَيان ما قابَلَ الرُّسُل من صَبرهم، وجلدهم، وتحملهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بلاغةُ شُعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى كأنَّه خَطيب الأَنْبِياء، لكن لا نقدِر أن نقولَ: إنه خَطيب الأَنْبياءِ، فقد يكون منَ الأَنْبِياء من هو أخطبُ منه.

• ● ۞ ● •

الآيات (١٩٢- ١٩٦)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٦].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جِبْرِيلُ، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ بَيِّنٍ وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ «نَزَّلَ» وَنَصْب «الرُّوحَ» وَالْفَاعِل اللهُ[1]، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكْرَ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل عَلَى مُحَمَّد ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُبِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعودُ إلى القُرآنِ -كما قال المُفَسِّر- وإنْ لم يَسْبِقْ له ذِكْرٌ، لكن يعيِّنه السياقُ، ومَرجِع الضَّمير -كما هو معروف- قد يكونُ مَشهورًا وقد يكون مَعلومًا، والمذكور قد يَتَقَدَّم وقد يتأَخَّر، إلّا أنه من القواعدِ المقرَّرة أنه لا يعودُ الضَّميرُ على متأخِّر لَفظًا ورُتبةً، إلَّا في مَسائِل معيَّنة.

قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اللامُ للتَّوكيدِ، فيكونُ هذا الخبرُ مؤكَّدًا بأداتينِ، وهما: (إنّ) و(اللام).

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢١).

و(تَنْزِيل) مصدر، لكنَّه بمَعْنى اسم المفعولِ، أي: مُنَزَّل؛ لأن القُرآنَ نفسَه ليسَ تَنزيلًا، بل التنزيل فِعل الله، والقُرآنُ عِبارة عن شَيْء منزَّل، كما قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان:١].

وقَوْلهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الربوبيَّة العامَّة إشارة إلى أنه مِن مُقتضى ربوبيَّته أن يكون منزِّلًا لعبادِهِ هذا الكتابَ المفيدَ لهم.

ويشير أيضًا إلى عُمومِ شريعةِ هذا الكتابِ، كما عمّت ربوبيّة منزلِهِ، فهو أيضًا عامٌّ في التشريع.

قولُه تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد وُصِف بالرُّوح لأنه يَنزل بما فيه الحياةُ، وهو الوحيُ الَّذي به حياةُ القلوبِ، ووُصِف بالأمانةِ لأن المَقامَ يَقتضيه، وأمانة جبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من عِدَّة أوجهٍ بالنِّسبة للقرآنِ:

أولًا: أمينٌ بحيثُ لا يَنزِل به إلا على مَن أُمِرَ به، وعلى هذا فيكونُ قولُ الرافضةِ -قبَّحهم الله-: إن جِبريلَ أُمر أنْ يَنزل بالقُرآنِ على عليٍّ، ولكنه خانَ فنزَل به على مُحَمَّدٍ ﷺ منافيًا لوصفِ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالأمانةِ.

ثانيًا: مُقتضَى الأمانةِ أنْ يَنزلَ به كما سمِعه منَ اللهِ؛ لا يزيدُ فيه ولا يَنْقُصُ، ولا يُقدِّم ولا يؤخِّر.

ثالثًا: أن ينزلَ به في الوقتِ الَّذي أُمِرَ بإنزالِهِ فيه، فلا يتأخَّر إذا أوحي إليه به إلَّا بإذنِ اللهِ.

فهذه الأوصافُ الثلاثةُ مِن مُقتضَى أمانةِ جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقَوْلهُ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ خصَّ القلبَ؛ لأنه محَلّ الوعيِ، وفيه دليلٌ على عِنايةِ اللهِ

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالقُرآنِ، وعلى كمالِ حِفظ الرَّسُولِ له ﷺ؛ لأنَّ ما نزَلَ على القلبِ يَثْبُتُ ويَرْسَخُ، بخِلافِ ما سمِعتْه الأُذُنُ، فإنّ الأذنَ قد تُوصِل إلى القلبِ وقد لا تُوصِل، فقد يكون قلبُه غافلًا، ولكن هنا كَان على القلبِ.

وقَوْلهُ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ اللامُ هنا للتعليلِ وللعاقبةِ معًا، فهما متلازِمانِ، فإذا قلنا: للتعليلِ، صار مكلَّفًا بذلكَ، وإذا كَانتْ في العاقبةِ كَانتْ عاقبتُه أن يكونَ مُنْذِرًا، وإنْ لم يكنْ هناك تكليف، ولكن الصَّحِيح أنها شاملةٌ للأمرينِ.

وقَوْلهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: الرُّسُل، كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النِّساء:١٦٥].

وقَوْلهُ: ﴿بِلِسَانٍ﴾ بلغةٍ، وأطلقَ اللِّسان على اللُّغةِ؛ لأنه محَلّ الكَلامِ الَّذي هو عنوانُ اللُّغةِ.

وقَوْلهُ: ﴿عَرَبِيٍّ﴾ نِسبةً إلى العربِ؛ وذلك لأنَّ النَّبيّ ﷺ كَان عربيًّا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنه يَنْبَغي أن تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ؛ لأن الشرْعَ الَّذي نزلَ بها شرعُ جميعِ الخلقِ، فكَان يَنْبَغي أنْ تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ، خلافًا لمن يريدونَ أن يُذِيبُوها في عَصْرِنا الحاضرِ، بأن يطالِبوا بجعلِ اللُّغَة العامِّيَّة مكَانَ اللُّغةِ العربيّةِ في المكاتَباتِ والمراسَلات وغيرهما!

وأقبحُ من ذلك مَن يحاولونَ أن يتكلَّموا باللُّغةِ الأعجميّة، كما يوجد من بعضِ النَّاسِ الَّذينَ يَفخَرون بلغةِ الإنجليزِ وغيرهم، فتجدهم يَتَشَدَّقُونَ بالكَلام بها.

ثمّ إنّ قَوْلَهُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ متعلّق بقَوْلِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾.

وقَوْله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن، وفي قِراءَة بالتشديد: (نزّل)، بتشديد (نزل)، ونصب (الرُّوحَ)، فالفاعلُ الله: (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ).

وفي اختلافِ القراءتينِ فائدةٌ، وهي أن الَّذي أمرهُ بالنزولِ هو اللهُ فنزلَ، فيكون جمعتَ بين فِعل جبريلَ الصادر عن أمر اللهِ، وبين الدلالةِ على أمرِ اللهِ له بذلك: (نزّلَ به).

قالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكر القُرآن المنزَّل على مُحمَّد ﷺ ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ]، الْمُفَسِّر جعلَ الضَّميرَ يعودُ على القُرآنِ، يَعْنِي: إنَّ ذكرَ القُرآنِ موْجودٌ في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كُتُبهم، والمُرادُ وصفُ القُرآنِ؛ لأن النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصف صفات التَّوْراة والإِنْجِيل بصفاته وصفات الكِتاب الَّذي نزَل به.

وقَوْلُهُ: ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ظاهرُ الآيةِ الكريمة الْعُمومُ، وأن كل الكتبِ السابقةِ ذُكِرَ فيها القُرآنُ، وبشر إليه، ومنها: التوراة والإنجيل، فتكون الكاف هنا للتشبيهِ، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على عِناية اللهِ تَعالَى بهذا القُرآنِ، وتَشريفه، وتَعظيمه، حيثُ ذُكِر في كلّ كتابٍ سَبَقَ.

وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّه لو جاءَ هذا الكتابُ لَوَجَبَ على جميعِ مَن يَعْتَنِقُونَ الكتبَ السابقةَ أنْ يُؤْمِنُوا به.

• • ۞ • •

الآيات (١٩٧- ٢٠٤)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ
بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:١٩٧-٢٠٤].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّة ﴿ءَايَةً﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِذَلِكَ، وَ(يَكُنْ) بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَنَصْبِ آيَة، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ وَرَفْعِ آيَة[1]، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ جَمْع أَعْجَم، ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ كُفَّار مَكَّة ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أَنَفَةً مِنِ اتِّبَاعه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ مِثْل إِدْخَالِنَا التَّكْذِيب بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِيِّ ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيب بِهِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كفار مكّة بقراءة النبيّ، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لِنُؤْمِن فَيُقَال لَـهُمْ لا فقالوا متى هذا العذاب، قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّار مكّة ﴿ءَايَةً﴾ على ذلك]، يَعْنِي: عَلامَة على أنه حقّ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢١).

وقَوْلُهُ: ﴿ءَايَةً﴾ بالنصبِ خَبَرَ ﴿يَكُن﴾ مقدَّمًا، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ اسمها مؤخَّر، يَعْني: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ أي: عِلْمُهُ، من ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فبنو إسرائيلَ هم بنو يَعْقُوبَ بنِ إسحاقَ، الَّذينَ تفرَّعوا منه، وهذا من الآياتِ البيِّنة على أنه مذكورٌ في الكتبِ السابقةِ وأنَّ عُلماء بني إسرائيلَ يَعْلَمُونه؛ لأنه لو لم يكنْ مذكورًا في كُتُبهم، ما علِموه، وإنَّما يَعلَمونه لأنه مذكورٌ في كُتُبِهم.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المَرْجِعَ في مثل هذه الأمورِ إلى العُلَماءِ أهلِ العِلْم.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كعَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ وأصحابِه ممَّن آمنوا؛ فإنَّهم يُخْبِرون بذلك]، هذا ليس بلازِمٍ؛ لأن كونَهم يعلمونَ به فهم عالِـمونَ سواء أَخبروا أو لم يُخْبِروا، ولذلك القُرآنُ ما قال: (أولم يَكُنْ لهم آيَةٌ أنْ يُخْبِر به) بل قال: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ ومجرَّد عِلْمِ هؤُلاءِ به هو آيةٌ وإنْ لم يُخْبِروا به.

ونقول: إنّ عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن آمَنَ، هم من علماء بني إسرائيلَ، فعَلِموا وأَخبروا، وغيرُهم منَ العُلَماء الَّذينَ لم يُؤمِنوا علِموا ولكنَّهم لم يُخبِروا.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وبالفوقانيَّة ورَفْع (آيةٌ)]، وعليه يكون: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبر (تكن)، و(كان) في القراءتينِ ناقصةٌ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هذا اللسانُ العربيّ، سواء بلسان العربِ أو بغيرِه: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ ما آمنوا به، فالمَعْنى أنَّهم لم يُؤْمِنُوا سواء جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ وهو من صَميم العربِ، ويَعرفونه، أو جاء من رجل أعجميٍّ؛ ذلك لأنَّهم معانِدون، والمعاند -والعياذ بالله- لو جِيءَ بكلِّ آيةٍ ما آمَنَ؛ لأنه فرقٌ بين الإِنْسانِ الَّذي يَتحَرَّى الحقَّ، والإِنْسانِ الَّذي يُعانِد الحقَّ.

فالمعانِدُ المُكابِر يَصْعُب عليه أنْ يَرجِع إلى الحقّ، والمَعْنى أنه لو نزّل اللهُ هذا القُرآنَ على بعض الأَعْجَمِينَ إنْ كَان بِلُغَتِهِم؛ فإنَّهم لن يُؤْمِنوا به؛ لأنَّهم لم يَفْهَمُوه، وهو بلغةِ العَجَمِ، وإنْ كَان باللُّغة العربية ما آمنوا أيضًا؛ أنفةً من أنْ يَتَّبِعُوا رجلًا أعجميًّا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إدخالنا التَّكذيبَ به بِقِراءَةِ الأعجميّ، ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنا التَّكذيبَ به ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كُفَّار مكَّة لِقِراءَة النَّبيّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإسلاك أو السَّلْك، والمُراد بالسلك: الإدخال، و(كذلك) مفعول مُطْلَق لـ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، يَعْنِي: مثل ذلك، وهي تأتي دائمًا في القُرآن: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ وما أَشْبَهَهُما.

فيقولون: إنَّ الكافَ اسمٌ بمَعْنى (مثل)، وهي مضافةٌ إلى اسمِ الإشارةِ العائدِ على المصدرِ المفهومِ مِنَ الفعلِ.

وعليه فيكون إعراب الكاف: اسم بمَعْنى (مثل)، مفعولًا مُطْلَقًا، عاملها الفعلُ الَّذي بعدها. يَعْنِي: إن الله جَلَّوَعَلَا أدخلَ التَّكذيبَ في قلوبِ المجرمينَ، والمُرادُ بـالمجرمينَ ما هو أعمُّ من كفارِ مكَّة، خِلافًا لِما قالَ المُفَسِّر، فالمجرمُ كافرٌ، سواء كَان من أهلِ مكَّة أو من غيرها.

ولمّا دخلَ التَّكذيبُ في قُلُوبهم والاستكبارُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إلى آخره.

وليس في هذه الآيةِ حُجَّة لأهل الكُفْر والمَعْصِية، الَّذينَ قالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيّن في آيةٍ أُخْرَى أنّ سببَ كُفرهم وشِرْكِهم هو أنّهم كَانوا لا يريدون الحقّ، فلمّا زَاغُوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم، ولو كَانوا يُريدونَ الحقَّ لَشَرَحَ الله صدورَهم له، لكنّهم عِنْدَهُم -والعياذُ باللهِ-

أَنَفَةٌ وكِبْرِيَاءُ وغَطْرَسَةٌ، فلذلك حُرِموا منَ الوصول إلى الصَّوابِ.

قَوْلُهُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقُرآنِ، وإذا قلنا: إن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عامّ فإنّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بما نزل من عند الله.

وقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ للغاية، والمَعْنى: إنهم إذا رأَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فقدْ يؤمنونَ، ولكن يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٥]، وقَوْلُهُ: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا هو الغالب على المكذِّبين المعانِدين أنّ اللهَ يُملي لهم فيُوغِل -والعياذُ باللهِ- في الكُفْر وفي الفِسْق وفي المَعْصِيَة، حتى إذا جاءهمُ العذاب أتاهم بَغتةً على غِرَّة، كما قال الرَّسُول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»(١)؛ لأن هؤُلاءِ لو أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أذاقَهُمُ البأسَ شيئًا فشيئًا لرُبَّما آمنوا ورَجَعُوا، ولكنَّه -والعياذُ باللهِ- يُمْهِلُهم، حتى إذا وَصَلُوا إلى قِمَّة الكُفْر والفِسْق أُخذوا.

وهذا شَيْءٌ مشاهَدٌ حتى في عصرنا الحاضرِ، فنَرَى بعضَ البلادِ لَـمَّا أوغلتْ في الكفرِ ووَصلتْ إلى غايتِهِ أُخِذَتْ والعياذُ باللهِ.

قال: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ قال المُفسِّر: [لِنُؤْمِن؟ فيُقال لهم: لا، قالُوا: متى هذا العذابُ؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾]، يَعْنِي أَنَّه إذا أتاهم العذابُ بَغتةً يقولون: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؟ وهذا الاسْتِفهامُ للتمنِّي، أي: لَيْتَنا نُنظَر، هذا هو الظاهِرُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢]، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

والمُفَسِّر حَمَلَه على ظاهرِهِ؛ على أنه الاسْتِفهام الاستخباريّ، ولهذا قالَ: [فيُقال لـهم: لا]، يَعْنِي: لن تُنظَروا، ولكن إذا جَعلناه للتمنِّي -أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ أن يُنْظَروا- لَـمَا احتاجَ إلى جَوابٍ.

قال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الهمزةُ في مثلِ هذا التركيبِ إمّا أنّها داخلةٌ على جملةٍ مقدَّرة بحسَبِ السِّياق، أو أنّها داخلةٌ على الجُملة المَوْجودة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا من باب التَّوبيخ والإنكار عليهم، يَعْنِي: أَيَسْتَعْجِلُون بعذابِ اللهِ وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قريبُ الأخذِ، فهو يُنْكِر عليهم هؤُلاءِ الَّذينَ يَستعجلون بعذابِ الله.

وكيفيَّة استعجالهم بالعذابِ، هل هو بالفعلِ أم بالقولِ؟

نقول: بالقولِ وبالفعلِ، أمّا القول فإنَّهم يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، وأمَّا الفِعل فإنّ إيغالَهم بالكفرِ والمعاصي مُوجِبٌ بأنْ يُعاجَلوا بالعُقُوبة، فصار هذا الإنكارُ عليهم، سواء كَانوا يَستعجلون قولًا -كما قال المُفَسِّر، قالُوا: متى هذا العذاب؟- أو كَانوا يَستعجلون فعلًا، بأنْ يُوغِلوا ويَتَعَمَّقُوا في الكُفر والمعاصي؛ فإن ذلك مِن استعجالِ عُقوبةِ اللهِ.

• • ۞ • •

الآيات (٢٠٥- ٢٠٧)

• • ● • •

۞ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

• • ● • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخبِرْنِي ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿مَآ﴾ اسْتِفْهَامِيَّة بِمَعْنَى أَيّ شَيْء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فِي دَفْع الْعَذَاب أَوْ تَخْفِيفه، أَيْ لَمْ يُغْنِ].

قال المفسِّر: [﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي]، والخطابُ ليسَ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل لِكُلِّ مَن يَتَوجَّهُ إليه الخِطاب.

قال: ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ قال المُفَسِّر: [منَ العذابِ، ﴿مَآ﴾ استفهامية بمَعْنى أي شيْء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فِي دَفْع الْعَذَاب أَوْ تَخْفِيفه، أَيْ لَمْ يُغْنِ]، يقول الله تَعالَى: أَخْبِرْني أَيُّها المخاطَب إنْ مَتَّعنا هؤُلاءِ سِنينَ وأَمهلناهم ولم نُعاجِلْهُمْ بالعُقوبةِ حتى بَلَغوا غايةَ المُتعة في هذه الدنيا ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون ماذا يَنْفَعُهُمْ هذا التَّمْتِيع؟ فهو في الحَقِيقَة لا يَزيدهم إلّا حسرةً والعياذُ باللهِ، وإلّا زيادة في العُقوبةِ في النارِ؛ لأنه كلَّما كَثُرَتِ المعاصي في الإِنْسان ازداد عُقوبةً.

وهذا مَثَلٌ في الحَقِيقَة يُطبَّق على كلِّ مَن قال لنا: إن هؤُلاءِ الكَفَرَة قد أنعمَ اللهُ

عليهم وفتحَ عليهم الدنيا، فالأمطارُ تأتيهم كلَّ وقتٍ، والأَرْضُ مُخَصَّبَة، فنقول له: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾؟!

ونقول: إنَّ هذا أشدّ في وَقْعِ العذابِ في قُلوبهم؛ لأن الإِنْسانَ الذي يُنَعَّم في رَغَدٍ مِنَ العَيْش بهناءٍ وطُمأنينة إذا أُخذَ فهو أشدّ منَ الَّذي يُؤخَذ على بَأْسِهِ، بل الذي في البأساءِ والضرَّاء قد يَرَى أن الموت أريحُ له، أمّا المأخوذُ -والعياذ بالله- على شِدَّة النِّعمة وقوَّتها فهو أشدّ.

وقد ذُكر عنِ ابنِ حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القُضاة في مِصْر، أنَّه كان يَمشي بموكبه، وعلى يمينه ويَسَارِهِ النَّاسُ والخَدَمُ، فمرّ برجلٍ زَيَّات يَهُودِيّ كله وَسَخٌ مِنَ الزَّيتِ، فأوقفه الْيَهُوديّ وقال له: إن نبيَّكم يقول: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(١)، وأنتَ مؤمنٌ وأنت في هذا النَّعيم، وأنا يهوديٌّ وأَحْيَا فيما ترى منَ الفقر والعذابِ؟! فقال له ابن حَجَر: نعم صَحِيح، لكن ما مُتِّعْتُ به مِنَ النِّعمة هو بالنِّسبة إلى نَعيم الآخرةِ سِجنٌ، وما أنتَ فيه مِنَ البَأْسَاءِ هو بالنِّسبةِ إلى عَذابِ الآخِرَةِ نَعيمٌ وجَنَّةٌ(٢).

فالحاصل: أن هؤُلاءِ إذا مُتِّعُوا طَوِيلًا في الدُّنيا ونعيمها ثم جاءهمُ العذابُ فإِنَّه لا يُغْنِي عنهم هذا المتاعُ شَيئا.

وقَوْلُهُ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ لك أن تقولَ: إنَّ (ما) هنا نافيةٌ، ولك أن تقول: إنها استفهاميَّة بمَعْنى النفيِ، والأبلغُ أن تكون استفهاميةً بمَعْنى النفيِ؛ لأن الاسْتِفهامَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).
(٢) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

الَّذي بمَعْنى النفي يَتَضَمَّن النفيَ وزيادةً؛ إذ إنه مُشْرَبٌ مَعْنى التحدِّي.

وقَوْلُهُ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ يَعْنِي: يَتَحَدَّاهم أنْ يُغْنِيَ عنهم شيئًا، فإذا كَانت (ما) صالحةً للنفيِ والاسْتِفهامِ، حُمِلت على الاسْتِفهامِ أَولى وأبلغُ؛ لأنه يدلُّ معَ النفيِ على زيادةِ المَعْنى والتحدِّي.

• • ۞ • •

الآيتان (٢٠٨، ٢٠٩)

• • ● • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

• • ● • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رُسُل تُنْذِر أَهْلَهَا، ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ عِظَة لَهُمْ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فِي إِهْلاكِهِمْ بَعْدَ إِنْذارِهِمْ، وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ المُشْرِكِينَ].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رسل تنذر أهلها]، وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ صفة لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾، يَعْنِي: ما أهلكناها إلا في هذا الحالِ، يَعْنِي: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾.

وهل المُراد أن الله تَعالَى يُنْذِر على ألسنةِ رسلِه؟ يَعْنِي: إلَّا ونحن لها مُنْذِرُونَ؟ أو أن: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يَعْنِي: رسل تُنْذِر؟

يقول المُفَسِّر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يَعْنِي: رسل تُنْذِر. يَعْنِي: إلَّا ولها رُسُل تُنْذِرها، ولكنها مِنْ قِبل اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ قال المُفَسِّر: [عِظَة لهم]، يَعْنِي: إننا نُرسِل هؤُلاءِ المنذِرينَ لأجلِ الذِّكْرَى، يعنى: المَوْعِظَة لهؤُلاءِ.

قال المُفَسِّر: [﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم]، وهذا صَحِيح، ويَحتمِل: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مُهْلِكِينَ بدون إنذارٍ، والمَعْنى صَحِيح على هذا الوجهِ وعلى الوجهِ الَّذي ذكرَهُ المُفَسِّر؛ فاللهُ تَعالَى إذا أَهلكهم بعدَ إِنذارهم وقد عَصَوْا، فهو لم يَظْلِمْهُمْ، وكذلك لا يمكِن أنْ يُهْلِكَ مَن لا يُنْذَر؛ لأن ذلك ظُلْمٌ.

فوائد الآيتينِ الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ الشرائعَ لا تُلْزَم إلَّا بعدَ العِلْم، وأنه ما دامَ الإِنْسان غيرَ عالمٍ بالشرعِ؛ فإِنَّه لا يُكَلَّف به، ولهذا شواهِدُ:

منها: قِصَّة المُسِيءِ في صَلاتِه؛ فإن الرَّسُول ﷺ لم يُلْزِمْه بقَضاءِ ما فاتَه[1]؛ لأنه ما علِمَ.

ومنها: المرأةُ الَّتي كَانَتْ تُسْتَحَاض فلا تُصَلِّي، فما أمرها النَّبيّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَضاء[2].

ومنها: حديث عَدِيِّ بنِ حاتمٍ، حيثُ أَكَلَ بعدَ طُلوعِ الفجرِ[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك، رقم (١٠٩٠).

إلى غير ذلك أشياء كَثِيرَة من هذا، إلا أنه قد يُلْزَم الإِنْسانُ بالشيْء إذا كَان مُفَرِّطًا مُهْمِلًا، مثل لِو انقدحَ في ذِهنه أو قيل له: إن هذا الشيْء واجبٌ، ولكنه قال -كما يقول العامَّة-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]، لا تُفَتِّش، غدًا يقول لك: هذا واجبٌ ويُحْرِجُونَني، أو هو يفعل شيئًا وانقدحَ في ذِهنه أنه حرام، أو قيل له: إنه حرام، وقال: لا، أخافُ إنْ سألتُ العُلَماء أن يقولوا: هذا حرامٌ، فهذا لا يُعْذَر؛ لأنه ليسَ بغافلٍ، واللهُ تَعالَى يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١]، يَعْنِي: ما طرأ على بالِهِم شيْءٌ، ولا يَعْلَمُون شيئًا، وأما الإِنْسان الَّذي طرأ على بالِهِ لكنه فرّطَ في ترْكِ السُّؤالِ، فهذا يَنبَغي أن يُلْزَم.

فإن قيلَ: بعض العوامّ صَعْبٌ أن يَتغَيَّروا، فهل نُعْطِيهم العلمَ؟!

قلنا: أَعْطِه العِلْمَ، قُلْ له مثلا: إذا قمتَ للصلاةِ فكبِّر، ثمّ اقْرَأْ فاتحةَ القُرآنِ، ثم ما تَيَسَّر منَ القُرآن، وعلِّمه ما يَلْزَمْه، فكون اللهِ يُنْعِم عليك بالعلمِ أشدّ تَبِعَةً منَ المالِ، فالعلمُ أشدُّ تبعةً؛ لأنه في الحَقِيقَةِ نشرٌ للرِّسالَةِ، وتبليغٌ لِشريعة اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إشارة إلى إمكَان الظُّلْم، ولكنه مُستحيلٌ شَرعًا، لا لِذَاتِه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادرٌ على أنْ يعذِّب المطيعَ، وإنْ أطاعَ، فهذا ليس مُستحيلًا، ولكنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى منزَّه عنه لكمالِ عدلِهِ.

وهذا فيه الردُّ على الجَهْمِيَّة، الَّذينَ يقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَستحيل في حقِّه الظلم، يَستحيلُ لذاتهِ، ومُحالٌ لذاته.

وعلى رأيِهِم يَصير لا مَعْنى لقولِه تعالى في الحديث القُدُسِيّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي

حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[١]، فلا يصير فيه مدحٌ لأنَّ الظُّلْمَ -على مُقتضَى قولِهم- مُحالٌ لِذاتِهِ، والمحالُ لذاتِه لا يُمْدَحُ اللهُ به؛ إذِ المُحالُ به غير واقعٍ، ولا يكون لقولِهِ تَعالَى في الحديثِ القُدُسِيّ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**» معنًى.

فالصَّوابُ أنَّ الظُّلم من الأمور المُمْكِنة لكنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى منزَّه عنه.

• ● ❁ ● •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيات (٢١٠- ٢١٢)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

• ● ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ يَصْلُح ﴿لَهُمْ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذَلِكَ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لِكَلَامِ المَلَائِكَة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ بِالشُّهُبِ].

قد يكون ما قاله المُفَسِّر حقًّا من أنَّ هذا ردٌّ لقولِ المشركينَ، وقد يكونُ هذا من تكميلِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣]، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: [بالقرآنِ ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ يصلح ﴿لَهُمْ﴾ أن ينزلوا به، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك]، أي أن الشياطينُ ما تنزلتْ بالقُرآنِ، بخِلاف أقوالِ الكهَّان، فإن الشياطينَ تَنَزَّلَتْ بها، أمَّا القُرآنُ فما تنزلَّتْ به الشياطين.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ يَعْنِي ما يَليق أبدًا أن يَنزِلوا به، ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وهذا تدرُّج، يَعْنِي ما يمكِن أن ينزِلوا بالقُرآنِ.

فهو أوَّلًا قال: إنَّهم ما نَزَلوا، وكونهم ما نَزلوا ما يدلُّ على أنَّ هذا غيرُ لائقٍ بهم، ثم إنه غير مُمكِن في حَقِّهم. فهذا فيه ترتيبٌ:

أوَّلا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ نفيٌ لِتَنَزُّلِهم به، لكن لا يَنفي أن يكونَ مُمكِنًا في حقِّهم،

ولا أن يكون لائقًا في حقِّهم.

ثانيًا: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾ فهذا يَعني أنه غيرُ لائقٍ أنْ يَنزِلوا به.

ثم ارتقَى إلى ما هو أعظمُ فقال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أن ينزِلوا به؛ لأنَّهم عنِ السَّمْعِ لَمعزولُون، مَعْزُولون قَدَرًا وشَرْعًا.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القُرآنَ تَفِرُّ منه الشياطينُ، وأنه لا يمكِن أن تقْرَبَه، وقد أخبرَ النَّبيّ ﷺ في بعض الآياتِ أنَّها تَطْرُدُ الشياطينَ؛ كما في البَقَرَة(١) وفي آية الكُرْسِيّ(٢) وما أشبهَ ذلك.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ ﴾ لِكَلامِ الملائكةِ ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴾ بالشُّهُب]، على قولِ المُفَسِّر يكونُ المُرادُ هنا بـالسَّمْع سَماع الملائكةِ بالوحيِ.

وهم مَعْزُولون عنه، لا يُمْكِن أن يَقْرَبوا منه، قال المُفَسِّر: [بالشهب]، يَعْنِي هذه الشهب الَّتي تَرْمِيهم تَطْرُدُهم عنِ استراقِ السمعِ، فلا يَسْتَطِيعون أنْ يَسْتَرِقُوا السَّمْعَ، ولا أن يأتوا به، رُبّما يُدْرِك الكلِمة أحيانًا قبلَ أنْ يُدْرِكَه الشِّهاب فتنةً منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيأخذ الكلمة ويُضيف إليها عشراتِ أو مئاتِ الكَلِماتِ من عنده، فإذا وافقَ واحدٌ بالمائةِ صَدَّقه النَّاسُ في التسع والتسعينَ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الإِنْسانَ كلَّما انقادَ للشيطانِ ابتعدَ عن فَهْم القُرآنِ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾؛ لأنَّهم شَياطِينُ، فمَن كَان شيطانًا -والشيطانُ مِن بني آدمَ هو الَّذي يَتَلَقَّى ما تأمرُه الشياطينُ به- فإنَّه يُعْزَل أيضًا عن فَهْم القُرآن.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، رقم (٥٠١٠).

الآية (٢١٣)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ إنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوْكَ إليه].

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخِطاب للرسولِ ﷺ، ولا يَلْزَم منَ النهيِ عنه إمكَانُ وُقُوعِه، كما أنَّ الله تَعالَى يأمرُ المُؤمنينَ بالثَّبات على الإيمانِ، ويَنهاهم عنِ الشِّرْكِ وهو لم يَقَعْ منهم.

والدُّعاءُ هنا يَشمَل دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العِبادَة.

دعاء المسألة: مثل ما يقولَ لغيرِ الله: يا فلانُ أَعْطِني، يا فلان ارْزُقْنِي، وما أشبهَ ذلك، شخصٌ وقفَ عندَ قبرِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: يا رَسُولَ اللهِ، ارزقني، يا رَسُول الله، هَيِّئْ لي زوجةً، يا رَسُول اللهِ، أَعْطِني ولدًا، فهذا شِرْكٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عنِ المِلَّة.

دعاءُ العِبادَة: أنْ يقفَ عندَ قبرِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويعبُدُ النَّبيَّ، ويركَع له ويسجدُ له، وما أشبه هذا.

والنهيُ عنِ الدُّعاءِ معَ اللهِ إلى آخرَ شاملٌ للنوعينِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ الفاءُ للسببيَّة، ﴿فَتَكُونَ﴾ أي: إنْ دعوتَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، ولم يَقُلْ: مُعَذَّبًا، أو: ستُعَذَّب؛ إشارةً إلى أنَّ المشركينَ الكفَّار كثيرونَ، والذي يدعو معَ الله إلهًا آخَرَ يكون منهم.

• • ۞ • •

الآيات (٢١٤- ٢١٦)

• • • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٦].

• • • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبِ، وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ جِهارًا، رَواهُ الْبُخارِيّ[1] وَمُسْلِمٌ[2]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُوَحِّدِينَ، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ عِبادَة غَيْرِ اللهِ].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم جماعاتٌ من بني المطَّلب، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد أَنْذَرَهُمْ جِهارًا، رواه البخاريُّ ومسلمٌ]، وهذا في أوّل الدعوة، أُمِر أنْ يُنْذِرَ عَشيرته الأقربينَ؛ لأنَّهم أحقُّ النَّاسِ بِبِرِّه، ولأنَّهم بِمُقْتَضى القَرابة، لا بِمُقتضى الواقعِ، أقربُ النَّاسِ إلى الإيمانِ به، ولأنَّهم أيضًا بمقتضى القرابةِ هم أشدُّ النَّاسِ غَيْرَةً عليه، ولأنَّهم أيضًا بصِلة القرابةِ هم أعظمُ النَّاسِ حقًّا عليه.

فلذلك الإِنْسان مسؤولٌ عن أهلِهِ أكثرَ مما هو مسؤولٌ عنِ الأجانبِ، ومسؤولٌ عنِ القُرْبَى أكثر مما هو مسؤولٌ عمَّن هو ممَّن ليس بينه وبينه قرابةٌ.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٤٧٧١).
(٢) كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ اسمُ تفضيلٍ، فيَقْتَضِي أنه ما دام أنَّ الحُكم مُعَلَّق بالأقرب، أنه كلَّما كَان أقربَ كَان أَولى وأحقَّ.

وقول المُفَسِّر: [هم بنو هاشم وبنو المطَّلِب]، هذا ليس بصَحِيحٍ؛ إذْ لَيسوا كلّهم منَ الأقربِ، على أنَّ مِنهم من هو من الأقربِ بلا شَكّ، ومنهم مَن أجابَ ومنهم مَن لم يُجِبْ، وقدِ امتنعَ عنِ الإجابةِ عمُّه أبو لَهَبٍ، وهو من أقربِ النَّاسِ إليه؛ لأن «عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»[1]، وامتنعَ عن الإجابةِ عمُّه أبو طالبٍ أيضًا، وهو صِنو أبيه، لكنَّ عمَّه أبا طالِبٍ وَالَاهُ وناصَرَهُ، وعمه أبو لَهَبٍ عاداه وخَذَلَهُ، والعياذ بالله. وقد صار أمامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

١- قِسْمٌ آمَنَ به.

٢- وقسم نصَره ولم يؤمنْ به.

٣- وقسم لم يؤمنْ به ولم يَنْصُرْه.

وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم لو نَاصَرُوه كلُّهم وآمنوا به، لقِيل: هذا رجلٌ يريدُ المُلْك والسِّيادة، ولهذا تَبِعَهُ أقاربُه، وهم متَّفِقون على هذه الخطَّة، ولكن من حِكمة الله أن الله تَعالَى قدّمهم هذا التقديمَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّه يجب على الإنْسانِ أنْ يُرْشِدَ ويَعِظَ الأقربَ منه فالأقرب، وهو مسئولٌ سُؤالًا مباشِرًا بالنِّسبةِ إلى أهلِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَلِنْ جَانِبَكَ، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحِّدين]، والإنذارُ لِلْعَشِيرة، وخَفْضُ الجَناحِ للمؤمنِ، سواء كَان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

من عشيرتِهِ أو ليسَ من عشيرتِهِ.

ففي هذا دليلٌ على أَنَّه يَجِبُ على الإِنْسانِ أَلَّا يَتَعاظَم على أحدٍ، لكن بالأخصّ للمؤمنِ، وأن يُلِينَ له جانبًا، لكن غير المؤمن لا يُلِين له جانبًا.

فإن قيل: كيف نقولُ: لا يُلِين للكافرِ جانبًا، بينما يقول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤]؟

قلنا: الآيةُ يُرادُ بها جانِبُ الدَّعوة.

وقَوْلُهُ: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ تحقيقَ الإيمانِ إنَّما يكونُ في اتِّباع الرَّسُول ﷺ؛ لأنه لَـمَّا قالَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، فهو إذَا أنذرَ إمَّا أنْ يُتَّبَعَ وإمَّا ألّا يُتَّبَعَ.

قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ قال المُفَسِّر: [عَشِيرَتُك]، والأصحُّ هم أو غيْرُهم، قال: [﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن عِبادَة غيرِ اللهِ]، ولم يقلْ: «بريء منكم»؛ لأنه لو قال: «مِنكم» لكَان هذا أشدَّ صدمةً، ولاحتملَ أن تكون هذه براءةً شخصيَّةً، وأيضًا يَحْصُل منهم النفورُ عن العملِ، لكنه لما قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عَرَفُوا أن السَّبَبَ في البراءة العملُ، ولربما يكون ذلك سببًا لِئَنْ يَرْتَدِعُوا عنه، ولأجلِ أنْ يَنالوا الوَلاءَ دُون البَرَاء.

• • ❁ • •

الآيات (٢١٧- ٢٢٠)

• • ● • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ[1] ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اللهِ، أَيْ: فَوِّضْ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِكَ، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إِلَى الصَّلَاةِ، ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المُصَلِّينَ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو والفاء]، وهذه من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ؛ لأن الغالبَ في القِراءَةِ أنْ يكونَ الخِلاف في صفةِ الكلمةِ أو في الحرفِ، ليسَ في ذاته أو عينه، لكن هذا قد يأتي أَحيانًا في ذاتِ الحرفِ، وأحيانًا أيضًا بإسقاطِ الحرفِ من عَدَمِهِ، في قوله تَعالَى في سُورَة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٥-١١٦]، في قِراءَة بإسقاط الواو: (قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ)[2]، وهذه من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ، فالقِراءَةُ قد تكونُ في نوعِ الحرفِ، وفي وُجودِ الحرفِ، وفي شكل الحرفِ، وأكثرُها في شَكْلِ الحرفِ وهَيْئَتِهِ؛ يُمَدّ أو لا يُمَدّ، يُفْتَح أو يُضَمّ.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢٢).

(٢) حجة القراءات (ص:١١٠).

والتوكُّل: هو الاعتمادُ على اللهِ معَ الثِّقَةِ به في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارّ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الله، أي: فَوِّضْ إليه جميعَ أمورِكَ]، ولم يَقُلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «على الله» بل قال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ المقامَ يَقتضيه؛ يَقتضي عِزَّة في مقابلِ المكذِّبين له، ورحمةً في مقابلِ قيامِه بواجبِ الإنذارِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاةِ]، بعضُهم يقولُ: حينَ تقومُ مِن مَنامِكَ، ولكن هذا المَعْنى الَّذي ذكرَه المُفَسِّر أعمُّ، وقيل: إنَّ المَعْنى: حينَ تقومُ في شُئُونِكَ منَ الإنذارِ وغيرِ الإنذارِ، يَعْنِي: يَرَاكَ حينَ تقومُ مُنْذِرًا، ويراكَ حين تقومُ مُصَلِّيًا، ويراك حين تقوم صَائمًا، وحين تقوم حَاجًّا، وفي جميعِ الأحوالِ، يَعْنِي: حِينَ تَقُومُ إلى عِبادَة الله.

ويَرَاكَ أيضًا حين تَقَلُّبَكَ ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال المُفَسِّر: [المصلِّين]، أي: في جُمْلَتِهِم، وهذا المَعْنى الأخيرُ أعمُّ منَ الجميعِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تَقصَّد الصلاةَ؛ لأنها أصلُ العباداتِ البدنيَّة.

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ؛ لِبَيَانِ أنه معَ رُؤْيَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو أيضًا سميعٌ عليمٌ.

إذنِ اجتمعَتْ ثلاثُ صِفاتٍ: الرؤيةُ، والسمعُ، والعلمُ.

الآيات (٢٢١- ٢٢٣)

• • ● • •

۞ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يا كُفَّار مَكَّةَ ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْل، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كَذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فَاجِرٍ، مِثْل مُسَيْلِمَة وَغَيْرِه مِنَ الْكَهَنَةِ، ﴿يُلْقُونَ﴾ الشَّيَاطِينُ ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَة إِلَى الْكَهَنَة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ يَضُمُّونَ إِلَى الْمَسْمُوعِ كَذِبًا كَثِيرًا، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمَاءِ].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ هذا كلُّه يدورُ حولَ قولِ الكفارِ: إن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَان كاهنًا، والكاهنُ مَن تنزَّل عليه الشياطينُ، وهذا القُرآنُ تنزيلُ ربِّ العالمينَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠]، فبيّن اللهُ بعد ذلكَ بهذا الاسْتِفهامَ للتشويقِ، أو لإقامةِ الحجَّة والتحدِّي، يَعْني: إنّ الشياطين إنَّما تَنزِلُ ليسَ على مثلِ الرَّسُولِ ﷺ الصادقِ الأمينِ، البعيد عن الفَحشاء، إنَّما تَتنزَّل ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾.

وإتيانُ الكَلامِ بمثلِ هذه الصيغةِ -استفهام ثم خَبَر- أبلغُ في رُسُوخه في القلب.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَّاكٍ﴾ كذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾]، و﴿أَفَّاكٍ﴾ هذه للنسبةِ والمُبالغةِ أيضًا، أي: كثير الإفك، والإفكُ بمَعْنى الكذِب، والأثيمُ بمَعْنى الآثِم، أي: الجامع بينَ سُوءِ القولِ وسُوء العملِ.

وقول المُفَسِّر: [مثل مُسَيْلِمَة وغيرِه منَ الكَهَنَة]، هذا تمثيلٌ، أي مثل كذا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُلْقُونَ ﴾ الشياطينُ، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ ما سمِعوه منَ الملائكةِ إلى الكهنةِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾]، الضَّمير في ﴿ يُلْقُونَ ﴾ يعودُ على الشياطين، و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ أي: المَسْمُوع، وهو مصدرٌ بمَعْنى اسمِ المفعولِ. يُلْقُونه على الكهنةِ، فيأخذون منَ السمعِ ما أخذوه، ولكنهم يَزيدون إلى هذا كذباتٍ كَثِيرَةً، ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ قال المُفَسِّر: [يَضمُّون إلى المسموعِ كَذبًا كثيرًا، وكَان هذا قبلَ أنْ حُجِبَتِ الشياطينُ منَ السماءِ].

وكَانت الشياطينُ قبلَ بَعثةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَستمِع إلى شيْءٍ منَ السماءِ، ولكنها حينَ البعثةِ صاروا لا يَستمِعون؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩]، لا يَستَطِيعون، فلو قَعَدوا مقاعدَهم كما كانوا يَقعدُون أوَّلًا لِيَسْتَمِعوا أَتَتْهُمُ الشُّهُبُ.

وهل هذا انقطعَ بانقطاعِ الوحيِ؛ لأن الحكمَ يدورُ معَ عِلَّتِه، أم بَقِيَ؟

الظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- انقطعَ بانقطاعِ الوحيِ؛ لأنه في ذلك الوقتِ مُنِعَتِ السماءُ مِنَ الشياطين، أما بعدَ ذلك فإنَّها لا تُمنَع، ولكن قد تُمنَع أحيانًا بما نرى من الكثيرِ منَ الشهبِ.

الآيات (٢٢٤- ٢٢٦)

• • ❊ • •

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦].

• • ❊ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فِي شِعْرِهِمْ فَيَقُولُونَ بِهِ وَيَرْوُونَهُ عَنْهُمْ فَهُمْ مَذْمُومُونَ، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَم ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ مِنْ أَوْدِيَة الْكَلَام وَفُنُونه ﴿يَهِيمُونَ﴾ يَمْضُونَ فَيُجَاوِزُونَ الحَدَّ مَدْحًا وَهِجَاءً، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فَعَلْنَا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يَكْذِبُونَ].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ مناسبةُ ذِكر هذا أنّ كفّار قُرَيْش عارَضوا النَّبيّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بأنه كاهِنٌ، وعارَضوه بأنه شاعرٌ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، فنفى الله تَعالَى أن يكونَ كاهنًا بما سبقَ، ثم قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: في شِعرهم، فيقومونَ به ويَرْوُونه عنهم، فهم مذمومونَ، سواء الشُّعراء أو الغُواة الَّذين يَتَّبِعُونَهم.

فإِنَّه لا يَتَّبِعُ الشعرَ غالبًا إلا الغواةُ، فهو باطلٌ، وهذا القُرآنُ ليس كذلك، هذا القُرآنُ لا يتبعه إلا أهلُ الرُّشْدِ والسَّدادِ، فدَلَّ ذلك على أنه ليسَ بالشعرِ؛ لأن الغالبَ أن الشعرَ لا يَتَّبِعُه إلّا الغاوونَ.

والشعرُ المذمومُ هنا هو الذي لم يُؤْخَذ منَ الكتابِ والسنَّة؛ فإنْ أُخِذ من

الكتابِ والسنّة فإنَّه يَتَّبِعُهُ الراشدُ، مثل بعض القصائدِ الَّتي نَظَمَها أهلُ العِلْم والإيمانِ، فهذا لا يُعْتَبَر شِعرًا يَتَّبِعُهُ الغاوونَ.

قال: [﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أوديةِ الكَلام والفنونِ، ﴿يَهِيمُونَ﴾ يمضون فيجاوِزون الحدّ مدحًا وهجاءً]، هذا صَحِيحٌ، فحالُ الشعراءِ: شاعرٌ يقولُ ما لا يَستَطِيعُ أنْ يَمْلِكَ نفسَه فيه؛ لأنه يبالغُ في المدحِ، ويبالغُ في الذمِّ؛ لأنه -بإذنِ اللهِ- كَأنَّه يتكَلَّم من غير شعورٍ، وإنْ كَان يُوصَف الشِّعرُ بأنه يأخذُ في الشُّعور، لكن الشَّاعِر يتكلَّم من غيرِ شُعورٍ.

والمُرادُ بالشعراءِ غيرُ الَّذينَ آمَنُوا وعمِلوا الصَّالِحات، ولهذا استثنى فيما بعدُ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وقول المُفَسِّر: [﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فعلنا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يَكْذِبون]، فيه نظرٌ، لكن: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فيما إذا امْتَدَحُوا أو هَجَوْا، فيقولون: نحنُ نفعلُ كَذا وكَذا إذا كَانوا يريدونَ أنْ يَتقَرَّبُوا إلى الشخصِ، ونحن نَخْدُمُكَ، ونحنُ نُواسيكَ بأنْفُسِنا، ونَفديك بأهلنا، وما أشبهَ ذلك. لكنهم لا يَفعلون هذا؛ لأنَّهم غُواةٌ، وغيرُ راشدينَ.

كذلك أيضًا: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، فيقولون في هِجَاءِ عَدُوِّهِم: نحن لا نَخشاهُ، ونحن سَنُيَتِّمُ أولادَهُ، ونحن سَنُرَمِّلُ نِساءَه، وما أشبهَ ذلك، وهم لا يَفعلون ذلك.

فيُمْكِن أنْ يَصِيرَ الشَّاعِرُ الَّذي يُغَيِّر الأُمَّة بِشِعْرِهِ في الخلفِ، فلا يكون في المقدِّمَةِ عندَ التقاءِ الصَّفَّيْنِ.

• • ۞ • •

الآية (٢٢٧)

• ● ● •

۞ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

• ● ● •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الشُّعراء ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لَمْ يَشْغَلهُمُ الشِّعْرُ عَنِ الذِّكْر ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ بِهَجْوِهِمُ الْكُفَّار ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بِهَجْوِ الْكُفَّارِ لَـهُمْ فِي جُمْلَة الْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسُوا مَذْمُومِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النِّساء:١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مِنَ الشُّعَراء وَغَيْرِهِمْ ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ مَرْجِع ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يَرْجِعُونَ بَعْد المَوْت].

قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هذه أربعةُ أوصافٍ: الإيمان، والعملُ الصَّالحُ، وذِكر اللهِ كثيرًا، وهذا يشيرُ إلى أنَّ الشَّاعِر يَقِل ذِكرُه لله، فما امتلأَ قلبُه منَ الشعرِ إلَّا بَعُد عنه ذِكرُ الله.

قال ابن القيِّم[1]:

حُبُّ الكِتَابِ وحُبُّ أَلحَانِ الْغِنَا ... في قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية، فصل في سماع أهل الجنة، ص٣٢٦، ط. مكتبة ابن تيمية.

والصِّفَة الرابعةُ: ﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ يَعْنِي: لِأَنْفُسِهِم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩]، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ إمَّا بهجاءِ الكفارِ لهم إذا كَان شاعرًا مقابلَ شاعرٍ، أو باعتداء الكفارِ عليهم أيضًا.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ منَ الشُّعراء وغيرهم، ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ مَرْجِع، ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يَرجعون بعدَ الموتِ]. وهذه الجُملةُ فيها من التهديدِ ما لا يَخفى، يَعْنِي أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ سَيَعْلَمُونَ عن قُربٍ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ يكونُ انقلابهم، وهو المَرْجع إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا تهديدٌ بيِّن للظالمينَ.

والظُّلْم مَرْتَعٌ مُبْتَغيه وَخِيم، فالظلمُ من أقرب ما يكونُ في معاجلةِ العُقوبةِ، لا سِيَّما إنْ دعَا المظلومُ على ظَالِـمِهِ؛ فإن الأمرَ يكونُ إليه سريعًا.

ثم إنّ الظُّلم نوعانِ:

أحدهما: ظُلم مُتَعَدٍّ للغيرِ.

الثَّاني: ظُلْمٌ للنفْسِ.

فإنْ كَان في مَعصيةِ اللهِ فهو ظُلْمٌ للنفسِ، وإنْ كَانَ فيه الاعتداءُ على الغَيْرِ، فهو ظُلْم للغيرِ، كما لو أخذَ مالَه أو أفسدَ عليه شأنَه؛ فإن هذا منَ الظُّلْم المتعدِّي، واللهُ أعلمُ.

• • ۞ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ؛ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ»	٧
«إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ»	٢١
«إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»	٣٣، ١٢٦
«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»	٣٨
«أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»	١٠٦
«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»	١١٤، ٢٣٤
«لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»	١١٦
«أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»	١٢٨، ١٨٣
«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»	١٦٣
«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»	١٦٧
«إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»	١٦٨
«وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»	١٨٦
«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»	١٩١

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»........ ٢٠٥
«اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»........ ٢٠٥
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»........ ٢٢٣
«لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»........ ٢٢٣
«خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»........ ٢٢٩
«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»........ ٢٢٩
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»........ ٢٥٥
«لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»........ ٢٧٢
«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»........ ٢٩٢
«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»........ ٢٩٥
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»........ ٣٠٠
قصة المسيء في صلاته........ ٢٩٨

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
التَّسميةُ للسُّوَرِ منها شيْءٌ تَوْقِيفِيٌّ منَ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومنها شيْء اجتهادِيٌّ	٧
قد يكونُ للسورةِ عِدَّةُ أسماء	٧
سُورةَ بني إِسْرَائِيلَ	٧
الاستثناء لَيْسَ بمقبولٍ إلَّا إذا دلّ الدَّليلُ عليه	٨
وتقسيم الآيَات أيضًا توقيفيٌّ	٩
البَسْمَلَة	٩
الحروف الهِجائيَّة	١١
﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمَعْنى: المكتوب	١٤
كلُّ آيةٍ منْ هَذِهِ الآيَاتِ فيها إعجازٌ	١٥
أَبَانَ تُستعمل قاصرةً ومُتَعَدِّيَةً	١٥
كلَّما جاءتْ (مُبين) فِي القُرآنِ إنْ أمكنَ أنْ تُفَسَّرَ بالإبانةِ	١٥
ترك المفعول فِي قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لإفادة الْعُموم والشُّمولِ	١٦
ما خفي عَلَى أحدٍ منَ النَّاسِ ما خفِيَ من الأحكامِ، إلا لِقُصُورٍ فِي فَهمهم، أو فِي عِلمهم، أو فِي إرادتهم	١٦
يقول قائل: إننا لا نجد كل شيْء فِي القُرآن	١٧
القُرآنَ أتى بتِبيانِ كلِّ شيْءٍ عَلَى الْعُمومِ، والسنَّة أنزلها اللهُ عليه ﷺ لِتُبَيِّنَ للناس موضوعَه	١٧

قصةٌ عن الشيخ مُحَمَّد عَبْدُه معَ رجلٍ نَصرانيّ........................ ١٧
التِّبيان فِي القُرآنِ ١٨
منَ المذاهب الباطلةِ: «مَذْهَب أهل الصرفة» ١٩
(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليلِ وتكون للتَّرجِّي ٢٠
الْإِنْسَان الداعيَة لا يَنبغي أنْ يُهْلِكَ نفسَه فِي الهَمِّ والغَمِّ لعدم قَبُولِ النَّاسِ للحقِّ..... ٢٠
«عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» ٢١
قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هل المُراد بِهَا السَّقْف أم المُراد بِهَا العُلُوّ؟ ٢٣
أن الأَسْبابَ مؤثِّرة.. ٢٤
إِثْبات الحكمةِ ٢٤
هل تَدُلُّ الآيَةُ عَلَى أنَّ الله فِي السَّماءِ؟ ٢٥
هل يدل تنكيرُ الآيةِ عَلَى عَظَمَتِها؟ ٢٥
سُمِّيَ القُرآنُ ذِكرًا لِأَنَّ بِهِ التذكُّرَ والتَّذكير.. ٢٦
أن نزولَ هَذَا القُرآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ اللهِ........................ ٢٧
الصِّفَة الكاشفةُ ٢٧
أن المحدَثَ هُوَ الذِّكر نفسُه.. ٢٧
رُوي عنِ ابنِ عبَّاس- أَنَّهُ نزل إِلَى بيتِ العِزَّة منَ اللَّوح المحفوظ ٢٧
الصِّفَة السَّبَبيَّة ٢٨
مراعاة الفواصلِ.. ٢٨
الإِعْراضُ معنويٌّ وحِسِّيٌّ ٢٩
التَّكذيب ببعض الآيَاتِ ٣٠
التَّكذيب بالشَّيْءِ الحَقِّ نوعٌ منْ الاستهزاء به ٣١

زيادةَ المَبْنَى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى ٣١
الرُّؤْيَة الحِسِّيَّة.. ٣٢
الرؤية العِلمية ٣٢
قوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٣
الدَّلَالَةُ عَلَى الحِكْمَةِ البالغةِ ٣٤
(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ.. ٣٥
لا يَنتفعُ بالآيةِ إلَّا المؤمنُ ٣٥
إنَّ العِزَّةَ تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ ٣٦
أن العزيزَ الَّذِي يَرَى نفسَه قاهرًا فِي الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ ٣٧
قِصّة مُوسَى ٣٨
بدأ الله تعالى بذِكر قصصِ الأنبياءِ مقدِّمًا ذِكْرَ قصة مُوسَى؛ لِطُولها ولأهميتها........ ٣٨
(أن) تفسيريَّة.. ٣٩
فائدة الإبهام ثم البيان بعده.. ٤٠
﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ.. ٤١
فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الخَلْق ٤١
لا بأسَ فِي الإجمالِ فِي الكَلامِ ٤٢
ضِيق الصَّدرِ.. ٤٤
قِصَّة أَخْذ الجَمرة باطلةٌ ٤٥
جَهْلُ البَيَانِ.. ٤٦
جوازِ بيانِ الْإِنْسَانِ حالَه إذا لم يَقْصِدْ بِهِ الشكوَى ٤٦
جوازِ ذِكْر الوسائلِ الَّتِي تَسْتَوْجِب القَبولَ فِي الدُّعاء ٤٦

قتل القِبطيّ..٤٧
جوازِ الخوفِ الطبيعيّ..٤٨
انقلابَ العصا حَيَّةً ٤٩
(أجري الاثنان مجرى الجماعة)..٥٠
إِثْبات المَعِيَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٠
تفسير الإمامِ أحمدَ للمعيَّة فِي العلمِ.......................................٥١
لا تَقْتَرِنُ المعيَّة بالمشاركةِ بالمكانِ ٥١
تشجيعِ الْإِنْسَانِ فِي مهمتِه ٥٢
القاسيَ إذا قُوبِلَ بلهجةٍ قاسيةٍ قَسَا أكثرَ ٥٣
الْإِنْسَان إذا كَانَ عاتيًا جبارًا فلا ينبغي أن يُقابَلَ بالعُتُوِّ والجَبروتِ.....................٥٣
الأَصْل أن مُوسَى هُوَ الرسول...٥٤
العالَمون ٥٤
القَوْم والأَهْل...٥٥
ما الَّذِي دلَّنا أن فِرْعَوْن كَانَ يَعتقد بربوبيّة الله؟.................................٥٥
الإرسال بمَعْنى الإطلاقِ ٥٦
ذكر جَوابِ فِرْعَوْن لِمُوسَى ٥٧
الإيجازُ عندَ البلاغِيِّين مُنْقَسِمٌ إِلَى قسمينِ ٥٧
أن الصِّفَةَ إذا قُدّمت أُعرِبَتْ حالًا ٥٩
أقلُّ الجمعِ ثلاثٌ...٥٩
أن الولدَ سوف يَنْفَع ٥٩
الإبهامُ يأتي للتَّعْظيمِ أحيانًا ٦٠

(إِذًا) للمستقبَل........................ ٦١
الضَّلالُ يَنْقَسِم إِلَى قِسمينِ........................ ٦١
الضَّلالُ الَّذِي حَصَلَ أو الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حينَ قَتْلِه القِبْطِيَّ ضَلالٌ لا يُلام عليه........................ ٦٢
يَصِحّ أنْ نصِفَ المخالفينَ للصوابِ من أهلِ العلمِ بالضَّلالةِ........................ ٦٢
أَنَّ الضَّلالَ مع الاجتهاد وتحَرّي الحَقّ لا يُذَمّ عليه المرءُ وإنْ وُصِفَ به........................ ٦٢
الجهلُ الَّذِي لَيْسَ عن عمْدٍ........................ ٦٢
وُجودِ القَرينة........................ ٦٣
(لَـمّا) ظرفٌ بمَعْنى: (حينَ)........................ ٦٣
لَيْسَ فِي اللُّغة العربيَّة ما يُسَمَّى بالمَجازِ........................ ٦٤
العطفُ يَقْتَضِي المُغايَرة،........................ ٦٤
كَوْن الإِنْسَان لا يقتلُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ يقتلُ غيرَه عُدوانًا لَيْسَ بنعمةٍ........................ ٦٦
المرأةُ إذا بَقِيَتْ بدون قيِّم تضطرُّ إِلَى أن تخْدُمَ........................ ٦٧
تَرْك الظلمِ بالنِّسبةِ إليّ لا يُعَدُّ نعمةً........................ ٦٧
تأكيد الذمّ بما يُشْبِه المَدْحَ........................ ٦٨
(ما) يُسْتَفْهَم بِهَا فِي الأَصْلِ عنِ الحَقِيقَةِ........................ ٧٠
أسلوبِ الحكيمِ........................ ٧٠
إبطالِ عُبُودِيَّة فِرْعَوْن........................ ٧٠
﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾........................ ٧٣
الربوبيَّة العامَّة........................ ٧٤
كَلامٌ لَيِّن من المُفسِّر........................ ٧٤

المجنونُ: فاقدُ العقلِ ٧٦
﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ المُراد منْه الجِهة فقط ٧٧
العاجزُ عن ردِّ الحجةِ بالحجةِ يَعْمِد إِلَى القوةِ إذا كَانَ له سلطانٌ ٧٩
اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ ٨٠
المُراد بالمعبودِ ٨٠
ما فعل الحَجَّاج بِجَحْدَرِ بنِ مالِكٍ ٨١
من لُطْفِ الله ٨٢
الجُملةُ الشَّرطيَّة ٨٤
آيةُ العصا، وآية اليَدِ ٨٥
الْإِنْسَانَ لا شكّ أَنَّهُ لا يمكّن أحدًا لِيُخْرِجَهُ مِن أرضِهِ ٨٥
المُراد بالأمرِ ٨٥
المَشُورَة ٨٦
الشَّرطِ والجزاءِ ٨٨
(سَحَّار) هِيَ من بابِ المُبالَغةِ، أو هِيَ من بابِ النِّسبة ٨٨
الاسْتِفهام ٩٠
الأقباط ٩١
ضميرُ الفَصْلِ ٩١
كيف يَصِحُّ التَّوكيدُ معَ الاسْتِفهامِ ٩١
(نَعَمْ) حرف جَوابٍ ٩٤
حرف الجَوابِ إعادةٌ للسُّؤالِ ٩٤
(نعم) حرفُ جَوابٍ لُغةً وعُرفًا ٩٥

التنوين فِي (إِذًا) عِوَض.. ٩٦
السِّحر حقيقةٌ.. ٩٩
هل يُقْتَلُ العائنُ؟ ١٠٠
بِمَ يعالَج الْإِنْسَان إذا أُصيب بعينٍ؟.. ١٠٠
العَيْنُ لا تأتي إِلَّا عَلَى غَفْلَةٍ ١٠١
العَيْن مَنْشَؤُها الحسدُ.. ١٠١
الجُملةَ الاسْميَّةَ تَدُلُّ عَلَى الثبوتِ والاستقرارِ والدوامِ ١٠١
هل يؤثِّر السِّحرُ؟ ١٠٤
ربوبيَّة فِرْعَوْن ١٠٦
مراعاةِ الفواصلِ ١٠٦
الْإِنْسَان يَنسَى العاطفةَ بينه وبين أقاربِه ١٠٧
الحَقّ إذا تَبَيَّنَ كَانَ أعلم النَّاس بِهِ مَن يَعْرِف هَذَا الحَقَّ.. ١٠٧
مُبادَرَةُ السَّحَرَة إِلَى الإيمانِ.. ١٠٨
الصَّلْبُ بعدَ الموتِ أم قبله؟ ١١١
في لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العظيمُ إِلَى إيمانٍ عَميقٍ.. ١١٢
شِدَّة تَمويهِ فِرْعَوْن.. ١١٣
قوَّة إيمانِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ ١١٣
الإيمان إذا صَدَقَ صارَ أقوى من العاطفةِ ١١٣
هلِ الخطايا والسيئاتُ واحدةً ١١٤
أَنَّ السبقَ إِلَى الإيمانِ وإلى العملِ الصَّالحِ مَنْقَبَةٌ ١١٥
هل كَانَ بنو إِسْرَائِيل مُؤْمِنِينَ؟.. ١١٦

هل قتل جميع السَّحَرَة؟ ١١٦
أن السبقَ إِلَى الإيمانِ من أسْبابِ المغفرةِ والرفعةِ ١١٦
أن الإطلاقَ تُقَيِّدُهُ قرينةٌ ١١٧
الوحيُ ١١٨
(أَنْ) تفسيريةٌ ١١٨
أليسَ من الأَولى أنْ يُكَثِّرَهُمْ لأجلِ أنْ يَسْتَعِدُّوا؟ ١٢١
من المقصود بقوله: (شِرذمة)؟ ١٢١
القَصَصُ فِي القُرآنِ يكونُ من كَلام القاصِّ، يعني: من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو من كَلام المتحدِّث؟ ١٢٣
ألا تشمل (حَاذِرُونَ) كلا المعنيينِ؟ ١٢٤
صيغة العظمةِ ١٢٥
الكنوز هِيَ الأموالُ العظيمةُ الكثيرةُ من الذهبِ والفضّة ١٢٦
بيانُ عُقوبةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للطاغِينَ ١٢٧
أنَّ العُقوبةَ بعد التنعيمِ أشدُّ ١٢٧
تحذير للطُّغاة ١٢٧
أنَّ الإِنْسَانَ قد يُؤْخَذ من حيثُ يَرَى أَنَّهُ عَلَا وظهرَ ١٢٧
أورثَ اللهُ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وقومه وأموالهم بني إِسْرَائِيل؟ ١٢٨
هل كان بنو إِسْرَائِيلَ يسكنون معهم؟ ١٢٩
هل مُوسَى بعد إِبْرَاهِيم -عليهما السلام- مباشرة؟ ١٣٠
هل بنو إِسْرَائِيل خرجوا كلهم من مصر؟ ١٣٠
قولُهُ: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ١٣١

خرجَ مُوسَى وقومُه ليلًا اختفاءً ١٣٢
المُرادُ بالمعيَّة ١٣٤
قوَّة إيمانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٣٤
أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما يَهدي إِلَى الطَّريقِ المعنويّ يَهدي أيضًا إِلَى الطَّريقِ الحِسِّيِّ ١٣٥
(ضَرَبَ) لا يأتي رُباعِيًّا ١٣٦
أَنَّ البحرَ لم يَنْفَلِقْ بمجرَّد الوحيِ ١٣٦
قوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ المُراد بِهِ البحرُ الأحمرُ ١٣٧
النارُ الَّتِي من طبيعتها الإحراقُ والحرارةُ كانت بردًا وسلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم ١٣٨
ما جَرَى لبني إِسْرَائِيلَ جَرَى لهذه الأُمَّة ١٣٨
مَنِ المقصودونَ فِي قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ ١٣٩
عبادةِ الصنمِ ١٤٠
الْإِنْسَان إذا توفرتْ لديه النعمةُ قد يَختلف حالُه ١٤٠
الجدلُ لا فائدةَ فيه ١٤٢
ما المقصود بالفِرق؟ ١٤٢
ما الغرضُ من ذِكْر عهدِ أسلافهم؟ ١٤٢
أن لكلِّ شيْءٍ سببًا ١٤٣
تَفْلِيقِ الماءِ ١٤٣
ليستِ الآيةُ بإغراقِ فِرْعَوْنَ وقومِه فَحَسْب، ولكن بِفَلْقِ البحرِ، وكونه يَبَسًا ١٤٧
امرأةُ فِرْعَوْنَ ١٤٨
عِظَام يُوسُفَ ١٤٨
بإمكان فِرْعَوْن أن يعومَ فِي الماء؟ ١٤٨

من قواعدِ البلاغةِ أَنَّهُ لا يؤكَّد الكَلامُ إلَّا لِلْمُتَرَدِّد أو للمُنْكِر ١٤٩
العِزَّة والحِكمة ١٥٠
لا يكون النبأُ إلَّا فِي الأمورِ الهامّة ١٥١
(آزر) ١٥٢
قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ١٥٤
(هَلْ) للاستفهامِ ١٥٥
ما الحكمةُ فِي حذفِ المفعولِ؟ ١٥٦
إِثْباتُ البَعْثِ ١٥٩
أنَّ كلَّ إنْسانٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى الدُّعاءِ حَتَّى الأَنْبياء ١٥٩
لا ينفعُ الْإِنْسَانَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ١٦٠
فضيلةِ القلبِ السَّليم ١٦٠
أنَّ هَذِهِ الأصنامَ تُعذَّبُ وتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ ١٦١
فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النارَ ١٦٢
إِثْباتِ الجنَّةِ ١٦٢
إِثْباتِ النارِ ١٦٢
أصحاب الجَحِيمِ ١٦٢
جنودُ إبليسَ هم الَّذين يَتَّبِعُونَه ويُغْوُونَ النَّاسَ ١٦٣
أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحدًا فهو من جُنُودِهِ ولو بالاتباعِ ١٦٣
الأَصْلُ فِي العطفِ: التغايُرُ ١٦٤
مِنَ الضَّلالِ أنْ يُسَوِّيَ الْإِنْسَانُ المخلوقَ بالخالِقِ فِي العِبَادَةِ ١٦٧
طاعة وَلِيِّ الأمرِ فِي المعروفِ ١٦٧

كيف يتصوَّر أن أصحاب النارِ يَتجادلون حالَ العذابِ؟ ١٦٨
أحوالُ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا ١٦٨
دَليلٌ عَلَى نَدَمِ أهلِ النارِ نَدَمًا عَظيمًا ١٦٩
انتفاءُ التَّشْبيهِ عنِ اللهِ ١٧٠
الكفَّار الَّذينَ تَبِعُوا المُسْتكبِرِينَ لا عُذْرَ لهم ١٧١
الشَّافع: هُوَ المتوسِّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ ١٧٣
إِثْبات الشَّفاعَة للمُؤمِنينَ ١٧٤
الصَّديق: مَن صَدَقَكَ الوُدَّ ١٧٥
لو أَنَّهُم رُدُّوا هل يَرجعون؟ ١٧٧
إذا لم يَنْقَدِ الإِنْسانُ فليسَ بمؤمنٍ ١٧٨
النَّصارَى في عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٧٨
مِنْ قِصَّة إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٨٠
نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أَوَّل رَسُولٍ ١٨٢
في عَهْد آدمَ لم يكنْ حاجةٌ إلى الرِّسَالَةِ ١٨٣
نوح أُرْسِل إلى قومِهِ وليس هناك أُمَمٌ مختلفةٌ ١٨٤
إن كانَ نوحٌ نَبِيًّا ولم يُرْسَلْ برسالةٍ، فكيف اتَّبَعَهُ أولادُه؟ ١٨٦
دَليلُ أهلِ العِلْمِ على أنَّ الرُّسُلَ السَّابقينَ لم يُرْسَلُوا إلى الجنِّ ١٨٧
هل يَعْنِي أنَّ الجنّ يَعْبُدُونَ بِشَرْعٍ؟ ١٨٧
المُرادَ بالرُّسُلِ ١٨٧
النَّبيُّ غيرُ الرَّسُولِ ١٨٨

مَن كذَّب أيَّ رَسُولٍ فهو منكِرٌ لله........................ ١٨٨
أنَّ التَّكذيبَ بالحقِّ من شخصٍ تكذيبٌ به من جميعِ الأشخاصِ.......... ١٨٩
أنَّ نوحًا أُرسلَ إلى جميعِ النَّاسِ في وقتِه.......................... ١٨٩
﴿أَلَا﴾: في الأَصْلِ تكونُ للعرضِ.................................. ١٩٠
إذا اتَّقـوا اللهَ وأطاعـوا رسـولَه، فقد حَقَّقُـوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ هذا رَسُولُ اللهِ.. ١٩٢
مَن طَلَبَ العِلْمَ الَّذي جاءتْ به الرُّسُلُ لِيَنَالَ به أمرًا منَ الدُّنيا، فليسَ طريقُه طريقَ الرُّسُلِ... ١٩٣
الفرقُ بينَ التَّأكيدِ والتأسيسِ...................................... ١٩٤
النَّذيرُ هو المُخْبِرُ بما يخوِّف...................................... ١٩٩
يَنْبَغي موالاةُ المُؤمِنينَ.. ١٩٩
التواضُعُ للمُؤمِنينَ.. ٢٠٠
إذا اجتمعَ شَرْطٌ وقَسَمٌ، فاحذِفْ جَوابَ المتأخِّر......................... ٢٠١
هل يَقصِدون أنَّهم يَرْجُمُونه بالحجارةِ أو بالقولِ؟......................... ٢٠٢
هل يُخْبِرُ نوحٌ اللهَ تَعالَى بالواقِعِ؟ أليس الله تَعالَى عالـمًا به؟................. ٢٠٤
هل كون الرَّسُولِ ﷺ دعا على المَلَأِ من قُريشٍ، يدلُّ هذا على جوازِ الدُّعاءِ؟...... ٢٠٦
هل هذا الفُلْك يَشْمَل الطائراتِ والسياراتِ.............................. ٢٠٩
هؤُلاءِ الَّذينَ نَجَوْا هل هُمُ الَّذينَ بَقُوا منْ أهلِ الأَرْضِ؟..................... ٢١١
إنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الأبُ الثَّاني للإِنْسانِ........................ ٢١١
أقسامُ العِزَّةِ الَّتي يَتَّصِفُ الله بها ثلاثةٌ................................ ٢١٣

الرَّحِيمُ ٢١٤
عادٌ همْ قومُ هُودٍ ٢١٦
الأَحْقَافِ ٢١٦
التَّقْوى ٢١٩
الطَّاعة ٢١٩
لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلُوا للسماءِ وأنتم عاجزونَ عن حلّ مشاكلكم في الأَرْضِ؟ ... ٢٢١
الحيوانات في زَمَنِ نُوحٍ ٢٢٢
جوازُ وصفِ الإِنْسانِ بالثناءِ على نفسِه للمصلحةِ ٢٢٢
يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يكونَ غَرَضه من عمله، لا سِيَّما العمل الجبَّار العظيم، أن يكونَ غَرَضُه غَرَضًا صَحِيحًا ٢٢٣
قَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَصَانِعَ﴾ لِلْماءِ تَحْت الْأَرْض ٢٢٥
الاسم الموصول وَصِلَته بمنزلةِ الاسمِ المشتَقّ ٢٢٧
التفصيلُ بعدَ الإجمالِ، أو البيان بعد الإبهامِ، له فوائدُ ٢٢٨
الداعِيَةَ يَنْبَغي له أن يذكِّر المدعوَّ بِنِعَمِ اللهِ عليه ٢٣٠
يَنْبَغي للداعيَةِ معَ القَرْن بذِكْر النِّعَم أن يَقْرِنَ الدعوةَ بالتخويفِ ٢٣٥
قد يَطْبَع على قلبِ العبدِ فلا يَستفيد بموعظةٍ ٢٣٥
لا حُجَّةَ للمُعانِدِ للرسُل سوى التمسُّك بما كَان عليه أسلافُهم ٢٣٦
النِّقْمَة إذا أَتَتْ والإِنْسان يَتَوَقَّع النعمةَ، فتكون أشدّ ٢٣٨
كنَّا إذا سمِعنا أنَّ الأَرْضَ زُلزلت في أُحُدٍ نَرْتَجِف ٢٣٨
الحِكمة في كونِ بعضِ الرُّسُلِ أو بعض الأُمَم تَكَرَّر ذِكرها في القُرآنِ كثيرًا،

وبعض الرُّسُل لم يأتِ له ذِكْرٌ قطُّ ٢٣٩
(مَدَائِن صالِح) ٢٤٠
اختلافُ القراءَتَيْنِ تكون فيه فائدةٌ ٢٤٤
لا تطيعوا المسرفينَ ٢٤٥
الطَّاعة نفسها إصلاحٌ بلا شَكّ ٢٤٦
كان ابنُ حَزْمٍ -رحِمه الله، وعَفَا عنه- شديدًا في المناقشةِ ٢٤٨
جاءَ في الإسرائيليَّاتِ مِن أنَّها خَرَجَتْ من صخرةٍ ٢٥٠
إن هذه الناقةَ ناقةٌ وُلدتْ من نُوق ٢٥١
كثيرٌ منَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أنْ يَصِفُوا المخلوقَ بـ(العظيم) ٢٥٢
كَان النَّاسُ يَتحاشَوْن أيضًا قَول (المُعَظَّم) ٢٥٢
العذابُ الَّذي أَخذَهُم ٢٥٣
علينا جميعًا أنْ نكونَ واثقينَ بوعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرَ ناظرينَ إلى الأسْبابِ الحاضرةِ... ٢٥٤
أحكام المُرْتَدّ ٢٥٥
هل كان قومُ صالحٍ كلّهم يَشربون من بِئرٍ واحدةٍ؟ ٢٥٥
لماذا منع الرَّسُولُ ﷺ منَ الشُّرب من مائهم حين مَرَّ بدِيارهم؟ ٢٥٥
هل شَدُّ الرَّحْل لِزيَارَةِ مساكنِ ثَمُودَ محرَّم؟ ٢٥٦
من فوائد ذِكر قومِ صالحٍ: ٢٥٧
عِظَم نِعمةِ الأمنِ ٢٥٧
النَّخيل من أطيبِ أنواعِ الفواكهِ ٢٥٧
قُوَّة قومِ صالحٍ ٢٥٧

كلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلون أوَّلًا بتحقيقِ التوحيدِ........................ ٢٦٠
(بَلْ) للإضرابِ ٢٦٢
يَجِبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُبْغِضَ الكافرين ٢٦٤
﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، لم تُشْعِرَاهُما بالكُفْرِ.............................. ٢٦٦
أنَّ قومَ لُوطٍ أُهلِكوا بهذه الحِجارةِ ٢٦٨
أنَّ المعانِدينَ لِلرُّسُل إنَّما يَلْجَئُون إلى قُوَّتِهِم وسُلْطَتِهِم ٢٦٨
لا غِنى لأحدٍ عن دعاءِ اللهِ ٢٦٨
أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْقِذ أهلَ الحقِّ من إهلاكِ الكافِرينَ............ ٢٦٩
أنّ القُربَ من الأنبياء والأولياءِ لا يُغْنِي الإِنْسانَ شيئًا ٢٦٩
عُقوبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَتَنَوَّع حَسَبَ العملِ ٢٧٠
أنَّ اللُّوطِيَّ يُقتَل ٢٧١
الأيكةُ... ٢٧٤
هل مَعْنى هذا أنَّ شُعيبًا أُرسِلَ مرّتينِ؟ ٢٧٥
القومُ الَّذينَ بُعث إليهم شُعيب ٢٧٧
هذه القَصَص عِبَرٌ.. ٢٨٢
في سُورةِ هُودٍ الكثيرُ مِن قصصِ الأنبياءِ ٢٨٤
يُستفاد من قِصَّة شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢٨٤
الربوبيَّة العامَّة ٢٨٦
قولُه تعالى: ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٢٨٦
مِن مُقتضَى أمانةِ جِبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٨٦

يَنْبَغي أن تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ ٢٨٧
عَبْد اللهِ بنِ سَلَامٍ وأصحابه ممَّن آمنوا ٢٨٩
المعانِدُ المُكابِر يَصْعُب عليه أنْ يَرجِع إلى الحقّ ٢٩١
كيفيَّة استعجالهم بالعذابِ ٢٩٣
ذُكر عنِ ابنِ حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القُضاة في مِصْر ٢٩٥
أنَّ الشرائعَ لا تُلْزَم إلَّا بعدَ العِلْم ٢٩٨
أنَّ القُرآنَ تَفِرُّ منه الشياطينُ ٣٠٢
أنَّ الإِنْسانَ كلَّما انقادَ للشيطانِ ابتعدَ عن فَهْم القُرآنِ ٣٠٢
الدُّعاءُ هنا يَشمَل دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العِبادَة. ٣٠٣
بنو هاشم وبنو المطَّلِب ٣٠٦
من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ ٣٠٨
التوكُّل ٣٠٩
كَانت الشياطينُ قبلَ بَعثةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَستمِع إلى شيْءٍ منَ السماءِ ٣١١
لا يَتَّبِعُ الشعرَ غالبًا إلا الغواةُ ٣١٢
الشعرُ المذمومُ ٣١٢
المُرادُ بالشعراءِ ٣١٣
الظلم مرتعٌ مبتغيه وخيم ٣١٥

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة الشعراء ٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ ١١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ ١٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ ٢٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ ٢٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ ... ٢٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ ٣٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ ٣٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ ٣٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ ٣٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ ٣٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾ ٤٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ٤٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ ٤٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ٤٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ٥٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ ٥٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ٥٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ٦٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ ٦١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ ٦٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ ٦٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ٦٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٧٢

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ٧٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ ٧٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ٧٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ٧٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٨٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ ٨٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ ٨٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟
هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ٩٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾ ٩٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٩٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٩٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٩٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ١٠٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ١٠٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ١٠٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾. ١١٣
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ ١١٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) ﴾ ١١٩
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) ﴾ ١٢٠
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) ﴾ ١٢٢
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) ﴾ ١٢٣
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾ ١٢٤
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) ﴾ ١٢٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) ﴾ ١٣٠
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ ١٣٢
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ ١٣٥
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦) ﴾ ١٤٤
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) ﴾ ١٤٦
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ ١٤٨
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) ﴾ ١٥٠

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ١٥٢

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ١٥٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ١٥٥

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ١٥٧

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ١٥٨

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ . ١٥٩

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ١٦٠

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ١٦٤

" قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ١٧٠

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ١٧٢

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ١٧٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾ ١٧٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)﴾ ١٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ ١٨١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ ١٨٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥)﴾ ١٩٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ .. ٢٠٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾ ٢٠٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ ٢١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ ٢٢٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾ ٢٢٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)﴾ ٢٣٠

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾ ٢٣٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)﴾ ٢٣٩

" قال الله عزّوجلّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ ٢٤١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)﴾ ٢٤٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)﴾ ٢٤٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ ٢٥٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ ٢٥٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ ٢٦٢

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ ٢٧٣

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ ٢٧٦

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ ٢٧٩

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾. ٢٨٤

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ ٢٨٨

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ ٢٩٣

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ ٢٩٦

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ ٣٠٠

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ ٣٠٢

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ ٣٠٤

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ ٣٠٧

" قال الله عزَّوجلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ ٣٠٩

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ ٣١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾...... ٣١٣

فهرس الأحاديث والآثار ٣١٥

فهرس الفوائد ٣١٧

فهرس آيات السورة ٣٣٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة النمل

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية